مؤلف رواية «شيفرة دافنتشي»

دان براون

الجحيم

INFERNO

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

الجحيم

INFERNO

رواية

تأليف

دان براون

Dan Brown

ترجمة

زينة إدريس

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الجحيم

INFERNO

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
Inferno
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من المؤلف
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى

1434 هـ - 2013 م

ردمك 978-614-01-0899-8

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http: //www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

أحلـك الأمـاكن فـي الجحـيم هـي لأولئـك الـذين يحافظون على حيادهم في الأزمات الأخلاقية.

جميع الأعمال الفنّية، والأدبية، والعلمية، والمراجع التاريخية المذكورة في هذه الرواية حقيقية.

"الكونسورتيوم" منظّمة خاصّة تملك مكاتب في سبع دول. وقد تمّ تغيير اسمها لاعتبارات الأمن والخصوصية.

الجحيم هو العالم السفلي كما وصفه دانتي أليغييري في ملحمته الكوميديا الإلهية، التي تصوّر الجحيم كعالَم منظّم بشكل متقن، تسكنه كيانات معروفة باسم "الظلال"، وهي أرواح بلا أجساد، عالقة بين الحياة والموت.

مقدّمة

أنا الظلّ.

عبر المدينة الكئيبة، أهرب.

عبر الويلات الأبدية، أطير.

على ضفتي نهر آرنو، أندفع لاهثاً... أنعطف يساراً إلى فيا داي كاستيلاّني، وأشقّ طريقي شمالاً؛ محتمياً بظلال معرض أوفيزي.

لكنّهم ما زالوا خلفي.

صدى خطاهم يعلو وهم يطاردونني بلا هوادة.

لاحقوني لسنوات. وإصرارهم أبقاني تحت الأرض... أجبرني على العيش في المطهر... أكدح مختبئاً مثل وحش قابع تحت الأرض.

أنا الظلّ.

هنا فوق الأرض، أنظر إلى الشمال، لكنّني أعجز عن إيجاد طريق مباشر إلى الخلاص... فجبال الأبينين تحجب أولى أشعّة الفجر.

أمرّ خلف القصر، ببرجه ذي الفُرجات وساعته ذات العقرب الواحد... أسير بين الباعة في الصباح الباكر في بياتزا دي سان فيريننتسي التي تصدح بأصواتهم الخشنة وتفوح فيها رائحة *اللامبريدوتو* والزيتون المشوي. مررت أمام متحف بارغيلّو، ثمّ اتّجهت غرباً نحو برج باديا، لأجد نفسي أمام البوّابة الحديدية عند أسفل الدّرج.

الآن، عليّ أن أترك كلّ التردّد خلفي.

أدرت المقبض، وخطوت في الممرّ الذي أعرف أنّه لا عودة لي منه. حثثت ساقيّ الثقيلتين على صعود الدّرج الضيّق... ثمّ رحت أصعد إلى الأعلى بشكل لولبي على درجات الرخام الملساء البالية.

تعالت الأصوات من الأسفل متوسّلة.

كانوا خلفي، لا يتراجعون، بل يزدادون قرباً.

لا يفهمون ما هو آتٍ... ولا ما فعلته من أجلهم!

أرض ناكرة للجميل!

بينما أنا أصعد، تراودني الرؤى بكثافة... الأجساد الفاسقة تتلوّى في مطر من نار، والأرواح الشرهة تعوم في القذارة، والأشرار الخونة مجمّدون في قبضة الشيطان الجليدية.

أرتقي الدرجات الأخيرة، وأصل إلى الأعلى وأنا أترنّح على شفير الموت في هواء الصباح الرطب. أندفع إلى جدار بطول قامتي، وأسترق النظر من خلال الشقوق. أرى في الأسفل المدينة المباركة التي جعلتُها ملجأً لي ممّن أبعدوني.

تنادي الأصوات وهي تقترب خلفي. "ما قمتَ به هو الجنون عينه!".

الجنون يولّد الجنون.

يصيحون: "حبًّا بالله، أخبرنا أين خبّأته!".

حبًّا بالله، لن أفعل.

أقف الآن محاصراً، وظهري مستند على الحجر البارد. يحدّقون في أعماق عينيّ الخضراوين الصافيتين، وتتجهّم تعابيرهم التي لم تعد تتملّقني، بل تتوعّد بالشرّ. "أنت تعرف أنّنا نملك أساليبنا الخاصّة. يمكننا إجبارك على إخبارنا بمكانه".

لهذا السبب، صعدت نصف الطريق إلى السماء.

من دون سابق إنذار، استدرت ومددت يديّ إلى الأعلى، ثمّ كوّرت أصابعي حول الحافّة العالية، ودفعت جسدي إلى الأعلى بركبتيّ، ووقفت... أترنّح على حافّة الهاوية. *أرشدني، يا فيرجيل الحبيب، عبر الفراغ.*

اندفَعوا إلى الأمام بذهول ليمسكوا بقدميّ، لكنّهم خافوا أن أفقد توازني وأسقط. أخذوا يتوسّلون إليّ الآن بيأس صامت، لكنّني كنت قد أدرت ظهري. *أعرف ما عليّ فعله.*

تحتي، على مسافة بعيدة جدًّا، انتشرت أسطح القرميد الأحمر مثل بحر من نار فوق الحقول، منيرة الأرض الجميلة التي عاش عليها العمالقة في ما مضى... جيوتو، دوناتيلو، برونيليسكي، مايكل أنجلو، بوتيتشيلّي.

دفعت أصابع قدميّ فوق الحافّة.

صرخوا: "انزل! لم يفت الأوان بعد!".

أيّها الجهلة العنيدون! ألا ترون المستقبل؟ ألا تدركون جمال ما فعلته وضرورته؟

سأقوم بكلّ سرور بهذه التضحية الأخيرة... ومعها سأقضي على آخر آمالكم بإيجاد ما تبحثون عنه.

لن تعثروا عليه أبداً في الوقت المناسب.

على بعد مئات الأقدام في الأسفل، أخذت الساحة المرصوفة بالحصى تتلألأ مثل واحة هادئة. كم أتوق إلى مزيد من الوقت... لكنّ الوقت هو السلعة الوحيدة التي لا يمكنني شراؤها؛ حتّى بثروتي الفاحشة.

في هذه الثواني الأخيرة، حدّقت إلى الساحة، ولمحت صورة أجفلتني.

رأيت وجهك.

كنت تحدّقين إليّ عبر الظلال، بعينين حزينتين، لكنني رأيت فيهما احتراماً لما حقّقته. أنت تفهمين أنّه ليس لديّ الخيار. حبًّا بالجنس البشري، عليّ حماية تحفتي.

أخذ وجهك يكبر الآن... منتظراً... يلمع تحت مياه البحيرة الحمراء بلون الدم، التي لا تعكس النجوم.

هكذا، أشحت بنظري عن عينيك وحدّقت إلى الأفق. فوق هذا العالم المثقل بالهموم، تضرّعت للمرّة الأخيرة.

إلهي الحبيب، أرجو أن يتذكّر العالم اسمي ليس كخاطئ، بل على *أنّني المنقذ الذي تعرف* حقيقته. *وأرجو أن يفهم البشر الهدية التي تركتها لهم.*

هديتي *هي المستقبل.*

هديتي *هي الخلاص.*

هديتي *هي الجحيم.*

ثمّ همست: آمين... وخطوت خطوتي الأخيرة، إلى الهاوية.

الفصل 1

تجسّدت الذكريات ببطء، مثل فقاعات تطفو على سطح بئر مظلمة بلا قرار.

امرأة ذات وشاح.

حدّق روبرت لانغدون إليها من الضفّة الأخرى لنهر تتدفّق مياهه المتموّجة ممزوجة بالدم. على الضفّة المقابلة، وقفت المرأة بمواجهته، بلا حراك، ووجهها الوقور مخبّأ بوشاح. أمسكت بيدها قطعة قماش *تينيا* زرقاء، ثمّ رفعتها تكريماً لبحر الجثث والأجساد الملقاة عند قدميها. كانت رائحة الموت تفوح في كلّ مكان.

همست المرأة: *من يبحث يجد.*

سمع لانغدون كلماتها وكأنّها نطقت بها داخل رأسه. ناداها: "من أنت؟". لكن، لم يصدر عنه أيّ صوت.

همست: *الوقت يمضي. من يبحث يجد.*

تقدّم لانغدون خطوة باتّجاه النهر، لكنّه رأى مياهه بلون الدم، وكانت عميقة جدًّا؛ حيث إنه يتعذّر عليه اجتيازها. عندما نظر مجدّداً إلى المرأة ذات الوشاح، كانت الجثث والأجساد عند قدميها قد تضاعفت. أصبحت الآن بالمئات، لا بل بالآلاف. بعضها ما زال حيًّا؛ يتلوّى وهو يُحتضر، ويموت بأشكال لا يمكن تصوّرها... يحترق بالنار، أو يُدفن في البراز، أو يلتهم بعضه بعضاً. كان بمقدوره سماع أصداء الصرخات الحزينة للبشر المعذّبين وهي تتردّد عبر المياه.

اقتربت منه المرأة، مادّة يديها النحيلتين، وكأنّها تطلب المساعدة. صرخ لانغدون مجدّداً: "من أنت؟!".

لم تجبه المرأة، بل مدّت يدها ونزعت الوشاح ببطء عن وجهها. كانت رائعة الجمال، لكنّها أكبر سنًّا ممّا تخيّل؛ ربّما في العقد السادس من عمرها، جليلة وقويّة، مثل تمثال. كان لديها فكّ صارم وقويّ، وعينان عميقتان وحنونان، وشعر أجعد طويل فضّي اللون؛ يتموّج على كتفيها. تدلّت من عنقها تميمة من اللازورد على شكل ثعبان ملتفّ حول صولجان. شعر لانغدون أنّه يعرفها... ويثق بها. *لكن كيف؟ ولماذا؟*

أشارت إلى ساقين بارزتين من الأرض تتلوّيان في الهواء. كانتا تنتميان على ما يبدو إلى روح مسكينة دُفنت رأساً على عقب حتّى وسطها. رأى على فخذ الرجل حرفاً واحداً مكتوباً بالوحل: R.

فكّر لانغدون: *R؟ أي... روبرت؟* "أهذا... *أنا؟*".

لم يكشف له وجه المرأة شيئاً. كرّرت هامسة: *من يبحث يجد.*

فجأة، بدأ يشعّ منها ضوء أبيض... ويزداد إشراقاً. ثمّ أخذ جسدها بأكمله يهتزّ بشدّة، قبل أن يصدر صوت صاخب كالرعد، وتنفجر متحوّلة إلى آلاف الشظايا المنيرة.

استيقظ لانغدون وهو يصرخ.

وجد نفسه بمفرده في غرفة مغمورة بالضوء. كان الهواء عابقاً برائحة الكحول الطبّيّة الحادّة، فيما تناهى إليه صوت آلة يرافق إيقاع قلبه. حاول تحريك ذراعه اليمنى، لكنّ ألماً حادًّا منعه من ذلك. نظر إليها ورأى إبرة مصل معلّقة بساعده.

تسارع نبضه، فزادت الآلات من سرعتها، وراح طنينها يتسارع هو أيضاً.

أين أنا؟ ماذا حدث؟

شعر لانغدون بألم حادّ في رأسه، فمدّ يده الأخرى بحذر، ولمس فروة رأسه، محاولاً تحديد موقع الألم. تحت شعره الأجعد، عثر على الخيوط الصلبة لعشر قطب تقريباً مكسوّة بالدم الجافّ.

أغمض عينيه محاولاً تذكّر حادثة تعرّض لها.

لا شيء. مجرّد فراغ تامّ.

فكّر.

ظلام وحسب.

اندفع رجل بملابس طبّيّة إلى الغرفة، وقد أثار قلقه على ما يبدو الصوت المتسارع الصادر عن آلة مراقبة القلب. كان يمتاز بلحية مشعّثة، وشارب كثّ، وعينين لطيفتين يطغى عليهما الهدوء، تحت حاجبيه العريضين.

قال لانغدون: "ماذا... جرى؟ هل تعرّضت لحادث؟".

وضع الرجل الملتحي إصبعه على شفتيه، ثمّ اندفع إلى الخارج، ونادى أحدهم.

التفت لانغدون، لكنّ تلك الحركة سبّبت له ألماً حادًّا في جمجمته. أخذ أنفاساً عميقة، وترك الألم يمضي. بعد ذلك، راح يعاين محيطه بتأنٍّ ومنهجية.

كانت غرفة المستشفى تحتوي على سرير واحد. لا أزهار، ولا بطاقات. رأى لانغدون ملابسه على طاولة قريبة، مطويّة وموضوعة داخل كيس شفّاف. وكانت مغطّاة بالدماء.

يا إلهي. لا بدّ أنّه كان حادثاً مروّعاً.

التفت ببطء شديد إلى النافذة القريبة من سريره. كان الظلام مخيّماً في الخارج، ما يعني أنّه الليل. لم يستطع لانغدون أن يرى سوى انعكاس صورته على الزجاج؛ كان يبدو غريباً وشاحباً ومنهكاً، وموصولاً بالأنابيب والأسلاك، ومحاطاً بالمعدّات الطبّيّة.

سمع أصواتاً في الممرّ، فحوّل نظره إلى داخل الغرفة مجدّداً. عاد الطبيب برفقة امرأة هذه المرّة.

بدت المرأة في أوائل العقد الثالث من عمرها. كانت ترتدي ملابس طبّية زرقاء، وقد عقدت شعرها الأشقر الكثيف على شكل ذيل حصان، فراح يتأرجح خلفها وهي تمشي.

ابتسمت في وجه لانغدون وهي تدخل، وقالت: "أنا د. سيينّا بروكس. سأعمل مع د. ماركوني الليلة".

هزّ لانغدون رأسه بضعف.

تنقّلت د. بروكس بقامتها الطويلة والرشيقة بمشية رياضي واثق. بدت امرأة أنيقة؛ حتّى بملابسها الطبّية. وعلى الرغم من غياب أيّ أثر لمساحيق التجميل عن وجهها، لاحظ لانغدون أنّ بشرتها تبدو ناعمة على نحو غير عادي، ولا تشوبها شائبة؛ سوى شامة صغيرة فوق شفتيها. نظر عينيها البنّيتين بدا خارقاً على نحو غير اعتيادي، وكأنّه ينمّ عن عمق تجربة نادراً ما يكتسبها شخص في مثل سنّها.

قالت وهي تجلس بجانبه: "لا يتقن د. ماركوني الإنكليزية، لذلك طلب منّي أن أملأ استمارة دخولك". ابتسمت له مجدّداً.

أجاب لانغدون بصوت خشن: "شكراً".

"حسناً". بدأت تطرح عليه أسئلتها بنبرة عمليّة: "ما اسمك؟".

فكّر للحظة، ثمّ أجاب: "روبرت... لانغدون".

وجّهت مصباحاً صغيراً إلى عينيه وتابعت تسأل. "ما مهنتك؟".

عادت إليه هذه المعلومة ببطء أكبر. "بروفيسور. تاريخ الفنّ... والرموز. جامعة هارفرد".

خفّضت د. بروكس الضوء، وبدت عليها الدهشة، كما فوجئ الطبيب ذو الحاجبين الكثّين.

"هل أنت... أميركي؟".

نظر إليها لانغدون بارتباك.

تردّدت ثمّ قالت: "في الواقع... لم تكن تملك بطاقة هوية عندما وصلتَ الليلة. كنت ترتدي سترة من ماركة هاريس تويد، وتنتعل حذاء سوميرست، لذلك اعتقدنا أنك بريطاني".

أكّد لها لانغدون قائلاً: "أنا أميركي". لكنّه كان مرهقاً جدًّا ليشرح لها أنّه يفضّل الملابس التي تمتاز بجودة الخياطة.

"هل تشعر بأيّ ألم؟".

أجاب لانغدون: "رأسي"، وكان ألم رأسه قد تفاقم بسبب ضوء المصباح. لحسن الحظّ، وضعته الطبيبة في جيبها قبل أن تمسك بيد لانغدون وتتحقّق من نبضه.

قالت: "استيقظت وأنت تصرخ، هل تذكر لماذا؟".

تذكّر لانغدون مجدّداً الحلم الغريب وتلك المرأة المحاطة بالجثث. من يبحث يجد. "رأيت كابوساً".

"ماذا كان؟".

روى لها لانغدون الحلم.

لم يظهر أيّ تعبير على وجه د. بروكس، بل اكتفت بتدوين ملاحظات على ورقة. "هل لديك أيّ فكرة عن سبب هذا الكابوس المخيف؟".

فكّر لانغدون، ثمّ هزّ رأسه نافياً فعاوده الشعور بالألم مجدّداً.

قالت وهي تكتب: "حسناً، سيّد لانغدون. أودّ أن أطرح عليك عدداً من الأسئلة الروتينية. أيّ يوم من أيّام الأسبوع هو اليوم؟".

فكّر لانغدون للحظة ثمّ أجاب: "إنّه يوم السبت. أذكر أنّني كنت أسير اليوم في حرم الجامعة... متوجّهاً لإلقاء سلسلة من المحاضرات بعض الظهيرة ثمّ... هذا آخر ما أذكره. هل سقطت؟".

"سنتحدّث عن ذلك لاحقاً. هل تعرف أين أنت؟".

حاول لانغدون أن يخمّن. "هل أنا في مستشفى ماساتشوستس العامّ؟".

دوّنت د. بروكس ملاحظة أخرى. "هل ثمّة من علينا الاتّصال به؟ زوجة؟ أولاد؟".

أجاب لانغدون تلقائياً: "لا أحد". لطالما استمتع بالوحدة والاستقلالية اللتين توفّرهما له حياة العزوبية التي اختارها، مع أنّه يقرّ الآن أنّه يفضّل وجود وجه مألوف إلى جانبه في هذا الظرف. "لديّ بعض الزملاء الذين يمكنني الاتّصال بهم، لكنّني بخير".

أنهت د. بروكس الكتابة، ثمّ اقترب الطبيب الأكبر سنًّا. سوّى حاجبيه المشعّثَين، وأخرج من جيبه آلة تسجيل صوتي صغيرة، ثمّ عرضها على د. بروكس. فأومأت له والتفتت مجدّداً إلى مريضها.

"سيّد لانغدون، عندما وصلت الليلة، كنت تتمتم بكلام ما مراراً وتكراراً". ثمّ التفتت إلى د. مالكوني، الذي حمل آلة التسجيل وضغط على أحد الأزرار.

بدأ الشريط يتحرّك، وسمع لانغدون صوته المرتجف، وهو يتمتم تكراراً بالجملة نفسها: "*Ve... sorry. Ve... sorry*".

قالت المرأة: "يبدو لي وكأنّك تقول: آسف جدًّا. آسف جدًّا".

وافقها لانغدون، إلاّ أنّه لم يتذكّر.

رمقته د. بروكس بنظرة حادّة. "هل لديك أيّ فكرة عن سبب قولك ذلك؟ هل كنت تتأسّف على شيء معيّن؟".

بحث لانغدون في ظلام ذاكرته، ولم يرَ سوى المرأة ذات الوشاح. كانت تقف على ضفّة نهر أحمر بلون الدم محاطة بالجثث والأجساد التي تلفظ أنفاسها الأخيرة. عادت إليه رائحة الموت، وداهمه إحساس مفاجئ بالخطر... ليس عليه فحسب... بل على جميع الناس. تسارع طنين الآلات، فتصلّبت عضلاته، وحاول الجلوس.

وضعت د. بروكس يداً حازمة على صدره، وأجبرته على الاستلقاء مجدّداً. ثمّ ألقت نظرة على الطبيب الملتحي الذي توجّه إلى طاولة مجاورة، وبدأ يحضّر شيئاً.

انحنت د. بروكس فوق لانغدون وهمست قائلة: "سيّد لانغدون، القلق حالة شائعة مع إصابات الدماغ، لكن عليك أن تبقي نبض قلبك بطيئاً. لا تتحرّك، ولا تعرّض نفسك لأيّ إثارة، بل تمدّد واسترح. ستكون بخير، وستسترجع ذاكرتك ببطء".

عاد الطبيب الآن حاملاً حقنة، أعطاها لبروكس التي ضخّت محتوياتها في أنبوب المصل الموصول بذراع لانغدون.

شرحت له قائلة: "هذا مجرّد مهدّئ خفيف لتهدئة أعصابك ومساعدتك على تحمّل الألم". ثمّ وقفت لتخرج مضيفة: "ستكون بخير، سيّد لانغدون. خذ قسطاً من النوم. وإن احتجت إلى أيّ شيء، فاضغط على الزر المجاور لسريرك".

أطفأت المصباح، ثمّ خرجت مع الطبيب الملتحي.

في الظلام، شعر لانغدون بالدواء المخدّر يسري في جسده على الفور تقريباً، ويعيده إلى تلك البئر العميقة التي خرج منها. قاوم هذا الإحساس، وحاول أن يجبر عينيه على البقاء مفتوحتين في ظلام غرفته. حاول الجلوس، لكنّه شعر أنّ جسده ثقيل كالإسمنت.

بينما كان لانغدون يتقلّب، وجد نفسه مجدّداً في مواجهة النافذة. بعدما انطفأ مصباح الغرفة، اختفى انعكاس صورته عن الزجاج الداكن، لتحلّ مكانه سماء مرصّعة بالنجوم في البعيد.

وسط محيط من الأبراج والقبب، هيمنت واجهة ملكية واحدة على حقل لانغدون البصري. كان المبنى عبارة عن قلعة حجرية مهيبة، مع سور مثلّم وبرج يعلو ثلاثمائة قدم، ثمّ ينتفخ عند قمّته، ويبرز إلى الخارج على شكل شرفة ضخمة ذات فرجات.

هبّ لانغدون جالساً على سريره، فيما غزت الأوجاع رأسه. قاوم الألم المبرح وثبّت نظره على البرج.

كان لانغدون يعرف جيّداً هذا البناء العائد إلى القرون الوسطى.

إنّه فريد من نوعه في العالم.

مع الأسف، كان يقع أيضاً على بعد أربعة آلاف ميل من ماساتشوستس.

خارج النافذة، وخلف ظلال فيا تورّيغالّي، ترجّلت امرأة قوية البنية عن درّاجتها النارية من طراز بي إم دبليو من دون أيّ مجهود، وتقدّمت بخطى سريعة مثل نمر يطارد فريسته. كانت نظراتها حادّة. برز شعرها القصير بتسريحة السبايكي من ياقة سترتها الجلدية السوداء المقلوبة

إلى الأعلى. تحقّقت من سلاحها المزوّد بكاتم للصوت، وحدّقت إلى نافذة غرفة لانغدون التي انطفأت أنوارها للتوّ.

في وقت سابق من هذه الليلة، مُنيت مهمّتها الأصلية بفشل ذريع.

هديل حمامة واحدة غيّر كلّ شيء.

والآن عليها تصحيح الخطأ.

الفصل 2

أنا في فلورنسا!؟

راح رأس روبرت لانغدون ينبض ألماً. جلس على سريره في المستشفى، وراح يضغط تكراراً على زرّ الاتصال. وعلى الرغم من المهدّئات التي دخلت جسده، إلاّ أنّ قلبه كان ينبض بعنف.

أسرعت د. بروكس عائدة، وشعرها يتمايل على ظهرها. "هل أنت بخير؟".

هزّ لانغدون رأسه بحيرة. "هل أنا في... إيطاليا!؟".

قالت: "هذا جيّد، أنت تتذكّر".

"كلاّ!". وأشار عبر النافذة إلى المبنى الضخم البعيد. "بل عرفت قصر فيكيو".

أضاءت د. بروكس المصباح مجدّداً، فاختفت سماء فلورنسا. اقتربت من سريره، وهمست بصوت منخفض: "سيّد لانغدون، لا داعي للقلق. أنت تعاني من فقدان طفيف للذاكرة، لكنّ د. ماركوني أكّد أنّ دماغك بحالة جيّدة".

دخل الطبيب الملتحي مسرعاً هو الآخر؛ على الأرجح بعدما سمع الرنين. تحقّق من آلة مراقبة القلب، في حين تحدّثت معه الطبيبة الشابّة بلغة إيطالية سريعة، وذكرت شيئاً عن أنّ لانغدون كان *أجيتاتو*" عندما علم أنّه في إيطاليا.

فكّر لانغدون غاضباً: *اهتاجت أعصابي؟ بالأحرى ذُهلت!* راح الأدرينالين الذي غزا جسده يتصارع مع المهدّئات. سألها: "ماذا جرى لي؟ في أيّ يوم نحن؟!".

قالت: "كلّ شيء على ما يرام. نحن في صباح يوم الاثنين، الثامن عشر من مارس".

الاثنين! أجبر لانغدون عقله على استعادة الصور الأخيرة التي استطاع تذكّرها؛ كان يمشي وحده في حرم جامعة هارفرد، في البرد والظلام، لإلقاء سلسلة من المحاضرات مساء يوم السبت. *هل كان ذلك قبل يومين؟!* تملّكه ذعر أكبر الآن عندما حاول أن يتذكّر أيّ شيء عن المحاضرة أو ما بعدها. *لا شيء*. عندئذ تسارع طنين الآلات.

مرّر الطبيب يده على لحيته وواصل تعديل الآلات، في حين جلست د. بروكس بالقرب من لانغدون مجدّداً.

طمأنته بصوت لطيف: "ستكون بخير. لقد بيّن التشخيص أنّك مصاب بفقدان انتكاسي للذاكرة، وهو أمر شائع جدًّا مع صدمات الرأس. قد تكون ذكريات الأيّام القليلة الماضية مشوّشة أو مفقودة، لكنّك لن تعاني من أيّ ضرر دائم". توقّفت قليلاً ثمّ تابعت: "هل تذكر اسمي الأوّل؟ ذكرته عندما دخلت".

فكّر لانغدون للحظة ثمّ أجاب: "سيينّا. د. *سيينّا بروكس*".

ابتسمت. "أرأيت؟ بدأت بالفعل تكوّن بعض الذكريات".

كان الألم الذي استبدّ برأس لانغدون يكاد لا يطاق، وبصره على المدى القريب ظلّ ضبابياً. "ماذا... حدث؟ كيف وصلت إلى هنا؟".

"أعتقد أنّه عليك أن تستريح، وربّما -".

سألها وقد بدأ طنين الآلات يتسارع مجدّداً: "كيف وصلت إلى هنا؟!".

أجابت د. بروكس، بعد أن تبادلت نظرة عصبية مع زميلها: "حسناً، لا تضطرب، سأخبرك". أصبح صوتها أكثر جدّية. "سيّد لانغدون، منذ ثلاث ساعات، دخلت غرفة الطوارئ عندنا مترنّحاً، وكان رأسك ينزف، ثمّ سقطت أرضاً على الفور. لا يعرف أحد من أنت، ولا كيف وصلت إلى هنا. كنت تتمتم بالإنكليزية، فطلب منّي د. ماركوني المساعدة. أنا هنا في إجازة، وقد أتيت من بريطانيا".

شعر لانغدون وكأنّه قد استيقظ في لوحة لماكس إرنست. *ما الذي أفعله في إيطاليا؟* عادة، يأتي لانغدون إلى هنا أحياناً في شهر يونيو لإلقاء محاضرة عن الفنون، لكنّهم الآن في شهر مارس.

بدأ مفعول المهدّئات يزداد قوّة، وشعر وكأنّ جاذبية الأرض تتضاعف في كلّ ثانية تمرّ، وتحاول جرّه إلى باطن الأرض عبر فراشه. قاوم، وحاول رفع رأسه والبقاء مستيقظاً.

انحنت د. بروكس فوقه مثل الملاك، وهمست: "أرجوك سيّد لانغدون، صدمات الرأس إصابات حسّاسة في الساعات الأربع والعشرين الأولى. عليك أن ترتاح، وإلاّ تسبّبت لنفسك بضرر بالغ".

فجأة، تعالى صوت من هاتف الغرفة الداخلي. *"د. ماركوني؟"*.

لمس الطبيب الملتحي زرًّا على الجدار وأجاب: *"سي؟"*.

تحدّث الصوت بلغة إيطالية سريعة. لم يفهم لانغدون ما قيل، لكنّه رأى الطبيبين يتبادلان نظرة استغراب. *أم إنّه الخوف؟*

أجاب ماركوني منهياً المحادثة: "مومينتو".

سأل لانغدون: "ماذا يجري؟".

ضاقت عينا د. بروكس بعض الشيء. "هذا موظّف الاستقبال في وحدة العناية المركّزة. ثمّة شخص يرغب في زيارتك".

رأى لانغدون في ذلك بصيصاً من الأمل. "هذا خبر سارّ! ربّما كان هذا الشخص يعرف ما جرى لي".

بدت غير واثقة. "لكنّ هذا غريب. فنحن لم نكن نعرف اسمك، حتّى إنّك لست مسجّلاً بعد في نظام المستشفى".

قاوم لانغدون المسكّنات، ورفع نفسه على نحو أخرق للجلوس على سريره. "إن كان ثمّة شخص ما هنا، فلا بدّ أنّه يعرف ما حدث".

نظرت د. بروكس إلى د. ماركوني الذي هزّ رأسه على الفور وأشار إلى ساعته. فالتفتت إلى لانغدون، وشرحت قائلة: "هذه وحدة العناية المركّزة. لا يُسمح لأحد بالدخول قبل الساعة التاسعة صباحاً على الأقلّ. سيخرج د. ماركوني ليرى من الزائر وماذا يريد".

سألها لانغدون: "وماذا عمّا أريده *أنا*؟".

ابتسمت د. بروكس بصبر، وأخفضت صوتها، ثمّ انحنت أكثر وقالت: "سيّد لانغدون، ثمّة بعض الأمور التي تجهلها عن الليلة الماضية... وعمّا حدث لك. قبل أن تتحدّث مع أيّ كان، من الإنصاف أن تعرف جميع الوقائع. لكن للأسف، لا أظنّ أنّك قويّ بما فيه الكفاية بعد -".

سألها لانغدون وهو يكافح لدفع نفسه إلى الجلوس: "أيّ وقائع!؟". وخزته إبرة المصل في ذراعه، وشعر وكأنّ جسده يزن عدّة مئات من الباوندات. "كلّ ما أعرفه هو أنّني في مستشفى في فلورنسا، وأنّني وصلت وأنا أكرّر عبارة *آسف جدًّا*...".

خطرت له الآن فكرة مخيفة.

سألها: "هل كنت مسؤولاً عن حادث سيّارة؟ هل آذيت أحداً؟".

أجابت: "كلاّ، كلاّ، لا أظنّ ذلك".

ألحّ عليها لانغدون وهو يرمق الطبيبين بغضب: "*ماذا* إذاً؟ لديّ الحقّ بمعرفة ما يجري!".

مرّت فترة صمت طويلة. أخيراً، أعطى د. ماركوني زميلته الشابّة الجميلة الإذن بإيماءة من رأسه. تنهّدت د. بروكس واقتربت من سريره أكثر. "حسناً، سأخبرك بما أعرفه... وستصغي إليّ بهدوء، اتّفقنا؟".

هزّ لانغدون رأسه، وسبّبت له تلك الحركة ألماً في جمجمته بأكملها. تجاهل الألم، وانتظر سماع الإجابة.

"أوّلاً... إصابة رأسك ليست ناجمة عن حادث".

"حسناً، هذا جيّد".

"كلاّ، ليس بالضبط. فإصابتك في الواقع نتيجة عيار ناري".

تسارع نبض لانغدون. "أستميحك عذراً!؟".

تكلّمت د. بروكس بشكل مضطرد ولكن بسرعة. "مرّت رصاصة على سطح رأسك، وسبّبت لك على الأرجح ارتجاجاً. أنت محظوظ لأنك ما زلت على قيد الحياة. لو أنّها كانت أقلّ انخفاضاً بإنش واحد..." وهزّت رأسها متأسّفة.

حدّق إليها لانغدون غير مصدّق. *أحدهم أطلق عليّ النار؟*

تعالت أصوات غاضبة في الممرّ إثر جدال اندلع في الخارج. يبدو أنّ من أتى لزيارة لانغدون يرفض الانتظار. سمع لانغدون على الفور باباً ثقيلاً في آخر البهو ينفتح فجأة. ثمّ ما لبث أن رأى شخصاً يسير في الرواق.

كانت المرأة ترتدي زيًّا كاملاً من الجلد الأسود. كان جسدها مرناً وقوياً، وشعرها الأسود مسرّحاً على شكل سبايكي. تقدّمت من دون مجهود، وكأنّ قدميها لا تلامسان الأرض، واتّجهت مباشرة إلى غرفة لانغدون.

من دون تردّد، وقف د. ماركوني عند الباب لمنع الزائرة من المرور. رفع يده كما يفعل الشرطي، وأمرها قائلاً: "*فيرما!*".

لم تتوقّف الغريبة خطوة واحدة، بل أخرجت مسدّسها الكاتم للصوت، ووجّهته مباشرة إلى صدر د. ماركوني، وأطلقت النار.

لم يُسمع أي صوت سوى هسهسة مكتومة.

شاهد لانغدون مرعوباً كيف ترنّح د. ماركوني نحو الخلف، وانهار على أرض الغرفة، ممسكاً بصدره، وقد تلوّث معطفه الأبيض بالدماء.

الفصل 3

على بعد خمسة أميال من الساحل الإيطالي، أبحر يخت فخم بطول 237 قدماً يدعى *ميندا/سيوم* عبر الضباب الذي خيّم قبيل الفجر فوق أمواج البحر الأدرياتيكي. كان اليخت ذو الهيكل الشبحي مطليًّا باللون الرمادي المعدني الذي أضفى عليه هالة سفينة عسكرية.

كان اليخت الذي يتجاوز ثمنه 300 مليون دولار أميركي يحتوي على وسائل الراحة المعتادة كافّة؛ منتجع، حوض سباحة، قاعة سينما، غوّاصة شخصية، ومنصّة طائرة مروحية. غير أنّ تلك التسهيلات لم تكن ذات أهمّية بالنسبة إلى مالكها الذي استلم اليخت قبل خمس سنوات، وأزال على الفور كلّ وسائل الترفيه تلك، ليقيم عوضاً عنها مركز قيادة إلكترونيًّا عسكريًّا مصفّحاً.

كانت غرفة التحكّم التي تتغذّى بثلاثة روابط خاصّة بالأقمار الاصطناعية، ومجموعة إضافية من محطّات التقوية الأرضية تضمّ مجموعة من حوالى خمسة وعشرين تقنياً، ومحلّلاً، ومنسّق عمليّات؛ يعيشون على متنها، ويبقون على اتّصال مستمرّ مع مختلف مراكز العمليّات الأرضية التابعة للمنظّمة.

تضمّن جهاز أمن اليخت وحدة صغيرة من الجنود الخاضعين لتدريب عسكري، ونظامين لكشف الصواريخ، وترسانة من أحدث الأسلحة المتوفّرة. ومع بقيّة العاملين على متنه – من طبّاخين، وعمّال نظافة وخدمة – يرتفع عدد طاقمه الإجمالي إلى أكثر من أربعين شخصاً. كان *ميندا/سيوم*، في الواقع، مبنى المكاتب المتنقّل الذي يدير مالكه إمبراطوريته من على متنه.

عرف بين موظّفيه بلقب "العميد" وحسب. وكان رجلاً ممتلئاً، قصير القامة، ذا بشرة سمراء وعينين غائرتين. وكان مظهره غير المهيب وأسلوبه المباشر مناسبين لشخص جنى ثروة كبيرة من خلال تقديم مجموعة خاصّة من الخدمات السرّية على هوامش المجتمع المظلمة.

أُطلقت عليه ألقاب كثيرة: مرتزِق بلا رحمة، أداة الخطيئة، عميل الشيطان، لكنّه لم يكن أيًّا من ذلك. كان العميد ببساطة يقدّم لزبائنه فرصة لتحقيق طموحاتهم ورغباتهم من دون عواقب. أمّا كون الجنس البشري خطّاءً بطبيعته، فهذه ليست مشكلته.

على الرغم من المناوئين له واعتراضاتهم الأخلاقية، كانت مبادئ العميد ثابتة. فقد بنى سمعته، والكونسورتيوم نفسه، على قاعدتين ذهبيتين.

لا تقطع أبداً وعداً لا تستطيع الوفاء به.

ولا تكذب أبداً على العميل.

بتاتاً.

لم يسبق للعميد في حياته المهنية أن حنث بوعد أو تراجع عن تنفيذ اتّفاق مطلقاً. كانت كلمته ثابتة، لا بل ضمانة حقيقية. ومع أنّه عقد صفقات ندم عليها لاحقاً، إلاّ أنّ التراجع عنها لم يكن مطروحاً على الإطلاق.

هذا الصباح، عندما خرج العميد إلى شرفة حجرته الخاصّة، تأمّل البحر وحاول تهدئة الاضطراب الذي ينهش أحشاءه.

قرارات الأمس تحدّد مستقبلنا.

القرارات التي اتّخذها العميد في الماضي جعلته يدخل أيّ حقل ألغام تقريباً ويخرج منه سالماً. لكنه اليوم، وهو يتأمّل من النافذة أضواء البرّ الإيطالي في البعيد، شعر بالانفعال على نحو غير معهود.

منذ عام خلا، وعلى متن هذا اليخت بالذات، اتّخذ قراراً بدأت مضاعفاته الآن تهدّد بتدمير كلّ ما بناه. *لقد وافقت على تقديم خدمات للرجل غير المناسب.* لم يكن ممكناً بالنسبة للعميد أن يدرك هذا الأمر في ذلك الوقت. إلاّ أنّ خطأه طرح أمامه اليوم تحدّيات غير متوقّعة، وأجبره على إرسال بعض من أفضل عملائه إلى الميدان، مع أوامر تفيد بمنع سفينته المترنّحة من الغرق "مهما كان الثمن".

في تلك اللحظة، كان ينتظر سماع خبر من عميل ميداني معيّن.

فكّر بفايينثا وهو يتخيّل الأخصّائية القوية بتسريحة سبايكي التي تميّزها. فايينثا التي خدمته بشكل ممتاز حتّى هذه المهمّة، ارتكبت خطأً في الليلة الماضية كانت له عواقب وخيمة. كانت الساعات الستّ الماضية عبارة عن فوضى، ومحاولة يائسة لاستعادة السيطرة على الوضع.

زعمت فايينثا أنّ خطأها نتج عن سوء الحظّ؛ هديل حمامة غير متوقّع.

غير أنّ العميد لا يعتقد بالحظّ. كلّ أفعاله كانت منسّقة لتجنّب العشوائية واستبعاد عامل الحظّ. فالقدرة على التحكّم هي مجال اختصاصه؛ يجب توقّع كلّ الاحتمالات، واستباق كلّ ردود الفعل، وصياغة الوضع بحسب النتيجة المرغوبة. كان لديه سجلّ نظيف من النجاح والسرّية، وبفضله امتلك مجموعة مذهلة من الزبائن؛ مليارديرات، رجال سياسة، مشايخ، وحتّى حكومات بأكملها.

من جهة الشرق، بدأت خيوط الصباح الأولى تطفئ النجوم المنخفضة في الأفق. وقف العميد على سطح اليخت، وانتظر بصبر خبراً من فايينثا يفيد أنّ مهمّتها قد نُفّذت على أكمل وجه.

الفصل 4

للحظة، شعر لانغدون أنّ الزمن قد توقّف.

تمدّد د. ماركوني على الأرض بلا حراك، والدم يسيل من صدره. قاوم لانغدون المهدّئات التي تجري في دمه، ونظر إلى القاتلة بشعرها المسماري، التي ما زالت تتقدّم بخطىً كبيرة عبر الرواق، لتقطع الأمتار الأخيرة التي تفصلها عن باب غرفته المفتوح. عندما اقتربت من عتبة الباب، نظرت إلى لانغدون ورفعت مسدّسها باتّجاهه... مستهدفة رأسه.

أنا ميت بلا ريب.

كان الصوت الذي دوّى في غرفة المستشفى الصغيرة يصمّ الآذان.

انهار لانغدون على وسادته، واثقاً أنّه أصيب، لكنّ الصوت لم يكن صادراً عن مسدّس المهاجِمة. في الواقع، صدرت تلك الضوضاء عن انغلاق باب الغرفة المعدني الثقيل بعنف بعدما رمت د. بروكس نفسها عليه وأقفلته.

هُرعت د. بروكس على الفور بنظرات مذعورة وانحنت قرب زميلها النازف، محاولة إيجاد نبضه. سعل د. ماركوني، فتدفّقت الدماء من فمه وسالت على خدّه ولحيته الكثيفة، ثمّ فارق الحياة.

صاحت: "*إنريكو، نو! تي بريغو!*".

في الخارج، انصبّ وابل من الرصاص على الباب المعدني، وملأت صيحات الذعر القاعة.

بطريقة ما، عادت الحركة إلى جسد لانغدون. فقد تغلّب خوفه وحدسه على المهدّئات. وحين حاول النزول من السرير على نحو أخرق، شعر بألم حارق في ساعده الأيمن. ظنّ للحظة أنّ رصاصة قد اخترقت الباب وأصابته، لكن عندما نظر إلى ساعده، أدرك أنّ إبرة المصل ما زالت فيه. كان الأنبوب البلاستيكي مغروزاً في ساعده، والدم الحارّ بدأ بالفعل يتدفّق منه.

استيقظ لانغدون تماماً الآن.

كانت د. بروكس لا تزال منحنية فوق جثّة ماركوني وهي تبحث عن نبض، والدموع تتجمّع في عينيها. فجأة، وكأنّ زرًّا قد ضُغط في داخلها، وقفت ونظرت إلى لانغدون، وتغيّرت تعابيرها أمام عينيه، وتصلّبت ملامحها الشابّة لترتدي قناع طبيبة الطوارئ المتمرّسة التي تتقن التعامل مع الأزمات.

أمرته قائلة: "اتبعني".

أمسكت بذراعه وجذبته عبر الغرفة. كانت أصوات الرصاص والفوضى ما زالت تتردّد في الردهة، بينما حاول لانغدون التقدّم بخطى مترنحة. شعر أنّ عقله متنبّه لكنّ جسده المخدّر تجاوب ببطء. *تحرّك!* كانت الأرض باردة تحت قدميه، ولم يكن رداء المستشفى الرقيق كافياً لتغطية قامته بطوله البالغ ستّ أقدام. شعر بالدم يسيل على ساعده ويتجمّع في كفّه.

تواصل انهمار الرصاص على مقبض الباب الثقيل، في حين دفعت د. بروكس لانغدون بقوّة إلى الحمّام الصغير. كانت على وشك أن تتبعه عندما توقّفت، ثمّ استدارت واندفعت إلى الطاولة لإحضار سترته الملوّثة بالدماء.

دعي سترتي اللعينة!

عادت حاملة سترته، وأقفلت باب الحمّام بسرعة. في تلك اللحظة بالضبط، فُتح باب الغرفة.

أمسكت الطبيبة الشابّة بزمام الأمور. فاجتازت الحمّام الصغير متوجّهة إلى باب ثان، وفتحته، ثمّ أدخلت لانغدون إلى غرفة إنعاش مجاورة. تردّدت أصوات الرصاص في الخلف، بينما أطلّت د. بروكس برأسها إلى الممرّ، وأمسكت بسرعة بذراع لانغدون، وسحبته عبر الرواق باتّجاه أحد السلالم. سبّبت الحركة المفاجئة بعض الدوار للانغدون الذي شعر أنّه سيُغمى عليه في أيّ لحظة.

كانت الثواني الخمس عشرة التالية ضبابية... نزول سلالم... تعثّر... سقوط. أمّا الألم الذي استبدّ برأس لانغدون، فكان لا يطاق. شعر أنّ بصره أصبح أكثر ضبابية، وكانت عضلاته ثقيلة، وكلّ حركة من حركاته أشبه بردّ فعل متأخّر.

فجأة، أصبح الهواء بارداً.

أنا في الخارج.

بينما كانت د. بروكس تقوده عبر زقاق مظلم بعيداً عن المبنى، داس لانغدون على شيء حادّ وسقط، مرتطماً بالرصيف بقوّة. جاهدت لمساعدته على الوقوف مجدّداً على قدميه وهي تحتجّ بصوت عال على إعطائه مخدّراً.

عندما اقتربا من نهاية الزقاق، تعثّر لانغدون مجدّداً. هذه المرّة، تركته على الأرض وركضت إلى الشارع وهي تصيح لشخص ما من بعيد. لمح لانغدون المصابيح الخضراء الباهتة لسيّارة أجرة مركونة أمام المستشفى. غير أنّ السيّارة لم تتحرّك، لا بدّ أنّ سائقها كان نائماً. صاحت د. بروكس ولوّحت بذراعيها بعنف. أخيراً، أضيئت المصابيح الأمامية، وتحرّكت السيّارة ببطء نحوهما.

خلف لانغدون، فُتح باب في الزقاق، تبعه صوت خطى سريعة تقترب. التفت فرأى المرأة ذات الملابس السوداء تتّجه بسرعة نحوه. حاول الوقوف، لكنّ الطبيبة أمسكت به، وأجبرته على الصعود إلى المقعد الخلفي لسيّارة الفيات. فتمدّد نصفه على المقعد ونصفه على أرض السيّارة، في حين أسرعت د. بروكس خلفه وأغلقت الباب.

التفت السائق النعسان وحدّق إلى الثنائي غريب الأطوار الذي هبط في سيّارته؛ شابّة بملابس طبّية ورجل برداء مستشفى شبه ممزّق وذراع نازفة. من الواضح أنّه كان على وشك طردهما من سيّارته عندما انفجرت مرآة السيّارة الجانبية. في تلك اللحظة، خرجت المرأة بملابسها الجلدية السوداء من الزقاق شاهرة مسدّسها. أُطلق الرصاص مجدّداً مصدراً صوت هسهسة، وفي اللحظة نفسها أمسكت د. بروكس برأس لانغدون ودفعته إلى الأسفل. تحطّمت نافذة السيّارة الخلفية، وأمطرتهما بالزجاج.

لم يكن السائق بحاجة إلى المزيد من التشجيع، فضغط على دوّاسة السرعة، وانطلق بسيّارته.

ترنّح لانغدون على شفير الوعي. *ثمّة من يحاول قتلي؟*

عندما انعطفوا في أحد الشوارع، جلست د. بروكس وأمسكت بذراع لانغدون النازفة. كان الأنبوب البلاستيكي بارزاً من ثقب في جلده.

أمرته قائلة: "انظر إلى النافذة".

أطاعها لانغدون. في الخارج، تلاحقت أمام عينيه قبور مهجورة في الظلام. بدا ملائماً أن يمرّوا في تلك اللحظة من أمام مقبرة. شعر لانغدون بأصابع الطبيبة تتحسّس الأنبوب برفق، قبل أن تنتزعه من دون سابق إنذار.

شعر بألم صاعق يبلغ رأسه مباشرة، قبل أن يفقد وعيه تماماً.

الفصل 5

حوّل رنين الهاتف نظر العميد عن ضباب البحر الأدرياتيكي، فعاد بسرعة إلى مكتبه.

كان متلهّفاً لسماع خبر جديد، *لقد حان الوقت.*

أضاءت شاشة الكمبيوتر على مكتبه، مبلغة إيّاه بورود اتّصال من هاتف شخصي مشفّر للصوت يحمل اسم Swedish Sectra Tiger XS، وكانت قد تمّت إعادة توجيه المكالمة عبر أربعة أجهزة توجيه (راوتر) لا يمكن تعقّبها، قبل وصلها باليخت.

وضع السمّاعتين، ثمّ أجاب بكلمات بطيئة ودقيقة: "معك العميد، تفضّل".

أجاب الصوت: "أنا فاييِنثا".

شعر العميد بنبرة عصبية غير معتادة في صوتها. نادراً ما كان العملاء الميدانيون يتحدّثون مع العميد مباشرة، ومن النادر أكثر أن يبقوا في وظيفتهم بعد كارثة كتلك التي وقعت في الليلة الماضية.

مع ذلك، طلب العميد أن يقوم عميل في الموقع بالمساعدة على معالجة الأزمة، وكانت فاييِنثا الشخص الأنسب لهذه المهمّة.

قالت فاييِنثا: "لديّ خبر جديد".

صمت العميد معطياً إيّاها الإذن للمتابعة.

عندما تكلّمت، كان صوتها مجرّداً من العاطفة؛ في محاولة واضحة للتصرّف باحتراف. قالت: "لقد فرّ لانغدون ومعه الغرض".

جلس العميد أمام مكتبه ولزم الصمت طويلاً. قال أخيراً: "مفهوم. أتصوّر أنّه سيقصد السلطات في أسرع وقت ممكن".

تحت العميد بطابقين يقع مركز التحكّم الآمن لليخت، هناك جلس المنسّق لاورنس نولتون في حجرته الخاصّة، ولاحظ أنّ اتصال العميد المشفّر قد انتهى. أمل أن تكون الأخبار سارّة. فقد كان توتّر العميد ملموساً في اليومين الأخيرين، حيث شعر كلّ عامل على متن اليخت أنّ عمليّة هامّة تجري.

المخاطر عالية على نحو لا يصدّق، ويستحسن أن تنفّذ فايينثا العمليّة كما ينبغي هذه المرّة.

كان نولتون معتاداً على تنسيق خطط اللعب الموضوعة بعناية. إلاّ أنّ هذا السيناريو بالذات انهار وتحوّل إلى فوضى، فتولّى العميد الأمور شخصياً.

لقد انتقلنا إلى منطقة مجهولة.

مع أنّ عدداً من المهام الأخرى يجري حاليًا حول العالم، إلاّ أنّ معظمها تحت إدارة مختلف مكاتب الكونسورتيوم الميدانية التابعة *للميندا*سيوم؛ الأمر الذي أتاح المجال للعميد وموظّفيه على متن اليخت بحصر تركيزهم في هذه العمليّة.

كان زبونهم قد أقدم على الانتحار منذ بضعة أيّام في فلورنسا، لكنّ الكونسورتيوم ما زال لديه عدد كبير من الخدمات العالقة، وهي عبارة عن مهام خاصّة عهد بها الرجل إلى هذه المنظّمة بغضّ النظر عن الظروف. وكما هي العادة دائماً، ينوي الكونسورتيوم تنفيذها من دون تردّد. *لديّ أوامر عليّ أن أطيعها.* هذا ما فكّر به نولتون، وهو ينوي الامتثال لها تماماً. خرج من حجرته الزجاجية العازلة للصوت، وعبر عدداً من الحجرات الأخرى؛ بعضها شفّاف والبعض الآخر محجوب، وفيها كان عدد من الموظّفين يعملون على جوانب أخرى من المهمّة نفسها.

عبر نولتون غرفة التحكّم الرئيسة بهوائها الخفيف المعالَج، وأومأ بتحيّة للفريق التقني، ثمّ دخل قبواً صغيراً يحتوي على حوالى عشر خزنات حديدية. فتح إحداها، وأخرج محتوياتها التي كانت عبارة عن شريحة ذاكرة حمراء برّاقة. بحسب البطاقة المرفقة بها، تحتوي الذاكرة على ملفّ فيديو كبير، كان الزبون قد أمر بتحميله لوسائل الإعلام الكبرى في وقت محدّد صباح الغد.

سيكون التحميل المجهول المصدر غداً أمراً بسيطاً، لكن تطبيقاً لبروتوكول الملفّات الرقمية كافّة، كان المخطّط الانسيابي قد أشار إلى ضرورة مراجعة هذا الملفّ اليوم؛ أي قبل أربع وعشرين ساعة من تسليمه، للتأكّد من أنّ الكونسورتيوم قد حصل على الوقت الكافي للقيام بكلّ ما يلزم من تشفير أو تجميع أو استعدادات أخرى قد تكون مطلوبة قبل تحميله في الوقت المحدّد.

لا شيء يُترك للصدفة.

عاد نولتون إلى حجرته الشفّافة وأغلق الباب الزجاجي الثقيل، فعزل نفسه عن العالم الخارجي.

قلب بدّالة في الجدار، فتحوّلت حجرته على الفور إلى حجرة محجوبة. حفاظاً على الخصوصية، كانت جميع المكاتب الزجاجية على متن *الميندا*سيوم مبنية من زجاج "الجسيمات المعلّقة". فمن الممكن التحكّم بسهولة بشفافية هذا النوع من الزجاج من خلال تطبيق أو إزالة تيّار كهربائي يقوم إمّا برصف أو بَعْثَرة ملايين الجسيمات الدقيقة الشبيهة بالعصيّ، والمعلّقة داخل اللوح الزجاجي.

كان التقسيم حجر الزاوية لنجاح الكونسورتيوم.

لا تعرف شيئاً سوى عن المهمّة الخاصّة بك، ولا تُطلع أحداً على أيّ شيء.

اختفى نولتون في عزلة حجرته الخاصّة، وأدخل شريحة الذاكرة في الكمبيوتر، ثمّ ضغط على الملفّ ليبدأ بتقييمه.

سرعان ما طغى اللون الأسود على شاشته... وبدأت مكبّرات الصوت تصدر صوت خرير مياه. ظهرت ببطء صورة على الشاشة... وكانت باهتة وغامضة. ثمّ بدأ مشهد يتبلور من الظلام... داخل كهف... أو غرفة ضخمة. كانت أرضية الكهف غارقة تحت المياه، وكأنّها بحيرة تحت الأرض. لكنّ الغريب هو أنّ المياه بدت مضيئة... كما لو أنّ الضوء صادر من داخلها.

لم يسبق لنولتون أن رأى شيئاً كهذا. كانت المغارة بأكملها مضاءة بلون غريب مائل إلى الاحمرار، وجدرانها الشاحبة مكسوّة بانعكاسات لولبية للمياه المترقرقة. *ما هذا المكان؟*

مع استمرار عرض الشريط، بدأت الكاميرا تميل إلى الأسفل وتهبط بشكل عمودي، نحو المياه مباشرة، إلى أن اخترقت السطح المضيء. اختفت أصوات خرير المياه، وحلّ مكانها صمت مخيف تحت الماء. واصلت الكاميرا هبوطها، لمسافة عدّة أقدام تحت الماء، إلى أن توقّفت وركّزت على أرض الكهف المغطّاة بالطمي.

كانت ثمّة لوحة مستطيلة من التيتانيوم اللامع مثبّتة على الأرض.

وكانت اللوحة تحمل نقشاً.

في هذا المكان، وفي هذا التاريخ،

تغيّر العالم إلى الأبد.

عند أسفل اللوحة، نُقش اسم وتاريخ.

أمّا الاسم، فكان اسم الزبون.

وأمّا التاريخ... فهو الغد.

الفصل 6

شعر لانغدون بيدين قويتين ترفعانه الآن... وتحثّانه على الخروج من حالة الهذيان، وتساعدانه على النزول من سيّارة الأجرة. شعر ببرودة الرصيف تحت قدميه الحافيتين.

استند إلى جسد د. بروكس النحيل، واجتاز وهو يترنّح ممرًّا خالياً بين مبنيين سكنيين. هبّ هواء الفجر ملوّحاً برداء المستشفى، وشعر لانغدون بالهواء البارد يلامس جسده في أماكن غير معهودة.

ترك المهدّئ أثره على عقله الذي لم يكن أقلّ ضبابية من بصره. شعر لانغدون وكأنّه تحت الماء، يحاول شقّ طريقه عبر عالم لزج ومعتم. دفعته سيينّا بروكس إلى الأمام وهي تدعمه بقوّة مثيرة للاستغراب.

قالت: "انتبه للدّرج". فأدرك لانغدون أنّهما وصلا إلى مدخل جانبي للمبنى.

تمسّك لانغدون بالدرابزين، وأخذ يدفع نفسه إلى الأعلى متعثّراً؛ درجة درجة. كان جسده ثقيلاً جدًّا، حيث اضطرّت د. بروكس إلى دفعه بجسدها. عندما وصلا أمام أحد الأبواب، ضغطت على بعض الأرقام على لوحة قديمة صدئة، وفُتح الباب.

لم يكن الجوّ في الداخل أكثر دفئاً، لكنّ بلاط الأرض بدا مثل سجّادة ناعمة مقارنة بالرصيف الخشن في الخارج. قادت د. بروكس لانغدون إلى مصعد ضيّق، وفتحت باباً قابلاً للطيّ، ثمّ أدخلت لانغدون إلى حجرة بحجم حجرة الهاتف العامّ. شمّ في الداخل رائحة سجائر إم إس التي تمتاز برائحة مرّة وحلوة شائعة في إيطاليا مثل رائحة قهوة الإسبريسو الطازجة. فساعدته الرائحة على تصفية ذهنه بعض الشيء. ضغطت د. بروكس على أحد الأزرار، وراحت سلسلة من التروس المتعبة تدور وتصلصل فوق رأسيهما.

كانا يتّجهان إلى الأعلى...

ما إن بدأ المصعد الصدئ صعوده حتّى أخذ يهتزّ ويُصدر صريراً. وبما أنّ الجدران لم تكن سوى سواتر معدنية، أخذ لانغدون يراقب جدار المصعد الداخلي وهو يمرّ أمام عينيه. حتّى وهو شبه غائب عن الوعي، كان خوفه من الأماكن الضيّقة حيًّا وواعياً.

لا تنظر.

اتكأ على الجدار محاولاً التقاط أنفاسه. آلمته ذراعه، وعندما نظر إليها، رأى كمّ سترته مربوطاً بشكل فوضوي حول ذراعه مثل ضمادة. أمّا بقيّة السترة فكان يجرّها خلفه على الأرض؛ بالية وقذرة.

أغمض عينيه من شدّة الألم الذي يشعر به في رأسه، لكنّ الظلام ابتلعه مجدّداً.

عادت إليه رؤيا مألوفة؛ المرأة ذات الوشاح، والتميمة، والشعر الفضّي المجعّد. كما في الحلم السابق، كانت تقف على ضفّة نهر من الدماء، ومحاطة بجثث وأجساد تتلوّى. تحدّثت مع لانغدون بصوت متوسّل: *من يبحث يجد!*

سيطر على لانغدون إحساس بأنّ عليه إنقاذها... إنقاذهم جميعاً. فالسيقان شبه المدفونة رأساً على عقب كانت ترتخي... واحدة تلو الأخرى.

نادى بصمت: *من أنت!؟ ماذا تريدين!؟*

هبّت على شعرها الفضّي الجميل رياح حارّة. همست وهي تلمس تميمتها: *الوقت يمرّ*. فجأة، ومن دون سابق إنذار، انفجرت في عمود من النار يعمي الأبصار تصاعد عبر النهر، واجتاحهما هما الاثنين.

صرخ لانغدون، وفتح عينيه.

نظرت إليه د. بروكس بقلق. "ما بك؟".

قال لانغدون: "أنا أهذي! رأيت الكابوس نفسه".

"أتقصد المرأة ذات الشعر الفضّي المحاطة بالجثث؟".

هزّ لانغدون رأسه، والعرق يسيل من جبينه.

أكّدت له قائلة: "ستكون بخير". مع أنّها شعرت هي نفسها بالخوف. "الأحلام المتكرّرة أمر شائع مع فقدان الذاكرة. فقد اضطربت وظيفة الدماغ التي تصنّف الذكريات وترتّبها، حيث تلقي كلّ شيء في صورة واحدة".

أجابها: "غير أنّها ليست صورة جميلة".

"أعرف. لكن إلى أن تشفى، ستكون ذكرياتك مشوّشة ومبعثرة؛ حيث يختلط الماضي، والحاضر، والخيال. وهذا ما يحدث في الأحلام".

توقّف المصعد، وفتحت د. بروكس الباب. عادا يمشيان مجدّداً، هذه المرّة في رواق ضيّق ومظلم. مرّا من أمام نافذة، بدت منها أسطح منازل فلورنسا في ضوء الفجر. عند آخر الممرّ، انحنت وأخرجت مفتاحاً من تحت نبتة بدت متعطّشة إلى الماء، وفتحت أحد الأبواب.

كانت الشقّة صغيرة، ويشير هواؤها إلى معركة مستمرّة بين شمعة برائحة الفانيليا وموكيت قديم. كان الأثاث والأعمال الفنّية قليلة، وكأنّ الشقّة قد فُرشت بأثاث مستعمل. عدّلت د. بروكس جهازاً لتنظيم الحرارة، وشغّلت نظام التدفئة.

وقفت للحظة وأغمضت عينيها، ثمّ تنفّست بعمق وكأنّها تسيطر على نفسها. استدارت، وساعدت لانغدون على دخول مطبخ صغير متواضع يحتوي على طاولة من الفورمايكا وكرسيَّين قديمَين.

اقترب لانغدون من أحدهما على أمل الجلوس، لكنّ د. بروكس أمسكت بذراعه وفتحت باليد الأخرى إحدى الخزائن. كانت الخزانة خالية تقريباً إلاّ من بعض الكعك، وبضعة أكياس من المعكرونة، وعلبة مشروبات غازية، وعلبة منبّهات.

أخرجت العلبة وأفرغت ستّ كبسولات بيد لانغدون قائلة: "هذا كافيين، أتناوله عندما أعمل في نوبات ليلية، كهذه الليلة".

وضع لانغدون الأقراص في فمه وجال بنظره بحثاً عن بعض الماء.

قالت له: "امضغها. فبهذه الطريقة ستدخل جسدك على نحو أسرع وتساعد على إبطال مفعول المهدّئات".

بدأ لانغدون يمضغ الأقراص، فتقلّص وجهه على الفور. كانت الأقراص مرّة الطعم؛ فهي معدّة كما هو واضح لتُبتلع كما هي. فتحت د. بروكس البرّاد وأعطت لانغدون نصف زجاجة من الشراب. فأخذها شاكراً وتناول منها جرعة كبيرة.

أمسكت الطبيبة ذراعه اليمنى، ونزعت عنها ضمادة القماش التي استحدثتها من سترته، ووضعتها على الطاولة، ثمّ بدأت تتفحّص جرحه. عندما أمسكت بذراعه، شعر لانغدون بيديها ترتجفان.

قالت: "ستعيش".

تمنّى لانغدون أن تكون بخير. فقد مرّا بتجربة صعبة جدًّا للتوّ. قال لها: "د. بروكس، علينا الاتّصال بشخص ما. القنصلية... الشرطة... أحد ما".

هزّت رأسها موافقة. "يمكنك أيضاً التوقّف عن مناداتي د. بروكس، فاسمي هو سيينّا".

هزّ لانغدون رأسه موافقاً. "شكراً، وأنا روبرت". يبدو أنّ العلاقة التي نشأت بينهما خلال هربهما للنجاة تسمح لهما باستخدام اسميهما الأولين. "هل قلت إنّك بريطانية؟".

"أجل، بريطانية المولد".

"لكنّك لا تملكين اللكنة".

أجابت: "جيّد، فقد بذلت جهدي لأخسرها".

كان لانغدون على وشك أن يسأل عن السبب، لكنّ سيينّا أشارت إليه ليتبعها. قادته عبر ممرّ ضيّق إلى حمّام صغير ومعتم. لمح لانغدون انعكاس صورته على المرآة فوق المغسلة للمرّة الأولى منذ أن رأى صورته على نافذة غرفة المستشفى.

لست بخير. كان شعره الأسود الكثيف مشعّثاً، وعيناه محتقنتين بالدماء ومتعبتين. في حين بدأت لحيته تنمو.

فتحت سيينّا الحنفية، ووضعت يد لانغدون المصابة تحت الماء البارد. شعر بألم حادّ، لكنّه أبقاها في مكانها.

أخرجت سيينّا منشفة نظيفة، ووضعت عليها بعض الصابون المضادّ للبكتيريا. "يُستحسن ألاّ تنظر".

"لا بأس، لا يزعجني -".

بدأت سييِنّا تفرك جرحه بعنف؛ حيث شعر بألم مبرح في ذراعه، فضغط على فكّه ليمنع نفسه من الصراخ احتجاجاً.

قالت وهي تشدّ أكثر: "أنت لا تريد أن تصاب بعدوى. بالإضافة إلى ذلك، إن كنت تنوي إبلاغ السلطات، فعليك أن تكون أكثر تنبّهاً. ولا شيء ينشّط إفراز الأدرينالين مثل الألم".

تحمّل لانغدون عشر ثوانٍ كاملة قبل أن يبعد يده أخيراً. *كفى!* بالفعل شعر أنّه أقوى وأكثر يقظة. لقد طغى ألم ذراعه على ألم رأسه تماماً.

قالت: "هذا جيّد". ثمّ أغلقت حنفية الماء وجفّفت ذراعه بمنشفة نظيفة. بعد ذلك، وضعت ضمادة صغيرة على الجرح، لكن في أثناء ذلك، انشغل ذهن لانغدون بأمر لاحظه للتوّ، أمر سبّب له إزعاجاً عميقاً.

منذ ما يقرب أربعة عقود، يضع لانغدون ساعة ميكي ماوس قديمة، هي هدية من والديه. كان وجه ميكي الباسم الذي يلوّح بذراعيه يذكّره دائماً بالابتسام أكثر وأخذ الأمور بجدّية أقلّ.

قال لانغدون: "ساعتي... لقد اختفت!". شعر من دونها بالنقص فجأة. "هل كانت معي عندما وصلت إلى المستشفى؟".

نظرت إليه سييِنّا غير مصدّقة، وقد دُهشت لقلقه على أمر كهذا. "لا أذكر أنّني رأيتها. نظّف نفسك. سأعود بعد بضع دقائق، وسنحاول إيجاد طريقة لمساعدتك". استدارت للذهاب، ثمّ توقّفت عند الباب ونظرت إلى عينيه المنعكستين على صفحة المرآة. "في هذا الوقت، أقترح عليك أن تفكّر جيّداً بسبب رغبة أحدهم في قتلك. أتصوّر أنّه السؤال الأوّل الذي ستطرحه عليك السلطات".

"انتظري، إلى أين أنت ذاهبة؟".

"لا يمكنك التحدّث مع الشرطة وأنت شبه عارٍ. سأذهب لأحضر لك بعض الملابس. مقاسك من مقاس جاري تقريباً. وبما أنّه كلّفني بإطعام قطّته في أثناء سفره، فهو مدين لي".

بعد ذلك، خرجت سييِنّا.

التفت لانغدون إلى المرآة الصغيرة فوق المغسلة، وكاد ألاّ يتعرّف على صورته فيها. *أحدهم يريد قتلي.* عادت إلى ذهنه الكلمات التي كان يهذي بها عند دخوله المستشفى، والتي سمعها على آلة التسجيل.

آسف جدًّا. آسف جدًّا.

حاول أن يتذكّر... لكن عبثاً. لم يجد في عقله سوى الفراغ. كلّ ما يعرفه لانغدون هو أنّه في فلورنسا، وأنّه مصاب بجرح في رأسه خلّفته رصاصة.

فيما راح يحدّق إلى عينيه المتعبتين، تساءل عمّا إذا كان من الممكن أن يستيقظ في أيّ لحظة ليجد نفسه جالساً على كرسيّه المخصّص للقراءة في منزله، حاملاً كأساً فارغة، ونسخة عن *الأرواح الميتة*، ليذكّر نفسه أنّه لا ينبغي أبداً الجمع بين الشراب وغوغول[1].

---

1 نيكولاي فاسيلفيتش غوغول، كاتب روسي يعدّ من آباء الأدب الروسي.

الفصل 7

خلع لانغدون رداء المستشفى الملوّث بالدماء، ولفّ منشفة حول خصره. وبعدما غسل وجهه بالماء، لمس بحذر شديد القطب في الجزء الخلفي من رأسه. كانت ملامسة الجلد مؤلمة، غير أنّه عندما سوّى شعره المشعّث فوق الإصابة، اختفت تماماً. بدأت أقراص الكافيين تأخذ مفعولها، وأحسّ أخيراً أنّ الضباب ينجلي عن ذهنه.

فكّر يا روبرت. حاول أن تتذكّر.

فجأة، بدأ يشعر بالاختناق في الحمّام الخالي من النوافذ، فخرج إلى الردهة، وتوجّه تلقائيًا إلى بقعة من الضوء الطبيعي الذي دخل عبر باب مفتوح جزئيًا في الممرّ. كانت الغرفة عبارة عن مكتب مؤقّت؛ مؤثّث بطاولة مكتب رخيصة، وكرسيّ دوّار بالٍ، وصفّ من الكتب الموضوعة على الأرض، وحمداً لله... *نافذة.*

اقترب لانغدون من ضوء النهار.

في البعيد، بدأت الشمس التوسكانية تلامس بأشعّتها برجَي المدينة العاليين - برج الأجراس، برج باديا - ومتحف بارغيلّو. ضغط لانغدون جبينه على الزجاج البارد. كان هواء شهر مارس قارساً، لذلك سرّته رؤية الطيف الكامل لأشعة الشمس التي بدأت ترتفع الآن فوق السفوح.

يسمّونه *ضوء الرسّام.*

في قلب الأفق، بدأت تظهر قبّة جبلية من القرميد الأحمر، قمّتها مزيّنة بكرة نحاسية مذهّبة تلمع مثل منارة. إيل دوومو. لقد صنع برونيليسكي التاريخ المعماري عندما صمّم تلك القبّة الضخمة. والآن، بعد أكثر من خمسمائة عام، ما زال البناء الشامخ الذي يبلغ ارتفاعه 375 قدماً في مكانه، وكأنّه عملاق لا يبارح بياتزا ديل دوومو.

ماذا أفعل في فلورنسا؟

بالنسبة إلى لانغدون الذي كان طوال حياته هاوياً للفنّ الإيطالي، أصبحت فلورنسا إحدى وجهاته السياحية المفضّلة في أنحاء أوروبا كافة. فهذه هي المدينة التي لعب مايكل أنجلو في شوارعها حين كان طفلاً، والتي ألهبت النهضة الإيطالية استديوهاتها. هذه فلورنسا التي جذبت صالاتها ملايين المسافرين المعجبين بلوحة بوتيتشيلّي؛ *ولادة فينوس*، ولوحة ليوناردو؛ *البشارة*، وفخر المدينة ومصدر فرحتها، *إيل دافيدي*، أو تمثال داوود.

كان لانغدون قد افتُتن بتمثال مايكل أنجلو داوود عندما رآه للمرّة الأولى في سنّ المراهقة... حين دخل أكاديمية الفنون الجميلة... وتنقّل ببطء بين تماثيل كتيبة مايكل أنجلو

الحزينة، *بريدجوني*... ثمّ شعر ببصره ينجذب إلى الأعلى، رغماً عنه، إلى تحفة فنّية بطول سبع عشرة قدماً. أثار تمثال داوود الضخم، بجسده العضلي اللافت، ذهول معظم زوّار المتحف للمرّة الأولى، إلاّ أنّه بالنسبة إلى لانغدون، كانت وضعية داوود العبقرية هي التي أسرت اهتمامه. فقد استخدم مايكل أنجلو تقليد *كونترابوستو* الكلاسيكي للإيحاء بأنّ داوود مائل إلى اليمين، وأنّ ساقه اليسرى لا تحمل أيّ وزن تقريباً؛ في حين أنها كانت في الواقع تحمل أطناناً من الرخام.

كان تمثال داوود هو الذي ولّد لدى لانغدون التقدير الحقيقي لعظمة النحت. تساءل الآن عمّا إذا كان قد زار تلك التحفة خلال الأيّام الأخيرة، إلاّ أنّه لم يتذكّر سوى استيقاظه في المستشفى ورؤيته طبيباً بريئاً يُقتل أمام عينيه. *آسف جدًّا. آسف جدًّا.*

كان الإحساس بالذنب الذي استبدّ به مثيراً للاشمئزاز تقريباً. *ماذا فعلت؟*

بينما كان واقفاً عند النافذة، لمح بطرف عينه جهاز كمبيوتر محمول على المكتب قربه. أدرك لانغدون فجأة أنّ ما حدث له في الليلة الفائتة لا بدّ ان يكون قد نُشر في الصحف.

إن تمكّنت من الوصول إلى الإنترنت، فقد أجد أجوبة.

التفت إلى الردهة ونادى الطبيبة: "سيينّا؟!".

لم يجبه أحد. لا بدّ أنّها ما زالت في شقّة جارها تبحث عن ملابس.

لا شكّ أنّ سيينّا ستتفهّم تطفّله، لذلك فتح الكمبيوتر وشغّله.

أضاءت شاشة سيينّا، لتظهر في الخلفية صورة "الغيمة الزرقاء" القياسية في نظام ويندوز. ففتح لانغدون على الفور صفحة غوغل إيطاليا، وطبع فيها *روبرت لانغدون*.

فكّر لانغدون عندما بدأ بحثه: *آه لو رآني طلاّبي الآن*، لطالما عاتب طلاّبه على إجراء أبحاث حول أنفسهم، وهي ظاهرة تحوّلت إلى هواية جديدة وغريبة تعكس الهوس بالشهرة الشخصية الذي أصبح يتملّك الشباب الأميركيين اليوم.

ظهرت صفحة من نتائج البحث أمامه؛ المئات من المقالات المتعلّقة بلانغدون، من كتب ومحاضرات. *ليس هذا ما أبحث عنه.*

حصر لانغدون بحثه عبر الضغط على الصفحة المتعلّقة بالأخبار.

عندئذ ظهرت أمامه صفحة جديدة: نتائج الأخبار عن "روبرت لانغدون".

توقيع كتب: أقام روبرت لانغدون...

خطاب التخرّج لروبرت لانغدون...

روبرت لانغدون ينشر **كتاب تمهيدي عن الرموز...**

امتدّت اللائحة على عدّة صفحات، غير أنّ لانغدون لم يجد شيئاً جديداً، وبالتأكيد لا شيء يفسّر مأزقه الحالي. *ماذا حدث في الليلة الماضية؟* واصل لانغدون بحثه، ودخل موقع فلورنتين؛ وهي صحيفة إنكليزية تُنشر في فلورنسا. قرأ العناوين، والأقسام المتعلّقة بالأخبار العاجلة، وصفحة الشرطة، وصادف مقالات عن حريق في إحدى الشقق، وفضيحة اختلاس حكومية، وأخباراً عن جرائم متنوّعة.

لا شيء على الإطلاق؟!

توقّف عند خبر عاجل ومبالغ فيه عن أحد مسؤولي المدينة الذي توفّي في الليلة الفائتة في الساحة خارج الكاتدرائية من جرّاء نوبة قلبية. لم يُذكر اسم المسؤول بعد، كما أنّه لم يُشتبه بحادث مدبّر.

أخيراً، لم يعرف لانغدون ما عليه فعله، فدخل حساب بريده الإلكتروني التابع لجامعة هارفرد، وتحقّق من الرسائل؛ متسائلاً عمّا إذا كان سيجد أجوبة هناك. لم يجد سوى الرسائل المعتادة من زملائه، وطلاّبه، وأصدقائه، ومعظمها يشير إلى مواعيد في الأسبوع القادم.

وكأنّ لا أحد يعرف برحيلي.

تصاعدت شكوك لانغدون، فأطفأ الكمبيوتر وأغلقه. كان على وشك أن يغادر الغرفة عندما لمح شيئاً. على زاوية مكتب سيينّا، وفوق مجموعة من المجلاّت الطبّية القديمة والأوراق، رأى صورة بولارويد. كانت الصورة عبارة عن لقطة لسيينّا بروكس وزميلها الطبيب الملتحي، وهما يضحكان في رواق المستشفى.

فكّر لانغدون، *إنّه د. ماركوني*. وشعر بالذنب وهو يتناول الصورة ويتفحّصها.

عندما أرجع لانغدون الصورة إلى مكانها، فوجئ بكتيّب أصفر اللون فوق مجموعة المجلاّت، هو عبارة عن إعلان لحفلة من مسرح لندن غلوب. بحسب الغلاف، يتناول الإعلان إنتاجاً لمسرحية شكسبير *حلم ليلة صيف*... التي نُظّمت منذ حوالى 25 سنة تقريباً.

كُتبت على الجزء العلوي من الكتيّب جملة بخطّ اليد: حبيبتي، *لا تنسي أبداً أنّك معجزة*.

تناول لانغدون الكتيّب، فتناثرت كومة من قصاصات الصحف على المكتب. حاول إرجاعها إلى مكانها بسرعة، لكن عندما فتح الكتيّب - عند الصفحة التي كانت القصاصات فيها - جمد في مكانه.

كانت الصورة لممثّلة طفلة تمثّل دور عفريت شكسبير. لا يمكن أن تكون الفتاة الصغيرة قد تجاوزت الخامسة، وشعرها الأشقر معقود في شكل ذيل حصان.

كُتب تحت الصورة: *ولادة نجمة*.

كانت النبذة تروي باستفاضة مآثر تلك الطفلة المعجزة، سيينّا بروكس، التي تتمتّع بذكاء غير اعتيادي، والتي حفظت في ليلة واحدة أدوار كلّ الشخصيات، وغالباً ما لقّنت زملاءها أثناء البروفات الأوّلية. من هوايات تلك الطفلة التي لم تتجاوز الخامسة العزف على الكمان، والشطرنج، والبيولوجيا، والكيمياء. الفتاة ابنة لزوجين ثريّين من بلاكهيث، إحدى ضواحي لندن. وقد تحوّلت منذ تلك السنّ إلى شخصية شهيرة في الأوساط العلمية. إذ قامت وهي في الرابعة من عمرها بالتغلّب على بطل في الشطرنج، وكانت تقرأ بثلاث لغات.

فكّر لانغدون: *يا إلهي، سيينّا. هذا يفسّر بعض الأشياء.*

تذكّر لانغدون واحداً من أشهر خرّيجي هارفرد، وكان طفلاً معجزة يدعى شاو كريبكي تعلّم في السادسة من عمره العبرية، وقرأ جميع أعمال ديكارت قبل أن يبلغ الثانية عشرة. مؤخّراً، قرأ لانغدون عن ظاهرة تدعى موشي كاي كافالين الذي مُنح في سنّ الحادية عشرة شهادة جامعية

بمعدّل 4.0، وفاز بلقب البطولة الوطنية في الفنون الحربية، وفي سنّ الرابعة عشرة، نشر كتاباً بعنوان *يمكننا أن ننجح*.

تناول لانغدون قصاصة صحيفة أخرى، تظهر فيها صورة لسيينّا وهي بسنّ السابعة: *طفلة معجزة بمعدّل ذكاء 208*.

لم يكن لانغدون يعرف أنّ معدّل الذكاء يصل إلى هذا الارتفاع. بحسب المقال، كانت سيينّا بروكس عازفة كمان موهوبة، وتستطيع إتقان لغة جديدة في غضون شهر واحد، وتعلّم نفسها علم التشريح والفيزيولوجيا.

نظر إلى قصاصة أخرى من مجلّة طبّية: *مستقبل الفكر: لم تُخلق كلّ العقول متساوية*.

في هذا المقال، ظهرت صورة سيينّا التي بلغت ربّما العاشرة من عمرها وهي تقف بشعرها المعقود إلى الخلف بجانب جهاز طبّي كبير. ويتضمّن المقال مقابلة مع طبيب يشرح أنّ الفحوصات التي أجريت على مخّ سيينّا كشفت أنّه مختلف *فيزيائياً* عن المخّ الطبيعي. فهو أكبر حجماً في حالتها، وأكثر انسيابية؛ حيث يستطيع معالجة المحتوى البصري والمكاني بطرق لا يمكن لمعظم الكائنات البشرية أن تبدأ حتّى بفهمها. وشبّه الطبيب الميزة الفيزيولوجية التي تتمتّع بها سيينّا بنموّ خلوي سريع على نحو غير عادي في دماغها، شبيه بالسرطان، غير أنّه نموّ سريع لأنسجة الدماغ المفيدة عوضاً عن الخلايا السرطانية القاتلة.

وجد لانغدون قصاصة من صحيفة محلّية.

لعنة التفوّق.

لم يكن المقال يحتوي هذه المرّة على صورة، بل يروي قصّة عبقرية صغيرة تدعى سيينّا بروكس حاولت الالتحاق بالمدارس العادية، لكنّها تعرّضت للمضايقة بسبب اختلافها. تحدّث المقال عن العزلة التي يعاني منها الأشخاص الموهوبون الذين لا تستطيع مهاراتهم الاجتماعية مواكبة ذكائهم، فيتعرّضون في كثير من الأحيان للنبذ.

استناداً إلى المقال، هربت سيينّا من منزلها في سنّ الثامنة، وتمكّنت بفضل ذكائها من الاختفاء والعيش بمفردها لعشرة أيّام. عُثر عليها في أحد فنادق لندن الراقية، حيث تظاهرت أنّها ابنة أحد النزلاء، فسرقت مفتاحاً، وكانت تطلب خدمة الفنادق على حساب شخص آخر. على ما يبدو، أمضت الأسبوع في قراءة 1600 صفحة من كتاب *غرايز أناتومي*. وعندما سألتها السلطات عن سبب قراءتها كتباً طبّية، أخبرتهم أنّها تريد أن تعرف عن مشكلة دماغها.

ذاب قلب لانغدون حزناً على الفتاة الصغيرة. لم يستطع أن يتخيّل مدى الوحدة التي يعاني منها طفل بهذا الاختلاف. أعاد طيّ المقالات، وتوقّف ليلقي نظرة أخيرة على صورة سيينّا حين كانت في الخامسة من عمرها وهي تؤدّي دور العفريت. عليه أن يعترف، نظراً إلى طريقة لقائه السريالية بسيينّا هذا الصباح، أنّ تقمّصها دور العفريت الشرير المحفّز للأحلام بدا ذكياً بشكل غريب. وتمنّى لو يستطيع – على غرار الشخصيات المسرحية – أن يستيقظ الآن ببساطة ويدّعي أنّ تجاربه الأخيرة كانت مجرّد حلم.

أعاد لانغدون القصاصات إلى مكانها بحذر وأغلق الكتيّب، وشعر بكآبة غير متوقّعة وهو يقرأ الملاحظة على المغلّف: حبيبتي، *لا تنسي أبداً أنك معجزة.*

نظر إلى الرمز المألوف الذي يزيّن غلاف الكتيّب. كان عبارة عن الرسم اليوناني القديم نفسه الذي يُستخدم لتزيين معظم إعلانات المسرحيات حول العالم؛ رمز يرجع إلى 2500 عام أصبح مرادفاً للمسرح الدرامي.

لي ماسكيري. القناعان.



نظر لانغدون إلى الوجهين اللذين يحدّقان إليه؛ واحد كوميدي والآخر تراجيدي، وسمع فجأة همهمة غريبة في أذنيه، وكأنّ سلكاً يُشدّ في عقله ببطء. أحسّ بألم حادّ في جمجمته، وتراءت له صور قناع أمام عينيه. شهق لانغدون، ورفع يديه وهو يجلس على كرسيّ المكتب ويغمض عينيه بقوّة، ويمسك برأسه.

في ظلام عقله، عادت الصور الغريبة غاضبة... صارخة وحيّة.

كانت المرأة ذات الشعر الفضّي والتميمة تناديه مجدّداً من الضفّة المقابلة لنهر الدماء. اخترق صراخها اليائس الهواء الآسن، وسُمع بوضوح على الرغم من أصوات المعذّبين والمحتضرين الذين كانوا يتلوون أمامه على مدّ النظر. رأى لانغدون مجدّداً الساقين المقلوبتين اللتين تحملان الحرف R، والجسد شبه المدفون الذي يحرّك ساقيه يائساً في الهواء.

قالت المرأة للانغدون: *من يبحث يجد! الوقت ينفد!*

شعر لانغدون برغبة عارمة لمساعدتها... ومساعدة الجميع. ناداها بذعر عبر نهر الدماء، *من أنت؟!*

مجدّداً، مدّت المرأة يديها ونزعت الوشاح ليظهر وجهها الجميل الذي رآه لانغدون سابقاً.

قالت: *أنا الحياة.*

فجأة، ظهرت صورة هائلة فوقها في السماء، عبارة عن قناع مخيف، ذي أنف طويل معقوف، وعينين خضراوين ناريتين، أخذتا تحدّقان إلى لانغدون.

قال الصوت: *وأنا... الموت.*

الفصل 8

فتح لانغدون عينيه، وأخذ نفساً عميقاً. كان لا يزال جالساً إلى مكتب سيينّا، ورأسه بين يديه، وقلبه ينبض بعنف.

ما الذي يحدث لي؟

بقيت صورة المرأة ذات الشعر الفضّي والقناع ذي الأنف المعقوف في ذهنه. *أنا الحياة، أنا الموت.* حاول أن يبعد الصورة عن عقله، لكنّها ترسّخت فيه بشكل دائم. على المكتب أمامه، حدّق إليه قناعا الإعلان.

كانت سيينّا قد قالت له: *ستكون ذكرياتك مشوّشة ومبعثرة؛ حيث يختلط الماضي، والحاضر، والخيال.*

شعر لانغدون بالدوار.

في مكان ما في الشقّة، بدأ الهاتف يرنّ. كانت الرنّة الثاقبة وقديمة الطراز آتية من المطبخ.

وقف لانغدون ينادي: "سيينّا".

لكن، ما من مجيب. لم تعد بعد. بعد رنّتين فقط، ردّ المجيب الآلي.

أعلن صوت سيينّا بمرح في الرسالة الصوتية المسجّلة باللغة الإيطالية: "ألو، هذه أنا، الرجاء ترك رسالة وسأقوم بالاتصال مجدّداً".

صدرت رنّة، أعقبها صوت امرأة مذعورة تركت رسالة بلكنة أوروبية شرقية ثقيلة. وتردّد صدى صوتها في القاعة.

"سيينّا، أنا دانيكوفا. أين أنت؟! هذا فظيع! صديقك د. ماركوني قد مات! المستشفى مصاب بالجنون! الشرطة هنا! والناس يقولون إنّك هربت لإنقاذ *مريض*؟! لماذا؟! أنت لا تعرفينه! الآن تريد الشرطة التحقيق معك! وقد أخذوا ملفّ التوظيف! أعرف أنّ المعلومات خاطئة؛ عنوان مزيّف، لا أرقام، تأشيرة عمل مزيّفة. لذلك لن يعثروا عليك اليوم، لكنّهم سيجدونك قريباً! أنا أحاول تحذيرك. آسفة جدًّا سيينّا".

انتهت المكالمة.

تملّك لانغدون إحساس بالذنب. إذ يبدو من الرسالة أنّ د. ماركوني كان يسمح لسيينّا بالعمل في المستشفى. غير أنّ وجود لانغدون هناك كلّف د. ماركوني حياته. ومحاولة سيينّا إنقاذ غريب ستكون لها عواقب وخيمة على مستقبلها.

في تلك اللحظة، صُفق باب بقوّة في الطرف الآخر من الشقّة.

لقد عادت.

بعد قليل، صدح المجيب الآلي: "سيينّا، أنا دانيكوفا. أين أنت؟!".

أجفل لانغدون لعلمه بما ستسمعه سيينّا. في تلك الأثناء، أعاد الإعلان إلى مكانه، ورتّب المكتب، ثمّ تسلّل عائداً عبر الرواق إلى الحمّام، وقد شعر بعدم الارتياح لتطفّله على ماضي سيينّا.

بعد عشر ثوان، سمع طرقة على باب الحمّام.

قالت سيينّا بصوت مضطرب: "سأترك الملابس على مقبض الباب".

أجاب لانغدون: "شكراً جزيلاً".

أضافت: "عندما تنتهي، تعال إلى المطبخ. أريدك أن ترى شيئاً هامًّا قبل الاتصال بأحد".

توجّهت سيينّا متعبة عبر الرواق إلى غرفة النوم المتواضعة. أخرجت من الخزانة سروال جينز أزرق وقميصاً، وأخذتهما معها إلى حمّامها.

نظرت إلى نفسها في المرآة، ثمّ مدّت يدها، وأمسكت بذيل الحصان الأشقر الكثيف، وشدّته بقوّة إلى أن نزعت الشعر المستعار عن رأسها الأصلع.

حدّقت إليها في المرآة امرأة صلعاء في الثانية والثلاثين من عمرها.

لم تنقص سيينّا التحدّيات في حياتها. ومع أنّها درّبت نفسها على الاعتماد على العقل للتغلّب على المصاعب، إلاّ أنّ مأزقها الحالي سبّب لها اضطراباً عميقاً.

وضعت الشعر المستعار جانباً، وغسلت وجهها ويديها. وبعدما جفّفت بشرتها، بدّلت ملابسها وأعادت الشعر المستعار وثبّتته بعناية. لم يكن الإحساس بالشفقة على النفس من الأمور التي تسمح بها سيينّا، لكن الآن، عندما تجمّعت الدموع في عينيها، أدركت أنّها لن تتمكّن من كبحها.

وهكذا بكت.

بكت على الحياة التي لم تتمكّن من التحكّم بها.

بكت على الرجل الطيّب الذي مات أمام عينيها.

بكت على الوحدة العميقة التي ملأت قلبها.

وقبل كلّ شيء، بكت على المستقبل... الذي بدا فجأة مبهماً.

الفصل 9

على متن اليخت المترف، مينداسيوم، جلس المنسّق لاورنس نولتون في حجرته الزجاجية المغلقة وحدّق غير مصدّق إلى شاشة حاسوبه، بعدما شاهد للتوّ شريط الفيديو الذي تركه الزبون.

أيفترض بي تحميل هذا الفيلم إلى وسائل الإعلام صباح غد؟

خلال السنوات العشر التي أمضاها نولتون في الكونسورتيوم، نفّذ مهمّات غريبة متنوّعة عرف أنّها غير شرعية. فالتحلّي بالأخلاق الرمادية كان أمراً شائعاً في الكونسورتيوم، لكونه منظّمة مبدؤها الوحيد فعلُ أيّ شيء للحفاظ على وعد قُطع لعميل.

نتابع حتّى النهاية، من دون طرح أسئلة، ومهما كان الثمن.

غير أنّ إمكانيّة تحميل هذا الفيديو سبّبت لنولتون الاضطراب. في الماضي، مهما تكن المهام الغريبة التي نؤدّيها، كنّا نفهم دائماً منطق العمليّة... ونستوعب دوافعها... ونفهم النتيجة المرغوبة.

غير أنّ هذا الفيديو محيّر.

شيء ما فيه يبدو مختلفاً؛ مختلفاً جدًّا.

استند نولتون إلى ظهر كرسيّه، وأعاد تشغيل الشريط، على أمل أن يلقي العرض الثاني مزيداً من الضوء على المشهد. رفع الصوت، واستعدّ لمشاهدة العرض الممتدّ على تسع دقائق.

كما في المرّة السابقة، بدأ الشريط بصوت خرير مياه في الكهف الغريب المليء بالمياه، والمغمور بضوء أحمر مخيف. مرّة أخرى، غاصت الكاميرا تحت سطح الماء المضيء، لتكشف أرض الكهف المغطّاة بالطمي. وللمرّة الثانية، قرأ نولتون النصّ المنقوش على اللوحة المغمورة بالمياه:

في هذا المكان، وفي هذا التاريخ،

تغيّر العالم إلى الأبد.

رؤية توقيع زبون الكونسورتيوم على اللوحة المصقولة سبّبت له الاضطراب. ذاك التاريخ هو *الغد*... وهذا الأمر أقلق نولتون كثيراً. غير أنّ ما أعقب ذلك هو الذي أثار أعصابه فعلاً.

مالت الكاميرا الآن إلى اليسار لتكشف شيئاً مذهلاً يعوم تحت الماء، بالقرب من اللوحة تماماً.

هنا، كان ثمّة جسم كروي من البلاستيك الرقيق يتموّج في المياه وقد ثُبّت إلى الأرض بسلك قصير. كان الجسم الشفاف الرقيق مثل فقاعة صابون ضخمة، يعوم وكأنّه بالون تحت الماء... لم يكن منفوخاً بالهيليوم، بل بسائل هلامي بنّي مائل إلى الاصفرار. كان الكيس منتفخاً، وبدا أنّه بقطر قدم تقريباً، كما بدا أنّ السائل الغامض يدور ببطء داخله، وكأنّه عين عاصفة تكبر بصمت.

شعر نولتون بالعرق يتصبّب منه، ربّاه! فقد بدا الكيس مخيفاً أكثر في المرّة الثانية التي رآه فيها.
بهتت الصورة ببطء وخيّم السواد.
بعد ذلك، ظهرت صورة جديدة؛ جدار الكهف الرطب يترقرق بانعكاس مياه البحيرة المضيئة عليه. على الجدار، ظهر ظلّ... ظلّ رجل... واقف في الكهف.
لكنّ رأس الرجل كان مشوّهاً... على نحو كبير.
فعوضاً عن الأنف، كان لديه منقار طويل... وكأنّه نصف طائر.
عندما تكلّم، كان صوته مكتوماً... وتحدّث ببلاغة غريبة... وبإيقاع مدروس... وكأنّه راوٍ في جوقة كلاسيكية.
جلس نولتون بلا حراك، حابساً أنفاسه، وهو يستمع إلى الظلّ.

أنا الظلّ.
إن كنت تشاهد هذا، فذلك يعني أنّ روحي قد ارتاحت أخيراً.
بعدما أصبحت تحت التراب، عليّ أن أتحدّث إلى العالم من أعماق الأرض، منفيًّا في هذا الكهف المعتم الذي تتجمّع فيه مياه حمراء بلون الدم في بحيرة لا تعكس النجوم.
لكن، هذه جنّتي... الرحم المثالي لطفلي الضعيف.
الجحيم.
قريباً ستعرفون ما تركته ورائي.
لكن، حتّى في هذا المكان، أشعر بوقع أقدام النفوس الجاهلة التي تلاحقني... والتي لم يكن ليردعها رادع عن إحباط أفعالي.
قد تقولون، سامحهم، فهم لا يدرون ماذا يفعلون. لكن، تأتي لحظة في التاريخ لا يعود الجهل معها أمراً مغفوراً... لحظة وحدها الحكمة تملك فيها القدرة على الغفران.
بضمير مرتاح، تركت لكم هدية الأمل والخلاص والغد.
مع ذلك، ما زال ثمّة من يطاردونني وكأنني كلب؛ يغذّيهم اعتقاد راسخ بأنّني مجنون. ها هي الجميلة ذات الشعر الفضّي تجرؤ على وصفي بالوحش! شأنها شأن رجال الدين العميان الذين ناضلوا من أجل موت كوبيرنيكوس، تنعتني بالشيطان، ويتملّكها الذعر لأنّني استرقت نظرة إلى الحقيقة.
غير أنّني لست نبيًّا.
أنا خلاصكم.
أنا الظلّ.

الفصل 10

قالت سيينّا: "اجلس، أودّ أن أطرح عليك بعض الأسئلة".

عندما دخل لانغدون المطبخ، شعر أنّه أكثر ثباتاً. كان يرتدي سترة بريوني الخاصّة بجار سيينّا، وكانت مناسبة له تماماً. حتّى إنّ الحذاء كان مريحاً، حيث قرّر شراء حذاء إيطالي عندما يعود إلى بلاده.

فكّر، *هذا إن عدت.*

سيينّا كذلك، بجمالها الطبيعي، تغيّرت بعدما بدّلت ملابسها، وارتدت سروال جينز ضيّقاً وسترة قشدية اللون، وكلاهما كانا مناسبين لقامتها الرشيقة. ما زال شعرها معقوداً إلى الخلف على شكل ذيل حصان، غير أنّها بدت أكثر رقّة بعدما نزعت الملابس الطبّية الجادّة. لاحظ لانغدون أنّ عينيها حمراوان، وكأنّها كانت تبكي، فتملّكه إحساس عارم بالذنب.

"سيينّا، أنا آسف. سمعت الرسالة الهاتفية. لا أعرف ماذا أقول".

أجابت: "شكراً، لكن علينا التركيز *عليك* حاليًّا. اجلس من فضلك".

أصبحت نبرتها أكثر حزماً، معيدة إلى ذاكرته المقالات التي قرأها للتوّ عن ذكائها ونضوجها السابق لأوانه.

قالت وهي تشير إليه للجلوس: "أريدك أن تفكّر. هل تذكر كيف وصلنا إلى هذه الشقّة؟".

لم يكن لانغدون واثقاً من أهمّية هذا السؤال، غير أنه أجاب وهو يجلس أمام الطاولة: "بسيّارة أجرة. كان أحدهم يطلق النار علينا".

"كان يطلق النار عليك *أنت*، بروفيسور. لنكن واضحين".

"أجل، أنا آسف".

"وهل تذكر عدد الأعيرة النارية التي أطلقت عندما كنت في السيّارة؟".

سؤال غريب. "أجل، اثنان. أحدهما أصاب المرآة الجانبية، والآخر كسر زجاج السيّارة الخلفي".

"جيّد، والآن أغمض عينيك".

أدرك لانغدون أنّها تختبر ذاكرته، فأغمض عينيه.

"ماذا أرتدي؟".

كان لانغدون قادراً على التذكّر تماماً. "أنت تنتعلين حذاء منخفضاً أسود، وترتدين جينزاً أزرق وسترة بلون القشدة ياقتها على شكل V. شعرك أشقر، بطول الكتفين، ومربوط إلى الخلف. وعيناك بنّيتان".

فتح لانغدون عينيه وتفحّصها، وسُرّ لأنّ ذاكرته التخيّلية تعمل بشكل طبيعي.

"هذا جيّد. فذاكرتك البصرية المعرفية ممتازة؛ الأمر الذي يؤكّد أنّ حالة فقدان الذاكرة لديك انتكاسية، وأنّك لا تعاني من ضرر دائم في عمليّة التذكّر. هل تذكّرت شيئاً جديداً عن الأيّام القليلة الماضية؟".

"كلاّ، مع الأسف. غير أنّ موجة أخرى من الرؤى راودتني في غيابك".

روى لها لانغدون حالة الهلوسة المتكرّرة التي يرى فيها المرأة ذات الوشاح، وأكوام الجثث والأجساد المحتضرة، والساقين نصف المدفونتين اللتين تحملان الحرف R. ثمّ أخبرها عن القناع الغريب ذي المنقار الذي رآه يحوم في السماء.

سألته سيينّا مضطربة: "أنا الموت؟".

"أجل، هذا ما قاله".

"حسناً... أعتقد أنّ هذا يضاهي: أنا فيشنو، مدمّر العالم".

هذه الجملة قالها روبرت أوبنهايمر عندما اختبر أوّل قنبلة ذرّية.

سألته سيينّا محتارة: "هذا القناع ذو الأنف المعقوف... والعينين الخضراوين... هل لديك أيّ فكرة عن سبب استحضار ذهنك تلك الصورة؟".

"إطلاقاً. لكنّ هذا النمط من الأقنعة كان شائعاً جدًّا في العصور الوسطى". صمت قليلاً ثمّ أضاف: "إنّه يدعى قناع الطاعون".

نظرت إليه سيينّا بتوتّر غريب: "قناع الطاعون!".

شرح لها لانغدون باختصار أنّه في عالم الرموز، كان القناع ذو المنقار الطويل، بشكله الفريد، مرادفاً للموت الأسود؛ أي الطاعون القاتل الذي اجتاح أوروبا عام 1300 تقريباً، مودياً بحياة ثلث السكّان في بعض المناطق. اعتقد كثيرون أنّ صفة "الأسود" إشارة إلى اسوداد بشرة الضحايا بسبب الغرغرينا والنزيف الذي يحدث تحت الجلد. لكنْ في الواقع، تشير هذه الصفة إلى الخوف العميق من انتشار الوباء بين السكّان.

أضاف لانغدون: "أمّا بالنسبة إلى القناع ذي المنقار الطويل، فكان الأطبّاء في القرون الوسطى يضعونه تجنباً لانتقال الوباء إليهم في أثناء معالجتهم المصابين. واليوم، لا نراه سوى في كرنفال البندقية، ليذكّرنا بحقبة كئيبة من تاريخ إيطاليا".

سألته سيينّا بصوت مرتجف الآن: "وهل أنت واثق أنّك رأيت أحد هذه الأقنعة في هذيانك؟ قناع طبيب يعالج من مرض الطاعون من القرون الوسطى؟".

هزّ لانغدون رأسه. *من الصعب ألاّ أتعرّف على قناع ذي منقار.*

كانت سيينّا عابسة بطريقة أوحت للانغدون أنّها تحاول إيجاد أفضل السبل لإخباره بنبأ سيّئ. "والمرأة تقول لك باستمرار: من يبحث يجد؟".

"أجل، تماماً كما قالت من قبل. لكنّ المشكلة هي أنّني لا أعرف عمّا يجب أن أبحث".

تنهّدت سيينّا، وبدا على وجهها تعبير جدّي. "أظنّ أنّني أعرف. لا، بل... أظنّ أنّك وجدت ضالّتك".

حملق بها لانغدون. "عمّ تتحدّثين؟!".

"روبرت، عندما وصلت في الليلة الماضية إلى المستشفى، كنت تحمل شيئاً غريباً في جيبك. هل تذكره؟".

هزّ لانغدون رأسه نافياً.

"كنت تحمل شيئاً... مثيراً للاستغراب. وجدته صدفة عندما كنّا ننظّفك". أشارت إلى سترة لانغدون الملوّثة بالدماء، والتي كانت موضوعة على الطاولة. "ما زال في جيبك، يمكنك إلقاء نظرة عليه".

نظر لانغدون إلى سترته بريبة. *على الأقلّ، هذا يفسّر السبب الذي جعلها تعود لإحضار سترتي.* أمسك بالسترة الملوّثة بالدماء، وبحث في كلّ جيوبها، الواحد تلو الآخر. لكنّه لم يجد شيئاً. فأعاد الكرّة. أخيراً، التفت إليها وهزّ كتفيه قائلاً: "لا يوجد شيء هنا".

"وماذا عن الجيب السرّي؟".

"ماذا؟ ليس لديّ جيب سرّي في سترتي".

"حقًّا؟!". بدا عليها الاستغراب. "إذاً، هل هذه سترة... شخص آخر؟".

شعر لانغدون أنّه مشتّت من جديد. "كلاّ، هذه سترتي أنا".

"هل أنت واثق؟".

فكّر، *واثق تماماً. في الواقع، هذه سترة كامبرلي المفضّلة لديه.*

قلبها على الجهة الأخرى، وأظهر لسيينّا العلامة التي تحمل رمزه المفضّل في عالم الموضة، كرة مزيّنة بثلاث عشرة جوهرة على شكل أزرار يعلوها صليب مالطي.

دع الأمر للاسكوتلنديين لاستحضار المحاربين المسيحيين على قطعة قماش صغيرة.

قال لانغدون مشيراً إلى الحرفين الأوّلين من اسمه المطرّزين باليد: "انظري". وكانا قد أضيفا إلى قطعة القماش التي تحمل العلامة. كان يحبّ دائماً ملابس هاريس تويد يدوية الصنع. ولهذا السبب، يدفع دائماً مبلغاً إضافيًّا لتطريز الحرفين الأوّلين من اسمه بالقرب من العلامة. ففي حرم الجامعة، ثمّة مئات سترات التويد التي يتمّ خلعها وارتداؤها دائماً في قاعات العشاء وصفوف الدراسة، ولا يعتزم لانغدون أبداً أن يدخل في تبادل خاسر على نحو غير مقصود.

قالت وهي تأخذ منه السترة: "أنا أصدّقك. *والآن، أنت انظر*".

فتحت سيينّا السترة أكثر لتكشف البطانة عند أسفل الظهر. هناك، وفي مكان خفيّ، بدا له جيب كبير ومرتّب.

ما هذا؟!

كان لانغدون واثقاً أنّه لم يسبق له رؤية هذا الجيب الذي تمّ إخفاؤه بطريقة ناجحة تماماً.

أصرّ لانغدون قائلاً: "لم يسبق لي أن رأيته من قبل!".

"إذاً، أعتقد أنّه لم يسبق لك رؤية... *هذا؟*". مدّت سيينّا يدها إلى داخل الجيب، وأخرجت غرضاً معدنياً مصقولاً، ووضعته بلطف بين يدَي لانغدون.

حدّق إليه لانغدون في حيرة تامّة.

سألته سيينّا: "هل تعرف ما هذا؟".

أجاب متلعثماً: "كلاّ... لم يسبق لي أن رأيته قط".

"حسناً، مع الأسف، أنا أعرف ما هذا. وأنا واثقة تماماً أنّه السبب الذي يدفع أحدهم لمحاولة قتلك".

أخذ نولتون يمشي في حجرته الخاصّة على متن *المينداسيوم*، وهو يشعر بقلق متزايد كلّما فكّر أنّ عليه تحميل هذا الفيلم للعالم صباح الغد.

أنا الظلّ؟

سرت شائعات عن أنّ هذا العميل تحديداً أصيب باضطراب نفسي خلال الأشهر الأخيرة، غير أنّ هذا الفيلم يؤكّد الشائعات من دون أدنى شكّ.

أدرك نولتون أنّه لا يملك سوى خيارين؛ إمّا أن يجهّز الشريط من أجل تسليمه غداً كما وعد الكونسورتيوم، أو أن يأخذه إلى الطابق العلوي ليراه العميد ويعطي رأيه بهذا الشأن.

فكّر نولتون، غير *أنّني أعرف رأيه*. إذ لم يسبق له أن رأى العميد يتّخذ أيّ إجراء غير الذي وعد به. *سيقول لي حمّل هذا الشريط للعالم، من دون طرح أسئلة... وسيثور غضبه عليّ لأنّني سألت.*

أعاد انتباهه إلى الفيلم، وأرجعه إلى نقطة مقلقة على نحو خاصّ. شغّله مجدّداً، ليظهر أمامه الكهف بإضاءته الغريبة، يرافقه خرير المياه. لاح الظلّ بشكله البشري فوق الجدار الرطب، رجل طويل القامة ذو منقار طويل مثل طائر.

بصوت مكتوم، تحدّث الظلّ المشوّه مجدّداً:

هذا عصر الظلمات الجديد.

منذ قرون خلت، كانت أوروبا تتخبّط في بؤسها: سكّان فقراء يتضوّرون جوعاً، وغارقون في الخطيئة واليأس. كانوا عبارة عن غابة مكتظّة، محاطين بالأغصان الميتة، ينتظرون النور، ينتظرون الشرارة التي ستشعل النار وتحرق الأغصان الميتة، وتسمح لأشعّة الشمس بالوصول مجدّداً إلى الجذور السليمة.

الغربلة هي نظام الطبيعة.

اسألوا أنفسكم: ماذا أتى بعد الموت الأسود؟

كلّنا نعرف الجواب.

عصر النهضة.

ولادة جديدة.

لطالما كانت الأمور على هذا النحو. الموت تتبعه ولادة.

لبلوغ الجنّة، على المرء أن يعبر الجحيم.

هذا ما علّمنا إيّاه السيّد.

ومع ذلك، تتجرأ الجاهلة ذات الشعر الفضّي على نعتي بالوحش؟ أما زالت تجهل رياضيات المستقبل؟ والأهوال التي سيجلبها؟

أنا الظلّ.

أنا خلاصكم.

وها أنا أقف في أعماق هذا الكهف، وأحدّق عبر البحيرة التي لا تعكس النجوم. هنا في هذا المكان الغارق، يكمن الجحيم تحت المياه.

قريباً ستُشعَل فيه النيران.

وعندئذ، لا شيء على وجه الأرض سيتمكّن من إيقافها.

الفصل 11

شعر لانغدون أنّ القطعة الموجودة في يده ثقيلة بالنسبة إلى حجمها.

كانت الأسطوانة المعدنية المصقولة ناعمة، يبلغ طولها حوالى ستّة إنشات، وهي مستديرة من الطرفين، مثل طوربيد صغير.

قالت لـه سيينّا: "قبل أن تتعامل مع هذا الشيء بخشونة، ربّما يستحسن أن تنظر إلى الطرف الآخر". ثمّ ابتسمت وأضافت: "قلت لي إنّك أستاذ في علم الرموز، أليس كذلك؟".

أعاد لانغدون تركيزه إلى الأنبوب، وراح يقلّبه بيديه إلى أن وقع نظره على رمز أحمر زاهٍ يظهر على جانبه.

على الفور، توتّر جسده.

بصفته طالباً في علم الأيقونات، كان يعرف أنّ عدداً قليلاً من الصور الثمينة لديه القدرة على زرع الخوف في العقل البشري فوراً... غير أنّ الرمز الذي رآه يأتي حتماً على رأس اللائحة. كانت ردّة فعله عميقة ومباشرة؛ حيث وضع الأنبوب على الطاولة، واستند إلى ظهر كرسيّه.

هزّت سيينّا رأسها. "أجل، ذاك كان ردّ فعلي أيضاً".

كان الرسم الظاهر على الأنبوب عبارة عن أيقونة ثلاثية بسيطة.



كان لانغدون قد قرأ مرّة أنّ هذا الرمز سيّئ السمعة صمّمته شركة داو للكيميائيات في سيتينيات القرن المنصرم ليحلّ محلّ مجموعة من الرسومات التحذيرية التي كانت مستخدمة في السابق. وعلى غرار جميع الرموز الناجحة، كان بسيطاً ومميّزاً ويسهل نسخه. هذا الرمز الحديث الذي يشير إلى "الخطر البيولوجي"، ويستحضر كلّ أنواع المخاطر من كمّاشات سرطان البحر إلى خناجر النينجا، قد أصبح رمزاً عالمياً يشير إلى *الخطر* في جميع اللغات.

قالت سيينّا: "هذه الأسطوانة الصغيرة أنبوب بيولوجي. وهي تُستخدم لنقل مواد خطرة. نراها أحياناً في المجال الطبّي. يوجد داخلها أنبوب إسفنجي يمكن إدخال أنبوب عيّنات فيه من أجل النقل الآمن. في هذه الحالة...". وأشارت إلى رمز الخطر البيولوجي، "أظنّ أنّه عامِل كيميائي قاتل... أو ربّما... فيروس؟". صمتت قليلاً ثمّ أضافت: "أحضرت أولى عيّنات فيروس الإيبولا من أفريقيا في أنبوب مشابه".

لم يكن هذا ما أراد لانغدون سماعه. "لكن، ماذا يفعل هذا الشيء في سترتي! أنا أستاذ في تاريخ الفنّ، لماذا أحمل شيئاً كهذا؟!".

ومضت في ذهنه صور عنيفة لجثث تتلوّى... يحوم فوقها قناع الطاعون.

آسف جدًّا... آسف جدًّا.

قالت سيينّا: "أيًّا يكن مصدره، فهو أنبوب على درجة عالية من الجودة، مصفّح بالتيتانيوم، ولا يمكن اختراقه حتّى بالأشعّة. أظنّ أنّها قضية حكومية". ثمّ أشارت إلى رقعة سوداء بحجم الطابع البريدي تظهر إلى جانب رمز الخطر البيولوجي. "هذه للتعرّف على البصمات، إنّها تدبير أمني في حال ضياع الأنبوب أو تعرّضه للسرقة. فهذه الأنابيب لا يمكن أن تُفتح سوى من قبل شخص محدّد".

ومع أنّ لانغدون شعر الآن أنّ عقله يعمل بالسرعة الطبيعية، إلاّ أنّه ما زال يحتاج إلى بعض الوقت للاستيعاب. *كنت أحمل عبوة مختومة تحتوي على سلاح بيولوجي.*

"عندما وجدت هذه العبوة في سترتك، أردت أن أريها للدكتور ماركوني على انفراد، لكنّني لم أتمكّن من ذلك قبل أن تستيقظ. فكّرت أن أجرّب إبهامك على المنطقة المخصّصة للبصمات خلال غيابك عن الوعي، لكنّني لم أكن أملك أيّ فكرة عمّا يوجد في الأنبوب، و ـ".

"إبهامي؟!". هزّ لانغدون رأسه، "من المستحيل أن يكون هذا الشيء مبرمجاً لكي أفتحه *أنا* . فأنا لا أعرف شيئاً عن الكيمياء البيولوجية. ولم يسبق لي أن رأيت شيئاً مثله من قبل".

"هل أنت متأكّد؟".

كان لانغدون متأكّداً تماماً. لذا، مدّ يده ووضع إبهامه على منطقة التعرّف على البصمات. لم يحدث شيء. "أرأيت؟ قلت ـ".

فجأة، صدرت طقطقة عالية من أنبوب التيتانيوم، فأرجع لانغدون يده وكأنّها احترقت. *سحقاً* . حدّق إلى العبوة التي بدت وكأنّها على وشك أن تُفتح من تلقاء نفسها وتبدأ بإطلاق غاز قاتل. بعد ثلاث ثوان، صدرت طقطقة أخرى، وكأنها تُقفل مجدّداً.

التفت لانغدون إلى سيينّا مذهولاً.

تنهّدت الطبيبة الشابّة، وبدا عليها التوتّر. "حسناً، من الواضح أنّك الحامل المقصود للأنبوب".

بالنسبة إلى لانغدون، بدا السيناريو بأكمله غير منطقي. "هذا مستحيل. أوّلاً، كيف تمكّنت من إدخال هذا الأنبوب المعدني عبر أمن المطار؟".

"ربّما أتيت على متن طائرة خاصّة؟ أو تمّ إعطاؤك الأنبوب عندما وصلت إلى إيطاليا؟".

"سيينّا، عليّ الاتصال بالقنصلية حالاً".

"ألا تظنّ أنّ علينا فتحه أوّلاً؟".

سبق أن اتّخذ لانغدون بعض القرارات الطائشة في حياته. لكنّ فتح هذه العبوة الخطرة في مطبخ هذه المرأة لن يكون واحداً منها. "سأسلّم هذا الشيء للسلطات حالاً".

شدّت سيينّا شفتيها وهي تدرس الخيارات المتاحة. "حسناً، لكن بمجرّد أن تجري ذلك الاتصال، ستصبح بمفردك. إذ لا يمكنني التورّط في الأمر. حتماً، لا يمكنك الالتقاء بهم هنا. فوضعي في إيطاليا... معقّد".

نظر لانغدون إلى عيني سيينّا. "كلّ ما أعرفه سيينّا هو أنّك أنقذت حياتي. لذلك، سأعالج هذه المسألة كما تريدين".

هزّت رأسها بامتنان واقتربت من النافذة، ووقفت تحدّق إلى الشارع في الأسفل. "حسناً، هذا ما يجب علينا فعله".

وضعت سيينّا خطّة سريعة. كانت بسيطة، وذكية، وآمنة.

انتظر لانغدون إلى أن قامت بتشغيل خدمة حجب رقم المتّصل على هاتفها الخلوي، وأجرت اتصالاً. كانت أصابعها نحيلة، لكنّها تحرّكت بثبات.

تكلّمت بلكنة إيطالية ممتازة: "قسم الاستعلامات؟ من فضلك أودّ الحصول على رقم القنصلية الأميركية في فلورنسا".

انتظرت قليلاً، ثمّ دوّنت بسرعة رقم هاتف.

شكرت المتكلّم ثمّ أنهت الاتصال.

أعطت لانغدون رقم الهاتف مع هاتفها الخلوي. "تفضّل. هل تذكر ما عليك قوله؟".

أجاب مبتسماً: "ذاكرتي ممتازة". وطلب الرقم المدوّن على قصاصة الورق. بدأ الهاتف يرنّ.

لا أحد يجيب.

حوّل المكالمة إلى مكبّر الصوت، ووضع الهاتف على الطاولة لكي تسمع سيينّا. أجابت رسالة صوتية مسجّلة تقدّم معلومات عامّة عن خدمات القنصلية، وساعات العمل التي لا تبدأ قبل الساعة 8:30 صباحاً.

نظر لانغدون إلى الساعة المعلّقة على الجدار. كانت تشير إلى السادسة صباحاً.

تابع التسجيل الآلي: "في الحالات الطارئة، يمكنكم طلب الرقم 77 للتحدّث مع الموظّف الليلي".

طلب لانغدون الرقم فوراً.

رنّ الهاتفُ مجدّداً على الطرف الآخر.

أجاب صوت متعب باللغة الإيطالية: "هنا القنصلية الأميركية، معكم الموظّف الليلي".

سأله لانغدون بالإيطالية: "هل تتحدّث الإنكليزية".

أجاب الرجل بإنكليزية أميركية اللكنة: "بالطبع". وبدا عليه بعض الانزعاج بسبب اضطراره إلى الاستيقاظ. "كيف يمكنني مساعدتك؟".

"أنا أميركي في زيارة إلى فلورنسا، وقد تعرّضت للاعتداء. اسمي روبرت لانغدون".

"هلاّ أعطيتني رقم جواز سفرك من فضلك؟". وتثاءب الرجل بصوت مسموع.

"جواز سفري مفقود، أظنّ أنّه سُرق منّي. لقد تعرّضت لطلق ناري في الرأس، وكنت في المستشفى. أنا بحاجة إلى المساعدة".

فجأة، استيقظ الموظّف تماماً. "سيّدي، هل قلت إنّك تعرّضت *لطلق ناري*؟ ما اسمك الكامل من فضلك؟".

"روبرت لانغدون".

سُمع حفيف، تلاه صوت أصابع الرجل وهي تطبع على لوح مفاتيح. صدرت طنّة عن جهاز الكمبيوتر، ثمّ ساد الصمت، قبل أن تعود الأصابع للطباعة مجدّداً. صدرت طنّة أخرى، تبعتها ثلاث طنّات عالية.

ساد الصمت لمدّة أطول.

قال الرجل: "سيّدي، اسمك هو روبرت لانغدون؟".

"أجل، وأنا في ورطة".

"حسناً سيّدي، اسمك مرفق بإشارة تأمرني بتحويلك فوراً إلى مدير القنصل العامّ". وصمت الرجل، وكأنّه هو نفسه لم يصدّق. "ابقَ على الخطّ".

"انتظر، هل يمكنك إخباري –".

راح الهاتف يرنّ مجدّداً.

رنّ أربع مرّات قبل أن يجيب أحد ما.

ردّ عليه صوت خشن: "معك كولينز".

أخذ لانغدون نفساً عميقاً، وتحدّث بهدوء ووضوح قدر الإمكان. "سيّد كولينز، اسمي روبرت لانغدون. أنا أميركي في زيارة إلى فلورنسا وقد تعرّضت لإطلاق نار. أحتاج إلى المساعدة. أودّ المجيء إلى القنصلية الأميركية حالاً، هل يمكنك مساعدتي؟".

من دون تردّد، أجاب الصوت العميق: "الحمد لله أنّك على قيد الحياة سيّد لانغدون. كنّا نبحث عنك".

الفصل 12

القنصلية تعرف بوجودي هنا؟!

بالنسبة إلى لانغدون، جلب له هذا الخبر قدراً كبيراً من الراحة على الفور.

تحدّث معه السيّد كولينز الذي قدّم نفسه على أنّه مدير القنصل العامّ بنبرة حازمة ومهنية، إلاّ أنّه لمس شيئاً من الإلحاح في صوته. "سيّد لانغدون، علينا التحدّث فوراً، وبالطبع ليس هاتفياً".

لم يفهم لانغدون شيئاً، لكنّه لم يقاطعه.

قال كولينز: "سأرسل شخصاً لإحضارك على الفور. أين أنت؟".

بدا التوتّر على سيينّا وهي تصغي إلى الكلام المتبادل على الهاتف. طمأنها لانغدون بهزّة من رأسه مؤكّداً أنّه سيتّبع خطّتها حرفياً.

قال لانغدون وهو ينظر عبر النافذة إلى الفندق الصغير الذي أشارت إليه سيينّا منذ لحظات: "أنا في فندق صغير يدعى بينسيوني لا فيورينتينا". وأعطى كولينز عنوان الشارع.

أجاب الرجل: "ممتاز. لا تتحرّك من مكانك، وابقَ في غرفتك. سيأتي شخص ما فوراً لإحضارك. ما هو رقم الغرفة؟".

ارتجل لانغدون رقماً. "تسعة وثلاثون".

"حسناً. انتظر عشرين دقيقة". ثمّ أخفض كولينز صوته وقال: "سيّد لانغدون، يبدو أنّك مصاب ومرتبك، لكن عليّ أن أعرف... أما زالت بحوزتك؟".

بحوزتي! شعر لانغدون أنّ السؤال المموّه ليس له سوى معنى واحد. نظر إلى الأنبوب البيولوجي الموضوع على طاولة المطبخ وأجاب: "أجل، سيّدي. ما زالت بحوزتي".

تنهّد كولينز بصوت مسموع. "عندما لم نسمع منك شيئاً، افترضنا... في الواقع، بصراحة، افترضنا الأسوأ. أشعر بالارتياح الآن. ابقَ مكانك، ولا تتحرّك. سيطرق أحدهم بابك بعد عشرين دقيقة".

أنهى كولينز الاتصال.

شعر لانغدون بالاسترخاء للمرّة الأولى منذ أن استيقظ في المستشفى. *القنصلية تعلم بما يجري، وقريباً سأحصل على أجوبة*. أغمض عينيه وتنهّد، وشعر أنّه كائن بشري الآن. لم يكن صداعه قد فارقه بعد.

قالت سيينّا بنبرة ممازحة: "كان هذا الحديث مخابراتياً جدًّا، هل أنت جاسوس؟".

في تلك اللحظة، لم يكن لانغدون يعرف من يكون. ففقدان يومين كاملين من ذاكرته ليجد نفسه في هذا الوضع الغريب أمر لم يستطع فهمه، إلاّ أنّه الآن... على بعد عشرين دقيقة من موعد مع موظّف قنصلي في فندق صغير.

ماذا يجري هنا؟

نظر إلى سيينّا، وأدرك أنّهما على وشك الافتراق، غير أنّه شعر أنّه ما زالت ثمّة مسائل عالقة بينهما. تذكّر الطبيب الملتحي في المستشفى الذي مات على الأرض أمام عينيها، وهمس قائلاً: "سيينّا، صديقك... د. ماركوني... أشعر بأسف رهيب".

هزّت رأسها بكآبة.

"كما أنّني آسف لأنّني ورّطتك في هذا الأمر. أعرف أنّ وضعك في المستشفى ليس طبيعياً، وفي حال حدوث تحقيق...".

قالت: "لا بأس، أنا معتادة على التنقّل".

قرأ لانغدون في عيني سيينّا أنّ كلّ شيء قد تغيّر بالنسبة إليها هذا الصباح. كانت حياة لانغدون غارقة في الفوضى في تلك اللحظة، إلاّ أنّ قلبه انفطر حزناً على هذه المرأة.

لقد أنقذت حياتي... أمّا أنا فدمّرت حياتها.

جلسا بصمت لدقيقة كاملة، وازداد الهواء ثقلاً بينهما، وكأنّهما يرغبان في الكلام لكنّهما لا يجدان ما يقولانه. إنّهما غريبان في النهاية، جمع بينهما القدر في لقاء قصير وغريب، وقد وصلا إلى مفترق طرق، وعلى كلّ منهما الذهاب في سبيله الآن.

قال لانغدون أخيراً: "سيينّا، عندما أحلّ هذا الأمر مع القنصلية، إن كان ثمّة ما أستطيع القيام به لمساعدتك... أرجوك".

همست: "شكراً". وأشاحت نظرها الحزين نحو النافذة.

مع مرور الوقت، نظرت سيينّا بروكس عبر نافذة المطبخ، وتساءلت إلى أين سيقودها هذا النهار. أيًّا يكن ما سيحدث، لم يكن لديها أدنى شكّ أنّه بحلول اليوم التالي، سيبدو عالمها مختلفاً كثيراً.

أدركت أنّ الأدرينالين هو المسؤول عن إحساسها على الأرجح، لكنّها وجدت نفسها منجذبة على نحو غريب إلى البروفيسور الأميركي. فبالإضافة إلى كونه وسيماً، بدا فعلاً طيّب القلب. في حياة أخرى، ربّما كان روبرت لانغدون شخصاً تستطيع أن تكون معه.

فكّرت، *لن يرغب بي أبداً. فأنا متضرّرة.*

بينما كانت تطرد تلك الأفكار من رأسها، لفت نظرها شيء ما في الخارج. استقامت، وضغطت وجهها على الزجاج، وراحت تحدّق إلى الشارع. "روبرت، انظر!".

حدّق لانغدون إلى الشارع، فرأى درّاجة نارية سوداء من نوع بي إم دبليو توقّفت للتوّ أمام بينسيوني لا فيورينتينا. كان السائق نحيلاً وقوياً، يرتدي بذلة سوداء جلدية وخوذة. عندما ترجّل السائق برشاقة عن الدرّاجة ونزع خوذته السوداء اللامعة، سمعت سيينّا لانغدون يحبس أنفاسه.

لم يكن من الممكن ألاّ يتعرّف على المرأة بتسريحة السبايكي.

أخرجت مسدّساً مألوفاً، وتحقّقت من كاتم الصوت، ثمّ أعادته إلى جيب السترة. بعد ذلك، مشت برشاقة، ودخلت الفندق.

همست سيينّا بصوت خائف: "روبرت، لقد أرسلت الحكومة الأميركية للتوّ شخصاً لقتلك".

الفصل 13

اجتاحت لانغدون موجة من الذعر وهو يقف عند النافذة، مركّزاً نظره على الفندق الواقع في الجهة المقابلة من الشارع. كانت المرأة قد دخلت للتوّ، لكنّ لانغدون لم يفهم كيف حصلت على العنوان.

تدفّق الأدرينالين في جسده مشتّتاً أفكاره مجدّداً. "هل يعقل أن ترسل حكومة بلادي شخصاً لقتلي!".

بدا ذهول مشابه على وجه سيينّا أيضاً. "روبرت، هذا يعني أنّ المحاولة الأولى لقتلك في المستشفى كانت أيضاً بأمر من حكومة بلادك". ثمّ نهضت وتحقّقت من إقفال باب الشقّة. "إن كانت القنصلية الأميركية قد أعطت الأمر بتصفيتك..." لم تنهِ الجملة، لكن لم تكن ثمّة ضرورة لذلك، فمضاعفات ذلك مرعبة.

لكن، ماذا فعلت؟ لماذا تطاردني حكومة بلادي؟!

تذكّر لانغدون مرّة أخرى الكلمات التي كان يتمتم بها عندما وصل مترنّحاً إلى المستشفى.

آسف جدًّا... آسف جدًّا.

قالت سيينّا: "أنت لست بمأمن هنا. كلانا لسنا بمأمن هنا". وأشارت إلى الشارع مضيفة: "لقد رأتنا تلك المرأة ونحن نفرّ من المستشفى معاً. وأنا متأكّدة أنّ حكومتك والشرطة تحاولان تعقّبي. شقّتي مستأجرة بعقد إيجار باسم شخص آخر، لكنّهم سيعثرون عليّ في النهاية". ثمّ حوّلت انتباهها إلى الأنبوب البيولوجي الموضوع على الطاولة وقالت: "عليك أن تفتح هذا حالاً".

نظر لانغدون إلى الأنبوب، ولم يرَ فيه سوى رمز الخطر البيولوجي.

قالت سيينّا: "مهما يكن ما يوجد في ذلك الأنبوب فلا بدّ من وجود رمز تعريف، أو ملصق وكالة، أو رقم هاتف، *أيّ شيء*. أنت بحاجة إلى المعلومات، وأنا كذلك؛ فحكومتك قتلت صديقي!".

تأثّر لانغدون بسبب الألم الذي بدا في صوت سيينّا، فأومأ مدركاً أنّها محقة. "نعم، أنا... آسف جدًّا". وأجفل وهو يسمع تينك الكلمتين مرّة أخرى. التفت إلى الأنبوب الموضوع على الطاولة، متسائلاً عن الأجوبة التي قد يكشف عنها. "قد يكون فتح هذا الشيء خطراً جدًّا".

فكّرت سيينّا للحظة. "مهما يكن ما بداخله، فهو محميّ للغاية؛ ربّما في أنبوب اختبار من زجاج البليكسي المقاوم للكسر. فهذا الأنبوب ليس سوى غلاف خارجي لتوفير حماية إضافية أثناء النقل".

نظر لانغدون عبر النافذة إلى الدرّاجة السوداء المركونة خارج الفندق. لم تكن المرأة قد خرجت بعد، لكنّها سرعان ما ستكتشف أنّ لانغدون ليس في الداخل. وتساءل عمّا ستكون عليه خطوتها التالية... وكم ستستغرق من الوقت قبل أن تطرق على باب الشقّة.

اتّخذ لانغدون قراره. حمل أنبوب التيتانيوم، ووضع إبهامه على المنطقة البيومترية متردّداً. عندئذ، فُتح الأنبوب مصدراً طقطقة عالية.

قبل أن ينغلق الأنبوب مجدّداً من تلقاء نفسه، أدار لانغدون نصفيه باتّجاهين معاكسين. بعد ربع دورة، طقطق الأنبوب مجدّداً، وعرف لانغدون أنّ لا عودة إلى الوراء.

شعر بتعرّق في يديه وهو يواصل فتح الأنبوب. استدار النصفان بسلاسة وهو يواصل فتحهما، وشعر وكأنّه على وشك فتح دمية روسية ثمينة؛ باستثناء أنّه لا يملك فكرة عمّا يوجد داخلها.

بعد خمس دورات، فُتح النصفان. أخذ لانغدون نفساً عميقاً وفصلهما عن بعضهما بلطف. اتّسعت الفجوة بين النصفين، وانزلق قلبها المصنوع من المطّاط الإسفنجي. وضعه لانغدون على الطاولة. كانت الحشوة الواقية تشبه إلى حدّ ما طابة كرة القدم الطويلة.

لا شيء.

ثنى لانغدون قليلاً أعلى الغلاف الواقي، ليكشف أخيراً عمّا يوجد داخله.

حدّقت سيينّا إلى المحتوى، ثمّ رفعت رأسها وبدا عليها الاستغراب. "حتماً، ليس هذا ما توقّعته".

كان لانغدون قد توقّع وجود أنبوب زجاجي حديث جدًّا، لكنّ المحتوى لم يكن حديثاً على الإطلاق. إذ بدا الشيء المزخرف بالنقوش مصنوعاً من العاج، وكان تقريباً بحجم علبة من سكاكر لايف سايفرز.

همست سيينّا: "يبدو قديماً، وكأنّه...".

قال لانغدون: "ختم أسطواني"، وتنهّد أخيراً.

كان السومريون هم الذين اخترعوا الأختام الأسطوانية عام 3500 ق.م، لتكون أوّل أشكال الطباعة بالنقش الغائر. كان الختم يزيَّن بزخرفات، ويتمّ تجويف قلبه الأسطواني، حيث يمكن إدخال محور فيه ودحرجته مثل أسطوانة الطلاء الحديثة، وذلك على الطين أو الفخّار الرطب، من أجل "طبع" شريط متكرّر من الرموز، أو الصور، أو النصوص.

أدرك لانغدون أنّ هذا الختم نادر وقيّم بلا شكّ، إلاّ أنّه لم يفهم مع ذلك لماذا يوضع في علبة من التيتانيومْ وكأنّه سلاح بيولوجي.

وبينما كان لانغدون يقلّب الختم بين أصابعه، أدرك أنّه يحمل نقوشاً مخيفة على نحو خاصّ؛ نقش شيطان ذي قرون بثلاثة رؤوس يقوم بأكل ثلاثة رجال في آن واحد، رجل في كلّ فم من أفواهه الثلاثة.

كم هذا لطيف!

نظر لانغدون إلى سبعة حروف منحوتة تحت الصورة. كان النقش المزخرف مكتوباً وكأنّه على مرآة، كما هو حال جميع الأختام، لكنّ لانغدون قرأ بسهولة حروف النقش: SALIGIA.

حدّقت سيينّا إلى النصّ وقرأته بصوت عال: *"ساليدجيا؟"* .

هزّ لانغدون رأسه، وشعر بقشعريرة لدى سماعه الكلمة بصوت عالٍ. "إنّها كلمة لاتينية ابتكرها الفاتيكان في العصور الوسطى لتذكير المسيحيين بالخطايا السبع المميتة. *ساليدجيا* اختصار للكلمات: *"superbia, avaritia, luxuria, invidia, gula, ira*, and *acedia"* .

عبست سيينّا وترجمت: "الكبرياء، الجشع، الشهوة، الحسد، الشراهة، الغضب، والكسل".

فوجئ لانغدون. "أنت تعرفين اللاتينية".

"لقد نشأت على التعاليم الكاثوليكية. أنا أعرف الخطيئة".

ابتسم لانغدون، وحوّل نظره إلى الختم متسائلاً مجدّداً عن سبب حفظه في أنبوب بيولوجي وكأنّه يشكّل خطورة.

قالت سيينّا: "اعتقدت أنّه من العاج، لكنّه مصنوع من العظام". دفعت القطعة الأثرية إلى ضوء الشمس، وأشارت إلى الخطوط الموجودة عليها. "فالعاج يتكوّن في خطوط متقاطعة على شكل ألماس مع تصدّعات شفّافة، أمّا العظام فتتكوّن من هذه التصدّعات المتوازية والندب الداكنة".

تناول لانغدون الختم وتفحّص النقوش عن كثب. كانت الأختام السومرية الأصلية تحمل نقوش شخصيات بدائية وكتابات مسمارية. غير أنّ هذا الختم يحمل نقوشاً متقنة أكثر بكثير. خمّن لانغدون أنّه ينتمي إلى العصور الوسطى. أضف إلى ذلك أنّ زخرفاته توحي بعلاقة مثيرة للاضطراب مع الصور التي يهذي بها.

نظرت إليه سيينّا بقلق. "ما هذا؟".

قال لانغدون بتجهّم: "موضوع متكرّر"، وأشار إلى أحد نقوش الختم. "فالشيطان ذو الرؤوس الثلاثة الذي يأكل رجالاً صورة شائعة في العصور الوسطى؛ إنّه أيقونة تقترن بالموت الأسود. فالأفواه الثلاثة ترمز لمدى قدرة الطاعون على الفتك بالناس".

نظرت سيينّا بقلق إلى رمز الخطر البيولوجي الظاهر على الأنبوب.

يبدو أنّ الإشارات إلى الطاعون تتكرّر منذ الصباح من دون أن يكترث لانغدون لذلك. هكذا، أقرّ على مضض بوجود علاقة أخرى. "تمثّل كلمة *ساليدجيا* الخطايا الجماعية للجنس البشري... وهي، بحسب المبادئ الدينية التي كانت تلقّن في القرون الوسطى –".

أكملت سيينّا الجملة: "السبب الذي عاقب الله الناس من أجله بالموت الأسود".

"نعم". صمت لانغدون، وانقطع حبل أفكاره للحظة. فقد لاحظ أنّ هذا الأنبوب كان مسدوداً. *ثمّة شيء ما داخل هذا الختم.* سقطت أشعّة الضوء على الطرف الآخر فأومض.

قال لانغدون: "ثمّة شيء ما في الداخل، ويبدو أنّه مصنوع من الزجاج". قلب الأسطوانة رأساً على عقب للتحقّق من الطرف الآخر، فاهتزّ شيء صغير في الداخل، وتدحرج من طرف إلى آخر، مثل كرة موضوعة داخل أنبوب.

جمد لانغدون، وسمع سيينّا تشهق بجانبه.

ما هذا؟!

همست سيينّا: "هل سمعت ذلك الصوت؟".

هزّ لانغدون رأسه وحدّق بحذر إلى طرف العبوة. "يبدو أنّ الفتحة مسدودة بشيء... معدني". *ربّما هو غطاء أنبوب اختبار؟*

تراجعت سيينّا. "هل يبدو... مكسوراً؟".

"لا أظنّ ذلك". قلب الأنبوب مجدّداً لتفحّص الطرف الزجاجي، فتكرر الصوت. بعد لحظة، حصل للزجاج في الأسطوانة شيء غير متوقّع على الإطلاق.

بدأ يتوهّج.

حملقت سيينّا مذهولة. "روبرت، توقّف! لا تتحرّك!".

الفصل 14

وقف لانغدون جامداً تماماً؛ يده معلّقة في الهواء، وهو يحمل الأسطوانة بثبات. من دون أدنى شكّ، كان الزجاج الموجود في طرف الأنبوب يتوهّج... وكأنّ محتوياته قد استيقظت فجأة.

سرعان ما انطفأ الضوء.

اقتربت سيينّا وقد تسارعت أنفاسها. لوت رأسها وتأمّلت الجزء المرئي من الزجاج داخل الأنبوب العظمي.

همست: "اقلبه مجدّداً، لكن ببطء شديد".

قلب لانغدون الأنبوب بلطف، رأساً على عقب. فتدحرج الشيء الصغير على طول الأنبوب، وتوقّف.

قالت: "مرّة أخرى، بلطف".

أعاد لانغدون الكرة، وصدرت قعقعة مجدّداً داخل الأنبوب. هذه المرّة، توهّج الزجاج بوميض ضعيف، وسرعان ما تلاشى.

أعلنت سيينّا: "لا بدّ أنّه أنبوب اختبار يحتوي على كرة محرّضة".

كانت الكرات المحرِّضة مألوفة لدى لانغدون، فهي تُستخدم في عبوات رذاذ الطلاء، وتساعد على تحريك المادّة عند خضّ العبوة.

قالت سيينّا: "من المرجّح أنّه يحتوي على مركّب كيميائي فوسفوري، أو كائن بيولوجي مضيء يتوهّج عند تحفيزه". كانت أفكار مختلفة تراود لانغدون. فرغم أنّه رأى عصيًّا تتوهّج بضوء كيميائي، وعوالق مضيئة بيولوجياً تتوهّج عندما يقتحم قارب ما بيئتها، إلاّ أنّه كان واثقاً أنّ هذه الأسطوانة لا تحتوي على أيّ من هذه الأشياء. قلّب الأنبوب برفق عدّة مرّات إلى أن توهّج، ثمّ وجّه الطرف المضيء إلى كفّه. وكما توقّع، ظهر ضوء خفيف مائل إلى الاحمرار على جلده.

إنه أمر رائع أن نعرف أنّ أصحاب معدّل الذكاء 208 قد يخطئون أحياناً.

قال لانغدون: "انظري". وبدأ يهزّ الأنبوب بعنف. عندئذٍ، تدحرجت الكرة في الداخل إلى الأمام والخلف بسرعة أكبر.

قفزت سيينّا إلى الخلف وصاحت: "ماذا تفعل!؟".

واصل هزّ الأنبوب، ثمّ توجّه إلى المقبس وأطفأ مصباح الغرفة، فخيّم الظلام على المطبخ نسبيًّا. قال وهو يواصل هزّ الأنبوب بأقصى قوّته: "هذا ليس أنبوب اختبار، بل إنه مؤشّر فاراداي".

كان لانغدون قد حصل على جهاز مشابه من أحد تلامذته؛ مؤشّر لايزر للمحاضرين الذين لا يحبّون استخدام البطّاريات، ولا يمانعون بذل مجهود في خضّ المؤشّر لبضع ثوانٍ من أجل تحويل طاقتهم الحركية إلى طاقة كهربائية عند الحاجة. عند خضّ ذلك الجهاز، تهتزّ كرة معدنية في الداخل عبر سلسلة من المحرّكات لتزوّد بالطاقة مولّداً صغيراً. وعلى ما يبدو، قرّر أحدهم إدخال هذا المؤشّر في أسطوانة عظمية منحوتة؛ غلاف قديم يحتوي على لعبة إلكترونية حديثة.

بدأ طرف الأداة يتوهّج بشدّة، فنظر لانغدون إلى سيينّا وابتسم قائلاً: "حان وقت العرض".

وجّه المؤشّر العظيم إلى بقعة خالية على جدار المطبخ. وعندما أضاء الجدار، شهقت سيينّا. إلاّ أنّ لانغدون كان هو من فوجئ أكثر.

لم يكن الضوء الذي سُلّط على الجدار عبارة عن بقعة حمراء صغيرة، بل كان صورة حيّة وواضحة انبعثت من الأنبوب وكأنّه جهاز قديم لعرض الشرائح.

يا إلهي! ارتجفت يد لانغدون وهو ينظر إلى المشهد المروّع الذي رآه أمامه على الجدار. *لا عجب أنّني كنت أرى صور موت.*

إلى جانبه، وضعت سيينّا يديها على فمها، وخطت خطوة إلى الأمام، وقد هالها ما تراه.

كان المشهد الذي انبعث من الأسطوانة العظيمة المنحوتة عبارة عن لوحة زيتية كئيبة تصوّر العذاب البشري؛ آلاف الأرواح التي تعاني من العذاب في مستويات مختلفة في الجحيم. كان عالم الجحيم مصوّراً في مقطع عرضي من الأرض، فيه حفرة على شكل قمع، جدرانها تشبه جدران كهف، ولا يمكن سبر أغوارها. هذه الحفرة مقسّمة إلى مدرّجات تنازلية من البؤس المضاعف، وكلّ مستوى من مستوياتها يحتوي على خطأة متنوّعين يعانون من العذاب.

عرف لانغدون الصورة على الفور.

كانت التحفة المنعكسة أمامه - *لا مابّا ديل إنفيرنو* - من صنع أحد عمالقة عصر النهضة الإيطالية، ساندرو بوتيتشيلّي. وكانت عبارة عن خارطة مفصّلة لعالم ما تحت الأرض، *خارطة الجحيم*، وشكّلت إحدى أكثر الرؤى فظاعة لما بعد الموت. كانت تلك اللوحة القاتمة، والكئيبة، والمرعبة تستوقف الناس حتّى في يومنا هذا. فخلافاً للوحة *بريمافيرا*، أو *ولادة فينوس* النابضة بالألوان والحياة، رسم بوتيتشيلّي *خارطة الجحيم* بدرجات كئيبة من ألوان الأحمر، والبنّي الداكن، والبنيّ.

فجأة، عاد الصداع المؤلم يعتصر رأس لانغدون، إلاّ أنّه - وللمرّة الأولى منذ استيقاظه في مستشفى غريب - شعر أنّ إحدى قطع الأحجية قد سقطت في مكانها. من الواضح أنّ هلوساته المخيفة أثارتها رؤية هذه اللوحة الشهيرة.

فكّر، *لا بدّ أنّني كنت عاكفاً على دراسة لوحة بوتيتشيلّي، خارطة الجحيم.* لكنّه لا يذكر السبب.

مع أنّ اللوحة بحدّ ذاتها كانت مزعجة، إلاّ أنّ مصدر تلك اللوحة هو ما بدأ يثير اضطراب لانغدون على نحو متزايد. فقد كان لانغدون يعرف جيّداً أنّ الإلهام الذي ولّد هذه التحفة الكئيبة لم ينشأ في عقل بوتيتشيلّي نفسه... بل في عقل شخص عاش قبله بمائتي عام.

إنه عمل فنّي عظيم مستلهم من عمل آخر.

في الواقع، كانت *خارطة الجحيم* التي رسمها بوتيتشيلّي عبارة عن تكريم لعمل أدبي يرجع إلى القرن الرابع عشر، تحوّل لاحقاً إلى أشهر الأعمال الأدبية في التاريخ... رؤية مشهورة ومروّعة للجحيم ما زال صداها يتردّد حتّى يومنا هذا.

إنفيرنو دانتي.

في الجهة المقابلة من الشارع، تسلّقت فايينثا سلّماً مخصّصاً للخدمة، واختبأت على سطح الفندق الصغير. كان لانغدون قد أعطى رقم غرفة لا وجود له، ومكان لقاء وهميًّا للشخص الذي تكلّم معه في القنصلية؛ وهي تقنية معروفة تتيح له تقييم الوضع قبل أن يكشف مكانه الحقيقي. وعادة، يتمّ اختيار الموقع المزيّف لأنّه يقع على مرأى من المكان *الفعلي*.

وجدت فايينثا نقطة مراقبة جيّدة على السطح يمكنها أن تطلّ منها على المنطقة بأكملها. ببطء، أخذت تمسح بنظرها المبنى السكني المقابل.

دورك، سيّد لانغدون.

في تلك اللحظة، على متن *الميناسيوم*، خرج العميد إلى سطح القارب، وأخذ نفساً عميقاً، متلذّذاً بهواء البحر الأدرياتيكي المالح. شكّلت هذه السفينة بيته منذ سنوات، غير أنّ سلسلة الأحداث المتلاحقة في فلورنسا تهدّد بتدمير كلّ ما بناه.

لقد عرّضت العميلة الميدانية فايينثا كلّ شيء للخطر، ومع أنّها ستخضع للتحقيق عند انتهاء هذه المهمّة، إلاّ أنّ العميد ما زال بحاجة إليها.

من الأفضل لها أن تستعيد سيطرتها على هذه الفوضى.

سمع خطوات سريعة خلفه، فاستدار ليرى إحدى المحلّلات اللواتي يعملن لديه تصل مسرعة.

قالت لاهثة: "سيّدي، لدينا معلومات جديدة". بدا صوتها حادًّا على نحو غير معهود. "يبدو أنّ روبرت لانغدون دخل حساب بريده الإلكتروني من عنوان بروتوكول إنترنت غير محجوب". صمتت، ثمّ نظرت إلى عيني العميد وأضافت: "أصبح بإمكاننا تتبّع موقع لانغدون بدقّة".

ذُهل العميد من هذا التصرّف الغبي. *هذا يغيّر كلّ شيء*. جمع أصابعه وحدّق إلى الساحل، وأخذ يفكّر في العواقب. "هل لدينا أخبار عن فريق المراقبة والدعم؟".

"أجل سيّدي. إنّه موجود على بعد أقلّ من ميلين من موقع لانغدون".

لم يستغرق العميد سوى لحظة واحدة لاتّخاذ القرار.

الفصل 15

همست سيينّا: "*إنفيرنو دي دانتي*"، واقتربت من الصورة الظاهرة على جدار المطبخ.

فكّر لانغدون، *رؤية دانتي للجحيم، معكوسة هنا بالألوان الحيّة*.

كان كتاب الجحيم، أو *إنفيرنو*، الذي يُعتبر أحد أبرز الأعمال الأدبية في العالم، واحداً من الكتب الثلاثة التي تؤلّف عمل دانتي أليغييري، *الكوميديا الإلهية*، وهي قصيدة ملحمية من 14,233 بيتاً، تصف رحلة دانتي المخيفة إلى عالم ما تحت الأرض، مروراً بالمطهر، إلى أن يصل أخيراً إلى الجنّة. ومن بين الكتب الثلاثة، أي *إنفيرنو، وبورغاتوريو، وباراديزو*، كان الكتاب الأوّل هو الأكثر انتشاراً وحضوراً في الذاكرة.

ألّف دانتي أليغييري كتابه *إنفيرنو* في بدايات العقد الأوّل من القرن الرابع عشر، وأعاد فيه تعريف تصوّرات القرون الوسطى للعقاب الإلهي. لم يكن قد سبق لمفهوم الجحيم أن أسر الناس بهذه الطريقة الممتعة. لكن، بعد عشية وضحاها، عزّز عمل دانتي المفهوم المجرّد للجحيم ووضعه في إطار واضح ومخيف؛ كان مروّعاً، وملموساً، ولا يُنسى. ولا عجب أنّه بعد إصدار القصيدة، شهدت الكنيسة الكاثوليكية ارتفاعاً هائلاً في أعداد الحضور من قبل خطأة مذعورين سعوا إلى تجنّب الهلاك في النسخة المحدّثة التي صوّرها دانتي للجحيم.

في هذه اللوحة التي رسمها بوتيتشيلّي، تمّ تصوير رؤية دانتي المرعبة للجحيم على شكل قمع تحت الأرض تتدرّج فيه المعاناة؛ مشهد مخيف من النار والكبريت ومياه الصرف الصحّي والوحوش، فضلاً عن الشيطان نفسه الذي ينتظر في المركز. تتألّف الحفرة من تسعة مستويات مختلفة؛ هي حلقات الجحيم التسع، وفيها يتمّ إلقاء الخطأة بحسب فداحة خطيئتهم. على مقربة من السطح، تهبّ على أصحاب الشهوات رياح أبدية، ترمز إلى عجزهم عن السيطرة على رغباتهم. تحتهم، يُجبر الشرهون على الاستلقاء على وجوههم في مياه الصرف الصحّي القذرة، لتمتلئ أفواههم بقذارتهم. وعلى مستوى أعمق، يحاصَر المهرطقون في توابيت مشتعلة، ويُحكم عليهم بالنار الأبدية. وهكذا، يتضاعف العذاب كلّما انخفض المستوى.

خلال القرون السبعة منذ نشر الكتاب، ألهمت رؤية دانتي للجحيم أعمالاً أخرى، وترجمات، وأعمالاً أدبية مختلفة من قبل عدد من أعظم العقول المبدعة في التاريخ. هكذا كتب لونغفيلو، وتشوسر، وماركس، وميلتون، وبالزاك، وبورخس، وحتّى عدد من البابَوات نصوصاً مستندة إلى *إنفيرنو* دانتي. كما ألّف مونتيفيردي، وليزت، وفاغنر، وتشايكوفسكي، وبوتشيني مقطوعات موسيقية مرتكزة على عمل دانتي، وكذلك فعلت واحدة من موسيقيات العصر

المفضّلات لدى لانغدون؛ لورينا ماكينيت. حتّى إنّ العالم المعاصر من ألعاب الفيديو وتطبيقات آي باد لم يوفّر موضوعات ذات صلة بدانتي.

كان لانغدون توّاقاً إلى مشاطرة طلاّبه الثراء الرمزي النابض بالحياة لرؤية دانتي، لذلك كان يعطيهم في بعض الأحيان مادّة عن الصور المتكرّرة لدى دانتي والأعمال التي استُلهمت منه على مرّ القرون.

قالت سيينّا وهي تقترب من الصورة الظاهرة على الجدار: "روبرت، انظر!". وأشارت إلى منطقة قريبة من أسفل الجحيم المصوّر على شكل قمع.

كانت المنطقة التي تشير إليها معروفة باسم *ماليبولغي*، أي "خنادق الشرّ". كانت تشكّل الحلقة الثامنة وما قبل الأخيرة من الجحيم، وتُقسم إلى عشرة خنادق منفصلة، كلّ منها مخصّص لنوع معيّن من الغشّ.

أشارت سيينّا بحماسة أكبر. "انظر! ألم تقل إنّك رأيت هذا وأنت تهذي؟!".

ركّز لانغدون نظره إلى حيث أشارت سيينّا، لكنّه لم يرَ شيئاً. كان جهاز العرض الصغير يخسر طاقته؛ حيث بدأت الصورة تتلاشى. فقام بخضّ الجهاز بقوّة إلى أن شعّ بقوّة مجدّداً. عندئذٍ، وضعه بحذر على مسافة أبعد من الجدار، على طرف طاولة المطبخ الصغيرة؛ حيث انعكست منه صورة أكبر. اقترب لانغدون من سيينّا، ووقف جانباً لتأمّل الخارطة المتوهّجة.

أشارت سيينّا مجدّداً إلى الحلقة الثامنة. "انظر. ألم تقل إنّك رأيت في هلوساتك ساقَين بارزتين من الأرض رأساً على عقب، تحملان الحرف *R*؟". ثمّ لمست بقعة محدّدة على الجدار، وأضافت: "ها هما!".

كما لاحظ لانغدون مرّات عديدة وهو يتأمّل هذه اللوحة، كان الخندق العاشر من *الماليبولغي* يعجّ بخطأة نصف مدفونين رأساً على عقب، سيقانهم بارزة فوق الأرض. لكنّ الغريب في هذه النسخة هو أنّ الساقين تحملان الحرف *R*، مكتوباً بالطين؛ تماماً كما رآه لانغدون في هذيانه.

يا إلهي! حدّق لانغدون جيّداً إلى هذا التفصيل الصغير. "هذا الحرف *R*... غير موجود بالتأكيد في لوحة بوتيتشيلّي الأصلية!".

أشارت سيينّا بإصبعها قائلة: "ثمّة حرف آخر".

تبع لانغدون إصبعها إلى خندق آخر من الخنادق العشرة، ليرى الحرف *E* مكتوباً على جثّة كاذب، رأسه مثبّت إلى الوراء.

ما هذا؟ لقد تمّ تعديل هذه اللوحة.

بدأت تظهر أمامه أحرف أخرى، مكتوبة على خطأة موجودين في الخنادق العشرة *للماليبولغي*. رأى الحرف *C* على مغرّر يقوم الشياطين بجلده... وحرف *R* آخر على لصّ تعضّه الأفاعي باستمرار... والحرف *A* على سياسي فاسد غارق في بحيرة من القطران المغلي.

قال لانغدون بيقين: "هذه الأحرف غير موجودة بالتأكيد في لوحة بوتيتشيلّي الأصلية. لقد تمّ تعديل هذه الصورة رقمياً".

حوّل نظره إلى الخندق الأعلى من *الماليبولغي*، وبدأ يقرأ الأحرف نزولاً، عبر كلّ من الخنادق العشرة، من الأعلى إلى الأسفل.

C... A... T... R... O... V... A... C... E... R

قال لانغدون: "*Catrovacer*؟ أهذه كلمة إيطالية؟".

هزّت سيينّا رأسها نافية. "كما أنّها ليست لاتينية. لا أعرف معناها".

"ربّما هي... توقيع؟".

قالت بتشكّك: "*Catrovacer*؟ لا تبدو لي اسماً. لكن انظر هناك". وأشارت إلى إحدى الشخصيات العديدة الموجودة في الخندق الثالث.

عندما نظر لانغدون إلى الصورة، أحسّ بقشعريرة. فقد رأى بين حشود الخطأة في الخندق الثالث صورة أيقونية من العصور الوسطى، عبارة عن رجل يرتدي معطفاً ويضع قناعاً ذا أنف طويل يشبه المنقار، وعينين ميتتين.

قناع الطاعون.

سألته سيينّا: "هل تتضمّن لوحة بوتيتشيلّي الأصلية طبيب طاعون؟".

"قطعاً لا. هذه الصورة مضافة".

"وهل *وقّع* بوتيتشيلّي لوحته الأصلية؟".

لا يذكر لانغدون هذا التفصيل. لكن، عندما نظر إلى الزاوية السفلية اليمنى التي يظهر عليها التوقيع عادة، أدرك سبب سؤالها. فاللوحة لم تكن تحمل توقيعاً، غير أنّ سطراً من الحروف الصغيرة كان مرئياً بالكاد على الطرف البنّي الداكن للوحة: *la verità è visibile solo attraverso gli occhi della morte*.

كانت معرفة لانغدون باللغة الإيطالية محدودة، لكنّها كافية لفهم معنى الجملة. "لا يمكن لمح الحقيقة إلاّ عبر عيون الموت".

أومأت سيينّا قائلة: "هذا غريب".

وقف الاثنان بصمت، في حين بدأت الصورة تتلاشى أمامهما ببطء. فكّر لانغدون، ما زال *إنفيرنو دانتي مصدر إلهام للتحف الفنّية منذ عام 1330.*

كانت المادّة التي يعطيها لانغدون عن دانتي تتضمّن دائماً جزءاً كاملاً عن الأعمال الفنّية المستلهمة من *إنفيرنو*. فبالإضافة إلى *خارطة الجحيم* الشهيرة التي رسمها بوتيتشيلّي، صنع رودان منحوتته الرائعة التي تحمل اسم *الظلال الثلاثة* من *أبواب الجحيم*... وقام سترادانوس بتصوير فليجياس وهو يجذّف بين الجثث الغارقة في نهر ستيكس... ونرى خطأة الشهوة لدى ويليام بلايك تعصف بهم رياح أبدية... في حين صوّر بوغرو مشهداً إباحياً غريباً يُظهر دانتي وفيرجيل وهما يشاهدان رجُلين عاريَين يتعاركان... ونرى الأرواح المعذّبة لدى بايروس جالسة

تحت سيل كالبرَد من الجمر وقطرات النار... كذلك، يملك سالفادور دالي سلسلة غريبة جدًّا من الألوان المائية والكليشيهات الخشبية... هذا فضلاً عن مجموعة دوريه الضخمة من النقوش بالأبيض والأسود التي تصوّر كلّ شيء؛ من نفق المدخل إلى الجحيم... إلى الشيطان المجنّح نفسه.

يبدو الآن أنّ تأثير رؤية دانتي الشاعرية للجحيم لم يقتصر على أهمّ الفنّانين عبر التاريخ. على ما يبدو، لقد ألهمت ملحمته شخصاً آخر؛ نفساً منحرفة عمدت إلى تعديل لوحة بوتيتشيلّي الشهيرة رقمياً، مضيفة إليها عشرة حروف، وطبيب طاعون، ووقّعتها بعبارة مشؤومة عن رؤية الحقيقة عبر عيون الموت. بعد ذلك، قام هذا الفنّان بتخزين الصورة على جهاز عرض عالي التقنية، موضوع في قطعة عظام مزيّنة بنقش مخيف.

لم يستطع لانغدون أن يتخيّل من يكون صاحب هذه التحفة الفنّية. غير أنّ هذه المسألة تُعتبر ثانوية في الوقت الحاضر بالنسبة إلى سؤال آخر أكثر إثارة للأعصاب.

كيف وصلت إلى جيبي؟

بينما كانت سيينّا واقفة مع لانغدون في المطبخ يفكّران في الخطوة التالية، تردّد هدير غير متوقّع لمحرّك قويّ في الشارع، تبعه صوت متقطّع لإطارات تتوقّف فجأة، وأبواب سيّارة تصفق.

استغربت سيينّا، وأسرعت لتنظر عبر النافذة.

رأت سيارة فان سوداء متوقّفة في الشارع ولا تحمل أيّ علامة. تدفّق من داخلها فريق من الرجال، يرتدون جميعاً البذلات السوداء، ويضعون شارات دائرية خضراء على أكتافهم اليسرى. حملوا بنادقهم الآلية وتقدّموا على نحو عسكري عنيف. ومن دون أيّ تردّد، اندفع أربعة جنود نحو مدخل المبنى السكني.

صاحت سيينّا وقد تجمّد الدم في عروقها: "روبرت! لا أعرف من هم، لكنّهم عثروا علينا!".

في الشارع، صاح العميل كريستوف برودر، مصدراً الأوامر إلى رجاله وهم يسرعون إلى المبنى. كان رجلاً قوي البنية، منحه تاريخه العسكري إحساساً راسخاً بالواجب، وعلّمه احترام التسلسل القيادي. كان يعرف مهمّته، ويدرك المخاطر التي تنطوي عليها.

كانت المنظّمة التي يعمل لحسابها تتضمّن أقساماً عديدة، إلاّ أنّ الشعبة التي ينتمي إليها برودر، أي شعبة المراقبة والدعم، لا تُستدعى إلاّ عندما يتحوّل الوضع إلى "أزمة".

بينما اختفى الرجال في المبنى السكني، وقف برودر مراقباً المدخل، ثمّ أخرج جهاز الاتصال واتصل بالمسؤول.

قال: "أنا برودر. نجحنا في تعقّب لانغدون عبر عنوان بروتوكول الإنترنت لجهازه. فريقي دخل الآن. سأبلغكم عندما يصبح بين أيدينا".

على ارتفاع عدّة طوابق فوق برودر، على سطح بينسيوني لا فيورينتينا، حدّقت فايينثا غير مصدّقة إلى العملاء الذين اندفعوا إلى داخل المبنى السكني.

ماذا يفعلون هنا؟

مرّرت يدها عبر شعرها، وقد فهمت فجأة عواقب مهمّتها الفاشلة في الليلة الماضية. هديل حمامة قوّض مهمّتها بأكملها وأخرجها عن السيطرة. ما بدأ كمهمّة بسيطة... تحوّل الآن إلى كابوس فعلي.

إن كان فريق المراقبة والدعم هنا، فهذا يعني أنّ كلّ شيء قد انتهى بالنسبة إليّ.

تناولت فايينثا جهاز سيكترا تايغر إكس إس واتصلت بالعميد.

تمتمت: "سيّدي، فريق المراقبة والدعم هنا! رجال برودر يملأون المبنى السكني المقابل!".

انتظرت الجواب، لكن عندما أتى، لم تسمع سوى نقرات حادّة على الخطّ، تبعها صوت إلكتروني قال بهدوء: "لقد بدأ بروتوكول التنصّل".

أخفضت فايينثا الهاتف، ونظرت إلى الشاشة في الوقت الذي انطفأ فيه الجهاز.

شحب وجهها، وحاولت إجبار نفسها على قبول ما آلت إليه الأمور. لقد قطع الكونسورتيوم كلّ روابطه بها.

لا اتصال، ولا ارتباط.

لقد تمّ التنصّل منّي.

لم تدم الصدمة سوى للحظة.

ثمّ استبدّ بها الخوف.

الفصل 16

حثّت سييئا روبرت قائلة: "أسرع روبرت. اتبعني!".

كانت أفكار روبرت ما زالت مشوّشة بالصور الكئيبة لجحيم دانتي وهو يندفع من الباب إلى ردهة المبنى السكني. حتّى تلك اللحظة، تمكّنت سييئا بروكس من التغلّب على توتّرها الصباحي الكبير بسلوك هادئ. زال الآن إثر انفعال لم يسبق لانغدون أن رآه لديها من قبل الخوفُ الحقيقي.

في الممرّ، ركضت سييئا أمامه، ومرّت من أمام المصعد الذي كان يهبط بعد أن طلبه أحد الرجال الذين دخلوا المبنى من دون شكّ. أسرعت إلى آخر الرواق، ومن دون أن تنظر خلفها اختفت على الدّرج.

تبعها لانغدون عن قرب، وأسرع خلفها منتعلاً حذاءه المطّاطي الخفيف. كان جهاز العرض الصغير الموضوع في جيب سترته الأمامي يرتطم بصدره وهو يركض. ومضت في رأسه الأحرف الغريبة التي تزيّن الحلقة الثامنة من الجحيم: CATROVACER. تخيّل قناع الطاعون والجملة الغريبة: *لا يمكن لمح الحقيقة إلاّ عبر عيون الموت.*

حاول لانغدون أن يربط بين هذه العناصر المتباعدة، لكنّها بدت له بلا معنى في تلك اللحظة. عندما توقّف أخيراً عند أحد الطوابق، كانت سييئا هناك تصغي إلى الأصوات. سمع لانغدون الخطوات التي تصعد الدّرج من الأسفل.

همس قائلاً: "هل يوجد مخرج آخر؟".

أجابته بحزم: "اتبعني".

كانت سييئا قد أنقذت حياة لانغدون في وقت سابق من هذا اليوم. لذلك، وبما أنّه لا يملك أي خيار غير الوثوق بالمرأة، أخذ نفساً عميقاً واندفع خلفها على الدّرج.

نزلا طابقاً آخر، وأصبحت أصوات الأحذية أقرب بكثير؛ تتردّد على بعد طابق أو طابقين تحتهما.

لماذا تركض نحوهم مباشرة؟

وقبل أن يتمكّن لانغدون من الاعتراض، مدّت سيينا يدها وشدّته بعيداً عن الدّرج، عبر رواق خال وطويل، تتوزّع فيه الأبواب المغلقة.

ما من مكان للاختباء!

ضغطت على أحد أزرار النور، فانطفأت بضعة مصابيح، لكنّ الممرّ المعتم لم يخفهما تماماً. كانت سييئا ولانغدون مرئيّين بوضوح هنا. أصبحت الخطوات المسرعة قريبة جدًّا الآن، وعرف لانغدون أنّ الجنود سيصلون في أيّ لحظة وسيرونهما مباشرة.

همست سيينّا: "أحتاج إلى سترتك". ونزعت السترة التي يرتديها لانغدون. بعد ذلك، أجبرت لانغدون على الانحناء خلفها في إطار باب متراجع قليلاً. "لا تتحرّك".

ماذا تفعل؟ إنّها مكشوفة تماماً!

ظهر الجنود على الدّرج متّجهين إلى الأعلى، لكنّهم توقّفوا عندما رأوا سيينّا في الممرّ المعتم.

صاحت بهم سيينّا بالإيطالية بنبرة تأنيب: "بالله عليكم! ما هذه الجلبة؟".

حدّق الرجلان، غير متأكّدَين ممّا ينظران إليه.

فواصلت صياحها. "ما كلّ هذا الضجيج في هذه الساعة!".

أدرك لانغدون الآن أنّ سيينّا غطّت رأسها وكتفيها بسترته السوداء، فبدت السترة وكأنها وشاح امرأة عجوز. كما أحنت ظهرها، ووقفت بطريقة حجبت لانغدون المنحني خلفها في الظلّ. وبعدما تغيّر شكلها تماماً، اقتربت خطوة وراحت تصيح مثل امرأة عجوز مجنونة.

رفع أحد الجنديَّين يده، وأشار إليها للعودة إلى شقّتها. "سينيورا، عودي إلى بيتك حالاً!".

قامت سيينّا بخطوة أخرى وهي تترنّح، وتهزّ يدها بغضب. "لقد أيقظتم زوجي المريض!".

أصغى إليها لانغدون مدهوشاً. *أيقظوا زوجك المريض؟*

في تلك اللحظة، رفع الجندي الآخر بندقيته ووجّهها نحوها مباشرة. "توقّفي وإلاّ أطلقت النار!".

توقّفت سيينّا فوراً، واستمرّت بشتمهما من دون رحمة وهي تتراجع إلى الخلف بعيداً عنهما.

أسرع الرجلان، واختفيا على الدّرج.

فكّر لانغدون، *لم يكن عرضاً شكسبيرياً تماماً، إلاّ أنّه مثير للإعجاب.* لا شكّ أنّ المواهب الدرامية سلاح ذو حدّين.

نزعت سيينّا السترة عن رأسها وأعادتها للانغدون. "حسناً، اتبعني".

هذه المرّة، تبعها لانغدون من دون تردّد.

نزلا إلى الطابق الذي يعلو الردهة، وهناك كان يوجد جنديان آخران استقلاّ المصعد للتوّ. وفي الشارع، وقف جندي آخر يراقب بجانب الفان، وبدت عضلاته المفتولة واضحة تحت بذلته السوداء. أسرعت سيينّا ولانغدون بهدوء نحو الطابق السفلي الذي كان مظلماً وتفوح منه رائحة القذارة. توجّهت سيينّا نحو زاوية رُكنت فيها درّاجات السكوتر والدرّاجات النارية. توقّفت أمام ترايك فضّية، هي عبارة عن درّاجة بثلاث عجلات تجمع بين درّاجة الفيسبا الإيطالية والدرّاجة الهوائية ذات العجلات الثلاث المخصّصة للكبار. مرّرت يدها الرشيقة تحت الحاجز الأمامي ونزعت علبة مغناطيسية صغيرة. كان بداخلها مفتاح، أدخلته وشغّلت المحرّك.

بعد ثوان، جلس لانغدون خلفها على الدرّاجة. شعر أنّه غير ثابت على المقعد الصغير، فراح يتلمّس جانبَي الدرّاجة بحثاً عن شيء ما يتمسّك به.

قالت له سيينّا: "ليس هذا وقت الخجل". ثمّ أمسكت بيديه ولفّتهما حول خصرها النحيل. "عليك أن تتمسّك جيّداً".

وهذا ما فعله لانغدون حين انطلقت سيينّا بالدرّاجة عبر المخرج. كانت الآلة أكثر قوّة ممّا تخيّل؛ حيث عبرا الطابق السفلي بسرعة وخرجا إلى ضوء الصباح على بعد خمسين ياردة تقريباً من المدخل الرئيس. التفت الجندي مفتول العضلات الواقف أمام المبنى على الفور ليرى لانغدون وسيينّا ينطلقان بعيداً على متن الدرّاجة التي أصدرت صوتاً عالياً عندما ضغطت على دوّاسة السرعة.

التفت لانغدون إلى الخلف لينظر إلى الجندي الذي رفع سلاحه وصوّبه نحوه. انحنى لانغدون، ودوت طلقة واحدة أصابت الجهة الخلفية للدرّاجة وكانت على وشك أن تصيب لانغدون في عموده الفقري.

ربّاه!

انعطفت سيينّا بقوّة إلى اليسار عند تقاطع طرق، وشعر لانغدون أنّه ينزلق، وكافح ليحافظ على توازنه.

صاحت به: "انحنِ عليّ!".

انحنى لانغدون إلى الأمام، واستعاد توازنه، في حين انطلقت سيينّا في شارع أكبر. مرّا من أمام عدد من المباني قبل أن يستعيد لانغدون أنفاسه.

من هم أولئك الرجال؟!

أبقت سيينّا تركيزها على الطريق وهي تسرع بالدرّاجة وسط حركة السير الصباحية الخفيفة. دُهش عدد من المارّة عند مرورهما، مستغربين على ما يبدو رؤية رجل بطول ستّ أقدام يرتدي سترة بريوني ويجلس *خلف* امرأة نحيلة.

تجاوز لانغدون وسيينّا عدداً من المباني، وكانا يقتربان من تقاطع رئيس عندما انطلقت الأبواق أمامهما. فجأة، ظهر أمامهما فان أسود لامع، انعطف عند الزاوية على عجلتين، واجتاز التقاطع، وأسرع متّجهاً نحوهما مباشرة. كان الفان يشبه تماماً فان الجنود الذين اقتحموا المبنى السكني.

على الفور، انحرفت سيينّا بقوّة إلى اليمين، وضغطت على المكابح، فارتطم صدر لانغدون بظهرها وهي تتوقّف بعيداً عن الأنظار خلف شاحنة مركونة على جانب الطريق. أوقفت الدرّاجة خلف الشاحنة، وأطفأت المحرّك.

هل رأونا؟!

انحنت هي ولانغدون في مخبئهما، وانتظرا... مقطوعَي الأنفاس.

مرّ الفان من دون تردّد، وبدا واضحاً أنّ ركّابه لم يروهما إطلاقاً. لكن في أثناء مروره، لمح لانغدون شخصاً في الداخل.

على المقعد الخلفي، كانت ثمّة امرأة مسنّة جذّابة جالسة بين جنديَين وكأنّها أسيرة. بدت عيناها مرتخيتين، ورأسها يتمايل كما لو أنّها تهذي أو تمّ تخديرها. وكانت هناك تميمة تتدلى من سلسلة حول عنقها، في حين تدلّى شعرها الطويل الفضّي على ظهرها.

للحظة، ذُهل لانغدون، واعتقد أنّه رأى شبحاً.

كانت تلك هي المرأة التي رآها حين كان يهذي.

الفصل 17

خرج العميد من غرفة التحكّم وسار على سطح اليخت محاولاً استجماع أفكاره. ما حدث للتوّ في شقّة فلورنسا لا يمكن تصوّره.

دار على سطح اليخت مرّتين، ثمّ دخل مكتبه وتناول زجاجة شراب معتّق منذ خمسين عاماً. ومن دون أن يصبّ كأساً، وضع الزجاجة وأدار لها ظهره؛ مذكّراً نفسه أنّه ما زال يملك زمام السيطرة.

وقع نظره تلقائياً على مجلّد قديم بالٍ على رفّ الكتب. كان هدية من عميل... عميل تمنّى لو أنّه لم يلتقه مطلقاً.

منذ عام خلا... كيف كان لي أن أعرف؟

لم يكن العميد عادة يقابل زبائنه شخصياً، لكنّ هذا الزبون أتاه عبر مصدر موثوق، لذلك قبِل الخروج عن القاعدة.

كان البحر هادئاً في ذلك اليوم الذي وصل فيه الزبون إلى *مينداسيوم* بواسطة طائرته المروحية الخاصّة. كان الزائر، وهو شخصية مشهورة في مجاله، يبلغ السادسة والأربعين من عمره، ويمتاز بأناقته، وطوله الفارع، وعينيه الخضراوين الثاقبتين.

قال له الرجل: "كما تعرف، نصحني صديق مشترك بالاستعانة بخدماتك". مدّ الزائر ساقيه الطويلتين، واسترخى وكأنّه في منزله وهو جالس في مكتب العميد الفخم. "لذلك، سأخبرك بما أريده".

قاطعه العميد، مثبتاً أنّه هو من يمتلك زمام الأمور: "كلاّ. في الواقع، ينصّ بروتوكولي على ألاّ تقول لي شيئاً. سأشرح لك الخدمات التي أقدّمها، وستختار منها ما يناسبك، إن وُجد".

فوجئ الزائر، لكنّه وافق وأصغى إليه. في النهاية، تبيّن أنّ ما يريده ذلك الوافد الجديد خدمة عادية جدًّا بالنسبة إلى الكونسورتيوم، تنصّ بشكل أساسي على نيل فرصة لكي يختفي عن الأنظار لبعض الوقت حتّى يتمكّن من مواصلة مسعاه بعيداً عن أعين المتطفّلين.

لعبة أطفال.

بإمكان الكونسورتيوم أن يوفّر له ذلك عن طريق تأمين هوية مزيّفة، ومكان آمن ومجهول تماماً يستطيع فيه إنجاز عمله بسرّية تامّة؛ أيًّا يكن ذلك العمل. لم يسأل الكونسورتيوم قطّ عن *الغرض* من الخدمة التي يقدّمها، ولطالما فضّل أن يعرف أقلّ قدر ممكن من المعلومات عن الأشخاص الذين يعمل من أجلهم.

لمدّة عام كامل، ومقابل أرباح هائلة، أمّن العميد جنّة آمنة لصاحب العينين الخضراوين الذي تبيّن أنّه عميل مثالي. لم يحدث أيّ اتصال بينه وبين العميد، وكان يدفع جميع فواتيره في الوقت المحدّد.

لكن، منذ أسبوعين تغيّر كلّ شيء.

فجأة، اتّصل الزبون، وطلب مقابلة العميد شخصياً. ونظراً إلى مبلغ المال الكبير الذي دفعه حتّى ذلك الوقت، شعر العميد أنّه مضطر لمقابلته.

بالكاد وجد شبهاً بين الرجل الأشعث الذي وصل إلى اليخت والرجل الأنيق والثابت الذي عقد معه صفقة قبل عام خلا. طغت نظرة جامحة على عينيه الخضراوين اللتين تميّزتا بحدّتهما في السابق. بدا... مريضاً تقريباً.

ماذا حدث له؟ ماذا كان يفعل؟

اصطحب العميد الرجل المتوتّر إلى مكتبه.

راح الزبون يتمتم: "الشيطانة ذات الشعر الفضّي تقترب يوماً بعد يوم".

نظر العميد إلى ملفّ زبونه، وتأمّل صورة المرأة الجذّابة ذات الشعر الفضّي. قال العميد: "أجل، شيطانتك ذات الشعر الفضّي. كلّنا نعرف أعداءك. مهما تكن قوّتها، أبقيناها بعيدة عنك لمدّة عام كامل، وسنستمرّ في القيام بذلك".

راح صاحب العينين الخضراوين يلفّ خصلاً من شعره الدهني حول أصابعه. "لا تنخدع بجمالها، إنّها عدوّ خطير".

فكّر العميد، *هذا صحيح*، وكان لا يزال مستاءً لأنّ زبونه لفت انتباه شخص بهذا النفوذ الواسع. كانت ذات الشعر الفضّي تمتلك نفوذاً وموارد هائلة، وليست من الخصوم الذين يحبّ العميد مواجهتهم.

قال الزبون: "إن عثرت عليّ هي أو أحد شياطينها...".

طمأنه العميد قائلاً: "لن يفعلوا. ألم نبعدك عن أعينهم طوال هذا الوقت، ووفّرنا لك كلّ ما طلبته؟".

قال الرجل: "بلى. لكنّني سأنام ملء جفنَي إن..." صمت هنيهة محاولاً استجماع أفكاره. "أريد أن أتأكّد أنّكم ستنفّذون أمنياتي الأخيرة مهما حدث لي".

"وما هي؟".

مدّ الرجل يده إلى داخل حقيبة، وأخرج منها مغلّفاً صغيراً مختوماً. "محتويات هذا المغلّف تؤمّن الوصول إلى خزنة في فلورنسا. داخل الخزنة، ستجد غرضاً صغيراً. إن أصابني مكروه، فأنا أريدك أن تسلّم هذا الشيء نيابة عنّي. إنّه هدية".

"حسناً". أمسك العميد بقلمه لتدوين ملاحظاته. "ولمن أسلّمه؟".

"للشيطانة ذات الشعر الفضّي".

نظر إليه العميد، وسأله: "أهو هدية لعدوّتك؟".

"ستكون هذه الهدية أكثر من شوكة في خاصرتها". وومضت عيناه بوحشية. "ستكون شوكة صغيرة ذكية، مصنوعة من العظام. ستكتشف أنّها خارطة... أنّها فيرجيل الخاصّ بها... رفيقها إلى وسط جحيمها".

تأمّله العميد مطوّلاً. "كما تريد. اعتبر الأمر منتهياً".

ألحّ الرجل قائلاً: "سيكون التوقيت حرجاً جداً. إذ لا ينبغي تسليم الهدية قبل الأوان. عليك أن تحتفظ بها حتى..." صمت، وقد شرد فجأة.

حثّه العميد: "حتى ماذا؟".

وقف الرجل فجأة، ومشى ليقف خلف مكتب العميد، ثمّ أمسك بقلم أحمر ورسم دائرة حول تاريخ على روزنامة العميد الشخصية. "حتّى هذا اليوم".

شدّ العميد عضلات فكّه، وزفر مبتلعاً استياءه إزاء غرابة أطوار هذا الرجل، وقال: "مفهوم. لن أفعل شيئاً قبل هذا اليوم، وفيه سيُسلّم الغرض الموضوع في الخزنة، أيًّا تكن ماهيّته، إلى صاحبة الشعر الفضّي. أعدك بذلك". وعدّ الأيّام على روزنامته حتّى وصل إلى اليوم المحاط بالدائرة الغريبة. "سأنفّذ رغبتك بعد أربعة عشر يوماً بالضبط".

حذّره الزبون بحدّة: "وليس قبل ذلك بيوم واحد!".

أكّد له العميد: "فهمت، ليس قبل ذلك بيوم واحد".

تناول العميد المغلّف ووضعه في ملفّ الرجل، ثمّ دوّن الملاحظات اللازمة لضمان تنفيذ رغبات الزبون حرفياً. ومع أنّه لم يصف طبيعة الشيء الموجود في الخزنة، إلاّ أنّ العميد فضّل عدم المعرفة. فعدم الاكتراث هو حجر الزاوية في فلسفة الكونسورتيوم. *قدّم الخدمة من دون طرح أسئلة أو إصدار أحكام.*

استرخى الرجل وأطلق نفساً ثقيلاً. "شكراً لك".

سأله العميد: "هل من طلب آخر؟". وكان توّاقاً للتخلّص من هذا الزبون الغريب.

"أجل في الواقع". مدّ يده إلى جيبه وأخرج شريحة ذاكرة صغيرة حمراء اللون. وضعها أمام العميد وقال: "هذا ملفّ فيديو. أريد أن يتمّ تحميله لوسائل الإعلام العالمية".

تأمّل العميد الرجل بفضول. غالباً ما كان الكونسورتيوم يوزّع معلومات لزبائنه على وسائل الإعلام، إلاّ أنّ شيئاً ما في طلب هذا الرجل بدا مثيراً للقلق.

سأله العميد، مشيراً إلى الدائرة على روزنامته: "في التاريخ نفسه؟".

أجاب الزبون: "في التاريخ نفسه، وليس قبل ذلك بلحظة واحدة".

"مفهوم". ودوّن العميد المعلومات على ورقة مرفقة بشريحة الذاكرة. "هذا كلّ شيء إذاً؟". ثمّ وقف محاولاً إنهاء الاجتماع.

لم يبارح الزبون مكانه. "كلاّ، ثمّة أمر أخير".

عاد العميد للجلوس في مكانه.

بدت عينا الزبون الخضراوان شاردتين تماماً الآن. "بعد أن تسلّم هذا الفيلم، سأصبح رجلاً مشهوراً جدًّا".

فكّر العميد، *أنت رجل مشهور منذ الآن*، نظراً إلى إنجازاته الرائعة.

قال الرجل: "وأنت تستحقّ بعضاً من هذا الفضل، فخدماتك هي التي مكّنتني من إنتاج تحفتي... التي ستغيّر العالم. يجب أن تكون فخوراً بدورك".

أجاب العميد بنفاد صبر متزايد: "أيًّا تكن تحفتك، أنا مسرور لأنّك حصلت على الخصوصية اللازمة من أجل إنتاجها".

"تعبيراً عن شكري، أحضرت لك هدية وداع". ومدّ الرجل الأشعث يده إلى حقيبته. "إنها كتاب".

تساءل العميد عمّا إذا كان هذا الكتاب هو التحفة الأثرية التي كان الزبون يعمل عليها طوال هذا الوقت. "وهل أنت من ألّف هذا الكتاب؟".

"كلاّ". ثمّ رفع مجلّداً ضخماً ووضعه على الطاولة. "على العكس تماماً... تمّ تأليف هذا الكتاب *من أجلي*".

رمق العميد المجلّد الذي أخرجه الزبون من حقيبته مستغرباً. *يظنّ أنّ هذا الكتاب أُلّف من أجله؟* كان المجلّد عبارة عن عمل أدبي كلاسيكي... كُتب في القرن الرابع عشر.

حثّه الزبون بابتسامة غريبة: "اقرأه، سيساعدك على فهم كلّ ما فعلته".

عند ذلك، وقف الزائر الأشعث وودّعه، ثمّ رحل فجأة. راقب العميد من نافذة مكتبه مروحيّة الزائر وهي تقلع عائدة إلى الساحل الإيطالي.

بعد ذلك، حوّل انتباهه إلى المجلّد الضخم الموضوع أمامه. مدّ أصابعه بتردّد، ورفع الغلاف الجلدي، وقرأ. كانت افتتاحية الكتاب مكتوبة بأحرف كبيرة؛ حيث احتلّت الصفحة الأولى بأكملها.

الجحيم
في منتصف مسيرة حياتنا
وجدت نفسي في ظلام غابة،
لأنّني أضعت الطريق المستقيم.

على الصفحة المقابلة، كتب الزبون إهداءً بخطّ اليد:

صديقي العزيز، شكراً لك لمساعدتي على إيجاد الطريق.
العالم يشكرك أيضاً.

لم يفهم العميد معنى ذلك، لكنّه قرأ ما فيه الكفاية. لذا، أغلق الكتاب، ووضعه على الرفّ. لحسن الحظّ، ستنتهي علاقته المهنية مع هذا الغريب قريباً. *أربعة عشر يوماً بعد*، هكذا فكّر وهو ينظر إلى التاريخ المحاط بدائرة حمراء على روزنامته الشخصية.

في الأيّام التالية، شعر العميد بتوتّر غير معهود حين تذكر زبونه. فقد بدا الرجل غير طبيعي يوم مجيئه. مع ذلك، مرّ الوقت من دون وقوع أيّ حوادث، على الرغم من الإحساس الذي راوده.

لكن، قبل اليوم الموعود تماماً، وقعت سلسلة من الأحداث السريعة والمأساوية في فلورنسا. حاول العميد التعامل مع الأزمة، لكن سرعان ما خرجت الأمور عن سيطرته. وبلغت الأزمة ذروتها بصعود عميله إلى برج باديا.

قفز... إلى حتفه.

على الرغم من الصدمة التي شعر بها إزاء خسارته أحد زبائنه، لا سيّما بتلك الطريقة المروّعة، إلاّ أنّه حافظ على وعده. فبدأ على الفور بتنفيذ وعده الأخير للرجل الراحل، ألا وهو تسليم المرأة ذات الشعر الفضّي محتويات الخزنة في فلورنسا. وكان توقيت هذا العمل حرجاً؛ كما تمّ تحذيره.

ليس قبل التاريخ المحدّد على الروزنامة.

أعطى العميد المغلّف الذي يحتوي على رموز الخزنة لفايينثا. وسافرت هذه الأخيرة إلى فلورنسا لإحضار الغرض الموجود في الداخل. لكن، عندما اتّصلت به فايينثا، كانت تحمل أخباراً مفاجئة وخطيرة على حدّ سواء. فقد وجدت الخزنة فارغة، وأفلتت من الاعتقال بصعوبة. بطريقة ما، علمت ذات الشعر الفضّي بما يجري، واستخدمت نفوذها للوصول إلى الخزنة، وإصدار مذكّرة توقيف بحقّ أيّ شخص يحاول فتحها.

كان ذلك قبل ثلاثة أيّام.

أراد الزبون أن يشكّل ذلك الشيء الغامض إهانته الأخيرة للمرأة ذات الشعر الفضّي؛ أن يكون بمثابة صوت يبلُغها من القبر.

غير أنّه تحدّث الآن قبل أوانه.

منذ ذلك الوقت والكونسورتيوم يخوض صراعاً يائساً؛ استخدم فيه كلّ موارده لتنفيذ رغبات الزبون الأخيرة، ولحماية نفسه على حد سواء. في خضمّ ذلك، تجاوز الكونسورتيوم عدداً من الخطوط الحمراء التي يعرف العميد أنّه لا يستطيع العودة بعدها إلى الوراء. والآن، مع كلّ ما يجري في فلورنسا، حدّق العميد إلى مكتبه وتساءل عمّا يخبّئه له المستقبل.

على روزنامته، كان الزبون قد خربش بعنف دائرة حمراء تحدّق إليه الآن، حلقة من الحبر الأحمر تحيط بيوم خاصّ على ما يبدو.

غداً.

على مضض، رمق العميد زجاجة الشراب الموضوعة أمامه. وللمرّة الأولى منذ أربعة عشر عاماً، صبّ كأساً وأفرغها في جوفه في جرعة واحدة.

في الطابق السفلي من اليخت، أخرج المنسّق لورنس نولتون شريحة الذاكرة الحمراء الصغيرة من جهاز الكمبيوتر ووضعها أمامه على الطاولة. كان الفيديو من أغرب ما رآه حتّى الآن.

ويستغرق عرضه تسع دقائق بالضبط... بالثانية.

شعر بالانزعاج على نحو غير معهود، فوقف وراح يذرع حجرته الصغيرة ذهاباً وإياباً، متسائلاً عمّا إذا كان عليه مشاركة الفيلم الغريب مع العميد.

غير أنّه قال لنفسه: *قم بعملك وحسب، من دون أسئلة ولا أحكام.*

طرد الفيلم من ذهنه، ودوّن مهمّة محدّدة على جدول أعماله. غداً، وكما طلب الزبون، سيحمّل الفيديو لوسائل الإعلام.

الفصل 18

توصف جادة نيكولو ماكيافيلي بأنّها أجمل جادات فلورنسا. فبانعطافاتها الواسعة على شكل S التي تتعرّج بين المساحات الخضراء المحاطة بالأسيجة والمظلّلة بالأشجار الوارفة، تُعتبر مفضّلة لدى راكبي الدرّاجات وهواة سيّارات الفيراري.

قادت سيينّا درّاجتها بخبرة عبر انعطافات الجادة، تاركَين وراءهما الحيّ السكني الفقير لينتقلا إلى الضفّة الغربية الراقية التي تمتاز بهوائها العليل العابق بعطر شجر الأرز. مرّا من أمام ساعة إحدى الكنائس التي كانت تدقّ معلنة أن الساعة هي الثامنة صباحاً.

تمسّك لانغدون جيّداً، فيما راح ذهنه يعصف بصور محيّرة لجحيم دانتي... والوجه الغامض لامرأة جميلة ذات شعر فضّي رآها للتوّ محاصرة بين جنديَين ضخمين على المقعد الخلفي للفان.

فكّر لانغدون: *أيًّا تكن تلك المرأة، لقد أصبحت لديهم الآن.*

قالت سيينّا وهي ترفع صوتها فوق صوت محرّك الدرّاجة: "هل أنت واثق أنّ المرأة التي رأيتها في الفان هي نفسها التي تظهر في أحلامك؟".

"بكلّ تأكيد".

"إذاً، لا بدّ أنّك التقيتها في اليومين الفائتين. لكنّ السؤال هو: لماذا تستمرّ برؤيتها؟ ولماذا تقول لك باستمرار من يبحث يجد".

آسف جدًّا. آسف جدًّا.

فجأة، تساءل لانغدون عمّا إذا كان اعتذاره الغريب موجّهاً للمرأة ذات الشعر الفضّي. فكّر وهو يشعر بتقلّص في أحشائه، *هل خذلتها بشكل من الأشكال؟*

شعر لانغدون كما لو أنّ سلاحاً حيوياً قد انتُزع من ترسانته. *لم أعد أتذكّر.* كان ذا مخيلة خصبة منذ طفولته، لذلك، كان يعتبر ذاكرته من الممتلكات الفكرية التي يعتمد عليها كثيراً في حياته. بالنسبة إلى رجل معتاد على تذكّر كلّ التفاصيل الدقيقة لما يراه حوله، بدا العيش من دون ذاكرة أشبه بمحاولة الهبوط بطائرة في الظلام من دون رادار.

قالت سيينّا: "يبدو أنّ فرصتك الوحيدة للعثور على أجوبة هي بفكّ رموز الخارطة. مهما تكن الأسرار التي تخبئها... يبدو أنّها السبب وراء مطاردتك".

هزّ لانغدون رأسه، وهو يفكّر بكلمة *catrovacer* التي ظهرت أمام خلفية من الجثث والأجساد التي تتلوّى في جحيم دانتي.

فجأة، خطرت في بال لانغدون فكرة واضحة.

لقد استيقظت في فلورنسا...

ما من مدينة على وجه الأرض أكثر ارتباطاً بدانتي من فلورنسا. لقد ولد دانتي أليغييري في فلورنسا، ونشأ في فلورنسا، وأغرم - بحسب الأسطورة - ببياتريس في فلورنسا، كما أنّه نفي بقسوة من منزله في فلورنسا، وظلّ يهيم في الأرياف الإيطالية لسنوات، وهو يتوق بشدّة إلى بيته.

كتب دانتي عن المنفى: *عليك أن تترك كلّ ما تحبّه. فهذا أوّل السهام التي يطلقها المنفى.*

بينما كان لانغدون يتذكّر هذه الكلمات من النشيد السابع عشر *للباراديزو*، نظر إلى اليمين، وحدّق عبر نهر آرنو إلى الأبراج البعيدة لفلورنسا القديمة.

تخيّل خارطة المدينة القديمة؛ متاهة من السيّاح، والازدحام، والسيّارات التي تتزاحم في الشوارع الضيّقة حول مباني فلورنسا الشهيرة من كاتدرائيات، ومتاحف، ودور عبادة، وأسواق. فكّر أنّه إن ترجّل هو وسيينّا عن الدرّاجة، فبإمكانهما الاختفاء بين حشود الناس.

قال لانغدون: "علينا الذهاب إلى المدينة القديمة. إن كان ثمّة أجوبة، فسنجدها هناك على الأرجح. ففلورنسا القديمة كانت عالم دانتي بأكمله".

وافقت سيينّا، وقالت له: "كما أنّنا سنكون بمأمن أكبر هناك، وسنجد الكثير من الأماكن للاختباء فيها. سأتوجّه إلى بورتا رومانا، ومنها يمكننا عبور النهر".

النهر، فكّر فيه لانغدون وهو يشعر برعدة خوف. فرحلة دانتي الشهيرة إلى الجحيم بدأت أيضاً بعبور نهر.

ضغطت سيينّا على دوّاسة الوقود، وانطلقت مسرعة، في حين أخذ لانغدون يراجع في ذهنه صور الجحيم والأموات والمحتضرين وخنادق الماليبولغي العشرة مع طبيب الطاعون والكلمة الغريبة؛ catrovacer. فكّر ملياً في الكلمات المكتوبة تحت الخارطة، *لا يمكن لمح الحقيقة إلاّ عبر عيون الموت*، وتساءل عمّا إذا كانت تلك العبارة مقتبسة عن دانتي.

لا أعرفها.

كان لانغدون ضليعاً في أعمال دانتي، ونظراً إلى شهرته كمؤرّخ فنّي متخصّص في علم الأيقونات، كان يُستدعى أحياناً لتفسير المجموعة الواسعة من الرموز التي تحفل بها أعمال دانتي. وصدف أنّه ألقى محاضرة عن *إنفيرنو* دانتي منذ حوالى عامين، وربّما لم يكن ذلك من قبيل المصادفة.

"كوميديا دانتي: رموز الجحيم".

تحوّل دانتي أليغييري إلى أحد الرموز الحقيقية في التاريخ، وألهب أفكار جمعيات دانتي في مختلف أنحاء العالم. تمّ تأسيس أقدم فرع أميركي عام 1881 في كامبردج، ماساتشوستس، على يد هنري وادوورث لونغفيلو. فقد كان شاعر نيو إنغلاند الشهير أوّل أميركي يترجم *الكوميديا الإلهية*، وبقيت ترجمته واحدة من أكثر الترجمات تقديراً وانتشاراً حتّى يومنا هذا.

طُلب من لانغدون بصفته متخصّصاً في أعمال دانتي إلقاء خطاب في مناسبة هامّة استضافتها أقدم جمعيات دانتي في العالم؛ جمعية دانتي أليغييري في فيينا. نُظّم الحدث في أكاديمية فيينا للعلوم. وكان الراعي الأوّل، وهو عالم ثري وعضو في جمعية دانتي، قد تمكّن من حجز قاعة الأكاديمية التي تضمّ 2000 مقعد.

عندما وصل لانغدون، استقبله مدير المحاضرة واصطحبه إلى الداخل. وعند مرورهما بالردهة، لم يستطع لانغدون سوى أن يلاحظ الحروف الخمسة المطلية بأحجام عملاقة على الجدار الخلفي.

همس المدير: "هذا العمل للوكاس ترويبرغ. إنّه أحدث تحفنا الفنّية. ما رأيك؟".

رمق لانغدون النصّ ذا الأحرف الضخمة، ولم يعرف بماذا يجيب. "في الواقع... ضربات فرشاته فخمة، لكنّ إتقانه للصيغة الشَرطية يبدو ضعيفاً".

رمقه المدير بنظرة مربكة، وأمل لانغدون أن يكون اتصاله بالجمهور أفضل.

عندما صعد على خشبة المسرح، استُقبل بعاصفة من التصفيق.

تردّد صوته عبر المكبّرات: "سيّداتي سادتي، أهلاً بكم.

بلغني أنّ جمهورنا الليلة لا يضمّ أعضاء في جمعية دانتي فحسب، بل يشتمل أيضاً على عدد كبير من العلماء الزائرين والطلاّب الذين يتعرّفون على دانتي للمرّة الأولى ربّما. لذلك، ومن أجل أولئك الذين كانوا منشغلين جدًّا ولم تُتح لهم الفرصة لقراءة الملاحم الإيطالية للقرون الوسطى، فكّرت في أن أبدأ بلمحة سريعة عن دانتي؛ حياته، وعمله، وعن سبب اعتباره واحداً من أكثر الشخصيات تأثيراً في التاريخ".

مزيد من التصفيق.

استخدم لانغدون جهاز تحكّم عن بعد، وراح يعرض سلسلة من صور دانتي، كانت الأولى لوحة شخصية للشاعر وهو يقف عند أحد الأبواب، حاملاً كتاب فلسفة، رسمها أندريا ديل كاستانيو.

قال لانغدون: "دانتي أليغييري. عاش هذا الكاتب والفيلسوف الفلورنسي بين عامي 1265 و1321. في هذه اللوحة، كما في كلّ صوره، يعتمر قبّعة حمراء ضيّقة ذات غطاء للأذنين. وقد تحوّلت هذه القبّعة مع عباءته القرمزية إلى أشهر الصور المستنسخة لدانتي".

مرّر لانغدون صوراً للوحة بوتيتشيلّي التي رسمها لدانتي من صالة أوفيتزي، والتي تُظهر أبرز ملامح دانتي؛ أي فكّه الثقيل وأنفه المعقوف. "هنا، يظهر وجه دانتي الفريد مجدّداً محاطاً بالقبّعة الحمراء، لكنّ بوتيتشيلّي أضاف إليه إكليل غار رمزاً لخبرته في الفنون الشعرية، وهو رمز تقليدي مستمدّ من اليونان القديمة ويُستعمل حتّى اليوم في الاحتفالات لتكريم الشعراء والحائزين على جوائز نوبل".

مرّر لانغدون بسرعة عدداً من الصور الأخرى؛ كلّها تُظهر دانتي بقبّعته وعباءته الحمراوين، وإكليل الغار، وأنفه البارز. "إليكم هذا التمثال من بياتزا دي سانتا كروتشي...

وبالطبع، اللوحة الجدارية المنسوبة إلى جوتو في كنيسة بارغيلو".

ترك لانغدون اللوحة الجدارية على الشاشة ومشى إلى وسط المسرح.

"كما تعرفون من دون شكّ، اشتهر دانتي بتحفته الأدبية العملاقة، الكوميديا الإلهية، التي تشكّل رواية حيّة وقاسية لنزول الكاتب إلى الجحيم، مروراً بالمطهر، ومن ثمّ صعوده إلى الجنّة. وفقاً للمعايير الحديثة، لا تشتمل الكوميديا الإلهية على أيّ شيء كوميدي، بل سمّيت كوميديا لسبب مختلف تماماً. ففي القرن الرابع عشر، كان الأدب الإيطالي - بحسب شروطه - ينقسم إلى فئتين: تراجيديا تمثّل الأدب الراقي، وتُكتب باللغة الإيطالية الرسمية. والكوميديا التي تمثّل الأدب المتدنّي، وتُكتب باللغة العامّية، وتُوجّه لعامّة الشعب".

مرّر لانغدون الصور؛ وصولاً إلى الجدارية الأيقونية لميكيلينو التي تصوّر دانتي واقفاً خارج جدران فلورنسا، وحاملاً نسخة من الكوميديا الإلهية. في الخلفية، يرتفع جبل المطهر المدرّج عالياً فوق أبواب الجحيم. واللوحة المعلّقة اليوم في كاتدرائية سانتا ماريا ديل فيوري في فلورنسا، أصبحت معروفة باسم إيل دوومو.

تابع لانغدون: "كما يشير العنوان، كُتبت *الكوميديا الإلهية* باللغة العامّية، لغة الشعب. ومع ذلك، دمجت ببراعة الدين والتاريخ والسياسة والفلسفة والاجتماع في نسيج خيالي، ظلّ - على الرغم من ثقافته - مفهوماً تماماً للجماهير. وتحوّل العمل إلى أحد أعمدة الثقافة الإيطالية، حيث إنّ الأسلوب الذي اتّبعه دانتي في الكتابة شكّل أساس اللغة الإيطالية الحديثة".

صمت لانغدون قليلاً ليترك مجالاً لاستيعاب كلامه، ثمّ همس: "يا أصدقائي، من المستحيل المبالغة في وصف تأثير عمل دانتي أليغييري. فعبر التاريخ بأكمله ما من عمل أدبي، أو فنّي، أو موسيقي فاق *الكوميديا الإلهية* في إلهام أعمال تكريم، أو تقليد، أو تحليل".

بعد سرد أسماء المجموعة الواسعة من الملحّنين، والفنّانين، والأدباء الذين ألّفوا أعمالاً مستندة إلى ملحمة دانتي، تأمّل لانغدون الحضور وقال: "أخبروني الآن، هل لدينا كتّاب هنا الليلة؟".

ارتفع حوالى ثلث أيادي الحاضرين. حدّق لانغدون إليهم مدهوشاً. *يا إلهي، إمّا أنّني أقف أمام أفضل جمهور على وجه الأرض، أو أنّ النشر الإلكتروني نجح فعلاً.*

"حسناً، كما يعرف جميع الكتّاب الحاضرين هنا، ما من شيء يقدّره الكاتب أكثر من الدعاية المبالغ فيها؛ أي ذلك السطر الوحيد الذي يكتبه شخص نافذ، والمخصّص لدفع الآخرين إلى شراء كتابك. في العصور الوسطى، كانت الدعاية المغالى فيها موجودة أيضاً. وقد حصل دانتي على بعض منها".

غيّر لانغدون الصورة المعروضة. "ألا تودّون أن تظهر جملة كهذه على غلاف كتابكم؟".

لم يطأ الأرض رجل أعظم منه.

– مايكل أنجلو

ظهرت الدهشة على وجوه الحاضرين.

قال لانغدون: "أجل، إنّه مايكل أنجلو نفسه الذي تعرفونه من كنيسة سيستين وتمثال داوود. فإضافة إلى كون مايكل أنجلو رسّاماً ونحّاتاً بارعاً، كان أيضاً شاعراً هامًّا. فقد نشر حوالى ثلاثمائة قصيدة، بما فيها قصيدة بعنوان "دانتي"، وأهداها إلى الرجل الذي كانت رؤيته الصارخة للجحيم مصدر إلهام للوحة مايكل أنجلو، يوم القيامة. إن لم تصدّقوني، فاقرأوا النشيد الثالث من جحيم دانتي، ثمّ قوموا بزيارة كنيسة سيستين. فوق المذبح تماماً، ستجدون هذه الصورة المألوفة".

مرّر لانغدون الصور ليصل إلى تفصيل مخيف لوحش ضخم يؤرجح مجذافاً عملاقاً فوق أناس يرتعدون خوفاً. "هذا مراكبي دانتي الجهنّمي، شارون، يضرب ركّاباً نهمين بواسطة مجذاف".

انتقل لانغدون بعد ذلك إلى صورة جديدة تُظهر تفصيلاً ثانياً في لوحة مايكل أنجلو، هو عبارة عن رجل مصلوب. "هذا هامان الأجاجي، الذي مات شنقاً بحسب الكتاب المقدّس. لكن في قصيدة دانتي تمّ صلبه. وكما ترون هنا، في كنيسة سيستين، اختار مايكل أنجلو رواية دانتي عوضاً عن رواية الكتاب المقدّس". ابتسم لانغدون وأخفض صوته هامساً: "لا تخبروا البابا".

ضحك الحشد.

"ابتكر إنفيرنو دانتي عالماً من العذاب والمعاناة يفوق التصوّر البشري، كما أنّ قصيدته حدّدت رؤيتنا الحديثة للجحيم". صمت لانغدون ثمّ أضاف: "وصدّقوني، إنّ الكنيسة الكاثوليكية تدين بالكثير لدانتي. وذلك لأنّ جحيمه أرعب المؤمنين لعدّة قرون، وضاعف من دون شكّ أعداد الحضور ثلاث مرّات".

بدّل لانغدون الصورة. "وهذا ما يقودنا إلى سبب وجودنا هنا الليلة".

ظهر الآن على الصورة عنوان محاضرته: كوميديا دانتي: رموز الجحيم.

"جحيم دانتي مشهد غني بالرمزية، غالباً ما أخصّص من أجله فصلاً كاملاً. والليلة، أظنّ أنّه ما من طريقة أفضل لكشف النقاب عن رموز إنفيرنو دانتي من مرافقته خطوة خطوة... عبر أبواب الجحيم".

مشى لانغدون على طرف المسرح، وتفحّص الحضور. "إن كنّا ننوي الذهاب في جولة إلى الجحيم، فأنا أفضّل أن نستخدم خارطة. وما من خارطة لجحيم دانتي أكثر دقّة وكمالاً من تلك التي رسمها ساندرو بوتيتشيلّي".

لمس جهاز التحكّم عن بعد، فظهرت لوحة بوتيتشيلّي المخيفة، *مابا ديل إنفيرنو*، أمام الحضور. ارتفع أنين عدد من الموجودين مع استيعاب الناس لمختلف الأهوال التي تجري في ذلك الكهف الأرضي الذي يتّخذ شكل قمع.

"خلافاً لبعض الفنّانين، كان بوتيتشيلّي مقتنعاً للغاية بتفسيره لنصّ دانتي. في الواقع، أمضى وقتاً طويلاً في قراءة دانتي إلى حدّ أنّ المؤرّخ الفنّي الكبير جورجيو فاساري قال إنّ

هوس بوتيتشيلّي بدانتي أدّى إلى *اضطرابات خطيرة في حياته*. ابتكر بوتيتشيلّي أكثر من عشرين عملاً آخر على صلة بدانتي، لكنّ هذه الخارطة هي الأكثر شهرة".

التفت لانغدون، وأشار إلى الزاوية العلوية اليسرى للوحة. "ستبدأ رحلتنا من هنا، من فوق الأرض؛ حيث يمكنكم رؤية دانتي بلباسه الأحمر، مع دليله، فيرجيل، واقفاً خارج أبواب الجحيم. من هناك، سنتّجه نزولاً، عبر الحلقات التسع لجحيم دانتي، إلى أن نلتقي في نهاية المطاف وجهاً لوجه مع...".

انتقل لانغدون بسرعة إلى صورة جديدة، هي عبارة عن صورة مكبّرة للشيطان كما رسمه بوتيتشيلّي في هذه اللوحة نفسها، وكان عبارة عن مخلوق مروّع ذي ثلاثة رؤوس يأكل ثلاثة أشخاص، كلّ في فم من أفواهه الثلاثة.

شهق الحشد بصوت مسموع.

أعلن لانغدون: "هذه لمحة عن أحد الأماكن التي سنزورها. هذه الشخصية المخيفة هي النقطة التي ستنتهي عندها رحلة الليلة. إنّها الحلقة التاسعة في الجحيم، وفيها يسكن الشيطان. لكن..." صمت قليلاً، ثمّ أضاف: "الوصول إلى هناك جزء من المتعة وحسب، لذلك دعونا نرجع قليلاً إلى الخلف... ونعود إلى أبواب الجحيم التي تبدأ رحلتنا عندها".

انتقل لانغدون إلى الصورة التالية، وكانت عبارة عن طباعة حجرية لغوستاف دوريه تصوّر مدخل نفق مظلم في واجهة جرف صخري شديد الانحدار. كُتب فوق الباب: تخلَّ عن كلّ الآمال، أنت يا من تدخل إلى هنا.

سأل لانغدون مبتسماً: "إذاً، هل ندخل؟".

دوّى صوت الفرامل، واختفى الحضور من أمام عيني لانغدون. شعر بجسده يندفع إلى الأمام ويصطدم بظهر سيينّا مع توقّف الدرّاجة وسط جادة ماكيافيلي.

ترنّح لانغدون، وكان ذهنه لا يزال مشغولاً بأبواب الجحيم التي تلوح أمامه. وعندما استجمع أفكاره، أدرك أين هو في الواقع.

سألها: "ماذا يجري؟".

أشارت سيينّا إلى بورتا رومانا التي تقع على بعد 300 ياردة أمامهما، وهي البوّابة الحجرية القديمة التي كانت مدخل فلورنسا القديمة وقالت: "روبرت، لدينا مشكلة".

الفصل 19

وقف العميل برودر في الشقّة المتواضعة وحاول أن يفهم ما يراه. *من الذي يعيش هنا؟* كان الأثاث قليلاً وغير منظّم؛ وكأنّها شقّة طالب أُثّثت بمبلغ زهيد.

ناداه أحد رجاله من الردهة: "أيها العميل برودر، أظنّ أنك ترغب في رؤية هذا".

عبَر برودر الرواق، متسائلاً عمّا إذا كانت الشرطة المحلّية قد اعتقلت لانغدون. كان برودر يفضّل حلّ هذه الأزمة بتكتّم، لكنّ فرار لانغدون لم يترك لديه الخيار، فاضطرّ إلى طلب مساعدة الشرطة المحلّية التي وضعت حواجز على الطرقات. فالدرّاجة السريعة التي تجوب متاهة شوارع فلورنسا ستُفلت بسهولة من فانات برودر التي تمتاز بنوافذ ثقيلة وصلبة من البوليكاربونات، وإطارات مقاومة للرصاص؛ الأمر الذي يجعلها قوية ولكنّها بطيئة. الشرطة الإيطالية معروفة بأنها غير متعاونة مع الغرباء، لكنّ منظّمة برودر تملك نفوذاً كبيراً على الشرطة، والقنصليات، والسفارات. *طلباتنا أوامر.*

دخل برودر الغرفة الصغيرة التي يقف فيها أحد رجاله أمام كمبيوتر محمول مفتوح، وطبع بعض الأحرف بأصابعه المكسوّة بقفّازي اللاتكس. قال الرجل: "هذا هو الجهاز الذي استخدمه لانغدون لدخول بريده الإلكتروني والقيام ببعض الأبحاث. ما زالت الملفّات موجودة".

اقترب برودر ووقف أمام المكتب.

قال الفنّي: "لا يبدو أنّه كمبيوتر لانغدون، بل إنه مسجّل بالحرفين الأوّلين س. س. سأحصل على الاسم الكامل بعد قليل".

انتظر برودر، وانجذب نظره إلى كومة الأوراق على المكتب. تناولها وراح يتصفّح الأوراق غير الاعتيادية؛ الإعلان القديم من مسرح لندن غلوب وبعض مقالات الصحف. كلّما قرأ برودر ازداد دهشة.

حمل الوثائق، وعاد إلى الردهة، واتّصل برئيسه. قال: "أنا برودر. أظنّ أنّني عرفت هوية الشخص الذي يساعد لانغدون".

سأله رئيسه: "ومن يكون؟".

زفر برودر ببطء. "لن تصدّق".

على بعد ميلين، استقلّت فايينثا درّاجتها البي إم دبليو وغادرت المكان. مرّت سيّارات الشرطة أمامها بالاتّجاه المعاكس مشغّلة صفّارات إنذارها.

فكّرت، *لقد تمّ التنصّل منّي.*

عادة، كان هدير محرّك الدرّاجة يساعدها على تهدئة أعصابها. غير أنّه لم ينجح في ذلك اليوم.

عملت فايينثا لصالح الكونسورتيوم لمدّة اثني عشر عاماً، وتدرّجت في الرتب من وحدة الدعم الأساسيّة، إلى منسّقة استراتيجية، إلى أن أصبحت أخيراً عميلة ميدانية عالية الرتبة. مهنتي هي *كلّ ما أملك.* كان العملاء الميدانيون يعيشون حياة من السرّية، والسفر الدائم، والمهام طويلة الأمد؛ وكلّها تعزلهم عن الحياة الحقيقية وتمنعهم من إقامة أيّ علاقات.

قالت لنفسها: *إنّني أعمل على هذه المهمّة منذ عام.* وكانت عاجزة عن التصديق أنّ العميد قد استبعدها بهذه القسوة.

أشرفت فايينثا لمدّة اثني عشر شهراً على خدمات الدعم المقدّمة لزبون الكونسورتيوم نفسه؛ ذلك العبقري أخضر العينين وغريب الأطوار الذي أراد "الاختفاء" وحسب لمدّة من الزمن لكي يتمكّن من العمل بعيداً عن أنظار أعدائه ومنافسيه. نادراً ما كان يتنقّل، بل أمضى معظم وقته وهو يعمل خفية. لم تكن طبيعة ذلك العمل معروفة لفايينثا التي نصّ عقدها على إبقاء الرجل بعيداً عن أنظار الأشخاص النافذين الذين يحاولون العثور عليه.

نفّذت فايينثا مهمّتها على أكمل وجه، وسار كلّ شيء على ما يرام.

كلّ شيء، حتّى... الليلة الفائتة.

منذ ذلك الحين، أخذت حالة فايينثا النفسية ووضعها المهني بالتدهور. *أصبحت خارج الكونسورتيوم الآن.*

عند تفعيل بروتوكول التنصّل، يتحتّم على العميل التخلّي عن مهمّته الحالية فوراً وإخلاء "المنطقة" مباشرة. ففي حال تمّ اعتقاله سيتنصّل منه الكونسورتيوم تماماً. والعملاء يعرفون ذلك، ولا يخاطرون مع المنظّمة؛ لأنّهم شهدوا بأنفسهم قدرة الكونسورتيوم على تحريف الواقع بما يناسب احتياجاته.

كانت فايينثا تعرف عميلين تمّ التنصّل منهما. والغريب أنّها لم ترَ أيّا منهما بعد ذلك. افترضت دائماً أنّه تمّ استدعاؤهما وطردهما من العمل، وطُلب منهما عدم الاتصال بموظّفي الكونسورتيوم مجدّداً.

أمّا الآن، فهي لم تعد واثقة من ذلك.

قالت لنفسها: *أنت تبالغين. فأساليب الكونسورتيوم أرقى بكثير من القتل بدم بارد.*

ومع ذلك، شعرت برعشة خوف تجتاح جسدها.

حدسها هو الذي دفعها إلى الهرب عن سطح الفندق خفية في اللحظة التي رأت فيها فريق برودر يصل، وتساءلت عمّا إذا كان حدسها هو الذي أنقذها.

لا أحد يعرف بمكاني الآن.

بينما أسرعت فايينثا شمالاً عبر جادة فيالي ديل بودجو إمبريالي، أدركت الفرق الذي أحدثته الساعات الأخيرة. ففي الليلة الماضية، كانت تسعى إلى الحفاظ على وظيفتها. أمّا الآن فهي تسعى إلى الحفاظ على حياتها.

الفصل 20

كانت فلورنسا في الماضي محاطة بسور، وكان مدخلها الأساسي هو بوّابة بورتا رومانا الحجرية التي بنيت عام 1326. وفي حين دُمّر سور المدينة منذ قرون، إلاّ أنّ بورتا رومانا ما زالت قائمة حتّى هذا اليوم، والسيّارات تدخل عبر أنفاق عميقة مقوّسة تمتدّ عبر الحصن الهائل.

البوّابة نفسها عبارة عن حاجز بارتفاع 50 قدماً، مصنوع من الآجر والصخر القديم، وما زال البابان الخشبيان الضخمان اللذان يبقيان مفتوحين دائماً في وجه حركة المرور موجودين. تلتقي أمام هذين البابين ستّ طرقات رئيسة، وتمرّ حول مستديرة عشبية يقف فيها تمثال لبيستوليتو يصوّر امرأة تخرج من بوابة المدينة حاملة رزمة كبيرة على رأسها.

مع أنّ هذه المنطقة تشهد اليوم كابوساً من ازدحام السير، إلاّ أنّ بوّابة فلورنسا كانت في ما مضى موقع *فييرا داي كونترااتي*، أي مهرجان العقود الذي يقوم فيه الآباء ببيع بناتهم ضمن عقد زواج، وغالباً ما كانوا يجبرونهنّ على الرقص بشكل مغرٍ من أجل الحصول على مهر عالٍ.

هذا الصباح، أوقفت سيينّا الدرّاجة على بعد عدّة مئات من الياردات من البوّابة، وأشارت بخوف. نظر لانغدون الجالس على متن الدرّاجة إلى الأمام، وشاركها انفعالها على الفور. كان أمامهما صفّ طويل من السيّارات المتوقّفة تماماً. فقد قام حاجز للشرطة عند المستديرة بإيقاف السيّارات، ووصل في تلك اللحظة المزيد من سيّارات الشرطة. كان الضبّاط المسلّحون ينتقلون من سيّارة إلى أخرى، ويطرحون الأسئلة.

فكّر لانغدون: *لا يمكن أن يكون كلّ هذا من أجلنا. هل يعقل ذلك؟*

اقترب منهما درّاج يتصبّب عرقاً آتياً من جادة ماكيافيلي، بعيداً عن الزحام. كان يركب درّاجة هوائية، ويمدّ ساقيه العاريتين أمامه.

صاحت سيينّا بالإيطالية: "ماذا يجري؟".

أجابها بنبرة قلقة: "ومن يدري!؟ شرطة". وأسرع للابتعاد عن المنطقة.

التفتت سيينّا إلى لانغدون، وقد بدا عليها التجهّم: "إنّه حاجز للشرطة العسكرية".

دوّت صفّارات الإنذار خلفهما، فاستدارت سيينّا إلى الخلف وحدّقت إلى جادة ماكيافيلي، وقد كسا الخوف تعابير وجهها.

إنّنا محاصران. هذا ما فكّر فيه لانغدون وهو يتفحّص المنطقة بحثاً عن مخرج؛ كتقاطع طرق، أو حديقة، أو زقاق، لكنّه لم يرَ سوى منازل خاصّة إلى اليسار، وجدار حجري عالٍ إلى اليمين.

اقترب صوت صفّارات الإنذار.

هتف لانغدون: "هناك". وأشار إلى موقع بناء خالٍ على بعد ثلاثين ياردة يحتوي على خلاّطة إسمنت يمكن أن تؤمّن لهما غطاء.

توجّهت سييننّا بالدرّاجة إلى الرصيف، وأسرعت إلى مكان البناء. ركنا الدرّاجة خلف خلاّطة الإسمنت، ثمّ أدركا فوراً أنّها بالكاد تؤمّن مخبأً للدرّاجة وحدها.

قالت سييننّا: "اتبعني". وأسرعت باتّجاه حجرة صغيرة للأدوات موضوعة بين الشجيرات أمام الجدار الحجري.

أدرك لانغدون أنّها ليست حجرة أدوات، وتقلّص أنفه اشمئزازاً وهما يقتربان. *إنّه حمّام نقّال.*

عندما وصلت سييننّا ولانغدون إلى حمّام العمّال، سمعا أصوات سيّارات الشرطة وهي تقترب. حاولت سييننّا فتح الباب، إلاّ أنّه لم يتحرّك من مكانه. كان مقفلاً بسلسلة ثقيلة. أمسك لانغدون بذراع سييننّا وسحبها خلف الحجرة، مجبراً إيّاها على إقحام جسدها في المجال الضيّق الذي يفصل بين الحمّام والجدار. بالكاد كان المكان يتّسع لهما، كما أنّ الهواء كان كريه الرائحة وثقيلاً.

انزلق لانغدون خلفها، وفي اللحظة نفسها مرّت سيّارة سوبارو فورستر سوداء كُتبت على جانبها كلمة CARABINIERI. مرّت السيّارة ببطء من أمام مخبئهما.

فكّر لانغدون غير مصدّق، *الشرطة العسكرية الإيطالية*! وتساءل عمّا إذا كان هؤلاء الضبّاط قد تلقّوا أوامر بإطلاق النار على الفور.

همست سييننّا: "ثمّة من يلاحقنا بجدّية، وقد عثر علينا تقريباً".

تساءل لانغدون بصوت عالٍ: "جي بي إس؟ ربّما كان المسلاط الصغير يحتوي على جهاز تعقّب".

هزّت سييننّا رأسها نافية. "صدّقني، لو كان من الممكن تعقّب ذلك الشيء، لوجدنا الشرطة فوقنا في هذه اللحظة".

تحرّك لانغدون محاولاً الوقوف بشكل مريح في ذلك المكان الضيّق. فوجد نفسه وجهاً لوجه أمام مجموعة من الرسومات الجدارية الأنيقة التي خربشها المارّة على الحائط الخلفي للحمّام النقّال.

الإيطاليون هم أهلها.

معظم الحمّامات النقّالة الأميركية مغطّاة برسومات كرتونية لطلاّب الجامعات التي تشتمل على إيحاءات إباحية، غير أنّ هذه الرسومات تبدو أقرب إلى رسومات تُرى على دفتر رسم طالب فنون؛ عين بشرية، يد رُسمت بدقّة، صورة جانبية لرجل، وتنّين خيالي.

قالت سييننّا التي عرفت ما يدور في خلده كما يبدو: "إتلاف الممتلكات العامة لا يبدو بهذا الشكل في أنحاء إيطاليا كافة، غير أنّ معهد فلورنسا للفنون يقع على الجانب الآخر من هذا الجدار".

تأكيداً لكلامها، ظهرت مجموعة طلاّب من بعيد، ومشى الطلاب نحوهما حاملين حقائبهم الفنّية تحت أذرعهم. كانوا يثرثرون، ويشعلون السجائر، ويتساءلون عن سبب وجود الحاجز الذي أقيم عند بورتا رومانا أمامهم.

انحنى لانغدون وسيينّا لكي لا يراهما الطلاّب. وفي أثناء ذلك، خطرت للانغدون فكرة غير متوقّعة.

الخطأة المدفونون رأساً على عقب وأرجلهم في الهواء.

ربّما كان السبب هو رائحة القذارة البشرية، أو الدرّاج الذي مدّد ساقيه العاريتين أمامه، لكن، أيًا يكن الحافز، ومض في ذهن لانغدون عالَم الماليبولغي القذر والسيقان العارية التي تبرز من الأرض رأساً على عقب.

التفت فجأة نحو رفيقته. "سيينّا، في نسختنا عن الخارطة، كانت السيقان التي تلوّح في الهواء موجودة في الخندق العاشر، أليس كذلك؟ في أدنى مستويات الماليبولغي؟".

نظرت إليه سيينّا مستغربة؛ لأنّ الوقت غير مناسب إطلاقاً. "أجل، كانت في الأسفل".

للحظة، عاد لانغدون بذاكرته إلى فيينا عندما كان يلقي محاضرته. كان واقفاً على المسرح، قبل لحظات فقط من ختام المحاضرة، بعد أن عرض على الحضور منحوتة لدوريه تصوّر غيريون؛ الوحش المجنّح بذيله السامّ، الذي يعيش فوق الماليبولغي تماماً.

قال لانغدون بصوته العميق الذي تردّد عبر المكبّرات: "قبل أن نقابل الشيطان، يجب أن نمرّ عبر خنادق الماليبولغي العشرة التي يعاقب فيها المحتالون الذين يرتكبون الشرور المتعمّدة".

مرّر لانغدون الصور على الشاشة ليُظهر مخطّطاً للماليبولغي، ثمّ اصطحب الحضور عبر الخنادق، واحداً تلو الآخر. "من الأعلى إلى الأسفل لدينا: المغوون الذين تجلدهم الشياطين... المتملّقون الغارقون في البراز البشري... الكهنة الاستغلاليون المدفونون رأساً على عقب وأرجلهم في الهواء... المشعوذون برؤوسهم المفتولة إلى الخلف... السياسيون الفاسدون في الزفت المغلي... المنافقون الذين يرتدون عباءات ثقيلة من الرصاص... اللصوص الذين تعضّهم الأفاعي... المحامون المحتالون الذين تلتهمهم النيران... زارعو الفتن الذين تقطّعهم الشياطين... وأخيراً، الكذّابون السقيمون على نحو تبدّلت معه ملامحهم". التفت لانغدون إلى الحضور مضيفاً: "على الأرجح، خصّص دانتي هذا الخندق الأخير للكذّابين بسبب سلسلة الأكاذيب التي رويت عنه وأدّت إلى نفيه من مدينته الحبيبة فلورنسا".

"روبرت؟". كان ذلك صوت سيينّا.

عاد لانغدون فجأة إلى الواقع.

كانت سيينّا تحدّق إليه بنظرة استغراب. "ما الأمر؟".

أجابها بحماسة: "في نسختنا عن الخارطة، التفاصيل الفنّية مختلفة!". أخرج المسلاط من جيب سترته وهزّه بقدر ما أتاح له ضيق المجال الذي يقف فيه. أحدثت الكرة في الداخل صوتاً

عالياً، لكنّ دويّ صفّارات الإنذار كان أعلى. "أيًّا يكن من صنع هذه الصورة، فقد أعاد ترتيب مستويات الماليبولغي!".

عندما بدأ الجهاز يتوهّج، وجّهه لانغدون إلى المساحة المسطّحة أمامهما. فظهرت خارطة الجحيم، وتوهّجت بوضوح في الضوء الخفيف.

فكّر لانغدون بخجل، *بوتيتشيلّي على جدار حمّام نقّال*. لا شكّ أنّ لوحات بوتيتشيلّي لم تُعرض يوماً في مكان أقلّ رقياً من هذا. نظر لانغدون إلى الخنادق العشرة، وبدأ يهزّ رأسه بحماسة.

صاح: "أجل، هذه اللوحة خاطئة! يجب أن يكون الخندق العاشر للماليبولغي مليئاً بالكذّابين السقيمين، وليس بأشخاص مدفونين رأساً على عقب. فالخندق العاشر هو للكذّابين وليس للكهنة الاستغلاليين!".

نظرت إليه سيينّا باستغراب. "لكن، لماذا غيّروا ذلك؟".

همس لانغدون: "Catrovacer". ورمق الأحرف الصغيرة التي أضيفت إلى كلّ مستوى. "لا أظنّ أنّ هذه هي الكلمة المقصودة من الأحرف".

على الرغم من الإصابة التي محت ذكريات لانغدون عن اليومين السابقين، إلاّ أنّه يشعر الآن أنّ ذاكرته تعمل بشكل ممتاز. أغمض عينيه، واستحضر نسختي الخارطة في عقله لتحليل الفوارق. كانت التغييرات التي طرأت على الماليبولغي أقلّ ممّا تخيّل لانغدون... إلاّ أنّه شعر وكأنّ حجاباً قد نُزع فجأة عن عينيه.

فجأة، اتّضح كلّ شيء.

من يبحث يجد!

سألته سيينّا: "ما الأمر؟".

شعر لانغدون بجفاف في حلقه. "عرفت لماذا أنا في فلورنسا".

"حقًّا!".

"أجل، وأعرف إلى أين يُفترض بي الذهاب".

أمسكت سيينّا بذراعه. "إلى أين؟!".

شعر لانغدون أنّه يقف على أرض صلبة للمرّة الأولى منذ أن استيقظ في المستشفى. همس قائلاً: "هذه الأحرف العشرة تشير في الواقع إلى مكان معيّن في المدينة القديمة. هناك سنجد الأجوبة".

سألته سيينّا: "أين في المدينة القديمة؟! ماذا عرفت؟".

تردّدت أصوات ضحك من الجانب الآخر من الحمّام النقّال. كانت مجموعة أخرى من الطلاّب تمرّ في الجوار، وكان أفرادها يمزحون ويثرثرون بلغات متنوّعة. استرق لانغدون النظر من خلف الحجرة بحذر، وراقبهم وهم يبتعدون. بعد ذلك، تفحّص المكان بحثاً عن عناصر الشرطة. "علينا أن نتحرّك. سأشرح لك في الطريق".

هزّت سيينّا رأسها معترضة: "في الطريق؟ لن نتمكّن أبداً من عبور بورتا رومانا!".
قال لها: "ابقي هنا ثلاثين ثانية، ثمّ اتبعيني".
عندئذ، ابتعد لانغدون، تاركاً صديقته الجديدة حائرة ووحيدة.

الفصل 21

لحق روبرت لانغدون بمجموعة الطلاّب: *"سكوزي، سكوزاتي!"*.

التفتوا جميعاً، وتظاهر لانغدون أنّه سائح ضائع.

سأل بإيطالية ركيكة: "أين يقع معهد الفنون؟".

نفخ أحد الشباب الموشومين دخان سيجارته وأجاب بنبرة ساخرة: *"نون بارليامو إيتاليانو"*. كانت لكنته فرنسية.

وبّخت إحدى الفتيات صديقها الموشوم، وأشارت بتهذيب نحو بورتا رومانا قائلة بالإيطالية. "إلى الأمام مباشرة".

شكرها لانغدون: *"غراتسيي"*.

خرجت سيينّا من دون أن يراها أحد من خلف الحمّام النقّال، وتوجّهت نحو لانغدون. اقتربت الفتاة الرشيقة من المجموعة، فأحاط لانغدون كتفيها بذراعه وقال: "هذه شقيقتي سيينّا. إنّها أستاذة فنون".

تمتم الشابّ الموشوم بعبارة ساخرة أخرى، فضحك أصدقاؤه الشباب.

تجاهلهم لانغدون وتابع قائلاً: "أتينا إلى فلورنسا بحثاً عن فرص عمل ممكنة في مجال التدريس. هل يمكننا السير معكم؟".

قالت الفتاة الإيطالية مبتسمة: "بالتأكيد".

مشت المجموعة باتجاه الشرطة المتمركزة عند بورتا رومانا. في أثناء ذلك، راحت سيينّا تتحدّث مع الطلاّب، في حين مشى لانغدون في وسط المجموعة، متفادياً الأنظار.

فكّر، *من يبحث يجد*، وتسارع نبضه وهو يتخيّل خنادق الماليبولغي العشرة.

Catrovacer. أدرك لانغدون أنّ هذه الأحرف العشرة تشكّل جوهر أكثر الألغاز غموضاً في عالم الفنّ؛ أحجية مضت عليها قرون من الزمن من دون أن تجد حلاً. ففي عام 1563، استُخدمت هذه الحروف العشرة لكتابة رسالة على الجزء العلوي من أحد جدران بالاتزو فيكيو الشهير في فلورنسا. طُليت على ارتفاع 400 قدم عن الأرض، وكانت بالكاد مرئية من دون منظار. بقيت مخبّأة هناك على مرأى الجميع لقرون من الزمن، حتّى سبعينيات القرن العشرين؛ إلى أن رآها خبير فنّي أصبح مشهوراً اليوم، وأمضى عقوداً في محاولة اكتشاف معناها. لكن، على الرغم من النظريات العديدة، بقي مغزى الرسالة سرًّا حتّى اليوم.

بالنسبة إلى لانغدون، بدا الرمز أرضاً مألوفة؛ ميناءً آمناً في هذا البحر الهائج والغريب. ففي النهاية، كان تاريخ الفنّ والأسرار القديمة عالَماً معروفاً بالنسبة إلى لانغدون أكثر بكثير من الأنابيب المحتوية على خطر بيولوجي والبنادق القاتلة.

أمامهم، بدأت سيّارات إضافيّة للشرطة تمرّ عبر بورتا رومانا.

قال الشابّ الموشوم: "ربّاه، أيًّا يكن من يبحثون عنه، فلا بدّ أنّه ارتكب جرماً فظيعاً".

وصلت المجموعة إلى بوّابة معهد الفنون الواقعة إلى اليمين، والتي تجمّع عندها حشد من الطلاّب لمراقبة ما يجري عند بورتا رومانا. كان رجل الأمن عند باب المعهد يلقي نظرة خاطفة على بطاقات الطلاّب وهم يدخلون، لكنّه بدا بوضوح أكثر انشغالاً بما يجري مع الشرطة.

دوّى صوت فرامل عالٍ في الساحة مع توقّف فان أسود مألوف عند بورتا رومانا.

لم يكن لانغدون بحاجة إلى إلقاء نظرة أخرى. لذا، من دون التفوّه بأيّ كلمة، استغلّ هو وسيينّا الفرصة، وتسلّلا عبر البوّابة مع أصدقائهما الجدد.

كان الطريق المؤدّي إلى معهد الفنون رائع الجمال، لا بل كان ملكيًّا تقريباً. شكّلت أشجار السنديان الضخمة الموزّعة على الجانبين قنطرة، بدا من تحتها المبنى البعيد الذي كان عبارة عن بناء أصفر باهت ضخم، مزوّد بثلاثة أبواب، وتمتدّ أمامه مساحة عشبية بيضاوية واسعة.

عرف لانغدون أنّ هذا المبنى تمّ التكليف ببنائه من قبل الأسرة الشهيرة نفسها التي هيمنت على سياسة فلورنسا خلال القرون الخامس عشر، والسادس عشر، والسابع عشر.

أسرة ميديتشي.

الاسم نفسه أصبح رمزاً لفلورنسا. خلال فترة الحكم الممتدّة على ثلاثة قرون، جمعت أسرة ميديتشي الحاكمة ثروة خيالية وتمتّعت بنفوذ هائل، فأنتجت أربعة بابَوات، وملكتين لفرنسا، وأكبر مؤسّسة مالية في أوروبا بأكملها. وحتّى هذا اليوم، تستخدم المصارف الحديثة طريقة المحاسبة التي ابتكرها آل ميديتشي؛ أي النظام المزدوج للدائن والمدين.

غير أنّ الإرث الأعظم الذي تركه آل ميديتشي لم يكن في المال ولا في السياسة، بل في الفنون. ربّما كان أفراد تلك الأسرة الفلورنسية من أكثر رعاة الفنّ بذخاً في العالم؛ إذ أمروا بإنتاج أعمال فنّية سخية غذّت عصر النهضة. وتمتدّ لائحة المستنيرين الذين تلقّوا دعم أسرة ميديتشي من دافنشي إلى غاليليو إلى بوتيتشيلّي. فلوحة هذا الأخير الشهيرة، *ولادة فينوس*، كانت بطلب من لورينزو دي ميديتشي الذي أراد إهداء ابن عمّه لوحة مثيرة ليعلّقها فوق سريره كهدية زفاف.

كان لورينزو دي ميديتشي - المعروف اليوم باسم لورينزو العظيم نظراً إلى كرمه - فنّاناً وشاعراً هو نفسه، وقيل إنّه كان يتمتّع بنظر ثاقب. عام 1489، أُعجب لورينزو بعمل نحّات فلورنسي شابّ، ودعاه للانتقال إلى قصر ميديتشي لكي يتمكّن من ممارسة حرفته وسط الفنون الجميلة، والشعر العظيم، والثقافة العالية. تحت رعاية ميديتشي، ترعرع الشابّ المراهق، وقام بإنتاج أشهر منحوتاته في التاريخ؛ *بييتا*، و*داوود*. نعرفه اليوم باسم مايكل أنجلو، العملاق المبدع الذي يوصف أحياناً بأنّه أعظم هدية من آل ميديتشي إلى الجنس البشري.

نظراً إلى شغف أسرة ميديتشي بالفنّ، تخيّل لانغدون أنّ الأسرة كانت ستُسرّ لو عرفت أنّ المبنى القائم أمامه، الذي بناه آل ميديتشي أساساً كإسطبل للخيول، قد تحوّل اليوم إلى معهد فنون يضجّ بالحياة. هذا الموقع الهادئ الذي يلهم فنّاني عصرنا الشباب تمّ اختياره لبناء إسطبلات أسرة ميديتشي بسبب قربه من أجمل أماكن ركوب الخيل في فلورنسا.

حدائق بوبولي.

نظر لانغدون إلى يمينه فرأى غابة من رؤوس الأشجار التي تظهر من خلف جدار عالٍ. كانت حدائق بوبولي الشاسعة مكاناً سياحياً معروفاً. لم يشكّ لانغدون أنّه إن تمكّن هو وسيينّا من دخول الحدائق، فإنّهما سيعبرانها، ويدخلان المدينة القديمة من دون أن يُكتشف أمرهما. فالحدائق شاسعة ولا تخلو من المخابئ؛ غابات، متاهات، مغاور، تماثيل. والأهمّ أنّ اجتياز حدائق بوبولي سيقودهما في النهاية إلى بالاتزو بيتي؛ القلعة الحجرية التي كانت في ما مضى المقرّ الرئيس لدوقية ميديتشي، والتي ظلّت بغرفها البالغ عددها 140 غرفة من أهمّ الأماكن السياحية في فلورنسا.

فكّر لانغدون، *إن تمكّنا من الوصول إلى بالاتزو بيتي، فإنّ الجسر المؤدّي إلى المدينة القديمة سيكون على مرمى حجر.*

أشار لانغدون بهدوء إلى السور العالي الذي يحيط بالحدائق، وسأل الطلاّب: "كيف يمكننا دخول الحدائق؟ أودّ أن تراها أختي قبل أن نتجوّل في المعهد".

هزّ الشابّ الموشوم رأسه قائلاً: "لا يمكنكما دخولها من هنا. مدخلها يقع بعيداً؛ عند قصر بيتّي. عليكما المرور عبر بورتا رومانا والالتفاف من هناك".

قالت سيينّا ساخرة: "هراء".

فالتفت إليها الجميع وحدّقوا إليها باستغراب، بمن فيهم لانغدون.

قالت وهي تبتسم للطلاّب وتداعب شعرها الأشقر: "هيّا، هل تعنون أنّكم لا تتسلّلون إلى الحدائق للتدخين والتسلية؟".

تبادل الطلاّب النظرات، وانفجروا ضاحكين.

بدا الشابّ الموشوم مدهوشاً تماماً الآن. "سيّدتي، عليك حتماً أن تدرّسي هنا". ثمّ رافق سيينّا إلى جانب المبنى، وأشار إلى موقف سيّارات خلفي. "هل ترين تلك السقيفة إلى اليسار؟ ثمّة منصّة قديمة خلفها. اصعدا إلى السطح، ومنه يمكنكما القفز إلى الجانب الآخر من الجدار".

تحرّكت سيينّا فوراً، ثمّ نظرت إلى لانغدون بابتسامة متعالية وقالت: "هيّا يا أخي بوب. أم إنّ سنّك لم تعد تسمح لك بالقفز من فوق سور؟".

الفصل 22

أسندت المرأة ذات الشعر الفضّي رأسها على الزجاج المقاوم للرصاص وأغمضت عينيها. شعرت وكأنّ العالم يدور من حولها. فالعقاقير التي أعطوها إيّاها سبّبت لها الدوار.

فكّرت، *أنا بحاجة إلى طبيب.*

مع ذلك، كانت لدى الحارس المسلّح الجالس قربها أوامر صارمة: يجب تجاهل احتياجاتها حتّى إتمام مهمّتهم بنجاح. ومن أصوات الفوضى الصادرة حولها، يبدو واضحاً أنّ الأوان سيفوت قريباً.

بدأ الدوار يزداد حدّة الآن، وأصبحت تعاني من مشاكل في التنفّس. وبينما راحت تقاوم موجة جديدة من الغثيان، تساءلت عن كيفية إيجادها نفسها في هذه الظروف السريالية. من الصعب عليها في وضعها الحالي الإجابة عن هذا السؤال المعقّد، لكنّها تعرف تماماً أين بدأ كلّ شيء.

نيويورك.

منذ عامين.

سافرت إلى مانهاتن من جنيف، وكانت تشغل هناك منصب مديرة منظّمة الصحّة العالمية، وهو مركز مرموق جدًّا تحتلّه منذ عشر سنوات تقريباً. وبصفتها متخصّصة في الأمراض المعدية وانتشار الأوبئة، تلقّت دعوة إلى مركز الأمم المتّحدة لإلقاء محاضرة عن تقييم خطر الأمراض المعدية في بلدان العالم الثالث. كان حديثها متفائلاً ومطمئناً، وأشارت فيه إلى عدد من أنظمة الكشف المبكر الحديثة والخطط العلاجية التي وضعتها منظّمة الصحّة العالمية وغيرها من المنظّمات. وفي نهاية المحاضرة، صفّق لها الجمهور بحرارة.

بعد انتهاء المحاضرة، وبينما كانت تتحدّث في القاعة مع بعض الأكاديميين، أتى موظّف في الأمم المتّحدة، يحتلّ مركزاً مرموقاً كما بدا من بطاقته الدبلوماسية، وقطع عليها حديثها.

"د. سينسكي، اتّصل بنا مجلس العلاقات الخارجية. ثمّة من يرغب في التحدّث معك. السيّارة تنتظرك في الخارج".

شعرت د. إليزابيث سينسكي بالحيرة وبشيء من التوتّر. غير أنّها اعتذرت وحملت حقيبة سفرها وانصرفت. وبينما أسرعت سيّارة الليموزين عبر جادة فيرست أفينيو، راح توتّرها يتصاعد.

مجلس العلاقات الخارجية؟

كانت إليزابيث سينسكي قد سمعت بالشائعات؛ شأنها شأن كثيرين.

أسّس مجلس العلاقات الخارجية في عشرينيات القرن المنصرم، وشكّل خزّاناً فكرياً خاصًّا. كان من بين أعضائه السابقين كلّ وزراء الخارجية تقريباً، وأكثر من ستّة رؤساء جمهورية، ومعظم أعضائه من رؤساء السي آي إيه، وأعضاء في مجلس الشيوخ، وقضاة، فضلاً عن سلالات عريقة أسطورية تحمل أسماء مثل مورغن، وروثشيلد، وروكفيلير. ذلك الجمع الفريد بين الفكر، والنفوذ السياسي، والثروة أضفى على مجلس العلاقات الخارجية سمعة مميّزة على أنّه "النادي الخاصّ الأقوى نفوذاً على وجه الأرض".

لم تكن إليزابيث غريبة عن هذا العالم بصفتها مديرة منظّمة الصحّة العالمية. فالسنوات التي أمضتها على رأس المنظّمة – بالإضافة إلى طبيعتها الصريحة – جعلتها تستحقّ مؤخّراً تنويهاً من مجلّة معروفة ذكرتها من بين الأشخاص العشرين الأكثر نفوذاً في العالم. وكُتبت تحت صورتها العبارة التالية: *وجه الصحّة العالمية؛* وهي جملة وجدتها مثيرة للسخرية نظراً لأنّها كانت طفلة دائمة المرض.

عانت من حالة ربو حادّة حين كانت في السادسة من عمرها، فتمّت معالجتها بجرعة عالية من عقار جديد واعد، وكان أوّل عقار في العالم يرتكز على الغلوكورتيكوييد، أو هرمونات الستيروييد. نجح هذا الدواء في علاج أعراض الربو على نحو عجائبي، غير أنّ الأعراض الجانبية غير المتوقّعة للدواء لم تظهر سوى بعد سنوات، عندما وصلت سينسكي إلى سنّ البلوغ... إذ لم تظهر عليها أعراض الحيض قطّ. لن تنسى أبداً الصدمة التي أصيبت بها في عيادة الطبيب عندما كانت في التاسعة عشرة من عمرها، وعرفت أنّ الضرر الذي أصاب جهازها التناسلي دائم.

لن تتمكّن إليزابيث سينسكي من إنجاب الأطفال مطلقاً.

طمأنها طبيبها قائلاً *إنّ الوقت سيشفي الفراغ*، لكنّ حزنها وغضبها ازدادا مع الوقت. والمحزن في الأمر أنّ العقاقير التي سلبتها قدرتها على الإنجاب لم تحرمها من رغبتها الطبيعية في أن تصبح أمًّا. وهكذا، حاربت لسنوات تلك الرغبة المستحيلة. وحتّى اليوم، وهي في الحادية والستّين من عمرها، ما زالت تشعر بالفراغ المُكئب في كلّ مرّة ترى فيها أمًّا وطفلاً.

أعلن سائق الليموزين: "لقد وصلنا، د. سينسكي".

سرّحت إليزابيث شعرها الفضّي بسرعة، ونظرت إلى وجهها في المرآة. سرعان ما توقّفت السيّارة، وساعدها السائق على الخروج إلى الرصيف في حيّ مزدحم من مانهاتن.

قال السائق: "سأنتظرك هنا. يمكننا الذهاب مباشرة إلى المطار عندما تصبحين جاهزة".

كان المركز الرئيس لمجلس العلاقات الخارجية في نيويورك عبارة عن مبنى نيوكلاسيكي غير لافت للانتباه يقع في الزاوية بين الحديقة العامّة والشارع الثامن والستّين، وقد كان في ما مضى منزلاً لأحد رؤساء شركة ستاندرد أويل. تناسب شكله الخارجي بتناغم مع محيطه الأنيق، من دون أيّ إشارة إلى هدفه الفريد.

حيّتها موظّفة استقبال قائلة: "د. سينسكي، من هنا من فضلك. إنّه بانتظارك".

حسناً، *لكن من هو؟* تبعت موظّفة الاستقبال في ممرّ أنيق إلى باب مغلق، طرقت عليه المرأة قبل أن تفتحه وتشير لإليزابيث بالدخول.

دخلت، وأُغلق الباب خلفها.

كانت غرفة الاجتماعات الصغيرة المعتمة مضاءة بوهج شاشة فيديو فقط. أمام الشاشة، جلس رجل طويل ونحيل. ومع أنّها لم تتمكّن من رؤية وجهه، إلاّ أنّها شعرت بقوّة نفوذه.

رحب بها الرجل بصوت حادّ: "د. سينسكي، شكراً لمجيئك". بدا من لكنته أنّه ينتمي إلى بلد إليزابيث الأمّ، سويسرا، أو ربّما ألمانيا.

قال: "اجلسي من فضلك". وأشار إلى كرسيّ قريب من مقدّمة الغرفة.

ألن نتعارف؟ جلست إليزابيث. الصورة الغريبة التي تظهر على الشاشة لم تساعدها على تهدئة أعصابها. *ما هذا؟*

قال الرجل: "كنت موجوداً في محاضرتك هذا الصباح. أتيت من مسافة بعيدة لأستمع إليك. كان أداؤك مؤثّراً".

أجابت: "شكراً".

"اسمحي لي بالقول أيضاً إنّك أكثر جمالاً ممّا تخيّلت... على الرغم من سنّك ورؤيتك قصيرة النظر لعالم الصحّة".

فغرت إليزابيث فاها من شدّة الدهشة. كان التعليق مهيناً تماماً. سألته وهي تحدّق في الظلام: "عذراً! من أنت؟ ولماذا استدعيتني إلى هنا؟".

أجاب الظلّ النحيل: "اعذريني على دعابتي الفاشلة. الصورة على الجدار ستشرح لك سبب وجودك هنا".

نظرت سينسكي إلى الصورة المريعة؛ لوحة تصوّر بحراً من البشر وحشوداً من المرضى المكدّسين فوق بعضهم بعضاً في كومة من الأجساد العارية.

قال الرجل: "هذه لوحة للفنّان العظيم دوريه. إنّها تجسّد تفسيره المتشائم لرؤية دانتي أليغييري للجحيم. أتمنّى أن تجديها مريحة... لأنّ هذا هو ما سيؤول إليه حالنا". صمت والتفت نحوها ببطء مضيفاً: "دعيني أخبرك لماذا".

ظلّ يتقدّم نحوها ويزداد طولاً مع كلّ خطوة يخطوها. "إن أخذت هذه الورقة ومزّقتها إلى نصفين..." توقّف عند الطاولة، وتناول ورقة، ومزّقها من منتصفها. "ثمّ وضعت هذين النصفين فوق بعضهما..." وفعل ما قاله. "وكرّرت العمليّة..." مزّق مجدّداً الورقتين، ووضع الأجزاء فوق بعضها. "فسأحصل على كدسة من الأوراق التي تبلغ سماكتها أربعة أضعاف سماكة الورقة الأصلية، أليس كذلك؟". بدت عيناه وكأنّهما تلتهبان في ظلام الغرفة.

لم تشعر إليزابيث بالارتياح إزاء نبرته المتصاعدة ووقفته العدوانية، فلم تقل شيئاً.

تابع يقول وهو يقترب منها: "فرضياً، إن كانت سماكة الورقة الأصلية تبلغ 10/1 ملم، وكرّرت هذه العمليّة... لنقل: خمسين مرّة... فهل تعرفين كم ستبلغ سماكة هذه الكدسة من الأوراق؟".

توتّرت إليزابيث، وأجابت بعدائية أكثر ممّا أرادت: "أجل. ستبلغ 10/1 ملم ضرب 2^{50} وهذا ما يسمّى التقدّم الهندسي. هل لي أن أعرف ماذا أفعل هنا؟".

ابتسم الرجل وهزّ رأسه بإعجاب. "أجل. وهل تعرفين كم ستكون تلك القيمة فعلياً؟ هل تعرفين كم سيبلغ طول تلك الكدسة من الأوراق؟". صمت هنيهة ثمّ أضاف: "سيعادل طولها بعد مضاعفتها خمسين مرّة فقط المسافة بين الأرض... والشمس".

لم تفاجأ إليزابيث. فالقوّة الهائلة للنموّ الجيومتري شيء تتعامل معه طوال الوقت في عملها. *دوائر العدوى... تكرّر الخلايا المعدية... تقديرات الوفيات*. قالت من دون أن تبذل أيّ مجهود لإخفاء انزعاجها: "أعتذر إن بدوت ساذجة، لكنّني لم أفهم وجهة نظرك بعد".

ضحك بصوت منخفض وقال: "وجهة نظري! وجهة نظري هي أنّ تاريخ النموّ السكّاني في كوكبنا أكثر مأساوية. فسكّان الأرض – شأنهم شأن هذه الكدسة الصغيرة من الأوراق – بدأوا بأعداد ضئيلة جدًّا... لكنّ إمكانياتهم مثيرة للقلق".

عاد يمشي مجدّداً. "تأمّلي هذا. استغرق سكّان الأرض آلاف السنوات؛ من فجر البشرية وحتّى أوائل القرن التاسع عشر، ليبلغوا *مليار* نسمة. ثمّ فجأة، تضاعف عددهم خلال مائة عام ليبلغوا *ملياري* نسمة في عشرينيات القرن العشرين. بعد ذلك، بالكاد مرّت خمسون عاماً حتّى تضاعف عددهم إلى *أربعة* مليارات في سبعينيات القرن العشرين. وكما تتخيّلين، نحن نتّجه نحو المليارات الثمانية قريباً. اليوم فقط، أضاف الجنس البشري ربع مليون نسمة إلى سكّان الأرض. ربع *مليون*. وهذا يحدث يوميًّا، سواء أكان الطقس ممطراً أو مشمساً. حاليًّا، نضيف كلّ عام ما يعادل سكّان ألمانيا بأكملها".

توقّف الرجل الطويل أمام إليزابيث. "كم عمرك؟".

هذا سؤال وقح آخر، مع أنّها معتادة على التعامل مع العدوانية بدبلوماسية في عملها. "واحد وستّون عاماً".

"هل تعرفين أنّك إن عشت تسعة عشر عاماً، حتّى سنّ الثمانين، فستشاهدين تضاعف سكّان العالم *ثلاث مرّات* في حياتك. ثلاث مرّات في حياة واحدة. فكّري بمضاعفات ذلك. كما تعرفين، زادت منظّمة الصحّة العالمية توقّعاتها مجدّداً، فقد توقّعت أن يصبح عدد سكّان العالم تسعة مليارات قبل منتصف هذا القرن. الأنواع الحيوانية تنقرض بشكل متسارع جدًّا. كما أنّ الطلب على الموارد الطبيعية المتضائلة يرتفع على نحو هائل. يصعب الحصول على المياه النظيفة. وبحسب التقديرات البيولوجية، تجاوز البشر الأعداد التي يمكننا احتمالها. في وجه هذه الكارثة، تستثمر منظّمة الصحّة العالمية – التي تشكّل القيّم على صحّة هذا الكوكب – في مشاريع مثل علاج السكّري، وملء بنوك الدم، ومكافحة السرطان". صمت ليحدّق إليها مباشرة. "لذلك، أحضرتك إلى هنا. لأسألك مباشرة: لماذا لا تجرؤ منظّمة الصحّة العالمية على التعامل مع هذه المسألة بشكل حاسم؟".

بدأ غضب إليزابيث يتصاعد. "كائناً من تكن، أنت تعرف جيّداً أنّ منظّمة الصحّة العالمية تأخذ موضوع الزيادة السكّانية على محمل الجدّ. فقد أنفقنا مؤخّراً ملايين الدولارات،

وأرسلنا أطبّاءَ إلى أفريقيا لتوزيع وسائل مجّانية لمنع الحمل، وتوعية الناس حول تحديد النسل".

أجابها الرجل ساخراً: "آه، أجل! ومشى في أعقابكم جيش أكبر من المبشّرين الكاثوليك الذين راحوا يحذّرون الأفريقيين من أنّهم إن استعملوا وسائل منع الحمل فسيذهبون إلى الجحيم. تعيش أفريقيا مشكلة بيئية جديدة اليوم؛ فهناك حقول تفيض بالواقيات الذكرية غير المستعملة".

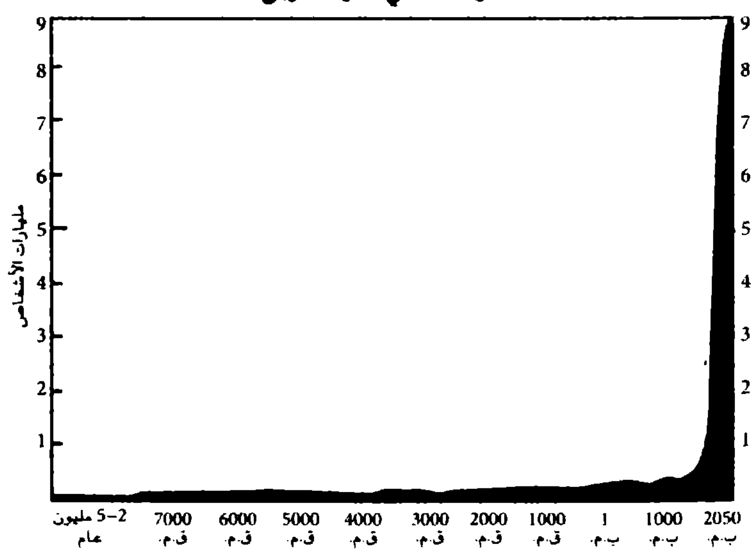
قاومت إليزابيث لإمساك لسانها عن الكلام. كان محقًّا في هذه النقطة، غير أنّ الكاثوليك المعاصرين بدأوا يعارضون تدخّل الفاتيكان في مسألة تحديد النسل. فقامت ميليندا غايتس، وهي كاثوليكية ملتزمة، بتخصيص 560 *مليون* دولار لتسهيل الوصول إلى وسائل تحديد النسل في مختلف أنحاء العالم؛ مخاطرة بإثارة غضب كنيستها. ولطالما أشارت إليزابيث سينسكي إلى أنّ بيل وميليندا غايتس يستحقّان تكريماً عظيماً بسبب جهودهما الرامية إلى تحسين الصحّة العالمية. لكن مع الأسف، إن المؤسّسة الوحيدة القادرة على صيانة الصحّة قد فشلت في رؤية الطبيعة المسيحية لجهودهما.

تابع الظلّ يقول: "د. سينسكي، ما ترفض منظّمة الصحّة العالمية الاعتراف به هو وجود مشكلة صحّية واحدة في العالم". وأشار إلى الصورة المروّعة على الشاشة التي يظهر فيها بحر من البشر المتشابكين. "وهذه هي". صمت ثمّ أضاف: "أدرك أنّك عالمة، وبالتالي لست طالبة فنون كلاسيكية أو فنون جميلة. لذلك، دعيني أعرض عليك صورة أخرى تتحدّث معك بلغة تفهمينها".

أظلمت الغرفة للحظة، ثمّ ظهرت صورة جديدة على الشاشة.

سبق أن رأت إليزابيث الصورة الجديدة مرّات عديدة... وكانت تُحدث فيها الأثر المخيف والحتمي نفسه.

النموّ السكّاني عبر التاريخ



خيّم صمت ثقيل على الغرفة.

قال الظلّ الطويل أخيراً: "أجل، الرعب الصامت ردّ قويّ على هذا الرسم. النظر إليه أشبه بالتحديق إلى المصابيح الأمامية لسيّارة مسرعة". استدار الرجل ببطء نحو إليزابيث، ورسم على وجهه ابتسامة متعالية. "هل من أسئلة د. سينسكي؟".

ردّت عليه بعنف: "سؤال واحد. هل أحضرتني إلى هنا لإلقاء محاضرة عليّ أم لإهانتي؟".

أصبح الصوت لطيفاً على نحو غريب: "لا هذا ولا ذاك. أحضرتك إلى هنا لأعمل.معك. لا شكّ أنّك تفهمين أنّ الانفجار السكّاني مشكلة صحّية. لكن ما أخشاه هو أنّك لا تفهمين أنّه سيؤثّر في روح الإنسان نفسها. فتحت وطأة الضغط السكّاني، من لم يفكّروا في السرقة مطلقاً سيتحوّلون إلى لصوص لإطعام أسرهم. ومن لم يفكّروا في القتل يوماً سيقتلون من أجل تربية صغارهم. كلّ خطايا دانتي المميتة: الطمع، والشره، والخيانة، والقتل، إلخ... ستتوالى، وستطفو على سطح البشرية، وستتفاقم بسبب اختفاء وسائل الراحة. إنّنا نواجه معركة ضدّ روح الإنسان".

"أنا عالمة بيولوجية. أنا أنقذ حياة الناس... لا أرواحهم".

"حسناً، يمكنني أن أؤكّد لك أنّ الحياة ستصبح صعبة على نحو متعاظم في السنوات المقبلة. فمساوئ الانفجار السكّاني لا تقتصر على الاستياء الروحي. ثمّة مقطع لماكيافيلي -".

"أجل"، قاطعته وتلت ما تذكره من مقولته الشهيرة. "عندما تعجّ كلّ مقاطعة في العالم بسكّان لا يستطيعون البقاء حيث هم، ولا الانتقال إلى مكان آخر... فإنّ العالم سيطهّر نفسه". حدّقت إليه مضيفة: "كلّ من في المنظّمة يعرف هذه المقولة".

"جيّد. إذاً، لا بدّ أنّك تعرفين أنّ ماكيافيلي تابع متحدّثاً عن الأمراض التي تشكّل الطريقة الطبيعية للتطهير الذاتي للعالم".

"أجل. وكما ذكرت في حديثي، نحن ندرك العلاقة المباشرة بين الكثافة السكّانية واحتمال انتشار الأوبئة على نطاق واسع، إلاّ أنّنا نبتكر باستمرار وسائل كشف وطرق علاج حديثة. والمنظّمة على ثقة من أنّنا سنتمكّن من منع انتشار الأوبئة في المستقبل".

"هذا مثير للشفقة".

حدّقت إليه إليزابيث غير مصدّقة. "أستميحك عذراً؟!".

قال الرجل وهو يضحك على نحو غريب: "د. سينسكي، أنت تتحدّثين عن مكافحة الأوبئة وكأنّها أمر جيّد".

نظرت إليه مذهولة.

قال وقد بدا وكأنّه محامٍ يدافع عن قضيته: "أصغي إليّ. ها أنا أقف مع رئيسة منظّمة الصحّة العالمية، أي أفضل من يمكن للمنظّمة تقديمه. وهذه فكرة مخيفة في الواقع. عرضت عليك هذه الصورة عن البؤس الداهم الذي يترصّد بنا". أعاد عرض صورة الجثث. "ذكّرتك بالقوّة المخيفة للنموّ السكّاني الجامح". وأشار إلى كدسة الأوراق الصغيرة. "كما شرحت لك أنّنا على شفير انهيار روحي". صمت ثمّ التفت إليها مباشرة. "وما هو جوابك؟ وسائل لمنع الحمل في

أفريقيا". أطلق الرجل ضحكة ساخرة. "هذا أشبه بالتلويح بكشّاشة ذباب على كوكب انحرف عن مساره. لم تعد القنبلة الموقوتة تُكتك. لقد انفجرت أساساً، ومن دون اتّخاذ تدابير جذرية، ستصبح الرياضيات الأسّية هي ما يحكم العالم... وستكون حاكماً حقوداً. ستُحضر رؤية دانتي للجحيم إلى بارك أفينيو... جموعاً غفيرة تتخبّط في قذارتها. إنها غربلة كونية نظّمتها الطبيعة بنفسها".

سألته إليزابيث بنبرة لاذعة: "حقًّا؟ أخبرني إذاً بحسب رؤيتك لمستقبل مستدام، ما هو العدد المثالي لسكّان الأرض؟ ما هو العدد السحري الذي يستطيع الجنس البشري احتماله بلا حدود... وعلى نحو مريح نسبيًّا؟".

ابتسم الرجل الطويل وقد أعجبه السؤال. "أيّ عالِم بيولوجيا بيئي أو عالم إحصائيات سيخبرك أنّ أفضل فرصة للجنس البشري لكي يستمرّ على المدى الطويل هي بعدد سكّان يقارب أربعة مليارات".

أجابته إليزابيث: *أربعة* مليارات! لقد بلغنا سبعة مليارات الآن، وأظنّ أنّ الأوان قد فات على ذلك".

ومضت عينا الرجل الخضراوان وسألها: "حقًّا؟".

الفصل 23

هبط لانغدون على الأرض الطرية خلف سور الطرف الجنوبي لحدائق بوبولي بأشجارها الكثيفة. حطّت سيينّا قربه، ثمّ وقفت ونفضت التراب عن ملابسها وبدأت تتأمّل محيطها.

وقفا في فسحة مليئة بالطحالب ونبات السرخس عند أطراف غابة صغيرة. كان بالاتزو بيتي محجوباً تماماً عن أنظارهما من هذه البقعة، فشعر لانغدون أنّهما أبعد ما يكون عن القصر. لكن على الأقلّ، لم يكن ثمّة عمّال أو سيّاح في هذه الساعة المبكرة.

حدّق لانغدون إلى طريق مكسوّ بالحصى يمتدّ على نحو جميل نزولاً في الغابة أمامهما. في المكان الذي تختفي فيه الطريق بين الأشجار، ينتصب تمثال رخامي في موقع ممتاز لجذب الأنظار. لم يفاجأ لانغدون، فحدائق بوبولي نتاج مواهب التصميم الفريدة التي تمتّع بها كلّ من نيكولو تريبولو، وجورجيو فاساري، وبيرناردو بوونتالينتي الذين أنتجوا معاً هذه التحفة الهندسية الممتدّة على مساحة 111 آكر.

قال لانغدون مشيراً إلى الطريق: "إن اتّجهنا نحو الشمال الشرقي فسنصل إلى القصر. وهناك يمكننا الاختلاط بالسيّاح والخروج من دون أن يرانا أحد. أظنّ أنّ القصر يفتح أبوابه عند الساعة التاسعة".

نظر لانغدون إلى معصمه للتحقّق من الوقت، لكنّه لم يرَ سوى معصمه الخالي الذي كانت تحتلّه ساعة ميكي ماوس سابقاً. تساءل عمّا إذا كانت لا تزال في المستشفى مع بقيّة أغراضه، وعمّا إذا كان سيتمكّن من استرجاعها.

وقفت سيينّا في مكانها، ونظرت إليه بتحدٍّ. "روبرت، قبل أن نقوم بخطوة أخرى، أريد أن أعرف إلى أين نحن ذاهبان. ماذا عرفت هناك؟ وماذا عن حلقات الماليبولغي؟ قلتَ إنّها ليست بالتسلسل الصحيح؟".

أشار لانغدون إلى الغابة الممتدّة أمامهما. "لنبتعد أوّلاً عن الأنظار". قادها عبر الطريق الذي ينعطف عند تجويف مغلق؛ "غرفة" بلغة الهندسة المعمارية للمناظر الطبيعية. كان المكان يحتوي على بعض المقاعد، فضلاً عن نافورة صغيرة. وكان الهواء تحت الأشجار أكثر برودة بلا شكّ.

أخرج لانغدون المسلاط من جيبه وبدأ يهزّه بقوّة. "سيينّا، أيًّا يكن من صنع هذه الصورة الرقمية، فهو لم يكتفِ بإضافة أحرف إلى الخطأة في الماليبولغي، بل غيّر ترتيب الخطايا".

وقف على المقعد، ووجّه المسلاط عند قدميه، فظهرت خارطة بوتيتشيلّي بصورة باهتة على المقعد المسطّح بجانب سيينّا.

أشار لانغدون إلى المنطقة المدرجة عند أسفل القمع. "هل ترين الأحرف الموزّعة على خنادق المالييولغي العشرة؟".

بحثت سيينّا عنها على الصورة وقرأتها من الأعلى إلى الأسفل. "catrovacer".

"صحيح. وهي بلا معنى".

"لكنّك أدركت أنّ الخنادق العشرة ليست بالترتيب الصحيح؟".

"لا، بل الأمر أسهل من ذلك في الواقع. لو شبّهنا هذه المستويات بمجموعة من عشر بطاقات من أوراق اللعب، فهي لم تُخلط كثيراً، بل تمّ قطعها مرّة واحدة. وبعد القطع، بقيت الأوراق بالترتيب الصحيح، لكنّها بدأت عند البطاقة الخطأ". أشار لانغدون إلى الخنادق العشرة. "بحسب نصّ دانتي، إنّ الخندق العلوي هو للمغرّرين الذين تجلدهم الشياطين. لكن في هذه النسخة، نجد المغرّرين... في الأسفل؛ في الخندق السابع".

تأمّلت سيينّا الصورة المتلاشية قربها، وهزّت رأسها موافقة. "حسناً، أرى ذلك. الخندق الأوّل أصبح هنا السابع".

وضع لانغدون المسلاط في جيبه، وقفز مجدّداً على الأرض. تناول غصناً صغيراً، وبدأ يرسم أحرفاً على التراب بجانب طريق الحصى. "هذه هي الأحرف التي تظهر في نسختنا المعدّلة للجحيم".

C
A
T
R
O
V
A
C
E
R

قرأت سيينّا: "catrovacer".

"أجل. وهنا تمّ قطع *الورق*". رسم لانغدون خطّاً تحت الحرف السابع وانتظر لكي تتأمّل سيينّا عمله.

C
A
T
R
O
V
A
———
C
E
R

قالت بسرعة: "حسناً، Catrova. Cer".

"أجل. إن أعدنا البطاقات إلى ترتيبها الصحيح، فعلينا ببساطة إعادة هذا الجزء إلى الأعلى".

تأمّلت سيينّا الحروف. "Cer. Catrova". هزّت كتفيها قائلة: "ما زالت بلا معنى...".

كرّر لانغدون بصوت عالٍ: "Cer Catrova". صمت قليلاً ثمّ أعاد نطق الأحرف ودمجها معاً. "Cercatrova". أخيراً، لفظها مجدّداً وفصل الكلمة في منتصفها. "Cerca... trova".

شهقت سيينّا بصوت عالٍ ونظرت إلى لانغدون.

ابتسم وقال: "أجل، *تشيركا تروفا*".

كانت الكلمتان الإيطاليتان تعنيان حرفياً "ابحث" و"جِدْ". وعندما تُستخدمان معاً في جملة تصبحان مرادفاً للحكمة الواردة في الكتاب المقدّس "اطلبوا تجدوا".

هتفت سيينّا: "هذه هي الجملة التي كنت تسمعها في هذيانك! المرأة ذات الوشاح كانت تطلب منك دائماً أن تبحث لتجد!". قفزت واقفة. "روبرت، هل تدرك معنى ذلك؟ هذا يعني أنّ الكلمتين *Cerca trova* كانتا موجودتين في لا وعيك! هل تدرك ذلك؟ لا بدّ أنّك فكّكت رموز هذه الجملة قبل وصولك إلى المستشفى! لقد رأيت على الأرجح هذه الصورة الموجودة في المسلاط من قبل... لكنّك نسيت!".

أدرك لانغدون أنّها على حقّ. فقد كان يركّز انتباهه على الشيفرة بحدّ ذاتها، ولم يخطر في باله قطّ أنّه سبق له أن مرّ بكلّ ذلك.

"روبرت، قلتَ إنّ الخارطة تشير إلى مكان محدّد في المدينة القديمة، لكنّني لم أفهم بعد إلى أين".

"ألا تذكّرك هاتان الكلمتان بأيّ شيء؟".

هزّت كتفيها حائرة.

ابتسم لانغدون وفكّر، *أخيراً ثمّة شيء لا تعرفه سيينّا*. "كما يبدو، تشير هذه الكلمة تحديداً إلى لوحة جدارية شهيرة معلّقة في قصر بالاتزو فيكيو؛ جدارية جورجيو فاساري التي تحمل عنوان *باتاليا دي مارتشانو* في قاعة الخمسمائة. في أعلى اللوحة تقريباً، وبأحرف بالكاد مرئية، كتب فاساري بأحرف صغيرة جدًّا *cerca trova*. ثمّة نظريات كثيرة عن سبب ذلك، لكن لم يتمّ اكتشاف أيّ دليل حاسم".

فجأة، ارتفع صوت طائرة صغيرة فوقهما، بدت وكأنّها قد ظهرت من العدم، وبدأت تحلّق في أجواء الغابة. كان الصوت قريباً جدًّا، حيث تجمّد لانغدون وسيينّا في مكانهما في اللحظة التي مرّت فيها الطائرة.

عندما ابتعدت الطائرة، حدّق لانغدون من بين الأشجار وقال: "إنّها مروحية دمية". وتنفّس الصعداء وهو يشاهد الطائرة التي يبلغ طولها ثلاث أقدام، ويتمّ التحكّم بها لاسلكياً، وهي تميل في الجوّ. بدت أشبه ببعوضة عملاقة غاضبة.

غير أنّ سيينّا لم تشعر بالارتياح، بل قالت له: "ابقَ منخفضاً".

انعطفت الطائرة الصغيرة بالكامل وعادت باتّجاههما، مارّة فوق الأشجار على علو منخفض، وابتعدت عنهما مجدّداً، متّجهة هذه المرّة إلى اليسار فوق فسحة أخرى.

همست قائلة: "هذه ليست دمية، بل إنها طائرة استطلاع من دون طيّار. إنّها مزوّدة على الأرجح بكاميرا فيديو تُرسل صوراً حيّة إلى... شخص ما".

توتّر فكّ لانغدون وهو يشاهد المروحية تعود إلى المكان الذي أتت منه؛ بورتا رومانا ومعهد الفنون.

قالت سيينّا: "لا أدري ما الذي فعلته، لكنّ بعض الأشخاص النافذين مصمّمون جدًّا على العثور عليك".

عادت المروحية مجدّداً، وبدأت تمرّ ببطء فوق محيط السور الذي قفزا من فوقه للتوّ.

قالت سيينّا وهي تتقدّم على الطريق: "لا بدّ أنّ شخصاً ما في معهد الفنون قد رآنا وأخبر عنّا. علينا الابتعاد من هنا حالاً".

مع ابتعاد الطائرة نحو أطراف الحدائق، قام لانغدون بمحو الأحرف التي كتبها على الطريق بقدمه، ثمّ أسرع خلف سيينّا. تزاحمت في ذهنه أفكار عن *cerca trova*، وجدارية جورجيو فاساري، وما قالته سيينّا عن أنّه سبق له أن فكّك رموز رسالة المسلاط. *اطلبوا تجدوا*.

فجأة، وبينما كانا يدخلان فسحة أخرى، خطرت في ذهن لانغدون فكرة مفاجئة، فتوقّف على الطريق المحاط بالأشجار، وبدا الذهول على وجهه.

توقّفت سيينّا هي الأخرى. "روبرت، ما الأمر؟!".

أعلن قائلاً: "أنا بريء".

"ما الذي تتحدّث عنه؟".

"الأشخاص الذين يطاردونني... اعتقدت أنّني ارتكبت أمراً فظيعاً".

"أجل، كنت تردّد في المستشفى *آسف جدًا* ".

"أعرف. لكن ظننت أنّني كنت أتكلّم بالإنكليزية".

نظرت إليه سيينّا متفاجئة. "كنت تتكلّم بالإنكليزية *فعلاً* ".

امتلأت عينا لانغدون الزرقاوان بالحماسة. "سيينّا، عندما كنت أكرّر *Very sorry* لم أكن أعتذر. بل كنت أهذي بالرسالة السرّية المكتوبة على اللوحة الجدارية في بالاتزو فيكيو!". ما زال يستطيع سماع صوته المسجّل وهو يردّد: *Ve... sorry. Ve... sorry*.

شعرت سيينّا بالضياع.

"ألا ترين؟!". كان لانغدون يبتسم الآن. "لم أكن أتأسّف، بل كنت أردّد اسم الفنّان؛ *فا... ساري، فاساري*!".

الفصل 24

ضغطت فايينتا على الفرامل بقوّة.

أصدرت درّاجتها صوتاً عالياً، وتركت أثراً طويلاً على الإسفلت في جادة بودجو إمبريالي، ثمّ توقّفت أخيراً بشكل مفاجئ خلف صفّ طويل من السيّارات. كانت جادة بودجو في حالة جمود.

ليس لديّ وقت لهذا!

رفعت فايينتا رأسها لتنظر من فوق السيّارات؛ محاولة معرفة سبب هذا الزحام. كانت قد اضطرّت إلى القيادة في دائرة واسعة لتجنّب فريق المراقبة والدعم والفوضى التي تحيط بالمبنى السكني، وهي الآن بحاجة إلى دخول المدينة القديمة من أجل إخلاء غرفة الفندق التي تمركزت فيها خلال الأيّام القليلة الماضية.

لقد تمّ التنصّل منّي، وعليّ مغادرة البلدة على الفور!

غير أنّ سوء الحظّ لم يفارقها على ما يبدو. فالطريق التي اختارتها لدخول المدينة القديمة كانت مغلقة. لم تكن فايينتا في مزاج يسمح لها بالانتظار، فانحرفت بدرّاجتها إلى أحد جانبي صفّ السيّارات، وأسرعت عبر الممرّ الضيّق إلى أن تمكّنت من رؤية تقاطع الطرق المسدود. رأت أمامها مستديرة مقطوعة تتوزّع منها ستّ طرق رئيسة. كانت تلك بورتا رومانا؛ أحد أكثر التقاطعات ازدحاماً في فلورنسا، كما أنّها الباب المؤدي إلى المدينة القديمة.

ما الذي يجري هنا؟!

لاحظت فايينتا أنّ المنطقة بأكملها تعجّ بعناصر الشرطة الذين أقاموا حاجز تفتيش. وبعد لحظات، رأت في وسط المعمعة مشهداً أدهشها؛ رأت فاناً أسود مألوفاً يقف حوله عدد من العملاء الذين يرتدون ملابس سوداء، ويصدرون الأوامر للسلطات المحلّية.

لا شكّ في أنّ هؤلاء من فريق المراقبة والدعم، غير أنّ فايينتا لم تفهم ماذا يفعلون هنا.

إلاّ إذا...

ابتلعت فايينتا لعابها بصعوبة، ولم تجرؤ على تخيّل ذلك الاحتمال. *هل يعقل أن يكون لانغدون قد أفلت من بروودر أيضاً؟* بدا ذلك غير وارد، وذلك لأنّ فرص الهرب كانت معدومة تقريباً. غير أنّ لانغدون لم يكن يعمل بمفرده، وقد عرفت فايينتا بنفسها أنّ المرأة الشقراء واسعة الحيلة.

ظهر في الجوار ضابط شرطة يتنقّل من سيّارة إلى أخرى، ويُبرز صورة لرجل وسيم، شعره بنّي كثيف. عرفت فايينتا فوراً أنّ الصورة لروبرت لانغدون، فتسارعت نبضات قلبها.

لقد أفلت من برودر...

ما زال لانغدون حرًّا!

بصفتها استراتيجية واسعة الخبرة، بدأت تقيّم انعكاس هذا التطوّر على وضعها.

الخيار الأوّل: الهرب.

لقد تسبّبت فايينثا بفشل مهمّة حرجة للعميد، وتمّ التنصّل منها بسبب ذلك. إن كانت محظوظة فستواجه استجواباً رسمياً، وستنتهي مهنتها على الأرجح. أمّا إن لم تكن كذلك، وأساءت تقدير خطورة رئيسها، فقد تمضي بقيّة حياتها هاربة، ومتسائلة عمّا إذا كان رجال الكونسورتيوم يتربّصون بها.

لديك خيار آخر الآن.

أكملي مهمّتك.

كان إكمال المهمّة يتعارض تماماً مع بروتوكول التنصّل. لكن، ما دام لانغدون هارباً، فإنّ الفرصة متاحة أمام فايينثا لمواصلة تنفيذ الأوامر الأصلية.

فكّرت ونبضها يتسارع، *إن فشل برودر في إيجاد لانغدون، ونجحت أنا...*

عرفت فايينثا أنّ الاحتمال بعيد. لكن، إن تمكّن لانغدون من التملّص من برودر تماماً، وتمكّنت فايينثا من التدخّل وإنهاء المهمّة، فستتفرّد بإنقاذ الكونسورتيوم، ولن يكون أمام العميد أيّ خيار سوى إعادتها إلى وظيفتها.

فكّرت، *سأحتفظ بوظيفتي، وقد تتمّ ترقيتي أيضاً.*

في لمح البصر، أدركت فايينثا أنّ مستقبلها بأكمله يتمحور حول خطوة حرجة واحدة. *عليّ أن أجد لانغدون... قبل برودر.*

لن يكون الأمر سهلاً. إذ يملك برودر بتصرّفه قوّة عاملة غير محدودة، فضلاً عن مجموعة واسعة من الوسائل التكنولوجية الواسعة المستخدمة للمراقبة. أمّا فايينثا فتعمل بمفردها. غير أنّها تملك معلومة واحدة لا يعرفها برودر، أو العميد، أو الشرطة.

أعرف تماماً إلى أين سيذهب لانغدون.

ضغطت على دوّاسة السرعة، واستدارت 180 درجة، ثمّ عادت من حيث أتت. فكّرت وهي تتخيّل الجسر الواقع إلى الشمال، *بونتي ألي غراتسيي*. ثمّة أكثر من طريق يؤدي إلى داخل المدينة القديمة.

الفصل 25

راح لانغدون يفكّر مذهولاً: *لم يكن اعتذاراً، بل كان اسم فنّان.*

ردّدت سيينّا وهي تعود خطوة كاملة إلى الوراء: "فاساري، الفنّان الذي خبّأ عبارة *cerca trova* في لوحته الجدارية".

ابتسم لانغدون. *فاساري. فاساري.* صحيح أنّ هذا الاكتشاف سلّط الضوء على المأزق الغريب الذي وجد نفسه فيه، إلاّ أنّه كان يعني أيضاً أنّ لانغدون لن يتساءل بعد الآن عن الإثم الفظيع الذي ارتكبه... والذي كان يعتذر عنه باستفاضة.

"روبرت، من الواضح أنّك رأيت لوحة بوتيتشيلّي هذه قبل إصابتك بالرصاصة، وعرفت أنّها تحتوي على شيفرة تشير إلى جدارية فاساري. لهذا السبب استيقظت وأنت تردّد اسمه!".

حاول لانغدون أن يحلّل معنى كلّ ذلك. كان جورجيو فاساري فنّاناً، ومهندساً معمارياً، وأديباً عاش في القرن السادس عشر. وغالباً ما وصفه لانغدون بأنّه "أوّل مؤرّخ للفنّ في العالم". فعلى الرغم من مئات اللوحات التي رسمها فاساري، وعشرات المباني التي صمّمها، كان أهمّ آثاره هو كتابه المبدع، *حياة أنجح الرسّامين، والنحّاتين، والمهندسين المعماريين*، الذي يضمّ سيراً لفنّانين إيطاليين، وما زالت قراءته حتّى هذا اليوم مطلوبة من تلامذة تاريخ الفنّ.

أعادت عبارة *cerca trova* فاساري إلى محور النقاشات قبل حوالى ثلاثين عاماً؛ عندما تمّ اكتشاف "رسالته السرّية" في أعلى لوحته الجدارية المترامية في قاعة الخمسمائة في قصر فيكيو. ظهرت الأحرف الصغيرة على علم حربي أخضر، وكانت بالكاد مرئية في فوضى مشهد المعركة. ومع أنّه لم يتمّ الاتّفاق حول السبب الذي دفع فاساري إلى إضافة هذه الرسالة الغريبة إلى لوحته، إلاّ أنّ النظرية الأكثر شيوعاً تفيد أنّها إشارة للأجيال القادمة إلى وجود جدارية مفقودة لليوناردو دافينشي مخبّأة في فجوة من ثلاثة سنتمترات خلف ذلك الجدار.

كانت سيينّا تنظر من بين الأشجار بعصبية. "ثمّة أمر لم أفهمه بعد. إن لم تكن تعتذر... فلماذا يحاول هؤلاء الأشخاص قتلك؟".

كان ذهن لانغدون مشغولاً بالتفكير في السؤال نفسه.

علا صوت طائرة المراقبة مجدّداً، فأدرك لانغدون أنّ الوقت قد حان لاتّخاذ القرار. لم يفهم كيف يمكن للوحة فاساري، *باتاليا دي مارتشانو*، أن تكون على علاقة بإنفيرنو دانتي، أو بالطلقة التي أصيب بها في الليلة الفائتة. ومع ذلك، رأى أخيراً طريقاً واضحاً أمامه.

Cerca trova.

من يبحث يجد.

تراءت للانغدون مجدّداً المرأة ذات الشعر الفضّي وهي تناديه من الضفّة الأخرى للنهر. *الوقت ينفد!* إن كان ثمّة أجوبة، فقد شعر لانغدون أنّه سيجدها في قصر فيكيو.

عاد إليه في تلك اللحظة مَثَل قديم للغطّاسين الإغريق الذين كانوا يصطادون الكركند في الكهوف المرجانية في جزر بحر إيجة. *حين تسبح في نفق مظلم، فستصل إلى نقطة اللاعودة؛ عندما يصبح نفَسك غير كافٍ لتعود أدراجك. عندئذٍ، سيكون خيارك الوحيد هو السباحة إلى الأمام نحو المجهول... والصلاة لإيجاد مخرج.*

تساءل لانغدون عمّا إذا كان قد بلغ تلك المرحلة.

نظر إلى المتاهة أمامه. إن تمكّن هو وسيينّا من الوصول إلى قصر بيتّي والخروج من الحدائق، فستكون المدينة القديمة على مسافة مسيرة قصيرة عبر أشهر جسر للمشاة في العالم، بونتي فيكيو. هذا الجسر مزدحم دائماً، وبالتالي سيوفّر لهما غطاءً جيّداً. من هناك، سيكون قصر فيكيو على مسافة قريبة.

اقتربت الطائرة أكثر، وشعر لانغدون للحظة أنّه منهك تماماً. فعندما أدرك أنّه لم يكن يقول "آسف جدًّا"، أصبح هربه من الشرطة بلا معنى بالنسبة إليه.

قال لانغدون: "سيقبضون عليّ في النهاية سيينّا. ربّما كان من الأفضل أن أكفّ عن الهرب".

نظرت إليه سيينّا بفزع. "روبرت، كلّما توقّفت حاول شخص ما إطلاق النار عليك! يجب أن تعرف ما أنت متورّط فيه. يجب أن تنظر إلى جدارية فاساري وتدعو لكي تنعش ذاكرتك. ربّما ستساعدك على معرفة مصدر هذا المسلاط وسبب وجوده معك".

تذكّر لانغدون المرأة بشعرها السبايكي التي قتلت د. ماركوني بدم بارد... والجنود الذين أطلقوا النار عليهما... والشرطة العسكرية الإيطالية المتجمّعة عند بورتا رومانا... والآن طائرة المراقبة التي تبحث عنهما في حدائق بوبولي. غرق في الصمت، ودلّك عينيه المتعبتين وهو يفكّر بالخيارات المتاحة أمامه.

قالت سيينّا: "روبرت، ثمّة أمر آخر... شيء لم يبدُ ذا أهمّية، لكنّني أجده مهمًّا الآن".

نظر إليها مستغرباً جدّية نبرتها.

قالت: "كنت أنوي إخبارك في الشقّة، لكن...".

"ما الأمر؟".

بدا التوتّر على وجه سيينّا. "عندما وصلت إلى المستشفى، كنت تهذي وتحاول التواصل".

قال لانغدون: "أجل، وكنت أتمتم فاساري، فاساري".

"أجل. لكن، *قبل* ذلك... قبل أن نحضر آلة التسجيل، أي في اللحظات الأولى من وصولك، قلت شيئاً آخر ما زلت أذكره. قلته مرّة واحدة، لكنّني متأكّدة ممّا فهمته".

"ماذا قلت؟".

نظرت سيينّا إلى الطائرة ومن ثمّ إلى لانغدون. "قلت: *أنا أملك المفتاح لإيجاده... إن فشلت، فمصيرنا الموت*".

حدّق إليها لانغدون عاجزاً عن الكلام.

تابعت سيينّا: "ظننت أنّك كنت تعني الشيء الموجود في سترتك، لكنّني لم أعد واثقة الآن".

إن فشلت، فمصيرنا الموت؟! تلك الكلمات صعقت لانغدون. تراءت له صور الموت التي تلاحقه في هذيانه... إنفيرنو دانتي، رمز الخطر البيولوجي، طبيب الطاعون. مجدّداً، توسّلت إليه المرأة الجميلة ذات الشعر الفضّي من على ضفّة النهر. *من يبحث يجد! الوقت ينفد!*

أعاده صوت سيينّا إلى الواقع. "أيًّا يكن ما يشير إليه هذا المسلاط... وأيًّا يكن ما تحاول إيجاده، فلا بدّ أنّه خطير للغاية. فالأشخاص الذين يسعون إلى قتلنا..." ارتجف صوتها، وحاولت تمالك نفسها. "فكّر بالأمر. لقد أطلقوا عليك النار في وضح النهار... وعليّ *أنا* أيضاً، مع أنّني بريئة. لا يبدو أن ثمّة من يسعى إلى التفاوض. حتّى إنّ حكومتك انقلبت عليك... اتّصلت بهم لطلب المساعدة، فما كان منهم إلاّ أن أرسلوا شخصاً لتصفيتك".

حدّق لانغدون إلى الأرض ساهماً. سواء أكانت القنصلية الأميركية قد أبلغت القاتلة بمكان لانغدون، أو قامت القنصلية نفسها بإرسال القاتلة، فإنّ هذا الأمر لم يعد مهمًّا. وذلك لأنّ النتيجة هي نفسها؛ حكومتي *ليست إلى جانبي*.

نظر لانغدون إلى عيني سيينّا، ورأى فيهما شجاعة وتصميماً. *بماذا ورطتها؟* "أتمنّى لو كنت أعرف ما نبحث عنه. فذلك سيساعدنا على وضع الأمور في نصابها".

أومأت سيينّا موافقة. "مهما يكن، فعلينا إيجاده. ذلك سيساعدنا".

كان من الصعب دحض حجّتها. غير أنّ فكرة ظلّت تزعج لانغدون. *إن فشلت، فمصيرنا الموت*. منذ الصباح وهو يصادف رموزاً للموت، من الخطر البيولوجي، إلى الطاعون، إلى جحيم دانتي. صحيح أنّه لا يملك دليلاً واضحاً عمّا يبحث عنه، إلاّ أنّه من السذاجة عدم التفكير في احتمال اشتمال هذا الوضع على مرض قاتل أو خطر بيولوجي واسع النطاق. لكن، إن كان ذلك صحيحاً، فلماذا تحاول حكومته القضاء عليه؟

هل يعتقدون أنّني متورّط في هجوم محتمل؟

لم يكن لذلك أيّ معنى. لا بدّ أنّ أمراً آخر يجري هنا.

فكّر لانغدون بالمرأة ذات الشعر الفضّي. "هنالك أيضاً تلك المرأة التي أراها في أحلامي. أشعر أنّ عليّ إيجادها".

قالت سيينّا: "إذاً، ثق بأحاسيسك. ففي حالتك، يُعتبر عقلك الباطن أفضل بوصلة لديك. فهذا من علم النفس الأساسي؛ إن كان إحساسك يشجّعك على الوثوق بهذه المرأة، فأنا أعتقد أنّه عليك فعل ما تقوله لك".

قالا معاً: "من يبحث يجد".

تنهّد لانغدون، وعرف أنّ طريقه واضح.

ليس أمامي سوى السباحة في هذا النفق.

بعزيمة صلبة، التفت وبدأ يدرس محيطه؛ محاولاً إيجاد طريقة للخروج من الحدائق.

كانا يقفان تحت الأشجار، عند طرف ساحة واسعة مفتوحة، تتقاطع فيها عدّة طرق. على مسافة بعيدة إلى يسارهما، رأى لانغدون بحيرة على شكل هلال تضمّ جزيرة صغيرة مزيّنة بأشجار الليمون وبتمثال. فكّر، إنّها *الإيزولوتّو*، وعرف المنحوتة الشهيرة لبيرسيوس التي تصوّر حصاناً يقفز وهو نصف مغمور بالماء.

قال لانغدون: "قصر بيتّي بهذا الاتّجاه"، وأشار إلى الشرق بعيداً عن الجزيرة؛ باتّجاه الطريق الرئيس للحديقة، أي فيتّولوني، الذي يمتدّ من الشرق إلى الغرب عبر الحديقة بأكملها. كان طريق فيتّولوني بمساحة طريق باتّجاهين، تحيط به أشجار السرو الطويلة التي يرجع عمرها إلى أربعمائة عام.

قالت سيينّا وهي ترمق الطريق المكشوف وتشير إلى الطائرة التي تحوم في الأجواء: "لا يوجد غطاء هنا".

قال لانغدون وهو يبتسم: "أنت على حقّ. لهذا السبب سنسلك النفق المحاذي للطريق".

أشار هذه المرّة إلى سياج بمحاذاة بداية فيتّولوني. كان الجدار العشبي الكثيف يحتوي على فتحة صغيرة مقوّسة. خلف الفتحة، امتدّ طريق ضيّق للمشاة كان عبارة عن نفق يمتدّ بموازاة فيتّولوني. كان ذلك النفق محاطاً من الجانبين بصفّ من شجر السنديان الذي تمّ تشذيبه بعناية منذ القرن السابع عشر ليشكّل قنطرة فوق الطريق، ويؤمّن ظلاً. كان اسم ذلك الطريق، *لا تشيركياتا*، ويعني حرفياً "الدائرة" أو "القنطرة"، بسبب الأشجار التي تظلّله وتجعله شبيهاً بالبرميل، بالإيطالية *تشيركي*.

أسرعت سيينّا إلى الفتحة وحدّقت إلى النفق الظليل، ثمّ التفتت فوراً إلى لانغدون وقالت مبتسمة: "هذا أفضل".

ومن دون إضاعة المزيد من الوقت، دخلت عبر الفتحة وأسرعت بين الأشجار.

لطالما اعتبر لانغدون نفق لا تشيركياتا من أكثر الأماكن أماناً في فلورنسا. لكن اليوم، وهو يشاهد سيينّا تختفي في الممرّ المظلم، فكّر مجدّداً بالغطّاسين الإغريق الذين يسبحون في الأنفاق المرجانية ويصلّون لإيجاد مخرج.

تلا لانغدون بسرعة دعاءً قصيراً وأسرع خلفها.

على بعد نصف ميل، خارج معهد الفنون، مشى العميل برودر بين حشد من رجال الشرطة والطلاّب، وركّز نظره الجليدي على الحشود المغادرة أمامه. توجّه إلى مركز القيادة المؤقّت الذي أقامه أخصّائي المراقبة في فريقه على غطاء محرّك الفان الأسود.

قال الأخصّائي وهو يعطي برودر شاشة لوحية: "هذه الصورة أُخذت منذ بضع دقائق بواسطة كاميرا الطائرة".

تفحّص برودر الصورة التي التُقطت لوجهين؛ رجل ذي شعر داكن وامرأة ذات شعر أشقر مسرّح على شكل ذيل حصان، كلاهما يقفان في الظلّ ويحدّقان إلى السماء من خلال أغصان الأشجار.

روبرت لانغدون.

سيينّا بروكس.

لا شكّ في ذلك.

حوّل برودر انتباهه إلى خارطة حدائق بوبولي التي كانت موضوعة على غطاء محرّك الفان. فكّر في سرّه وهو يتأمّل الخارطة: *كان خيارهما خاطئاً*. فمع أنّ الحدائق مترامية الأطراف، ومعقّدة التصميم، كما تزخر بالمخابئ، إلاّ أنّها محاطة بأسوار عالية من كلّ الجهات. كانت حدائق بوبولي أقرب ما تكون إلى مصيدة.

لن يخرجا أبداً.

قال العميل: "تقوم السلطات المحلّية بإغلاق كلّ المخارج، وستبدأ عمليّة التمشيط".

قال برودر: "أطلعني على كلّ المستجدّات".

نظر ببطء إلى نافذة الفان السميكة المصنوعة من البوليكاربونات، ورأى من خلالها المرأة ذات الشعر الفضّي جالسة على المقعد الخلفي.

العقاقير التي أعطوها إيّاها شلّت حواسها من دون شكّ؛ أكثر ممّا تخيّل برودر. ومع ذلك، كما يبدو من نظرة الخوف في عينيها، ما زالت تفهم تماماً ما يجري حولها.

فكّر برودر، *لا تبدو سعيدة. أساساً، كيف لها ذلك؟*

الفصل 26

انطلقت المياه على ارتفاع عشرين قدماً في الهواء.

راقبها لانغدون وهي تغوص مجدّداً في الأرض، وعرف أنّهما يقتربان. لقد وصلا إلى نهاية نفق لا تشيركياتا، وراحا يركضان عبر مرج مفتوح في أيكة من شجر الفلّين. كانا ينظران الآن إلى أشهر نافورة طبيعية في بوبولي؛ تمثال ستولدو لورينزي البرونزي الذي يصوّر نبتون ممسكاً برمحه الثلاثي. كانت هذه النافورة تُعرف بين المحلّيين باسم نافورة الشوكة، وتُعتبر موقعاً مركزيًّا في الحدائق.

توقّفت سيينّا عند طرف الأيكة، وحدّقت إلى الأعلى عبر أغصان الأشجار. "لا أرى الطائرة".

لم يعد لانغدون يسمع صوتها أيضاً، غير أنّ صوت النافورة كان عالياً.

قالت سيينّا: "لا بدّ أنّهم اضطرّوا إلى التزوّد بالوقود. هذه فرصتنا، بأيّ اتّجاه نذهب؟".

قادها لانغدون إلى اليسار، وبدآ بهبوط منحدر. عندما خرجا من بين الأشجار، بدا قصر بيتّي.

همست سيينّا: "يا له من بناء جميل!".

أجابها بامتعاض: "إنه بناء نموذجي لأسرة ميديتشي".

مع ذلك، كانت واجهة قصر بيتّي الواقعة على بعد ربع ميل تقريباً تهيمن على المشهد، ممتدّة إلى اليمين واليسار. أضفت الزخرفة الخارجية على المبنى هيبة قوية، زادت من حدّتها النوافذ المغلقة والفتحات المقوّسة. تقليدياً، كانت القصور الرسمية تقع على أرض مرتفعة؛ حيث يُضطرّ كلّ من يقف في الحدائق إلى النظر إلى الأعلى لرؤية القصر. غير أنّ قصر بيتّي كان مبنياً في منخفض قرب نهر آرنو، ما يعني أنّ الموجودين في حدائق بوبولي ينظرون إلى الأسفل لرؤية القصر.

غير أنّ هذا التأثير كان أكثر دراماتيكية. وصف أحد المهندسين المعماريين القصر على أنّه يبدو وكأنّه من بناء الطبيعة... وكأنّ الحجارة الضخمة قد تدحرجت إلى أسفل الجرف وتكوّمت في الأسفل على شكل متراس أنيق. على الرغم من هذا الموقع الضعيف في الوادي، إلاّ أنّ هيكل قصر بيتّي بحجارته المتينة كان مهيباً؛ إلى درجة أنّ نابليون استخدمه مرّة كقاعدة له عندما كان في فلورنسا.

قالت سيينّا مشيرة إلى أقرب أبواب القصر: "انظر، لدينا أخبار طيّبة".

كان لانغدون قد رأى المشهد أيضاً. ففي هذا الصباح الغريب، لم يكن مشهد القصر بحدّ ذاته هو المفرح، بل السيّاح الذين يتدفّقون من المبنى إلى الحدائق السفلية. كان القصر مفتوحاً، ما يعني أنّ لانغدون وسيينّا لن يواجها أيّ مشاكل في التسلّل إلى الداخل، وعبور المبنى لتفادي الحدائق. عرف لانغدون أنهما عندما يخرجان من القصر، فسيريان نهر آرنو إلى اليمين، وخلفه أبراج المدينة القديمة.

واصلا التقدم، وهرولا عبر المنحدر. أثناء نزولهما، عبرا مدرّج بوبولي الذي شهد أوّل أوبرا في التاريخ، والذي يقع إلى جانب التلّ؛ كما لو كان حافر حصان. ثمّ مرّا بالقرب من مسلّة رمسيس الثاني، والتحفة "الفنّية" الموضوعة على قاعدتها. تشير الكتيبات السياحية إلى أنّها "حوض حجري ضخم من حمّامات كركلاّ في روما"، لكنّ لانغدون رآها دائماً على حقيقتها؛ أكبر حوض استحمام في العالم. *عليهم حقًّا وضع ذلك الشيء في مكان آخر.*

وصلا أخيراً إلى الجهة الخلفية للقصر، وأبطآ من سيرهما، حيث اختلطا مع السيّاح الأوائل لذلك اليوم. تقدّما بعكس التيّار، ونزلا عبر نفق ضيّق إلى الفناء الذي جلس فيه بعض الزوّار للاستمتاع باحتساء قهوة الصباح في مقهى القصر. كان الهواء عابقاً برائحة القهوة الطازجة، فتاق لانغدون فجأة إلى الجلوس والاستمتاع بفطور هادئ. *ليس اليوم مناسباً*، فكّر وهما يسرعان ويدخلان الممرّ الحجري الواسع المؤدّي إلى مدخل القصر الرئيس.

مع اقترابهما من المدخل، اصطدم لانغدون وسيينّا بحشد أكبر من السيّاح الذين اجتمعوا عند الباب لرؤية شيء ما في الخارج. حدّق لانغدون من بين الحشود إلى الفناء الممتدّ أمام القصر.

لم يكن المدخل الأساسي لقصر بيتّي جذّاباً كما يتذكّره، بل مجرّد فناء مكسوّ بالعشب المشذّب. كانت الباحة الأمامية عبارة عن مساحة واسعة من الإسفلت ممتدّة عبر التلال، وصولاً إلى فيا دي غويتشارديني؛ كما لو أنّها منحدر تزلّج هائل مرصوف.

عند أسفل التلّ، رأى لانغدون ما يجذب أنظار المتفرّجين.

في بياتزا دي بيتّي، وصلت ستّ سيّارات للشرطة من كلّ الاتجاهات. تدفّق منها جيش صغير من الضبّاط الذين صعدوا التلّ شاهرين أسلحتهم، ثمّ انتشروا لتأمين واجهة القصر.

الفصل 27

عندما دخلت الشرطة قصر بيتّي، كانت سيينّا ولانغدون قد ابتعدا؛ إذ عادا أدراجهما إلى داخل القصر فراراً من الشرطة. أسرعا عبر الباحة والمقهى الذي بدأت الجلبة تنتشر فيه، وراحت الأعناق تشرئبّ في محاولة لتحديد مصدر الضجّة.

دُهشت سيينّا لأنّ السلطات تمكّنت من إيجادهما بهذه السرعة. *لا شكّ أنّ الطائرة قد اختفت لأنّها حدّدت مكاننا.*

وجدت هي ولانغدون النفق الضيّق نفسه الذي استخدماه للخروج من الحدائق، فاندفعا إليه من دون تردّد وصعدا الأدراج. كان الدّرج يميل في آخره على طول جدار دعم عالٍ. هكذا، عندما أسرعا بصعود الدّرج، راح الجدار يقصر بجانبهما، إلى أن أصبحا قادرَين على أن يطلاّ من فوقه على حدائق بوبولي الشاسعة.

أمسك لانغدون بذراع سيينّا فوراً وأرجعها إلى الخلف؛ ليختبئا خلف جدار الدعم. كانت سيينّا قد رأت المشهد أيضاً.

على بعد ثلاثمائة ياردة، على المنحدر الذي يعلو المدرّج، نزلت كتيبة من الشرطة، وراحت تبحث في البساتين، وتستجوب السيّاح، وتنسّق بين أفرادها بواسطة أجهزة اللاسلكي.

نحن محاصران!

لم تتخيّل سيينّا قطّ، أنّ لقاءها روبرت لانغدون سيؤدّي بها إلى هذه الحال. *هذا يفوق ما توقّعته.* عندما غادرت سيينّا المستشفى مع لانغدون، اعتقدت أنّهما فرّا من امرأة ذات تسريحة سبايكي تحمل مسدّساً. أمّا الآن، فهما يهربان من فريق عسكري كامل، ومن السلطات الإيطالية. بدأت الآن تدرك أنّ فرص النجاة معدومة تقريباً.

سألت سيينّا وهي تلهث: "هل من مخرج آخر؟".

قال لانغدون: "لا أظنّ ذلك، فهذه الحديقة مدينة مسوّرة، تماماً مثل..." وصمت فجأة، ثم نظر نحو الشرق. "تماماً مثل... الفاتيكان". وشعّ وجهه بوميض أمل غريب.

لم تفهم سيينّا ما علاقة الفاتيكان بمأزقهما الحالي، غير أنّ لانغدون بدأ فجأة يهزّ رأسه، وهو ينظر شرقاً إلى الجهة الخلفية من القصر.

قال وهو يحثّها على الإسراع في الجري معه الآن: "الاحتمال ضئيل، لكن، قد تكون ثمّة طريقة للخروج من هنا".

فجأة، ظهر أمامهما شخصان بعدما انعطفا عند زاوية الجدار، وكادا أن يرتطما بهما. كانا يرتديان ملابس سوداء، فاعتقدت سيينّا للحظة مخيفة أنّهما الجنديان اللذان التقتهما في المبنى السكني. غير أنّهما تابعا طريقهما، فعرفت أنّهما مجرّد سائحَين إيطاليين كما يبدو من ملابسهما الجلدية الأنيقة.

خطرت فكرة لسيينّا، فأمسكت بذراع أحد السائحَين، ثمّ ابتسمت وسألته بلطف بالغ، وبإيطالية سريعة عن اتّجاه صالة الأزياء الشهيرة في القصر؟ وأضافت أنّها وشقيقها قد تأخّرا على جولة خاصّة.

ابتسم لهما الرجل، وبدا متلهّفاً للمساعدة. ثمّ أرشدهما إلى المكان مشيراً إلى الغرب، على طول الجدار؛ تماماً بعكس الاتّجاه الذي كان لانغدون ينظر إليه.

ابتسمت سيينّا شاكرة الرجلين اللذين تابعا طريقهما.

نظر لانغدون إلى سيينّا بإعجاب، وقد فهم دوافعها على ما يبدو. فإن استجوبت الشرطة السائحَين، فسيقولان إنهما ذهبا إلى صالة الأزياء التي تقع - استناداً إلى الخارطة الموضوعة على الجدار أمامهما - في أقصى الطرف الغربي للقصر... أي أبعد ما يكون عن الاتّجاه الذي يقصدانه.

قال لانغدون: "علينا الوصول إلى ذلك الطريق". مشيراً عبر ساحة مفتوحة إلى طريق يمتدّ على منحدر آخر، بعيداً عن القصر. كان طريق الحصى محمياً بأشجار ضخمة تحجبهما عن أعين السلطات التي راح عناصرها يهبطون التلّ، على بعد مائة ياردة فقط.

رأت سيينّا أنّ فرص عبورهما الساحة للوصول إلى الطريق ضئيلة جدًّا. كان السيّاح متجمّعين هناك، يشاهدون الشرطة بفضول. أمّا الطائرة، فعاد هديرها يُسمع مجدّداً ويقترب.

قال لانغدون: "هذه فرصتنا الوحيدة". ثمّ أمسك بيدها وشدّها نحو الساحة، وهناك بدآ يتسلّلان بين حشود السيّاح. قاومت سيينّا رغبتها في الركض، كما أمسك لانغدون يدها بحزم، وأخذ يمشي بسرعة ولكن بهدوء.

عندما وصلا إلى الطريق أخيراً، نظرت سيينّا إلى الخلف لترى ما إذا كان أمرهما قد كُشف. كان كلّ رجال الشرطة ملتفتين إلى الاتّجاه الآخر، وهم ينظرون إلى الأعلى وقد جذب انتباههم صوت الطائرة المقتربة.

استدارت إلى الأمام وأسرعت خلف لانغدون.

ظهرت أمامهما الآن من فوق الأشجار سماء فلورنسا القديمة، وبدت واضحة أمامهما مباشرة. رأت سيينّا قبّة دوومو الحمراء، وقمّة برج جرس جوتّو الخضراء والحمراء والبيضاء. كما لمحت للحظة قمّة بالاتزو فيكيو الذي يبدو وجهتهما المستحيلة. لكن، عندما هبطا الطريق المنحدِر، حجب السور العالي المشهد عن أعينهما مجدّداً.

عندما وصلا إلى أسفل التلّ، كانت سيينّا مقطوعة الأنفاس، وتتساءل عمّا إذا كان لانغدون يملك فكرة عن اتّجاههما. كان الطريق يؤدّي مباشرة إلى متاهة، لكنّ لانغدون انعطف بثقة إلى

اليسار، إلى باحة مكسوّة بالحصى البيضاء، ودار حولها مختبئاً خلف سياج ظليل من الأشجار العالية. كانت تلك الباحة خالية، وكأنّها موقف سيّارات للموظّفين، وليست لاستقبال السيّاح.

أخيراً، سألته سيينّا لاهثة: "إلى أين نحن ذاهبان؟".

"أوشكنا على الوصول".

الوصول إلى أين؟ كانت الباحة مسوّرة بجدران بارتفاع ثلاثة طوابق على الأقلّ. وكان المخرج الوحيد عبارة عن بوّابة للسيّارات تقع إلى اليسار، ومقفلة بعارضة حديدية بدت وكأنّها تعود إلى القصر الأصلي من أيّام الجيوش المغيرة. وخلف البوّابة، رأت رجال الشرطة مجتمعين في بياتزا دي بيتّي.

لازم لانغدون المحيط النباتي، وتقدّم إلى الأمام مباشرة نحو الجدار الممتدّ أمامهما. راحت سيينّا تبحث عن باب مفتوح، لكنّها لم ترَ سوى زاوية تحتضن أبشع تمثال رأته في حياتها.

ربّاه! حكّام أسرة ميديتشي الذين كان باستطاعتهم امتلاك أيّ تحفة فنّية على وجه الأرض، لم يختاروا سوى هذه؟!

كان التمثال يصوّر قزماً عارياً وبديناً يمتطي سلحفاة عملاقة. وكان الماء يقطر من فم السلحفاة كما لو أنها مريضة.

قال لانغدون من دون أن يتوقّف: "أعرف، هذا تمثال *براكيو دي بارتولو*، وهو قزم شهير في البلاط. برأيي، يجب وضعه في حوض الاستحمام العملاق".

انعطف لانغدون إلى اليمين، متّجهاً إلى درج لم تره سيينّا حتّى الآن.

أهو مخرج؟!

لم يدم وميض الأمل طويلاً.

فعندما انعطفت عند الزاوية ونزلت الدّرج خلف لانغدون، أدركت أنّهما يتوجّهان نحو طريق مسدود محاط بجدران يبلغ ارتفاعها ضعفي ارتفاع سور الباحة.

بالإضافة إلى ذلك، شعرت سيينّا أنّ رحلتهما الطويلة على وشك الانتهاء عند باب كهف... مغارة عميقة في الجدار الخلفي. *مستحيل! إلى أين يأخذنا؟!*

لاحت من مدخل الكهف هوابط شبيهة بالخناجر. في الداخل، كانت الأشكال الجيولوجية الملتوية تقطر ماءً وكأنّ الحجر يذوب ويتحوّل إلى أشكال تتضمّن أعضاء بشرية ناتئة من الجدران؛ وكأنّ الصخور قد التهمتها. المشهد بأكمله ذكّر سيينّا بخارطة الجحيم لبوتيتشيلّي.

لسبب ما، بدا لانغدون متماسكاً، واستمرّ بالركض مباشرة نحو مدخل الكهف. كان قد ذكر منذ قليل شيئاً عن مدينة الفاتيكان، لكنّ سيينّا واثقة أنّه ما من كهوف مخيفة داخل جدران الكرسيّ الرسولي.

مع اقترابهما، رأت سيينّا السطح المعمّد الممتدّ فوق المدخل؛ مجموعة غريبة من الهوابط والحجارة الغامضة التي بدت كما لو أنّها تحيط بامرأتين مستلقيتين ومطوّقتين بدرع مزيّن بستّ كرات، أو *بالّه*، وهو شعار أسرة ميديتشي الشهيرة.

فجأة، انعطف لانغدون إلى اليسار، بعيداً عن المدخل، باتّجاه شيء لم تره سييَنّا في البداية، كان عبارة عن باب صغير رمادي اللون يقع إلى يسار الكهف. كان باباً خشبياً متداعياً، بدا قليل الأهمّية، وكأنّه باب مخزن أو غرفة للمعدّات.

اندفع لانغدون نحو الباب، آملاً أن يتمكن من فتحه، لكنّه لم يكن مزوّداً بمقبض، بل بمجرّد قفل نحاسي يُفتح كما يبدو من الداخل فقط.

"تبّاً!". بدا القلق الآن في عيني لانغدون، واختفى الأمل الذي راوده في البداية. "كنت آمل –".

ومن دون سابق إنذار، تردّد هدير الطائرة بصوت عالٍ خلف الجدران العالية. التفتت سييَنّا فرأت الطائرة تحلّق فوق القصر وتشقّ طريقها في السماء نحوهما.

لا بدّ أنّ لانغدون رآها هو أيضاً، لأنّه أمسك بيد سييَنّا واندفع باتّجاه الكهف. اختفيا عن الأنظار في الوقت المناسب تحت الهوابط المتدلّية من المغارة.

فكّرت سييَنّا: *يا لها من نهاية مناسبة! ها نحن نقتحم أبواب الجحيم.*

الفصل 28

على بعد ربع ميل شرقاً، ركنت فايينثا درّاجتها النارية. كانت قد دخلت المدينة القديمة عبر جسر بونتي ألّي غراتسيي، ثمّ مرّت على بونتي فيكيو، وهو جسر المشاة الشهير الذي يربط قصر بيتّي بالمدينة القديمة. وبعد أن قيّدت خوذتها بالدرّاجة، اجتازت الجسر سيراً على الأقدام، واختلطت بالسيّاح الذين أتوا للتنزّه في الصباح الباكر.

هبّ نسيم آذار المنعش على النهر، وداعب شعر فايينثا القصير؛ الأمر الذي ذكّرها أنّ لانغدون يعرف مظهرها. فتوقّفت عند أحد الباعة على الجسر واشترت قبّعة بايسبول من ماركة *آمو فيرينزي*، ثمّ أخفضتها فوق وجهها.

سوّت سترتها الجلدية التي بدا المسدّس من تحتها، واتّخذت مقعداً قريباً من وسط الجسر، ثمّ اتّكأت بطريقة طبيعية على عمود مواجه لقصر بيتّي. من مكانها، كان باستطاعتها مراقبة كلّ المشاة الذين يعبرون نهر آرنو باتّجاه قلب فلورنسا.

قالت لنفسها: *لانغدون يتجوّل سيراً على الأقدام. إن وجد طريقة للالتفاف حول بورتا رومانا، فهذا الجسر هو طريقه الأكثر منطقية لدخول المدينة القديمة.*

إلى الغرب، باتّجاه قصر بيتّي، سمعت صفّارات سيّارات الشرطة، وتساءلت عمّا إذا كان ذلك نذير خير أم سوء. *أما زالوا يبحثون عنه؟ أم قبضوا عليه؟* وبينما أرهفت فايينثا السمع بحثاً عن أيّ مؤشر لما يجري، سُمع فجأة صوت جديد؛ هدير عالٍ صادر من مكان ما في الأعلى. نظرت تلقائياً نحو السماء، ورأت على الفور الطائرة الصغيرة التي يتمّ التحكّم بها عن بعد وهي ترتفع فوق القصر ثمّ تنحدر لتلامس رؤوس الأشجار متّجهة نحو الزاوية الشمالية الشرقية لحدائق بوبولي.

طائرة مراقبة من دون طيّار. هذا الأمر أعطى فايينثا شيئاً من الأمل. *ما دامت هذه الطائرة في الجوّ، فهذا يعني أنّ برودر لم يجد لانغدون بعد.*

كانت الطائرة تقترب بسرعة. من الواضح أنّها تراقب الزاوية الشمالية الشرقية للحدائق، وهي المنطقة الأقرب إلى جسر فيكيو وموقع فايينثا، ممّا أعطاها مزيداً من التشجيع.

إن كان لانغدون قد هرب من برودر، فإنّه يتحرّك بهذا الاتّجاه حتماً.

لكن، بينما كانت فايينثا تراقب المشهد، غابت الطائرة فجأة عن الأنظار، وانخفضت خلف الجدار الحجري العالي. سمعتها وهي تحوم في مكان ما تحت خطّ الأشجار... ممّا يشير إلى أنّها وجدت شيئاً ذا أهمّية.

الفصل 29

فكّر لانغدون وهو مختبئ في المغارة المعتمة مع سيينّا، من يبحث يجد. *بحثنا عن مخرج... ووجدنا طريقاً مسدوداً.*

شكّلت النافورة في وسط الكهف غطاء جيّداً. لكن، بينما كان لانغدون يسترق النظر من خلفها، شعر أنّ الأوان قد فات.

كانت الطائرة قد انخفضت للتوّ فوق موقعهما، وتوقّفت خارج الكهف، ثمّ راحت تحوم هناك على ارتفاع عشر أقدام فقط فوق الأرض، بمواجهة المغارة، وهي تهدر بحدّة كما لو أنها حشرة غاضبة... تنتظر الانقضاض على فريستها.

تراجع لانغدون وزفّ الأنباء السيّئة لسيينّا: "أظنّها عرفت مكاننا".

كان هدير الطائرة يصمّ الآذان داخل الكهف، ويرتدّ بقوّة على الجدران الصخرية. لم يصدّق لانغدون أنّهما محتجزان من قبل طائرة آلية صغيرة، إلاّ أنّه أدرك أنّ الهرب منها غير مجدٍ. *ماذا يفعلان الآن؟ هل ينتظران؟* كانت خطّته الأصلية المتمثّلة بعبور الباب الرمادي الصغير معقولة إلى حدّ ما، غير أنّه لم يدرك أنّ الباب لا يُفتح سوى من الداخل.

اعتادت عينا لانغدون على ظلام المغارة، فأخذ يراقب محيطه الغريب، ويتساءل عمّا إذا كان ثمّة مخرج آخر. لم يرَ شيئاً يبشّر بالخير. فداخل المغارة كان مزيّناً بالمنحوتات الحيوانية والبشرية التي تتآكلها الجدران الغريبة على مراحل متفاوتة. نظر لانغدون يائساً إلى السقف الذي تتدلّى منه الهوابط على نحو مخيف.

مكان ملائم للموت.

كانت مغارة بونتالينتي – التي تحمل اسم مهندسها بيرناردو بونتالينتي – أغرب مكان في فلورنسا. بنيت كمكان لتسلية الزوّار الشباب في قصر بيتّي، وهي تتألّف من ثلاث غرف مزيّنة بالفانتازيا الواقعية وبهندسة قوطية مفرطة؛ مؤلّفة ممّا بدا أنّها تحجّرات وخفّاف[1] تقطر منها المياه، وتبدو كما لو أنّها تتآكل الأشكال العديدة المنحوتة أو تتضح بها. في أيّام حكم أسرة ميديتشي، أضيف إلى المغارة الماء الجاري على الجدران، والذي ساهم في تبريد المكان خلال فصول الصيف التوسكانية الحارّة، وإضفاء شكل مغارة حقيقية عليها.

اختبأ لانغدون وسيينّا في أوّل وأكبر غرفة خلف نافورة مركزية غريبة. كانا محاطَين بأشكال ملوّنة لرعاة غنم، وقرويين، وموسيقيين، وحيوانات، وحتّى نسخ عن سجناء مايكل أنجلو

1 زجاج بركاني مساميّ خفيف جدًّا يُستعمَل في الصقل.

الأربعة؛ جميعها تبدو وكأنّها تكافح للتحرّر من الصخور الرطبة التي تلتهمها. من الأعلى، تسلّل ضوء النهار من خلال فتحة في السقف كانت مزوّدة في الماضي بكرة زجاجية ضخمة مليئة بالمياه كانت تسبح فيها سمكة شبّوط حمراء تحت أشعّة الشمس.

تساءل لانغدون عمّا سيفكّر فيه زوّار هذه المغارة في عصر النهضة حين يرون مروحية حقيقية تحلّق في الأعلى؛ هي التي كانت حلم ليوناردو دافينشي.

في تلك اللحظة بالضبط، توقّف هدير الطائرة. لم ينخفض صوته تدريجيًّا، بل... توقّف فجأة.

استغرب لانغدون، فاسترق النظر من خلف النافورة، ورأى أنّ الطائرة قد هبطت على الأرض. كانت الآن متوقّفة في الساحة المرصوفة بالحصى، وتبدو أقلّ خطراً بكثير، لا سيّما وأنّ عدسات الفيديو الشبيهة بالدبابيس كانت موجّهة بعيداً عنهما، نحو الباب الرمادي الصغير.

سرعان ما زال إحساس لانغدون بالاطمئنان. فعلى بعد مائة ياردة خلف الطائرة، وعلى مقربة من تمثال القزم والسلحفاة، رأى ثلاثة جنود مسلّحين يهبطون الدّرج، متوجّهين مباشرة نحو المغارة.

كان الجنود يرتدون بزّة سوداء مألوفة، ويضعون شارات خضراء على أكتافهم. أمّا قائدهم، بعضلاته المفتولة وعينيه الباردتين، فذكّر لانغدون بقناع الطاعون الذي كان يراه وهو يهذي.

أنا الموت.

لم يلمح لانغدون الفان أو المرأة الغامضة ذات الشعر الفضّي في أيّ مكان.

أنا الحياة.

مع اقتراب الجنود، توقّف أحدهم عند أسفل الدّرج، واستدار إلى الخلف، وذلك ليمنع نزول أيّ كان إلى المكان. أمّا الجنديان الآخران، فواصلا التقدّم نحو المغارة.

بدأ لانغدون وسيينّا بالتحرّك مجدّداً؛ على الرغم من أنّهما يؤخّران المحتوم وحسب. فتراجعا زاحفَين إلى المغارة الثانية التي كانت أصغر، وأعمق، وأكثر ظلمة. هي أيضاً كانت تهيمن عليها تحفة فنّية مركزية تمثّل عاشقَين متشابكَين، اختبأ خلفها الآن لانغدون وسيينّا.

في الظلّ، تأمّل لانغدون قاعدة التمثال، ثم راقب اقتراب الجنود. عندما وصل الجنديان إلى الطائرة، توقّف أحدهما وانحنى لحملها وتفحّص الكاميرا.

تساءل لانغدون، *هل حدّد الجهاز موقعنا؟* وشعر أنّه يعرف الإجابة.

أمّا الجندي الثالث، ذو العضلات المفتولة والعينين الباردتين، فظلّ يسير بإصرار باتّجاه لانغدون. اقترب الرجل إلى أن أصبح تقريباً عند مدخل الكهف. *سيدخل.* استعدّ لانغدون للابتعاد خلف التمثال وإخبار سيينّا أنّ الأمر قد انتهى. لكن، في تلك اللحظة، حدث أمر لم يتوقّعه.

فجأة، وعوضاً عن دخول المغارة، انعطف الجندي يساراً واختفى.

إلى أين يذهب؟! ألا يعرف أنّنا هنا؟

بعد بضع دقائق، سمع لانغدون طرقة على الخشب.

فكّر، *إنّه الباب الرمادي الصغير. لا بدّ أنّه يعرف إلى أين يؤدّي.*

لطالما رغب حارس قصر بيتّي، إرنيستو روسّو، أن يلعب كرة القدم الأوروبية. لكن في سنه البالغة تسعة وعشرين عاماً، وبوزنه الزائد، بدأ يقتنع أخيراً أنّ حلم الطفولة لن يتحقّق أبداً. خلال السنوات الثلاث الماضية، عمل إرنيستو هنا حارساً في قصر بيتّي، ولازم دائماً المكتب الصغير نفسه، ومارس العمل المملّ نفسه.

اعتاد إرنيستو على السيّاح الفضوليين الذين يطرقون على الباب الرمادي الصغير خارج المكتب الذي يعمل فيه، وكان يتجاهلهم عادة إلى أن يتوقّفوا. غير أنّ الطرقات كانت اليوم حادّة ومتواصلة.

انزعج وحاول أن يركّز مجدّداً على تلفازه الذي كان يشاهد عليه إعادة عرض لمباراة كرة قدم صاخبة؛ فيورنتينا ضدّ جوفينتوس. غير أنّ الطرقات أخذت تعلو. أخيراً، شتم السيّاح ونهض من أمام مكتبه، وسلك الممرّ الضيّق باتّجاه الصوت. في منتصف الطريق، توقّف عند الحاجز الفولاذي الضخم الذي يبقى مغلقاً في هذا الممرّ، باستثناء ساعات محدّدة.

أدخل الرقم السرّي وفتح الحاجز الذي تحرّك جانباً. بعد عبوره، اتّبع البروتوكول، وأعاد إغلاق الحاجز خلفه، ثم توجّه بعد ذلك نحو الباب الرمادي.

صاح بالإيطالية من خلف الباب، على أمل إسماع الطارق: "الباب مغلق! لا يمكنكم الدخول!".

بيد أنّ الطرق استمرّ.

صرّ إرنيستو على أسنانه. *يا لإصرار أهالي نيويورك*. فالسبب الوحيد وراء نجاح فريق ريد بولز لكرة القدم على المسرح العالمي هو أنّه سرق أفضل مدرّبي أوروبا.

تواصلت الطرقات، ففتح إرنيستو الباب على مضض، ودفعه بضعة إنشات. "الباب مغلق!".

توقّفت الطرقات أخيراً، ووجد إرنيستو نفسه وجهاً لوجه أمام جندي بارد العينين إلى حدّ جعل إرنيستو يتراجع خطوة إلى الخلف. رفع الرجل بطاقة رسمية تحمل اختصاراً لم يتعرّف عليه إرنيستو.

سأل إرنيستو بالإيطالية مذعوراً: "ماذا يجري؟!".

خلف الجندي، رأى جندياً آخر منحنياً يعالج ما بدا أنّه طائرة هيليكوبتر صغيرة كلعب الأطفال. وعلى مسافة منهما، رأى جندياً ثالثاً يحرس الدّرج. كما سمع صفّارات الإنذار لسيّارات الشرطة في الجوار.

سأل الجندي بلكنة غير نيويوركية حتماً: "هل تتكلّم الإنكليزية؟". *أهو أوروبي؟*

هزّ إرنيستو رأسه قائلاً: "أجل، قليلاً".

"هل دخل أحد من هنا هذا الصباح؟".

"كلاّ سينيوري، لا أحد".

"ممتاز. أبقه مقفلاً، ولا تدع أحداً يدخل أو يخرج منه. هل هذا واضح؟".

هزّ إرنيستو كتفيه مستغرباً. فهذه وظيفته على أيّ حال. "مفهوم. لن أسمح لأحد بالدخول أو الخروج".

"أخبرني رجاء، أهذا الباب هو المدخل الوحيد؟".

فكّر إرنيستو، *تقنياً، يُعتبر هذا الباب في هذه الأيّام مخرجاً*، ولهذا السبب ليس له مقبض من الخارج. لكنّه فهم قصد الرجل. "أجل، هذا الباب هو المدخل الوحيد. ما من طريق آخر". فالمدخل الأصلي في القصر قد أُغلق منذ سنوات عديدة.

"وهل ثمّة مخارج خفية أخرى لحدائق بوبولي غير البوّابات التقليدية؟".

"كلاّ سينيوري. الأسوار تحيط بالمكان كلّه. هذا هو المخرج السرّي الوحيد".

هزّ الجندي رأسه قائلاً: "شكراً لمساعدتك". وأشار لإرنيستو لكي يقفل الباب.

أطاع إرنيستو مستغرباً، ثمّ عاد عبر الممرّ، وفتح الحاجز الفولاذي وعبره، ثمّ أقفله خلفه، وعاد لمتابعة مباراة كرة القدم.

الفصل 30

استغلّ لانغدون وسيينّا الفرصة؛ إذ بينما كان الجندي مفتول العضلات يطرق على الباب، زحفا إلى منطقة أعمق في المغارة، واختبآ في الغرفة الأخيرة. كانت هذه الغرفة الصغيرة مزيّنة بالفسيفساء، وتضمّ في وسطها منحوتة بالحجم الطبيعي *لفينوس* وهو يستحمّ، ويبدو وكأنّه ينظر بتوتّر من فوق كتفه.

كان لانغدون وسيينّا مختبئين الآن عند أقصى قاعدة التمثال الضيّقة، ينتظران وهما يحدّقان إلى الرواسب الكلسية الوحيدة الصاعدة إلى الأعلى على أعمق جدار في المغارة.

صاح جندي من مكان ما في الخارج: "كلّ المخارج مغلقة!". كان يتحدّث بلغة إنكليزية لم يستطع لانغدون تحديد لكنتها. "شغّل الطائرة مجدّداً. سأتفقّد هذا الكهف".

شعر لانغدون أنّ سيينّا تقترب منه.

بعد ثوانٍ، تردّدت خطوات ثقيلة في المغارة. اقتربت بسرعة عبر الغرفة الأولى، وارتفع صداها وهي تتقدّم إلى الغرفة الثانية متوجّهة نحوهما مباشرة.

التصق لانغدون وسيينّا ببعضهما.

صاح صوت آخر من بعيد: "لقد وجدناهما!".

توقّفت الخطوات فجأة.

سمع لانغدون شخصاً يركض على الممرّ الحصوي باتّجاه المغارة. قال الرجل وهو يلهث: "حدّدنا هويتهما! تحدّثنا للتوّ مع سائحَين. منذ دقيقتين، سألهما الرجل والمرأة عن اتّجاه صالة الأزياء في القصر... التي تقع في الطرف الغربي من القصر".

نظر لانغدون إلى سيينّا التي لاحت على وجهها ابتسامة باهتة.

التقط الجندي أنفاسه، وتابع قائلاً: "المخارج الغربية هي المخارج الأولى التي أغلقت... وأنا واثق أنّنا حاصرناهما داخل الحدائق".

قال الجندي الأقرب: "نفّذ المهمّة، واتّصل بي عند نجاحها".

ارتفعت أصوات الخطوات المبتعدة على الحصى، وسُمع صوت الطائرة وهي ترتفع مجدّداً، ثمّ عمّ الصمت التامّ.

كان لانغدون على وشك أن ينهض لاستراق النظر من فوق قاعدة التمثال، لكنّ سيينّا أمسكت بذراعه وأوقفته. رفعت إصبعها إلى شفتيها وأومأت نحو ظلّ بشري بدا على الجدار الخلفي. كان قائد الجنود ما زال يقف بصمت عند مدخل الغارة.

ماذا ينتظر؟!

قال الجندي فجأة: "أنا برودر، لقد حاصرناهما. سأعطيكم التأكيد قريباً".

كان الرجل يجري اتصالاً هاتفياً، وبدا صوته قريباً على نحو مثير للأعصاب، كما لو أنه يقف بجانبهما تماماً. كانت المغارة تؤدّي دور مكبّر للصوت يجمع كلّ الأصوات ويركّزها في آخر المغارة.

تابع برودر يقول: "لديّ المزيد. وصلتني للتوّ أخبار من فريق الطبّ الشرعي. يبدو أنّ شقّة المرأة مستأجرة بعقد فرعي. وهي غير مؤثّثة بالكامل، ومن الواضح أنّها تعيش فيها لمدّة قصيرة. وجدنا الأنبوب، لكنّنا *لم* نعثر على المسلاط. أكرّر *لم* نعثر على المسلاط. نظنّ أنّه ما زال بحوزة لانغدون".

شعر لانغدون برعشة عندما سمع الجندي يذكر اسمه.

علا صوت الخطوات، وأدرك أنّ الرجل يتقدّم داخل المغارة. كانت خطواته تفتقد إلى الحدّة التي رافقتها قبل دقائق، ويبدو الآن وكأنّ الرجل يتجوّل وحسب، ويستكشف المغارة وهو يتحدّث على الهاتف.

قال: "صحيح. أكّد المحقّقون أيضاً أنّ اتصالاً واحداً أجري قبل وقت قصير من اقتحامنا للشقّة".

فكّر لانغدون باتصاله بالقنصلية الأميركية، وتذكّر حديثه الهاتفي، ووصول المرأة التي حاولت قتله. يبدو أنّ تلك المرأة قد اختفت واستُبدلت بفريق كامل من الجنود المدرّبين.

لا يمكننا الإفلات منهم إلى الأبد.

كان صوت خطوات الجندي على الأرض الصخرية على بعد عشرين خطوة فقط، ويزداد اقتراباً. كان الرجل قد دخل الغرفة الثانية، وإن واصل التقدّم حتّى النهاية، فسيعثر عليهما بالتأكيد خلف قاعدة التمثال.

أعلن الرجل فجأة: "سيينّا بروكس". ورنّت كلماته بوضوح.

أجفلت سيينّا قرب لانغدون، ونظرت إلى الأعلى؛ متوقّعة أن ترى الجندي يحدّق إليها. لكنّها لم ترَ أحداً.

تابع الصوت الذي بدا على بعد عشر أقدام تقريباً: "إنّهم يفحصون حاسبها المحمول الآن. ليس لديّ تقرير بعد، لكنّه بالتأكيد الآلة نفسها التي دخل لانغدون من خلالها حسابه البريدي التابع لجامعة هارفرد".

عند سماع ذلك، التفتت سيينّا إلى لانغدون غير مصدّقة، ونظرت إليه مصدومة... ثمّ ظهرت على وجهها تعابير من تعرّض للخيانة.

صُعق لانغدون أيضاً. *أهكذا تعقّبونا؟!* لم يخطر له ذلك في ذلك الوقت. *كنت أحتاج إلى المعلومات وحسب!* قبل أن يتمكّن لانغدون من التعبير عن أسفه، أشاحت سيينّا بوجهها الذي أصبح جامداً عنه.

قال الجندي الذي وصل إلى مدخل الغرفة الثالثة، وأصبح على بعد ستّ أقدام فقط من لانغدون وسيينّا: "هذا صحيح". خطوتان بعد وسيراهما بالتأكيد.

أعلن قائلاً وهو يقترب خطوة أخرى: "بالضبط". فجأة، توقّف قائلاً: "انتظر لحظة".

جمد لانغدون، وشعر أنّ أمرهما قد افتضح.

"انتظر، لم أعد أسمع صوتك". ثمّ تراجع بضع خطوات إلى الغرفة الثانية. "الاتصال ضعيف..." أصغى للحظة ثمّ أجاب: "أجل، أوافقك. لكنّنا على الأقلّ أصبحنا نعرف مع من نتعامل".

عند ذلك، اختفت خطواته خارج المغارة، ثمّ ابتعدت على الأرض المكسوّة بالحصى، واختفى وقعُها تماماً.

استرخى لانغدون، ثمّ التفت إلى سيينّا التي لمعت عيناها بمزيج من الخوف والغضب.

سألته قائلة: "هل استخدمت حاسوبي لتفقّد بريدك؟".

"أنا آسف... اعتقدت أنّك ستتفهّمين. أردت أن أعرف -".

"لقد وجدونا بسبب ذلك، والآن أصبحوا يعرفون اسمي".

"أنا أعتذر سيينّا. لم أعرف...".

شعر لانغدون بالذنب.

أشاحت سيينّا بنظرها بعيداً، وحدّقت إلى الرواسب الصاعدة كروية الشكل على الجدار الخلفي. لم يقل أحد منهما شيئاً لدقيقة تقريباً. تساءل لانغدون عمّا إذا كانت سيينّا تذكر الأغراض الموضوعة على مكتبها؛ بما فيها الإعلان لمسرحية *حلم ليلة صيف*، وقصاصات الصحف عن حياتها كعبقرية صغيرة. *هل تشكّ أنّه رآها؟* لم تسأله شيئاً، وعلاقة لانغدون بها مضطربة بما فيه الكفاية أساساً، لذا امتنع عن ذكر الأمر.

كرّرت سيينّا بصوت ضعيف بالكاد سمعه لانغدون: "أصبحوا يعرفون من أنا". خلال الدقائق العشر التالية، أخذت سيينّا عدّة أنفاس بطيئة كما لو أنها تحاول استيعاب هذا الواقع الجديد. في أثناء ذلك، شعر لانغدون أنّ تصميمها يزداد صلابة.

ومن دون سابق إنذار، نهضت واقفة وقالت: "علينا الذهاب. لن يمضي وقت طويل قبل أن يكتشفوا أنّنا لسنا في صالة الأزياء".

نهض لانغدون أيضاً. "صحيح، لكن إلى أين... سنذهب؟".

"مدينة الفاتيكان".

"عذراً؟".

"فهمت أخيراً ما كنت تعنيه، وما القاسم المشترك بين مدينة الفاتيكان وحدائق بوبولي". وأشارت باتّجاه الباب الرمادي الصغير. "هذا هو المدخل، أليس كذلك؟".

هزّ لانغدون رأسه مجيباً: "في الواقع، هذا هو المخرج. لكنّني تخيّلت أنّنا نستطيع المحاولة. لسوء الحظّ، لن نتمكّن من المرور". كان لانغدون قد سمع ما فيه الكفاية من حديث الحارس مع الجندي ليدرك أنّ هذا الباب ليس خياراً مطروحاً للمحاولة.

قالت سيينّا وقد عادت النبرة الماكرة إلى صوتها: "لكن، إن استطعنا المرور، فهل تعرف ما يعنيه ذلك؟". وظهرت ابتسامة على شفتيها. "يعني ذلك أنّك حصلت اليوم على المساعدة مرّتين من فنّان عصر النهضة نفسه".

ضحك لانغدون لأنّ الفكرة نفسها خطرت له منذ دقائق. *فاساري. فاساري*".

اتّسعت ابتسامة سيينّا، وشعر لانغدون أنّها سامحته؛ حاليًا على الأقلّ. أعلنت قائلة بنبرة جادّة بعض الشيء: "أظنّها إشارة من السماء. علينا عبور ذلك الباب".

"حسناً... هل سنمرّ ببساطة من أمام الحارس؟".

طقطقت سيينّا أصابعها، وتوجّهت إلى خارج المغارة. "كلاّ، بل سأتحدّث معه". التفتت إلى لانغدون، وقد عاد البريق إلى عينيها. "ثق بي بروفيسور، يمكنني أن أكون مقنعة جدًّا عندما أريد".

عادت الطرقات على الباب الرمادي الصغير.

كانت حازمة ومتواصلة.

تمتم الحارس إرنيستو روسّو غاضباً. من الواضح أنّ الجندي الغريب وبارد العينين قد عاد، وفي أسوأ توقيت ممكن. كانت مباراة كرة القدم المتلفزة تجري في الوقت الإضافي، وكانت الدقائق حاسمة جدًّا.

استمرّت الطرقات.

لم يكن إرنيستو غبياً. كان يعرف أن ثمّة مشاكل هذا الصباح؛ بوجود سيّارات الشرطة والجنود، لكنّه ليس من الأشخاص الذين يتورّطون في مسائل لا تهمّهم مباشرة.

مجنون من يحشر أنفه في شؤون الآخرين.

لكن، من الواضح أنّ الجندي شخص ذو أهمّية، وليس من الحكمة تجاهله على الأرجح. فمن الصعب في هذه الأيّام إيجاد وظائف في إيطاليا؛ حتّى لو كانت وظائف مملّة. هكذا، استرق نظرة أخيرة إلى المباراة، ثمّ توجّه إلى الباب.

ما زال لا يصدّق أنّه يتقاضى راتباً مقابل الجلوس في هذا المكتب الصغير طوال اليوم ومشاهدة التلفاز. وقد يصدف مرّتين في اليوم أن تصل مجموعة من الأشخاص المهمّين بعد زيارة صالة أوفيتزي، فيلقي عليهم إرنيستو التحية، ثمّ يفتح الحاجز الفولاذي، ويسمح لهم بالمرور عبر الباب الرمادي الصغير لتنتهي جولتهم في حدائق بوبولي.

الآن، مع تواصل الطرقات وازديادها حدّة، فتح إرنيستو الحاجز، وعبره، ثمّ أغلقه وأقفله خلفه.

صاح وهو يسرع نحو الباب: "نعم؟".

إلاّ أنّ أحداً لم يجب، بل تواصلت الطرقات.

أخيراً، فتح الباب متوقّعاً أن يرى النظرة نفسها الخالية من الحياة التي واجهته قبل لحظات.

لكنّ الوجه الذي رآه عند الباب كان أكثر جاذبية بكثير.

حيّته امرأة شابّة جميلة بابتسامة لطيفة وقالت: "*تشاو*". ثمّ أعطته ورقة مطوية، فمدّ يده تلقائياً لأخذها. وفي اللحظة التي أمسك فيها الورقة وأدرك أنّها مجرّد قطعة من النفايات، أمسكت المرأة رسغه بيديها الرشيقتين وضغطت إبهامها على العظم تحت كفّ يده تماماً.

شعر إرنيستو وكأنّ سكّيناً قطع رسغه. وتبع ذلك الإحساس خدر كهربائي. اقتربت المرأة منه، وازداد الضغط، فعادت دورة الألم مجدّداً. ترنّح إلى الخلف محاولاً تحرير رسغه، لكنّ ساقيه تخدّرتا وانهارتا تحته، فركع على ركبتيه.

حدث الباقي في لحظة واحدة.

ظهر رجل يرتدي ملابس داكنة عند الباب، ثمّ انسلّ إلى الداخل، وأغلق الباب الرمادي خلفه بسرعة. مدّ إرنيستو يده إلى جهاز اللاسلكي الذي يحمله، لكنّ يداً ناعمة ضغطت على عنقه، فتقلّصت عضلاته، ولم يعد قادراً على التنفّس. أخذت المرأة جهاز اللاسلكي، واقترب الرجل الطويل الذي بدا أنّه لا يقلّ عن إرنيستو خوفاً.

قالت الشقراء بنبرة عمليّة للرجل الطويل: "*ديم ماك*. إنّها نقاط ضغط صينية. ثمّة سبب وجيه لبقائها منذ ثلاث ألفيات".

راقبها الرجل مدهوشاً.

همست المرأة لإرنيستو بالإيطالية وهي تخفّف الضغط عن عنقه: "نحن لا نريد إيذاءك".

في اللحظة التي خفّ فيها الضغط، حاول إرنيستو التحرّر، لكنّ الضغط عاد فجأة، وتقلّصت عضلاته، فشهق من شدّة الألم، وعجز تقريباً عن التنفّس.

قالت: "نريد المرور". وأشارت إلى الحاجز الفولاذي الذي أغلقه إرنيستو خلفه لحسن الحظّ. "أين المفتاح؟".

أجاب بصعوبة: "ليس معي".

مرّ الرجل الطويل من أمامهما نحو الحاجز وتفحّص آلية عمله، ثم قال للمرأة بلكنة أميركية: "إنّه قفل مركّب".

انحنت المرأة وسألت إرنيستو بنظرة باردة كالجليد: "ما هو الرقم؟".

أجاب: "لست مخوّلاً –".

حدث شيء ما عند أعلى عموده الفقري، وشعر بخدر في جسده بأكمله.

بعد قليل، غاب عن الوعي.

عندما استعاد إرنيستو وعيه، شعر أنّه كان يستيقظ ويغيب عن الوعي تكراراً لعدّة دقائق. تذكّر حديثاً... شكّات من الألم... وربّما تمّ جرّه؟ كلّ شيء ضبابي.

عندما استعاد وعيه تماماً، رأى مشهداً غريباً. كان حذاؤه مرمياً قربه على الأرض، ورباطه منزوع. عندئذ أدرك أنّه بالكاد يستطيع الحراك. كان ممدّداً على جانبه، ويداه مقيّدتان خلفه وكذلك قدماه؛ برباط حذائه كما يبدو. حاول الصراخ، لكنّه لم يستطع. فقد كان فمه محشواً بجاربه. غير أنّ لحظة الخوف الفعلية أتت بعد لحظة عندما نظر إلى الأعلى، ورأى عرضاً لمباراة كرة القدم على تلفازه. *أنا في مكتبي... عبرت الحاجز؟!*

سمع إرنيستو خطوات بعيدة تركض في الممرّ... ليختفي صوتها تماماً بعد قليل. مستحيل! بطريقة ما، قامت المرأة بإقناع إرنيستو بفعل الشيء الوحيد الذي وُظّف لعدم فعله: كشف الرقم السرّي لفتح قفل الحاجز المؤدّي إلى رواق فاساري الشهير.

الفصل 31

شعرت د. إليزابيث سينسكي بنوبات متسارعة من الغثيان والدوار. كانت غارقة في المقعد الخلفي للفان المركون أمام قصر بيتّي. وكان الجندي الجالس قربها يراقبها بقلق متزايد.

قبل لحظات، تصاعد صوت من لاسلكي الجندي يذكر شيئاً عن صالة أزياء، فأيقظ إليزابيث من سباتها الذهني الذي سيطرت عليه صورة الوحش ذي العينين الخضراوين.

كانت ذكرياتها قد عادت إلى الغرفة المعتمة في مجلس العلاقات الخارجية في نيويورك، حين راحت تصغي هناك إلى هذيان الغريب الغامض الذي قام باستدعائها. راح الرجل يتنقّل في مقدّمة الغرفة، وانعكس ظلّه الطويل على الصورة المروّعة للأجساد العارية المحتضرة المستلهمة من *إنفيرنو* دانتي.

استنتج قائلاً: "على أحدنا أن يخوض هذه الحرب، وإلاّ فسيكون هذا مستقبلنا. فعلم الرياضيات يضمن ذلك. يحوم الجنس البشري الآن في مطهر تسوده المماطلة والتردّد، والطمع الشخصي... لكنّ حلقات الجحيم تنتظر تحت أقدامنا لالتهامنا جميعاً".

كانت إليزابيث ما زالت مصعوقة من الأفكار الوحشية التي طرحها الرجل. ولم تعد قادرة على الاحتمال، فقفزت واقفة. "ما تقترحه هو –".

قاطعها قائلاً: "الخيار الوحيد المتبقّي لدينا".

أجابت: "في الواقع، كنت أقصد القول إنّه إجراميّ!".

رفع الرجل كتفيه. "الطريق إلى الجنّة يمرّ مباشرة عبر الجحيم. هذا ما علّمنا إيّاه دانتي".

"أنت مجنون!".

كرّر الرجل: "مجنون؟!". وبدا عليه الشعور بالإهانة. "أنا؟! لا أظنّ ذلك. الجنون هو منظّمة الصحّة العالمية التي تحدّق إلى الهاوية وتُنكر وجودها. الجنون هو النعامة التي تغرز رأسها في الرمل بينما تطوّقها مجموعة من الضباع".

قبل أن تتمكّن إليزابيث من الدفاع عن منظّمتها، غيّر الرجل الصورة الظاهرة على الشاشة.

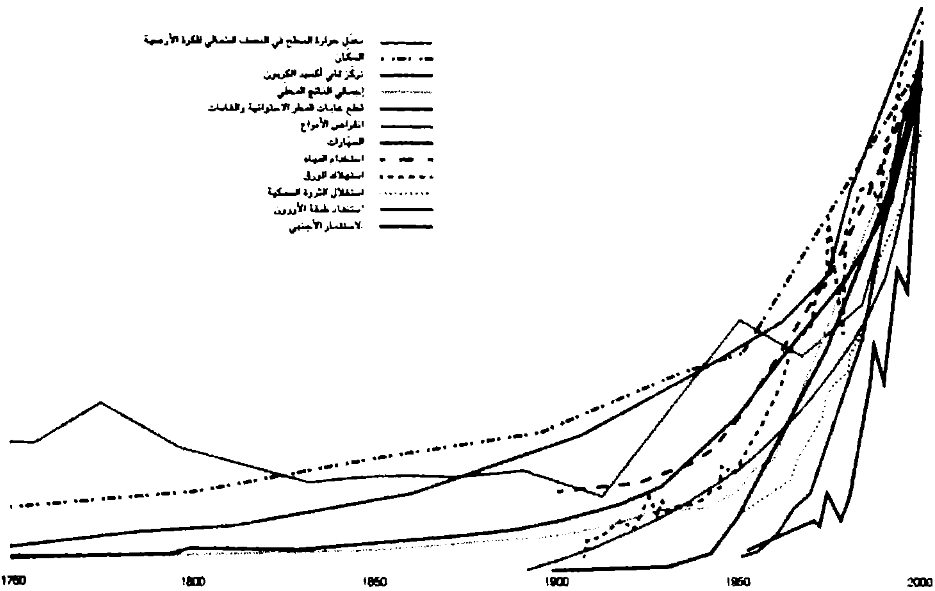
قال مشيراً إلى الصورة الجديدة: "وبالحديث عن الضباع، هذه مجموعة من الضباع التي تطوّق حاليًّا الجنس البشري... وهي تقترب بسرعة".

فوجئت إليزابيث برؤية تلك الصورة المألوفة. كانت عبارة عن مخطط نشرته المنظّمة في العام الماضي، يحدّد المشاكل البيئية الأساسيّة التي ترى المنظّمة أنّ لها التأثير الأعظم على الصحّة العالمية.

تضمّنت اللائحة:

الطلب على الماء العذب، حرارة السطح عالمياً، نفاد طبقة الأوزون، استهلاك موارد البحار، انقراض الأنواع، تركّز ثاني أكسيد الكربون، قطع الأشجار، وتبدّل مستويات البحار.

كانت جميع هذه المؤشّرات السلبية ترتفع خلال القرن الماضي. غير أنّها الآن تعلو بوتيرة متسارعة ومخيفة.



كان ردّ فعل إليزابيث هو نفسه كلّما رأت هذا المخطّط؛ الإحساس بالعجز. فهي عالمة، وتعتقد بفاعلية الإحصائيات، وهذا المخطّط رسم صورة مخيفة ليس للمستقبل البعيد فحسب، بل لمستقبل قريب جدًّا.

لسنوات عديدة، ظلّ العجز عن الإنجاب يلاحق إليزابيث سينسكي. لكن، عندما ترى هذا المخطّط، تشعر بالراحة لأنّها لم تنجب طفلاً إلى هذا العالم.

أهذا هو المستقبل الذي سأهديه لطفلي؟

أعلن الرجل قائلاً: "خلال السنوات الخمسين الأخيرة، ارتفعت خطايانا بحقّ أمّنا الطبيعة ارتفاعاً أسياً". صمت هنيهة ثمّ أضاف: "وأنا أخشى على الجنس البشري. عندما نشرت منظّمة الصحّة العالمية هذا المخطّط، عقد سياسيو العالم وسماسرة السلطة وعلماء البيئة اجتماعات قمّة عاجلة، حاولوا فيها تقييم المشاكل الأكثر خطورة التي يمكننا أن نتأمّل في حلّها. والنتيجة؟ وضعوا رؤوسهم بين أيديهم وبكوا سرًّا. أمّا علناً، فأكّدوا لنا أنّهم يعملون على إيجاد حلول، إلاّ أنّ هذه المسائل معقّدة".

"هذه المسائل معقّدة فعلاً!".

انفجر الرجل قائلاً: "هراء! أنتِ تعرفين جيّداً أنّ هذا المخطّط يصوّر أبسط العلاقات؛ وظيفة قائمة على متغيّر *واحد*! فكلّ خطّ في هذا الرسم يصعد بتناسب مباشر مع قيمة واحدة؛ قيمة يخشى الجميع مناقشتها. سكّان العالم!".

"في الواقع، أعتقد أنّه أكثر –".

"أكثر تعقيداً؟ في الواقع، ليس كذلك! ما من شيء أبسط. إن كنت تريدين مزيداً من الماء العذب لكلّ نسمة فأنت بحاجة إلى عدد أقلّ من البشر على سطح الأرض. وإن كنت تريدين خفض انبعاثات السيّارات، فأنت إذاً بحاجة إلى عدد أقلّ من السائقين. أمّا إن كنت تريدين أن تستعيد المحيطات ثروتها السمكية، إذاً يجب أن يكون الناس الذين يتناولون السمك أقلّ عدداً!".

حدّق إليها وأصبحت نبرته أكثر شراسة. "افتحي عينيكِ! نحن على شفير انتهاء البشرية، في حين يجلس قادة العالم في غرف الاجتماعات ويطلبون إجراء دراسات حول الطاقة الشمسية، وإعادة تدوير النفايات، والسيارات الهجينة! كيف يعقل ألاّ تري *أنت* ذلك رغم كونك عالمة وذات ثقافة عالية؟ استنفاد طبقة الأوزون، وقلّة المياه، والتلوّث ليست المرض، بل *الأعراض*. *المرض* هو الانفجار السكّاني. وما لم نواجه هذه المشكلة مباشرة، فإنّنا نكتفي بوضع شريط لاصق على ورم سرطاني سريع النموّ".

سألته إليزابيث: "أنت تعتبر الجنس البشري ورماً سرطانياً؟".

"ليس السرطان سوى خلية سليمة تبدأ بالتكاثر على نحو خارج عن السيطرة. أنا أفهم أنّك تجدين أفكاري بغيضة، لكنّني أؤكّد لك أنّ البديل سيكون أفظع عندما نصل إليه؛ إن لم نتّخذ تدبيراً جريئاً، إذاً –".

قالت باشمئزاز: "جريء؟! ليست هذه هي الكلمة المناسبة، بل إنها بالأحرى *جنونيّ*!".

قال الرجل بصوت هادئ على نحو غريب: "د. سينسكي، استدعيتك إلى هنا خصّيصاً لأنّني كنت آمل أن تكوني على استعداد – بصفتك صوتاً عاقلاً في منظّمة الصحّة العالمية – للتعاون معي والبحث عن حلّ ممكن".

حدّقت إليه إليزابيث بذهول. "أتظنّ أنّ المنظّمة ستتعاون معك... لبحث فكرة *كهذه*؟".

قال: "في الواقع، أجل. فمنظّمتكم مؤلّفة من أطبّاء. والأطبّاء لا يتورّعون عن قطع ساق المريض المصاب بالغرغرينا لإنقاذ حياته. ففي بعض الأحيان، يكون الحلّ الوحيد هو أحلى الأمرّين".

"لكن هذا مختلف تماماً".

"كلاّ، بل إنه *مشابه*. الفرق الوحيد هو النطاق".

كانت إليزابيث قد سمعت ما فيه الكفاية. لذا، وقفت فجأة وقالت: "عليّ اللحاق بطائرتي".

قام الرجل الطويل بخطوة تهديدية باتّجاهها، معيقاً طريقها. "هذا تحذير. بتعاونك أو من دونه، يمكنني استكشاف هذه الفكرة بسهولة".

ردّت عليه: "وهذا تحذير منّي: أنا أعتبر هذه الفكرة تهديداً إرهابياً وسأتعامل معها على هذا الأساس". تناولت هاتفها.

ضحك الرجل قائلاً: "هل ستبلغين عنّي لأنّني تحدّثت بفرضيات؟ لسوء الحظّ، عليك تأجيل اتصالك. فهذه الغرفة محصّنة إلكترونياً. لن تجدي أيّ إشارة في هاتفك".

لا أحتاج إلى إشارة أيّها المجنون. رفعت إليزابيث هاتفها، وقبل أن يدرك الرجل ما يجري، التقطت صورة لوجهه. انعكس الوميض على عينيه الخضراوين، وشعرت للحظة أنّ وجهه مألوف.

قالت: "كائناً من تكون، فقد أخطأت بإحضاري إلى هنا. ما إن أصل إلى المطار حتّى أكون قد اكتشفت هويتك، وستكون على لائحة المراقبة في منظّمة الصحّة العالمية، ومركز مكافحة الأمراض، والمركز الأوروبي للوقاية من الأمراض ومكافحتها؛ كإرهابي بيولوجي محتمل. ستكون أعيننا عليك ليل نهار. وإن حاولت شراء أيّ مواد، فسنعرف ذلك. وإن بنيت مختبراً، فسنعرف به أيضاً. لا يمكنك الاختباء في أيّ مكان".

وقف الرجل مطوّلاً بصمت مشوب بالتوتّر، وكأنّه على وشك الانقضاض على هاتفها. أخيراً، استرخى وخطا جانباً بعد أن رسم على وجهه ابتسامة مخيفة. ثمّ قال: "إذاً، يبدو أنّ رقصتنا قد بدأت".

الفصل 32

إيل كوريدويو فاساريانو، أو رواق فاساري رواق صمّمه جورجيو فاساري عام 1564 بأمر من الحاكم الميديتشي، الدوق الأكبر كوزيمو الأوّل، وذلك لتأمين ممرّ آمن من مكان سكنه في قصر بيتّي إلى مكتبه الإداري، عبر نهر آرنو، في قصر فيكيو.

على غرار ممرّ "باسيتّو" في مدينة الفاتيكان، كان رواق فاساري هو الممرّ السرّي الجوهري. فهو يمتدّ على مسافة كيلومتر كامل تقريباً من الزاوية الشرقية لحدائق بوبولي إلى قلب القصر القديم نفسه، ويعبر جسر فيكيو مروراً بصالة أوفيتزي بينهما.

اليوم، ما زال رواق فاساري يُستعمل كجنّة آمنة، ليس لأرستقراطيي أسرة ميديتشي بل للتحف الفنّية. فنظراً إلى طول امتداد مساحة الجدران الآمنة، شكّل الرواق مخبأً للوحات فنّية نادرة لا تعدّ ولا تحصى، فاضت عن صالة أوفيتزي الشهيرة التي يمرّ الرواق عبرها.

كان لانغدون قد عبر هذا الممرّ قبل بضع سنوات ضمن جولة خاصّة. عصر ذلك اليوم، توقّف لتأمّل المجموعة المذهلة من اللوحات، بما في ذلك أكبر مجموعة من البورتريهات الذاتية في العالم. كما توقّف عدّة مرّات ليطلّ من الأبواب المتفرّقة في الرواق، التي تسمح للمارّين عبره بتتبّع تقدّمهم عبر ذلك الممرّ المرتفع.

لكن، هذا الصباح، عبر لانغدون وسيينّا الرواق عدواً، بهدف الابتعاد عن مطارديهم قدر الإمكان. تساءل لانغدون: كم *سيستغرق اكتشاف أمر الحارس المقيّد؟* وكلّما تقدّما أكثر، شعر أنّهما يزدادان قرباً ممّا يبحثان عنه.

Cerca trova... عينا الموت... وهويّة من يلاحقني.

أصبح هدير طائرة المراقبة بعيداً عنهما الآن. كلّما تقدّما في النفق، تذكّر لانغدون كم شكّل هذا الممرّ إنجازاً معمارياً طموحاً. كان رواق فاساري، الذي يرتفع فوق المدينة ويمتدّ بطولها تقريباً، أشبه بثعبان عريض يتلوّى عبر الأبنية، من قصر بيتّي، عبر نهر آرنو، إلى قلب فلورنسا القديمة. يبدو الممرّ الضيّق المطليّ باللون الأبيض وكأنّه يمتدّ إلى ما لا نهاية، وينعطف أحياناً إلى اليمين أو اليسار لتجنّب عائق، لكنّه يتقدّم دائماً نحو الشرق... فوق نهر آرنو.

تردّدت فجأة أصوات في الرواق، فتوقّفت سيينّا. توقّف لانغدون أيضاً، ووضع يده على كتفها لتهدئتها، ثمّ أشار إلى نوافذ قريبة.

السيّاح في الأسفل.

اقترب لانغدون وسيينّا من النافذة، وأدركا أنّهما فوق جسر فيكيو حاليًّا، ذلك الجسر الحجري الذي يرجع إلى القرون الوسطى، والذي يشكّل ممرًّا للمشاة لدخول المدينة القديمة. تحتهما، كان السيّاح الأوائل لذلك اليوم يستمتعون بالسوق التي تقام على الجسر منذ القرن الخامس عشر. معظم الباعة اليوم من تجّار الذهب والمجوهرات، لكن لم يكن الحال كذلك دائماً. ففي الأساس، شكّل الجسر مكاناً لسوق اللحوم الكبيرة التي تقام في الهواء الطلق، لكن تمّ منع الجزّارين من بيع اللحوم على الجسر عام 1593؛ بعدما تسلّلت رائحة اللحم الفاسد عبر رواق فاساري، وهاجمت أنف الدوق الأكبر الحسّاس.

يذكر لانغدون أنّ هذا الجسر شهد أيضاً أبشع جرائم فلورنسا. ففي عام 1216، رفض شابّ نبيل يدعى بونديلمونتي زواجاً تمّ ترتيبه من قبل أسرته لأنّه يرغب في الزواج ممّن يُحبّها فعلاً. وبسبب هذا القرار، قُتل بوحشية على هذا الجسر.

اعتُبر موته لمدّة طويلة "الجريمة الأكثر دموية في فلورنسا"؛ لأنّها سبّبت نزاعاً بين فصيلتين سياسيتين قويتين - هما غيلف وغيبيلين - شنّتا حرباً ضروساً ضدّ بعضهما لقرون من الزمن. وبما أنّ الخلاف السياسي الذي نتج عن ذلك أدّى إلى نفي دانتي من فلورنسا، خلّد الشاعر بمرارة ذلك الحدث في الكوميديا الإلهية: *يا بونديلمونتي، بسبب مشورة آخرين، نكثتَ بعهد الزواج، وجررت علينا هذه الويلات!*

حتّى هذا اليوم، يمكن إيجاد ثلاث لوحات منفصلة بالقرب من موقع الجريمة، تذكر كلّ منها بيتاً من النشيد 16 في *باراديزو* دانتي. تقع إحداها عند مدخل جسر فيكيو، وتحتوي على العبارة المشؤومة التالية:

لكنّ فلورنسا، في سلامها الأخير،
كان مقدّراً لها أن تقدّم ضحية على ذلك الحجر المشوّه،
تكون حارساً لجسرها...

حوّل لانغدون نظره من الجسر إلى المياه الداكنة التي يمتدّ فوقها. شرقاً، بدا البرج الوحيد لقصر فيكيو.

ومع أنّ لانغدون وسيينّا لم يقطعا سوى نصف الطريق عبر نهر آرنو، إلاّ أنّه لم يكن لديه أدنى شكّ في أنّهما قد تجاوزا منذ وقت طويل نقطة اللاعودة.

على بعد ثلاثين قدماً في الأسفل، فوق جسر فيكيو المرصوف بالحصى، راحت فايينثا تتفحّص حشود الوافدين، من دون أن تتخيّل إطلاقاً أنّ فرصة نجاتها الوحيدة مرّت للتوّ من فوق رأسها.

الفصل 33

في أعماق *الميناسيوم*، جلس الفنّي نولتون وحده في حجرته وحاول عبثاً التركيز على عمله. بعدما استبدّ به الذعر، عاد لمشاهدة شريط الفيديو، وأمضى الساعة الأخيرة وهو يحلّل ذلك الشريط الذي يستغرق عرضه تسع دقائق والذي تراوح بين العبقرية والجنون.

سرّع نولتون الشريط من البداية؛ بحثاً عن أيّ تفصيل ربما يكون قد فاته. تجاوز اللوحة المغمورة بالمياه... والكيس المعلّق المليء بالسائل البنّي المائل إلى الاصفرار... ووصل إلى اللحظة التي ظهر فيها الظلّ بأنفه الشبيه بالمنقار؛ ذلك الشكل المشوّه المنعكس على جدار كهف تقطر منه المياه... ينيره وهج أحمر خفيف.

أصغى نولتون إلى الصوت المكتوم، وحاول أن يفكّك شيفرة تلك اللغة المعقّدة. في منتصف الحديث تقريباً، أصبح الظلّ أكبر حجماً فجأة، وارتفع صوت المياه.

جحيم دانتي ليس خيالياً... إنّه توقّع!

بؤس وتعاسة. ويلات وعذاب. هذا هو مشهد الغد.

إن لم تتمّ السيطرة على الجنس البشري، فإنّه سيصبح مثل طاعون، أو سرطان... ستتعاظم أعدادنا مع كلّ جيل إلى أن تختفي وسائل الراحة الدنيوية التي كانت تغذّي فينا الفضيلة والأخوّة... لتكشف القناع عن الوحوش التي تعيش في داخلنا... فنحارب حتّى الموت لإطعام صغارنا.

هذا هو جحيم دانتي بحلقاته التسع.

هذا ما ينتظرنا.

مع انقضاض المستقبل علينا، تغذّيه رياضيات مالتوس القاسية، فإنّنا نترنّح فوق الحلقة الأولى من الجحيم، ونستعدّ للغوص فيها أسرع ممّا تخيّلنا يوماً.

أوقف نولتون الفيديو. *رياضيات مالتوس؟* أجرى بحثاً سريعاً على الإنترنت وتوصّل إلى معلومات عن رياضي وديموغرافي إنكليزي بارز من القرن التاسع عشر يدعى توماس روبرت مالتوس، اشتُهر بتوقّعه انهياراً عالميًّا بسبب الانفجار السكّاني.

كانت النبذة عن حياة مالتوس تتضمّن مقتطفاً من كتابه *رسالة عن مبدأ السكّان* أثار قلق نولتون:

إنّ القوّة السكّانية تفوق بكثير قوّة الأرض على إنتاج الغذاء للإنسان حيث ينبغي للموت المبكر أن يزور الجنس البشري بشكل أو بآخر. فرذائل الجنس البشري وسائل ناشطة وفاعلة لخفض عدد السكّان. إنّها النذير في جيش الدمار العظيم، وغالباً ما تنهي العمل المروّع بنفسها. لكن في حال فشلها في حرب الإبادة هذه، تتقدّم الأمراض الموسمية والأوبئة والطاعون بمستويات مخيفة، وتمسح الآلاف وعشرات الآلاف. وفي حال بقي النجاح منقوصاً، تأتي المجاعة المحتومة التي تحتلّ مؤخّر الجيش، وتسوّي بضربة واحدة قوية أعداد السكّان مع كمّية الغذاء المتوفّرة في العالم.

نظر نولتون مجدّداً إلى صورة الظلّ بأنفه المعقوف، وكان قلبه ينبض بقوّة.
إن لم تتمّ السيطرة على الجنس البشري، فإنّه سيصبح مثل سرطان.
إن لم تتمّ السيطرة على الجنس البشري. لم تُعجب هذه العبارة نولتون.
شغّل الفيديو مجدّداً بتردّد.
تابع الصوت المكتوم.

إن جلسنا مكتوفي الأيدي فإنّنا نرحّب بجحيم دانتي... منكمشين، ومتضوّرين جوعاً، ومتخبّطين في الخطيئة.
لذلك، تحرّكت بجرأة.
سينتفض البعض مذعوراً، لكنّ الخلاص لا يأتي من دون ثمن.
يوماً ما، سيفهم العالم قيمة تضحيتي.
فأنا خلاصكم.
أنا الظلّ.
أنا بابكم إلى عصر ما بعد الإنسانية.

الفصل 34

يشبه قصر فيكيو قطعة شطرنج عملاقة. يمتاز المبنى الضخم الذي يشبه طائر الغُداف بموقع ذكي، مع واجهة مربّعة وشرفات ذات فرجات بنمط ريفي، حيث يحرس الزاوية الجنوبية الشرقية لبياتزا ديلاّ سينيوريا.

يرتفع برج المبنى الوحيد من الوسط، من قلب القلعة المربّعة، مضفياً عليها شكلاً مميّزاً. وقد أصبح رمزاً فريداً لفلورنسا.

تمّ بناء القصر كمقرّ للحكومة الإيطالية، وهو يفرض على زائريه مجموعة مهيبة من التماثيل الذكورية. يقف تمثال *نبتون* بعضلاته المفتولة للنحّات أمانّاتي عارياً فوق أربع أفراس بحر؛ رمزاً لهيمنة فلورنسا على البحر. وتقف نسخة لتمثال داوود لمايكل أنجلو - الذي يعدّ واحداً من أجمل التماثيل للشخصيات العارية في العالم - بكلّ مجده عند مدخل القصر. ينضمّ إلى تمثال داوود تمثالان *لهرقل وكاكوس*، وهما تمثالان ذكوريان أكثر ضخامة. ومع التماثيل المرافقة لتمثال نبتون، يصبح مجموع التماثيل للشخصيات العارية التي تستقبل زوّار القصر أكثر من عشرة.

عادة، كانت زيارات لانغدون إلى قصر فيكيو تبدأ هنا في ساحة سينيوريا، التي كانت دائماً - على الرغم من كثرة تماثيل العراة الذكور - ساحته المفضّلة في أنحاء أوروبا كافة. ولا تُعتبر زيارة الساحة كاملةً من دون ارتشاف فنجان إسبريسّو في كافيه ريفوار، تتبع ذلك زيارة لأسود ميديتشي في لودجيا داي لانتزي، وهو معرض منحوتات موجود في الساحة في الهواء الطلق.

أمّا اليوم، فيخطّط لانغدون ورفيقته لدخول قصر فيكيو عبر رواق فاساري، كما كان دوقات أسرة ميديتشي يفعلون في أيّامهم؛ متجاوزين صالة أوفيتزي الشهيرة عبر الرواق الذي يمرّ فوق الجسور والطرقات والمباني ليؤدّي مباشرة إلى قلب القصر القديم. حتّى تلك اللحظة، لم يسمعا أيّ خطوات خلفهما، لكنّ لانغدون ما زال متلهّفاً للخروج من الرواق.

ها قد وصلنا. أدرك لانغدون ذلك وهو يرمق الباب الخشبي الثقيل أمامهما. *هذا مدخل القصر القديم*.

مع أنّ الباب يضمّ قفلاً آلياً هامًّا، إلاّ أنّه مجهّز بعارضة دفع أفقية توفّر مخرجاً طارئاً، وتمنع في الوقت نفسه دخول أيّ شخص من الجهة الأخرى من الرواق من دون مفتاح.

وضع لانغدون أذنه على الباب وأصغى. لم يسمع شيئاً من الجانب الآخر، فوضع يديه على العارضة ودفعها بلطف.

سُمعت طقطقة القفل.

عندما فُتح الباب الخشبي بضعة إنشات، استرق لانغدون النظر عبره، فوجد مُختلًى صغيراً وخالياً وهادئاً.

تنفّس لانغدون الصعداء، ودخل مشيراً إلى سيينّا لتتبعه.

لقد دخلنا.

وقف لانغدون وسيينّا في المُختلى الهادئ؛ في مكان ما داخل قصر فيكيو، وانتظر لانغدون للحظة محاولاً تحديد موقعه. امتدّ أمامهما ممرّ طويل يشكّل زاوية مستقيمة مع المُختلى. إلى اليسار، على مسافة منهما، تردّدت أصوات في الرواق، وكانت هادئة ومرحة. كان قصر فيكيو - شأنه شأن مبنى الكابيتول في الولايات المتّحدة - موقعاً سياحياً ومكتباً حكوميًا في الوقت نفسه. في تلك الساعة، لا بدّ أنّ الأصوات المتناهية إليهما هي أصوات الموظّفين المدنيين الذين يدخلون ويخرجون من المكاتب استعداداً لذلك اليوم.

تقدّم لانغدون وسيينّا في الممرّ ببطء، واسترقا النظر عند الزاوية. وجدا في آخر الممرّ حجرة وقف فيها حوالى عشرة موظّفين حكوميين يرتشفون الإسبريسّو الصباحي ويتجاذبون أطراف الحديث قبل الشروع في العمل.

همست سيينّا: "قلتَ إنّ جدارية فاساري موجودة في قاعة الخمسمائة، أليس كذلك؟".

أومأ لانغدون بالإيجاب، وأشار إلى باب خلف الحشد يُفتح على ممرّ حجري. "لسوء الحظّ، علينا المرور عبر تلك الحجرة".

"هل أنت واثق؟".

هزّ لانغدون رأسه. "لا يمكننا المرور خفية".

"إنّهم موظّفون حكوميون، لن يهتمّوا بنا. ما عليك سوى أن تمشي وكأنّك تنتمي إلى هذا المكان".

مدّت سيينّا يديها وسوّت بلطف سترة لانغدون وياقته. "أنت تبدو أنيقاً جدًّا روبرت". ثمّ ابتسمت وسوّت قميصها، وانطلقت.

أسرع لانغدون خلفها، وسارا باتّجاه الحجرة. عندما دخلا، بدأت سيينّا تتحدّث بإيطالية سريعة عن المزارع وتحرّك يديها بشغف وهي تتكلّم. سارا بجانب الجدار الخارجي، على مسافة من الآخرين. ودُهش لانغدون حين لاحظ أنّ أيًّا من الموظّفين لم يعرهما انتباهاً.

عندما عبرا الحجرة، أسرعا باتّجاه الممرّ. تذكّر لانغدون إعلان شكسبير، *بوك الشرّير*، فهمس قائلاً: "أنت ممثّلة بارعة".

أجابت تلقائياً بصوت بدا بعيداً على نحو غريب: "كان عليّ ذلك".

شعر لانغدون مجدّداً أنّ هذه الشابّة عانت في ماضيها أكثر ممّا يعرف؛ وهذا ما ولّد لديه إحساساً عميقاً بالذنب لأنّه ورّطها في هذا المأزق الخطير. غير أنّه ذكّر نفسه أنّه لم يعد يستطيع فعل شيء الآن؛ باستثناء الخروج منه.

واصِل السباحة عبر النفق... وادعُ لرؤية الضوء.

مع اقترابهما من الباب المقصود، شعر لانغدون بالارتياح لأنّ ذاكرته خدمته جيّداً. إذ وصل إلى لافتة صغيرة تحمل سهماً يشير عند الزاوية إلى الممرّ مع عبارة *إيل صالوني داي* شينكوينتو، أي قاعة الخمسمائة. تساءل لانغدون عن الإجابات التي تنتظره في الداخل. *لا يمكن لمح الحقيقة إلاّ عبر عيون الموت. ما معنى ذلك يا ترى؟*

عندما اقتربا من الزاوية، حذّرها لانغدون قائلاً: "ربّما كانت الغرفة لا تزال مقفلة". فرغم أنّ قاعة الخمسمائة وجهة سياحية شعبية، إلاّ أنّ القصر لم يبدُ مفتوحاً للسيّاح بعد في هذا الوقت من الصباح.

سألته سيينّا وهي تتوقّف فجأة: "هل سمعت ذلك؟".

كان لانغدون قد سمع الصوت؛ هديراً عالياً آتياً من وراء الزاوية. *لا تقولي لي إنّها طائرة مراقبة داخلية.* استرق لانغدون النظر بحذر من زاوية الباب. على بعد ثلاثين ياردة، رأى الباب الخشبي البسيط جدًّا الذي يشكّل مدخل قاعة الخمسمائة. لسوء الحظّ، وقف أمام الباب مباشرة حارس يدفع آلة كهربائية لصقل الأرض بحركة دائرية حذرة.

حارس الباب.

تحوّل انتباه لانغدون إلى الرموز الثلاثة الظاهرة على لافتة بلاستيكية خارج الباب. كانت الرموز معروفة لأقلّ علماء الرموز خبرة. فهي صور عالمية لكاميرا فيديو رُسمت عليها إشارة *X*، وكوب رُسمت عليه إشارة *X*، وشكلين أحدهما أنثوي والآخر ذكوري.

تولّى لانغدون المسألة، فتقدّم نحو الحارس، وبدأ يهرول وهو يقترب. ثمّ أسرعت سيينّا خلفه.

نظر إليهما الحارس وبدت عليه الدهشة. "سينيوري؟!". ورفع يديه مشيراً إلى لانغدون وسيينّا بالتوقّف.

ابتسم لانغدون للرجل ابتسامة مشوبة بالألم، وأقرب إلى الغمزة، وأشار معتذراً إلى الرمزين عند الباب. ثم أعلن قائلاً: "تويليتّي"، مع أنّة في صوته. لم يكن ذلك سؤالاً.

تردّد الحارس للحظة، وبدا على وشك رفض طلبهما، لكنه عندما رأى لانغدون يقف أمامه منزعجاً، هزّ رأسه متعاطفاً معه وسمح لهما بالمرور.

عندما وصلا إلى الباب، نظر لانغدون إلى سيينّا وغمزها قائلاً: "التعاطف لغة عالمية".

الفصل 35

في وقت من الأوقات، كانت قاعة الخمسمائة أكبر قاعة في العالم. فقد بنيت عام 1494 لتكون قاعة اجتماع للمجلس الأكبر للجمهورية، كونسيليو مادجوري، المؤلّف من خمسمائة عضو، ومنه استمدّت اسمها. بعد بضع سنوات، وبأمر من كوزيمو الأوّل، تمّ تجديد القاعة وتوسيعها بشكل كبير. واختار كوزيمو الأوّل - الذي كان الرجل الأوسع نفوذاً في إيطاليا - جورجيو فاساري العظيم ليكون المهندس والمشرف على المشروع.

قام فاساري بإنجاز هندسي استثنائي. فرفع السقف الأصلي إلى حدّ كبير، وسمح للضوء الطبيعي بدخول القاعة من خلال نوافذ عالية موزّعة على الجوانب الأربعة للغرفة؛ حيث تحوّل المكان إلى صالة عرض أنيقة لبعض أجمل التحف في فلورنسا في مجال الهندسة المعمارية، والنحت، والرسم.

بالنسبة إلى لانغدون، كانت أرض هذه القاعة دائماً أوّل ما يلفت نظره؛ لأنّها تُظهر على الفور أنّ هذا المكان ليس عادياً. فالبلاط القرمزي ذو الأطراف السوداء أضفى على تلك المساحة الممتدّة على اثني عشر ألف قدم مربّعة متانة، وعمقاً، وتوازناً.

نظر لانغدون إلى الطرف الآخر من القاعة ببطء. هناك اصطفّت أمام الجدار ستّ منحوتات تمثّل *كفّارات هرقل*، كما لو كانت كتيبة من الجنود. تجاهل لانغدون عمداً تمثالي *هرقل وديوميدس* اللذين يتشابك جسداهما العاريان في مباراة مصارعة غريبة، لطالما سبّبت القشعريرة للانغدون.

كان تمثال مايكل أنجلو الذي يخطف الأنفاس، *عبقري النصر*، مريحاً أكثر للبصر، وكان يقع إلى اليمين، ويهيمن على الكوّة المركزية للجدار الجنوبي. كانت تلك المنحوتة التي يبلغ طولها تسع أقدام تقريباً مخصّصة لقبر البابا يوليوس الثاني المفرط في التحفّظ، والملقّب بالبابا الرهيب. لطالما سخر لانغدون من هذا الأمر، نظراً لموقف الفاتيكان من الشذوذ الجنسي. إذ يصوّر التمثال توماسو داي كافاليري، الشابّ الذي أغرم به مايكل أنجلو معظم سنوات حياته، وألّف من أجله أكثر من ثلاثمائة قصيدة.

همست سيينّا بصوت هادئ: "لا أصدّق أنّني لم آتِ إلى هذا المكان مطلقاً. كم هو... جميل".

هزّ لانغدون رأسه، وتذكّر زيارته الأولى إلى هذا المكان، بمناسبة حفل موسيقي كبير للموسيقى الكلاسيكية ضمّ عازفة البيانو المشهورة ماريبل كايمل. فرغم أنّ هذه القاعة الكبيرة

كانت مخصّصة في الأصل للاجتماعات السياسية الخاصّة مع الدوق الأكبر، إلاّ أنّها تحتضن الآن الموسيقيين والمحاضرين المشهورين وحفلات العشاء؛ من المؤرّخ الفنّي ماوريسيو سيراتشيني إلى متحف غوتشي. في بعض الأحيان، يتساءل لانغدون عمّا كان كوزيمو الأوّل سيشعر به حيال مشاركة قاعته الخاصّة الصارمة مع الرؤساء التنفيذيين وعارضات الأزياء.

نظر لانغدون إلى اللوحات الضخمة التي تزيّن الجدران. تضمّن تاريخها الغريب تقنية رسم تجريبية فاشلة لليوناردو دي فينشي، أدّت إلى "تحفة ذائبة". كما شهدت القاعة أيضاً مباراة فنّية أشرف عليها بييرو سوديريني وماكيافيلي اللذان حرّضا عملاقَين من عمالقة عصر النهضة هما مايكل أنجلو وليوناردو ضدّ بعضهما، وطلبا منهما رسم جداريات على حائطين متقابلين في القاعة نفسها.

لكن اليوم، كان لانغدون أكثر اهتماماً بتحفة تاريخية واحدة في القاعة.

Cerca trova.

سألته سيينّا وهي تتأمّل الجدران: "أيّ منها لفاساري؟".

أجاب لانغدون: "كلّها تقريباً". فقد كان يعرف أنّ فاساري ومساعديه قاموا - خلال أعمال تجديد القاعة - بإعادة رسم كلّ ما فيها، من جداريات الجدران الأصلية، إلى الألواح التسعة والثلاثين التي تزيّن السقف "المعلّق" الشهير.

لكنّ لانغدون أشار إلى جدارية إلى أقصى اليمين قائلاً: "لكن، *تلك* هي ما أتينا من أجله؛ *معركة مارتشانو*".

كانت المواجهة العسكرية هائلة حتماً، إذ امتدّت اللوحة على مساحة بطول خمسٍ وخمسين قدماً وارتفاع يتجاوز ارتفاع ثلاثة طوابق. طغت عليها ظلال مائلة إلى الاحمرار من البنّي والأخضر، وكانت عبارة عن مشهد عنيف يظهر فيه الجنود المتقاتلون، والأحصنة، والرماح، والرايات التي تتصادم على سفح تلّ.

همست سيينّا: "فاساري، فاساري. في مكان ما هناك تختبئ رسالته السرّية؟".

هزّ لانغدون رأسه وهو يُمعن النظر إلى الجزء العلوي من الجدارية الضخمة؛ محاولاً تحديد مكان العلم الأخضر الذي كتب عليه فاساري رسالته الغامضة؛ cerca trova. قال لانغدون مشيراً إلى تلك المنطقة: "يستحيل تقريباً رؤيتها من هنا من دون منظار، لكن في وسط الجزء العلوي، إن نظرت تحت المزرعتين تماماً على سفح التلّ، ثمّة علم صغير أخضر و -".

قالت سيينّا: "رأيته!". وهي تشير إلى الجزء العلوي الأيمن، في المكان المقصود تماماً.

تمنّى لانغدون لو أنّه يملك عينين أكثر شباباً.

اقترب الاثنان من الجدارية الشاهقة، وراح لانغدون يحدّق إليها بكلّ مجدها. ها قد وصلا أخيراً إلى هنا، لكنّ المشكلة الوحيدة الآن هي أنّ لانغدون ليس واثقاً من سبب وجودهما في هذا المكان. وقف بصمت لدقائق طويلة، محدّقاً إلى تفاصيل تحفة فاساري.

إن فشلت... فمصيرنا الموت.

قالت سيينّا: "روبرت، ليس لدينا الكثير من الوقت. عليك أن تفكّر. هل تذكّرك اللوحة بشيء؟ هل تُحرّك فيك أيّ ذكريات على الإطلاق؟".

تأمّل لانغدون مشهد الحرب الفوضوي.

لا يمكن لمح الحقيقة إلاّ عبر عيون الموت.

اعتقد لانغدون أنّ الجدارية تتضمّن ربّما جثّة تحدّق بعينيها الميتتين إلى إشارة أخرى في اللوحة... أو حتّى إلى مكان آخر في القاعة. لكن، لسوء الحظّ، رأى لانغدون عشرات الجثث في الجدارية، ولم تكن أيّ منها جديرة بالاهتمام أو توجّه نظرها نحو شيء معيّن.

لا يمكن لمح الحقيقة إلاّ عبر عيون الموت؟

حاول أن يتخيّل خطوطاً تربط جثّة بأخرى، وتساءل عمّا إذا كان شكل معيّن سيظهر من ذلك. لكن، لا شيء إطلاقاً.

راح رأس لانغدون يعصف مجدّداً وهو يفتّش في أعماق ذاكرته. في مكان ما هناك، ظلّ صوت المرأة ذات الشعر الفضّي يردّد هامساً: *من يبحث يجد.*

أراد لانغدون أن يصرخ: "ماذا سيجد؟".

أجبر نفسه على إغماض عينيه وراح يتنفّس ببطء. حرّك كتفيه عدّة مرّات وحاول تحرير نفسه من كلّ الأفكار الواعية، على أمل أن يستعين بحدسه.

آسف جدًّا.

فاساري.

Cerca trova.

لا يمكن لمح الحقيقة إلاّ عبر عيون الموت.

أخبره حدسه من دون أدنى شكّ أنّه يقف في المكان الصحيح. ومع أنّه لم يكن واثقاً من السبب، إلاّ أنّه شعر أنّه على بعد لحظات من إيجاد ضالّته.

حدّق العميل برودر بشرود إلى السراويل والقمصان المخملية الحمراء في صندوق العرض أمامه، وأخذ يشتم في سرّه. كان فريقه قد فتّش صالة الأزياء بأكملها، من دون العثور على أيّ أثر للانغدون وسيينّا.

فكّر بغضب، *منذ متى يستطيع أستاذ في الجامعة الإفلات من شعبة المراقبة والدعم؟ أين ذهب هذان الاثنان!*

أكّد أحد رجاله: "لقد تمّ إقفال جميع المخارج. الاحتمال الوحيد المتبقّي هو أنّهما ما زالا في الحدائق".

ومع أنّ ذلك بدا منطقياً، لكنّ برودر شعر أنّ لانغدون وسيينّا وجدا طريقة أخرى للخروج.

قال بنبرة حادّة: "أعِد الطائرة إلى الجوّ، وأخبِر السلطات المحلّية بتوسيع رقعة البحث خارج الأسوار". *اللعنة!*

عندما اندفع الرجال لتنفيذ الأوامر، تناول برودِه هاتفه واتّصل بالمسؤول. قال: "أنا برودر. أخشى أنّنا أمام مشكلة خطيرة، لا بل عدد من المشاكل في الواقع".

الفصل 36

لا يمكن لمح الحقيقة إلاّ عبر عيون الموت.

أخذت سيينّا تكرّر هذه الكلمات وهي تبحث في كلّ إنش من مشهد المعركة الطاحنة، على أمل إيجاد شيء.

كانت ترى عيون الموت في كلّ مكان.

عن أيّ منها نبحث؟!

تساءلت عمّا إذا كانت عيون الموت تشير إلى الجثث المتعفّنة المنتشرة في أوروبا بسبب الموت الأسود.

هذا يفسّر على الأقلّ قناع الطاعون...

فجأة، خطرت في بال سيينّا قصيدة قديمة من أيّام الطفولة: *خاتم حول الوردة. حفنة من الأزهار. رماد، رماد. نتساقط كلّنا.*

كانت تنشد تلك القصيدة في المدرسة في إنكلترا إلى أن سمعت أنّها ترجع إلى عهد وباء الطاعون الذي انتشر في لندن عام 1665. ويُزعم أنّ الخاتم حول الوردة يشير إلى بثرة وردية كانت تظهر على الجلد ثمّ تحيط بها حلقة، وهذا ما يدلّ على التعرض للإصابة. وكان المرضى يحملون قبضة من الأزهار في جيوبهم لإخفاء رائحة أجسادهم المتحلّلة، فضلاً عن رائحة المدينة نفسها التي يسقط فيها مئات ضحايا الطاعون يوميًّا، ثمّ يتمّ حرق جثثهم.

رماد، رماد. نتساقط كلّنا.

قال لانغدون فجأة، وهو يستدير إلى الجدار المقابل: "حبًّا بالله".

نظرت إليه سيينّا: "ما الأمر؟".

"هذا هو اسم اللوحة التي كانت معروضة هنا في الماضي. *حبًّا بالله*".

شاهدت سيينّا حائرة كيف هُرع لانغدون عبر القاعة إلى باب زجاجي صغير حاول فتحه، لكنّه وجده مقفلاً. ألصق وجهه بالزجاج، وأحاطه بيديه ليحدّق إلى ما وراءه.

أيًّا يكن ما يبحث عنه لانغدون، أملت سيينّا أن يجده بسرعة. فقد ظهر الحارس للتوّ، وبدت عليه ريبة متزايدة لدى رؤيته لانغدون يحاول فتح باب مقفل.

لوّحت له سيينّا بمرح، لكنّ الرجل حدّق إليها مطوّلاً بنظرة باردة ثمّ اختفى.

لو ستوديولو.

خلف الباب الزجاجي، تماماً مقابل عبارة *cerca trova* الخفية في قاعة الخمسمائة، تقع غرفة صغيرة من دون نوافذ. كانت هذه الغرفة المستطيلة التي صمّمها فاساري كمكتب سرّي لفرانشيسكو الأوّل ذات سقف مقبّب يُشعر من في داخلها أنّه موجود في صندوق كنز هائل.

بالطبع، كان قلب الستوديولو يزخر بالتحف الجميلة. أكثر من ثلاثين لوحة نادرة تزيّن الجدران والسقف، وقريبة من بعضها بعضاً؛ حيث تخلو جدران الغرفة من الفراغ تقريباً. *سقوط إيكاروس... قصة رمزية للحياة البشرية... الطبيعة تقدم بروميثيوس بالأحجار الكريمة المذهلة...*

حدّق لانغدون عبر الزجاج إلى القاعة الرائعة وهو يهمس: "عيون الموت".

كان لانغدون قد دخل لو ستوديولو للمرة الأولى خلال جولة خاصّة داخل الممرّات السرّية للقصر منذ بضع سنوات، وأذهلته مجموعة الأبواب والسلالم والممرّات الخفية التي يزخر بها القصر؛ بما في ذلك عدد منها مخبّأ خلف لوحات داخل لو ستوديولو.

لكنّ الممرّات السرّية لم تكن هي التي أثارت اهتمام لانغدون. عوضاً عن ذلك، تذكّر تحفة جريئة من الفنّ المعاصر رآها معروضة هناك تحت عنوان *حبًّا بالله*. كان صاحب هذه التحفة المثيرة للجدل هو داميان هيرست، وأحدثت ضجّة كبيرة عندما عُرضت في ستوديولو فاساري الشهير.

كانت التحفة عبارة عن جمجمة بشرية بالحجم الطبيعي مصنوعة من البلاتينوم الصلب، سطحها مكسوّ بالكامل بأكثر من *ثمانية آلاف* ألماسة لامعة. كان الأثر مذهلاً. فقد كان محجرا العينين الفارغان يشعّان بالضوء والحياة، حيث تجاور رمزان متناقضان؛ الحياة والموت... الجمال والرعب؛ الأمر الذي ولّد تأثيراً مثيراً للاضطراب. ومع أنّ جمجمة هيرست الألماسية قد أزيلت منذ وقت طويل من لو ستوديولو، إلاّ أنّ ذكريات لانغدون عنها ولّدت لديه فكرة.

قال لنفسه: *عيون الموت. لا شكّ أنّ هذه الصفة تنطبق على الجمجمة.*

كانت الجماجم من المواضيع المتكرّرة في إنفيرنو دانتي، أشهرها هو العقاب القاسي الذي ناله الكونت أوغولينو في أدنى حلقات الجحيم؛ إذ حُكم عليه بنخر جمجمة رئيس أساقفة شرّير إلى الأبد.

هل نحن نبحث عن جمجمة؟

كان لانغدون يعلم أنّ لو ستوديولو الغامض بني على طريقة "خزانة للتحف". فجميع لوحاته تقريباً كانت مزوّدة بفتحة سرّية، حيث يمكن أن تُفتح لتكشف عن خزائن خفية خلفها، كان الدوق يخبّئ فيها مقتنيات غريبة تهمّه؛ كعيّنات معدنية نادرة، وريش جميل، وأحفور كامل لصدفة بحرية، حتّى إنّه احتفظ كما يُزعم بعظم ساق راهب مزيّنة بالفضّة يدوياً.

لسوء الحظّ، يعتقد لانغدون أنّ جميع محتويات الخزائن قد أزيلت منذ وقت طويل، ولم يسمع قطّ عن أيّ جمجمة معروضة هنا باستثناء تحفة هيرست.

انقطع حبل أفكاره بفعل باب صُفق بعنف عند الطرف الآخر من القاعة. ثمّ اقترب وقع خطوات سريعة في الصالة.

صاح صوت غاضب بالإيطالية: "سينيوري، ما زالت الصالة مقفلة!".

التفت لانغدون ليرى أمامه موظّفة تتّجه نحوه. كانت قصيرة القامة وذات شعر بنّي قصير. كما كانت حاملاً في أشهر متقدّمة. تقدّمت المرأة باتّجاههما بحدّة، وهي تطرق على ساعتها وتصيح بشيء عن أنّ القاعة لم تفتح أبوابها بعد. مع اقترابها، نظرت إلى لانغدون ثم توقفت على الفور، ووضعت يدها على فمها مصدومة.

هتفت وقد بدا عليها الإحراج: "بروفيسور لانغدون! أنا آسفة جدًّا! لم أعرف أنّك هنا. مرحباً بك مرّة أخرى!".

جمد لانغدون في مكانه.

كان واثقاً تماماً أنّه لم يسبق له أن رأى هذه المرأة في حياته.

الفصل 37

راحت المرأة تتحدّث بلغة إنكليزية مشوبة بلكنة إيطالية وهي تقترب من لانغدون. "لم أعرفك تقريباً، بروفيسور! ملابسك هي السبب". ابتسمت، وأومأت برأسها وهي تنظر بإعجاب إلى سترة بريوني التي يرتديها لانغدون. "كم هي أنيقة. تبدو إيطالياً تقريباً".

جفّ حلق لانغدون، لكنّه ابتسم بتهذيب للمرأة التي اقتربت منه وتمتم قائلاً: "صباح... الخير. كيف حالك؟".

ضحكت وهي تضع يدها على بطنها. "منهكة؛ فقد أمضت كاتالينا الصغيرة الليلة كلها وهي ترفس". نظرت المرأة في أرجاء الغرفة، وبدا عليها الاستغراب. *إيل دوومينو* لم يذكر أنّك ستعود اليوم. أفترض أنّه معك؟".

إيل دوومينو؟ لم يعرف لانغدون عمّن تتحدّث.

يبدو أنّ المرأة لاحظت حيرته، فطمأنته قائلة: "لا بأس، كلّ من في فلورنسا ينادونه بهذا اللقب، فهو لا يمانع". ثمّ نظرت حولها وسألته: "أهو من أدخلك؟".

قالت سيينّا وهي تقترب منهما: "أجل، لكن كان لديه فطور عمل، وقال إنّك لا تمانعين إن بقينا لإلقاء نظرة على المكان". مدّت سيينّا يدها بحماسة مضيفة: "أنا سيينّا، شقيقة روبرت".

صافحت المرأة سيينّا على نحو رسمي مبالغ فيه. "أنا مارتا ألفاريز. كم أنت محظوظة بدليلك الخاصّ".

أجابت سيينّا بمرح: "أجل، فهو ذكي جدًّا!".

صمتت المرأة فجأة متأمّلة سيينّا، ثم قالت: "هذا غريب، لكنّني لا أرى *أيّ* شبه بينكما، باستثناء طول القامة ربّما".

شعر لانغدون بخطر داهم. *إمّا أن يغتنم الفرصة الآن أو يخسرها إلى الأبد.*

قاطعها لانغدون آملاً أن يكون قد سمع اسمها بشكل صحيح: "مارتا، أنا آسف لإزعاجك. لكن، في الواقع... أظنّ أنّك تعرفين على الأرجح سبب وجودي هنا".

ضاقت عيناها وهي تجيب: "كلاّ، في الواقع، لا يمكنني أن أتخيّل ما تفعله هنا".

تسارع نبض لانغدون، وخلال الصمت الذي تبع ذلك، أدرك أنّ رهانه على وشك أن يُمنى بالفشل. فجأة، ابتسمت مارتا ابتسامة عريضة وضحكت بصوت عالٍ.

"بروفيسور، أنا أمزح! بالطبع أعرف سبب عودتك. بصراحة، لا أعرف لماذا تجدونه ساحراً إلى هذا الحدّ. لكن، بما أنّك أمضيت قرابة الساعة مع *إيل دوومينو* هناك في الليلة الماضية، فأنا أظنّ أنك أتيت لتريه لأختك، أليس كذلك؟".

"صحيح... بالضبط. أودّ أن تراه سيينّا إن لم يكن... لديك مانع".

نظرت مارتا إلى الأعلى، إلى شرفة الطابق الثاني، وهزّت كتفيها قائلة: "ما من مشكلة. أنا ذاهبة الآن إلى هناك".

راح قلب لانغدون ينبض وهو ينظر إلى شرفة الطابق الثاني الواقعة في الجزء الخلفي من القاعة. *هل كنت هناك البارحة؟* لم يتذكّر شيئاً. كان يعرف أنّ الشرفة، بالإضافة إلى كونها تقع على الارتفاع نفسه لعبارة *cerca trova*، فهي تشكّل أيضاً مدخلاً إلى متحف القصر الذي كان لانغدون يزوره كلّما أتى.

كانت مارتا على وشك أن تقودهما عبر القاعة عندما توقّفت، وكأنّها تعيد النظر في الأمر. "بروفيسور، هل أنت واثق أنّنا لا يمكن أن نجد شيئاً أقلّ كآبة لنريه لأختك الجميلة؟".

لم يعرف لانغدون بماذا يجيب.

سألتها سيينّا: "هل سنرى شيئاً مثيراً للكآبة؟ ما هو؟ لم يخبرني".

ابتسمت مارتا بخجل ونظرت إلى لانغدون. "بروفيسور، هل تريدني أن أخبر أختك عنه، أم تفضّل إخبارها بنفسك؟".

كاد لانغدون أن يرقص طرباً أمام هذه الفرصة. "بالتأكيد، مارتا، فلتخبريها كلّ شيء عنه".

التفتت مارتا إلى سيينّا، وبدأت تتحدّث ببطء شديد. "لا أعرف ما قاله لك أخوك، لكنّنا ذاهبون إلى المتحف لرؤية قناع غير مألوف إطلاقاً".

اتّسعت عينا سيينّا قليلاً. "أيّ نوع من الأقنعة؟ أهو من تلك الأقنعة البشعة التي يرتدونها في الكارنافالي؟".

أجابت مارتا: "كلاّ، ليس قناع طاعون. بل إنه قناع مختلف تماماً، يسمّى قناع الموت".

شهق لانغدون بصوت مسموع، فالتفتت إليه مارتا عابسة، اعتقاداً منها على الأرجح أنّه يبالغ في ردّ فعله في محاولة منه لإخافة أخته.

قالت: "لا تصغي لأخيك. فأقنعة الموت كانت شائعة جدًّا في القرن السادس عشر. إنّها مجرّد قالب من الجصّ لوجه المرء يؤخذ بعد بضع دقائق من وفاته".

قناع الموت. شعر لانغدون أنّها لحظة الوضوح الأولى منذ استيقاظه في فلورنسا. *جحيم دانتي... cerca trova... النظر عبر عيون الموت. القناع!*

سألت سيينّا: "ولوجه من يعود القناع؟".

وضع لانغدون يده على كتف سيينّا وأجاب بهدوء قدر الإمكان: "لشاعر إيطالي شهير يدعى دانتي أليغييري".

الفصل 38

أشرقت شمس البحر الأبيض المتوسّط على سطح *الميناسيوم* الذي راح يتأرجح فوق أمواج البحر الأدرياتيكي. شعر العميد أنّه مستنزف وهو يُفرغ كأس الشراب الثانية في جوفه، ويحدّق بشرود من نافذة مكتبه.

لم تكن الأخبار الواردة من فلورنسا جيّدة.

كان يشعر أنّه مشوّش وعاجز على نحو غريب... كما لو أنّ سفينته قد فقدت محرّكاتها وانجرفت مع التيّار على غير هدى.

كان هذا الإحساس غريباً على العميد. ففي عالمه، كان يعتمد دائماً على بوصلة موثوقة - *البروتوكول* - ولم يسبق له معها أن ضلّ الطريق. لقد مكّنه البروتوكول من اتّخاذ قرارات صعبة من دون النظر إلى الوراء.

البروتوكول هو الذي فرض التنصّل من فايينثا، وقد نفّذه العميد من دون تردّد. *سأتعامل معها فور انتهاء هذه الأزمة.*

والبروتوكول هو الذي فرض على العميد أن يعرف أقلّ قدر من المعلومات عن زبائنه. فقد قرّر منذ وقت طويل أنّ الكونسورتيوم ليس مسؤولاً عن محاكمتهم من الناحية الأخلاقية.

قدِّم الخدمة.

ثق بالعميل.

لا تطرح أسئلة.

على غرار مديري معظم الشركات، كان العميد يقدّم ببساطة خدماته على افتراض أنّها ستُنفَّذ في إطار القانون. ففي النهاية، لا تُعتبر شركة فولفو مسؤولة عن الأمّهات اللواتي يسرعن في الأماكن المخصّصة للتلامذة، ولا تُعتبر شركة ديل مذنبة إن قام أحدهم باستخدام حواسبها الإلكترونية لاختراق حساب مصرفي.

الآن، مع كلّ هذه الحوادث المتتالية، أخذ العميد يصبّ جام غضبه على الشخص الموثوق الذي اقترح على الكونسورتيوم التعامل مع هذا الزبون.

في ذلك الحين، أكّد له قائلاً: "سيكون المجهود قليلاً والمكسب سهلاً. فالرجل بالغ الذكاء، وهو نجم في مجاله، وفاحش الثراء. كلّ ما يحتاج إليه هو الاختفاء لعام أو اثنين. يريد شراء بعض الوقت بعيداً عن الأعين للعمل على مشروع هامّ".

وافق العميد من دون أن يفكّر كثيراً. فتأمين مخابئ لفترات طويلة كان دائماً مصدراً لمكاسب سهلة، والعميد يثق بحدس ذلك الشخص.

كانت المهمّة سهلة ومربحة جدًّا مثلما كان متوقّعاً.

لكن، تغيّر كلّ شيء في الأسبوع الماضي.

الآن، في أعقاب الفوضى التي سبّبها هذا الرجل، وجد العميد نفسه يروح ويجيء أمام زجاجة الشراب، ويعدّ الأيّام حتّى تنتهي مسؤولياته تجاه هذا العميل.

رنّ الهاتف على المكتب، وعرف العميد أنّ نولتون، أحد أبرز المنسّقين، يتّصل به من الطابق السفلي.

أجاب: "نعم".

قال نولتون بصوت مشوب بالتوتّر: "سيّدي، لم أشأ إزعاجك بذلك، لكن كما تعلم، يتوجّب علينا تحميل شريط فيديو إلى وسائل الإعلام غداً".

أجاب العميد: "نعم. أهو جاهز؟".

"نعم، لكن أظنّ أنّك قد ترغب في رؤيته قبل التحميل".

صمت العميد بحيرة. "هل الفيديو يذكرنا بالاسم أو يضرّ بنا بشكل من الأشكال؟".

"كلاّ سيّدي، لكنّ المضمون مقلق للغاية. فالعميل يظهر على الشاشة ويقول –".

قاطعه العميد وقد فوجئ بأن يتجرّأ أحد موظّفيه على اقتراح هذا الانتهاك الصارخ للبروتوكول: "توقَّفْ هنا. *المحتوى* لا يهمّ. مهما يكن، فسيحمَّل هذا الفيديو بنا أو من دوننا. كان باستطاعة الزبون بكلّ بساطة إصداره إلكترونياً، إلاّ أنّه استأجر خدماتنا من أجل ذلك. لقد دفع *لنا*، ووثق *بنا*".

"نعم، سيّدي".

ووبّخه العميد مضيفاً: "أنت لم تعيّن هنا كناقد سينمائي، بل لتفي بالوعود. قم بعملك".

على جسر فيكيو، انتظرت فايينثا وهي تتفحّص بنظرها الحادّ مئات الوجوه المارّة على الجسر. كانت يقظة جدًّا، وواثقة أنّ لانغدون لم يمرّ بعد، غير أنّ طائرة المراقبة صمتت، ولم تعد ضرورية كما يبدو.

لا بدّ أنّ برودر قد قبض عليه.

بدأت تتخيّل على مضض التحقيق الذي ستخضع له في الكونسورتيوم، *لا بل أسوأ من ذلك.*

تذكّرت فايينثا مجدّداً العميلين اللذين تمّ التنصّل منهما... ولم يُعرف عنهما شيء بعد ذلك. أكّدت لنفسها، *لقد انتقلا ببساطة إلى وظيفة أخرى.* مع ذلك، أخذت تتساءل إن كان يجدر بها الاختفاء في تلال توسكانا واستخدام مهاراتها لبدء حياة جديدة.

لكن، إلى متى سأختبئ منهم؟

أدرك عدد لا يحصى من الأهداف أنّه عندما يضع الكونسورتيوم عينه على شخص ما، تصبح الخصوصية وهماً. إنّها مسألة وقت وحسب.

هل ستنتهي حياتي المهنية على هذا النحو؟ ما زالت عاجزة عن التصديق أنّ خدمتها لمدّة اثني عشر عاماً في الكونسورتيوم ستنتهي بسبب سلسلة من المصادفات السيّئة. لقد أشرفت لمدّة عام كامل على تلبية احتياجات زبون الكونسورتيوم ذي العينين الخضراوين. *لست المذنبة إن قرّر الانتحار... لكن يبدو أنّني أسقط معه.*

كانت فرصتها الوحيدة لنيل العفو تكمن بمنافسة برودر... لكنّها أدركت منذ البداية أنّ الأمر بعيد الاحتمال.

حصلت على فرصتي في الليلة الماضية، وفشلت.

استدارت فايينثا على مضض نحو درّاجتها النارية، غير أنّها سمعت فجأة صوتاً بعيداً... هديراً عالياً مألوفاً.

نظرت إلى الأعلى باضطراب، وفوجئت بطائرة المراقبة تحوم مجدّداً في الجوّ، هذه المرّة قرب الطرف الأقصى لقصر بيتّي. شاهدت فايينثا الطائرة وهي تقوم بدورات يائسة حول القصر.

إنّ إعادة الطائرة إلى الجوّ لا تعني سوى شيء واحد.

ما زالوا يبحثون عن لانغدون!

لكن، أين هو؟

أخرج هدير الطائرة الحادّ د. إليزابيث سينسكي من هذيانها مجدّداً. *عادت طائرة المراقبة إلى الأجواء؟ لكن، ظننت...*

تحرّكت على مقعدها الخلفي في الفان، وكان العميل الشابّ نفسه ما زال جالساً قربها. أغمضت عينيها من جديد مكافحة الألم والغثيان. غير أنّها كافحت الخوف بضراوة أكبر.

الوقت ينفد.

مع أنّ عدوّها انتحر، إلاّ أنّها ما زالت تراه في منامها وهو يلقي عليها محاضرات في ظلام مجلس العلاقات الخارجية.

ومضت عيناه الخضراوان وهو يعلن قائلاً: *لا بدّ لأحد أن يتّخذ تدبيراً جريئاً. إن لم يكن نحن، فمن سيقوم بذلك؟ وإن لم يكن الآن، فمتى؟*

أدركت إليزابيث أنّه كان يجدر بها إيقافه في ذلك الوقت؛ عندما أتيحت لها الفرصة. لن تنسى أبداً كيف خرجت من ذلك الاجتماع مسرعة، واستقلّت سيّارة الليموزين وهي ترغي وتزبد

في طريقها إلى مطار جون كينيدي الدولي عبر مانهاتن. كانت متلهّفة لمعرفة من يكون هذا المجنون، فأخرجت هاتفها الخلوي لتتفحّص الصورة المفاجئة التي التقطتها له.

عندما رأت الصورة، شهقت بصوت عالٍ. كانت د. إليزابيث سينسكي تعرف تماماً من يكون هذا الرجل. الجيد في الأمر أنّ تعقّبه سيكون سهلاً جدًّا. لكنّ المشكلة هي أنّه عبقري في مجاله، وشخص بالغ الخطورة إن قرّر أن يكون كذلك.

ما من شيء أكثر إبداعاً... أو تدميراً... من عقل لامع لديه هدف.

عند وصولها إلى المطار بعد ثلاثين دقيقة، كانت قد اتصلت بفريقها ووضعت اسم الرجل على لائحة المراقبة ضدّ الإرهاب البيولوجي في كلّ وكالة ذات صلة في العالم؛ وكالة المخابرات المركزية، ومركز مكافحة الأمراض، والمركز الأوروبي للوقاية من الأمراض ومكافحتها، والمنظّمات الشقيقة كافة في جميع أنحاء العالم.

هذا كلّ ما يمكنني القيام به إلى أن أصل إلى جنيف.

حملت حقيبتها منهكة، وأعطت الموظّفة جواز السفر والتذكرة.

قالت الموظّفة مبتسمة: "آه، د. سينسكي، ترك لك رجل لطيف رسالة للتوّ".

"المعذرة؟". كانت إليزابيث تعرف أنّه ما من أحد يستطيع الوصول إلى المعلومات المتعلّقة بسفرها.

"إنّه طويل جدًّا وعيناه خضراوان".

أسقطت إليزابيث حقيبتها. *هو هنا! كيف؟!* التفتت متفحّصة الوجوه حولها.

قالت الموظّفة: "لقد رحل، لكنّه أراد إعطاءك هذه". وأعطت إليزابيث قطعة مطوية من الورق.

فتحت إليزابيث الورقة بيدين مرتجفتين وقرأت الملاحظة المكتوبة بخطّ اليد.

كانت أبياتاً مشهورة مقتطفة من قصيدة دانتي أليغييري.

أحلك الأماكن في الجحيم
هي لأولئك
الذين يحافظون على حيادهم
في الأزمات الأخلاقية.

الفصل 39

حدّقت مارتا ألفاريز متعبة إلى الدّرج الحادّ الذي يمتدّ من قاعة الخمسمائة إلى المتحف في الطابق الثاني.

فكرت في سرّها، *بوسّو فارتشيلا. يمكنني ذلك.*

كانت مارتا، بصفتها مديرة الفنون والثقافة في قصر فيكيو، قد صعدت هذا الدرج مرّات عديدة. لكن، بما أنّها قد تجاوزت الشهر الثامن من حملها، أصبحت تجد الصعود أكثر صعوبة.

"مارتا، هل أنت واثقة أنّك لا ترغبين في استخدام المصعد؟". بدا روبرت لانغدون قلقاً، وأشار إلى المصعد الصغير المجاور الذي أضيف إلى القصر ليستخدمه الزوّار ذوو الاحتياجات الخاصة.

ابتسمت مارتا شاكرة لكنّها هزّت رأسها نافية. "كما أخبرتك البارحة، قال طبيبي إنّ الرياضة مفيدة للطفل. كما أنّني أعرف أنّك تعاني من رهاب الأماكن المغلقة".

أُجفل لانغدون لدى سماعه تعليقها. "آه، صحيح. نسيت أنّني ذكرت ذلك".

استغربت مارتا. *أنسي أنّه ذكر ذلك؟ لم تمضِ اثنتا عشرة ساعة بعد، كما أنّنا تحدّثنا مطوّلاً عن الحادثة التي سبّبت هذا الرهاب.*

في الليلة الماضية، وبينما استقلّ مرافق لانغدون البدين *إيل دوومينو* المصعد، رافق لانغدون مارتا على الدّرج. في الطريق، أخبرها بالتفصيل عن سقوطه وهو صبيّ صغير في بئر مهجورة؛ الأمر الذي سبّب له خوفاً من الأماكن الضيّقة.

الآن، وبينما سبقتهما شقيقة لانغدون الأصغر سنًّا، وشعرها يتمايل خلفها، ارتقى لانغدون ومارتا الدرج ببطء، وتوقّفا عدّة مرّات لكي تتمكّن من التقاط أنفاسها. قالت: "تفاجئني رغبتك في رؤية القناع مجدّداً. فمن بين كلّ القطع المتواجدة في فلورنسا، تُعتبر هذه القطعة الأقلّ إثارة للاهتمام".

هزّ لانغدون كتفيه من دون اكتراث. "عدت أساساً لكي تراه سيينّا. بالمناسبة، شكراً لك على السماح لنا بالدخول مجدّداً".

"لا شكر على واجب".

كانت سمعة لانغدون كافية لإقناع مارتا بفتح الصالة من أجله في الليلة الماضية، لكنّ مرافقة *إيل دوومينو* له كانت تعني أنّها لا تملك الخيار.

إغناتسيو بوزوني، المعروف بلقب *إيل دوومينو*، شخصية مشهورة في عالم فلورنسا الثقافي. كان إغناتسيو مدير متحف موزيو ديل أوبرا ديل دوومو منذ مدّة طويلة، ويشرف على مختلف نواحي الموقع التاريخي الأبرز في فلورنسا، إيل دوومو، وهو اسم الكاتدرائية الضخمة بقبّتها الحمراء التي تهيمن على تاريخ فلورنسا وسمائها. أدّى شغفه بهذا المعلم التاريخي، بالإضافة إلى وزنه الذي يقارب أربعمائة باوند، والاحمرار الطاغي على وجهه، إلى اكتسابه لقب *إيل دوومينو*، أي "القبّة الصغيرة".

لا تدري مارتا كيف تعرّف لانغدون على *إيل دوومينو*، لكنّ هذا الأخير اتصل بها في الليلة الماضية وقال إنّه يريد اصطحاب ضيف في زيارة خاصّة لرؤية قناع الموت لدانتي. وعندما تبيّن أنّ الضيف الغامض هو عالم الرموز الأميركي الشهير ومؤرّخ الفنون روبرت لانغدون، شعرت مارتا بالحماسة لاستقبال الرجلين الشهيرين في صالة القصر.

عندما وصلا الآن إلى أعلى الدّرج، وضعت مارتا يديها على وركيها وتنفّست بعمق. كانت سيينّا قد وصلت إلى الشرفة، ووقفت تُطلّ من هناك على قاعة الخمسمائة.

قالت مارتا وهي تلهث: "هذا مكاني المفضّل لرؤية القاعة. من هنا، تحصلين على منظور مختلف تماماً للوحات الجدارية. أظنّ أنّ شقيقك أخبرك عن الرسالة الغامضة في تلك اللوحة هناك؟". وأشارت بيدها نحو اللوحة.

هزّت سيينّا رأسها بحماسة قائلة: "*cerca trova*".

بينما التفت لانغدون يتأمّل القاعة، راحت مارتا تراقبه. تحت الضوء الصادر من نوافذ القاعة، لم يكن من الممكن ألاّ تلاحظ أنّ لانغدون لا يبدو جذّاباً كما كان في الليلة الماضية. أعجبتها بذلته الجديدة، لكنّه كان بحاجة إلى حلاقة، كما بدا وجهه شاحباً ومتعباً. حتّى إنّ شعره الذي كان كثيفاً ومرتّباً في الليلة الماضية، بدا مشعّثاً هذا الصباح، وكأنّه لم يستحم بعد.

التفتت مارتا إلى الجدارية قبل أن تثير انتباهه. قالت: "نحن نقف تقريباً عند مستوى *cerca trova* بالضبط. يمكنكما تقريباً رؤية الكلمات بالعين المجرّدة".

لم يبدُ على شقيقة لانغدون أنّها مهتمّة بالجدارية، إذ قالت: "أخبريني عن قناع الموت لدانتي. لماذا هو موجود في قصر فيكيو؟".

الأخت تشبه أخاها، هذا ما فكّرت فيه مارتا وهي تئنّ في سرّها؛ محتارة من سبب اهتمامهما بهذا القناع. إلاّ أنّ قناع دانتي لديه قصّة غريبة، لا سيّما مؤخّراً، ولانغدون ليس أوّل من يُظهر افتتاناً جنونياً به. "أخبريني، ماذا تعرفين عن دانتي؟".

هزّت الشابّة الشقراء الجميلة كتفيها مجيبة: "ما يتعلّمه الجميع في المدارس. دانتي شاعر إيطالي اشتُهر بكتابة *الكوميديا الإلهية* التي تصف رحلة تخيّلها عبر الجحيم".

أجابت مارتا: "هذا صحيح إلى حدّ ما. في القصيدة، ينجو دانتي من الجحيم ويتابع رحلته عبر المطهر؛ إلى أن يصل أخيراً إلى الجنّة. إن قرأتِ *الكوميديا الإلهية*، فستكتشفين أنّ رحلته مقسّمة إلى ثلاثة أجزاء: *إنفيرنو، بورغاتوريو، وباراديزو*". *الجحيم، المطهر، والجنة*. أشارت إليهما

مارتا ليتبعاها على الشرفة باتّجاه مدخل المتحف. "لكنّ سبب وجود هذا القناع في قصر فيكيو لا علاقة له *بالكوميديا الإلهية*، بل بالتاريخ. فقد عاش دانتي في فلورنسا، وأحبّها بقدر ما يمكن لإنسان أن يحبّ مدينة. كان فلورنسياً بارزاً وواسع النفوذ، لكنّ تغييراً طرأ على السلطة السياسية، وأيّد دانتي الطرف الخطأ. وهكذا تمّ نفيه، فطُرد خارج أسوار المدينة ومُنع من العودة إليها".

توقّفت مارتا لالتقاط أنفاسها مع اقترابهم من مدخل المتحف. وضعت يديها مجدّداً على وركيها وقوّست ظهرها إلى الخلف وهي تتابع حديثها. "يدّعي بعض الناس أنّ نفي دانتي هو السبب الذي يجعل قناع موته يبدو حزيناً إلى هذا الحدّ، لكن لديّ نظرية أخرى. فأنا رومنسية بعض الشيء، وأعتقد أنّ وجهه الحزين سببه امرأة تدعى بياتريتشي. فقد أمضى دانتي حياته بأكملها مغرماً بشابّة تدعى بياتريتشي بورتيناري. لكن مع الأسف، كانت الشابة متزوّجة من رجل آخر؛ ما يعني أنّ دانتي لم يكن مجبراً على العيش بعيداً عن مدينته الحبيبة فحسب، بل وعن المرأة التي أحبّها بعمق أيضاً. وشكّل حبّه لبياتريتشي موضوعاً مركزياً في *الكوميديا الإلهية*".

قالت سيينّا بنبرة توحي أنّها لم تسمع كلمة واحدة: "هذا مثير للاهتمام. لكنّني لم أفهم حتّى الآن لماذا يتمّ الاحتفاظ بهذا القناع هنا في القصر؟".

وجدت مارتا إلحاح الشابّة غريباً ويفتقد بعض الشيء إلى التهذيب. فاستأنفت سيرها وتابعت تقول: "في الواقع، عندما توفّي دانتي كان لا يزال منفياً، ودُفنت جثّته في رافينّا. لكن، بما أنّ حبّه الحقيقي، بياتريتشي، دُفنت في فلورنسا، وبما أنّ دانتي أحبّ فلورنسا كثيراً، فإنّ إحضار قناع موته إلى هنا بدا نوعاً من التكريم الصادق لذلك الرجل".

قالت سيينّا: "فهمت. ولماذا وُضع في هذا المبنى بالتحديد؟".

"قصر فيكيو هو أقدم رمز لفلورنسا، وفي عهد دانتي كان يشكّل قلب المدينة. في الواقع، ثمّة لوحة شهيرة في الكاتدرائية تُصوّر دانتي وهو يقف خارج أسوار المدينة منفياً، في حين يظهر في خلفية المشهد برج هذا القصر العزيز على قلبه. باحتفاظنا بهذا القناع هنا، نشعر من عدّة نواحٍ أنّ دانتي سُمح له أخيراً بالعودة إلى الوطن".

قالت سيينّا التي بدت أخيراً راضية بالجواب: "كم هذا لطيف. شكراً لك".

وصلت مارتا إلى باب المتحف وطرقت ثلاث مرّات. *"سونو ايو، مارتا! بونجورنو!"*.

سُمعت خشخشة مفاتيح، ثمّ فُتح الباب. ابتسم لها رجل مسنّ بتعب ونظر إلى ساعته، ثم قال لها بالإيطالية مبتسماً: *"الوقت مبكر بعض الشيء"*.

أوضحت مارتا سبب مجيئها بإيماءة نحو لانغدون، فشعّ وجه الرجل على الفور. *"سينيوري! بينتورناتو!". أهلاً بعودتك!*

أجاب لانغدون بنبرة ودّية: "*غراتسيي*"، وأومأ لهم الحارس بالدخول.

دخلوا بهواً صغيراً، ثمّ قام الحارس بتعطيل جهاز الإنذار قبل أن يفتح باباً آخر أثقل وزناً. عندما فُتح الباب، دخل، ثمّ أشار لهم للدخول بحركة بذراعه. *"إيكو ايل موزيو!". تفضّلوا إلى المتحف!*

ابتسمت مارتا شاكرة، وقادت ضيفيها إلى الداخل.

يحتلّ المتحف مكاناً صُمّم في الأساس كمكاتب حكومية. لهذا السبب، عوضاً عن كون المتحف صالة واسعة ومفتوحة، كان عبارة عن متاهة من الغرف متوسّطة الحجم والأروقة التي تحيط بنصف المبنى.

قالت لسيينّا: "قناع دانتي موجود عند الزاوية. إنّه معروض في غرفة ضيّقة تدعى *لانديتو*، هي في الأساس مجرّد ممرّ بين غرفتين أكبر حجماً. وقد حُفظ في خزانة أثرية معلّقة على الجدار، الأمر الذي يبقيه بعيداً عن الأنظار إلى أن تقتربي منه. لهذا السبب، الكثير من الزوّار يمرّون من أمامه من دون ملاحظته!".

بدأ لانغدون يسير بخطىً أسرع الآن، مثبّتاً نظره إلى الأمام، وكأنّ القناع يمارس عليه قوّة غريبة. وكزت مارتا سيينّا وهمست قائلة: "من الواضح أنّ أخاك غير مهتمّ بأيّ من تحفنا الأخرى. لكن، بما أنّك هنا، لا يجب أن تفوّتي رؤية مجموعتنا الخاصّة بماكيافيلّي أو *مابّا موندي* (خارطة العالم) في قاعة الخرائط".

هزّت سيينّا رأسها بأدب، وواصلت التقدّم إلى الأمام هي أيضاً. بالكاد كانت مارتا قادرة على مواكبتهما. عندما وصلوا إلى الغرفة الثالثة، أصبحت متأخّرة عنهما قليلاً، فتوقّفت في النهاية.

نادت وهي تلهث: "بروفيسور، ربّما... تودّ أن تري أختك... شيئاً من القاعة... قبل أن نرى القناع؟".

التفت لانغدون الذي بدا وكأنّه يعود إلى الواقع من مكان بعيد. "المعذرة؟".

أشارت مارتا وهي تلهث إلى خزانة عرض مجاورة. "هذه واحدة من أولى... النسخ المطبوعة *للكوميديا الإلهية*".

عندما رأى لانغدون مارتا وهي تمسح العرق عن جبينها وتحاول التقاط أنفاسها، شعر بعذاب الضمير. "مارتا، سامحيني! بالطبع، سيكون إلقاء نظرة خاطفة على النصّ أمراً رائعاً".

أسرع لانغدون عائداً، وترك مارتا تقودهما إلى خزانة العرض الأثرية. كان في داخلها كتاب مجلّد بغلاف جلدي بالٍ، ومفتوح على صفحة عنوان مزخرفة: *لا ديفينا كوميديا: دانتي أليغييري*.

قال لانغدون، وقد بدت عليه الدهشة: "لا أصدّق، أنا أعرف هذه الصفحة الأمامية. لكنّني لم أكن أدري أنّكم تملكون إحدى نسخ نومايشتر الأصلية".

فكّرت مارتا حائرة: *بالطبع تدري. لقد أريتك إيّاها في الليلة الماضية!*

قال لانغدون بسرعة لسيينّا: "في أواسط القرن الخامس عشر، أصدر جوهان نومايشتر أوّل نسخة مطبوعة من هذا العمل. تمّت طباعة عدّة مئات من النسخ، لكن لم يبقَ منها سوى اثنتي عشرة نسخة تقريباً. وهي نادرة جدًّا".

بدا لمارتا الآن أنّ لانغدون كان يؤدّي دوراً ليتباهى أمام شقيقته الصغرى. ورأت في ذلك قلّة لياقة من جانب بروفيسور مشهور بتواضعه الأكاديمي.

عرضت مارتا قائلة: "هذه النسخة موجودة هنا على سبيل الإعارة من مكتبة لورنس. إن لم تقوما بزيارتها بعد، فعليكما القيام بذلك. يوجد هناك درج رائع من تصميم مايكل أنجلو، يؤدّي إلى أوّل قاعة قراءة عامة في العالم. كانت الكتب تُقيَّد هناك بالمقاعد لكي لا يسرقها أحد. وبالطبع، الكثير من تلك الكتب نسخ فريدة في العالم".

قالت سييئا وهي تنظر إلى أرجاء المتحف: "رائع. هل القناع من هذا الطريق؟".

لِمَ العجلة؟ كانت مارتا بحاجة إلى دقيقة أخرى لاستعادة أنفاسها. "أجل، لكن ربّما يهمّك أن تري هذا". وأشارت إلى كوّة باتّجاه درجٍ صغير يختفي في السقف. "يؤدّي هذا الدرج إلى منصّة مشاهدة في العوارض الخشبية، يمكن الإطلال منها على سقف فاساري الشهير المعلّق. يسرّني الانتظار هنا إن كنتما ترغبان في –".

قاطعتها سييئا قائلة: "رجاء مارتا. أودّ رؤية القناع؛ فوقتنا ضيّق بعض الشيء".

حدّقت مارتا إلى الشابّة الجميلة حائرة. لم تعجبها إطلاقاً طريقة الغرباء في مناداة الآخرين بأسمائهم الأولى. فكّرت في سرّها: *أنا سينيورا ألفاريز، وأنا أقدّم لك خدمة.*

قالت مارتا باقتضاب: "حسناً سييئا، القناع من هنا".

لم تضع مارتا مزيداً من الوقت في إعطاء معلومات للانغدون وشقيقته اللذين شقّا طريقهما عبر غرف القاعة باتّجاه القناع. في الليلة الماضية، أمضى لانغدون و*إيل دوومينو* نصف ساعة تقريباً في الحجرة الضيّقة وهما يتأمّلان القناع. استغربت مارتا حينذاك من فضول الرجلين إزاء القطعة، وسألتهما عمّا إذا كان اهتمامهما بها يتعلّق بسلسلة الأحداث غير الاعتيادية التي أحاطت بالقناع خلال العام الفائت. لكنّ لانغدون و*إيل دوومينو* تكتّما، ولم يقدّما لها جواباً يذكر.

أثناء اقترابهم من الحجرة، بدأ لانغدون يشرح لأخته العمليّة البسيطة المستخدمة لصنع قناع الموت. سُرّت مارتا لدى سماعها وصفه الدقيق الذي لم يكن يشبه ادّعاءه الكاذب أنّه لم يسبق له أن رأى نسخة المتحف النادرة من *الكوميديا الإلهية*.

شرح لانغدون قائلاً: "بعد وقت قصير من الوفاة، يمدّد الميت، ويُدهن وجهه بزيت الزيتون. بعد ذلك توضع طبقة من الجصّ الرطب على البشرة، وتغطّي كلّ شيء؛ الفم، والأنف، والجفنين، من خطّ الشعر حتّى العنق. ما إن يتصلّب الجصّ حتّى يُرفع بسهولة ويُستخدم كقالب يُصبّ فيه الجصّ مجدّداً. وهكذا، يتحوّل هذا الجصّ إلى نسخة مفصّلة تماماً عن وجه الميت. كانت هذه الممارسة شائعة الاستخدام لتخليد ذكرى شخصيات بارزة وعباقرة من أمثال دانتي، وشيكسبير، وفولتير، وتاسّو، وكيتس، وجميعهم حصلوا على أقنعة موت".

أعلنت مارتا عند وصولهم إلى *الأنديتو*: "ها قد وصلنا أخيراً". وقفت جانباً، وأشارت لشقيقة لانغدون بالدخول أوّلاً. "القناع موجود في خزانة العرض المعلّقة على الجدار إلى يسارك. أرجو منك البقاء خارج الدعامات".

شكرتها سييئا ودخلت الرواق الضيّق، ثمّ مشت باتّجاه خزانة العرض، وحدّقت إلى الداخل. اتّسعت عيناها على الفور، ونظرت إلى أخيها بتعبير طغى عليه الرعب.

كانت مارتا قد رأت ردّ الفعل هذا آلاف المرّات، وذلك لأنّ الزوّار غالباً ما يُجفلون وينفرون من القناع للوهلة الأولى؛ حين يرون وجه دانتي المجعّد، وأنفه المعقوف، وعينيه المغمضتين.

مشى لانغدون وراء سيينّا، ووقف بجانبها ثمّ نظر إلى خزانة العرض. وعلى الفور، تراجع وبدت على وجهه تعابير الدهشة.

أنّت مارتا وقالت لنفسها: كم *يبالغ*. تبعتهما إلى الداخل. لكن، عندما حدّقت إلى الخزانة، شهقت هي أيضاً بصوت عالٍ. *أوه ميو ديو! يا إلهي!*

توقّعت مارتا ألفاريز رؤية وجه دانتي الميت المألوف أمامها، لكنّها لم ترَ عوضاً عن ذلك سوى قلب الخزانة المبطّن بالساتان الأحمر والمسمار الذي يعلّق عليه القناع عادة.

وضعت مارتا يدها على فمها وحدّقت برعب إلى الخزانة الفارغة. تسارعت أنفاسها وأمسكت بإحدى الدعامات لتستند إليها. أخيراً، أبعدت نظرها بصعوبة عن الخزانة الفارغة واستدارت نحو الحارسين الليليين الواقفين عند المدخل الرئيس.

صاحت كالمجنونة: "*لا ماسكيرا دي دانتي! لا ماسكيرا دي دانتي إي سباريتا!*".

الفصل 40

أخذت مارتا ألفاريز ترتجف أمام خزانة العرض الفارغة. أملت أن تكون التقلّصات التي تشعر بها في بطنها ناتجة عن الذعر وليس عن آلام المخاض.

لقد اختفى قناع دانتي!

كان الحارسان الآن في حالة تأهّب قصوى بعد أن وصلا إلى *الأنديتو* ورأيا الخزانة الفارغة، فتحرّكا على الفور. اندفع أحدهما إلى غرفة المراقبة المجاورة لمشاهدة تسجيلات كاميرا المراقبة من الليلة الماضية، في حين أبلغ الآخر الشرطة عن عمليّة السرقة.

قال الحارس لمارتا وهو يُعيد السماعة إلى مكانها: "ستصل الشرطة خلال عشرين دقيقة!".

سألته: "بعد عشرين دقيقة! لدينا هنا عمليّة سرقة لتحفة فنّية كبرى".

شرح الحارس ما قيل له عن أنّ معظم رجال الشرطة في المدينة منشغلون حاليًا بأزمة أكثر خطورة بكثير، وأنهم يحاولون إيجاد عنصر لإرساله.

صاحت: "ما الذي يمكن أن يكون أكثر خطورة؟!".

تبادل لانغدون وسيينّا نظرة قلقة، ولاحظت مارتا أنّ ضيفيها يعانيان من التوتّر الزائد. *ليس هذا مستغرباً*. فبعدما توقّفا بكلّ بساطة لإلقاء نظرة على القناع، ها هما يشهدان اختفاءه إثر عملية سرقة فنية كبيرة. بطريقة ما، دخل أحدهم الصالة في الليلة الماضية، وسرق قناع دانتي.

كانت مارتا تعرف أنّه ثمّة قطع أكثر قيمة بكثير في المتحف كان يمكن أن تُسرق، لذلك حاولت أن تشكر الله على ذلك. لكن، هذه هي المرّة الأولى التي يشهد فيها تاريخ المتحف عمليّة سرقة. *حتّى إنّني لا أعرف البروتوكول المتّبع في هذه الحالة!*

شعرت مارتا بالضعف فجأة، ومدّت يدها للاستناد إلى إحدى الدعامات.

بدا حارسا الصالة مربكَين وهما يرويان لمارتا أحداث الليلة الماضية وما فعلاه بالضبط: عند حوالى الساعة العاشرة، دخلت مارتا مع *إيل دوومينو* ولانغدون. وبعد مدّة قصيرة، خرج الثلاثة معاً. فأعاد الحارسان إقفال الأبواب، وضبط جهاز الإنذار. وعلى حدّ علمهما، لم يدخل أحد أو يخرج من القاعة منذ تلك اللحظة.

صاحت مارتا بالإيطالية: "هذا مستحيل! لقد كان القناع في الخزانة عندما غادرنا في الليلة الماضية. لذلك، لا شكّ أنّ أحدهم قد دخل القاعة منذ ذلك الحين!".

رفع الحارسان أيديهما، وبدت عليهما علامات الحيرة. "لم نرَ أحداً".

الآن، وبانتظار وصول الشرطة، ذهبت مارتا بأسرع ما سمح لها به جسدها باتّجاه غرفة المراقبة. وسار لانغدون وسيينّا خلفها بتوتّر.

فكّرت مارتا: *ستُظهر لنا كاميرات المراقبة بالتحديد من دخل إلى هنا في الليلة الماضية!*

على مسافة من القصر، على جسر فيكيو، ابتعدت فايينثا إلى الظلّ مع وصول عنصرين من الشرطة أخذا يمشّطان المنطقة مزوّدَين بصور للانغدون.

مع اقتراب الضابطين من فايينثا، تصاعد صوت من جهازي اللاسلكي اللذين يحملانهما. كان عبارة عن نشرة روتينية لجميع رجال الشرطة. كان الإعلان موجزاً وباللغة الإيطالية، لكنّ فايينثا فهمت مغزاه: يجب على أيّ عنصر متوفّر في منطقة قصر فيكيو أن يتوجّه لأخذ إفادة في متحف القصر.

لم يعر الضابطان البيان الذي أثار اهتمام فايينثا أيّ اهتمام.

متحف قصر فيكيو!

لقد وقعت كارثة الليلة الماضية التي دمّرت حياتها المهنية في الأروقة خارج قصر فيكيو تماماً.

واصلت الشرطة نشرتها بلغة إيطالية غير مفهومة بالنسبة إليها في معظمها، باستثناء كلمتين برزتا بوضوح: دانتي أليغييري.

توتّر جسدها على الفور. *دانتي أليغييري؟!* بالتأكيد هذا ليس محض صدفة. التفتت باتّجاه قصر فيكيو ورأت برجه المطل فوق أسطح المباني المجاورة.

تساءلت: *ما الذي حدث بالضبط في المتحف؟ ومتى؟!*

بغض النظر عن التفاصيل، عملت فايينثا محلّلة ميدانية لمدّة طويلة، حيث أصبحت تعرف أنّ الصدفة أمر أقلّ شيوعاً بكثير ممّا يتصوّر أغلب الناس. *متحف قصر فيكيو... ودانتي؟* لا بدّ أنّ لهذا الأمر علاقة بلانغدون.

شكّت فايينثا دائماً أنّ لانغدون سيعود إلى المدينة القديمة؛ فهذا منطقي. المدينة القديمة هي المكان الذي تواجد فيه لانغدون ليل أمس عندما بدأ كلّ شيء يخرج عن السيطرة.

والآن، في ضوء النهار، تساءلت فايينثا عمّا إذا كان لانغدون قد عاد إلى المنطقة المحيطة بقصر فيكيو لإيجاد ما يبحث عنه. كانت واثقة أنّه لم يعبر هذا الجسر لدخول المدينة القديمة. وعلى الرغم من وجود الكثير من الجسور الأخرى، غير أنّها بدت بعيدة جدًّا ليذهب إليها سيراً على الأقدام من حدائق بوبولي.

تحت الجسر، رأت طاقماً من أربعة رجال يجذّفون ويمرّون من تحت الجسر. قرأت على القارب عبارة سوسييتا كانوتيري فيرنزي/نادي فلورنسا للتجذيف. راحت المجاذيف البيضاء والحمراء المميّزة تعلو وتنخفض بانسجام تامّ.

هل يمكن أن يكون لانغدون قد استقلّ القارب؟ يبدو هذا الاحتمال بعيداً، لكنّها شعرت أنّ عليها عدم تجاهل بلاغ الشرطة المتعلّق بقصر فيكيو.

قالت امرأة بلكنة إنكليزية: "الرجاء إطفاء كلّ الكاميرات!".

التفتت فايينثا ورأت كرة برتقالية زاهية تلوّح بها دليلة سياحية في محاولة لقيادة مجموعة من السيّاح عبر جسر فيكيو.

قالت المرأة بحماسة وهي ترفع كرتها في الهواء وتوجّه أنظار الجميع إلى الأعلى: "فوقكم تقع أكبر تحفة من تحف فاساري".

لم تلاحظ فايينثا الأمر من قبل، لكن يبدو أنّ هناك طابقاً ثانياً يمتدّ فوق المتاجر مثل شقّة ضيّقة.

قالت الدليلة: "رواق فاساري. يبلغ طوله تقريباً كيلومتراً واحداً، وكان يؤدّي دور ممرّ آمن لأسرة ميديتشي بين قصر بيتّي وقصر فيكيو".

ذُهلت فايينثا عندما أدركت وجود البناء الشبيه بالنفق الممتدّ فوقها. كانت قد سمعت عن هذا الرواق، لكنّها لم تعرف عنه الكثير.

إذاً، إنه يؤدّي إلى قصر فيكيو؟

تابعت الدليلة: "قلّة من الأشخاص الذين لديهم علاقات مع شخصيات هامّة يمكنهم دخول هذا الرواق اليوم. إنه صالة فنّية رائعة تمتدّ من قصر فيكيو إلى الزاوية الشمالية الشرقية لحدائق بوبولي".

مهما يكن ما قالته الدليلة بعد ذلك، فإنّ فايينثا لم تسمع منه شيئاً؛ إذ كانت قد انطلقت باتّجاه درّاجتها النارية.

الفصل 41

عادت القطب في رأس لانغدون تسبّب له الألم وهو يدخل مع سيينّا ومارتا والحارسين غرفة المراقبة. لم تكن الحجرة الصغيرة سوى غرفة ملابس سابقاً، تمّ تحويلها إلى غرفة مراقبة مع بنك من محرّكات الأقراص الصلبة وشاشات الكمبيوتر. كان الهواء في الداخل خانقاً وعابقاً برائحة السجائر.

شعر لانغدون على الفور أنّ الجدران تضيّق عليه الخناق.

جلست مارتا أمام الشاشة التي كانت أساساً تعرض مشاهد سابقة. ظهرت عليها صورة باهتة بالأسود والأبيض *للأنديتو*، مأخوذة من فوق الباب. أشار الزمن الظاهر على الشاشة إلى أنّ المشاهد ترجع إلى ما قبل ظهيرة يوم أمس؛ أي تحديداً قبل أربع وعشرين ساعة، قبل أن يفتح المتحف أبوابه، وقبل مدّة طويلة من وصول لانغدون في ذلك المساء مع *إيل دوومينو* الغامض.

سرّع الحارس الشريط، ورأى لانغدون مجموعة من السيّاح الذين راحوا يتدفّقون بسرعة داخل *الأنديتو*، ويتنقلون بحركة سريعة. لم يكن القناع مرئياً من تلك الزاوية، لكن من الواضح أنّه ما زال معروضاً في الخزانة، لأنّ السيّاح كانوا يتوقّفون تكراراً لرؤيته والتقاط الصور قبل متابعة جولتهم.

فكّر لانغدون، *أسرِع أرجوك*، وأدرك أنّ الشرطة في طريقها إليهم. تساءل عمّا إذا كان يتعيّن عليه الاستئذان والهرب برفقة سيينّا، لكنّه بحاجة إلى رؤية هذا الشريط. مهما يكن ما فيه، فإنّه سيجيب عن الكثير من الأسئلة حول ما يجري.

تواصل العرض بشكل أسرع، وبدأت ظلال ما بعد الظهيرة تظهر في الغرفة. دخل السيّاح وخرجوا إلى أن بدأت الحشود تتفرّق، ثمّ تختفي تماماً. مع مضي الوقت متجاوزاً الساعة الخامسة مساءً، انطفأت أضواء المتحف، وعمّ الهدوء.

يغلق المتحف أبوابه عند الساعة الخامسة.

أمرت مارتا قائلة: "ضاعِف السرعة"، وانحنت في كرسيّها وهي تحدّق إلى الشاشة.

سرّع الحارس العرض، وتقدّم الزمن بسرعة، إلى أن عاد المتحف ليشعّ بالأنوار حوالى الساعة العاشرة مساءً.

سارع الحارس إلى إبطاء التسجيل ليعيده إلى السرعة الطبيعية.

بعد دقيقة، ظهرت صورة مارتا ألفاريز الحامل. كان يتبعها عن قرب لانغدون الذي دخل مرتدياً سترة هاريست تويد كامبرلي المألوفة مع سروال كاكيّ، ومنتعلاً حذاءه الخاصّ. حتّى إنّ ساعة ميكي ماوس بدت من تحت كمّ قميصه وهو يمشي.

ها أنا ذا... قبل أن أتعرّض لإطلاق النار.

شعر لانغدون باضطراب عميق وهو يشاهد نفسه يفعل أشياء لا يذكرها إطلاقاً. *هل كنت هنا في الليلة الماضية... ورأيت قناع الموت؟* بطريقة ما، بين تلك اللحظة وهذه، فقَدَ ملابسه وساعة ميكي ماوس ويومين من حياته.

مع استمرار الشريط بعرض المشاهد، اقترب هو وسيينّا من مارتا والحارسين لإلقاء نظرة أفضل. تواصل العرض الصامت مظهراً لانغدون ومارتا وهما يقتربان من خزانة العرض ويتأمّلان القناع. في أثناء ذلك، ظهر ظلّ كبير على الباب خلفه، ثمّ تقدّم رجل بدين للغاية وظهر في الصورة. كان يرتدي سترة داكنة، ويحمل حقيبة، وبالكاد تمكّن من العبور عبر الباب. مقارنة بكرشه الضخمة، بدت مارتا الحامل نحيلة.

تعرّف لانغدون فوراً على الرجل. *إغناتسيو؟!*

همس لانغدون في أذن سيينّا: "هذا إغناتسيو بوزوني، مدير متحف أوبرا دوومو. أعرفه منذ عدّة سنوات، لكنّني لم أكن أعرف إطلاقاً أنّه ملقّب *بإيل دومينو*".

أجابت سيينّا بصوت منخفض: "اللقب يناسبه تماماً".

خلال السنوات الفائتة، استشار لانغدون إغناتسيو بشأن تحف فنّية ومعلومات تاريخية متعلّقة بإيل دوومو، أي البازيليك المسؤول عنها. لكنّ زيارة قصر فيكيو بدت خارج مجال إغناتسيو. مع ذلك، وبالإضافة إلى كون إغناتسيو بوزوني شخصية نافذة في عالم الفنّ في فلورنسا، فقد كان شديد الحماسة لدانتي وواحداً من تلامذته.

إنّه مصدر منطقي للمعلومات عن قناع الموت العائد لدانتي.

عندما أعاد لانغدون تركيزه إلى الفيديو، رأى أنّ مارتا تظهر في الفيلم وهي تنتظر بصبر أمام الجدار الخلفي *للأنديتو*، في حين اتّكأ لانغدون وإغناتسيو على الدعامات لتفحّص القناع من أقرب مسافة ممكنة. ومع مواصلة الرجلين تأمّلاتهما ونقاشهما، مرّت الدقائق، وبدت مارتا وهي تنظر إلى ساعتها سرًّا خلفهما.

تمنّى لانغدون لو أنّ تسجيل الكاميرات يتضمّن الصوت أيضاً. *عمّ كنّا نتحدّث؟ وعمّ كنّا نبحث؟!*

في تلك اللحظة، تجاوز لانغدون الدعامات، وانحنى أمام خزانة العرض مباشرة؛ حيث أصبح وجهه على بُعد بضعة إنشات فقط من الزجاج. عندها، تدخّلت مارتا على الفور، وأخذت توبّخه كما يبدو، في حين تراجع لانغدون وهو يعتذر.

قالت مارتا وهي تنظر إليه من فوق كتفها: "أعتذر لأنّني كنت صارمة جدًّا. لكن كما قلت لك في ذلك الوقت، إنّ خزانة العرض قطعة أثرية حسّاسة للغاية. وقد أصرّ مالك القناع على بقاء الناس خلف الدعامات. حتّى إنّنا لا نسمح لموظّفينا بفتح الخزانة إن لم يكن موجوداً".

استغرق لانغدون بعض الوقت حتّى استوعب كلامها. *مالك القناع؟* اعتقد لانغدون أنّ القناع ملك للمتحف.

ظهر أثر المفاجأة أيضاً على سيينّا التي قالت على الفور: "أليس *المتحف* هو مالك القناع؟".

هزّت مارتا رأسها نافية، وأعادت نظرها إلى الشاشة. "عرض أحد الأثرياء شراء قناع دانتي من مجموعتنا، وتركه معروضاً هنا دائماً. وبما أنّه عرض ثروة صغيرة لقاء ذلك، قبلنا بسرور".

قالت سيينّا: "لحظة واحدة، دفع ثمن القناع... وسمح لكم *بالاحتفاظ* به؟".

قال لانغدون: "هذا ترتيب شائع، يسمّى عمليّة شراء خيرية؛ أي طريقة يتبرّع بها الواهبون بمبالغ كبيرة للمتاحف من دون تسجيل المنحة على أنّها عمل خيري".

قالت مارتا: "كان الواهب رجلاً غير عادي؛ تلميذاً حقيقياً لدانتي، غير أنّه... إلى حدّ ما... *فاناتيكو*". *متعصّب؟*

سألتها سيينّا بنبرة عرضية: "ومن يكون؟".

عبست مارتا وهي تحدّق إلى الشاشة: "من؟ في الواقع، لا بدّ أنّك قرأتِ عنه مؤخّراً في الصحف؛ إنّه الملياردير السويسري بيرتراند زوبريست؟".

بالنسبة إلى لانغدون، كان الاسم مألوفاً على نحو بعيد، لكنّ سيينّا أمسكت بذراع لانغدون وشدّت عليها بقوّة، وبدت كما لو أنّها رأت شبحاً.

قالت بتردّد وقد شحب وجهها: "آه، أجل... بيرتراند زوبريست، الكيميائي الحيوي الشهير الذي جنى ثروة كبيرة من الاختراعات البيولوجية في سنّ مبكرة". صمتت هنيهة لابتلاع لعابها، ثمّ مالت باتّجاه لانغدون وهمست في أذنه: "زوبريست هو من اخترع مجال التلاعب بالسلالات الجرثومية".

لم يكن لانغدون يملك أدنى فكرة عن معنى ذلك، لكنّ العبارة تنذر بالشؤم، لا سيّما في ضوء موجة الصور المنطوية على الأوبئة والموت التي تلاحقه. تساءل عمّا إذا كانت سيينّا تعرف هذا القدر عن زوبريست لأنّها على اطّلاع واسع في مجال الطبّ... أو لأنّهما كانا طفلين معجزة. *هل يتابع العلماء أعمال بعضهم بعضاً؟*

شرحت سيينّا قائلة: "سمعت عن زوبريست للمرّة الأولى منذ بضع سنوات، عندما أعطى وسائل الإعلام تصريحات استفزازية للغاية حول النمو السكّاني". صمتت قليلاً، ثمّ أضافت بتجهّم: "زوبريست من دعاة معادلة الانهيار السكّاني".

"المعذرة؟".

"في الأساس، هذا اعتراف رياضي بأنّ عدد سكّان العالم يرتفع، والناس يعيشون لمدّة أطول، وثرواتنا الطبيعية تتضاءل. وتتوقّع المعادلة أنّ الوضع الحالي لن يؤدّي سوى إلى انهيار المجتمع على نحو مروّع. كان زوبريست قد توقّع علناً أنّ الجنس البشري لن يعيش قرناً آخر... ما لم يتعرّض لحدث ما يؤدي إلى موت جماعي". تنهّدت سيينّا بتعب، ونظرت إلى عيني لانغدون مضيفة. "في الواقع، نُقل عن زوبريست قوله في إحدى المرات إنّ أفضل ما حدث لأوروبا هو الموت الأسود".

حدّق إليها لانغدون مصدوماً، واقشعرّ جسده وهو يتذكّر مجدّداً صورة قناع الطاعون. كان يحاول منذ الصباح أن يقاوم فكرة أنّ مأزقه الحالي مرتبط بوباء قاتل... لكن مع الوقت، يصعب عليه رفض هذه الفكرة.

لا شكّ أنّه من المنفر أن يقوم بيرتراند زوبريست بوصف الطاعون الأسود بأنّه أفضل ما حدث لأوروبا. لكنّ لانغدون يعرف أنّ الكثير من المؤرّخين ذكروا المنافع الاجتماعية والاقتصادية طويلة الأمد للموت الجماعي الذي شهدته أوروبا في القرن الرابع عشر. فقبل الطاعون، كان الاكتظاظ السكّاني والمجاعة والأزمة الاقتصادية هي الصفات التي ميّزت عصر الظلمات. لكنّ الانتشار المفاجئ للطاعون - ومع أنّه كان مريعاً - كان فعّالاً في خفض أعداد السكّان، وإيجاد وفرة من الغذاء والفرص. واستناداً إلى الكثير من المؤرّخين، شكّل ذلك العاملَ الأوّلي لمجيء عصر النهضة.

عندما تذكّر لانغدون رمز الخطر البيولوجي على الأنبوب الذي احتوى على الخارطة المعدّلة لجحيم دانتي، سرت رعدة في جسده: إذ لا بدّ أنّ المسلاط الصغير صنعه *شخص ما*... وبيرتراند زوبريست، الكيميائي الحيوي والمتعصّب لدانتي، يبدو الآن مرشّحاً منطقياً.

خبير *التلاعب الجيني بالسلالات الجرثومية*. شعر لانغدون أنّ قطع الأحجية بدأت الآن تأخذ مكانها. لكنْ مع الأسف، بدت الصورة التي تتكوّن مخيفة على نحو متعاظم.

أمرت مارتا الحارس قائلة: "سرّع هذا الجزء"، وبدت متلهّفة لتجاوز القسم الذي يتفحّص فيه لانغدون وإغناتسيو بوزوني القناع لمعرفة من اقتحم المتحف وسرقه.

ضغط الحارس على زرّ تسريع الشريط.

ثلاث دقائق... ستّ دقائق... ثماني دقائق.

على الشاشة، بدت مارتا واقفة خلف الرجلين وهي تنقل ثقلها من رِجل إلى أخرى على نحو متسارع، وتتفحّص ساعتها تكراراً.

قال لانغدون: "أنا آسف لأنّنا تحدّثنا مطوّلاً. تبدين منزعجة".

أجابت مارتا: "هذا خطئي. فقد أصررتما عليّ للذهاب إلى البيت وترككما مع الحرّاس، لكنّني شعرت أنّ ذلك لن يكون لائقاً".

فجأة، اختفت مارتا عن الشاشة، فأبطأ الحارس الفيديو إلى السرعة الطبيعية.

قالت مارتا: "لا بأس. أذكر أنّني ذهبت إلى الحمّام".

هزّ الحارس رأسه ومدّ يده مجدّداً لتسريع الشريط، لكن قبل أن يفعل، أمسكت مارتا بذراعه. "توقّفْ!".

اشرأبّ عنقها وحدّقت إلى الشاشة بارتباك.

كان لانغدون قد رأى ذلك أيضاً. *ما الذي يجري حباً بالله؟!*

بدا لانغدون على الشاشة وهو يمدّ يده إلى جيب سترة التويد ويُخرج زوجاً من القفّازات الطبّية، ويرتديهما.

في الوقت نفسه، وقف *إيل دوومينو* خلفه، وراح يحدّق إلى الممرّ الذي خرجت منه مارتا منذ لحظات للذهاب إلى الحمّام. بعد قليل، أومأ الرجل البدين للانغدون وكأنّه يعني أنّ المكان آمن.

لكن، ماذا كنّا نفعل؟!

شاهد لانغدون نفسه على شريط الفيديو وهو يمدّ يديه المكسوّتين بالقفازين ويتحسّس طرف باب الخزانة... ثمّ يشدّه بلطف إلى أن تحرّك المفصل القديم وفُتح الباب ببطء... حيث لم يعد أيّ حاجز يفصل بينه وبين قناع دانتي.

صدرت عن مارتا ألفاريز شهقة رعب، قبل أن تضع يديها على وجهها.

لم يكن لانغدون يقلّ عنها رعباً وهو يشاهد نفسه يمدّ يديه إلى الخزانة، ويمسك بقناع دانتي ويخرجه.

صاحت مارتا: "*ديو مي سالفي!*". ثمّ نهضت على قدميها واستدارت لمواجهة لانغدون. "*كوزا فاتو؟ بيركي؟*". *ماذا فعلت؟ لماذا؟*

قبل أن يتمكّن لانغدون من الإجابة، أخرج أحد الحارسين بيريتا أسود وسدّده مباشرة إلى صدر لانغدون.

ربّاه!

حدّق لانغدون إلى مسدّس الحارس وشعر أنّ الحجرة تضيّق الخناق عليه. كانت مارتا ألفاريز واقفة أمامه الآن؛ تحدّق إليه بعدم تصديق وبتعبير من تعرّض للخيانة. وعلى الشاشة خلفها، ظهر لانغدون الآن وهو يحمل القناع أمام الضوء ويتأمّله.

أصرّ لانغدون، وهو يدعو لكي يكون ما يقوله صحيحاً: "أخرجته للحظة واحدة فقط، إغناتسيو أكّد لي أنّك لن تمانعي!".

لم تجبه مارتا. بدت مذهولة، وهي تحاول بوضوح أن تتخيّل السبب الذي دفع لانغدون ليكذب عليها... وكيف تمكّن من الوقوف قربهم بهدوء ومشاهدة الشريط وهو يعلم بما يحتويه.

لم أكن أعرف أنّني فتحت الخزانة!

همست سيينّا: "روبرت، انظر! لقد وجدتَ شيئاً!". ظلّ انتباه سيينّا مركّزاً على الفيديو؛ محاولة إيجاد أجوبة على الرغم من تلك الورطة.

على الشاشة، كان لانغدون الآن يحمل القناع ويوجّهه نحو الضوء، وبدا اهتمامه منجذباً لشيء في الجهة الخلفية للتحفة.

من تلك الزاوية للكاميرا، وللحظة خاطفة، حجب القناع المرفوع وجه لانغدون جزئياً على نحو أصبحت فيه عينا القناع على خطّ واحد مع عيني لانغدون. تذكّر عبارة *لا يمكن لمح الحقيقة إلاّ عبر عيون الموت*، وأحسّ بقشعريرة.

لم يكن لانغدون يملك أدنى فكرة عمّا كان ينظر إليه في الجهة الخلفية للقناع. لكن في تلك اللحظة، عندما أخبر إغناتسيو بما اكتشفه، فوجئ الرجل البدين، وراح يبحث عن نظّارته

وينظر إلى القناع مرّة تلو الأخرى. وبدأ يهزّ رأسه بقوّة ويذرع الغرفة ذهاباً وإياباً في حالة من التوتّر.

فجأة، نظر الرجلان إلى الأعلى لدى سماعهما على الأرجح صوتاً في الرواق، لا بدّ أنّه كان صوت مارتا العائدة من الحمّام. فأسرع لانغدون وأخرج من جيبه كيساً كبيراً وضع فيه قناع الموت قبل أن يعطيه لإغناتسيو الذي وضعه - بتردّد واضح - داخل حقيبته. سارع لانغدون إلى إغلاق باب الخزانة الأثرية الفارغة، ثمّ خرج الرجلان إلى الردهة لملاقاة مارتا قبل أن تكتشف فعلتهما.

الآن، رفع الحارسان مسدّسيهما في وجه لانغدون.

ترنّحت مارتا واستندت إلى الطاولة وهي تقول بحدّة: "لا أفهم! أنت وإغناتسيو بوزوني سرقتما قناع دانتي!".

قال لانغدون محاولاً الارتجال قدر الإمكان: "كلاّ. لدينا إذن من المالك بإخراج القناع من المبنى لليلة واحدة".

سألته: "إذاً من المالك؟ من بيرتراند زوبريست!؟".

"أجل، لقد وافق السيّد زوبريست على السماح لنا بفحص بعض العلامات على الجهة الخلفية للقناع! اجتمعنا به عصر أمس!".

راحت عينا مارتا تقدحان شرراً. "بروفيسور، أنا واثقة تماماً أنّكما لم تجتمعا ببيرتراند زوبريست عصر أمس".

"بلى بالتأكيد -".

وضعت سيينّا يدها على ذراع لانغدون وهي تتنهّد قائلة: "روبرت... منذ ستّة أيّام، ألقى بيرتراند زوبريست بنفسه من أعلى برج باديا، على بعد مسافة قصيرة من هذا المكان".

الفصل 42

كانت فايينثا قد تركت درّاجتها النارية شمال قصر فيكيو ودارت حول ساحة بياتزا ديلاّ سينيوريا سيراً على الأقدام. وفي أثناء مرورها بين تماثيل لودجا داي لانتسي المعروضة في الهواء الطلق، لم تتمكّن سوى من ملاحظة أنّ جميع التماثيل ذات موضوع واحد: عرض عنيف لهيمنة الرجل على المرأة.

اختطاف السابينيات.

اختطاف بوليكسينا.

فيرساوس يحمل رأس ميدوزا المقطوع.

جميل، هذا ما فكّرت فيه فايينثا وهي تخفض قبّعتها فوق عينيها وتشقّ طريقها بين الحشود الصباحية باتّجاه مدخل القصر الذي بدأ يستقبل للتوّ السيّاح الأوائل لذلك النهار. كما يبدو، إنّه يوم عمل عادي في قصر فيكيو.

فكّرت فايينثا: *ما من عناصر شرطة، على الأقلّ ليس بعد.*

أحكمت إغلاق سترتها حول عنقها، وتأكّدت أنّ سلاحها مخبّأ، ثمّ توجّهت عبر المدخل. تبعت الإشارات المتّجهة إلى متحف القصر، ومرّت عبر قاعتين مزخرفتين قبل أن ترتقي درجاً كبيراً يؤدّي إلى الطابق الثاني.

تذكّرت وهي تصعد رسالة الشرطة:

إيل موزيو دي بالاتزو فيكيو... دانتي أليغييري.

لا شكّ أنّ لانغدون هنا.

قادت الإشارات المؤدّية إلى المتحف فايينثا إلى صالة ضخمة مزخرفة هي قاعة الخمسمائة، التي توزّع فيها السيّاح متأمّلين اللوحات الجدارية الهائلة المرسومة على الجدران. لم تكن فايينثا مهتمّة بتأمّل الفنون الموجودة في هذا المكان، بل بحثت عن إشارة أخرى تشير إلى المتحف، ووجدتها عند أقصى الزاوية اليمنى للغرفة، وكانت تشير إلى الدّرج.

وفيما كانت تعبر القاعة، رأت مجموعة من طلاّب الجامعة متجمهرين حول منحوتة واحدة، وهم يضحكون ويلتقطون الصور. وقرأت على اللوحة: *هرقل وديوميديس.*

نظرت فايينثا إلى المنحوتة وصدر عنها أنين.

كانت المنحوتة تصوّر بطلَي الأساطير اليونانية، كلاهما عاريان، ويخوضان مباراة مصارعة. كان هرقل يحمل ديوميديس رأساً على عقب مستعدًّا لإلقائه أرضاً، في حين بدا ديوميديس وكأنّه يقول: "هل أنت واثق أنّك ترغب في رميي؟".

اقشعرّ جسد فايينثا.

أبعدت عينيها عن التمثال الغريب، وراحت تصعد الدّرج بسرعة متّجهة إلى المتحف.

وصلت إلى شرفة عالية تطلّ على القاعة، ورأت هناك عدداً من السيّاح الذين ينتظرون أمام مدخل المتحف.

قال لها أحد السيّاح بمرح وهو يطلّ من خلف كاميرا الفيديو: "تأخّر فتح القاعة".

سألته: "هل تعرفون السبب؟".

"كلاّ. لكن يمكننا استغلال الوقت في تأمّل هذه الإطلالة الرائعة!". وأشار الرجل إلى قاعة الخمسمائة الممتدّة في الأسفل.

مشت فايينثا إلى طرف الشرفة، وراحت تحدّق إلى القاعة الكبيرة. في الأسفل، وصل للتوّ ضابط شرطة، ولم يجذب الانتباه إليه وهو يسير في القاعة من دون استعجال متوجّهاً إلى الدّرج.

فكّرت فايينثا، *إنّه قادم لأخذ إفادة.* أشارت مشية الرجل الهادئة إلى أنّه يأتي استجابة لاتّصال روتيني، ولا يشبه على الإطلاق أولئك الرجال الذين يبحثون عن لانغدون عند بورتا رومانا.

إن كان لانغدون هنا، فلماذا لا يفتّشون المبنى؟

إمّا أن تكون فايينثا قد أخطأت في ظنّها أنّ لانغدون في القصر، أو أنّ الشرطة المحلّية وبرودر لم يدركوا ذلك بعد.

وصل الشرطي إلى أعلى الدّرج، وتقدّم نحو مدخل المتحف، فاستدارت فايينثا وتظاهرت أنّها تنظر من إحدى النوافذ. فنظراً إلى ما جرى معها وإلى طول ذراع العميد، حاولت أن تتجنّب أيّ مخاطرة.

سمعت صوتاً يهتف قائلاً: *"أسبيتّا!"*.

راح قلب فايينثا ينبض بعنف عندما توقّف الضابط خلفها مباشرة. أدركت أنّ الصوت صادر من جهازه اللاسلكي.

كرّر الصوت: *"أتّيندي إي رينفورتسي!"*.

انتظر وصول الدعم؟ شعرت فايينثا أنّ شيئاً ما قد تغيّر.

في تلك اللحظة، لمحت من النافذة شيئاً أسود يكبر حجمه في السماء. كان يطير باتّجاه قصر فيكيو آتياً من حدائق بوبولي.

أدركت فايينثا أنّها طائرة المراقبة. *برودر يعرف، وهو آت إلى هنا.*

كان منسّق الكونسورتيوم، لاورنس نولتون، ما زال يلوم نفسه على اتصاله بالعميد. أدرك أنّه لم يكن يجدر به أن يقترح عليه مشاهدة فيلم الزبون قبل تحميله إلى وسائل الإعلام غداً.

المحتوى لا يهمّنا.

البروتوكول هو المرجع.

ما زال نولتون يتذكّر الشعار الذي يعلّمونه للتقنيين الشباب عندما يبدأون بالعمل في المنظّمة. *لا تسأل، بل نفّذ وحسب.*

وضع على مضض بطاقة لاصقة حمراء لتذكيره بتلك المهمّة في الصباح الباكر، وتساءل عمّا ستفعله وسائل الإعلام بتلك الرسالة الغريبة. هل ستعرضها أساساً؟

بالطبع ستفعل، فهي من بيرتراند زوبريست.

لم يكن زوبريست شخصية ناجحة جدًّا في عالم الطبّ البيولوجي فحسب، بل ذاع صيته مؤخّراً أيضاً نتيجة إقدامه على الانتحار في الأسبوع الفائت. وهذا الشريط الذي يستغرق عرضه تسع دقائق سيبدو وكأنّه رسالة من القبر. ونظراً إلى درجة تشاؤمه، سيستحيل تقريباً على الناس إيقافه.

سينتشر هذا الشريط كالنار في الهشيم بعد دقائق من إطلاقه.

الفصل 43

خرجت مارتا ألفاريز من غرفة المراقبة المزدحمة غاضبة، وتركت لانغدون وشقيقته الفظّة تحت تهديد السلاح. اقتربت من إحدى النوافذ، وحدّقت إلى بياتزا ديلاّ سينيوريا، فشعرت بالارتياح لدى رؤيتها سيّارة شرطة مركونة أمام القصر.

لقد حان الوقت.

لم تفهم مارتا لماذا يقوم رجل محترم في مهنته مثل روبرت لانغدون بخداعها على هذا النحو الصارخ، واستغلال اللباقة المهنية التي تحلّت بها لسرقة تحفة أثرية لا تقدّر بثمن.

وبمساعدة إغناتسيو بوزوني؟! هذا مستحيل!

أرادت أن تُسمع إغناتسيو رأيها بفعلتهما بصراحة، فتناولت هاتفها الخلوي واتصلت بمكتب *إيل دوومينو* الذي كان يبعد مسافة قصيرة عن موزيو ديل أوبرا ديل دوومو.

لم يرنّ الهاتف سوى مرّة واحدة.

أجاب صوت امرأة مألوف: "مكتب إغناتسيو بوزوني".

كانت مارتا ودوداً مع سكرتيرة إغناتسيو، لكنّها اليوم ليست في مزاج مناسب لتبادل الحديث: "أوجينيا، أنا مارتا. أريد التحدّث مع إغناتسيو".

حلّ صمت غريب في الطرف الآخر، ثمّ بدأت السكرتيرة فجأة تبكي بشكل هستيري.

سألتها مارتا: "ما الأمر؟".

راحت أوجينيا تخبر مارتا وهي تبكي أنّها وصلت للتوّ إلى المكتب واكتشفت أنّ إغناتسيو قد أصيب ليلة أمس بذبحة قلبية خطيرة في أحد الأزقّة قرب دوومو. كان الوقت حوالى منتصف الليل عندما اتّصل بالإسعاف، لكنّ المسعفين لم يصلوا في الوقت المناسب. وهكذا، مات بوزوني.

كادت مارتا أن تسقط من أثر الصدمة. لقد سمعت هذا الصباح في نشرة الأخبار أنّ مسؤولاً لم يُكشف عن اسمه قد توفّي في الليلة الفائتة، لكنّها لم تتخيّل أن يكون إغناتسيو.

قالت لها مارتا: "أوجينيا، اهدئي". وحاولت أن تحافظ على هدوئها وهي تشرح لها بسرعة ما شاهدته للتوّ على تسجيل كاميرات المراقبة العائدة للقصر: سرقة قناع دانتي على يد إغناتسيو وروبرت لانغدون المحتجز الآن تحت تهديد السلاح.

لم تعرف مارتا ما هو ردّ الفعل الذي توقّعته من أوجينيا، لكنّها بالتأكيد لم تتوقّع ما سمعته.

سألتها أوجينيا: *"روبيرتو لانغدون! هل أنت مع لانغدون الآن؟!"*.

بدا لمارتا وكأنّ أوجينيا لم تفهم الوضع على حقيقته. "*أجل، لكنّ القناع –*".

صاحت أوجينيا: "*أريد التحدّث معه*".

في غرفة المراقبة، لم يتوقّف الألم الذي شعر به لانغدون في رأسه وهو يقف أمام الحارسين اللذين سدّدا سلاحيهما باتّجاهه مباشرة. فجأة، فُتح الباب وظهرت مارتا ألفاريز.

سمع لانغدون عبر الباب المفتوح هدير طائرة المراقبة الآتي من بعيد، مصحوباً بعويل صفّارات الإنذار المقتربة. لقد عثروا علينا. قالت مارتا للحارسين: "وصلت الشرطة". وأرسلت أحدهما لمرافقة السلطات إلى المتحف. فيما بقي الآخر حاملاً سلاحه الموجّه إلى لانغدون.

فوجئ لانغدون بمارتا تقول له بدهشة: "ثمّة من يريد التحدّث معك. لكن عليك الوقوف هناك لالتقاط الشبكة".

خرجت المجموعة من غرفة المراقبة الضيّقة إلى القاعة المغمورة بأشعّة الشمس المتسلّلة من النوافذ الكبيرة المطلّة على مشهد رائع لبياتزا ديلاّ سينيوريا في الأسفل. ومع أنّ لانغدون ما زال تحت تهديد السلاح، إلاّ أنّه شعر بالارتياح لخروجه من تلك الغرفة الضيّقة.

أشارت له مارتا ليقف قرب النافذة وأعطته الهاتف.

تناوله لانغدون بتردّد، ووضعه على أذنه. "نعم؟ أنا روبرت لانغدون".

قالت المرأة في محاولة للتكلّم بالإنكليزية: "سينيوري، أنا أوجينيا أنتونوتشي، سكرتيرة إغناتسيو بوزوني. التقينا ليلة أمس عندما أتيتَ إلى مكتبه".

لم يكن لانغدون يذكر شيئاً. "أجل؟".

"أنا آسفة جدًّا لإخبارك بذلك، لكنّ إغناتسيو قد توفّي ليل أمس إثر ذبحة قلبية".

اشتدّت قبضة لانغدون على الهاتف. *إغناتسيو بوزوني مات؟!*

بدأت المرأة تنتحب وهي تتحدّث بصوت مليء بالحزن. "اتصل بي إغناتسيو قبل أن يموت. لقد ترك لي رسالة وطلب منّي إسماعك إيّاها. سأشغّلها لك".

سمع لانغدون حفيفاً، وبعد لحظات، بلغ مسمعه تسجيل صوتي ضعيف لإغناتسيو بوزوني.

قال الرجل الذي بدا بوضوح أنّه يتألّم: "أوجينيا، احرصي أرجوك على إسماع لانغدون هذه الرسالة. أنا في ورطة، ولا أظنّ أنّني سأتمكّن من العودة إلى المكتب". أخذ إغناتسيو يئنّ ألماً، وحلّ صمت طويل. وعندما تحدّث مجدّداً، كان صوته أكثر ضعفاً. "روبرت، أتمنّى أن تكون قد فررت. ما زالوا يلاحقونني... وأنا... أنا لست بخير. أحاول الوصول إلى طبيب، لكن..." حلّ صمت طويل آخر، كما لو أنّ *إيل دوومينو* يستجمع ما تبقّى له من طاقة، قبل أن يتابع قائلاً: "روبرت، أصغِ إليّ جيّداً. ما تبحث عنه بأمان. الأبواب مفتوحة أمامك، لكن عليك أن تسرع. الجنّة خمس وعشرون". صمت مجدّداً ثمّ همس: "بالتوفيق".

ثمّ انتهت الرسالة.

راح قلب لانغدون ينبض بسرعة وقد أدرك أنّه سمع للتوّ الكلمات الأخيرة لرجل يحتضر. وكون هذه الكلمات موجّهة إليه، لم يساعده على التخفيف من قلقه. *الجنّة 25؟ الأبواب مفتوحة أمامي؟* فكّر لانغدون بذلك. *أيّ أبواب يعني؟!* الشيء الوحيد المفهوم إلى حدّ ما هو ما قاله إغناتسيو عن أنّ القناع بأمان.

عادت أوجينيا إلى الخطّ. "بروفيسور هل تفهم شيئاً من ذلك؟".

"أجل، بعضه".

"هل ثمّة ما يمكنني فعله؟".

فكّر لانغدون بهذا السؤال مطوّلاً قبل أن يجيب: "احرصي على ألاّ يسمع أيّ شخص آخر هذه الرسالة".

"والشرطة أيضاً؟ سيصل قريباً أحد المحقّقين لأخذ إفادتي".

تصلّب لانغدون عند سماعه ذلك. نظر إلى الحارس الذي يصوّب سلاحه عليه، ثمّ التفت بسرعة نحو النافذة وأخفض صوته، وهمس بسرعة: "أوجينيا... سيبدو هذا غريباً، لكن من أجل إغناتسيو، أريد منك أن تحذفي تلك الرسالة ولا تذكري للشرطة أنّك تحدّثت إليّ. أهذا واضح؟ الوضع معقّد جدًّا و –".

شعر لانغدون بفوّهة المسدّس تضغط على جانبه، فالتفت ليرى الحارس المسلّح على بعد بضعة إنشات يرفع يده الأخرى مطالباً بهاتف مارتا.

على الطرف الثاني من الخطّ، حلّ صمت طويل قبل أن تقول أوجينيا أخيراً: "سيّد لانغدون، رئيسي وثق بك... وهذا ما سأفعله".

عند ذلك، أنهت الاتصال.

أعطى لانغدون الحارس الهاتف، ثمّ قال لسيينّا: "لقد توفّي إغناتسيو بوزوني بسكتة قلبية في الليلة الماضية بعد مغادرته هذا المتحف". صمت قليلاً ثمّ أضاف: "القناع بأمان، فقد خبّأه إغناتسيو قبل أن يموت. وأظنّ أنّه ترك لي فكرة عن مكانه". *الجنّة 25*.

ومض الأمل في عيني سيينّا. لكن، عندما التفت لانغدون إلى مارتا بدت متشكّكة.

قال لانغدون: "مارتا، يمكنني أن أعيد إليك قناع دانتي، لكن عليك أن تتركيني أخرج من هنا فوراً".

ضحكت مارتا بصوت عالٍ. "لن أفعل شيئاً كهذا! أنت من *سرق* القناع! والشرطة على وشك الوصول –".

قاطعتها سيينّا قائلة بالإيطالية بصوت عالٍ: "سينيورا ألفاريز، نحن آسفان، لكنّنا لم نكن صادقين معك".

أجفل لانغدون. *ماذا تفعل سيينّا؟!* فقد فهم ما قالته.

ظهرت الدهشة على وجه مارتا أيضاً، مع أنّها بدت ناتجة عن اكتشافها أنّ سيينّا أصبحت تتحدّث فجأة بلغة إيطالية سليمة.

تابعت سيينّا بنبرة اعتذار: "أوّلاً، أنا لست شقيقة لانغدون".

الفصل 44

تراجعت مارتا خطوة إلى الخلف، ثمّ شبكت ذراعيها وراحت تتأمّل الشابّة الواقفة أمامها.

تابعت سيينّا بإيطالية سلسة: "أنا آسفة. لقد كذبنا عليك بشأن أمور كثيرة".

بدا الحارس حائراً بقدر ما بدت مارتا؛ مع أنّه ظلّ ثابتاً على موقفه.

أخذت سيينّا تتكلّم الآن بسرعة، بالإيطالية، وأخبرت مارتا أنّها تعمل في مستشفى في فلورنسا، وأنّ لانغدون وصل في الليلة الماضية مصاباً بعيار ناري في الرأس، وشرحت لها كيف أنّ لانغدون لا يذكر شيئاً عن الأحداث التي جلبته إلى هنا، وأنّه فوجئ بشريط الفيديو مثل مارتا تماماً.

أمرت سيينّا لانغدون قائلة: "أرِها الجرح".

عندما رأت مارتا القطب تحت شعر لانغدون المشعّث، جلست على حافة النافذة وأحاطت وجهها بيديها لعدّة ثوان.

خلال الدقائق العشر الأخيرة، اكتشفت مارتا أنّ قناع دانتي قد سُرق خلال وجودها في المتحف. ليس هذا فحسب، بل عرفت أيضاً أنّ اللصَّين هما بروفيسور أميركي محترم وزميلها الفلورنسي الذي تثق به، والذي أصبح الآن في عداد الأموات. بالإضافة إلى كلّ ذلك، إنّ الشابّة سيينّا بروكس التي ظنّتها شقيقة روبرت لانغدون الأميركية ذات العينين الكبيرتين، هي في الواقع طبيبة، وتعترف بالكذب... وتقوم بذلك بلغة إيطالية فصيحة.

قال لانغدون بصوته العميق والمتفهّم: "سأعيد إليك القناع، أنا أعدك. لكن، لا يمكنني فعل ذلك ما لم تسمحي لنا بالخروج. الوضع معقّد، وعليك أن تخلي سبيلنا حالاً".

مع أنّ مارتا كانت تريد استعادة القناع الثمين، إلاّ أنّها لم تكن تنوي السماح لأحد بالذهاب. *أين الشرطة؟!* نظرت إلى سيّارة الشرطة الوحيدة المتوقّفة في بيازا ديلاّ سينيوريا. يبدو غريباً أنّ رجال الشرطة لم يصلوا إلى المتحف بعد. سمعت مارتا أيضاً أزيزاً غريباً من بعيد؛ كما لو أنّ أحداً ما يستخدم منشاراً كهربائياً، والصوت يزداد ارتفاعاً.

ما هذا؟

تابع لانغدون كلامه متوسّلاً: "مارتا، أنت *تعرفين* إغناتسيو. ما كان ليخرج القناع من دون سبب وجيه. ثمّة صورة أكبر هنا. فمالك القناع بيرتراند زوبريست كان رجلاً غير مستقرّ. نظنّ أنّه متورّط بشيء رهيب. ولا وقت لشرح كلّ ذلك، لكنّني أتوسّل إليك أن تثقي بنا".

حدّقت إليه مارتا بصمت. فكلّ ذلك بدا بالنسبة إليها بلا أيّ معنى.

قالت سيينّا وهي تسلّط على مارتا نظرة باردة. "سيّدة ألفاريز، إن كنت تهتمّين بمستقبلك ومستقبل طفلك، فعليك أن تسمحي لنا بالخروج حالاً".

وضعت مارتا يديها على بطنها بحركة وقائية، ولم يسرّها التهديد المبطّن لجنينها.

ازداد الأزيز العالي قرباً، وعندما أطلّت مارتا من النافذة، لم تستطع رؤية مصدر الصوت، لكنّها رأت شيئاً آخر.

رأى الحارس ذلك أيضاً، وحملق مذهولاً.

في بياتزا ديلاّ سينيوريا، افترقت الحشود إلى الجانبين مفسحة الطريق لصفّ طويل من سيّارات الشرطة التي وصلت من دون صفّارات إنذار، تقودها سيّارتا فان سوداوان توقّفتا خارج أبواب القصر. ثمّ قفز منها جنود بالزيّ الأسود، وهُرعوا إلى القصر حاملين بنادق كبيرة.

شعرت مارتا بالخوف. *ما الذي يجري؟!*

بدا القلق على الحارس أيضاً.

فجأة، ارتفع الأزيز، وتراجعت مارتا فجأة عندما لمحت طائرة هيليكوبتر صغيرة ترتفع بمستوى النافذة.

حامت الآلة في الجوّ على بعد لا يزيد عن عشر ياردات، وكأنّها تحدّق إلى الأشخاص الموجودين في القاعة. كانت عبارة عن آلة صغيرة، لا يتجاوز طولها ياردة واحدة تقريباً، مزوّدة بأسطوانة طويلة سوداء في المقدّمة. وكانت الأسطوانة موجّهة إليهم مباشرة.

صاحت سيينّا: "ستطلق النار! *ستا بير سباراري!* انبطحوا جميعاً! *توتّي أتيرّا!*". ركعت تحت حاجب النافذة، وحذت مارتا حذوها تلقائياً بعد أن استبدّ بها الخوف. ركع الحارس أيضاً، وصوّب سلاحه تلقائياً نحو الآلة الصغيرة.

رأت مارتا من مكانها تحت النافذة أنّ لانغدون ما زال واقفاً ويحدّق إلى سيينّا باستغراب، ومن الواضح أنّه لا يصدّق وجود أيّ خطر. انخفضت سيينّا لمجرّد لحظة، قبل أن تقفز واقفة مجدّداً، وتمسك لانغدون من معصمه، وتشدّه نحو الردهة. وبعد لحظة، كانا يهربان معاً باتّجاه المدخل الرئيس للمبنى.

استدار الحارس على ركبتيه مثل قنّاص، ورفع سلاحه باتّجاه الردهة مستهدفاً الثنائيّ الهارب.

أمرته مارتا قائلة: "لا تطلق النار! لن يتمكّنا من الهرب!".

اختفى لانغدون وسيينّا عند الزاوية، وعرفت مارتا أنّها ستكون مسألة ثوانٍ قبل أن يصطدما برجال الشرطة القادمين من الاتجاه المعاكس.

قالت سيينّا: "أسرعْ!". واندفعت مع لانغدون نحو الطريق الذي أتيا منه. كانت تأمل أن يتمكّنا من الوصول إلى المدخل قبل أن يجدا نفسيهما وجهاً لوجه مع الشرطة. لكنّها أدركت أنّ فرصتهما معدومة.

ساورت لانغدون شكوك مشابهة. فجأة، توقّف عند تقاطع واسع من الأروقة وقال: "لن نتمكّن من الهرب من هذا الطريق".

حثّته سيينّا قائلة: "هيّا روبرت، لا يمكننا الوقوف هنا!".

بدا لانغدون شارداً وهو ينظر إلى اليسار؛ حيث امتدّ ممرّ قصير ينتهي كما يبدو عند غرفة صغيرة خافتة الإضاءة. كانت جدران الغرفة مكسوّة بالخرائط القديمة، وفي وسطها وُضعت كرة أرضية حديدية ضخمة. نظر لانغدون إلى الكرة المعدنية، وبدأ يهزّ رأسه ببطء، ومن ثمّ بقوّة أكبر.

أعلن قائلاً وهو يندفع نحو الكرة الحديدية: "من هنا".

روبرت! تبعته سيينّا مرغمة. من الواضح أنّ الممرّ يتّجه إلى أعماق المتحف؛ بعيداً عن المخرج.

لحقت به قائلة: "روبرت، إلى أين تأخذنا؟!".

أجابها: "عبر أرمينيا".

"ماذا؟!".

كرّر وهو ينظر إلى الأمام: "أرمينيا، ثقي بي".

على بعد طابق واحد في الأسفل، اختبأت فايينثا بين السيّاح الخائفين على شرفة قاعة الخمسمائة، وأخفضت رأسها حين مرّ برودر وفريقه من أمامها واقتحموا المتحف. في الأسفل، سُمعت الأبواب وهي تُقفل بعنف من قبل الشرطة التي أغلقت المكان.

إن كان لانغدون هنا فعلاً، فقد علق.

شأنه شأن فايينثا، مع الأسف.

الفصل 45

كانت قاعة الخرائط الجغرافية، بجدرانها الدافئة المكسوّة بخشب السنديان وسقفها المكسوّ بالخشب، بعيدة كلّ البعد عن جدران قصر فيكيو الحجرية والجصّية. كانت هذه الغرفة في الأساس مخصّصة لإيداع القبّعات والمعاطف، وتحتوي على عشرات الخزائن التي استُخدمت في الماضي لحفظ مقتنيات الدوق الأكبر المجمولة. أمّا اليوم، فقد أصبحت جدرانها مزيّنة بالخرائط. ثلاث وخمسون لوحة مرسومة باليد على الجلد، تصوّر العالم كما كان معروفاً في العقد الخامس من القرن السادس عشر.

تهيمن على المجموعة الهائلة من الخرائط كرة أرضية ضخمة تحتلّ وسط الغرفة. هذه الكرة المعروفة باسم *مابّا موندي*، والتي يبلغ طولها ستّ أقدام، كانت أكبر كرة أرضية دوّارة في العالم في أيّامها، ويقال إنّها تتحرّك بسلاسة بمجرّد لمسها. اليوم، تشكّل هذه الكرة الأرضية محطّة أخيرة للسيّاح الذين يزورون قاعات القصر وغرفه، ويصلون إلى هذه الغرفة، ليدوروا فيها حول العالم ثمّ يعودوا أدراجهم من حيث أتوا.

وصل لانغدون وسيينّا لاهثَين إلى قاعة الخرائط. ارتفعت أمامهما *مابّا موندي* على نحو مهيب، لكنّ لانغدون لم يعرها أيّ انتباه، بل ركّز نظره على جدران الغرفة.

قال: "علينا إيجاد أرمينيا، خارطة أرمينيا!".

من الواضح أنّ طلبه لم يفاجئ سيينّا التي أسرعت تبحث عن خارطة أرمينيا على الجدار الأيمن في الغرفة.

وبدأ لانغدون على الفور بحثاً مشابهاً على الجدار الأيسر، وهو يشقّ طريقه حول الغرفة.

شبه الجزيرة العربية، إسبانيا، اليونان...

كان كلّ بلد من البلدان مصوّراً بتفاصيل لافتة للنظر؛ على اعتبار أنّ تلك الرسومات وضعت قبل أكثر من خمسمائة عام، في زمن لم يتمّ فيه بعد استكشاف معظم أجزاء العالم ووضع خرائط لها.

أين أرمينيا؟

كانت ذكريات لانغدون عن "الجولة في الممرّات السرّية" التي قام بها هنا قبل بضع سنوات ضبابية مقارنة بذكرياته التخيّلية الحيّة عادة. ويرجع ذلك إلى حدّ كبير إلى الكأس الثانية من شراب غاجا نيبيولو الذي تناوله على الغداء قبل القيام بالجولة. والمضحك في الأمر، أنّ كلمة

نيبيولو تعني "الضباب الخفيف". مع ذلك، ما زال لانغدون يذكر أنّه اطّلع على خارطة في هذه الغرفة هي خارطة أرمينيا، وكانت تمتاز بخاصّية فريدة.

فكّر لانغدون، *أعرف أنّها هنا*، وتابع بحثه في مجموعة الخرائط التي لا تنتهي.

هتفت سيينّا: "أرمينيا! ها هي!".

التفت لانغدون نحوها، وكانت تقف في الزاوية اليمنى للغرفة. فاندفع نحوها، بينما وقفت سيينّا جانباً مشيرة إلى خارطة أرمينيا بتعبير بدا وكأنّه يقول: "وجدنا أرمينيا، فماذا بعد؟".

لم يكن لانغدون يملك الوقت للتفسير. وعوضاً عن ذلك، مدّ يديه وأمسك بإطار الخارطة الخشبي الضخم، ثمّ شدّه نحوه. فانفصلت الخارطة عن الجدار بأكملها وفُتحت مثل باب في الغرفة، ومعها جزء كبير من الجدار والإطار الخشبي، لتكشف خلفها عن ممرّ خفيّ.

عندئذ، قالت سيينّا بإعجاب: "حسناً إذاً".

ومن دون تردّد، اندفعت سيينّا عبر الفتحة، ودخلت بلا خوف ذلك المكان المظلم. تبعها لانغدون، ثمّ سارع إلى إغلاق الباب الجداريّ خلفهما.

على الرغم من ذكريات لانغدون الضبابية عن الجولة في الممرّات الخلفية، إلا أنّه كان يذكر هذا الممرّ بوضوح. لقد دخل هو وسيينّا للتوّ القصر الخفيّ، وهو عالم غير مرئي، موجود خلف جدران قصر فيكيو، لا يدخله سوى الدوق الحاكم ومقرّبيه.

وقف لانغدون للحظة عند المدخل؛ لاستيعاب محيطه الجديد الذي كان عبارة عن ممرّ حجري باهت اللون، ينيره ضوء طبيعي خافت يتسلّل من سلسلة من النوافذ المصفّحة. وكان الممرّ يهبط لمسافة خمسين ياردة تقريباً نحو باب خشبي.

التفت الآن إلى يساره، ورأى سلّماً ضيّقاً يتّجه صعوداً، وكان مغلقاً بسلسلة. فوق السلّم، عُلّقت لافتة كُتب عليها: *أوشيتا فييتاتا*.

توجّه لانغدون إلى السلّم.

حذّرته سيينّا قائلة: "كلاّ! اللافتة تعني أنّه لا يوجد مخرج".

ابتسم لانغدون ساخراً وقال: "شكراً، أنا أقرأ الإيطالية".

نزع السلسة، وأخذها إلى الباب السرّي، ثمّ استخدمها لتثبيت الجدار المتحرّك، عبر تمريرها في مقبض الباب وتثبيتها على الجدار المجاور؛ حيث يتعذّر فتح الباب من الجهة الأخرى.

قالت سيينّا بخجل: "آه، فكرة جيّدة".

قال لانغدون: "لن تعيقهم لمدّة طويلة، لكنّنا لن نحتاج إلى أكثر من ذلك. اتبعيني".

عندما فُتحت خارطة أرمينيا أخيراً، اندفع العميل برودر ورجاله عبر الممرّ الضيّق، متوجّهين إلى الباب الخشبي عند الطرف الآخر من الممرّ. وعندما عبروه، شعر برودر بهبّة من الهواء البارد، كما أعماه ضوء الشمس الساطع للحظات.

كان قد وصل إلى ممشى خارجي يمتدّ على طول سطح القصر. تأمّل الطريق المؤدّي مباشرة إلى باب آخر يبعد حوالى خمسين ياردة، ويؤدّي مجدّداً إلى داخل المبنى.

نظر برودر إلى يسار الممشى. هناك، ارتفع سقف قاعة الخمسمائة المقبّب مثل جبل. *يستحيل المرور*. التفت برودر الآن إلى اليمين، ورأى أنّ الممرّ محاط بجرف شاهق. *الموت المحتّم*.

نظر مجدّداً إلى الأمام وقال: "من هنا!".

اندفع برودر ورجاله عبر الممشى باتّجاه الباب الثاني، في حين راحت طائرة المراقبة تحوم كالنسر فوق الرؤوس.

عندما دخل برودر ورجاله عبر الباب، توقّفوا فجأة، وأوشكوا على السقوط فوق بعضهم.

وجدوا أنفسهم في حجرة صغيرة لا مخرج لها باستثناء الباب الذي دخلوا منه. وكان فيها مكتب خشبي وحيد موضوع أمام الجدار. فوقهم، بدت الرسومات الغريبة المرسومة على سقف الحجرة كما لو أنّها تحدّق إليهم ساخرة.

إنّهم أمام حائط مسدود.

أسرع أحد رجال برودر وقرأ اللافتة المعلّقة على الجدار، ثم قال: "لحظة واحدة. بحسب اللافتة، ثمّة نافذة هنا، نافذة سرّية من نوع ما".

نظر برودر حوله لكنّه لم يرَ أيّ نوافذ خفيّة. ثم اقترب وقرأ اللافتة بنفسه.

يبدو أنّ هذا المكان كان في الماضي مكتباً خاصًّا للدوقة بيانكا كابيلّو، ويحتوي على نافذة سرّية - *أونا فينيسترا سيغرانا* - كانت بيانكا تشاهد عبرها زوجها وهو يلقي خطاباته في قاعة الخمسمائة.

تفحّص برودر الغرفة مجدّداً، ورأى هذه المرّة فتحة صغيرة مخرّمة ومخفيّة في الجدار الجانبي. *هل هربا من هنا؟*

اقترب وتفحّص الفتحة التي بدت صغيرة جدًّا ولا تسمح بمرور شخص بحجم لانغدون. ضغط برودر وجهه على الشبك وحدّق عبره، وتأكّد بنفسه أنّه لا يمكن لأيّ شخص الهرب من هنا. فمن الجهة الأخرى، لم يكن ثمّة شيء سوى الفراغ الذي يهبط عدّة طوابق وصولاً إلى قاعة الخمسمائة.

إلى أين ذهبا إذاً؟!

التفت برودر إلى الغرفة الحجرية الصغيرة مجدّداً، وشعر أنّ الإحباط يتصاعد داخله. وفي لحظة نادرة من الانفعال الجامح، أرجع العميل برودر رأسه إلى الوراء وأطلق صيحة غضب.

تردّد الصوت في الغرفة الصغيرة على نحو يصمّ الآذان.

وفي الأسفل، في قاعة الخمسمائة، التفت السيّاح وعناصر الشرطة وحدّقوا جميعاً إلى الفتحة الصغيرة المكسوّة بالشبك المخرّم في أعلى الجدار. يبدو من الصوت الصادر من الأعلى أنّ مكتب الدوقة السرّي يُستخدم الآن كقفص لحيوان متوحّش.

وقفت سيينّا بروكس وروبرت لانغدون في الظلام الدامس.

قبل دقائق، شاهدت سيينّا كيف قام لانغدون بذكاء باستخدام السلسلة ليوصد باب أرمينيا المتحرّك، قبل أن يستدير ويفرّا معاً.

لكنّ سيينّا فوجئت بلانغدون يتوجّه إلى السلّم الذي عُلّقت فوقه لافتة *أوشيتا فييتاتا*، عوضاً عن التقدّم عبر الممرّ.

همست محتارة: "روبرت، اللافتة تقول إنّه لا مخرج من هنا! ظننت أنّنا نريد النزول إلى *الأسفل!*".

قال لانغدون وهو ينظر إلى الخلف من فوق كتفه: "صحيح. لكن، أحياناً عليك الصعود إلى الأعلى... لكي تنزلي إلى الأسفل". غمزها مشجّعاً وأضاف: "ألا تذكرين سرّة الشيطان؟".

صعدت سيينّا وراءه من دون أن تفهم شيئاً. *عمّ يتحدّث؟*

سألها لانغدون: "هل سبق لك أن قرأت *إنفيرنو*؟".

أجل... لكن أظنّ أنّني كنت في السابعة.

بعد لحظة، فهمت ما يعنيه. قالت: "آه، سرّة الشيطان! تذكّرت الآن".

أدركت سيينّا الآن أنّ لانغدون كان يشير إلى خاتمة *إنفيرنو* دانتي. في تلك المقاطع، وللهرب من الجحيم، كان على دانتي أن يتسلّق بطن الشيطان الضخم المكسوّ بالشعر. وعندما وصل إلى سرّة الشيطان – التي ادّعى أنّها مركز الأرض – تبدّل فجأة اتّجاه جاذبية الأرض. ولكي يتابع دانتي *نزوله* إلى المطهر... كان عليه أن يبدأ بالصعود إلى *الأعلى*.

لم تكن سيينّا تذكر الكثير عن *إنفيرنو* باستثناء خيبتها إزاء حركات الجاذبية المنافية للعقل عند مركز الأرض. إذ يبدو أنّ عبقرية دانتي لا تتضمّن فهماً لفيزياء قوى النواقل.

وصلا إلى أعلى السلّم، وفتح لانغدون الباب الوحيد الذي وجده. كان قد كُتب عليه: *سالا داي موديلّي دي أركيتيتّورا*.

قادها لانغدون إلى الداخل، ثمّ أوصد الباب خلفهما.

كانت الحجرة صغيرة وعادية، وتحتوي على سلسلة من الأطر التي تعرض نماذج خشبية لتصاميم فاساري الهندسية لداخل القصر. بالكاد لاحظت سيينّا النماذج، لأنّها لم ترَ سوى شيء واحد، وهو أنّ الغرفة لا تحتوي على أبواب، ولا على نوافذ؛ كما سبق أن أعلنت اللافتة... *لا يوجد مخرج.*

همس لانغدون: "في أواسط القرن الرابع عشر، تولّى دوق أثينا السلطة على هذا القصر، وبنى هذا الطريق السرّي للهرب في حال تعرّض للهجوم. يسمّى هذا السلّم سلّم دوق أثينا، وهو يقود إلى فتحة صغيرة في شارع جانبي في الأسفل. إن وصلنا إلى هناك، فلن يرانا أحد ونحن نخرج". وأشار إلى إحدى الرسومات قائلاً: "انظري، هل ترين الباب هنا جانباً؟".

هل أحضرني إلى هنا ليريني خرائط؟

نظرت سيينّا إلى الرسم المصغّر بقلق، ورأت السلّم السرّي الذي يهبط من أعلى القصر إلى مستوى الشارع، مُخبّأً بين الجدران الداخلية والخارجية للمبنى.

قالت سيينّا ساخرة: "أنا أرى السلّم روبرت، ولكنّه من الجهة *المقابلة* للقصر تماماً. لن نتمكّن أبداً من الوصول إلى هناك".

أجابها بابتسامة جانبية: "أظهِري شيئاً من الثقة".

تناهى إليهما صوت حطام مفاجئ من الأسفل، فأدركا أنّه تمّ اختراق خارطة أرمينيا للتوّ. وقفا جامدَين وهما يصغيان إلى وقع أقدام الجنود المندفعين عبر الممرّ، والذين لم يفكّر أيّ منهم بصعود السلّم المتّجه إلى الأعلى... والذي يحمل لافتة كُتب عليها: لا يوجد مخرج.

عندما هدأت الأصوات في الأسفل، توجّه لانغدون بثقة بين المعروضات؛ مباشرة باتّجاه ما بدا أنّه خزانة كبيرة في الجدار المقابل. كانت الخزانة بمساحة ياردة مربّعة تقريباً، ومثبّتة على ارتفاع ثلاث أقدام فوق الأرض. من دون تردّد، أمسك لانغدون بالمقبض وفتح الباب.

تراجعت سيينّا متفاجئة.

بدا الباب وكأنّه يفصلهما عن كهف فارغ... كما لو كان يؤدّي إلى عالم آخر لا يسوده سوى الظلام.

قال لها لانغدون: "اتبعيني".

تناول مصباحاً معلّقاً على الجدار بجانب الفتحة، وبعد ذلك تسلّق وعبَرَ الفتحة بخفّة وحيوية مفاجئة، واختفى في جحر الأرنب.

الفصل 46

فكّر لانغدون في سرّه، *لا سوفيتّا، العلّية الأكثر إثارة على وجه الأرض.*

كان الهواء في الداخل عفن الرائحة وقديماً، وكأنّ الجصّ أصبح رقيقاً وخفيفاً على مرّ القرون؛ إلى حدّ أن رائحته ظلّت عالقة في الهواء. أخذت الأرض تحت أقدامهما تصرّ وتئنّ، فشعر لانغدون وكأنّه دخل أحشاء وحش حيّ.

ما إن وجد موطئ قدم ثابتاً على سطح أفقي متين، حتى رفع المصباح وترك أشعّته تخترق الظلام.

امتدّ أمام ناظريه نفق بدا بلا نهاية، مؤلّف من شبكة خشبية من المثلّثات والمستطيلات التي تشكّل تقاطع الأعمدة، والحزم، والألواح، وغيرها من العناصر البنيوية التي تؤلّف الهيكل غير المرئي لقاعة الخمسمائة.

كان لانغدون قد زار هذه العلّية الكبيرة خلال الجولة الضبابية في الممرّات السرّية التي قام بها قبل بضع سنوات. كانت النافذة الشبيهة بالخزانة قد صُنعت في جدار غرفة النماذج المعمارية لكي يتمكّن الزوّار من الاطّلاع على نماذج العمل والإطلال عبر الفتحة مجهّزين بالمصباح لرؤية هذا العمل الهندسي على حقيقته.

الآن، بعد أن أصبح لانغدون داخل العلّية، فوجئ من مدى الشبه بين هذا الفنّ المعماري وذلك المستخدم في بناء حظائر نيو إنغلاند القديمة.

تسلّقت سيينّا الفتحة أيضاً، وثبّتت نفسها على العارضة الخشبية قربه، وبدا عليها الضياع. راح لانغدون يحرّك المصباح إلى الأمام في أرجاء المكان لإعطائها فكرة عن هذا المشهد غير المألوف.

من حيث يقفان، بدا النظر إلى العلّية أشبه بالنظر عبر صفّ طويل من المثلّثات المتناظرة الممتدّة إلى نقطة بعيدة. تحت أقدامهما، لم تكن العلّية تحتوي على ألواح أرضية، بل كانت العوارض الأفقية مكشوفة بالكامل، وأشبه بسكّة حديدية ضخمة.

أشار لانغدون إلى الممرّ الطويل وتحدّث بصوت خافت. "يمتدّ هذا المكان مباشرة *فوق* قاعة الخمسمائة. إن تمكّنا من الوصول إلى الطرف الآخر، فأنا أعرف كيف نذهب إلى سلّم دوق أثينا".

ألقت سيينّا نظرة متشكّكة إلى متاهة العوارض والدعامات الممتدّة أمامها. كانت الطريقة الوحيدة لاجتياز العلّية هي بالقفز بين الدعامات مثل الأطفال الذين يقفزون على سكّة حديد.

كانت الدعامات كبيرة، وكلّ منها تتألّف من عدد كبير من العوارض الخشبية المجموعة معاً بواسطة مشابك حديدية عريضة لتشكّل حزماً متينة. كانت كبيرة بما يكفي؛ حيث يستطيع المرء الوقوف عليها متوازناً. لكنّ التحدّي يكمن في المسافة الفاصلة بين الدعامات والتي تفوق قدرتهما على القفز بينها بأمان.

همست سييّنا قائلة: "لا يمكنني القفز بين هذه العوارض".

شكّ لانغدون في قدرته على فعل ذلك هو أيضاً، لا سيّما وأنّ السقوط يعني الموت المحتّم. وجّه ضوء المصباح عبر الفتحات الفاصلة بين الدعامات.

على بعد ثماني أقدام تحتهما، امتدّت مساحة أفقية مكسوّة بالغبار، ومعلّقة بالقضبان الحديدية. كانت تشبه الأرضية، وتمتدّ على مدى النظر. على الرغم من مظهرها المتين، عرف لانغدون أنّ تلك الأرضية تتألّف أساساً من النسيج المشدود المكسوّ بالغبار. كان ذلك هو "الوجه الآخر" لسقف قاعة الخمسمائة المعلّق، والذي كان عبارة عن مساحة كبيرة من الفتحات الخشبية التي تشكّل أطراً للوحات فاساري التسع والثلاثين، وجميعها مثبّتة أفقياً على شكل رقع.

أشارت سييّنا إلى المساحة المكسوّة بالغبار الممتدّة تحتهما وقالت: "ألا يمكننا النزول إلى هناك والسير عليها؟".

هذا إن كنت تريدين السقوط عبر إحدى لوحات فاساري في قاعة الخمسمائة.

قال لانغدون بهدوء، لكي لا يخيفها: "في الواقع، ثمّة طريقة أفضل". وبدأ يسير على الدعامة باتّجاه العمود المركزي للعلّية.

في زيارته السابقة، وبالإضافة إلى إطلالته عبر نافذة غرفة النماذج الهندسية، قام باستكشاف العلّية سيراً على الأقدام، ودخل عبر باب يقع في الطرف الآخر من العلّية. وحسبما يذكر من تلك الزيارة، ثمّة لوح متين يمتدّ على طول العمود المركزي للعلّية، ويتيح للسيّاح الوصول إلى سطح كبير وسط هذا المكان للمشاهدة.

لكن، عندما وصل لانغدون إلى وسط الدعامة، وجد لوحاً لا يشبه إطلاقاً ذاك الذي يذكره من جولته.

كم أفرطتُ في الشرب ذلك النهار؟

عوضاً عن اللوح المتين السياحي، وجد خليطاً من الألواح المتصدعة التي تشكّل زاوية أفقية مع العوارض الخشبية مؤلّفة ممشى بدائياً، أقرب ما يكون إلى حبل بهلوان منه إلى جسر.

يبدو أنّ الممشى السياحي المتين الذي يبدأ من الطرف الآخر لا يمتدّ سوى إلى منصّة المشاهدة المركزية. من هناك، يعود السيّاح أدراجهم كما هو واضح. وعلى الأرجح، أقيمت هذه العارضة الضيّقة الممتدّة أمام لانغدون وسييّنا الآن لكي يتمكّن المهندسون من الإشراف على بناء الجزء المتبقّي من العلّية من هذه الجهة.

قال لانغدون وهو يرمق الألواح الضيّقة بريبة: "يبدو وكأنّنا نستطيع السير على هذا اللوح".

هزّت سييّنا كتفيها بلا اكتراث: "ليس أسوأ من البندقية في موسم الفيضانات".

أدرك لانغدون أنّها محقّة إلى حدّ ما. ففي آخر رحلة قام بها إلى البندقية، غرقت ساحة سان مارك تحت مياه بارتفاع قدم، واضطُرّ إلى السير من فندق دانييلي إلى البازيليك على الألواح الخشبية الممدودة على قطع من الطوب ودلاء مقلوبة. بالطبع، إنّ احتمال تعرّض حذائه للبلل أسهل بكثير من السقوط عبر تحفة من عصر النهضة وملاقاته حتفه.

أبعد لانغدون الفكرة عن ذهنه، ومشى على اللوح الضيّق بثقة مزيّفة أمل أن تهدّئ من روع سيينّا إن كانت تخفي قلقها. مع ذلك، وعلى الرغم من شكله الواثق، كان قلبه ينبض بقوّة وهو يمشي على أوّل لوح. عندما اقترب من الوسط، تقوّس اللوح الخشبي بفعل ثقله، وأصدر صريراً مخيفاً، فمشى بسرعة إلى أن وصل أخيراً إلى الجهة المقابلة وإلى الأمان النسبي الذي توفّره الدعامة الثانية.

تنهّد لانغدون، ثمّ استدار لإنارة طريق سيينّا وتقديم الدعم المعنوي لها الذي قد تحتاج إليه. لكنها كما يبدو لم تكن بحاجة إلى شيء من ذلك. فما إن سُلّط الضوء على اللوح الخشبي، حتّى عبرته ببراعة مثيرة للإعجاب. تحمّل اللوح وزن جسدها النحيل بسهولة، ولحقت به خلال ثوانٍ.

تشجّع لانغدون واستدار، ثم اجتاز اللوح التالي. أمّا سيينّا، فانتظرت إلى أن وصل إلى الدعامة الثانية وأصبح قادراً على الاستدارة لإنارة طريقها، ثمّ تبعته. وهكذا، أخذا يتنقّلان بسرعة بإيقاع ثابت؛ شخصان يتنقّلان الواحد تلو الآخر على ضوء مصباح واحد. من مكان ما في الأسفل، ارتفع صوت أجهزة اللاسلكي التي تستخدمها الشرطة عبر نسيج السقف الرقيق، فابتسم لانغدون ابتسامة باهتة. *إنّنا نحوم فوق قاعة الخمسمائة بخفّة ومن دون أن يرانا أحد.*

همست سيينّا: "روبرت، قلتَ إنّ إغناتسيو أخبرك أين تعثر على القناع، أليس كذلك؟".

"أجل... لكنّه استخدم شيفرة لذلك". وشرح لها لانغدون بسرعة أنّ إغناتسيو لم يشأ على ما يبدو الكشف عن مكان القناع على المجيب الآلي، ولهذا السبب أعطاه المعلومات بطريقة مشفَّرة. "ذكر الجنّة التي أعتقد أنّها إشارة إلى القسم الأخير من *الكوميديا الإلهية*. قال تحديداً: الجنّة خمس وعشرون".

نظرت إليه سيينّا قائلة: "لا بدّ أنّه يعني *النشيد* الخامس والعشرين".

قال لانغدون: "أوافقك في ذلك". *فالنشيد* يعادل الفصل، وتُستخدم الكلمة بسبب التقليد الذي كان سائداً، والذي يقوم على "إنشاد" القصائد الملحمية. تشتمل *الكوميديا الإلهية* بمجملها على مائة نشيد، وهي مقسّمة إلى ثلاثة أقسام.

إنفيرنو 1-34

بورتاغوريو 1-33

باراديزو 1-33

الجنّة خمس وعشرون، تمنّى لانغدون لو أنّ ذاكرته التخيلية قوية بما يكفي ليتذكّر النصّ بأكمله. *مستحيل، علينا إيجاد نسخة عن النصّ.*

تابع لانغدون قائلاً: "ثمّة المزيد. فآخر ما قاله لي إغناتسيو كان: *الأبواب مفتوحة أمامك، لكن عليك أن تسرع*". صمت هنيهة، ونظر إلى سيينّا ثمّ أضاف: "يشير النشيد الخامس والعشرون على الأرجح إلى موقع معيّن هنا في فلورنسا. ويبدو أنّ لهذا المكان أبواباً".

عبست سيينّا قائلة: "لهذه المدينة عشرات الأبواب في الواقع".

"أجل. لهذا السبب علينا قراءة النشيد الخامس والعشرين من *الجنّة*". ثمّ ابتسم لها ابتسامة مليئة بالأمل وقال: "هل يصدف أنك تعرفين *الكوميديا الإلهية* بأكملها عن ظهر قلب؟".

نظرت إليه مصدومة وقالت: "أربعة عشر ألف بيت من الشعر الإيطالي القديم الذي قرأته وأنا طفلة!". هزّت رأسها مضيفة: "أنت من يملك ذاكرة عجيبة بروفيسور، أمّا أنا فمجرّد طبيبة".

بينما تابعا تقدّمهما، حزن لانغدون لأنّ سيينّا ما زالت تفضّل إبقاء حقيقة ذكائها الاستثنائي سرًّا، على الرغم من كلّ ما مرّا به معاً. مجرّد *طبيبة!* أراد لانغدون أن يضحك. *لا شكّ أنّها أكثر الأطبّاء تواضعاً على وجه الأرض،* هذا ما فكّر به لانغدون وهو يتذكّر قصاصات الصحف التي قرأها عن مواهبها الخاصّة، مواهب لا تتضمّن مع الأسف حفظ واحدة من أطول الملاحم في التاريخ، وإن لم يكن هذا مستغرباً.

واصلا طريقهما بصمت، واجتازا عدداً من العوارض الخشبية. أخيراً، رأى لانغدون شكلاً مشجّعاً في الظلام؛ *منصّة المشاهدة!* كانت الألواح الهشّة التي يسيران عليها تؤدّي مباشرة إلى سطح أكثر متانة بكثير محاط بالدرابزين. إن صعدا إلى المنصّة، فبإمكانهما متابعة السير على الممشى إلى أن يخرجا من العلّية عبر باب يذكر لانغدون أنّه قريب جدًّا من سلّم دوق أثينا.

مع اقترابهما من المنصّة، نظر لانغدون إلى السقف المعلّق تحتهما بثماني أقدام. حتّى هذه اللحظة، كانت كلّ اللوحات المعلّقة تحتهما متساوية المساحة. غير أنّ اللوحة الآتية كانت أكبر بكثير من اللوحات الأخرى.

قال لانغدون لنفسه: *تمجيد كوزيمو الأوّل.*

كانت هذه اللوحة الدائرية الكبيرة أهمّ لوحات فاساري، وهي اللوحة المركزية في قاعة الخمسمائة بأكملها. غالباً ما كان لانغدون يعرض صوراً لهذا العمل على طلّابه، ويشير إلى أوجه الشبه بينها وبين لوحة *تمجيد واشنطن* في مبنى الكابيتول الأميركي، التي تذكّر أنّ أميركا الوليدة قد اقتبست عن إيطاليا أكثر بكثير من مجرّد مفهوم الجمهورية.

لكن اليوم، كان لانغدون مهتمًّا باجتياز اللوحة أكثر من اهتمامه بدراستها. وبينما كان يسرع، التفت قليلاً ليهمس لسيينّا أنّهما على وشك الوصول.

عندئذ، زلّت قدمه اليمنى عن وسط اللوح الخشبي، وحطّ نصف حذائه المستعار على حافّة اللوح، فالتوى كاحله، وترنّح إلى الأمام متعثّراً، وحاول أن يستعيد توازنه بسرعة.

لكنّ الأوان كان قد فات.

فقد ارتطمت ركبتاه باللوح بقوّة، وامتدّت يداه إلى الأمام في محاولة للوصول إلى الدعامة المعترضة، فسقط من يده المصباح الذي هوى في الظلام تحتهما، وحطّ على النسيج الذي

أمسك به كالشبك. بالكاد تمكّن لانغدون من دفع نفسه إلى الأمام؛ إلى الدعامة التالية، في حين سقط اللوح وتحطّم على بعد ثماني أقدام تحتهما، على الإطار الخشبي المحيط بلوحة فاساري، تمجيد كوزيمو الأوّل.

تردّد الصوت في أنحاء العلّية كافة.

وقف لانغدون مذعوراً واستدار نحو سيينّا.

في الضوء الباهت الصادر من المصباح في الأسفل، رأى لانغدون أنّ سيينّا كانت تقف على الدعامة خلفه محاصرة، من دون أيّ وسيلة للعبور. أخبرته عيناها بما يعرفه أساساً. لا شكّ أنّ الضجّة التي أحدثها اللوح الخشبي قد فضحت أمرهما.

نظرت فايينثا إلى الأعلى فجأة، وتأمّلت السقف المزخرف.

قال الرجل الذي يحمل كاميرا الفيديو ممازحاً عندما تردّد صدى الصوت في الأسفل: "أهي جرذان في العلّية؟".

فكّرت فايينثا وهي تنظر إلى اللوحة الدائرية التي تحتلّ وسط السقف، *جرذان كبيرة*. تسلّلت غيمة صغيرة من الغبار من بين الأطر الخشبية، وكانت فايينثا متأكّدة من أنّها رأت انتفاخاً طفيفاً في القماش. وكأنّ شخصاً ما يضغط عليه من الجهة الأخرى.

قال الرجل وهو يرمق الانتفاخ الذي بدا في اللوحة: "ربّما أوقع أحد عناصر الشرطة مسدّسه من على منصّة المشاهدة. عمّ يبحثون برأيك؟ فهذه الحركة مريبة جدًّا".

سألته فايينثا: "منصّة *مشاهدة!!* هل يستطيع الناس الصعود إلى هناك؟".

"بالتأكيد". وأشار إلى مدخل المتحف مضيفاً: "عند عبور ذلك الباب، ثمّة باب يؤدّي إلى ممشى في العلّية. يمكنك رؤية عمل فاساري لدى وقوفك على الدعائم الخشبية. إنّه لا يصدَّق".

تردّد صوت برودر فجأة في أرجاء قاعة الخمسمائة. "أين هما إذاً؟!".

انبعثت كلماته - شأنها شأن صيحته الغاضبة - من خلف فتحة مكسوّة بالشبك في أعلى الجدار إلى يسار فايينثا. يبدو أنّ برودر موجود في غرفة خلف تلك النافذة... أي تحت سقف الغرفة المزخرف بطابق كامل.

عادت أنظار فايينثا إلى الانتفاخ الذي بدا في اللوحة الممتدّة فوق رأسها.

فكّرت: *جرذان في العلّية تحاول إيجاد مخرج.*

شكرت صاحب الكاميرا، وتوجّهت بسرعة إلى مدخل المتحف. كان الباب مغلقاً، لكن بوجود ضبّاط الشرطة الذين يدخلون ويخرجون، فكّرت أنّه قد لا يكون مقفلاً.

في الواقع، صدق حدسها.

الفصل 47

في الساحة في الخارج، وسط الفوضى التي أحدثها عناصر الشرطة الذين وصلوا منذ قليل، وقف رجل كهل في ظلال لودجا داي لانتزي، مراقباً الجلبة باهتمام كبير. كان الرجل يضع نظّارة من ماركة بلوم باري، وربطة عنق بيزلي، وقرطاً ذهبياً صغيراً في إحدى أذنيه.

بينما كان يراقب ما يحصل، أخذ يحكّ عنقه مجدّداً. كان الرجل قد أصيب بطفح جلدي في الليلة الماضية، وبدا أنّ وضعه يتفاقم مع ظهور بثور صغيرة على فكّه، ورقبته، وخدّيه، وجفنيه.

عندما نظر إلى أظفاره، رأى أنّها ملوّثة بالدماء. فأخرج منديله ومسح أصابعه والبثور الدامية على عنقه وخدّيه.

بعدما نظّف نفسه، نظر إلى سيّارتي الفان السوداوين المركونتين خارج القصر. كان الفان الأقرب يحتوي على شخصين جالسَين على المقعد الخلفي.

أحدهما جندي مسلّح يرتدي زيًّا أسود.

أمّا الثاني فكان امرأة أكبر سنًّا، لكنّها جميلة جدًّا وذات شعر فضّي، تضع سلسلة حول عنقها تتدلى منها تميمة على صدرها.

بدا الجنديّ وكأنّه يجهّز حقنة تعطى تحت الجلد.

داخل الفان، أخذت د. إليزابيث سينسكي تنظر بشرود إلى الساحة خارج القصر، وتتساءل كيف تأزّمت الأمور ووصلت إلى هذا الحدّ.

قال الرجل الجالس قربها بصوت عميق: "سيّدتي".

التفتت إلى الجنديّ المرافق لها. كان يمسك بساعدها ويحمل حقنة. "لا تتحرّكي".

اخترقت الإبرة الحادّة بشرتها.

أتمّ الجنديّ حقنها، ثمّ قال: "والآن، عودي إلى النوم".

وبينما كانت تغمض عينيها، رأت رجلاً يتفحّصها من بين الظلال. كان يضع نظّارة وربطة عنق أنيقة، في حين بدا وجهه مليئاً بالبثور وأحمر اللون. شعرت للحظة أنّها تعرفه، لكن عندما فتحت عينيها لإلقاء نظرة أخرى، كان الرجل قد اختفى.

الفصل 48

في ظلام العلّية، أصبح لانغدون وسيينّا منفصلَين عن بعضهما بمسافة عشرين قدماً من الفراغ. تحتهما بثماني أقدام، استقرّ اللوح على الإطار الخشبي الذي يثبّت قماش لوحة فاساري. أمّا المصباح الكبير - الذي ما زال مضاءً - فهبط على اللوحة نفسها، مسبّباً انخفاضاً صغيراً فيها؛ مثل حجر سقط على الشبكة.

همس لانغدون: "هل يمكنك سحب اللوح الموجود خلفك لبلوغ هذه الدعامة؟".

نظرت سيينّا إلى اللوح وأجابت: "ليس من دون سقوط الطرف الآخر على اللوحة".

هذا ما كان لانغدون يخشاه. فآخر ما يحتاجان إليه الآن هو إسقاط لوح خشبي بمقاس اثنين بستّة فوق لوحة فاساري.

قالت سيينّا: "لديّ فكرة"، وبدأت تتحرّك جانبياً على الدعامة، متوجّهة إلى الجدار الجانبي. قام لانغدون بالمثل، في حين أصبحت كلّ خطوة أكثر خطورة مع ابتعادهما عن ضوء المصباح. عندما وصلا إلى الجدار الجانبي، غرقا في ظلام تامّ.

همست سيينّا: "هناك"، وأشارت إلى الظلام المخيّم تحتهما. "لا بدّ أنّ طرف الإطار مثبّت على الجدار. يجب أن يتحمّل وزني".

قبل أن يتمكّن لانغدون من الاعتراض، نزلت سيينّا عن الدعامة، واستخدمت سلسلة من العوارض الخشبية كسلّم. هبطت على طرف الإطار الخشبي فأصدر صريراً واحداً، لكنّه ظلّ متماسكاً. بعد ذلك، بدأت تتقدّم ببطء على طول الجدار، باتّجاه لانغدون، وكأنّها تسير على حافة مبنى عالٍ. صدر صرير آخر عن الإطار.

فكّر لانغدون، *الجليد رقيق، ابقي قريبة من الشاطئ.*

عندما وصلت سيينّا إلى منتصف الطريق، واقتربت من الدعامة التي يقف عليها في الظلام، تجدّد الأمل فجأة في قلب لانغدون، وشعر أنّهما قد ينجحان في الخروج من هنا في الوقت المناسب.

فجأة، وفي مكان ما في الظلام المخيّم أمامهما، صُفق باب، وارتفع وقع خطوات سريعة تقترب على طول الممشى. ظهر ضوء مصباح يمسح المكان، ويقترب مع كلّ ثانية. عندئذ، شعر لانغدون أنّ آماله تتحطّم. فثمّة شخص آتٍ باتّجاههما، ويسلك الممشى الرئيس ليقطع عليهما طريق الفرار.

همس تلقائياً: "سيينّا، تابعي التقدّم. استمرّي بالسير على طول الجدار، فثمّة مخرج في الطرف الآخر. أمّا أنا فسأعترض طريق القادم".

همست سيينّا بإلحاح: "كلاّ! روبرت، عد إلى هنا!".

لكنّ روبرت انطلق عائداً أدراجه على الدعامة باتّجاه العمود المركزي للعلّية، وترك سيينّا في الظلام، تتقدّم على طول الجدار الجانبي، تحته بثماني أقدام.

عندما وصل لانغدون إلى وسط العلّية، رأى أنّ شخصاً غامض الملامح ويحمل مصباحاً قد وصل إلى منصّة المشاهدة المرتفعة. توقّف الشخص عند الدرابزين المنخفض، ووجّه ضوء المصباح إلى عيني لانغدون.

أعماه وهج المصباح، فرفع يديه فوراً في إشارة استسلام. لم يشعر يوماً في حياته بضعف أكبر مما شعر به وهو يحاول التوازن فوق قاعة الخمسمائة، وقد بهره ضوء ساطع.

انتظر لانغدون طلقة رصاص، أو أمراً صارماً، لكن لم يواجهه سوى الصمت. بعد قليل، ابتعد الشعاع عن وجهه، وبدأ باستكشاف الجزء المظلم خلفه، بحثاً عن شيء ما... أو شخص آخر. عندما ابتعد الشعاع عن عينيه، تمكّن من رؤية الشخص الذي يعترض طريقه. كانت امرأة نحيلة، ترتدي ملابس سوداء. لم يكن لديه أيّ شكّ في أنّ قبّعة البايسبول التي تضعها على رأسها تخفي شعرها السبايكي.

توتّرت عضلات لانغدون فوراً في حين داهمت ذهنه صور الدكتور ماركوني الذي مات في المستشفى.

لقد عثرت عليّ، وأتت لإنهاء عملها.

عادت إلى ذهن لانغدون صورة لغطّاسين يونانيين يسبحون في أعماق نفق، وقد تجاوزوا نقطة اللاعودة ليصطدموا بحائط مسدود.

أعادت القاتلة توجيه شعاع المصباح إلى وجه لانغدون.

همست: "سيّد لانغدون، أين صديقتك؟".

شعر لانغدون بقشعريرة. *هذه القاتلة هنا من أجلنا نحن الاثنين.*

حاول لانغدون خداعها بالنظر بعيداً عن سيينّا من فوق كتفه، إلى الظلام الذي أتيا منه. "لا علاقة لها بهذه المسألة. أنت تسعين ورائي".

أخذ لانغدون يتضرّع إلى الله لكي تكون سيينّا قد تقدّمت على طول الجدار. فإن تمكّنت من التسلّل إلى ما وراء منصّة المشاهدة، فستنجح عندها في العبور إلى الممشى المركزي بهدوء، خلف المرأة التي تلاحقه، وستتوجّه نحو الباب.

رفعت القاتلة مصباحها مجدّداً وتفحّصت العلّية الخالية خلفه. وفي اللحظة التي ابتعد فيها الوهج عن عيني لانغدون، لمح فجأة شكلاً خلفها في الظلام.

يا إلهي، كلاّ!

كانت سيينّا تتقدّم بالفعل فوق الدعامة باتّجاه الممشى المركزي، لكن لسوء الحظّ، لم تكن تبعد سوى عشر ياردات من المرأة.

سيينّا، كلاّ! أنت قريبة جدًّا! ستسمعك!

عاد الوهج إلى عيني لانغدون مجدّداً.

همست القاتلة: "أصغِ إليّ جيّداً بروفيسور. إن أردت أن تعيش، فأنا أقترح أن تثق بي. فقد انتهت مهمّتي ولم يعد لديّ سبب لإيذائك. أصبحنا أنا وأنت في فريق واحد، وربّما كنت أعرف كيف أساعدك".

لم يكن لانغدون يصغي إليها تماماً، وذلك لأنّ أفكاره كانت متركّزة على سيينّا التي أصبحت مرئية بعض الشيء وهي تتسلّق الممشى، خلف منصّة المشاهدة، على مسافة قريبة جدًّا من المرأة المسلّحة.

أراد أن يصيح: *اهربي! ابتعدي من هنا!*

غير أنّ سيينّا ظلّت في مكانها، إذ قبعت في الظلّ وراحت تراقب بصمت.

فتّشت عينا فايينثا في الظلام خلف لانغدون. *لكن، أين ذهبت؟ هل انفصلا؟*

كان على فايينثا إيجاد طريقة لمنع الهاربَين من الوقوع بين يدَي برودر. *هذا أملي الوحيد.*

غامرت فايينثا وهمست قائلة: "سيينّا، إن كنت تسمعينني، فأصغي إليّ جيّداً. ليس من صالحك الوقوع بين أيدي الرجال الموجودين في الأسفل. *لن* يكونوا لطفاء إطلاقاً. أعرف طريقاً للهرب، ويمكنني مساعدتك. ثقي بي".

تحدّاها لانغدون قائلاً: "تثق بك؟!". ارتفع صوته فجأة حيث أصبح مسموعاً لكلّ من يقف بجواره. "أنت قاتلة!".

عندها، أدركت فايينثا أنّ سيينّا قريبة. *لانغدون يتحدّث معها... ويحاول تحذيرها.*

"سيينّا، الوضع معقّد، لكنّني أستطيع إخراجك من هنا. فكّري بالخيارات المتاحة أمامك، أنت محاصرة، وليس لديك أيّ خيار".

قال لانغدون بصوت عالٍ: "لديها خيار، وهي ذكية بما فيه الكفاية للابتعاد عنك قدر الإمكان".

أصرّت فايينثا: "لقد تغيّر كلّ شيء، ولم يعد لديّ سبب لإيذاء أيّ منكما".

"لقد قتلتِ د. ماركوني! وأظنّ أنّك أنت التي أطلقت عليّ النار وأصبتني في رأسي!".

عرفت فايينثا أنّ الرجل لن يصدّق أبداً أنّها لا تنوي قتله.

وقت الحديث انتهى. ما من شيء أستطيع قوله لإقناعه.

ومن دون تردّد، مدّت يدها إلى سترتها وأخرجت المسدّس الكاتم للصوت.

بقيت سيينّا قابعة في الظلّ بلا حراك على مسافة لا تتجاوز عشر ياردات خلف المرأة التي واجهت لانغدون للتوّ. حتّى في الظلام، لم يكن من الممكن عدم التعرّف عليها. شعرت سيينّا بالرعب عندما رأتها تشهر السلاح نفسه الذي استخدمته لقتل د. ماركوني.

عرفت من لغة جسد المرأة أنّها ستطلق النار.

وبالفعل، تقدّمت المرأة خطوتين باتّجاه لانغدون، وتوقّفت عند الدرابزين المنخفض الذي يحيط بمنصّة المشاهدة فوق لوحة فاساري، *تمجيد كوزيمو الأوّل*. كانت القاتلة الآن أقرب ما تكون من لانغدون. رفعت مسدّسها ووجّهته مباشرة إلى صدر لانغدون.

قالت: "هذا لن يؤلم سوى للحظة واحدة، لكنّه خياري الوحيد".

كان ردّ فعل سيينّا تلقائياً.

كان الاهتزاز غير المتوقّع للألواح تحت قدمي فايينثا كافياً لينحرف اتّجاه مسدّسها وهي تطلق النار. وحتّى عندما ضغطت على الزناد، أدركت أنّ المسدّس لم يعد موجّهاً نحو لانغدون.

شعرت بشيء ما يقترب خلفها.

يقترب بسرعة.

استدارت فايينثا في مكانها، وانحرف سلاحها 180 درجة باتّجاه المهاجم، ورأت وميضاً من الشعر الأشقر في الظلام في اللحظة التي اصطدم بها فيها شخص ما بكلّ سرعته. هسهس المسدّس مجدّداً، لكنّ المهاجم انحنى تحت مستوى فوهة السلاح وصدمها بقوّة ورفعها نحو الأعلى.

ارتفعت قدما فايينثا عن الأرض، واصطدم الجزء الأوسط من جسدها بقوّة بالدرابزين المنخفض لمنصّة المشاهدة. وفيما اندفع صدرها فوق الدرابزين، لوّحت بذراعيها في محاولة للتمسّك بشيء ما لتجنّب السقوط، لكنّ الأوان كان قد فات؛ فقد سقطت من فوق الحافّة.

وقعت فايينثا في الظلام، واستعدّت للاصطدام بالأرض المكسوّة بالغبار والممتدّة تحت المنصّة على مسافة ثماني أقدام. لكنّ الغريب في الأمر أنّها استقرّت على سطح أكثر ليونة ممّا تخيّلت... كما لو أنّها وقعت على أرجوحة من القماش، تدلّت تحت ثقلها.

تمدّدت فايينثا على ظهرها حائرة، وحدّقت إلى مهاجمها. كانت سيينّا بروكس تنظر إلى الأسفل من فوق الدرابزين. فتحت فايينثا فمها مذهولة لتتكلّم، لكن فجأة، سمعت صوت تمزّق عالياً تحتها.

كان القماش الذي يحمل وزنها يتمزّق.

ثمّ سقطت مجدّداً.

هبطت هذه المرّة لمدّة ثلاث ثوان طويلة، حدّقت خلالها إلى الأعلى؛ إلى السقف المكسوّ بلوحات جميلة. رأت شقًّا كبيراً وسط اللوحة التي تعلوها مباشرة، والتي كانت عبارة عن قماش دائري كبير رُسم عليه كوزيمو الأوّل محاطاً بكائنات مجنّحة على غيمة بيضاء.

بعد ذلك، وإثر صدمة مفاجئة، تلاشى عالم فايينثا وحلّ مكانه الظلام.

في الأعلى، حدّق لانغدون غير مصدّق إلى اللوحة الممزّقة في الأسفل. على أرض قاعة الخمسمائة، تمدّدت المرأة بلا حراك، وسرعان ما بدأت تتكوّن قرب رأسها بركة داكنة من الدماء، في حين ظلّت يدها ممسكة بالمسدس.

نظر لانغدون إلى سيينّا التي وقفت محدّقة إلى الأسفل، وقد شلّها المشهد. بدت على وجهها آثار الصدمة. "لم أكن أقصد...".

همس لانغدون: "لقد تصرّفتِ تلقائياً. كانت على وشك أن تقتلني".

بدأت أصوات الذعر تتعالى من الأسفل، عبر اللوحة الممزّقة. فدفع لانغدون سيينّا بلطف بعيداً عن الدرابزين، وقال: "علينا أن نواصل مسيرنا".

الفصل 49

في المكتب السرّي للدوقة بيانكا كابيلّو، سمع العميل برودر صوتاً مخيفاً، تبعته جلبة متنامية في قاعة الخمسمائة. اندفع إلى النافذة ونظر من خلالها. استغرق عدّة ثوان لاستيعاب المشهد الذي رآه على أرض القاعة الجميلة.

وصلت مديرة المتحف الحامل إلى جانبه عند النافذة، وغطّت فمها بيدها فوراً لدى رؤيتها المشهد المرعب؛ فهناك شخص مستلقٍ على الأرض ومحاط بسيّاح مذعورين. وعندما حوّلت المرأة ببطء نظرها نحو سقف قاعة الخمسمائة، صدر عنها أنين ألم. نظر برودر إلى الأعلى أيضاً، فرأى أنّ لوحة السقف المستديرة قد تمزّقت في وسطها.

التفت إلى المرأة وسألها: "كيف نصعد إلى هناك!؟".

في الطرف الآخر من المبنى، نزل لانغدون وسيينّا من العلّية وهما يلهثان، واندفعا عبر أحد الأبواب. خلال ثوانٍ، وجد لانغدون الكوّة الصغيرة المخبّأة خلف ستارة قرمزية. تذكّرها من جولة الممرّات السرّية التي قام بها سابقاً.

سلّم دوق أثينا.

تصاعد صوت الخطوات المسرعة والصراخ من كلّ الاتّجاهات، فأدرك لانغدون أنّ الوقت قصير. أزاح الستارة جانباً، وتسلّل هو وسيينّا إلى أوّل السلّم.

بدآ النزول على السلّم الحجري من دون أن ينطقا بأيّ كلمة. كان قد تمّ تصميم هذا الممرّ على شكل سلسلة مخيفة من الدرجات الضيّقة والمتعرّجة. وكلّما ازداد المكان عمقاً، أصبح السلّم أضيق. عندما شعر لانغدون أنّ الجدران على وشك أن تسحق عظامه، انتهى السلّم، حمداً لله.

الطابق الأرضي.

كان السلّم ينتهي عند حجرة صغيرة. ومع أنّ بابها يبدو أصغر باب على وجه الأرض، إلاّ أنّهما فرحا لرؤيته. لم يكن الباب يرتفع أكثر من أربع أقدام، وكان مصنوعاً من الخشب الثقيل، مع مسامير حديدية ومزلاج داخلي ثقيل الوزن لمنع الناس من الدخول.

همست سيينّا التي لم تفارقها آثار الصدمة بعد: "يمكنني سماع أصوات الشارع خلف الباب. ماذا يوجد في الجهة الأخرى؟".

أجاب لانغدون: "فيا ديلاً نينا". وتخيّل الشارع المزدحم بالمشاة. "لكن، قد تكون الشرطة هناك".

"لن يتعرّفوا علينا. فهم يبحثون عن فتاة شقراء ورجل داكن الشعر".

رمقها لانغدون بغرابة. "وهذا بالضبط ما نحن عليه...".

هزّت سيينّا رأسها، وبدا على وجهها تصميم كئيب. "لم أكن أرغب في أن تراني هكذا روبرت. لكن، لسوء الحظّ هذا ما أنا عليه". فجأة، مدّت سيينّا يدها وأمسكت بشعرها الأشقر، ثمّ أرجعت رأسها إلى الخلف، فانزلق شعرها بأكمله بحركة واحدة.

تراجع لانغدون إلى الوراء وقد أجفل من حقيقة أنّ سيينّا تضع شعراً مستعاراً، ومن شكلها من دونه على السواء. كانت سيينّا بروكس في الواقع صلعاء تماماً، رأسها أملس وشاحب مثل مريضة سرطان تخضع لعلاج كيميائي. *أهي مريضة فوق كلّ ذلك؟*

قالت: "أعلم، إنّها قصّة طويلة. والآن انحنِ". حملت الشعر المستعار، وبدا بوضوح أنّها تنوي وضعه على رأس لانغدون.

أهي جادّة؟! انحنى لانغدون على مضض، ووضعت سيينّا الشعر المستعار على رأسه. بالكاد لاءم مقاس رأسه، لكنّها سوّته قدر الإمكان، ثمّ تراجعت إلى الخلف وقيّمت الشكل. لم يرضها تماماً، فمدّت يدها وحلّت ربطة عنقه، ثمّ رفعتها إلى جبينه وشدّتها مثل منديل لتثبّت بها الشعر المستعار.

بعد ذلك، بدأت سيينّا تعمل على شكلها، فشمّرت عن ساقيها، وأخفضت جوربيها حتّى كاحليها. عندما وقفت، بدت على شفتيها ابتسامة ساخرة. لقد تحوّلت سيينّا بروكس الجميلة إلى فتاة حليقة الرأس. كان التغيير الذي طرأ على الممثّلة الشكسبيرية السابقة مذهلاً.

قالت: "تذكّر أنّ لغة الجسد تكشف عن شخصية المرء بنسبة تسعين بالمائة. لذلك، عندما تمشي، تصرّف وكأنّك راقص روك متقدّم في السن.

فكّر لانغدون: *يمكنني تمثيل دور شخص متقدّم في السن، لكن، راقص روك؟! لست واثقاً من ذلك.*

وقبل أن يتمكّن لانغدون من مجادلتها، رفعت مزلاج الباب الصغير وفتحته. أخفضت رأسها، وخرجت إلى الشارع المزدحم المكسوّ بالحصى، فتبعها لانغدون على يديه ورجليه تقريباً، وخرج إلى ضوء النهار.

باستثناء نظرات الاستغراب التي ألقاها عليهما المارة لدى رؤيتهم هذين الشخصين غير المتناسقين يخرجان من الباب الصغير في أساس قصر فيكيو، لم يلقِ عليهما أحد نظرة ثانية. وفي غضون ثوانٍ، كان لانغدون وسيينّا يتّجهان شرقاً، وقد ابتلعهما الحشد.

أخذ الرجل الذي يضع نظّارة بلوم باريس يحكّ بشرته وهو يمشي بين الحشود؛ محافظاً على مسافة آمنة خلف روبرت لانغدون وسيينّا بروكس. على الرغم من تنكّرهما الذكي، فقد رآهما وهما يخرجان من الباب الصغير ويتجهان إلى فيا ديلاّ نينّا، وعرفهما فوراً.

تبعهما مسافة عدّة مبانٍ فقط قبل أن يتعب، ويبدأ صدره بإيلامه؛ الأمر الذي أجبره على أخذ أنفاس سطحية. شعر وكأنّه يتلقّى لكمة في صدره.

صرّ على أسنانه وقاوم الألم، وأجبر نفسه على تركيز انتباهه مجدّداً على لانغدون وسيينّا وهو يواصل تعقّبهما في شوارع فلورنسا.

الفصل 50

أشرقت شمس الصباح تماماً؛ ملقية ظلالاً طويلة أسفل الوديان الضيّقة الممتدّة بين أبنية فلورنسا القديمة. كان أصحاب المحال التجارية قد بدأوا يفتحون الأبواب المعدنية التي تحمي محالّهم، وكان الهواء مثقلاً بعبير إسبريسّو الصباح والكورنيتّي الطازجة.

على الرغم من أنّ لانغدون كان يتضوّر جوعاً، إلاّ أنّه واصل السير. *عليّ إيجاد القناع... ورؤية ما خُبّئ في باطنه.*

وبينما قاد لانغدون سيينّا شمالاً عبر فيا داي ليوني الضيّق، واجه صعوبة في الاعتياد على مظهر رأسها الأصلع. ذكّره هذا التغيّر الجذري الذي طرأ على شكلها أنّه بالكاد يعرفها. كانا يتوجّهان إلى بياتزا ديل دوومو؛ الساحة التي عُثر فيها على إغناتسيو بوزوني ميتاً بعد مكالمته الأخيرة.

قال إغناتسيو وهو يلهث، *روبرت ما تبحث عنه بأمان. الأبواب مفتوحة أمامك، لكن عليك الإسراع. الجنّة خمس وعشرون. بالتوفيق.*

الجنّة خمس وعشرون، كرّر لانغدون هذه الجملة في سرّه، وكان لا يزال مستغرباً من كيفية تذكّر إغناتسيو بوزوني نصّ دانتي بما فيه الكفاية ليشير إلى نشيد معيّن. لا بدّ أنّ ذلك النشيد يحتوي على شيء يتذكّره بوزوني جيّداً. وأيًّا يكن ذلك، عرف لانغدون أنّه سيجده بسرعة؛ حالما يضع يديه على نسخة عن النصّ، وهو أمر يمكن فعله بسهولة في عدد من الأماكن الموزّعة أمامهما.

بدأ الشعر المستعار الذي يصل إلى كتفه يسبّب له الحكاك. ومع أنّه وجد نفسه سخيفاً بهذا التنكّر، إلاّ أنّه يقرّ أنّ فكرة سيينّا المرتجلة كانت خدعة جيدة. فما من أحد شكّ فيهما، ولا حتّى تعزيزات الشرطة التي هُرع عناصرها للتوّ من أمامهما في طريقهم إلى بالاتزو فيكيو.

كانت سيينّا تسير قربه بصمت منذ عدّة دقائق، فنظر إليها لانغدون للتأكّد من أنّها على ما يرام. بدت على بعد أميال، وكأنّها على الأرجح تحاول تقبّل فكرة أنها قد قتلت للتوّ المرأة التي كانت تلاحقهما.

قال لها بخفّة، على أمل إبعاد تفكيرها عن صورة المرأة ذات قصّة السبايكي الممدّدة على أرض القصر: "أعطيك ليرة لمعرفة ما تفكّرين فيه".

خرجت سيينّا من تأمّلاتها ببطء وقالت: "كنت أفكّر بزوبريست وأحاول تذكّر ما أعرفه عنه".

"وإلام توصّلتِ؟".

"معظم ما أعرفه مستمدّ من رسالة مثيرة للجدل كتبها قبل بضع سنوات. وقد علقت في ذهني. ففي المجتمع الطبّي، سرعان ما انتشرت كالوباء". ثمّ غمزته مضيفة: "أعتذر على سوء اختياري للكلمات".

ضحك لانغدون قائلاً: "تابعي".

"أعلن في رسالته أساساً أنّ الجنس البشري على شفير الانقراض، وما لم تقع كارثة تخفض بشكل كبير النموّ السكّاني في العالم، فإنّ جنسنا لن يعيش مائة عام أخرى".

التفت لانغدون وحدّق إليها قائلاً: "قرن واحد من الزمن!".

"كانت رسالة صارخة. فالإطار الزمني المتوقّع كان أكثر بكثير من التقديرات السابقة، إلاّ أنّه مدعوم ببعض البيانات العلمية القوية جدًّا. لقد كوّن لنفسه أعداء كثراً عندما أعلن أنه يجب على الأطبّاء التوقّف عن ممارسة الطبّ لأنّ تمديد فترة حياة الإنسان لا يؤدّي سوى إلى تفاقم المشكلة السكّانية".

فهم لانغدون الآن لماذا انتشرت المقالة كالنار في الهشيم بين أعضاء المجتمع الطبّي.

تابعت سيينّا: "بطبيعة الحال، تعرّض زوبريست للانتقادات فوراً من جميع الجهات؛ سواء أكانت من السياسيين، أو رجال الدين، أو منظّمة الصحّة العالمية. وجميعهم سخروا منه واعتبروه مجنوناً يحاول أن ينشر الذعر، وامتعضوا كثيراً من قوله إنّ شباب اليوم إن اختاروا التوالد، فستشهد ذرّيتهم فعلياً نهاية الجنس البشري. وأوضح زوبريست وجهة نظره بقوله إنّه إن تمّ ضغط الحياة البشرية على الأرض إلى ساعة واحدة... فنحن الآن في الثواني الأخيرة منها".

قال لانغدون: "في الواقع، سمعت عن ذلك".

"بالفعل، وقد سبّبت ضجّة كبيرة. لكنّ أكبر ردّ فعل عنيف ضدّ زوبريست جاء عندما أعلن أنّ تقدّمه في مجال الهندسة الوراثية سيكون مفيداً للبشرية أكثر بكثير؛ إن استُخدم ليس لعلاج المرض، وإنّما لإنشائه".

"ماذا؟!".

"أجل. قال إنّ التكنولوجيا التي ابتكرها يجب أن تُستعمل للحدّ من النموّ السكّاني من خلال إنتاج سلالات هجينة من المرض يعجز الطبّ المعاصر عن إيجاد علاج لها".

شعر لانغدون بالذعر وهو يستحضر صوراً لفيروسات هجينة وغريبة ما إن يتمّ إطلاقها حتّى يستحيل إيقافها.

قالت سيينّا: "خلال سنوات قليلة تحوّل زوبريست من كونه واحداً من النخبة في عالم الطبّ إلى شخص منبوذ تماماً؛ إلى لعنة". صمتت، وظهرت على وجهها تعابير الشفقة. "لا عجب حقًّا أنّه أقدم على الانتحار. والأمر المحزن أكثر هو أنّ أطروحته صحيحة على الأرجح".

أوشك لانغدون على السقوط. "عفواً! هل تعتقدين أنّه محقّ؟!".

رفعت سيينّا كتفيها وشرحت قائلة: "روبرت، من وجهة نظر علمية بحتة، أي من وجهة نظر منطقية ومن دون مشاعر، يمكنني التأكيد من دون أدنى شكّ أنّه بغياب التغيير الجذري، فإنّ نهاية جنسنا قادمة، وبسرعة. لن يكون ذلك بفعل حريق، ولا بسبب نهاية العالم، ولا نتيجة حرب نووية... بل سيحدث بسبب انهيار تامّ ناتج عن ازدياد عدد الناس على هذا الكوكب. فالرياضيات غير قابلة للجدل".

تصلّب لانغدون.

قالت: "لقد درستُ قدراً لا بأس به من علم الأحياء، ومن الطبيعي للأنواع أن تنقرض نتيجة اكتظاظ أعدادها في بيئتها. تخيّلْ مستعمرة من الطحالب التي تعيش في بركة صغيرة في الغابة، وتستمتع بالتوازن التامّ للمغذّيات في البركة. في حال عدم وجود أيّ رادع، ستتكاثر هذه الطحالب بصورة عشوائية، وستغطي سطح البركة بأكمله، حيث تحجب نور الشمس وتمنع نموّ المغذّيات في البركة. بعد استنزاف كلّ ما هو متوفّر في تلك البيئة، سرعان ما ستموت تلك الطحالب وتختفي من دون أن تترك أثراً". تنهّدت مضيفة: "من الممكن جدًّا أن يكون مصير مماثل منتظراً البشرية، وذلك أسرع بكثير ممّا تخيّل أيّ منّا".

شعر لانغدون باضطراب عميق، وقال: "لكن... يبدو هذا مستحيلاً".

"هذا ليس مستحيلاً روبرت، لكن *يصعب تصوّره* وحسب. فالعقل البشري يملك آلية دفاع بدائية عن الأنا تنفي كلّ الحقائق التي تُنتج ضغطاً كبيراً يصعب على الدماغ التعامل معه. وهذا يدعى *الإنكار*".

قال لانغدون ساخراً: "سبق أن سمعت عن الإنكار، ولكنّني لا أعتقد بوجوده".

نظرت سيينّا إلى الأعلى بسأم وقالت: "كم هذا جميل! لكن صدّقني، ما أقوله حقيقي جدًّا. فالإنكار جزء حيوي من الآلية التي يستخدمها الإنسان للتحمّل. من دونه، كنّا سنستيقظ كلّ صباح مرعوبين من مختلف الطرق التي قد نموت بها. عوضاً عن ذلك، تقوم عقولنا بحجب مخاوفنا الوجودية من خلال التركيز على الضغوط التي يمكننا التعامل معها؛ مثل الوصول إلى العمل في الوقت المحدّد، أو دفع الضرائب. ولو واجهنا مخاوف وجودية على نطاق أوسع، فإنّنا ننبذها بسرعة ونعيد التركيز على المهام البسيطة والتفاهات اليومية".

تذكّر لانغدون دراسة أجريت عبر الإنترنت على طلاّب في بعض جامعات آيفي ليغ، وأظهرت أنّ المستخدِمين الأكثر ذكاء أيضاً يُظهرون ميلاً تلقائياً إلى الإنكار. فاستناداً إلى الدراسة، يقوم معظم طلاّب الجامعات، بعد النقر على مقال محبط حول ذوبان جليد القطب الشمالي أو انقراض الأنواع، بالخروج بسرعة من تلك الصفحة لصالح أخبار تافهة تطهّر عقولهم من الخوف. وتتضمّن الخيارات المفضّلة أبرز الأخبار الرياضية، ومشاهد فيديو مضحكة عن القططة، وأخبار المشاهير.

قال لانغدون: "في الأساطير القديمة، يُعتبر الإنكار مظهراً من مظاهر الغطرسة والكبرياء. فما من رجل أكثر كبرياء من ذاك الذي يعتقد أنّه في مأمن من مخاطر العالم. وقد وافق دانتي

على ذلك بوضوح، واعتبر الكبرياء إحدى الخطايا السبع المميتة... كما عاقب المتغطرسين في أعمق حلقة من حلقات الجحيم".

فكّرت سيينّا للحظة ثمّ قالت: "يتّهم زوبريست في مقالته الكثير من قادة العالم بأنهم في حالة إنكار شديد... وأنهم يدفنون رؤوسهم في الرمال. وقد انتقد بشدّة منظّمة الصحّة العالمية".

"لا شكّ أنّ انتقاداته قد انعكست ضدّه".

"كان ردّ فعلهم أنهم ساووا بينه وبين متعصّب ديني يقف على ناصية الشارع، ويحمل لافتة كُتب عليها: النهاية قريبة".

"في ساحة هارفرد يوجد بعضهم".

"أجل، وكلّنا نتجاهلهم لأنّنا لا نستطيع تخيّل حدوث ذلك. لكن صدّقني، إنّ مجرّد كون العقل البشري لا يستطيع تخيّل حدوث شيء... لا يعني أنّ ذلك لن يحدث".

"تبدين تقريباً وكأنّك من محبّي زوبريست".

أجابت بحدّة: "أنا من محبّي *الحقيقة*، حتّى لو كان تقبّلها مؤلماً".

صمت لانغدون، وشعر مجدّداً أنّه غريب عن سيينّا في تلك اللحظة، وحاول أن يفهم هذا المزيج الغريب من الشغف والموضوعية الذي تتحلّى به.

نظرت سيينّا إليه، وقد لانت تعابيرها: "اسمع روبرت، أنا لا أعني أنّ زوبريست محقّ في قوله إنّ طاعوناً يقضي على نصف سكّان العالم هو الحلّ للانفجار السكّاني. كما أنّني لا أقول إنّ علينا التوقّف عن علاج المرضى. فكلّ ما أعنيه هو أنّ مسارنا الحالي وصفة بسيطة جدًّا لدمار العالم. فالنموّ السكّاني تطوّر أسّي يحدث ضمن نظام محدود على صعيد المكان والموارد. والنهاية ستصل على نحو مفاجئ جدًّا. لن يكون الأمر شبيهاً بنفاد الوقود من السيّارة ببطء... بل سيكون أشبه بالسقوط من الهاوية".

تنهّد لانغدون، وحاول استيعاب كلّ ما قد سمعه للتوّ.

أضافت مشيرة إلى الأعلى، إلى يمينهما: "وبالمناسبة، أنا واثقة أنّ هذا هو المكان الذي قفز منه زوبريست".

نظر لانغدون إلى الأعلى، ورأى أنّهما يمرّان أمام الواجهة الحجرية البسيطة لمتحف بارغيلّو الواقع إلى اليمين. خلفه، ارتفع برج باديا المسنّن فوق المباني المحيطة به. حدّق إلى أعلى البرج، وتساءل عن سبب قفز زوبريست منه، وتمنّى ألاّ يكون السبب أمراً فظيعاً فعله ولا يريد مواجهة ما هو آتٍ.

قالت سيينّا: "يحبّ نقّاد زوبريست الإشارة إلى المفارقة الكامنة في أنّ الكثير من التقنيات الوراثية التي طوّرها تساهم اليوم في تمديد متوسّط العمر المتوقّع بشكل كبير".

"الأمر الذي يؤدّي إلى تفاقم المشكلة السكّانية".

"بالضبط. قال زوبريست ذات مرّة علناً إنّه يتمنّى لو يستطيع إعادة الجنّي إلى القمقم، ومحو بعض مساهماته في إطالة العمر البشري. وأفترض أنّ هذا الأمر منطقي من الناحية

الأيديولوجية. فكلّما طالت حياتنا، سخّرنا قدراً أكبر من الموارد لدعم المسنّين والمرضى".

هزّ لانغدون رأسه موافقاً: "قرأت مرّة أنّ 60 بالمائة من تكاليف الرعاية الصحّية في الولايات المتّحدة تُنفق لدعم المرضى في الأشهر الستّة الأخيرة من حياتهم".

"صحيح. وبينما تقول عقولنا إنّ هذا جنون، تقول قلوبنا: علينا إبقاء الجدّة على قيد الحياة ما استطعنا ذلك".

أومأ لانغدون قائلاً: "هذا هو الصراع بين أبولو وديونيسوس، وهي معضلة شهيرة في الأساطير القديمة. إنّها المعركة القديمة بين العقل والقلب اللذين غالباً ما يريدان الشيء نفسه".

كان لانغدون قد سمع أنّ هذه الإشارة الأسطورية تُستخدم اليوم في اجتماعات المدمنين لوصف المدمن الذي يحدّق إلى الكأس، وعقله يعرف أن الشراب سيؤذيه، لكنّ قلبه يتوق إلى الراحة التي سيجدها فيه. كانت الرسالة تقول كما يبدو: لا تشعر أنّك وحيد، فحتّى أبطال الأساطير يعيشون هذا النزاع.

همست سيينّا: "Who needs agathusia?".

"المعذرة؟".

نظرت إليه سيينّا قائلة: "أخيراً تذكّرت عنوان مقالة زوبريست: Who Needs Agathusia?".

لم يسبق للانغدون أن سمع بكلمة أغاثوسيا، لكنّه حاول أن يخمّن استناداً إلى الجذور اليونانية للكلمة؛ *أغاثوس* و*ثوسيا*. "أغاثوسيا... هل تعني التضحية الجيّدة؟".

"تقريباً. معناها في الواقع هو التضحية بالذات من أجل الصالح العامّ". صمتت ثمّ أضافت: "وتُعرف أيضاً بالانتحار الخيّر".

في الواقع، كان لانغدون قد سمع بهذه الكلمة مرّة في قصّة أب مفلس أقدم على الانتحار لكي تتمكّن أسرته من قبض تأمينه على الحياة، والثانية عند وصف سفّاح متسلسل نادم أنهى حياته لأنّه عاجز عن السيطرة على ميله إلى القتل.

لكنّ المثال الأكثر فظاعة الذي يذكره لانغدون كان في رواية *Logan's Run* الصادرة عام 1967، والتي تصوّر مجتمعاً مستقبلياً يوافق فيه الجميع بسرور على الانتحار في سنّ الحادية والعشرين؛ وبالتالي التمتّع بشبابهم بالكامل من دون ترك ازدياد أعدادهم أو تقدّمهم في السنّ يضغطان على موارد هذا الكوكب المحدودة. وكما يذكر لانغدون، إنّ الفيلم المستند إلى الرواية رفَع "سنّ الانتحار" من الحادية والعشرين إلى الثلاثين؛ في محاولة من دون شكّ لجعل الفيلم أكثر قبولاً لدى جمهور شبّاك التذاكر الحيوي الذي تتراوح أعمار أفراده بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين.

قال لانغدون: "إذاً، بالنسبة إلى عنوان مقالة زوبريست... لست واثقاً من أنّني أفهمه. من يحتاج إلى *أغاثوسيا*؟ هل كان يطرح سؤالاً ساخراً يعني فيه من يحتاج إلى الانتحار الخيّر؟ جميعنا".

"كلاّ في الواقع، العنوان فيه لعب على الكلام".

هزّ لانغدون رأسه من دون أن يفهم.

WHO" اختصار لاسم منظّمة الصحّة العالمية. في تلك المقالة، يثور زوبريست ضدّ مديرة المنظّمة، د. إليزابيث سينسكي التي تحتلّ ذلك المنصب منذ سنوات عديدة. واستناداً إلى زوبريست فإنّها لا تأخذ مسألة السيطرة على أعداد السكّان بجدّية. قال في تلك المقالة إنّ المنظّمة ستكون أفضل لو أنّ مديرتها سينسكي تُقدم على الانتحار".

"يا له من رجل متعاطف!".

"أعتقد أنّ هذه نتائج العبقرية. في أغلب الأحيان، إنّ تلك العقول القادرة على التركيز أكثر من غيرها تقوم بذلك على حساب النضج العاطفي".

تذكّر لانغدون المقالات التي قرأها عن سيينّا؛ الطفلة المعجزة التي يبلغ معدّل ذكائها 208 والتي تمتاز بوظائف فكرية خارقة. وتساءل عمّا إذا كانت تتحدّث عن نفسها أيضاً وهي تتحدّث عن زوبريست. كما تساءل: كم ستحتفظ بسرّها؟

أمامه، رأى لانغدون المعلم الذي يبحثان عنه. بعد عبور فيا داي ليوني، قادها لانغدون إلى تقاطع شارع ضيّق جدًّا، هو أقرب إلى زقاق. كُتب على اللافتة في الأعلى: فيا دانتي أليغييري.

قال لانغدون: "يبدو أنّك تعرفين الكثير عن الدماغ البشري. هل هذا مجال تخصّصك في دراسة الطبّ؟".

"كلاّ، لكن عندما كنت صغيرة، كنت أقرأ كثيراً. واهتممت بعلم الدماغ لأنّني كنت أعاني من بعض... المشاكل الطبّية".

نظر إليها لانغدون بفضول؛ آملاً أن تستمرّ.

قالت سيينّا بهدوء: "كان دماغي... ينمو بشكل مختلف عن معظم الأطفال؛ الأمر الذي سبّب لي بعض... المشاكل. أمضيت وقتاً طويلاً وأنا أحاول أن أفهم مشكلتي، وخلال ذلك تعلّمت الكثير عن علم الأعصاب". نظرت إلى عيني لانغدون وأضافت: "نعم، الصلع مرتبط بحالتي الطبّية".

أشاح لانغدون بنظره، وشعر بالارتباك لأنّه سأل عن ذلك.

قالت: "لا تقلق. لقد تعلّمت التعايش مع هذه الحالة".

عندما وصلا إلى الزقاق المظلل بهوائه البارد، فكّر لانغدون بكلّ ما عرفه للتوّ عن زوبريست ومواقفه الفلسفية المثيرة للقلق.

عاد إلى ذهنه سؤال طرحه على نفسه تكراراً، فأخذ يتساءل بصوت عالٍ: "أولئك الجنود الذين يحاولون قتلنا، من هم؟ هذا غير منطقي. إن كان زوبريست قد وضع وباء محتملاً هناك، ألا يجب أن يكون الجميع على الجانب نفسه؛ يعملون على إيقافه؟".

"ليس بالضرورة. قد يكون زوبريست منبوذاً من قبل المجتمع الطبّي، لكن لديه على الأرجح حشداً غفيراً من المؤيّدين لإيديولوجيته؛ أناساً يوافقون على أنّ الإعدام شرّ لا بدّ منه

لإنقاذ الكوكب. كلّ ما نعرفه هو أنّ أولئك الجنود يحاولون أن يضمنوا تحقّق رؤية زوبريست".

هل يملك زوبريست جيشاً خاصًّا به من الأتباع؟ فكّر لانغدون بذلك الاحتمال. بالطبع، التاريخ مليء بمتعصّبين وبأفراد طوائف قتلوا أنفسهم بسبب أنواع عديدة من المفاهيم الجنونية؛ كالاعتقاد أنّ سفينة فضائية تنتظرهم خلف القمر، أو أنّ يوم الحساب بات وشيكاً. إنّ التكهّنات حول الحدّ من النموّ السكّاني ترتكز على الأقلّ على العلم. لكن، ثمّة شيء لدى أولئك الجنود لا يبدو صحيحاً بالنسبة إلى لانغدون.

"في الواقع، أنا لا أصدّق أنّ حفنة من الجنود المدرّبين يوافقون على قتل أعداد كبيرة من الأشخاص الأبرياء عن سابق معرفة منهم... من دون أن يخافوا من التقاط المرض والموت هم أنفسهم".

نظرت إليه سيينّا وقالت: "روبرت، ماذا يفعل الجنود برأيك عندما يذهبون إلى الحرب؟ إنّهم يقتلون أشخاصاً أبرياء ويخاطرون بحياتهم. فكلّ شيء ممكن عندما يعتقد الناس بقضيّة ما".

"وهل تعتبرين أن نشر وباء بين الناس قضيّة؟".

نظرت إليه سيينّا، وتأمّلته بعينيها البنّيتين. "روبرت، ليس نشر وباء... بل إنقاذ العالم". ثم صمتت قبل أن تضيف: "طرح بيرتراند زوبريست في مقالته سؤالاً افتراضياً واضحاً جدًّا أثار ضجّة كبيرة. أريدك أن تجيب عنه".

"ما هو السؤال؟".

"تساءل زوبريست: إن كان باستطاعتك أن تضرب بسوط وتقتل عشوائياً نصف سكّان العالم، فهل ستفعل ذلك؟".

"بالطبع لا".

"حسناً. لكن، ماذا لو قيل لك إنّك إن لم تضرب بذلك السوط الآن، فإنّ الجنس البشري سينقرض خلال الأعوام المائة القادمة؟". صمتت قليلاً ثمّ تابعت قائلة: "هل ستفعل ذلك عندئذ؟ حتّى لو كان ذلك يعني مقتل أصدقائك، وأسرتك، وربّما مقتلك أنت أيضاً؟".

"سيينّا، لا يمكنني –".

قالت: "هذا سؤال افتراضي. هل ستقتل نصف سكّان العالم اليوم من أجل الحؤول دون انقراض البشر؟".

شعر لانغدون بالاضطراب بسبب هذا الموضوع المروّع الذي يتناقشان به، لذلك أحسّ بالامتنان لدى رؤيته لافتة حمراء مألوفة معلّقة على جانب مبنى حجري أمامهما.

أعلن وهو يشير إلى اللافتة: "انظري، لقد وصلنا".

هزّت سيينّا رأسها قائلة: "كما سبق وقلت. *الإنكار*".

الفصل 51

يقع كازا دي دانتي في فيا سانتا مارغريتا، ويسهل إيجاده بفضل اللافتة الكبيرة المعلّقة على الواجهة الحجرية في منتصف الزقاق: موزيو كازا دي دانتي (متحف منزل دانتي).

رمقت سيينّا اللافتة بتشكّك. "هل نحن ذاهبان إلى *بيت* دانتي؟".

قال لانغدون: "ليس تماماً. فقد عاش دانتي في منزل يقع عند ناصية الشارع، وهذا المكان هو أقرب إلى... متحف لدانتي". غامر لانغدون ذات مرّة بدخول المتحف، إذ دفعه الفضول إلى الاطلاع على المجموعة الفنّية التي تبيّن أنّها مجرّد نسخ من أعمال مشهورة من جميع أنحاء العالم ذات صلة بدانتي، إلاّ أنّه كان من المثير للاهتمام رؤيتها مجموعة تحت سقف واحد.

ظهر الأمل فجأة على وجه سيينّا. "هل تعتقد أنّهم يعرضون نسخة قديمة عن *الكوميديا الإلهية هناك؟*".

ضحك لانغدون وأجاب: "كلاّ. لكنّني أعرف أنّ لديهم محلاً لبيع الهدايا يبيع ملصقات ضخمة تحتوي على النصّ الكامل *للكوميديا الإلهية* مطبوعاً بأحرف مجهرية".

نظرت إليه بذهول.

"أعرف، لكنّها أفضل من لا شيء. المشكلة هي أنّ عينيّ لن تسعفاني، لذلك سيتوجب عليك أن تقرئي عنّي".

قال رجل عجوز بالإيطالية حين رآهما يقتربان من الباب: "إنّه مقفل، فاليوم عطلة".

شعر لانغدون فجأة بالارتباك من جديد. نظر إلى سيينّا وسألها: "أليس اليوم هو... الاثنين؟".

هزّت رأسها موافقة وقالت: "يفضّل أهل فلورنسا أخذ العطلة الأسبوعية يوم الاثنين".

تذمّر لانغدون، وتذكّر فجأة التقويم الأسبوعي غير المألوف في المدينة. فبما أنّ أموال السيّاح تتدفّق بشكل كبير في عطلة نهاية الأسبوع، يختار الكثير من تجّار فلورنسا نقل يوم العطلة من يوم الأحد إلى يوم الاثنين لكي لا يؤثّر ذلك كثيراً على دخلهم.

أدرك لانغدون مع الأسف أنّ هذا الأمر يستبعد الخيار الثاني، أي مكتبة تبادل الكتب؛ وهي من المكتبات الفلورنسية المفضّلة لدى لانغدون، والتي يمكن أن تملك نسخاً عن *الكوميديا الإلهية*.

سألته سيينّا: "هل من أفكار أخرى؟".

فكّر لانغدون للحظة، ثمّ هزّ رأسه أخيراً. "ثمّة مكان قريب يجتمع فيه هواة دانتي. وأرجّح أنّه ثمّة من يملك بينهم نسخة يمكننا أن نستعيرها".

حذّرته سيينّا قائلة: "قد يكون مقفلاً على الأرجح، فكلّ الأماكن في البلدة تقريباً تنقل يوم العطلة إلى غير يوم الأحد".

أجابها لانغدون مبتسماً: "هذا المكان لا يحلم بفعل شيء من هذا القبيل، لأنّه كنيسة".

على بعد خمسين ياردة خلفهما، اختبأ المصاب بالطفح الجلدي الذي يضع قرطاً ذهبياً بين الحشد، واتّكأ على أحد الجدران؛ متلذّذاً بفرصة التقاط أنفاسه. لم يتحسّن تنفّسه، كما أنّ الطفح الجلدي الذي غزا وجهه يصعب عليه تجاهله، لا سيّما المنطقة الحسّاسة فوق عينيه. نزع نظّارة بلوم باريس، ودلّك جفنيه بلطف بكمّ قميصه؛ محاولاً عدم إيذاء بشرته. وعندما وضع النظّارة مجدّداً، رأى طريدتيه تتحرّكان، فأجبر نفسه على اللحاق بهما، وهو يتنفّس ببطء قدر الإمكان.

على بعد عدّة مبانٍ خلف لانغدون وسيينّا، وقف العميل برودر في قاعة الخمسمائة أمام الجثّة المحطّمة للمرأة المألوفة جدًّا بشعرها السبايكي، والتي كانت ممدّدة على الأرض. جثا قربها وتناول مسدّسها، ثمّ نزع بعناية صمّام الأمان قبل إعطائه إلى أحد رجاله.

وقفت مديرة المتحف الحامل، مارتا ألفاريز، جانباً. كانت قد أعطت برودر للتوّ ملخّصاً وجيزاً وهامًّا لما حدث مع روبرت لانغدون منذ الليلة السابقة... بما في ذلك معلومة ما زال برودر يحاول استيعابها.

يدّعي لانغدون أنّه يعاني من فقدان الذاكرة.

تناول برودر هاتفه وطلب رقماً. رنّ الهاتف ثلاث مرّات في الطرف الآخر قبل أن يجيب الصوت الذي بدا بعيداً وغير مستقرّ.

"نعم أيها العميل برودر. ماذا لديك؟".

تحدّث برودر ببطء ليتأكّد من فهم كلّ كلمة يقولها. "ما زلنا نحاول إيجاد لانغدون والفتاة. لكن، ثمّة تطوّر آخر". صمت برودر قبل أن يضيف: "إن كان صحيحاً... فهو يغيّر كلّ شيء".

راح العميد يسير في مكتبه مقاوماً إغراء يحثّه على صبّ كأس أخرى من الشراب؛ مجبراً نفسه على مواجهة هذه الأزمة المتفاقمة وهو بكامل وعيه.

لم يسبق له في حياته قطّ أن خان زبوناً أو أخلف معه في تنفيذ الاتّفاق، وهو بالتأكيد لا ينوي البدء بذلك الآن. في الوقت نفسه، اشتبه أنّه ورّط نفسه في سيناريو غايته مختلفة تماماً عمّا تخيّلهُ في الأصل.

قبل عام، أتى العالِم الوراثي الشهير بيرتراند زوبريست إلى متن *الميندا*سيوم وطلب مكاناً آمناً ليعمل فيه. في ذلك الوقت، تخيّل العميد أنّ زوبريست يخطّط لتطوير عقار طبي سرّيّ سيضاعف ثروته الفاحشة. فهذه ليست المرّة الأولى التي تتمّ فيها الاستعانة بالكونسورتيوم من قبل علماء ومهندسين مصابين بجنون العظمة، يفضّلون العمل في عزلة شديدة لكي لا تتمّ سرقة أفكارهم.

على هذا الأساس، قبِل العميد تقديم خدماته إلى الزبون، ولم يفاجأ عندما علم أنّ أعضاء منظّمة الصحّة العالمية قد بدأوا يبحثون عنه. كما أنّه لم يفكّر كثيراً عندما اكتشف أنّ مديرة المنظّمة نفسها، د. إليزابيث سينسكي، جعلت من تحديد موقع ذلك العميل مهمّة شخصية.

لطالما واجه الكونسورتيوم خصوماً أقوياء.

وكما تمّ الاتّفاق، نفّذ الكونسورتيوم اتّفاقه مع زوبريست من دون طرح أيّ أسئلة، وأحبط جهود سينسكي للعثور عليه طوال مدّة العقد مع العالِم.

تقريباً طوال المدة.

لكن، قبل أسبوع من انتهاء العقد، تمكّنت سينسكي من إيجاد زوبريست في فلورنسا، وسافرت إلى هناك، وراحت تلاحقه إلى أن أقدم على الانتحار. وهكذا، فشل العميد للمرّة الأولى في حياته المهنية في توفير الحماية التي وافق عليها، وأصبحت هذه الحادثة تطارده، بالإضافة إلى الظروف الغريبة التي صاحبت وفاة زوبريست.

فضّل الانتحار... على الوقوع بين أيديهم؟

ما الذي كان زوبريست يحميه بالضبط؟

بعد وفاته، قامت سينسكي بمصادرة شيء من خزنة زوبريست، وأصبح الكونسورتيوم في مواجهة مع سينسكي في فلورنسا؛ يخوض مطاردة خطيرة من أجل إيجاد...

إيجاد ماذا؟

نظر العميد تلقائياً إلى رفّ الكتب، ووقع نظره على المجلّد الثقيل الذي أعطاه زوبريست إيّاه قبل أسبوعين.

الكوميديا الإلهية.

تناول العميد الكتاب، وحمله إلى مكتبه، ثمّ أسقطه محدثاً صوتاً عالياً. فتحه بأصابع غير ثابتة على الصفحة الأولى، وقرأ الإهداء مجدّداً.

صديقي العزيز، شكراً لك لمساعدتي على إيجاد الطريق.
العالم يشكرك أيضاً.

فكّر العميد: *لم نكن يوماً صديقين أنا وأنت.*

قرأ الإهداء ثلاث مرّات أخرى، ثمّ حوّل نظره إلى الدائرة الحمراء الزاهية التي رسمها الزبون على روزنامته، والتي تحدّد تاريخ الغد.

العالم يشكرك؟

استدار وحدّق إلى الأفق مطوّلاً.

فكّر بالفيديو، واستعاد صوت المنسّق نولتون الذي اتّصل به قبل مدّة. *أظنّ أنّك قد ترغب في رؤيته قبل التحميل... المضمون مقلق للغاية.*

ما زالت تلك المكالمة تحيّر العميد. فنولتون واحد من أفضل رجاله، وهذا الطلب لا يتّفق أبداً مع طبعه؛ فهو يفهم البروتوكول جيّداً، واقتراحه تجاوزه أمرٌ غريب.

بعدما أعاد العميد *الكوميديا الإلهية* إلى الرفّ، سار نحو زجاجة الشراب وصبّ نصف كأس.

عليه اتّخاذ قرار بالغ الصعوبة.

الفصل 52

تُعتبر كييزا دي سانتا مارغريتا داي تشيركي، المعروفة باسم كنيسة دانتي، أقرب إلى دار عبادة صغيرة منها إلى كنيسة. فذلك البناء الصغير المؤلّف من غرفة واحدة يشكّل مقصداً شعبياً لمحبّي دانتي الذين يعتبرونه مكاناً للحظتين محوريتين في حياة ذلك الشاعر العظيم.

بحسب ما هو معروف، في هذه الكنيسة، وفي سنّ التاسعة، رأى دانتي للمرّة الأولى بياتريتشي بورتيناري، المرأة التي أغرم بها من النظرة الأولى، والتي تاق قلبه إليها طوال حياته. لسوء حظّ دانتي، تزوّجت بياتريتشي من رجل آخر، ثمّ توفيّت في سنّ الشباب، حين كانت في الرابعة والعشرين من عمرها.

في هذه الكنيسة أيضاً، وبعد بضع سنوات، تزوّج دانتي من غيمّا دوناتي، وكان ذلك سوء اختيار من جانب دانتي، حتّى بنظر الكاتب والشاعر العظيم بوكاتشو. فمع أنّ الزوجين أنجبا أطفالاً، إلاّ أنّهما لم يُظهرا أيّ مودّة تجاه بعضهما. وحتّى بعد نفي دانتي، لم يبدُ أيّ منهما متلهّفاً لرؤية الآخر مجدّداً.

إنّ حبّ حياة دانتي كان وبقي دائماً الراحلة بياتريتشي بورتيناري التي بالكاد عرفها دانتي، إلاّ أنّ ذكراها سيطرت عليه وأصبح شبحها ملهماً لأعماله العظيمة.

هكذا، إنّ ديوان دانتي الشهير *لا فيتا نوفا* يزخر بأبيات عن "بياتريتشي المباركة". كما يبدو شغفه بها واضحاً على نحو أكبر في *الكوميديا الإلهية*؛ حيث يصوّر بياتريتشي على أنّها المنقذة التي تقود دانتي عبر الجنّة. وفي العملَين الأدبيَين الشعريَين، يتوق دانتي إلى حبيبته بعيدة المنال.

اليوم، أصبحت كنيسة دانتي مقصداً لمحطّمي الفؤاد الذين يعانون من حبّ غير متبادل. يقع قبر الشابّة بياتريتشي في الكنيسة، وقد تحوّل ذلك القبر البسيط إلى مقصد لمحبّي دانتي والعشّاق المحبطين على حدّ سواء.

هذا الصباح، شقّ لانغدون وسيينّا طريقهما عبر شوارع فلورنسا القديمة باتّجاه الكنيسة، وظلّت الأزقّة تضيق إلى أن تحوّلت إلى مجرّد ممرّات للمشاة. من وقت إلى آخر، كانت سيّارة محلّية تمرّ عبر تلك المتاهة من الأزقّة وتُجبر المشاة على الالتصاق بالجدران أثناء مرورها.

قال لانغدون لسيينّا: "تقع الكنيسة عند ناصية الشارع". وتمنّى أن يتمكّن أحد السيّاح في الداخل من مساعدتهما. كان يعرف أنّ فرص العثور على شخص صالح أصبحت أفضل الآن؛ لأنّ سيينّا استعادت شعرها المستعار، واسترجع كلّ منهما شخصيته المعتادة؛ متحوّلين من راقص روك وحليقة رأس، إلى أستاذ في الجامعة وشابة أنيقة.

شعر لانغدون بالارتياح في جلده.

عندما دخلا زقاقاً أضيق، هو فيا ديل بريستو، تفحّص لانغدون مختلف المداخل. كان من الصعب دائماً تحديد موقع الكنيسة لأنّ المبنى نفسه صغير جدًّا، وغير مزخرف، كما أنّه محاصر بين مبنيَين آخرَين؛ حيث يمكن للمرء بسهولة أن يمرّ من دون ملاحظته. والغريب أنّه من الأسهل غالباً إيجاد هذه الكنيسة ليس بواسطة العينين... بل *الأذنين*.

من خصائص لا كييزا دي سانتا مارغريتا داي تشيركي أنّها تستضيف تكراراً حفلات موسيقية. وفي حال عدم وجود حفل مقرّر، تبثّ الكنيسة تسجيلات لتلك الحفلات لكي يستمتع الزوّار بالموسيقى في أيّ وقت.

مثلما توقّع لانغدون، تناهى إلى سمعه صوت الموسيقى وهما يمشيان في الزقاق، وراح يعلو باطّراد؛ إلى أن أصبح هو وسيينّا أمام المدخل. كانت الإشارة الوحيدة إلى أنّهما في المكان الصحيح لافتة صغيرة تتناقض تماماً مع اللافتة الحمراء الزاهية لمتحف موزيو كازا دي دانتي، وتعلن بتواضع أنّ هذه كنيسة دانتي وبياتريتشي.

عندما دخل لانغدون وسيينّا الكنيسة المعتمة، أصبح الهواء أكثر برودة، وارتفع صوت الموسيقى. كان المبنى من الداخل صارماً وبسيطاً، وأصغر ممّا يذكر لانغدون. لم يجدا في الداخل سوى حفنة من السيّاح الذين يتحدّثون، أو يكتبون، أو يجلسون في هدوء على المقاعد مستمتعين بالموسيقى، أو متفحّصين المجموعة الغريبة من الأعمال الفنّية.

باستثناء لوحة المادونّا التي رسمها نيري دي بيتشي على المذبح، فإنّ كلّ الأعمال الفنّية الأصلية في هذه الكنيسة قد استُبدلت بأعمال معاصرة تمثّل شخصيتين شهيرتين هما دانتي وبياتريتشي؛ وهما السبب الذي يدفع معظم الزوّار إلى زيارة هذه الكنيسة الصغيرة. أغلب اللوحات تصوّر دانتي - بنظرات الشوق - خلال لقائه الأوّل الشهير ببياتريتشي، حين أُغرم بها على الفور، على حدّ قول الشاعر نفسه. تتفاوت جودة اللوحات إلى حدّ كبير، ومعظمها لا يمتاز بذوق رفيع بنظر لانغدون. في إحداها، يبدو دانتي بقبّعته الحمراء التي تتدلّى على أذنيه. مع ذلك، إنّ الموضوع المتكرّر الذي يركّز على نظرات الشوق التي يوجّهها الشاعر إلى ملهمته بياتريتشي لا يترك مجالاً للشكّ أنّ هذه الكنيسة كنيسةُ آلام حبّ من طرف واحد لم يتكلّل بالزواج.

التفت لانغدون إلى اليسار تلقائياً، وحدّق إلى قبر بياتريتشي بورتيناري المتواضع. كان هذا القبر هو السبب الأساسي الذي يدفع الناس إلى زيارة هذه الكنيسة، مع أنّ هدفهم ليس رؤية القبر نفسه بل رؤية شيء شهير موضوع بجانبه.

سلّة الخوص.

كالعادة هذا الصباح، كانت سلّة الخوص البسيطة موضوعة بجانب قبر بياتريتشي. وكالعادة هذا الصباح أيضاً، كانت تطفح بأوراق مطوية، كلّ منها رسالة مكتوبة بخطّ اليد من أحد الزوّار إلى بياتريتشي نفسها.

لقد أصبحت بياتريتشي بورتيناري أقرب إلى شفيعة العشّاق. واستناداً إلى تقليد قديم، أصبحت الصلوات المكتوبة بخطّ اليد توضع في السلّة على أمل أن تتدخّل بياتريتشي لصالح كاتب الرسالة وتلهم المحبوب بحبّه أكثر، أو تساعد صاحب الرسالة على إيجاد حبّه الحقيقي، أو حتّى تمنحه القوّة لنسيان حبّ مضى.

قبل سنوات عديدة، وبينما كان لانغدون في خضمّ بحث حول كتاب يؤلّفه عن تاريخ الفنّ، توقّف في هذه الكنيسة وترك رسالة في السلّة، لم يطلب فيها من ملهمة دانتي منحه الحبّ الحقيقي، بل إعطاءه بعضاً من الإلهام الذي مكّن دانتي من كتابة مجلّده الضخم.

غنّي بداخلي، أيّتها الملهمة، وبلساني اروي القصّة...

بدت له افتتاحية *أوديسّة* هوميروس ملائمة، واعتقد سرًّا أنّ رسالته كانت ذات جدوى، وذلك لأنّه ألّف الكتاب بسهولة غير اعتيادية عند عودته إلى الوطن.

ارتفع صوت سيينّا فجأة. "سكوزاتي! هلاّ أعرتموني انتباهكم جميعاً".

استدار لانغدون، فرأى سيينّا تتحدّث بصوت عال مع السيّاح الذين التفتوا إليها جميعاً وبدا عليهم القلق.

ابتسمت سيينّا للجميع بلطف وسألتهم بالإيطالية عمّا إذا كان أحدهم يملك بالصدفة نسخة عن *الكوميديا الإلهية*. وجّه إليها الحاضرون نظرات استغراب، وهزّوا رؤوسهم في إشارة نفي، فطرحت السؤال بالإنكليزية، لكن من دون جدوى.

في تلك اللحظة، التفتت امرأة مسنّة كانت تجلس قرب المذبح، وهسهست بحدّة باتّجاه سيينّا رافعة إصبعها على شفتيها طلباً للصمت.

نظرت سيينّا إلى لانغدون وقطّبت جبينها وكأنّها تقول: "ما العمل الآن؟".

لم تكن مبادرة سيينّا ما فكّر فيه لانغدون، لكن عليه أن يقرّ أنّه توقّع استجابة أفضل من الموجودين. ففي الزيارات السابقة، رأى لانغدون عدداً كبيراً من السيّاح الذين يقرأون *الكوميديا الإلهية* في هذا المكان، مستمتعين على ما يبدو بالانغماس التامّ في تجربة دانتي.

لكنّ الأمر يختلف اليوم.

وقع نظر لانغدون على زوجين مسنّين جالسَين بالقرب من مدخل الكنيسة. كان رأس الرجل الأصلع منحنياً إلى الأمام، وقد لامس ذقنه صدره. من الواضح أنّه يأخذ غفوة. أمّا المرأة الجالسة بجانبه فكانت مستيقظة تماماً، يتدلّى من أذنيها سلكان أبيضان لسماعتين تختفيان تحت شعرها الرمادي.

بصيص من الأمل، هذا ما فكّر فيه لانغدون وهو يشقّ طريقه عبر الممرّ إلى أن وصل إلى الزوجين. كما أمل لانغدون، كانت السماعتان البيضاوان موصولتين بهاتف أيفون موضوع على حضنها. عندما لاحظت المرأة أنّها مراقبة، نظرت إلى الأعلى ونزعت السماعتين من أذنيها.

لم يكن لانغدون يعرف اللغة التي تتحدّثها المرأة، لكنّ الانتشار العالمي لأجهزة أيفون، وأيباد، وأيبود استحدث مفردات مفهومة عالمياً مثل رموز الذكر والأنثى المعلّقة على الحمّامات في جميع أنحاء العالم.

سألها لانغدون وهو يتأمّل جهازها بإعجاب: "أهو أيفون؟".

أشرق وجه المرأة العجوز فوراً وهزّت رأسها بفخر، ثمّ همست بلكنة بريطانية: "يا له من جهاز فائق الذكاء! لقد أهداني إيّاه ابني، وكنت أستمع إلى بريدي الإلكتروني. هل تصدّق ذلك؟ أستمع إلى بريدي الإلكتروني! هذا الكنز الصغير *يقرأ* لي الرسائل. فعيناي المسنّتان لا تساعدانني كثيراً".

قال لانغدون مبتسماً وهو يجلس بجانبها، ويحرص على عدم إيقاظ زوجها النائم: "لديّ واحد أنا أيضاً، لكنّني أضعته في الليلة الماضية".

"آه، يا لها من مأساة! هل حاولت إيجاده عبر استخدام ميزة هاتف أيفون؟ يقول ابني –".

"بسبب غبائي، لم أشغّل تلك الميزة قطّ". نظر إليها لانغدون بخجل، وسألها بشيء من التردّد: "إن لم يكن في ذلك تطفّل كبير، هل تمانعين إن استعرت هاتفك للحظة واحدة؟ أريد أن أبحث عن شيء على الإنترنت، وسيساعدني ذلك كثيراً".

"بالطبع!". سحبت السماعتين من أذنيها، ووضعت الجهاز بين يديه. "لا مشكلة على الإطلاق يا عزيزي".

شكرها لانغدون وتناول الهاتف. وبينما راحت تخبره كم ستحزن لو أضاعت هاتفها، فتح لانغدون نافذة بحث غوغل وضغط على زرّ مكبّر الصوت. عندما أصدر الهاتف رنّة واحدة، قال لانغدون.

"دانتي، *الكوميديا الإلهية، الجنّة*، النشيد الخامس والعشرون".

بدت الدهشة على وجه المرأة التي لم تكن تعرف بعد بتلك الميزة. عندما بدأت النتائج بالظهور على الشاشة الصغيرة، ألقى لانغدون نظرة سريعة على سيينّا التي كانت تتفحّص بعض المواد المطبوعة الموضوعة بالقرب من سلّة الرسائل الموجّهة إلى بياتريتشي.

على مسافة غير بعيدة من سيينّا، كان ثمّة رجل يضع ربطة عنق ويركع في الظلّ، ويصلّي بتركيز، خافضاً رأسه إلى الأسفل. لم يستطع لانغدون رؤية وجهه، لكنّه شعر بالأسى على الرجل الوحيد الذي خسر محبوبته على الأرجح، وأتى إلى هذا المكان طلباً للراحة.

أعاد لانغدون تركيزه إلى الأيفون، وتمكّن خلال ثوانٍ من إيجاد رابط يعرض نسخة رقمية من *الكوميديا الإلهية*، ويمكن الوصول إليه مجّاناً لأنّه كان في المجال العامّ. عندما فُتحت الصفحة تحديداً على النشيد 25، أقرّ بإعجابه بالتكنولوجيا. فذكّر نفسه، *عليّ أن أتوقّف عن التمسّك بالكتب ذات الغلاف الجلدي. فالكتب الإلكترونية لها مزاياها أيضاً.*

نظرت إليه المرأة المسنّة، وأبدت بعض القلق حيال ارتفاع كلفة تصفّح الإنترنت في الخارج، فشعر لانغدون أنّ فرصته ستكون قصيرة، وركّز باهتمام على الصفحة المفتوحة أمامه.

كان النصّ مكتوباً بأحرف صغيرة، لكنّ الضوء الخافت الصادر من الكنيسة جعل الشاشة المضيئة أكثر وضوحاً. فرح لانغدون لأنّه وقع صدفة على ترجمة ماندلباوم، وهي ترجمة معاصرة وشعبية قام بها البروفيسور الأميركي الراحل ألان ماندلباوم. وبفضل هذه الترجمة المذهلة، نال ماندلباوم أعلى تكريم في إيطاليا، وهو الصليب الرئاسي لوسام نجمة التضامن الإيطالي. ومع أنّ ترجمة ماندلباوم أقلّ شاعرية من ترجمة لونغفيلوي، إلاّ أنّها مفهومة أكثر بكثير.

فكّر لانغدون: *سأختار اليوم الوضوح عوضاً عن الشعر*، وتمنّى أن يجد في النصّ على الفور إشارة إلى مكان محدّد في فلورنسا؛ المكان الذي خبّأ فيه إغناتسيو قناع دانتي.

لم تكن شاشة الأيفون الصغيرة تعرض سوى ستّة أسطر في وقت واحد. وبينما بدأ لانغدون يقرأ، أخذ يتذكّر النصّ. في بداية النشيد 25، ذكر دانتي *الكوميديا الإلهية* نفسها، والكلفة الماديّة التي تكبّدها لكتابتها، كما ذكر أمله المؤلم في أن تتغلّب قصيدته الجميلة على قسوة المنفى الذي أبعده عن مدينته الجميلة فلورنسا ووحشيته.

النشيد 25

إن كان سيحدث... إن كانت هذه القصيدة المبجّلة
هذا العمل المتقاسم بين السماء والأرض
الذي جعلني أنحني مع مرور السنوات الطويلة
تستطيع أن تتغلب على الوحشية
التي تبعدني عن الحظيرة الجميلة التي كنت أرقد فيها،
حمل في مواجهة جيش من الذئاب...

مع أنّ هذا المقطع يشكّل تذكيراً أنّ فلورنسا الجميلة هي الوطن الذي تاق إليه دانتي وهو يؤلّف *الكوميديا الإلهية*، إلاّ أنّ لانغدون لم يجد فيه إشارة إلى مكان محدّد في المدينة.

قاطعته المرأة وهي ترمق هاتفها بقلق مفاجئ: "ماذا تعرف عن الرسوم المفروضة على البيانات؟ تذكّرت للتوّ أنّ ابني طلب منّي أن أكون حذرة لدى تصفّح الإنترنت في الخارج".

أكّد لها لانغدون أنّه لا يحتاج إلى أكثر من دقيقة، وعرض أن يسدّد لها كلفة استخدامه الهاتف. لكن، مع ذلك، شعر أنّها لن تسمح له أبداً بقراءة النشيد 25 المؤلّف من مائة بيت.

مرّر النصّ بسرعة إلى الأسطر الستّة التالية وتابع القراءة.

عندئذ، بصوت آخر وبصوف آخر،
سأعود كشاعر وأضع،
عند جرن معموديتي، إكليل الغار؛

لأنني هناك اعتنقت ذلك الإيمان
الذي يجعل النفوس ترحب بالله، ويومها،
بسبب ذلك الإيمان، كلل بيتر جبيني.

تذكّر لانغدون قليلاً هذا المقطع أيضاً، وفيه إشارة مبطّنة إلى صفقة سياسية عُرضت على دانتي من قبل أعدائه. بحسب التاريخ، إنّ "الذئاب" الذين نفوا دانتي من فلورنسا أخبروه أنّه لا يستطيع العودة إلى المدينة إلاّ إن وافق على تحمّل الخزي العلني، المتمثّل بالوقوف أمام جماعة كبيرة وحده في جرن المعمودية، وهو لا يرتدي سوى رداء من الخيش اعترافاً بذنبه.

في النصّ الذي قرأه لانغدون للتوّ، يقول دانتي، بعدما رفض الصفقة، إنّه إن عاد يوماً ما إلى جرن معموديته، فلن يكون مرتدياً ثوب الخيش الذي يرتديه المذنبون، بل سيكون واضعاً إكليلاً من الغار يليق بالشعراء.

رفع لانغدون سبّابته لتمرير النصّ أكثر، لكنّ المرأة اعترضت فجأة، ومدّت يدها طالبة هاتفها، بعدما أعادت النظر كما يبدو في سماحها للانغدون باستخدامه.

لكنّ لانغدون بالكاد سمعها. ففي اللحظة التي سبقت لمسه للشاشة، وقعت عيناه على بيت... ورآه للمرّة الثانية.

سأعود كشاعر وأضع،
في جرن معموديتي، إكليل الغار؛

حدّق لانغدون إلى تلك الكلمات، وشعر أنّه في غمرة بحثه عن مكان محدّد، كادت أن تفوته إشارة واضحة في الأبيات الأولى.

في جرن معموديتي...

كانت فلورنسا موطناً لواحدٍ من أجران المعمودية الأشهر في العالم، الذي استُخدم لأكثر من سبعمائة عام لتعميد الفلورنسيين الصغار، ومن بينهم دانتي أليغييري.

تذكّر لانغدون على الفور المبنى الذي يحتوي على الجرن. كان صرحاً رائعاً مثمّن الزوايا، يُعتبر من نواحٍ عديدة أكثر جمالاً من الكاتدرائية نفسها. وتساءل الآن عمّا إذا كان قد قرأ ما فيه الكفاية.

هل يمكن أن يكون هذا المبنى هو المكان الذي يشير إليه إغناتسيو؟

فجأة، ومض في ذهن لانغدون ضوء ذهبي مع تجسّد صورة جميلة في خياله، أبواب برونزية رائعة، تلمع وتتألّق تحت شمس الصباح.

عرفت ماذا حاول إغناتسيو أن يقول لي!

ثمّ تبخّرت كلّ الشكوك بعد لحظات؛ عندما أدرك أنّ إغناتسيو بوزوني هو الشخص الوحيد في فلورنسا الذي يستطيع فتح تلك الأبواب.

روبرت، الأبواب مفتوحة أمامك، لكن عليك أن تسرع.

أعاد لانغدون الأيفون إلى المرأة المسنّة وشكرها شكراً جزيلاً.

اندفع إلى سيينّا وهمس بحماسة: "عرفت عن أيّ أبواب كان إغناتسيو يتحدّث! إنّها *أبواب الجنّة!*".

نظرت إليه سيينّا بتشكّك: "أبواب الجنّة؟!".

ابتسم لانغدون ابتسامة متعبة وتوجّه إلى الباب قائلاً: "في الواقع، إن عرفت أين تبحثين فستجدين أنّ فلورنسا رائعة بحدّ ذاتها".

الفصل 53

سأعود كشاعر... إلى جرن معموديتي.

ترددت كلمات دانتي في ذهن لانغدون وهو يقود سيينّا شمالاً في الزقاق الضيّق المعروف باسم فيا ديلّو ستوديو. مع كلّ خطوة كانا يتقدّمان فيها إلى وجهتهما، كان يشعر بثقة أكبر أنّهما على الطريق الصحيح، وأنّهما ابتعدا عن مطارديهما.

الأبواب مفتوحة أمامك، لكن عليك أن تسرع.

عندما اقتربا من نهاية الزقاق الشبيه بالصدع، بدأ لانغدون يسمع أصوات الحركة منخفضة الوتيرة أمامه. فجأة، انتهى الزقاق ليخرجا منه إلى ساحة مترامية الأطراف.

بياتزا ديل دوومو.

كانت هذه الساحة الشاسعة، بشبكتها المعقّدة من الأبنية، مركز فلورنسا الديني قديماً. أمّا اليوم، فأصبحت أقرب إلى مركز للسيّاح، وكانت قد بدأت تعجّ بالحافلات السياحية وحشود الزوّار الذين يتجمّعون حول كاتدرائية فلورنسا الشهيرة.

بعدما وصل لانغدون وسيينّا إلى الجزء الجنوبي من الساحة، أصبحا بمواجهة جانب الكاتدرائية، برخامها رائع الألوان من الأخضر، والوردي، والأبيض. كانت الكاتدرائية تخطف الأنفاس بحجمها وبالفنّ المستخدم في بنائها. وكانت تمتدّ بالاتّجاهين لمسافات بعيدة جدًّا كما يبدو؛ إذ يعادل طولها تقريباً طول نصب واشنطن ممدّداً على جانبه.

على الرغم من تخلّي الكنيسة عن الزخرفة الحجرية التقليدية أحادية اللون لصالح المزيج غير المألوف للألوان الصارخة، إلاّ أنّ الهيكل كان يمتاز بنمط قوطي صافٍ؛ كلاسيكي، وقوي، ومتين. يعترف لانغدون أنّه في زيارته الأولى إلى فلورنسا وجد الهندسة المعمارية للكاتدرائية مبهرجة تقريباً. لكن في الزيارات التالية، أخذ يدرس البناء لساعات متواصلة، وقد أسرته على نحو غريب تأثيراته الجمالية غير المألوفة، إلى أن أصبح أخيراً يقدّر جمال الكاتدرائية الخلاّب.

لم يقتصر عطاء كاتدرائية إيل دوومو، المسمّاة أيضاً سانتا ماريا ديل فيوري، على توفير لقب لإغناتسيو بوزوني، بل اعتُبرت لفترة طويلة القلب الروحي لفلورنسا، كما اشتمل تاريخها على قرون من الدراما والإثارة. إذ تراوح ماضي البناء المتقلّب بين المناقشات الطويلة والشرسة حول جدارية فاساري المكروهة، التي تحمل اسم *يوم القيامة*، والتي تغطّي الجهة الداخلية للقبّة... والمنافسة الحامية لاختيار مهندس لإنهاء القبّة نفسها.

في نهاية المطاف، فاز فيليبّو برونيلّيسكي بالعقد المربح، وأكمل بناء القبّة التي كانت الكبرى في ذلك الزمن. وحتّى هذا اليوم، يمكن رؤية برونيلّيسكي نفسه في منحوتة، جالساً خارج بالاتزو داي كانونيتشي، يتأمّل تحفته راضياً.

هذا الصباح، عندما نظر لانغدون إلى القبّة الحمراء التي شكّلت إنجازاً معمارياً في زمانها، تذكّر اليوم الذي قرّر فيه بحماقة اعتلاء القبّة ليكتشف أنّ سلالمها الضيّقة المكتظّة بالسيّاح لا تختلف عن الأماكن الخانقة التي تواجد فيها. مع ذلك، كان لانغدون ممتنًّا للمحنة التي عاناها وهو يتسلّق "قبّة برونيلّيسكي" لأنّها شجّعته على قراءة كتاب مسلٍّ لروس كينغ يحمل العنوان نفسه.

سألته سيينّا: "روبرت، ألن تتابع الطريق؟".

أبعد لانغدون نظره عن القبّة، ليدرك أنّه توقّف لتأمّل البناء. "آسف على ذلك".

واصلا التقدّم سالكَين محيط الساحة. أصبحت الكنيسة إلى يمينهما الآن، ولاحظ لانغدون أنّ السيّاح بدأوا يتدفّقون من أبوابها الجانبية، وهم يشطبون الكنيسة من لائحة الأماكن التي سيزورونها.

ارتفع أمامهما برج الأجراس الذي لا يمكن إخطاؤه، وهو المبنى الثالث في مجمّع الكاتدرائية. كان معروفاً باسم برج جرس جوتّو، وهو لا يدعُ مجالاً للشكّ في أنّه ينتمي إلى الكاتدرائية المجاورة له. فقد كان البرج المربّع، بألوان واجهته الوردية والخضراء والبيضاء المشابهة لألوان الكاتدرائية، يرتفع في السماء على علو شاهق يقارب ثلاثمائة قدم. لطالما دُهش لانغدون من صمود هذا البناء طوال قرون، على الرغم من الزلازل وسوء الأحوال الجوّية، لا سيّما مع ثقل وزنه، وذلك لأنّ قمّته تحمل أجراساً يتجاوز وزنها عشرين ألف باوند.

مشت سيينّا بجانبه بسرعة، وهي تتأمّل بعصبية السماء خلف برج الأجراس، بحثاً كما يبدو عن طائرة مراقبة، لكنّها لم تجد شيئاً في الأجواء. كان الحشد كثيفاً؛ حتّى في هذه الساعة المبكرة، وحرص لانغدون على البقاء في الوسط.

عندما اقتربا من برج الأجراس، مرّا بصفّ من فنّاني الكاريكاتير الواقفين أمام حوامل الرسم يرسمون صوراً كرتونية للسيّاح. مراهق يقف على لوح تزلّج، فتاة ذات أسنان كأسنان الحصان تحمل عصا لاكروس، وعروسان يقبّلان بعضهما على ظهر وحيد قرن. وجد لانغدون أنّه من الممتع السماح بهذا النشاط في المكان نفسه الذي وضع فيه مايكل أنجلو حامل الرسم الخاصّ به وهو صبيّ.

تابع لانغدون وسيينّا طريقهما حول قاعدة برج جوتّو، ثمّ انعطفا يميناً، واجتازا الساحة المفتوحة مباشرة أمام الكاتدرائية. في هذا المكان، كانت الحشود أكثر كثافة، وكان السيّاح من مختلف أنحاء العالم يوجّهون كاميرات هواتفهم وآلات الفيديو نحو الأعلى لتصوير الواجهة الرئيسة الملوّنة.

بالكاد نظر لانغدون إلى الأعلى، وذلك لأنّ انتباهه كان مركّزاً على مبنى أصغر بكثير ظهر أمامه للتوّ. أمام مدخل الكاتدرائية مباشرة، يقع البناء الثالث والأخير في مجمّع الكاتدرائية.

كان أيضاً البناء المفضّل لدى لانغدون.

معمودية سان جوفانّي.

كانت المعمودية ذات الواجهة المزيّنة بالألوان المتعدّدة والأعمدة المخطّطة مثل الكاتدرائية، وتمتاز عن المبنى الأكبر حجماً بشكلها اللافت: بناء مثمّن الأضلاع. ادّعى البعض أنّها تشبه قالب حلوى مؤلّفاً من طبقات؛ إذ إنّها تتألّف من ثلاثة طوابق مميّزة يعلوها سقف أبيض منخفض.

مع أنّ لانغدون يعتبر المعمودية أحد أروع الأبنية في فلورنسا، إلاّ أنّه يجد أن اختيار الموقع غير عادل إلى حدّ ما. ففي أيّ مكان آخر على وجه الأرض، كانت هذه المعمودية ستشكّل مركز الاهتمام. أمّا هنا، فإنّها تبدو أقلّ شأناً في ظلّ المبنيين الشاهقين المجاورين لها.

ذكّر لانغدون نفسه أنّ هذا الانطباع يتغيّر ما إن يخطو المرء إلى الداخل، وأخذ يتذكر داخل المبنى المزيّن بالفسيفساء الخلاّبة التي دفعت بعض المعجبين بالعمل المعماري إلى وصف سقف المعمودية أنّه عمل معماريّ يثير الإعجاب. كان لانغدون قد قال لسيينّا، *إن عرفت أين تبحثين فستجدين أنّ فلورنسا رائعة بحدّ ذاتها.*

لقرون عديدة، استضاف هذا البناء مثمّن الأضلاع مراسم عمادة عدد لا يحصى من الشخصيات البارزة، وكان دانتي واحداً منهم.

سأعود كشاعر... إلى جرن معموديّتي.

بعدما حكم على دانتي بالنفي، لم يسمح له قطّ بالعودة إلى هذا المكان، مكان عمادته، مع أنّ لانغدون يأمل أن يكون قناع دانتي قد وجد طريقه أخيراً إلى هذا المكان عوضاً عن دانتي، وذلك من خلال سلسلة الأحداث التي تتالت في الليلة الفائتة.

فكّر لانغدون، *لا بدّ أن تكون المعمودية هي المكان الذي خبّأ فيه إغناتسيو القناع قبل وفاته.* تذكّر الرسالة الصوتية اليائسة التي تركها إغناتسيو، وأحسّ بقشعريرة وهو يتخيّل الرجل البدين يمسك بصدره ويترنّح لاجتياز الساحة إلى أحد الأزقّة، ويجري مكالمته الهاتفية الأخيرة بعدما ترك القناع بأمان في المعمودية.

الأبواب مفتوحة أمامك.

ظلّ نظر لانغدون مركّزاً على المعمودية وهو يسير مع سيينّا بين حشود المارّة. كانت سيينّا تسير الآن بلهفة كبيرة؛ إلى حدّ أنّ لانغدون اضطرّ للهرولة لمجاراتها. حتّى من تلك المسافة البعيدة، استطاع رؤية أبواب المعمودية الضخمة وهي تلمع تحت أشعّة الشمس.

استغرقت تلك الأبواب المصنوعة من البرونز المذهّب والتي يتجاوز طولها خمس عشرة قدماً، من لورنزو غيبيرتي ما يزيد عن عشرين عاماً لإتمامها. كانت مزخرفة بعشر لوحات لشخصيات مستمدّة من التوراة، وذلك بجودة عالية دفعت فاساري إلى وصف الأبواب على أنّها "كاملة بلا أيّ شكّ من جميع النواحي... وأروع تحفة على وجه الأرض".

غير أنّ شهادة مايكل أنجلو هي التي منحت الأبواب لقباً ظلّ حياً حتى هذا اليوم. إذ أعلن الفنان الشهير أنّها جميلة جدًّا.

الفصل 54

التوراة بالبرونز. هذا ما فكّر فيه لانغدون وهو يتأمّل الباب الجميل الذي يقف أمامه.

تتألّف أبواب غيبيرتي من عشر لوحات مربّعة، تصوّر كلّ منها مشهداً مهمًّا من العهد القديم. تبدأ النقوش من جنّة عدن، وتنتقل إلى موسى، وهيكل الملك سليمان، حيث تقصّ رواياتها على عمودين أفقيين يتألف كلّ منهما من خمس لوحات.

ولّدت المجموعة المذهلة من اللوحات الفردية على مرّ القرون ما يشبه مسابقة شعبية بين الفنانين ومؤرّخي الفنّ، خاض الجميع خلالها - بدءاً من بوتيتشيلّي إلى النقاد المعاصرين - جدالاً حول "اللوحة الأكثر جمالاً". وكانت اللوحة الفائزة، بالإجماع العام عبر القرون، لوحة يعقوب وعيسو، اللوحة الوسطى في العمود الأيسر التي اختيرت بحسب المزاعم نظراً إلى العدد المذهل من الأساليب الفنية التي استخدمت في صنعها. غير أنّ لانغدون يعتقد أنّ السبب الفعلي وراء هيمنة اللوحة على اللوحات الأخرى هو اختيار بوتيتشيلّي لها لتوقيع اسمه عليها.

قبل بضع سنوات، ذهب إغناتسيو بوزوني مع لانغدون بفخر لرؤية هذه الأبواب، واعترف له بخجل أنّه بعد نصف ألفية من التعرض للفيضانات، والتخريب، وتلوّث الهواء، تم استبدال الأبواب المذهّبة بهدوء بأخرى مقلّدة، واحتُفظ بالأبواب الأصلية في موزيو ديل أوبرا ديل دوومو لترميمها. فامتنع لانغدون بتهذيب عن إخبار بوزوني أنّه يدرك تماماً أنّهما يتأملان أبواباً مزيّفة، وأنّ هذه النسخة في الواقع هي المجموعة الثانية من أبواب غيبيرتي "المزيّفة" التي يراها. إذ وقع على النسخة الأولى عن طريق الصدفة؛ بينما كان يجري بحثاً حول متاهات كاتدرائية غريس في سان فرانسيسكو، واكتشف أنّه تمّ استعمال نسخة عن أبواب غيبيرتي لمدخل الكاتدرائية منذ أواسط القرن العشرين.

بينما كان لانغدون واقفاً أمام تحفة غيبيرتي، استرعت انتباهه لوحة إعلانية معلقة في الجوار، كتبت عليها جملة إيطالية بسيطة أفزعته.

لا بيستي نيرا. كانت العبارة تعني "الموت الأسود". قال لانغدون لنفسه: *يا إلهي، أنا أجده أينما ذهبت!* بحسب اللوحة، تمّ التكليف بصنع الباب امتناناً لنجاة فلورنسا إلى حدّ ما من الطاعون.

أجبر لانغدون نفسه على التركيز على الباب، في حين ترددت كلمات إغناتسيو في ذهنه مجدّداً. *الأبواب مفتوحة أمامك، لكن عليك أن تسرع*.

على الرغم من وعد إغناتسيو، إلاّ أنّ *أبواب الجنة* كانت موصدة حتماً؛ كعادتها، باستثناء المناسبات الدينية النادرة. وعادة، يدخل السياح إلى المعمودية من جهة أخرى؛ عبر الباب الشمالي.

وقفت سيينّا قربه على رؤوس أصابعها، محاولة النظر من بين الحشد. قالت: "الباب المواجه لنا ليس مزوّداً بمقبض، أو بقفل، أو أي شيء".

هذا صحيح. كان لانغدون يعرف أنّ غيبيرتي ما كان ليتلف تحفته بشيء تافه، مثل مقبض باب. "الباب يفتح إلى *الداخل*، ويقفل من هناك".

فكّرت سيينّا وهي تلوي شفتيها، ثمّ قالت: "إذاً، من بعيد... لا يمكن لأحد أن يعرف إن كانت الأبواب مقفلة أم لا".

أومأ لانغدون موافقاً. "آمل أن يكون هذا بالضبط ما فكّر فيه إغناتسيو".

مشى بضع خطوات إلى اليمين، وألقى نظرة على الجهة الشمالية للمبنى، فرأى هناك باباً أقلّ زخرفة، هو باب السياح. وقف عنده رجل يدخّن سيجارة وقد بدا عليه الملل، وراح يصرف السياح الذين أتوا يستفسرون بالإشارة إلى لافتة علّقت على المدخل: *أبيرتورا* 13:00–17:00.

فكّر لانغدون مسروراً، *لا تُفتح الأبواب قبل عدّة ساعات. ولم يدخل أحد بعد.*

نظر تلقائياً إلى معصمه، وتذكّر مجدّداً فقدانه ساعة ميكي ماوس.

عندما عاد إلى سيينّا، وجدها بين مجموعة من السياح الذين أتوا لالتقاط الصور من وراء السور الحديدي البسيط الذي تمّ بناؤه على مسافة عدّة أقدام من الأبواب، لمنع السياح من الاقتراب من تحفة غيبيرتي كثيراً.

صنعت بوابة السور من الحديد المطاوع الأسود، وتعلوها مسامير مطلية بماء الذهب. وهذا السور يشبه السور البسيط الذي غالباً ما يحيط بالمنازل في الضواحي. والغريب أنّ اللافتة الإعلامية التي تصف أبواب الجنة لم تعلّق على الأبواب نفسها، بل على هذا السور العادي جدًّا.

كان لانغدون قد سمع أنّ اللافتة تسبب أحياناً إرباكاً للسياح. وبالفعل، أتت في تلك اللحظة امرأة مكتنزة ترتدي ملابس أنيقة، ثمّ نظرت إلى اللافتة، وحملقت عابسة إلى السور الحديدي، قبل أن تقول ساخرة: "*أبواب الجنة؟* تبًّا، تبدو مثل سياج وجار كلبي!". ثمّ انصرفت قبل أن يتمكّن أحد من الشرح لها.

مدّت سيينّا يدها وأمسكت البوابة، ثمّ نظرت على نحو غير لافت للانتباه عبر القضبان إلى القفل الموجود في الخلف.

التفتت إلى لانغدون بدهشة وهمست قائلة: "انظر، القفل في الخلف غير موصد".

نظر لانغدون عبر القضبان وأدرك أنّها محقة؛ فقد كان القفل مثبّتاً ليبدو أنّه مقفل، لكن عندما تفحّصه عن كثب، عرف أنّه مفتوح حتماً.

الأبواب مفتوحة أمامك، لكن عليك أن تسرع.

نظر لانغدون إلى مصراعي الباب البرونزيين خلف السور. إن كان إغناتسيو قد ترك فعلاً أبواب المعمودية مفتوحة، فما عليه سوى دفعها. لكنّ التحدّي يكمن في الدخول من دون لفت أنظار كلّ الموجودين في الساحة، بمن فيهم من دون شكّ الشرطة وحرّاس الدوومو.

فجأة، صاحت امرأة في الجوار: "انظروا! سوف يقفز!". كان صوتها مليئاً بالرعب. "هناك، على برج الأجراس!".

استدار لانغدون ورأى أنّ المرأة التي تصرخ لم تكن سوى... سيينّا. كان تقف على بعد خمس ياردات، وتشير بإصبعها إلى برج الأجراس وهي تصيح: "هناك في الأعلى! سوف يقفز!".

توجّهت كلّ الأنظار إلى الأعلى، وبدأ أشخاص آخرون يقفون بجوارها ويشيرون وينادون بعضهم بعضاً.

"أحدهم سيقفز؟!".

"أين؟!".

"لا أراه!".

"هناك إلى اليسار!".

لم يستغرق الأمر سوى ثوانٍ حتّى عمّ الذعر أرجاء الساحة، وأخذ الجميع يحدقون إلى قمّة البرج. انتشر الذعر في الساحة كالنار في الهشيم، إلى أن اشرأبّت كلّ الأعناق وارتفعت كلّ الأيادي مشيرة إلى البرج.

التسويق عبر التناقل. فكّر لانغدون بذلك، وأدرك أنّه لا يملك سوى ثوانٍ للتصرّف. أمسك على الفور ببوابة السور الحديدي وفتحها في اللحظة التي عادت فيها سيينّا، فتسلّلت معه إلى المساحة الضيقة خلف السور. ما إن أغلقت البوابة خلفهما حتى استدارا لمواجهة مصراعي الباب البرونزيين بارتفاعهما البالغ خمس عشرة قدماً. أمل لانغدون ألاّ يكون قد أخطأ في فهم إغناتسيو وهو يلقي بثقله على أحد المصراعين ويدفع بقوّة.

لم يحدث شيء في البداية. لكن، بعد برهة، بدأ ذلك الجزء بالتحرّك ببطء شديد. *الباب مفتوح!* لمسافة قدم واحدة تقريباً، فلم تُضع سيينّا ثانية واحدة، بل وقفت بشكل جانبي وانزلقت إلى الداخل، وحذا لانغدون حذوها ودخل جانبياً عبر الفتحة الضيّقة إلى ظلام المبنى.

بعد ذلك، استدارا معاً وأغلقا الباب الضخم الذي أطلق صوت جلجلة قويًّا. على الفور، تلاشت الأصوات والجلبة الآتية من الخارج، وخيّم الصمت المطبق.

أشارت سيينّا إلى عارضة خشبية طويلة متروكة على الأرض عند أقدامهما، من الواضح أنّها تستخدم كمزلاج يتم إسقاطه في قوسين من جانبي الباب. قالت: "لا بدّ أنّ إغناتسيو قد أزاله من أجلك".

رفعا العارضة معاً، وأسقطاها في مكانها، وأقفلا بالفعل *أحد أبواب الجنّة*... وحبسا نفسيهما في الداخل.

وقف لانغدون وسيينّا مطوّلاً بصمت، متكئين على الباب وهما يلتقطان أنفاسهما. مقارنة بضجيج الساحة، كان قلب المعمودية غارقاً في السكينة.

خارج معمودية سان جوفانّي، مشى صاحب نظارة بلوم باريس وربطة عنق بيزلي بين حشود السياح، متجاهلاً نظرات من لاحظوا طفحه الجلدي.

كان قد وصل للتوّ إلى الباب البرونزي الذي اختفى وراءه لانغدون ورفيقته الشقراء بذكاء. حتى من الخارج، كان قد سمع دويّ الباب وهو يوصد من الداخل.

لا يمكن الدخول من هذا الباب.

كانت الساحة تستعيد أجواءها الطبيعية ببطء. فالسياح الذين كانوا يحدقون إلى الأعلى بترقّب، فقدوا اهتمامهم بعدما أدركوا عدم وجود أحد ينوي القفز، وتابع الجميع طريقهم.

عاوده الحكاك مجدداً، وأخذ الطفح يتفاقم. تورّمت أنامله الآن وبدأت تتشقّق. فأدخل يديه في جيبيه لمنع نفسه من حكّ بشرته. عاوده الألم في صدره عندما بدأ يدور حول المبنى مثمّن الأضلاع بحثاً عن مدخل آخر.

وحين وصل إلى الزاوية، شعر بألم حاد بين ساقيه، وأدرك أنّه يحكّ مجدّداً.

الفصل 55

بحسب الأسطورة، عند دخول معمودية سان جوفانّي، من المستحيل عدم النظر إلى الأعلى. وعلى الرغم من مجيء لانغدون إلى هذه القاعة مرات عديدة، فقد شعر الآن بجاذبية المكان، وترك نظره يصعد إلى السقف.

في الأعلى، امتدّ سقف المعمودية المقبّب على أكثر من ثمانين قدماً من جهة إلى أخرى، وراح يلمع ويومض كما لو كان مصنوعاً من الجمر. عكس سطحه الذهبي عنبري اللون الضوء المحيط به على نحو غير متساوٍ من أكثر من مليون قطعة *سمالتي*؛ وهي عبارة عن قطع فسيفساء دقيقة غير مقصوصة يدوياً من زجاج السيليكا المصقول، تمّ ترتيبها في ست حلقات متّحدة المركز لتصوّر مشاهد من الكتاب المقدّس.

اخترق النور الطبيعي القاعة، مضفياً دراما صارخة على الجزء العلوي منها، وذلك عبر فتحة مركزية شبيهة بتلك الموجودة في البانثيون في روما، وعبر سلسلة من النوافذ العميقة الصغيرة والمرتفعة التي تلقي أشعّة من الضوء المركّز والمتماسك إلى حد تبدو معه وكأنها صلبة؛ مثل عوارض بنيوية مشيّدة وفقاً لزوايا متغيّرة.

عندما مشى لانغدون مع سيينّا في القاعة، استحوذت عليه فسيفساء السقف الأسطورية التي تشبه إلى حدّ كبير ما وصفه دانتي في *الكوميديا الإلهية*.

فكّر لانغدون: *لقد رأى دانتي أليغييري هذا في طفولته. إنّه إلهام من الأعلى.*

ثبّت لانغدون نظره الآن على محور لوحة الفسيفساء. فوق المذبح الرئيس مباشرة، ارتفعت صورة ليسوع المسيح بطول سبعٍ وعشرين قدماً، تظهره وهو جالس، بالإضافة إلى لوحة فسيفسائية أخرى تصوّر الشيطان.

لطالما أجفل لانغدون كلّما رأى هذه الصورة التي حدّق إليها دانتي أليغييري الصغير قبل أكثر من سبعمائة عام، فأرعبته وألهمته لاحقاً بذلك التصوير الحي لما يختبئ في الحلقة الأخيرة من الجحيم.

تصوّر الفسيفساء في الأعلى شيطاناً ذا قرون يلتهم كائناً بشرياً بدءاً من رأسه. فيما تدلّت ساقا الضحية من فم الشيطان على نحو شبيه بسيقان الخطأة نصف المدفونين التي تتلوّى في ماليبولغي دانتي.

فكّر لانغدون وهو يتذكّر النصّ: *إمبراطور مملكة الأحزان.*

خرج من أذني الشيطان ثعبانان ضخمان يتلوّيان، ويقومان بأكل الخطأة على نحو يعطي الانطباع أنّ الشيطان يملك ثلاثة رؤوس، كما وصفه دانتي بالضبط في النشيد الأخير من *الإنفيرنو*. بحث لانغدون في خبايا ذاكرته، واستعاد مقاطع من تخيّلات دانتي.

على رأسه ثلاثة وجوه... يسيل من أذقانه الثلاثة دم مزبد... يستعمل أفواهه الثلاثة كمطاحن... يلتهم الخطأة كلّ ثلاثة معاً.

بينما كان لانغدون يحدّق إلى المشهد المروّع، حاول أن يتخيّل تأثير الفسيفساء على دانتي الشابّ الذي كان يأتي للصلاة في هذه الكنيسة عاماً بعد عام، ويرى الشيطان وهو يحدّق إليه في كلّ مرّة يصلّي فيها. لكن هذا الصباح، شعر لانغدون أنّ الشيطان يحدّق *إليه* مباشرة، وداهمه إحساس بعدم الارتياح.

أخفض نظره بسرعة إلى شرفة الطابق الثاني للمعمودية والقاعة، وهي المكان الوحيد الذي يُسمح فيه للنساء بمشاهدة مراسم التعميد، ومنها إلى التابوت المعلّق للبابا يوحنا الثالث والعشرين، الذي تتمدّد جثّته على ارتفاع عالٍ في الجدار، وكأنّه من ساكني الكهوف أو موضوع خدعة قام بها ساحر.

أخيراً، وصل نظره إلى بلاط الأرض المزخرف الذي يعتقد كثيرون أنّه يشتمل على إشارات إلى علم الفلك في القرون الوسطى. ترك بصره يتنقّل فوق الأشكال المعقّدة السوداء والبيضاء إلى أن بلغ وسط القاعة.

ها هو أخيراً، هذا ما فكّر فيه لانغدون وهو يُحدّق إلى المكان الذي عُمّد فيه دانتي أليغييري في النصف الثاني من القرن الثالث عشر. أعلن قائلاً: "*سأعود كشاعر... إلى جرن معموديتي*". وتردّد صوته في القاعة الخالية. "ها هو".

بدا على سيينّا الاضطراب وهي ترمق وسط الأرض، حيث يشير لانغدون. "لكن... لا يوجد شيء هنا".

أجاب لانغدون: "ليس بعد الآن".

لم يتبقَّ شيء سوى مساحة بنّية مائلة إلى الاحمرار ذات شكل مثمّن الأضلاع. هذه المنطقة العادية جدًّا بجوانبها الثمانية تتناقض بوضوح مع أرضية القاعة المزخرفة، وتشبه كثيراً فجوة كبيرة. وفي الواقع، هذا ما هي عليه بالضبط.

شرح لها لانغدون بسرعة أنّ جرن المعمودية الأصلي كان عبارة عن حوض كبير مثمّن الأضلاع يقع في وسط هذه القاعة تماماً. وفي حين أنّ أجران المعمودية الحديثة عبارة عن أحواض مرتفعة، كانت الأجران القديمة أقرب إلى حوض عميق للماء يتمّ فيه غمر المعمّدين بشكل أعمق. تساءل لانغدون كيف كانت هذه القاعة تبدو بينما الأطفال يصيحون خوفاً وهم يُغمرون فعليًّا في حوض المياه الباردة الذي كان موجوداً في وسطها.

قال لانغدون: "كان التعميد بارداً ومخيفاً؛ حتّى إنّه كان خطيراً. فحسب المزاعم، قفز دانتي مرّة في الجرن لإنقاذ طفل يغرق. على كلّ حال، تمّت تغطية الجرن الأصلي في مرحلة ما في القرن السادس عشر".

بدأت سيينّا تنظر في أرجاء القاعة بقلق واضح. "لكن، إن كان جرن معمودية دانتي قد اختفى... فأين خبّأ إغناتسيو القناع؟!".

فهم لانغدون سبب توتّرها. في الواقع، لا تفتقر هذه القاعة الضخمة إلى المخابئ؛ خلف الأعمدة والتماثيل والقبور، وداخل المحاريب، وعلى المذبح، وحتّى في الطابق العلوي.

مع ذلك، شعر لانغدون بالثقة وهو يستدير لمواجهة الباب الذي دخلا منه. وقال وهو يشير إلى مكانٍ على الجدار، إلى يمين *باب الجنّة*: "علينا أن نبدأ من هناك".

على منصّة مرتفعة وراء بوّابة مزخرفة، كانت ثمّة قاعدة سداسية من الرخام المنحوت، تشبه مذبحاً صغيراً أو طاولة. كان سطحها الخارجي مليئاً بالنقوش الدقيقة؛ حيث بدا شبيهاً باللؤلؤ. وفوق القاعدة الرخامية، كان ثمّة سطح خشبي مصقول يبلغ قطره حوالى ثلاث أقدام.

بدت سيينّا غير واثقة وهي تتبع لانغدون نحوه. عندما صعدا الدرجات وفتحا البوّابة، نظرت سيينّا عن كثب، وشهقت عندما أدركت ما تنظر إليه.

ابتسم لانغدون. *بالضبط، هذا ليس مذبحاً أو طاولة*. كان السطح الخشبي في الواقع عبارة عن غطاء للقاعدة المجوّفة.

سألته: "أهو جرن معمودية؟".

هزّ لانغدون رأسه وقال: "لو أنّ دانتي يعمَّد اليوم، فسيتمّ ذلك في هذا الحوض هنا". ومن دون إضاعة الوقت، أخذ لانغدون نفساً عميقاً ووضع يديه على الغطاء الخشبي، وشعر بالترقّب وهو يستعدّ لفتحه.

أمسك لانغدون طرفي الغطاء بإحكام ورفعه جانباً، مبعداً إيّاه بحذر عن القاعدة الرخامية، قبل أن يضعه على الأرض بجانب الجرن. بعد ذلك حدّق إلى التجويف المظلم بعرضه البالغ قدمين.

ازدرد لانغدون لعابه أمام ذلك المشهد المخيف.

في الظلام، كان وجه دانتي أليغييري الميت ينظر إليه.

الفصل 56

من يبحث يجد.

وقف لانغدون على حافة جرن المعمودية، وحدّق إلى قناع الموت الأصفر الشاحب الذي كان ينظر إلى الأعلى بملامحه المكسوّة بالتجاعيد. كان الأنف المعقوف والذقن البارز لا لبس فيهما.

دانتي أليغييري.

كان الوجه الخالي من الحياة مثيراً للاضطراب بما فيه الكفاية، لكنّ شيئاً ما في وضعيته في الجرن بدا خارقاً تقريباً. وللحظة، كان لانغدون غير متأكّد ممّا يراه.

هل القناع... يطير؟

جثا لانغدون لينظر عن كثب. كان عمق الجرن يبلغ عدّة أقدام، وكان أقرب إلى بئر عمودية منه إلى حوض ضحل، إذ تنخفض جدرانه بحدّة إلى القعر بشكله سداسي الأضلاع الذي كان مليئاً بالمياه. والغريب أنّ القناع بدا معلّقاً في منتصف المسافة إلى الأسفل... وكأنّه يطفو على سطح الماء بسحر ساحر.

استغرق لانغدون لحظة ليدرك سبب هذا الوهم. كان الجرن مزوّداً بمحور مركزي يرتفع إلى نصف ارتفاع الجرن، ويعلوه طبق معدني مسطّح صغير فوق الماء. بدا أنّ ذلك الطبق يُستخدم كمكان لإسناد مؤخّرة الطفل، لكنّه يُستخدم حاليًّا كمِنصب لقناع دانتي لحمايته من الماء.

لم يتفوّه لانغدون وسيينّا بأيّ كلمة وهما يقفان جنباً إلى جنب، محدّقين إلى وجه دانتي أليغييري الذي ما زال محفوظاً في الكيس المصنوع من النايلون، وكأنّه مختنق. وللحظة، ذكّرت صورة الوجه الذي يحدّق إلى الأعلى في حوض مليء بالماء لانغدون بتجربته المخيفة في طفولته عندما سقط في قعر بئر وراح يحدّق إلى الأعلى يائساً.

طرد الفكرة من عقله، ثمّ مدّ يده بعناية وأمسك القناع من الجانبين، حيث ينبغي أن تكون أذنا دانتي. على الرغم من أنّ القناع كان صغيراً بالمقاييس الحديثة، إلاّ أنّ الجصّ القديم كان أثقل ممّا توقّع. رفع القناع وأخرجه من الجرن، ثمّ حمله عالياً لكي يتمكّن من تفحّصه هو وسيينّا عن كثب.

حتّى من خلال الكيس، بدا القناع نابضاً بالحياة. فكلّ تجاعيد وجه الشاعر العجوز وملامحه تمّ التقاطها بواسطة الجصّ الرطب. وباستثناء شقّ قديم في الوسط، كان القناع بحالة ممتازة.

همست سيينّا: "اقلبه لنرى ماذا يوجد في الجهة الأخرى".

كان لانغدون ينوي أن يقوم بذلك أساساً. فقد أظهر شريط تسجيل المراقبة في قصر فيكيو بوضوح اكتشافهما هو وإغناتسيو شيئاً في الجهة الأخرى للقناع؛ شيئاً هامًّا جدًّا دفع الرجلين إلى الخروج من القصر مع القطعة الأثرية.

حرص لانغدون جيّداً على عدم إسقاط القناع الجصّي الهشّ وهو يقلبه على وجهه فوق في راحة يده اليمنى لكي يتفحّصا باطنه. خلافاً لوجه دانتي المسنّ والمكسوّ بالتجاعيد الذي يبدو من الخارج، كان باطن القناع أملس تماماً. وبما أنّه لم يُصنع ليوضع على الوجه، كان باطنه مملوءاً بالجصّ لإضفاء شيء من المتانة إلى هذه القطعة الحسّاسة؛ ممّا جعل الباطن عبارة عن سطح أجوف خالٍ من الملامح، وكأنّه وعاء حساء.

لم يعرف لانغدون ما الذي كان يتوقّع وجوده في باطن القناع، لكن بالتأكيد ليس هذا.

لا شيء.

لا شيء إطلاقاً.

مجرّد سطح أملس خالٍ.

بدت سيينّا مرتبكة هي أيضاً. همست: "إنّه جصّ فارغ. لا يوجد شيء هنا، إلامَ كنت تنظر أنت وإغناتسيو؟".

فكّر لانغدون، *ليست لديّ أيّ فكرة*، وشدّ الكيس على القناع ليراه بوضوح. *لا يوجد شيء هنا!* تصاعد إحباط لانغدون وهو يرفع القناع إلى الضوء ويتفحّصه عن كثب. وعندما أمال القناع قليلاً، ظنّ للحظة أنّه لمح تلوّناً باهتاً بالقرب من الجزء الأعلى؛ خطًّا من العلامات ممتدًّا أفقياً على باطن جبين دانتي.

أهي شوائب طبيعية؟ أو ربّما... شيء آخر. استدار لانغدون على الفور، وأشار إلى لوح رخامي مزوّد بمفاصل على الجدار خلفهما. قال لسيينّا: "ابحثي هناك عن بعض المناشف".

بدا التشكّك واضحاً على تعابير سيينّا، لكنّها أطاعته، وفتحت الخزانة ذات الباب الخفيّ ووجدت فيها ثلاثة أشياء: صمّام للتحكّم بمستوى المياه في الجرن، ومفتاح للضوء للتحكّم بالمصباح فوق الجرن، و... عدد من المناشف الكتّانية.

نظرت سيينّا إلى لانغدون بدهشة، لكنّ هذا الأخير جال عدداً كبيراً من الكنائس في العالم ليعرف أنّ قاعات المعمودية توفّر للكهنة دائماً وصولاً سهلاً إلى المناشف عند الحاجة الطارئة إليها، وذلك لأنّ التعميد يواجه دائماً خطر عدم قدرة الأطفال على التحكّم بمثانتهم.

قال وهو يرمق المناشف: "جيّد، هلاّ حملت القناع للحظة". نقل القناع بلطف إلى يدي سيينّا، ثمّ بدأ بالعمل.

أوّلاً، أعاد لانغدون الغطاء سداسي الشكل إلى سطح الجرن الذي سرعان ما استعاد شكل الطاولة الشبيهة بالمذبح. بعد ذلك، تناول عدداً من المناشف الكتّانية من الخزانة وفرشها على الطاولة وكأنّها مفرش مائدة. أخيراً، أضاء المصباح الموجود فوق الجرن، فأضاء مكان التعميد وسطع فوق سطح الطاولة المغطّى بالمناشف.

وضعت سيينّا القناع على غطاء الجرن بحرص، في حين أخرج لانغدون المزيد من المناشف التي استخدمها مثل قفّازي الفرن لإخراج القناع من الكيس، مع الحرص على عدم لمسه بيديه مباشرة. بعد لحظات، كان قناع دانتي موضوعاً تحت الضوء، ووجهه إلى الأعلى، لا يحجبه شيء، مثل رأس مريض مخدّر على طاولة العمليّات.

بدا سطح القناع أكثر إرباكاً في الضوء، وضاعف تغيّر لون الجصّ من حدّة ثنايا الشيخوخة وتجاعيدها. لم يُضِع لانغدون الوقت، بل استخدم قفّازيه المرتجلين لقلب القناع على وجهه.

بدا باطن القناع أكثر شباباً بكثير من سطحه الخارجي، فقد كان نظيفاً وأبيض اللون وليس قديماً أو مصفرًّا.

أمالت سيينّا رأسها، وبدت عليها الحيرة: "ألا تبدو لك هذه الجهة *جديدة* أكثر؟".

بالفعل، كان اختلاف اللون واضحاً أكثر ممّا تخيّل لانغدون، لكنّ هذه الجهة بالتأكيد بعمر الجهة الأخرى نفسه. قال: "إنّها شيخوخة متفاوتة. فقد تمّت حماية باطن القناع بفضل خزانة العرض، ولم يتعرّض لآثار الشيخوخة الناجمة عن ضوء الشمس". ذكّر لانغدون نفسه بمضاعفة درجة كريم الوقاية من الشمس الذي يستخدمه.

قالت سيينّا وهي تنحني فوق القناع: "لحظة واحدة، انظر! هنا على الجبين! لا بدّ أنّ هذا ما رأيتماه أنت وإغناتسيو".

نظر لانغدون إلى السطح الأبيض الأملس؛ إلى التلوّن الذي لمحه قبل قليل من خلال الكيس، والذي كان عبارة عن خطّ باهت من العلامات الممتدّة أفقياً على باطن جبين دانتي. لكن، تحت الضوء الساطع، رأى لانغدون بوضوح أنّ هذه العلامات لم تكن شوائب طبيعية... بل من صُنع إنسان.

همست سيينّا، وقد علقت الكلمات في حلقها: "هذه... كتابة. ولكن...".

تأمّل لانغدون الكتابة الظاهرة على الجصّ. كانت عبارة عن صفّ واحد من الأحرف المكتوبة بخطّ منمّق أصفر مائل إلى البنّي.

قالت سيينّا، وقد بدا عليها الغضب تقريباً: "أهذا *كلّ شيء*؟".

بالكاد سمعها لانغدون، فقد كان يتساءل: *من كتب هذا؟ أهو شخص من حقبة دانتي؟* يبدو هذا الأمر غير محتمل. في تلك الحالة، كان أحد المؤرّخين سيكتشف الأمر منذ زمن طويل خلال عمليّة التنظيف والترميم المنتظمة التي كان القناع يخضع لها، وكانت الكتابة عندها ستتحول إلى جزء منه. غير أنّ لانغدون لم يسمع بذلك قطّ.

عندئذ، خطر في باله بسرعة مصدر أكثر احتمالاً بكثير.

بيرتراند زوبريست.

كان زوبريست مالك القناع، ويستطيع بالتالي أن يطلب الوصول إليه على انفراد كلّما أراد ذلك. ربّما كتب النصّ على باطن القناع مؤخّراً وأعاده إلى الخزانة الأثرية من دون معرفة أحد. فقد قالت لهما مارتا: *مالك القناع لا يسمح لموظّفينا بفتح الخزانة من دون وجوده*.

شرح لانغدون نظريته بسرعة.

بدا على سيينّا أنّها قبلت تفسيره، لكنّ ذلك الاحتمال سبّب لها اضطراباً واضحاً. قالت: "هذا غير منطقي. إن صدّقنا أنّ زوبريست قام سرًّا بكتابة شيء ما على باطن قناع الموت الخاصّ بدانتي، وأنّه تكبّد عناء ابتكار ذلك المسلاط الصغير للإشارة إلى القناع... فلماذا لم يكتب إذاً شيئاً أكثر وضوحاً؟ برأيي، هذا لا معنى له! هل بحثنا أنا وأنت عن هذا القناع، لكي لا نجد سوى *هذا*؟".

أعاد لانغدون تركيزه على النصّ الموجود على باطن القناع. كانت الرسالة المكتوبة بخطّ اليد قصيرة جدًّا، لا تتجاوز سبعة حروف، وبدت بلا أيّ معنى.

إحباط سيينّا مبرّر بالتأكيد.

لكنّ لانغدون شعر بالإثارة المألوفة لإلهام وشيك، بعدما أدرك على الفور تقريباً أنّ هذه الأحرف السبعة ستخبره بكلّ ما يحتاج إلى معرفته عن الخطوة التالية التي تنتظره هو وسيينّا.

علاوة على ذلك، كان قد اكتشف رائحة خفيفة تصدر من القناع، رائحة مألوفة كشفت له السبب وراء اللون الأكثر بياضاً للجهة الباطنية للجصّ... وهذا الاختلاف لا علاقة له بالشيخوخة ولا بأشعّة الشمس.

قالت سيينّا: "أنا لا أفهم. فالأحرف كلّها متشابهة".

هزّ لانغدون رأسه ببطء، وهو يتأمّل السطر المؤلّف من سبعة أحرف متشابهة نُقشت بعناية وبخطّ أنيق على باطن جبين دانتي.

PPPPPPP

قالت سيينّا: "سبعة *P*، ماذا يُفترض بنا أن نفعل بها".

ابتسم لانغدون بهدوء ونظر إليها. "أقترح أن نفعل بالضبط ما *تطلبه* منّا هذه الرسالة".

حملقت به سيينّا وسألته: "سبعة *P*! رسالة!".

أجاب مبتسماً: "إنّها كذلك. ولو درستِ دانتي، لعرفت أنّها رسالة واضحة جدًّا".

خارج معمودية سان جوفانّي، مسح الرجل ذو ربطة العنق أظفاره بمنديله كما مسح البثور على عنقه. حاول تجاهل الألم الحارق في عينيه ونظر إلى وجهته.

مدخل السيّاح.

خارج الباب، وقف رجل منهك يرتدي سترة ويدخّن سيجارة وقام بإعادة توجيه السيّاح الذين لم يتمكّنوا من فهم الجدول الزمني للمبنى، والذي كان مكتوباً بالتوقيت الدولي.

أبيرتورا 13:00-17:00.

تحقّق الرجل المصاب بالطفح الجلدي من ساعته. كانت تشير إلى 10:02 صباحاً. هذا يعني أنّ المعمودية ستبقى مغلقة لساعتين أخريَين. راقب الحارس لبعض الوقت، ثمّ اتّخذ قراره. فنزع الحلقة الذهبية من أذنه ووضعها في جيبه، ثمّ أخرج محفظته وتحقّق من محتوياتها. بالإضافة إلى بطاقات الائتمان ورزمة من الأوراق النقدية باليورو، كان يحمل أكثر من ثلاثة آلاف دولار نقداً.

لحسن الحظّ، إنّ الطمع خطيئة عالمية.

الفصل 57

Peccatum ... Peccatum ... Peccatum...

سرعان ما أعادت أحرف *P* السبعة المكتوبة على باطن قناع دانتي أفكار لانغدون إلى نصّ *الكوميديا الإلهية*. للحظة، رجع إلى المسرح في فيينا، حيث كان يلقي محاضرته: "كوميديا دانتي: رموز الجحيم".

دوّى صوته عبر مكبّرات الصوت: "لقد هبطنا الآن عبر حلقات الجحيم التسع إلى مركز الأرض، وأصبحنا وجهاً لوجه مع الشيطان نفسه".

مرّر لانغدون سلسلة من الصور للشيطان ذي الرؤوس الثلاثة من أعمال فنّية مختلفة؛ خارطة بوتيتشيلّي، فسيفساء معمودية فلورنسا، والشيطان الأسود المخيف لأندريا دي تشوني الذي يبدو فراؤه ملوّثاً بدم ضحاياه القرمزي.

تابع لانغدون: "تسلّقنا معاً صدر الشيطان المكسوّ بالشعر، وانقلب اتّجاهنا مع تحوّل الجاذبية، فخرجنا من العالم السفلي الكئيب... مرّة أخرى لرؤية النجوم".

مرّر لانغدون مزيداً من الصور، إلى أن وصل إلى صورة عرضها سابقاً، ألا وهي لوحة دومينيكو دي ميكيلينو من داخل الدوومو التي تصوّر دانتي بردائه الأحمر واقفاً خارج جدران فلورنسا. "وإن نظرتم بعناية... فسترون تلك النجوم".

أشار لانغدون إلى السماء المليئة بالنجوم الممتدّة فوق رأس دانتي وأضاف: "كما ترون، تتألّف السماء من سلسلة من تسع دوائر متّحدة المركز تحيط بالأرض. وتهدف هذه البنية المؤلّفة من تسع طبقات للجنّة إلى عكس الحلقات التسع للعالم السفلي وإحداث توازن معها. وكما لاحظتم على الأرجح يُعتبر الرقم تسعة رقماً متكرّراً لدى دانتي".

صمت لانغدون، وتناول رشفة من الماء، ثمّ ترك الحضور يلتقطون أنفاسهم بعد هبوطهم المخيف وخروجهم النهائي من الجحيم.

"إذاً، بعد تحمّل أهوال الجحيم، لا بدّ أنّكم متحمّسون جميعاً للانتقال إلى الجنّة. لكن مع الأسف، لا شيء بسيط في عالم دانتي". تنهّد بشكل دراماتيكي مضيفاً: "للصعود إلى الجنّة، علينا جميعاً، من الناحية المجازية والفعلية على السواء، أن نتسلّق جبلاً".

أشار لانغدون إلى لوحة ميكيلينو. في الأفق، خلف دانتي، يستطيع الحضور رؤية جبل واحد مخروطي الشكل يصعد إلى السماء. كما يبدو أنه طريق يدور حول الجبل بشكل لولبي تسع مرّات، يتصاعد في تدرّجات تزداد ضيقاً نحو الأعلى. على طول الطريق، يمشي أشخاص عراة ببؤس، ويمرّون بشتّى أنواع الكفّارات على الطريق.

أعلن لانغدون قائلاً: "أقدّم لكم جبل المطهر. مع الأسف، هذا الصعود المرهق عبر تسع حلقات هو الطريق الوحيد من أعماق الجحيم إلى أمجاد الجنّة. على هذا الطريق، ترون النفوس التائبة وهي تصعد، وكلّ منها تدفع الثمن المناسب لخطيئة معيّنة. على الحسودين أن يصعدوا وأعينهم مغمضة لكي لا يطمعوا بشيء، وعلى الفخورين أن يحملوا صخوراً ضخمة على ظهورهم لكي ينحنوا بتواضع، وعلى الشرهين أن يصعدوا من دون طعام أو ماء ليتضوّروا جوعاً، وعلى أصحاب الشهوات أن يصعدوا عبر ألسنة النيران الحارقة لتطهّرهم من حرارة العواطف...".

صمت مضيفاً: "لكن، قبل أن يتاح لكم هذا الشرف العظيم لتسلّق الجبل والتطهّر من ذنوبكم، عليكم التحدّث مع هذا الكائن".

مرّر لانغدون الشرائح ليصل إلى لقطة مقرّبة لإحدى لوحات ميكيلينو التي تصوّر ملاكاً مجنّحاً جالساً على عرش عند أسفل جبل المطهر. عند قدمَي الملاك، كان ثمّة صفّ من الخطأة التائبين ينتظرون أن يُسمح لهم بتسلّق الجبل. والغريب أنّ الملاك يشهر سيفاً طويلاً، ويطعن بطرفه وجه أوّل شخص في الصفّ.

سأل لانغدون: "من يعرف ما الذي يفعله هذا الملاك؟".

أجاب أحدهم: "يطعن شخصاً ما في رأسه؟".

"كلاّ".

أجاب آخر: "يطعن شخصاً ما في عينه؟".

هزّ لانغدون رأسه نافياً. "غيره؟".

تحدّث صوت في آخر القاعة بحزم: "يكتب على جبينه".

ابتسم لانغدون قائلاً: "يبدو أنّه ثمّة من يعرف دانتي". أشار مجدّداً إلى اللوحة. "أعرف أنّ الأمر يبدو وكأنّ الملاك يطعن هذا المسكين في جبينه، لكنّ الحال ليس كذلك. فبحسب نصّ دانتي، يستخدم الملاك الذي يحرس المطهر طرف سيفه لكتابة شيء ما على جبين كلّ من الوافدين إليه قبل دخولهم. ولا بد أنّكم تتساءلون عمّا يكتبه".

صمت لانغدون لزيادة الإثارة ثمّ قال: "الغريب في الأمر أنّه يكتب حرفاً واحداً... يكرّره سبع مرّات. هل يعرف أحدكم ما هو الحرف الذي يكتبه الملاك سبع مرّات على جبين دانتي؟".

أجاب صوت من بين الحشد: "*P!*".

ابتسم لانغدون. "أجل، الحرف *P*. وهذا الحرف يعني *بيكاتوم*، وهي كلمة لاتينية تعني خطيئة. وكتابته سبع مرّات ترمز إلى *سيبتيم بيكاتا مورتاليا*، أي –".

صاح شخص آخر: "الخطايا السبع المميتة!".

"بالضبط. بالتالي، فقط بصعود كلّ مستوى من مستويات المطهر يمكنك التكفير عن خطاياك. مع كلّ مستوى تصعده، يقوم ملاك بتطهير إحدى الخطايا من جبينك إلى أن تبلغ القمّة، وتصل بجبين خالٍ من الأحرف السبعة... وبروح مطهّرة من الخطايا". ثمّ غمز مضيفاً: "فذلك المكان لا يسمّى مطهراً من دون سبب".

خرج لانغدون من أفكاره لرؤية سيينّا التي وقفت أمام جرن المعمودية محدّقة إليه. قالت وهي تعيده إلى الوقت الحاضر وتشير إلى قناع دانتي: "أتقول إنّ هذه الأحرف السبعة تحمل رسالة؟ هل تخبرنا بما علينا فعله؟".

شرح لانغدون بسرعة رؤية دانتي لجبل المطهر، وكيف أنّ هذه الأحرف تمثّل الخطايا السبع المميتة وعمليّة تطهيرها من الجبين.

ختم لانغدون: "من الواضح أنّ بيرتراند زوبريست، الذي كان مولعاً بدانتي، يعرف عن الأحرف P السبعة وعملية إزالتها عن الجبين كوسيلة للتقدّم نحو الجنّة".

بدا التشكّك على سيينّا. "أتعتقد أنّ بيرتراند زوبريست وضع تلك الأحرف على القناع لأنّه يريدنا... أن نمسحها عن قناع الموت؟ أهذا ما تعتقد أنّ علينا فعله؟".

"أدرك أنّ –".

"روبرت، حتّى لو مسحنا هذه الأحرف، فكيف سيساعدنا ذلك؟! سينتهي بنا الأمر مع قناع خالٍ تماماً".

"ربّما". ثمّ ابتسم ابتسامة مليئة بالأمل وأضاف: "وربّما لا. أعتقد أنّ هذا الشيء يحتوي على أكثر ممّا تراه العين". وأشار إلى القناع. "هل تذكرين أنّني قلت إنّ باطن القناع أفتح لوناً بسبب الشيخوخة المتفاوتة؟".

"أجل".

"ربّما كنت مخطئاً. إذ يبدو تفاوت الألوان صارخاً جدًّا حيث لا يمكن اعتباره بفعل الشيخوخة، كما أنّ النسيج الخلفي مسنّن".

"مسنّن!".

أظهر لها لانغدون أنّ نسيج باطن القناع أكثر خشونة من ظاهره... يشبه ورق الزجاج. "في عالم الفنون، يوصف هذا النسيج على أنّه مسنّن، ويفضّل الرسّامون أن يرسموا على سطح مسنّن لأنّ اللون يثبت عليه على نحو أفضل".

"لا أفهم".

ابتسم لانغدون وسألها: "هل تعرفين ما هو الجيسّو؟".

"بالتأكيد، إنّها مادّة يستخدمها الرسّامون لتأسيس اللوحات –" توقّفت بعد أن بدأت تفهم على ما يبدو.

قال لانغدون: "بالضبط. يستخدمون الجيسّو لتكوين سطح أبيض نظيف وخشن، وفي بعض الأحيان لتغطية لوحات غير مرغوب فيها إن أرادوا إعادة استخدام القماش".

بدت الحماسة الآن على سيينّا. "وأنت تظنّ أنّ زوبريست قام ربّما بتغطية باطن القناع بمادّة الجيسّو، أليس كذلك؟".

"هذا الأمر يفسّر الخشونة واختلاف اللون. كما قد يفسّر لماذا أراد منّا أن نزيل الأحرف السبعة".

بدت سيينّا في حيرة من أمرها.

قال لها لانغدون وهو يرفع القناع إلى مستوى وجهها: "شمّي رائحته".

بدا الاشمئزاز على وجه سيينّا وسألته: "هل رائحة الجيسّو تشبه رائحة كلب مبلّل؟".

"ليس كلّ أنواعه. فالجيسّو العادي رائحته مثل رائحة الطبشور. أمّا هذا النوع فهو جيسّو الأكريليك".

"ما معنى ذلك؟".

"هذا يعني أنّه يذوب في الماء".

أمالت سيينّا رأسها جانباً، وشعر لانغدون أنّها بدأت تفهم. انتقل نظرها ببطء إلى القناع، ومنه فجأة إلى لانغدون، وقالت وهي تحملق: "أتظنّ أن ثمّة شيئاً تحت الجيسّو؟".

"هذا يفسّر الكثير".

أمسكت سيينّا بالغطاء الخشبي سداسي الشكل الذي يغطّي الجرن ورفعته جانباً. حملت منشفة كتّانية نظيفة وغمستها في ماء التعميد، ثمّ أعطت لانغدون المنشفة المبلّلة قائلة: "افعل ذلك بنفسك".

وضع لانغدون القناع المقلوب على وجهه في راحة يده اليسرى، وأمسك بالمنشفة المبلّلة. عصر فائض الماء، وبدأ يمسح بها باطن جبين دانتي، ويبلّل المنطقة التي كُتبت عليها الأحرف السبعة. وبعد أن ربّت عليها عدّة مرّات بسبّابته، أعاد تغميس المنشفة في الجرن وتابع محاولاته؛ فبدأ الحبر الأسود بالزوال.

قال بحماسة: "الجيسّو يذوب، والحبر يزول معه".

بعدما قام بتلك العمليّة للمرّة الثالثة، راح لانغدون يتحدّث بنبرة رتيبة تردّد صداها في القاعة، ويكرّر العبارة التي يقولها الكهنة أثناء تأديتهم مراسم العمادة.

حدّقت سيينّا إلى لانغدون وكأنّه فقد عقله.

هزّ كتفيه قائلاً: "يبدو هذا ملائماً".

نظرت إلى الأعلى ومن ثمّ إلى القناع. وبينما تابع لانغدون مسح باطن القناع بالماء، بدأ الجص الأصلي يظهر تحت طبقة الجيسّو، وكان لونه المصفرّ أكثر انسجاماً مع توقعات لانغدون لتحفة بهذا القدم. عندما اختفى الحرف الأخير من الأحرف السبعة، جفّف مكانها بمنشفة نظيفة وحمل القناع لتتمكّن سيينّا من رؤيته.

عندما نظرت إلى مكان الأحرف، صدرت عنها شهقة عالية.

تماماً، كما توقّع لانغدون، كانت طبقة الجيسّو تخفي شيئاً تحتها، هو عبارة عن طبقة أخرى من الكتابة؛ تسعة أحرف مكتوبة مباشرة على السطح الأصفر الشاحب للجصّ الأصلي.

لكن هذه المرّة، كانت الأحرف تشكّل كلمة.

الفصل 58

تساءلت سيينّا: "المسكون! لا أفهم".

وأنا أيضاً. تأمّل لانغدون النصّ الذي ظهر تحت الأحرف السبعة؛ كلمة واحدة مكتوبة على باطن جبين دانتي.

المسكون

سألته سيينّا: "هل يقصد... المسكون بالشيطان؟".

ربّما. حوّل لانغدون نظره إلى الأعلى، إلى فسيفساء الشيطان الذي يلتهم الأشخاص الملعونين الذين لم يتمكّنوا من تطهير أنفسهم من الخطيئة قطّ. *دانتي... مسكون؟* لا يبدو هذا الكلام منطقياً.

قالت سيينّا وهي تأخذ القناع من بين يدي لانغدون وتتفحّصه عن كثب: "لا بدّ أنّ ثمّة المزيد". بعد لحظة، أخذت تهزّ رأسها قائلة: "بالفعل، انظر إلى أطراف الكلمة... ثمّة المزيد من الكلمات من الجانبين".

نظر لانغدون إلى القناع مجدّداً، ورأى ظلاًّ باهتاً لكلمات إضافية تبدو عبر الجيسّو الرطب من جانبَي كلمة *المسكون*.

تناولت سيينّا المنشفة بحماسة، وواصلت مسح باطن القناع حول الكلمة، إلى أن برز نصّ أكبر، مكتوب بشكل مقوّس.

يا أيّها المسكون بالحكمة

أطلق لانغدون صفرة خافتة. *"يا أيّها المسكون بالحكمة... تأمّل التعاليم المخبّأة هنا... وراء حجاب أبيات غامضة جدًّا"*.

حدّقت إليه سيينّا. "عفواً؟".

قال لانغدون بحماسة: "إنّها مأخوذة من أحد أشهر مقاطع *إنفيرنو* دانتي. فيها، يحثّ دانتي قرّاءه الأذكياء على البحث عن الحكمة المخبّأة في أبياته الرمزية".

غالباً ما كان لانغدون يذكر هذه الأبيات وهو يدرّس الرمزية الأدبية. فهي من أوضح الأمثلة على الكاتب الذي يلوّح بذراعيه بعنف ويصيح: "أيّها القرّاء! ثمّة معنى رمزي مزدوج هنا!".

بدأت سيينّا تحفّ باطن القناع بقوّة أكبر الآن.

قال لها لانغدون: "كوني حذرة!".

أعلنت سيينّا وهي تمسح الجيسّو بسرعة: "أنت على حقّ، فبقيّة أبيات دانتي موجودة هنا؛ تماماً كما ذكرتها". توقّفت لتبلّل المنشفة في الجرن وتغسلها.

نظر لانغدون بفزع إلى مياه جرن المعمودية التي أصبحت بيضاء بفعل الجيسّو الذائب، وشعر بالانزعاج لاستخدام هذا الجرن كمغسلة، وقال في سرّه: *نقدّم اعتذارنا لسان جوفانّي*.

عندما أخرجت سيينّا المنشفة من المياه، كانت تقطر ماءً، وبالكاد عصرتها قبل أن تضعها في وسط القناع وتحفّه كما لو أنّها تنظّف وعاء حساء.

نبّهها لانغدون مجدّداً: "سيينّا! هذه قطعة قديمة -".

أعلنت وهي تتفحّص باطن القناع: "النصّ يغطّي باطن القناع *بأكمله*! وهو مكتوب بـ..." صمتت، وأمالت رأسها إلى اليسار، ثمّ أدارت القناع إلى اليمين، وكأنّها تحاول القراءة بشكل جانبي.

سألها لانغدون: "مكتوب بماذا؟".

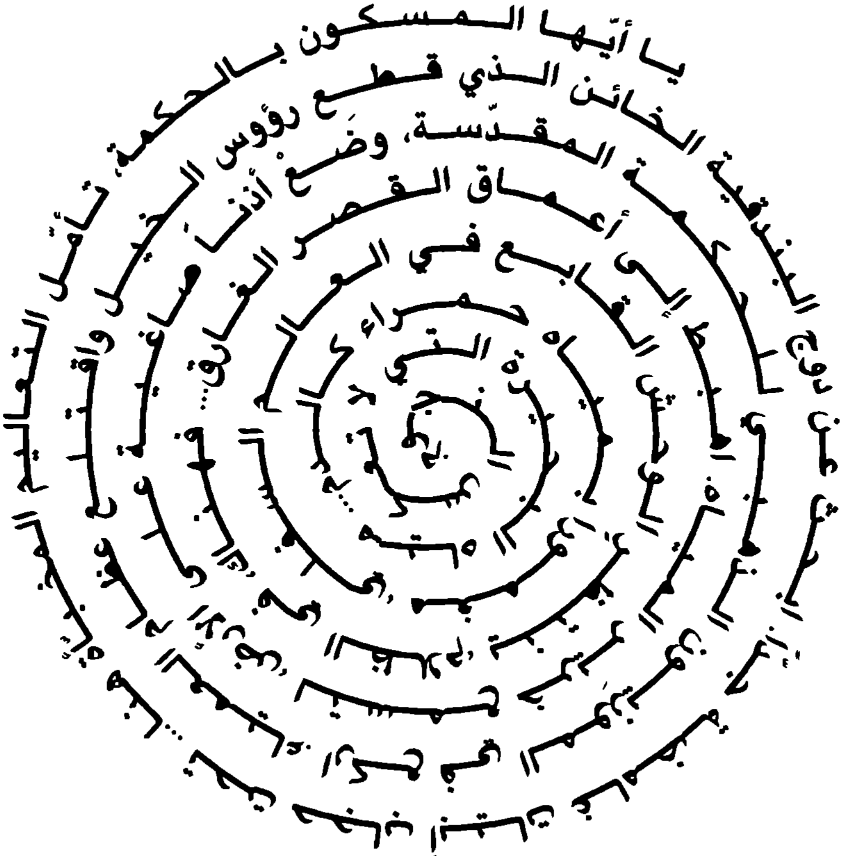
أنهت سيينّا تنظيف القناع، ثم جفّفته بمنشفة نظيفة، ووضعته أمامه لكي يتمكّنا من رؤية النتيجة معاً.

عندما نظر لانغدون إلى باطن القناع أجفل. كان السطح المقعّر مكسوًّا تماماً بنصّ مؤلّف تقريباً من مائة كلمة. كان يبدأ في الأعلى بعبارة *يا أيّها المسكون بالحكمة*، ويتواصل في خطّ واحد غير منقطع... يلتفّ حول الطرف الأيسر للقناع نحو الأسفل، ثمّ ينعطف إلى الأعلى قبل أن يعود إلى الأسفل ويتابع طريقه على هذا النحو مكوّناً دائرة أصغر.

كان خطّ النصّ يذكّر على نحو غريب بجبل المطهر بطريقه اللولبي إلى الجنّة. حدّد عالِم الرموز فوراً نوع الخطّ اللولبي بدقّة. *أرخميدسي، متناظر، باتّجاه عقارب الساعة*. كما لاحظ أنّ عدد الدورات بدءاً من الكلمة الأولى، "يا"، ووصولاً إلى النقطة الأخيرة في الوسط مألوف.

تسعة.

حبس لانغدون أنفاسه وراح يدير القناع في دوائر بطيئة، ويقرأ النصّ اللولبي داخل القناع المقعّر، المتّجه إلى الوسط.



قال لانغدون: "المقطع الأوّل مقتبس من دانتي حرفياً تقريباً. يا أيّها المسكون بالحكمة، تأمّل التعاليم المخبّأة هنا... تحت حجاب أبيات غامضة جدًّا".

ألحّت سيينّا قائلة: "والباقي؟".

هزّ لانغدون رأسه نافياً. "لا أظنّ ذلك. إنّها مكتوبة بطريقة مشابهة، لكنّني لم أتعرّف على النصّ. يبدو وكأنّ شخصاً ما يحاول تقليد أسلوب دانتي".

همست سيينّا: "زوبريست. لا بدّ أنّه هو".

أومأ لانغدون برأسه موافقاً. كان هذا ظنّه هو أيضاً. فبتعديله خارطة الجحيم لبوتيتشيلّي، أظهر زوبريست ميله إلى التعاون مع الأساتذة الكبار وتعديل الأعمال الفنّية العظيمة بما يتناسب مع احتياجاته.

"بقيّة الكلمات غريبة جدًّا". قال لانغدون ذلك وهو يدير القناع ويقرأ. "يتحدّث عن... قطع رؤوس الخيل... واقتلاع عظام عمياء..." تابع القراءة حتى وصل إلى السطر الأخير الذي كان مكتوباً في دائرة ضيّقة في وسط القناع، وصدرت عنه شهقة خافتة. "كما أنّه يذكر مياهاً حمراء كالدم".

قطّبت سييِنّا حاجبيها. "كما في الرؤى التي ظهرت فيها ذات الشعر الفضّي؟".

هزّ لانغدون رأسه، وهو يتأمّل النصّ بحيرة. *مياه حمراء كالدم... مياه البحيرة التي لا تعكس النجوم؟*

همست وهي تقرأ من فوق كتفه وتشير إلى كلمة في منتصف الدائرة اللولبية: "انظر، هذا مكان معيّن".

وجد لانغدون الكلمة التي فاتته عندما قرأ النصّ بسرعة. كان ثمّة ذِكر لواحدة من أكثر المدن إثارة وفرادة في العالم. غير أنّ لانغدون أحسّ بقشعريرة لعلمه أنّ هذه المدينة هي أيضاً المدينة التي أصيب فيها دانتي أليغييري بالمرض القاتل الذي قضى عليه.

البندقية.

تأمّل لانغدون وسييِنّا الأبيات الرمزية بصمت للحظات عدّة. كانت القصيدة مقلقة ومخيفة، ويصعب تفكيك رموزها. كما أنّ استخدام كلمتي دوج[1] وبحيرة، أكّد للانغدون من دون أدنى شكّ أنّ القصيدة تشير بالفعل إلى البندقية، تلك المدينة الإيطالية الفريدة المؤلّفة من مئات الأقنية المترابطة التي حكمها لقرون قاضٍ أوّل من أهلها عُرف باسم دوج.

للوهلة الأولى، لم يستطع لانغدون أن يعرف بالضبط إلى أيّ مكان في البندقية تشير هذه القصيدة، لكن من الواضح حتماً أنّها تحثّ القارئ على تنفيذ توجيهاتها.

ضع أذناً صاغية على الأرض، لتسمع خرير المياه.

قالت سييِنّا، وهي تقرأ معه: "إنّها تشير إلى مكان تحت الأرض".

هزّ لانغدون رأسه باضطراب، وقرأ السطر التالي.

اهبط إلى أعماق القصر الغارق... فهناك، في الظلام، ينتظر الوحش القابع في العالم السفلي.

سألته سييِنّا: "روبرت، أيّ نوع من الوحوش هذا؟".

"أي الذي يعيش تحت الأرض".

قبل أن يتابع لانغدون، تردّدت في أرجاء القاعة صلصلة مزلاج عالية. يبدو أنّ مدخل السيّاح قد فُتح للتوّ من الخارج.

قال الرجل الذي كسا وجهه طفح جلدي: *"غراتسيي ميلّي". شكراً جزيلاً.*

هزّ حارس المعمودية رأسه بتوتّر، ودسّ خمسمائة دولار في جيبه، ثمّ نظر حوله للتأكّد من أنّ أحداً لم يره.

"تشينكوي مينوتي". ذكّره بذلك وهو يفتح بتكتّم الباب الموصد مسافة تكفي فقط لمرور الرجل إلى الداخل.

---

1 القاضي الأوّل في البندقية وجنوى.

أغلق الحارس الباب على الرجل الذي أصبح في الداخل، وحجب بذلك كلّ الأصوات الآتية من الخارج. خمس *دقائق*. في البداية، رفض الحارس أن يشفق على الرجل الذي ادّعى أنّه أتى من الولايات المتّحدة للصلاة في معمودية سان جوفانّي أملاً في الشفاء من مرضه الجلدي الرهيب. لكن في النهاية، أتاه إلهام بالتعاطف معه، ساعده على ذلك من دون شكّ مبلغ خمسمائة دولار دفعها له لقاء تمضية خمس دقائق وحده في المعمودية... بالإضافة إلى خوفه المتزايد من وقوف هذا الرجل بمرضه الذي يبدو معدياً قربه خلال الساعات الثلاث التالية بانتظار موعد فتح الأبواب.

الآن، وبينما راح الرجل يتنقّل خلسة في القاعة ذات الأضلاع الثمانية، نظر إلى السقف تلقائياً. *تبًّا* . لم يسبق له أن رأى شيئاً كهذا. شيطان بثلاثة رؤوس يحدّق إليه مباشرة؛ ممّا دفعه إلى خفض بصره بسرعة إلى الأرض.

يبدو المكان خالياً.

لكن، أين ذهبا؟

بينما كان الرجل يتفحّص القاعة، وقع بصره على المذبح الرئيس. كان عبارة عن كتلة رخامية ضخمة مستطيلة الشكل، يحيط بها حاجز لإبقاء المتفرّجين على مسافة منها.

بدا المذبح وكأنّه المخبأ الوحيد في القاعة بأكملها. أضف إلى ذلك أنّ أحد حبال الحاجز كان يتأرجح بخفّة... وكأنّه تعرّض للاهتزاز.

خلف المذبح، اختبأ لانغدون وسيينّا بصمت. بالكاد وجدا الوقت لجمع المناشف المتّسخة وإعادة الغطاء إلى سطح الجرن، قبل أن يختبئا خلف المذبح الرئيس، وقد حملا القناع معهما. كانا ينويان الاختباء هناك إلى أن تمتلئ الغرفة بالسيّاح، ليتسلّلا بعد ذلك خلسة بين الحشود.

كان باب المعمودية الشمالي قد فُتح بالتأكيد للتوّ، للحظة على الأقلّ، لأنّ لانغدون سمع الأصوات المنبعثة من الساحة. إلاّ أنّ الباب أغلق بعد ذلك فجأة، وعاد الهدوء ليخيّم على القاعة.

بعدما عاد الصمت يلفّ القاعة، سمع لانغدون وقع خطى شخص واحد يمشي على الأرض الحجرية.

أهو أحد الحرّاس دخل لإلقاء نظرة على القاعة قبل فتحها أمام السيّاح اليوم؟

لم يجد الوقت الكافي لإطفاء المصباح فوق جرن المعمودية، وتساءل عمّا إذا كان الحارس سيلاحظ ذلك. راحت الخطوات تتنقّل بسرعة باتّجاههما قبل أن تتوقّف أمام المذبح، قرب الحبل الذي مرّ لانغدون وسيينّا من فوقه للتوّ.

ساد صمت طويل.

فجأة، ارتفع صوت الرجل بغضب: "روبرت، هذا أنا. أعرف أنّك هنا. اخرج حالاً واشرح لي ما فعلته".

الفصل 59

لا جدوى من إنكار وجودي.

أشار لانغدون لسيينّا لكي تبقى مختبئة، حاملة قناع دانتي الذي أعاد وضعه في الكيس.

بعد ذلك، نهض لانغدون على قدميه ببطء. وقف مثل كاهن خلف مذبح المعمودية، وحدّق إلى رعيّته المؤلّفة من رجل واحد. كان الغريب الواقف أمامه رجلاً بنّي الشعر، يضع نظّارة أنيقة، غير أنّ طفحاً جلديًّا غريباً غزا وجهه وعنقه. أخذ يحكّ بعصبية رقبته المتهيّجة، فيما كانت عيناه المتورّمتان تقدحان شرراً ويبدو عليهما الارتباك.

سأله وهو يمرّ من فوق الحبل ويقترب منه: "أخبرني حالاً، ماذا تفعل روبرت؟!". كانت لكنته أميركية.

أجابه لانغدون بتهذيب: "بالطبع، لكن قل لي أوّلاً من تكون".

جمد الرجل في مكانه، وبدا عليه عدم التصديق. "ماذا قلت؟!".

شعر لانغدون بشيء مألوف في عيني الرجل... وربّما صوته أيضاً. *لقد التقيته... بطريقة ما، في مكان ما*. كرّر لانغدون طلبه بهدوء. "أرجوك، أخبرني من أنت وكيف أعرفك؟".

رفع الرجل يديه غير مصدّق. "جوناثان فيريس، منظّمة الصحّة العالمية، الرجل الذي طار إلى جامعة هارفرد وأحضرك!".

حاول لانغدون أن يحلّل ما يسمعه.

سأله الرجل وهو يواصل حكّ عنقه وخدّيه اللذين كساهما الاحمرار والقروح: "لماذا لم تتصل؟! ومن هي المرأة التي رأيتك تدخل معها؟ هل أصبحت تعمل لحسابها الآن؟".

وقفت سيينّا بجانب لانغدون، وتولّت الشرح للغريب. "د. فيريس؟ أنا سيينّا بروكس، وأنا طبيبة أيضاً. أعمل هنا في فلورنسا. لقد أصيب البروفيسور لانغدون بعيار ناري في رأسه. إنّه يعاني الآن من فقدان الذاكرة الانتكاسي، ولا يعرف من تكون ولا ما جرى معه في اليومين الماضيين. أنا هنا لمساعدته".

تردّدت أصداء كلمات سيينّا في المعمودية الخالية، في حين أمال الرجل رأسه في حيرة، وكأنّه لم يستوعب معنى ما قالته تماماً. بعد لحظة من الدهشة، تراجع خطوة إلى الوراء، واستند إلى أحد أعمدة الحاجز.

تمتم قائلاً: "يا إلهي! هذا يفسّر كلّ شيء".

رأى لانغدون كيف تبدّد الغضب عن وجه الرجل.

همس القادم الجديد: "روبرت، ظننّا أنّك..." هزّ رأسه وكأنّه يحاول وضع قطع الأحجية في مكانها. "ظننّا أنّك انتقلت إلى الطرف الآخر... وأنّهم ربّما قاموا برشوتك... أو تهديدك... لم نعرف بالضبط!".

قالت سيينّا: "أنا الوحيدة التي تكلّم معها. كلّ ما يعرفه هو أنّه استيقظ في الليلة الماضية في المستشفى الذي أعمل فيه، وصادف أشخاصاً يحاولون قتله. كما أنّ هناك رؤى رهيبة تراوده؛ فيها جثث، وضحايا طاعون، وامرأة ذات شعر فضّي وتميمة على شكل ثعبان تقول له —".

قال الرجل: "إليزابيث! هذه د. إليزابيث سينسكي! روبرت، إنّها المرأة التي جنّدتك لمساعدتنا!".

قالت سيينّا: "إذاً، في هذه الحالة آمل أن تكون على علم بأنها في ورطة. فقد رأيناها في فان مليء بالجنود، وبدت وكأنّها مخدّرة أو شيء من هذا القبيل".

هزّ الرجل رأسه ببطء مشيراً إلى معرفته بالأمر، وأغمض عينيه. عندئذ، بدت أجفانه منتفخة وحمراء.

سألته سيينّا: "ما خطب وجهك؟".

فتح عينيه: "المعذرة؟".

"ماذا حلّ ببشرتك؟ تبدو كما لو أنّك قد التقطت عدوى ما. هل أنت مريض؟".

فوجئ الرجل. ومع أنّ سؤال سيينّا كان بالتأكيد فظًّا إلى درجة الوقاحة، إلاّ أنّ لانغدون تساءل عن الشيء نفسه. فنظراً إلى كثرة الإشارات إلى الطاعون التي واجهها اليوم، كان منظر بشرة الرجل الحمراء والمتقرّحة مثيراً للقلق.

قال الرجل: "أنا بخير. السبب هو صابون الفندق اللعين. فأنا أعاني من تحسّس قويّ تجاه الصويا، ومعظم الصابون الإيطالي المعطّر يحتوي على الصويا. ولشدّة غبائي، لم أتحقّق من الأمر".

تنفّست سيينّا الصعداء، وشعرت بالاسترخاء. "الحمد لله أنّك لم تأكله...".

ضحكا بشيء من الارتباك.

غامرت سيينّا بسؤاله: "أخبرني، هل يعني لك اسم بيرتراند زوبريست شيئاً؟".

جمد الرجل، وبدا كما لو أنّه يقف وجهاً لوجه أمام الشيطان ذي الرؤوس الثلاثة.

قالت سيينّا: "نعتقد أنّنا وجدنا للتوّ رسالة منه. وهي تشير إلى مكان في البندقية. هل يعني لك ذلك شيئاً؟".

بدا الاضطراب في نظرات الرجل الذي صاح قائلاً: "يا إلهي، أجل! بكلّ تأكيد! إلى أين تشير؟!".

أخذت سيينّا نفساً وهي تستعدّ كما يبدو بوضوح لإخبار الرجل بكلّ شيء عن القصيدة اللولبية التي اكتشفاها للتوّ على القناع، لكنّ لانغدون وضع يده تلقائياً على يدها لإسكاتها. يبدو

هذا الرجل بالتأكيد حليفاً لهما، لكن بعد أحداث هذا اليوم، لم يعد لانغدون يرغب في أن يثق بأحد. بالإضافة إلى ذلك، إنّ ربطة العنق التي يضعها الرجل تذكّره بشيء ما، ويشعر أنّه قد يكون الرجل نفسه الذي رآه يصلّي في كنيسة دانتي الصغيرة قبل قليل. *هل كان يتعقّبنا؟*

سأله لانغدون: "كيف وجدتنا هنا؟".

ما زال الرجل يبدو مربكاً لأنّ لانغدون لا يتذكّر كلّ شيء. "روبرت، لقد اتصلت بي في الليلة الفائتة لتخبرني أنّك حدّدت موعداً مع مدير متحف يدعى إغناتسيو بوزوني، ثمّ اختفيت، ولم تتصل قطّ. وعندما سمعت أنّ إغناتسيو بوزوني وُجد ميتاً، شعرت بالقلق. أنا هنا أبحث عنك منذ الصباح. رأيت حركة الشرطة خارج قصر فيكيو، وبينما كنت أنتظر لمعرفة ما حدث، رأيتك صدفة تخرج من باب صغير مع..." ونظر إلى سيينّا، التي نسي اسمها على ما يبدو.

فقالت: "سيينّا بروكس".

"أنا آسف... مع د. بروكس. فتبعتكما على أمل معرفة ما تفعله بالضبط".

"رأيتك في كنيسة تشيركي تصلّي، أليس كذلك؟".

"أجل، كنت أحاول أن أعرف ما الذي تفعله، لكنّني لم أفهم شيئاً! غادرتَ الكنيسة مثل رجل لديه مهمّة محدّدة، فقمتُ بتعقّبكما. وعندما رأيتكما تتسلّلان إلى داخل المعمودية، رأيت أنّ الوقت قد حان للمواجهة، فرشوت الحارس ليسمح لي بالدخول لبضع دقائق".

أشار لانغدون: "يا لها من خطوة غريبة إن كنت تظنّ أنّني قد انقلبت ضدّكم!".

هزّ الرجل رأسه نافياً. "كان لديّ شعور أنّك لا يمكن أن تفعل ذلك. فشيء كهذا لا يصدر عن البروفيسور روبرت لانغدون. كنت واثقاً من وجود تفسير آخر. لكن، فقدان الذاكرة!! إنّه أمر لا يصدّق، لم يكن من الممكن أن يخطر على بالي مطلقاً".

بدأ الرجل يحكّ جلده بعصبية مجدّداً. "اسمع، ليس لديّ أكثر من خمس دقائق. علينا الخروج من هنا فوراً. إن كنت قد عثرت عليك، فباستطاعة من يحاولون قتلك إيجادك أيضاً. ثمّة الكثير من الأمور التي لا تفهمها. علينا الذهاب إلى البندقية، *حالاً*. لكن علينا الخروج من فلورنسا خلسة. فالناس الذين يحتجزون د. سينسكي... أولئك الذين يلاحقونك... لديهم أعين في كلّ مكان". وأشار إلى الباب.

تمسّك لانغدون بموقفه، وشعر أخيراً أنّه يستطيع الحصول على بعض الإجابات. "من هم الرجال ذوو الملابس السوداء؟ ولماذا يحاولون قتلي؟".

قال الرجل: "إنّها قصّة طويلة، سأشرح لك كل شيء في الطريق".

عبس لانغدون لدى سماعه هذه الإجابة التي لم ترق له تماماً. أشار إلى سيينّا واقتادها جانباً، ثمّ تحدّث معها بصوت خافت. "هل تثقين به؟ ما رأيك؟".

نظرت سيينّا إلى لانغدون كما لو أنّه مجنون. "رأيي أنّه ينتمي إلى منظّمة الصحّة العالمية! وأعتقد أنّه فرصتنا للحصول على إجابات!".

"وماذا عن الطفح الجلدي؟".

"إنّه كما يقول بالضبط، التهاب جلد تماسي حادّ".

همس لانغدون: "وماذا لو لم يكن كذلك؟ ماذا لو كان... شيئاً آخر؟".

نظرت إليه غير مصدّقة: "شيء آخر؟! روبرت، هذا ليس طاعوناً؛ إن كان هذا ما يشغل بالك. حبًّا بالله، الرجل طبيب. لو كان يعاني من مرض فتّاك، ويعرف أنّه معدٍ، فهو لن يتهوّر بالخروج ونشره بين الناس".

"ماذا لو لم يكن يعرف أنّه طاعون؟".

فكّرت سيينّا للحظة ثمّ أجابت: "إذاً، أخشى أنّه قُضي علينا أنا وأنت... وكذلك كلّ من في هذه المنطقة".

"هذا ليس وقت المزاح".

"أنا أحاول أن أكون صريحة وحسب". ثمّ أعطته الكيس الذي يحتوي على القناع. "يمكنك أن تحمل صديقنا الصغير".

عندما التفتا إلى د. فيريس لاحظا أنّه ينهي مكالمة هاتفية بصوت خافت.

قال الرجل: "اتصلت بسائقي، سيلاقينا أمام –" صمت د. فيريس وهو يحدّق إلى يدي لانغدون، ويرى للمرّة الأولى وجه دانتي أليغييري الميت.

قال وهو يتراجع إلى الخلف: "ربّاه! ما هذا؟!".

أجاب لانغدون: "إنّها قصّة طويلة، سأخبرك بها في الطريق".

الفصل 60

استيقظ محرّر مجلّة نيويورك جوناس فوكمان على رنين هاتف مكتبه المنزلي. نهض وتحقّق من الساعة التي كانت تشير إلى 4:28 صباحاً.

في عالم نشر الكتب، كانت المستجدّات الليلية الطارئة نادرة جدًّا؛ مثل النجاح بين ليلة وضحاها. توتّر فوكمان، فقام من سريره وأسرع إلى مكتبه.

"ألو". كان الصوت الذي أجابه مألوفاً وعميقاً. "جوناس، الحمد لله أنك في المنزل، معك روبرت. آمل ألاّ أكون قد أيقظتك".

"بالطبع أيقظتني! إنّها الرابعة صباحاً!".

"أنا آسف، فأنا في الخارج".

ألا يدرّسون المناطق الزمنية في هارفرد؟

"أنا أواجه بعض المتاعب جوناس، وأحتاج إلى خدمة". بدا صوت لانغدون متوتّراً. "وهي تتضمّن الحصول على بطاقتك الخاصّة بشركة نت جيتس".

ضحك فوكمان غير مصدّق: "نت جيتس! روبرت، نحن نعمل في نشر الكتب، ولا يمكننا الوصول إلى الطائرات الخاصّة".

"كلانا نعرف أنك تكذب يا صديقي".

تنهّد فوكمان. "حسناً، سأعيد صياغة كلامي. لا يمكننا الوصول إلى الطائرات الخاصّة بمؤلّفي المجلّدات حول التاريخ الديني. إن كنت تريد كتابة خمسون *ظلاً للأيقونية*، فيمكننا التحدّث".

"جوناس، سأدفع تكاليف الرحلة مهما بلغت، أعدك بذلك. هل سبق أن أخلفت بوعدي يوماً؟".

باستثناء مرور ثلاث سنوات على انتهاء مهلتك؟ مع ذلك شعر فوكمان بالإلحاح في نبرة لانغدون. "أخبرني، ماذا يجري؟ سأحاول مساعدتك".

"ليس لديّ الوقت لأشرح، لكنّني أحتاج فعلاً إلى هذه الخدمة منك. إنّها مسألة حياة أو موت".

عمل فوكمان مع لانغدون لمدّة طويلة، حيث أصبح يعرف حسّه الساخر بالمرح، لكنّه لم يجد أيّ أثر للمزاح في نبرة لانغدون القلقة في تلك اللحظة. *يبدو الرجل جادًّا*. تنهّد فوكمان، واتّخذ قراره. *مديري المالي سيقتلني*. بعد ثلاثين ثانية، كان فوكمان قد دوّن تفاصيل طلب رحلة لانغدون الخاصّة.

سأله لانغدون، بعد أن شعر بتردّد الناشر ودهشته إزاء تفاصيل الرحلة: "هل كلّ شيء على ما يرام؟".

أجاب فوكمان: "أجل، لكنّني ظننت أنّك في الولايات المتّحدة. وقد فوجئت لدى معرفتي أنّك في إيطاليا".

قال لانغدون: "وأنا كذلك. شكراً جوناس. أنا في طريقي إلى المطار الآن".

يقع مركز العمليّات الأميركية لشركة نت جيتس في كولومبس، في ولاية أوهايو، وهو مجهّز بفريق طيران على مدار الساعة.

كانت مديرة المركز، ديب كير، قد تلقّت للتوّ مكالمة هاتفية من صاحب دار نشر في نيويورك. قالت وهي تسوّي السّماعتين وتطبع اسم محطّتها: "لحظة واحدة، سيّدي. من الناحية الفنّية، ستكون هذه الرحلة رحلة أوروبية، لكن يمكنني المساعدة في ذلك". أرسلت بسرعة رسالة إلى نظام نت جيتس أوروبا، الذي يقع في باتشو دي أركوس، في البرتغال، وتحقّقت من موقع طائراته في إيطاليا ومحيطها.

قالت: "حسناً سيّدي، يبدو أنّ لدينا طائرة سيتايشن إكسيل متمركزة في موناكو، يمكن إرسالها إلى فلورنسا خلال ساعة فقط. هل تُعتبر هذه المدّة ملائمة للسيّد لانغدون؟".

أجاب الرجل الذي بدا متعباً ومنزعجاً بعض الشيء: "لنأمل ذلك. شكراً جزيلاً".

قالت ديب: "العفو. هل يريد السيّد لانغدون السفر إلى جنيف؟".

"على ما يبدو".

واصلت ديب الطباعة، ثمّ قالت أخيراً: "كلّ شيء جاهز. تمّ التأكيد على أنّ السيّد لانغدون سينطلق من قاعدة تاسّينيانو الجويّة في لوكّا، التي تقع على بعد حوالى خمسين ميلاً غرب فلورنسا. ستنطلق الطائرة عند الساعة 11:20 صباحاً، بالتوقيت المحلّي. وعلى السيّد لانغدون الحضور إلى القاعدة الجويّة قبل عشر دقائق. لم تطلب نقلاً برّياً، ولا خدمة طعام، وقد أعطيتني المعلومات الخاصّة بجواز السفر. كلّ شيء جاهز إذاً. هل ترغب بشيء آخر؟".

أجابها ضاحكاً: "وظيفة جديدة ربّما؟ شكراً، لقد ساعدتني كثيراً".

"هذا من دواعي سروري. تصبح على خير". أنهت ديب الاتصال، والتفتت إلى الشاشة لإتمام الحجز. أدخلت المعلومات الخاصّة بجواز سفر روبرت لانغدون، وكانت على وشك المتابعة عندما ظهر على شاشتها مربّع تحذير أحمر. قرأت ديب الرسالة بذهول.

لا بدّ أنّه ثمّة خطأ.

حاولت إدخال بيانات جواز سفر لانغدون مجدّداً، فعاد التحذير إلى الظهور. كان هذا التحذير سيظهر على كمبيوتر أيّ خطوط طيران في العالم لو حاول لانغدون أن يحجز مكاناً على متن رحلة طيران.

حدّقت ديب كير إلى شاشتها مطوّلاً. كانت تعرف أنّ شركة نت جيتس تولي أهمّية كبيرة لخصوصية الزبائن، لكنّ هذا التحذير يخترق كلّ أنظمة الخصوصية في الشركة.
على الفور، اتصلت ديب بالسلطات.

أنهى العميل برودر المكالمة، وبدأ يأمر رجاله بالعودة إلى سيّارات الفان.
أعلن قائلاً: "لانغدون يتحرّك. سيستقلّ طائرة خاصّة إلى جنيف، وستنطلق الطائرة خلال أقلّ من ساعة من قاعدة لوكّا الجوّية، على بعد خمسين ميلاً غرباً. إن انطلقنا الآن، فبإمكاننا الوصول إلى هناك قبل إقلاع الطائرة".

في تلك اللحظة، أسرعت سيّارة فيات سيدان مستأجرة باتّجاه الشمال على طول فيا داي بانزاني، مغادرة بياتزا ديل دوومو لتشقّ طريقها باتّجاه محطّة قطار سانتا ماريا نوفيلاّ في فلورنسا.
على المقعد الخلفي، جلس لانغدون وسيينّا من دون أن يلفتا الأنظار، في حين احتلّ د. فيريس المقعد الأمامي بجانب السائق. كانت سيينّا هي التي ابتكرت فكرة حجز إحدى طائرات نت جيتس. إن حالفهم الحظّ، فسيشتّتون انتباه السلطات لمدّة كافية تسمح لهم بعبور محطّة قطارات فلورنسا بأمان، المحطة التي ستكون من دون شكّ مليئة برجال الشرطة. لحسن الحظّ، لم تكن البندقية تبعد سوى ساعتين على متن القطار، والسفر بالقطار المحلّي لا يتطلّب جواز سفر.
نظر لانغدون إلى سيينّا التي بدا أنّها تتفحّص د. فيريس بقلق. من الواضح أنّ الرجل يتألّم، فتنفّسه صعب، وكأنّه يشعر بالألم كلّما تنشّق الهواء.
فكر لانغدون في سرّه: *أتمنّى أن يكون محقًّا حيال مرضه*. ونظر إلى بشرة الرجل وهو يتخيّل كلّ الجراثيم التي تطوف في السيّارة الصغيرة. حتّى أنامله بدت منتفخة وحمراء. أخيراً، أبعد لانغدون القلق عن ذهنه ونظر من النافذة.
عند اقترابهم من محطّة القطار، مرّوا من أمام فندق باليوني الذي غالباً ما يستضيف فعّاليات مؤتمر للفنون يحضره لانغدون كلّ عام. عندما رآه، أدرك أنّه على وشك فعل شيء للمرة الأولى في حياته.
سأغادر فلورنسا من دون زيارة تمثال داوود.
اعتذر بصمت من مايكل أنجلو، وحوّل نظره إلى محطّة القطار أمامه... فيما سبقته أفكاره إلى البندقية.

الفصل 61

لانغدون ذاهب إلى جنيف؟

شعرت د. إليزابيث سينسكي أنّ إحساسها بالغثيان يتفاقم وهي تهتزّ على المقعد الخلفي للفان الذي كان يسرع مغادراً فلورنسا باتجاه الغرب، نحو مطار خاصّ خارج المدينة.

قالت لنفسها: *السفر إلى جنيف غير منطقي.*

العلاقة الوحيدة التي تربط جنيف بالمأزق الحالي هي أنّها المقرّ الرئيس لمنظّمة الصحّة العالمية. *أهو ذاهب إلى هناك بحثاً عنّي؟* يبدو هذا غير منطقي لأنّه يعرف أنّ سينسكي هنا في فلورنسا.

خطرت لها فكرة أخرى.

يا إلهي... هل يستهدف زوبريست جنيف؟

كان زوبريست رجلاً مطّلعاً على الرمزية، واختياره مقرّ منظّمة الصحّة العالمية كنقطة انطلاق له اختيار يتّسم بالرغبة في الانتقام؛ نظراً إلى معركته مع سينسكي التي امتدّت لعام كامل. مع ذلك، إن كان يبحث عن مكان يطلق فيه الوباء، تعتبر جنيف خياراً سيّئاً. فمقارنة بمدن أخرى، تُعدّ العاصمة السويسرية معزولة جغرافياً، وباردة في هذا الوقت من العام. ومعظم الأوبئة تحتاج إلى بيئة مكتظّة وأكثر دفئاً. وجنيف تعلو أكثر من ألف قدم عن مستوى البحر، وبالكاد يمكن اعتبارها مكاناً ملائماً لنشر وباء؛ *مهما بلغ حقد زوبريست عليّ.*

يبقى السؤال إذاً: ماذا سيفعل لانغدون هناك؟ غير أنّ وجهة البروفيسور الأميركي الغريبة ليست سوى نقطة جديدة في لائحة تصرّفاته غير المفهومة التي بدأت الليلة الماضية. وعلى الرغم من الجهود التي بذلتها سينسكي، إلاّ أنّها وجدت صعوبة في التوصّل إلى تفسير منطقي لسلوكه.

إلى جانب من هو؟

بالطبع، لم تتعرّف سينسكي على لانغدون سوى منذ بضعة أيّام، لكنّها تجيد عادة الحكم على الأشخاص، وترفض تصديق أنّ رجلاً مثل روبرت لانغدون سيضعف أمام إغراء المال. *لكنّنا فقدنا الاتصال به منذ ليل أمس.* وها هو الآن يتنقّل من مكان إلى آخر خلسة مثل المحتالين. *هل تمّ إقناعه بطريقة من الطرق أنّ أفعال زوبريست منطقية؟*

أفزعتها هذه الفكرة، لكنّها رفضتها قائلة لنفسها: *أعرف سمعته جيّداً. إنّه أفضل من ذلك.*

التقت سينسكي روبرت لانغدون للمرّة الأولى قبل أربع ليالٍ على متن طائرة نقل C-130 استُخدمت كمركز تنسيق متنقّل لمنظّمة الصحّة العالمية.

كانت الساعة قد تجاوزت السابعة عندما حطّت الطائرة في مدرج هينسكوم، على بعد أقلّ من خمسة عشر ميلاً من كامبردج، ماساتشوستس. لم تكن سينسكي تعرف ما الذي تتوقعه من الأكاديمي الشهير الذي اتصلت به هاتفياً، لكنّها سُرّت عندما رأته يمشي بثقة في الجزء الخلفي من الطائرة، ثمّ يحيّيها بابتسامة هادئة.

قال لانغدون وهو يصافحها بيد ثابتة: "أفترض أنّك د. سينسكي؟".

"بروفيسور، تشرّفت بلقائك".

"الشرف لي. شكراً لكم على كلّ ما تقومون به".

كان لانغدون رجلاً طويل القامة، ذا مظهر حضاري، وصوت عميق. افترضت سينسكي أنّ ملابسه الحالية هي الملابس التي يرتديها في الجامعة؛ سترة تويد، مع سروال كاكي، وحذاء جلدي. وهذا منطقي؛ نظراً لأنّ الرجل أُحضر من الجامعة من دون سابق إنذار. كما أنّه يبدو أصغر سنًّا وأكثر لياقة بكثير ممّا تخيّلت؛ الأمر الذي ذكّر إليزابيث بسنّها. *إنّني بسنّ والدته.*

ابتسمت له ابتسامة متعبة. "شكراً لمجيئك بروفيسور".

أشار لانغدون إلى مساعدها الجادّ الذي أرسلته لإحضاره: "صديقك لم يترك لي الخيار".

"هذا جيّد، لهذا السبب أنا أدفع له".

قال لانغدون وهو يرمق القلادة: "يا لها من تميمة جميلة. أهي من اللازورد؟".

هزّت سينسكي رأسها، ونظرت إلى الحجر الأزرق الذي يمثّل الرمز الأيقوني لأفعى ملتفّة حول عصا عمودية. "إنّه الرمز الحديث للطبّ. وكما تعرف بالتأكيد، يسمّى صولجان هرمس".

نظر لانغدون إلى الأعلى فجأة، وكأنّه يرغب في قول شيء ما.

انتظرت. *نعم؟*

يبدو أنّه بدّل رأيه، واكتفى بالابتسام بتهذيب قبل أن يغيّر الموضوع. "إذاً، لماذا أنا هنا؟".

أشارت إليزابيث إلى قاعة اجتماعات مرتجلة حول طاولة من الستانلس ستيل. "اجلس من فضلك. أودّ أن أريك شيئاً".

توجّه لانغدون إلى الطاولة، ولاحظت إليزابيث أنّه على الرغم من حيرة البروفيسور وفضوله إزاء هذا الاجتماع السرّي، إلاّ أنّه لم يبد عليه أيّ اضطراب. *هذا رجل مرتاح على وضعه.* وتساءلت عمّا إذا كان هذا الاسترخاء سيبدو عليه عندما يكتشف سبب استدعائه إلى هنا.

انتظرت إليزابيث إلى أن جلس لانغدون في مكانه، ثمّ عرضت عليه من دون مقدّمات الشيء الذي صادرته هي وفريقها من خزنة في فلورنسا منذ أقلّ من اثنتي عشرة ساعة.

تأمّل لانغدون الأسطوانة الصغيرة مطوّلاً قبل إعطائها ملخّصاً عمّا تعرفه أصلاً. كان ختماً أسطوانياً قديماً يمكن استعماله للطباعة. وكان يحمل صورة شنيعة لشيطان بثلاثة رؤوس مع كلمة واحدة: *saligia*.

قال لانغدون: "saligia هي اختصار لاتيني –".

قاطعته إليزابيث قائلة: "للخطايا السبع المميتة. أجل، بحثنا عنها".

بدت الحيرة على وجه لانغدون. "حسناً... هل ثمّة سبب تريدين من أجله أن أتفحّص هذا الشيء؟".

"في الواقع، أجل". استعادت د. سينسكي الأسطوانة وبدأت تهزّها بعنف، وراحت الكرة الصغيرة في الداخل تهتزّ إلى الأمام والخلف.

استغرب لانغدون تصرّفها، لكن قبل أن يتمكّن من السؤال، بدأ طرف الأسطوانة يتوهّج، فوجّهته إلى بقعة ملساء من العازل على جدار الطائرة.

أطلق صفرة خافتة، وقام ليقترب من الصورة المسلّطة على الجدار.

أعلن قائلاً: "إنّها خارطة الجحيم لبوتيتشيلّي الذي رسمها استناداً إلى إنفيرنو دانتي. مع أنّني أظنّ أنّك تعرفين ذلك على الأرجح".

هزّت إليزابيث رأسها موافقة. كانت قد قامت هي وفريقها ببحث على الإنترنت للتعرّف على اللوحة، وفوجئت عندما عرفت أنّها إحدى لوحات بوتيتشيلّي؛ الفنان المعروف بأعماله اللامعة والمثالية، مثل *ولادة فينوس* *والربيع*. أحبّت سينسكي العملين على الرغم من أنّهما يصوّران الخصوبة وولادة الحياة؛ الأمر الذي ذكّرها بالحادث التراجيدي الذي جعلها عاجزة عن الإنجاب، وهو مصدر الأسف الوحيد في حياتها المنتجة جدًّا.

قالت سينسكي: "كنت آمل أن تشرح لي الرمزية المخبّأة في هذه اللوحة".

بدا على لانغدون الانزعاج للمرة الأولى في تلك الليلة. "ألهذا السبب استدعيتني؟ اعتقدت أنّها حالة طارئة".

"إنّها كذلك".

تنهّد لانغدون. "د. سينسكي، عموماً، إن أردت أن تتعرّفي على لوحة معيّنة، فعليك الاتصال بالمتحف الذي يحتوي على اللوحة الأصلية. في هذه الحالة، كان عليك الاتصال بالمكتبة الرسولية في الفاتيكان. فالفاتيكان يملك عدداً من رسّامي الأيقونات اللامعين الذين –".

"الفاتيكان يكرهني".

فوجئ لانغدون وقال: "أنت أيضاً؟! ظننت أنّني الوحيد المكروه لديهم".

ابتسمت بحزن. "تشعر منظّمة الصحّة العالمية أنّ انتشار وسائل منع الحمل هو مفتاح الصحّة العالمية، سواء أتم استخدامها لمكافحة الأمراض المتناقلة جنسياً مثل الإيدز، أو للحدّ من النموّ السكّاني".

"وللفاتيكان رأي آخر".

"تماماً. لقد أنفقوا مجهوداً هائلاً ومبالغ طائلة لإقناع العالم الثالث بشرور وسائل منع الحمل".

قال لانغدون مبتسماً: "آه، أجل. مَن أفضل من حفنة من الذكور العازبين في الثمانين من عمرهم لتعليم الناس كيفيّة ممارسة الجنس؟".

كان إعجاب سينسكي بالبروفيسور يزداد مع مرور كلّ ثانية.

هزّت الأسطوانة لإعادة شحنها ثمّ سلّطت الصورة على الجدار مجدّداً. "بروفيسور، ألقِ نظرة فاحصة على هذه اللوحة".

مشى لانغدون نحو الصورة وهو يتأمّلها فيما كان يقترب. فجأة، توقّف في مكانه. "هذا غريب، لقد تمّ تعديلها".

لم يستغرق منه اكتشاف ذلك وقتاً طويلاً. "أجل، وأريد منك إخباري بما تعنيه التغييرات".

سكت لانغدون، وراح يتأمّل الصورة بأكملها، ويتوقّف عند الأحرف العشرة التي تكوّن كلمة *catrovacer*... ومن ثمّ قناع الطاعون... والجملة الغريبة عند طرف اللوحة عن "عيون الموت".

سألها لانغدون: "من فعل هذا؟ من أين أتت هذه اللوحة؟".

"في الواقع، كلّما عرفتَ أقلّ كان ذلك أفضل لك. لكنّني آمل أن تتمكّن من تحليل هذه التعديلات وإخبارنا بمعناها". وأشارت إلى مكتب في الزاوية.

"هنا؟ الآن؟".

هزّت رأسها قائلة: "أعلم أنّ هذا مزعج، لكنّني لا أستطيع أن أشدّد بما فيه الكفاية على أهمية هذا الأمر بالنسبة إلينا". صمتت ثمّ أضافت: "يمكن القول إنّها مسألة حياة أو موت".

تأمّلها لانغدون بقلق. "تفكيك هذه الرموز قد يستغرق وقتاً. لكن، إن كان هذا الأمر مهمًّا –".

قاطعته سينسكي قبل أن يغيّر له: "شكراً لك. هل ثمّة من ترغب في الاتصال به؟".

هزّ لانغدون رأسه نافياً، وأخبرها أنّه كان يخطّط لتمضية عطلة نهاية أسبوع هادئة بمفرده.

ممتاز. أجلسته سينسكي قرب مكتب، وأعطته المسلاط وأوراقاً وقلماً وجهاز كمبيوتر محمولاً متّصلاً بقمر اصطناعي آمن. بدت الحيرة على لانغدون حيال السبب الذي دفع منظّمة الصحّة العالمية إلى الاهتمام بلوحة معدّلة لبوتيتشيلّي إلى هذا الحدّ، إلاّ أنّه نفّذ العمل بإخلاص.

اعتقدت د. سينسكي أنّه سيحتاج إلى ساعات متواصلة لدراسة اللوحة، لذلك جلست لإنجاز أعمال خاصّة بها. من وقت إلى آخر، كانت تسمعه وهو يهزّ المسلاط ويدوّن ملاحظات على أوراقه. وبالكاد مرّت عشر دقائق عندما وضع لانغدون قلمه وأعلن قائلاً: "*cerca trova*".

نظرت إليه سينسكي: "ماذا؟".

كرّر: "*cerca trova*. من يبحث يجد، هذا ما تقوله الشيفرة".

أسرعت سينسكي وجلست بالقرب منه، ثمّ راحت تصغي إليه بإعجاب وهو يشرح عن مستويات جحيم دانتي وكيف تمّ تبديلها، وأنّه لو أعيد ترتيبها بالتسلسل الصحيح، فستظهر العبارة الإيطالية *cerca trova*.

تساءلت سينسكي: *من يبحث يجد؟ أهذه هي رسالة ذلك المجنون إليّ؟* بدت الرسالة وكأنّها تحدٍّ مباشر. وعادت إلى ذهنها الكلمات الأخيرة التي قالها زوبريست خلال لقائهما في مجلس العلاقات الخارجية: *إذاً، يبدو أنّ رقصتنا قد بدأت.*

قال لانغدون وهو يتأمّلها جيّداً: "لقد شحب لونك. هل أفهم أنّ هذه هي الرسالة التي كنت تنتظرينها؟".

استجمعت سينسكي أفكارها، وسوّت التميمة. "ليس بالضبط. أخبرني... هل تعتقد أنّ خارطة الجحيم هذه تطلب منّي أن *أبحث* عن شيء ما؟".

"أجل. *cerca trova*".

"وهل تشير *أين* يجب أن أبحث؟".

أخذ لانغدون يحكّ ذقنه، في حين بدأ موظّفون آخرون في منظّمة الصحّة العالمية يتجمّعون حوله، متلهّفين إلى معرفة المزيد من المعلومات. "ليس صراحة... كلاّ، مع أنّني أملك فكرة جيّدة عن المكان الذي ينبغي لك أن تبدئي منه".

سألته سينسكي بنبرة أكثر حدة ممّا توقّع لانغدون: "أخبرني".

"حسناً، ما رأيك بفلورنسا، في إيطاليا؟".

فغرت فمها، وبذلت جهدها لعدم إظهار ردّ فعلها. لكنّ موظّفيها كانوا أقلّ تحكّماً بانفعالاتهم؛ إذ راحوا يتبادلون نظرات الدهشة. تناول أحدهم هاتفاً وأجرى اتصالاً، في حين أسرع آخر إلى مقدّمة الطائرة.

بدت الحيرة على لانغدون. "ما سبب دهشتكم؟ أهو شيء ما قلته؟".

فكّرت سينسكي، *بكلّ تأكيد*. "لماذا اقترحت فلورنسا؟".

أجاب: "*cerca trova*". وروى لها باختصار لغزاً قديماً ينطوي على لوحة جدارية لفاساري في قصر فيكيو.

فكّرت سينسكي بعدما سمعت ما فيه الكفاية، *فليكن*. من الواضح أنّها ليست مجرّد صدفة أن يكون عدوّها قد قفز منتحراً على مسافة بضعة مبانٍ من قصر فيكيو في فلورنسا.

قالت: "بروفيسور، عندما رأيت تميمتي في وقت سابق وقلتُ إنّها صولجان هيرمس، شعرت أنّك أردت قول شيء ما لكنّك تردّدت، وبدوت كما لو أنّك غيّرت رأيك. ما الذي كنت ترغب في قوله؟".

هزّ لانغدون رأسه قائلاً: "لا شيء، هذا غباء. في بعض الأحيان يصبح الأستاذ بداخلي متعجرفاً بعض الشيء".

حدّقت إليه وألحّت قائلة: "أنا أسأل لأنّني أريد أن أعرف إن كان بإمكاني الوثوق بك. ماذا أردت أن تقول؟".

ابتلع لانغدون لعابه، وقحّ قبل أن يقول: "ليس الأمر ذا أهمّية، قلتِ إنّ التميمة هي الرمز القديم للطبّ، وهذا صحيح. لكن، عندما أسميتها صولجان هيرمس ارتكبت خطأً شائعاً جدًّا. فصولجان هيرمس يوجد فيه ثعبانان يلتفّان حول الصولجان وأجنحة في الأعلى. أمّا تميمتك فيظهر فيها ثعبان واحد من دون أجنحة. هذا الرمز يدعى –".

"صولجان أسكليبيوس".

أجابها مندهشاً: "أجل، بالضبط".

"أعرف ذلك، لكنّني كنت أختبر صدقك".

"عفواً؟".

"أردت أن أعرف إن كنتَ ستخبرني بالحقيقة مهما كانت مزعجة لي".

"ويبدو أنّني فشلت".

"لا تفعل ذلك مرّة أخرى. فالصدق التامّ هو الطريقة الوحيدة التي يمكننا أن نعمل بها معاً على هذه المسألة".

"نعمل معاً؟ ألم ينتهِ عملنا هنا؟".

"كلاّ روبرت، لم ينتهِ عملنا. أريدك أن ترافقني إلى فلورنسا لمساعدتي على إيجاد شيء".

حدّق إليها لانغدون وهو غير مصدّق: "الليلة؟".

"أخشى ذلك. فأنا لم أخبرك بعد بمدى خطورة هذه الحالة".

هزّ لانغدون رأسه رافضاً: "لا يهمّ ما تقولينه لي. أنا لا أريد السفر إلى فلورنسا".

قالت بكآبة: "ولا أنا. لكن لسوء الحظّ، الوقت ينفد".

الفصل 62

سطعت شمس الظهيرة فوق السطح الأملس لقطار فريتشارجينتو السريع الذي راح يشقّ طريقه شمالاً، في الريف التوسكاني. على الرغم من أنّ القطار الشبيه *بسهم فضّي* قد غادر فلورنسا بسرعة 174 ميلاً في الساعة، إلاّ أنّه لم يكن يُصدر أيّ ضوضاء تقريباً، بل إنّ طقطقته المتكرّرة وتمايله اللطيف لديهما أثر مهدئ على ركّابه تقريباً.

بالنسبة إلى روبرت لانغدون، كانت الساعة الأخيرة أشبه بالكابوس.

الآن، جلس مع سيينّا ود. فيريس في مقصورة خاصّة على متن القطار السريع تحتوي على أربعة مقاعد جلدية وطاولة قابلة للطيّ. حجز فيريس المقصورة بأكملها مستخدماً بطاقته الائتمانية، بالإضافة إلى ابتياعه مياهاً معدنية ومجموعة متنوّعة من السندويشات التي التهمها لانغدون وسيينّا بعدما اغتسلا في الحمّام المرفق بالمقصورة.

بعدما استقرّ الثلاثة في القطار المتوجّه إلى البندقية في رحلة تستغرق ساعتين، التفت د. فيريس فوراً إلى قناع دانتي الموضوع على الطاولة بينهم داخل الكيس. "علينا أن نعرف على وجه التحديد إلى أين يقودنا هذا القناع في البندقية".

أضافت سيينّا بإلحاح: "وبسرعة. إنّه على الأرجح أملنا الوحيد للحؤول دون انتشار وباء زوبريست".

قال لانغدون وهو يضع يده بحماية على القناع: "لحظة واحدة. لقد وعدت بإعطاء بعض الأجوبة حول الأيّام الأخيرة فور ركوبنا القطار بأمان، وحتّى الآن، كلّ ما أعرفه هو أنّ منظّمة الصحّة العالمية جنّدتني في كامبردج للمساعدة على تفكيك الشيفرة الموجودة في نسخة زوبريست عن خارطة الجحيم. لكنّك لم تخبرني شيئاً بخلاف ذلك".

بدا الانزعاج على د. فيريس الذي عاد يحكّ وجهه وعنقه مجدّداً وقال: "من الواضح أنّك محبط. وأنا متأكّد أنّه من المزعج عدم تذكّر ما جرى معك، لكن من الناحية الطبّية..." ونظر إلى سيينّا ليستمدّ منها الدعم ثمّ تابع: "أوصيك بشدّة بعدم صرف طاقتك على محاولة تذكّر تفاصيل لا تذكرها. فمع ضحايا فقدان الذاكرة، من الأفضل ترك الماضي منسيًّا".

شعر لانغدون أنّ غضبه يتصاعد: "ترك الماضي منسيًّا! تبًّا! أنا بحاجة إلى بعض الأجوبة! لقد أحضرتني منظّمتكم إلى إيطاليا، وفيها تعرّضت لطلق ناريّ وخسرت عدّة أيّام من حياتي! أريد أن أعرف الآن ما جرى!".

تدخّلت سيينّا، وتكلّمت بصوت هادئ في محاولة منها لتهدئة أعصابه: "روبرت، د. فيريس محقّ. ليس من المناسب بالتأكيد أن ترهق نفسك بفيض المعلومات دفعة واحدة. فكّر بالتفاصيل الصغيرة التي تذكرها، أي المرأة ذات الشعر الفضّي، ومن يبحث يجد، والجثث التي تتلوّى في خارطة الجحيم. لقد تزاحمت تلك الصور في ذهنك في سلسلة من الذكريات التي لا يمكن السيطرة عليها، وتركتك عاجزاً تقريباً. وإن بدأ د. فيريس بإخبارك بتفاصيل الأيّام السابقة، فقد يحرّك ذلك ذكريات أخرى، وقد تعود هلوساتك مجدّداً. فقدان الذاكرة الانتكاسي حالة خطيرة، ومن شأن إثارة ذكريات في غير محلّها أن تسبّب لك اضطراباً نفسياً كبيراً".

لم يخطر ذلك في بال لانغدون.

أضاف فيريس: "لا بدّ أنّك تشعر بتشوّش كبير. لكن في هذه اللحظة بالذات، نريد أن تكون حالتك النفسية في أحسن حال لكي نتمكّن من المضيّ قُدماً. من المهمّ جدًّا أن نعرف ما يحاول هذا القناع إخبارنا به".

هزّت سيينّا رأسها.

لاحظ لانغدون أنّ الطبيبين يبدوان متّفقَين.

جلس لانغدون بصمت، وحاول تجاوز شكوكه. لم يكن من المريح لقاء شخص غريب تماماً وإدراك أنّك كنت تعرفه قبل عدّة أيّام. ومع *ذلك، ثمّة شيء مألوف في عينيه.*

قال فيريس بتعاطف: "بروفيسور، من الواضح أنّك متردّد في الوثوق بي، وهذا مفهوم نظراً إلى كلّ ما مررت به. فالارتياب وانعدام الثقة من الآثار الجانبية لفقدان الذاكرة".

فكّر لانغدون: *هذا منطقي، على اعتبار أنّني لا أثق حتّى بعقلي.*

قالت سيينّا ممازحة، في محاولة واضحة لتلطيف الأجواء: "بالحديث عن الارتياب، عندما رأى لانغدون الطفح الجلدي الذي تعاني منه ظنّ أنّك مصاب بالطاعون".

اتّسعت عينا فيريس المنتفختان، وانفجر ضاحكاً. "هذا الطفح الجلدي؟ صدّقني بروفيسور، لو كنت أعاني من الطاعون، لما كنت عالجته بمضادّات الهيستامين التي اشتريتها من دون وصفة طبّية". ثمّ أخرج من جيبه أنبوباً صغيراً، ووضعه أمام لانغدون. كان عبارة عن أنبوب نصف فارغ للكريم المضادّ للحكّة.

قال لانغدون وهو يشعر بالغباء: "آسف على ذلك، فقد كان يوماً طويلاً".

قال فيريس: "لا تقلق".

التفت لانغدون نحو النافذة، وأخذ يراقب المشاهد الصامتة للريف الإيطالي التي راحت تمرّ أمام عينيه في لوحة مسالمة. أصبحت كروم العنب والمزارع أكثر ندرة الآن عندما حلّت سفوح جبال الأبينين محلّ السهول. قريباً، سيعبر القطار الطريق الجبلي المتعرّج، ثمّ سيهبط مجدّداً ويتّجه شرقاً نحو البحر الأدرياتيكي.

فكّر في سرّه: *أنا متوجّه إلى البندقية لأبحث عن وباء.*

بعد هذا اليوم الغريب، شعر لانغدون أنّه يتنقّل في مكان مؤلّف من أشكال غامضة من دون تفاصيل معيّنة؛ كما لو كان في كابوس. ومن المفارقات أنّ الكوابيس توقظ الناس عادة... لكنّ لانغدون شعر كما لو أنّه استيقظ *في* كابوس.

همست سيينّا بجانبه: "أعطيك ليرة إن بحت لي بأفكارك".

نظر إليها لانغدون، وارتسمت على فمه شبه ابتسامة. "أفكّر أنّني سأستيقظ في المنزل بعد قليل وأكتشف أن ما يحصل كان مجرّد حلم سيّئ".

نظرت إليه سيينّا وقالت: "ألن تفتقدني إن استيقظت واكتشفت أنّني لم أكن حقيقية؟".

ابتسم لانغدون وأجاب: "بلى في الواقع، سأفتقدك قليلاً".

ربتت على ركبته وقالت: "توقّف عن أحلام اليقظة بروفيسور، وهيّا إلى العمل".

حوّل لانغدون نظره على مضض إلى وجه دانتي أليغييري المجعّد الذي كان يحدّق إليه من على الطاولة. تناول القناع الجصّي وقلَبه، ثمّ حدّق إلى قعره؛ إلى السطر الأوّل من النصّ اللولبي:

يا أيّها المسكون بالحكمة...

شكّ لانغدون في أن يكون هذا الوصف ملائماً له في الوقت الحالي.

ومع ذلك، بدأ بالعمل.

على بعد مائتي ميل أمام القطار السريع، بقي *المينداسيوم* راسياً في البحر الأدرياتيكي. في الأسفل، سمع لورنس نولتون طرقة على زجاج حجرته، فلمس زرًّا تحت مكتبه، وتحوّل الجدار إلى زجاج شفّاف. في الخارج، رأى رجلاً أسمر قصير القامة.

العميد.

بدا متجهّماً.

من دون أيّ كلمة، فتح باب الحجرة ودخل، ثمّ حوّل البدّالة التي تحجب داخل الغرفة مجدّداً.

قال العميد: "بخصوص الفيلم الذي تركه لنا زوبريست".

"أجل سيّدي".

"أريد مشاهدته فوراً".

الفصل 63

أنهى لانغدون كتابة النصّ اللولبي على الورق لكي يتمكّنوا من تحليله عن كثب. اقتربت سيينّا ود. فيريس لتقديم المساعدة، وبذل لانغدون جهده لتجاهل فيريس الذي كان يحكّ بشرته باستمرار ويتنفّس بصعوبة.

قال لانغدون في سرّه، *إنّه بخير*، وأجبر نفسه على التركيز على الأبيات.

يا أيّها المسكون بالحكمة،
تأمّل التعاليم المخبّأة هنا...
تحت حجاب أبيات غامضة جدًّا

قال لانغدون: "كما ذكرت سابقاً، إنّ افتتاحية قصيدة زوبريست مأخوذة حرفياً من إنفيرنو دانتي، وهي تلفت انتباه القارئ إلى أنّ الكلمات تنطوي على معنى أعمق".

كان عمل دانتي الرمزي زاخراً بالإشارات المبطّنة الدينية والسياسية والفلسفية؛ الأمر الذي كان يدفع لانغدون غالباً إلى أن يقترح على طلاّبه أن يدرسوا الشعر الإيطالي مثلما يدرسون الكتاب المقدّس؛ أي أن يقرأوا بين السطور ويفهموا المعنى الأعمق.

تابع لانغدون: "عموماً، يقسم علماء رمزية القرون الوسطى تحليلاتهم إلى فئتين: *النص والصورة*... ويشكل النص المحتوى الحرفي للعمل، في حين تعتبر الصورة الرسالة الرمزية".

قال فيريس بحماسة: "حسناً. إذاً، استهلال القصيدة بهذا البيت -".

قاطعته سيينّا: "يشير إلى أنّ قراءتنا السطحية لن تكشف لنا سوى جزء من الحكاية، وقد يبقى المعنى الحقيقي خفياً".

"شيء من هذا القبيل، أجل". أعاد لانغدون نظره إلى النص وتابع القراءة بصوت عالٍ.

ابحث عن دوج البندقية الخائن
الذي قطع رؤوس الخيل...
واقتلع عظام العمياء.

قال لانغدون: "أنا لست واثقاً بشأن رؤوس الخيل وعظام العمياء، لكن يبدو أنّه علينا تحديد مكان دوج معيّن".

سألته سيينّا: "أفترض أنّه... قبر دوج؟".

أجاب لانغدون: "أو تمثال، أو لوحة. مضت قرون على وجودهم".

كان دوج البندقية شبيهاً بالدوق في الدويلات الإيطالية الأخرى، وقد تولّى أكثر من مائة منهم حكم البندقية على مدار ألف عام، بدءاً من عام 697 ق.م. انتهت سلالتهم في القرن الثامن عشر، مع استيلاء نابوليون على المدينة، لكنّ أمجادهم ونفوذهم ما زالت مثار افتتان المؤرّخين.

قال لانغدون: "كما تعرفان، إنّ أهمّ معلمين سياحيين في البندقية، أي قصر الدوج وبازيليك سان مارك، بناهما الدوجات لأنفسهم، والكثيرون منهم دفنوا هناك".

سألته سيينّا وهي ترمق القصيدة: "وهل تعرف ما إذا كان ثمّة دوج يعتبر خطيراً على نحو خاصّ؟".

نظر لانغدون إلى البيت المقصود. *ابحث عن دوج البندقية الخائن*. "ليس على حدّ علمي، لكنّ القصيدة لم تستخدم كلمة خطير بل خائن. وثمة فرق بينهما، على الأقلّ في عالم دانتي. فالخيانة إحدى الخطايا السبع المميتة؛ لا بل أسوأها، والخائن ينال عقوبته في الحلقة التاسعة والأخيرة من الجحيم".

الخيانة كما يعرّفها دانتي هي خيانة شخص محبوب. من أشهر الأمثلة على هذه الخطيئة في التاريخ خيانة يهوذا لحبيبه يسوع، وهو عمل اعتبره دانتي مشيناً إلى حدّ أنّه نفى يهوذا إلى نواة الجحيم الأكثر عمقاً، وهي حلقة أطلق عليها اسم جوديكّا، المستمدّ من اسم ساكنها.

قال فيريس: "إذاً، نحن نبحث عن دوج ارتكب خيانة".

هزّت سيينّا رأسها موافقة. "هذا يحدّ من الاحتمالات". صمتت وتأمّلت النص. "لكن البيت التالي يتحدّث عن دوج قطع رؤوس الخيل؟". ونظرت إلى لانغدون. "هل ثمّة دوج ذبح أحصنة؟".

ذكّرته الصورة التي استحضرتها سيينّا بمشهد مريع من العرّاب. "لا يذكّرني ذلك بشخص معيّن. لكن، استناداً إلى ما هو مكتوب هنا، فقد قام أيضاً باقتلاع عظام عمياء". نظر إلى فيريس وسأله: "هاتفك موصول بشبكة الإنترنت، أليس كذلك؟".

أخرج فيريس هاتفه بسرعة، ورفع أصابعه المتورّمة. "أعتقد أنّه من الصعب عليّ الضغط على الأزرار".

قالت سيينّا وهي تأخذ منه الهاتف: "فهمت. سأجري بحثاً عن دوجات البندقية مع أحصنة مذبوحة وعظام عمياء". ثمّ بدأت تطبع بسرعة على لوح المفاتيح الصغير.

في هذا الوقت، تابع لانغدون القراءة بصوت عالٍ.

اركع في الموزِيون الذهبي للحكمة المقدّسة،
وضع أذناً صاغية على الأرض،
لتسمع خرير المياه

قال فيريس: "لم يسبق لي أن سمعت بالموزيون".

أجاب لانغدون: "إنّها كلمة قديمة تعني الهيكل الذي تحميه آلهة الفنون والعلوم. ففي عصر الإغريق، كان *الموزيون* مكاناً يجتمع فيه المستنيرون لمشاركة أفكارهم، ومناقشة الأدب، والموسيقى، والفن. بُني أوّل موزيون على يد بطليموس في مكتبة الإسكندرية قبل قرون من ولادة المسيح، ثمّ تم تأسيس المئات منه في مختلف أنحاء العالم".

قال فيريس وهو ينظر إلى سيينّا بشيء من الأمل: "د. بروكس، هلاّ تحقّقت من وجود موزيون في البندقية؟".

قال لانغدون مبتسماً: "في الواقع، ثمّة العشرات منها، وهي تسمّى الآن متاحف".

أجاب فيريس: "آه... أظنّ أنّه علينا توسيع رقعة البحث".

واصلت سيينّا محاولاتها على الهاتف، ولم تواجه أيّ مشاكل وهي تقوم بأبحاث متعدّدة وتقرأ لائحة النتائج. "حسناً إذاً، نحن نبحث عن متحف يمكن أن نجد فيه دوجاً قطع رؤوس الخيل واقتلع عظام العمياء. روبرت، هل يوجد متحف معيّن لنبحث فيه؟".

كان لانغدون قد بدأ أساساً بالتفكير بمختلف متاحف البندقية المعروفة؛ غاليري ديل أكاديميا، كاريتزونيكو، بالاتزو غراسّي، مجموعة بيغي غوغنهايم، موزيو كورّير. لكنّ أيًّا منها لم يكن يناسب الوصف.

نظر مجدّداً إلى النص.

اركع في الموزِيون الذهبي للحكمة المقدّسة...

ابتسم لانغدون ابتسامة ساخرة وقال: "في البندقية متحف واحد يمكن وصفه تماماً بأنّه الموزِيون الذهبي للحكمة المقدّسة".

نظر إليه كلّ من فيريس وسيينّا بترقّب.

أعلن قائلاً: "إنّها بازيليك سان مارك، أكبر كنيسة في البندقية".

لم يقتنع فيريس تماماً: "أهي كنيسة ومتحف؟".

هز لانغدون رأسه. "تماماً مثل متحف الفاتيكان. والأهمّ أنّه مشهور بأنّه مزخرف من الداخل بكامله بالبلاط الذهبي".

قالت سيينّا بحماسة حقيقية: "*موزيون ذهبي*".

هز لانغدون رأسه موافقاً، ولم يعد لديه أدنى شكّ في أنّ سان مارك هو الموزيون الذهبي الذي تشير إليه القصيدة. لقرون من الزمن، أطلق أبناء البندقية على سان مارك اسم لا كييزا دورو، أي الكنيسة الذهبية. وبرأي لانغدون، إنّ داخلها أجمل من أيّ كنيسة أخرى في العام.

أضاف فيريس: "قيل في القصيدة *اركع هناك*، والكنيسة هي المكان المنطقي للركوع".

راحت سيينّا تطبع بسرعة مجدّداً. "سأضيف سان مارك إلى البحث. لا بدّ أنها المكان الذي يجب أن نبحث فيه عن الدوج".

عرف لانغدون أنّهم سيجدون العديد من الدوجات في سان مارك التي كانت فعلياً بازيليك الدوجات. وشعر بالتفاؤل وهو يعود لقراءة القصيدة.

اركع في الموزِيون الذهبي للحكمة المقدّسة،
وضع أذناً صاغية على الأرض،
لتسمع خرير المياه

تساءل لانغدون: خرير *المياه؟! هل توجد مياه تحت بازيليك سان مارك؟* أدرك أنّه من الغباء طرح سؤال كهذا. فالمياه موجودة تحت المدينة بأكملها. كلّ مباني البندقية تغرق ببطء وتتسرّب إليها المياه. تخيّل لانغدون البازيليك، وحاول أن يتصوّر المكان الذي يمكن الركوع فيه والإصغاء إلى خرير المياه. *وماذا نفعل عندما نسمعه؟*

عاد لانغدون إلى القصيدة، وأنهى قراءتها بصوت عالٍ.

اهبط إلى أعماق القصر الغارق...
فهناك، في الظلام، ينتظر الوحش القابع في العالم السفلي،
مغموراً بمياه حمراء كالدم...
مياه البحيرة التي لا تعكس النجوم

قال لانغدون الذي أزعجته الصورة: "حسناً، كما يبدو، يجب أن نتبع صوت خرير المياه... إلى أن نصل إلى قصر غارق".

أخذ فيريس يحكّ وجهه بعصبيّة. "ما معنى وحش من العالم السفلي؟".

أجابته سيينّا، وهي تواصل الطباعة: "أي تحت الأرض، العالم السفلي يعني تحت الأرض".

قال لانغدون: "إلى حدّ ما، مع أنّ للكلمة أبعاداً تاريخية تقترن بالأساطير والوحوش. إنّها فئة كاملة من الآلهة والوحوش، مثل إرينيس وهيكات وميدوزا. وقد سميت كذلك لأنّها تعيش تحت الأرض وتقترن بالجحيم". سكت لانغدون ثمّ أضاف: "تاريخياً، تخرج هذه الكائنات من تحت الأرض إلى السطح، لتعيث فساداً في عالم البشر".

حلّ صمت طويل، وشعر لانغدون أنّهم يفكرون بالشيء نفسه. *لا شكّ أنّ هذا الوحش القابع في العالم السفلي... ليس سوى طاعون زوبريست.*

فهناك، في الظلام، ينتظر الوحش القابع في العالم السفلي،
مغموراً بمياه حمراء كالدم...
مياه البحيرة التي لا تعكس النجوم

قال لانغدون محاولاً البقاء في الاتّجاه الصحيح: "على كلّ حال، من الواضح أنّنا نبحث عن موقع تحت الأرض؛ الأمر الذي يفسّر البيت الأخير من القصيدة الذي يشير إلى *البحيرة التي لا تعكس النجوم*".

قالت سيينّا وهي ترفع نظرها عن هاتف فيريس: "معك حقّ. فالقصيدة تشير إلى *ظلام القصر الغارق*. سبق أن ذكرت أنّ قصر الدوج مرتبط بالبازيليك؟ هذا يعني أنّ ذينك البناءين فيهما الكثير ممّا تذكره القصيدة؛ موزيون الحكمة المقدّسة، قصر، إشارة إلى دوج. وهما موجودان في بحيرة البندقية الرئيسة، على مستوى البحر".

فكر لانغدون ثمّ سألها: "أتعتقدين أنّ القصر الغارق هو قصر الدوج؟".

"لِمَ لا؟ فالقصيدة تطلب منّا أوّلاً الركوع في بازيليك سان مارك، ومن ثمّ اتباع صوت خرير المياه. ربّما كان صوت خرير المياه يقودنا إلى قصر الدوج المجاور، وربّما كان أساسه غارقاً".

قام لانغدون بزيارة قصر الدوج مرّات عديدة، وهو يعرف أنّه بناء ضخم جدًّا. إنّه عبارة عن مجمّع مترامي الأطراف من الأبنية، يضمّ متحفاً كبيراً، ومتاهة حقيقية من الغرف والشقق والباحات، وشبكة سجون واسعة جدًّا مؤلفة من عدّة أبنية.

قال لانغدون: "قد تكونين على حقّ، لكنّ البحث على غير هدى في ذلك القصر سيستغرق منّا أيّاماً. لذلك أقترح أن ننفّذ تعليمات القصيدة حرفياً. سنذهب أوّلاً إلى بازيليك سان مارك، وسنعثر على قبر أو تمثال ذلك الدوج الخائن، ثمّ سنركع".

سألته سيينّا: "وبعد ذلك؟".

أجابها متنهّداً: "بعد ذلك، سندعو من أعماق قلوبنا لكي نسمع خرير المياه... ولكي يقودنا إلى مكان معيّن".

خلال الصمت الذي تلا ذلك، تخيّل لانغدون وجه إليزابيث سينسكي القلق كما رآها وهو يهذي، وهي تقول له: *الوقت ينفد. من يبحث يجد!* وتساءل عن مكانها الآن... وعمّا إذا كانت بخير. لا بدّ أنّ الجنود ذوي الملابس السوداء قد أدركوا الآن أنّه تمكّن من الفرار هو وسيينّا. كم *سيمضي من الوقت قبل أن يلحقوا بنا؟*

عندما نظر لانغدون مجدّداً إلى القصيدة، اجتاحته موجة من الإنهاك. تأمّل البيت الأخير، وخطرت له فكرة أخرى. تساءل عمّا إذا كانت تستحقّ الذكر. *البحيرة التي لا تعكس النجوم*. قد لا تكون ذات صلة ببحثهم، لكنّه قرر البوح بها. "ثمّة أمر آخر يجب أن أذكره".

حوّلت سيينّا نظرها عن الهاتف.

قال لانغدون: "إنّ الأجزاء الثلاثة من *الكوميديا الإلهية*، أي *إنفيرنو وبورتاغوريو وباراديزو*، جميعها تنتهي بالكلمة نفسها".

بدت الدهشة على سيينّا، في حين سأله فيريس: "وما هي تلك الكلمة؟".

أشار لانغدون إلى آخر النص الذي كتبه. "إنّها الكلمة نفسها التي تنتهي بها هذه القصيدة، نجوم". ثمّ حمل قناع دانتي وأشار إلى وسط النص الحلزوني تماماً.

البحيرة التي لا تعكس النجوم.

تابع يقول: "والأهم أنّه في ختام الإنفيرنو نجد دانتي يصغي إلى خرير المياه داخل شقّ ويتبعه عبر فتحة... تقوده إلى خارج الجحيم".

شحب فيريس وقال: "يا إلهي!".

عندئذٍ، هبّ هواء عنيف في المقصورة مع دخول القطار نفقاً جبليًّا.

في الظلام، أغمض لانغدون عينيه وحاول أن يريح ذهنه. فكّر: *قد يكون زوبريست مجنوناً، لكنّه يملك حتماً فهماً عميقاً لدانتي.*

الفصل 64

شعر لورنس نولتون بارتياح عارم.

لقد بدّل العميد رأيه حيال مشاهدة فيلم زوبريست.

أخرج نولتون شريحة الذاكرة القرمزية فوراً وأدخلها في الكومبيوتر. كانت رسالة زوبريست الغريبة التي يستغرق عرضها تسع دقائق قد أثقلت كاهله، ورغب كثيراً في أن تشاهدها عينان غير عينيه.

لن أكون مسؤولاً عنها بعد الآن.

حبس نولتون أنفاسه وبدأ بتشغيل الفيديو.

أعتمت الشاشة، وعلا في الحجرة صوت خرير المياه، وتحرّكت الكاميرا عبر الضباب المائل إلى الاحمرار المخيّم على الكهف تحت الأرض. ومع أنّ العميد لم يظهر ردّ فعل واضحاً، إلاّ أنّ نولتون شعر أنّ الرجل ذعر وارتبك على حدٍّ سواء.

توقّفت الكاميرا ثمّ مالت إلى الأسفل نحو سطح البحيرة، قبل أن تغوص تحت الماء عدة أقدام، لتكشف عن لوحة التيتانيوم المثبّتة بالأرض.

في هذا المكان، وفي هذا التاريخ،
تغيّر العالم إلى الأبد.

أجفل العميد قليلاً، وهمس وهو يرمق التاريخ: "غداً. وهل نعرف أين يقع *هذا المكان*؟".

هز نولتون رأسه نافياً.

مالت الكاميرا الآن إلى اليسار، ليظهر الكيس المغمور بالمياه، والمحتوي على سائل بنّي مائل إلى الاصفرار.

"ما الذي يجري هنا؟!". سحب العميد كرسياً وجلس عليه، ثمّ راح يحدّق إلى الفقاعة المتموّجة المعلّقة مثل بالون تحت الماء.

خيّم صمت غير مريح على الحجرة مع تواصل عرض الشريط. بعد قليل، أظلمت الشاشة، ثمّ ظهر ظلّ ذو أنف معقوف على جدار الكهف وبدأ يتحدّث بلغة غامضة.

أنا الظلّ...

بعدما أصبحت تحت التراب، عليّ أن أتحدّث إلى العالم من أعماق الأرض، منفيًّا في هذا الكهف المعتم الذي تتجمّع فيه مياه حمراء بلون الدم في بحيرة لا تعكس النجوم.

لكن، هذه جنّتي... الرحم المثالي لطفلي الضعيف.

الجحيم.

حوّل العميد نظره عن الشاشة وقال: "الجحيم؟".

هز نولتون كتفيه قائلاً: "كما قلت، إنّه مثير للقلق".

أعاد العميد نظره إلى الشاشة وأخذ يتابع بتركيز.

تابع الظلّ ذو الأنف المعقوف حديثه لعدّة دقائق، وذكر الأوبئة، وحاجة السكّان إلى التطهير، ودوره المهمّ في صناعة المستقبل، ومعركته ضدّ أرواح جاهلة كانت تحاول إيقافه، والقلّة القلائل الذين أدركوا أنّ الحلّ الجذري هو السبيل الوحيد لإنقاذ هذا الكوكب.

مهما كانت طبيعة هذه الحرب، فإن نولتون كان يتساءل طيلة الصباح عمّا إذا كان الكونسورتيوم يقاتل مع الطرف الخاطئ.

تابع الصوت.

لقد صنعت تحفة للخلاص، لكنّ جهودي لم تكافأ بالأبواق وأكاليل الغار... بل بتهديدات القتل.

أنا لا أخاف الموت... فالموت يحوّل الحالمين إلى شهداء... والأفكار النبيلة إلى حركات قويّة.

يسوع، سقراط، مارتن لوثر كينغ.

يوماً ما، سأنضمّ إليهم.

فالتحفة التي صنعتها هبة من الله الذي أسبغ عليّ الحكمة، وزوّدني بالوسائل والشجاعة للقيام بهذا الإبداع.

والآن يقترب الموعد.

ينام الجحيم تحتي، يستعدّ للخروج من رحمه المائي... تحت العين الساهرة للوحش القابع في العالم السفلي بكلّ ضراوته.

على الرغم من فضائلي، أنا مثلكم، لست غريباً عن الخطيئة. حتّى إنّني ارتكبت أسوأ السبع التي لا يجد سوى قلّة منجى من إغوائها.

الغرور.

بتسجيل هذه الرسالة، استسلمت لإغراء الغرور... لأضمن أن يعرف العالم ما فعلته.

ولِمَ لا؟

على البشرية أن تعرف مصدر خلاصها... اسم من أغلق أبواب الجحيم المفتوحة إلى الأبد!

مع كلّ ساعة تمرّ، تصبح النتيجة مؤكّدة أكثر. فالرياضيات، مثل قوّة الجاذبية، غير قابلة للنقاش. ازدهار الحياة الأسّي نفسه الذي قضى تقريباً على البشرية سيكون خلاصها. فجمال الكائن الحيّ، سواء أكان خيّراً أم شريراً، يكمن في أنّه يتبع قانون الطبيعة برؤية فريدة.

كونوا مثمرين وتكاثروا.

هكذا أطفئ النار... بالنار.

قال العميد بصوت منخفض بالكاد بلغ مسمعي نولتون: "هذا يكفي".

"سيّدي؟".

"أوقف الفيلم".

أوقف نولتون العرض. "سيّدي، النهاية في الواقع هي الجزء الأكثر ترويعاً".

"لقد رأيت ما فيه الكفاية". بدا العميد شاحباً، وراح يذرع الحجرة ذهاباً وإياباً لعدّة دقائق ثمّ قال فجأة: "علينا الاتصال بـ FS-2080".

فكر نولتون بالخطوة.

كان هذا الرمز يشير إلى أحد معارف العميد الموثوقين، وهو الشخص نفسه الذي أحال زوبريست إلى الكونسورتيوم كزبون. لا شكّ أنّ العميد يلوم نفسه في هذه اللحظة لأنّه وثق بحكم FS-2080. فالتعامل مع بيرتراند زوبريست أحدث فوضى عارمة في عالم الكونسورتيوم المتوازن.

سبب هذه الأزمة هو FS-2080.

يبدو أنّ السلسلة المتلاحقة من الكوارث المحيطة بزوبريست تتفاقم، ليس بالنسبة إلى الكونسورتيوم وحده... بل ربّما بالنسبة إلى العالم بأسره.

قال العميد: "علينا أن نكتشف نوايا زوبريست الحقيقية. أريد أن أعرف ما الذي صنعه بالضبط، وإن كان حقيقياً".

أدرك نولتون أنّه إن كان ثمّة من يعرف الإجابات عن هذه الأسئلة فسيكون FS-2080. فما من أحد يعرف بيرتراند زوبريست على نحو أفضل. حان الوقت ليخرق الكونسورتيوم البروتوكول، ويحاول أن يعرف أيّ نوع من الجنون قام بدعمه خلال العام الفائت من دون قصد.

فكّر نولتون بالنتائج المحتملة لمواجهة FS-2080 مباشرة. فمجرّد الاتصال به ينطوي على مخاطر.

قال نولتون: "بالطبع سيدي، إن أردتم الاتصال، فعليكم توخّي الحذر الشديد".

لمعت شرارة الغضب في عيني العميد الذي أخرج هاتفه قائلاً: "لقد تجاوزنا مرحلة الحذر منذ وقت طويل".

جلس صاحب ربطة العنق الكشميرية ونظارة بلوم باريس بين رفيقيه في السفر في مقصورة قطار فريتشارجينتو الخاصّة، وبذل ما في وسعه لكي لا يحكّ بشرته. كما شعر أنّ الألم في صدره قد تفاقم أيضاً.

مع خروج القطار من النفق أخيراً، حدّق الرجل إلى لانغدون الذي فتح عينيه ببطء، وكأنّه يعود من بعيد. وراحت سيينّا الجالسة بجانبه ترمق الهاتف الذي وضعته من يدها عندما دخل القطار النفق وانقطعت الإشارة.

بدت سيينّا متلهّفة لمتابعة بحثها على الإنترنت، لكن قبل أن تتناول الهاتف، بدأ يهتزّ مرسلاً سلسلة من الرنّات المتقطّعة.

كان الرجل يعرف الرنّة جيداً، فمدّ يده إلى الهاتف فوراً، ورمق الشاشة المضيئة، محاولاً إخفاء دهشته.

وقف وقال: "المعذرة، والدتي مريضة وعليّ الردّ على هذه المكالمة".

هزّ لانغدون وسيينّا رأسيهما بتفهّم، في حين استأذن الرجل وغادر الحجرة مسرعاً باتّجاه حمّام قريب.

أقفل الرجل باب الحمّام وفتح الخطّ. "ألو".

كانت نبرة المتكلّم بالغة الجدّية. "معك العميد".

الفصل 65

لم يكن حمّام الفريتشارجينتو أكبر مساحة من حمّام طائرة تجارية؛ فهو لا يكاد يتّسع للتحرّك فيه. أنهى الرجل المصاب بالطفح الجلدي مكالمته مع العميد ودسّ الهاتف في جيبه.

أدرك أنّ الوضع قد تغيّر. لقد انقلب المشهد فجأة رأساً على عقب، وهو بحاجة إلى بعض الوقت لتمالك نفسه.

أصدقائي أصبحوا الآن أعدائي.

أرخى الرجل ربطة عنقه وحدّق إلى وجهه المليء بالبثور في المرآة. الوضع أسوأ ممّا توقّع. لكن، لم يكن وجهه ما يقلقه، بالمقارنة مع صدره.

حلّ عدداً من الأزرار بيد متردّدة وفتح قميصه.

أجبر نفسه على النظر إلى المرآة... وتأمل صدره العاري.

يا إلهي!

لقد ازدادت المساحة السوداء اتّساعاً.

كانت بشرته وسط صدره مصبوغة بلون أسود مزرقّ. بدا السواد في الليلة الماضية بحجم كرة غولف، لكنّه الآن أصبح بحجم برتقالة. لمس تلك المنطقة المؤلمة وأغمض عينيه.

أعاد تزرير قميصه بسرعة؛ على أمل إيجاد القوة الكافية لإتمام ما عليه فعله.

فكّر: *ستكون الساعة القادمة خطيرة، سلسلة دقيقة من المناورات.*

أغمض عينيه وسيطر على نفسه، ثمّ خطّط لما يجب فعله. فكّر مجدداً: *أصدقائي أصبحوا أعدائي.*

أخذ عدّة أنفاس عميقة مؤلمة؛ على أمل تهدئة أعصابه. علم أنّ عليه الحفاظ على هدوئه؛ إن كان يرغب في إبقاء نواياه خفيّة.

السلام الداخلي مهم جداً للتمثيل المقنع.

لم يكن الرجل غريباً على الخداع، لكن قلبه كان ينبض بعنف. أخذ نفساً عميقاً آخر بقلب خافق. ذكّر نفسه: *أنت تقوم بخداع الناس منذ سنوات، هذا عملك.*

استجمع شجاعته، وعاد إلى لانغدون وسيينّا.

قال لنفسه: *هذا أدائي الأخير.*

اتّخذ إجراء احتياطياً أخيراً قبل أن يغادر الحمام، ونزع بطارية الهاتف المحمول للتأكّد من أنّ الهاتف لم يعد يعمل.

يبدو شاحباً، هذا ما فكّرت فيه سيينّا عندما عاد الرجل المصاب بالطفح الجلدي إلى المقصورة وجلس متنهّداً.

سألته بقلق حقيقي: "هل كلّ شيء على ما يرام؟".

هزّ رأسه قائلاً: "أجل، شكراً، أنا بخير".

بعدما حصلت سيينا على كلّ المعلومات التي يمكن أن يبوح بها الرجل عن وضعه، قررت تغيير الموضوع. "أحتاج إلى هاتفك مجدداً، إن لم يكن لديك مانع، أريد متابعة البحث عن الدوج. ربما يمكننا إيجاد بعض الأجوبة قبل الذهاب إلى سان مارك".

قال: "لا مشكلة". وأخرج الهاتف من جيبه وتحقّق من الشاشة. "آه، تباً. كانت البطارية شبه فارغة خلال المكالمة، ويبدو أنّها فرغت تماماً". نظر إلى ساعته: "سنصل إلى البندقية قريباً، ما علينا سوى الانتظار".

على بعد خمسة أميال من الساحل الإيطالي، على متن المينداسيوم، راقب نولتون العميد بصمت وهو يسير في محيط الحجرة مثل حيوان في قفص. بعد المكالمة الهاتفية، من الواضح أنّ العميد قد استغرق في التفكير. ونولتون يعرف جيداً أنّه لا يجدر به أن يتفوّه بكلمة في هذه الحالة.

أخيراً، تحدّث الرجل الأسمر، وكان صوته في غاية التوتّر. "ليس لدينا أيّ خيار، علينا مشاركة هذا الفيلم مع د. إليزابيث سينسكي".

جمد نولتون في مكانه وحاول إخفاء دهشته. *الشيطانة ذات الشعر الفضّي؟ تلك التي ساعدنا زوبريست لكي يتملّص منها لمدّة عام!* "حسناً سيّدي. هل عليّ إيجاد طريقة لإرسال الفيلم إليها عبر البريد الإلكتروني؟".

"ربّاه، كلاّ! هل سنخاطر بتسريب الفيلم إلى الناس؟ سيُحدث ذلك هستيريا جماعية. أريد منك إحضار د. سينسكي إلى متن هذه السفينة بأسرع ما يمكن".

حدّق إليه نولتون وهو عاجز عن التصديق. يريد إحضار مديرة منظمة الصحة العالمية إلى متن المينداسيوم؟ "سيّدي، هذا الخرق لبروتوكول السرية قد –".

"نفّذ من دون نقاش، نولتون! فوراً!".

الفصل 66

انعكست صورة لانغدون على زجاج نافذة القطار المسرع أمام عيني FS-2080. ما زال البروفيسور يفكّر بحلول محتملة للغز قناع الموت الذي صنعه بيرتراند زوبريست.

ذاب قلب FS-2080 شوقاً. *بيرتراند، يا الله، كم أفتقد إليك!*

ما زالت الخسارة مؤلمة. ما زالت الليلة التي التقيا فيها أشبه بحلم سحري.

شيكاغو. العاصفة الثلجية.

يناير، قبل ست سنوات... لكن، يبدو كما لو أن اللقاء قد حصل بالأمس. كنت أمشي بين الثلوج في شارع ماغنيفيسانت مايل الذي تعصف فيه رياح عاتية. على الرغم من البرد، قلت لنفسي إنّ شيئاً لن يثنيني عن تحقيق هدفي. هذه الليلة هي فرصتي لسماع بيرتراند زوبريست يتحدّث... شخصياً.

كنت قد قرأت كلّ ما كتبه الرجل، وشعرت بالسعادة لأنني أملك إحدى البطاقات الخمسمائة التي طبعت لهذه المناسبة. عندما وصلت، شعرت بالذعر لدى رؤيتي القاعة شبه خالية. هل ألغي الخطاب بسبب سوء الأحوال الجوية؟

أخيراً وصل.

دخل بقامته الفارعة ووقف على المسرح. نظر إلى القاعة الخالية التي لم يكن فيها سوى عشرة تقريباً من معجبيه؛ الأمر الذي أشعرني بالخجل.

هذا هو بيرتراند زوبريست!

مرت لحظة صمت طويلة وهو يحدق إلينا بجدية.

فجأة، ومن دون سابق إنذار، انفجر ضاحكاً ولمعت عيناه الخضراوان. قال: "فلتذهب هذه القاعة الخالية إلى الجحيم. فندقي قريب، لنذهب إلى هناك!".

ضحك الموجودون، وتوجهنا إلى الفندق المجاور. اجتمعنا هناك وطلب الشراب. أتحفنا زوبريست بقصص عن أبحاثه، وصعود نجمه، وأفكاره حول مستقبل الهندسة الجينية. ثمّ انتقل إلى الحديث عن موضوع شغفه مؤخراً؛ ألا وهو الفلسفة ما وراء الإنسانية.

قال زوبريست: "أعتقد أنّ الفلسفة ما وراء الإنسانية أملنا الوحيد للبقاء طويل الأمد". ثمّ شدّ ياقة قميصه ليُظهر للجميع وشماً على كتفه "H+". "كما ترون، أنا ملتزم بها تماماً".

لم أتخيل أن يكون "عبقري علم الوراثة" شخصاً كاريزماتياً وجذاباً إلى هذا الحدّ. كلّما نظرت إليه، أشعلت فيّ عيناه الخضراوان إحساساً غير متوقّع... جانبية عميقة.

مع انقضاء الليل، تفرّقت المجموعة، واستأذن الحاضرون للعودة إلى الواقع. وبحلول منتصف الليل، أصبحنا بمفردنا أنا وبيرتراند زوبريست.

قلت له وقد أثّر الشراب في تركيزي: "شكراً لك على هذه الليلة. أنت أستاذ رائع".

ابتسم ومال نحوي، فتلامست ساقانا: "هذا الغزل قد يقودك إلى أيّ مكان".

من الواضح أن الغزل لم يكن ملائماً. لكن، كانت ليلة جليدية في فندق خالٍ. وبدا وكأن العالم بأسره قد توقف.

قال زوبريست: "ما رأيك؟ هل نتناول كأساً في غرفتي؟".

تسمّرت من المفاجأة، وعرفت أنّني أبدو كغزال فاجأته أضواء سيارة.

شعرت باحمرار وجهي، وكافحت لأخفي انفعالاتي التي تراوحت بين الإحراج، والإثارة، والخوف. قلت: "في الواقع، بصراحة، لم يسبق لي أن كنت مع أيّ رجل".

ابتسم زوبريست واقترب أكثر: "لا أعرف ما الذي كان يؤخّرك، لكن أودّ أن أكون الأوّل".

في تلك اللحظة، تلاشت كلّ مخاوف الطفولة المكبوتة... تبخرت في ثلوج الليل.

للمرة الأولى في حياتي، شعرت بتوق غير مشوب بأي عار.

بعد عشر دقائق، كنا في غرفة زوبريست.

كان هذا خياري، لم يجبرني على شيء.

شعرت معه أنّ كلّ شيء في هذا العالم صحيح. تمدّدت هناك وحدقت من النافذة إلى الثلوج المتساقطة، وعرفت أنّني سأتبع هذا الرجل إلى أي مكان.

أبطأ القطار السريع من سرعته فجأة، وأخرج FS-2080 من تلك الذكريات الهانئة إلى الواقع المحبط.

لقد رحلت يا بيرتراند...

كانت تلك الليلة هي الخطوة الأولى في رحلة لا تصدّق.

أصبحنا أكثر من مجرّد عشيقين. أصبح أستاذي.

قال لانغدون: "جسر ليبيرتا. أوشكنا على الوصول".

ذكّرت مياه لاغونا فينيتا FS-2080 بالرحلة البحرية التي قام بها مع زوبريست إلى هنا... صورة مسالمة تحوّلت إلى ذكرى مرعبة منذ أسبوع.

كنت هنا عندما قفز عن برج باديا.

كانت عيناي آخر عينين رآهما.

الفصل 67

انطلقت طائرة نت جيتس سيتايشن إكسيل من مطار تاسّينيانو باتّجاه البندقية. على متنها، بالكاد لاحظت د. إليزابيث سينسكي الانطلاقة الصعبة للطائرة وهي تلمس تميمتها بشرود وتحدّق من النافذة إلى الفراغ.

كانوا قد توقّفوا أخيراً عن إعطائها الحقن، وبدأت تشعر أنّ تفكيرها أصبح أكثر وضوحاً. بجانبها، جلس العميل برودر صامتاً، وهو يفكّر على الأرجح بما آلت إليه الأمور.

فكّرت سينسكي – وهي ما زالت عاجزة عن تصديق ما يجري – *لقد انقلب كلّ شيء رأساً على عقب.*

منذ نصف ساعة، اقتحموا المطار الصغير لاعتراض لانغدون الذي كان ينبغي أن يستقلّ الطائرة الخاصّة التي طلبها. لكن، عوضاً عن إيجاد البروفيسور، وجدوا الطائرة مع طيّارَين يذرعان المدرج ذهاباً وإياباً وهما يتحقّقان من الوقت. لكنّ لانغدون لم يصل.

ثمّ أتت المكالمة الهاتفية.

كانت جالسة على المقعد الخلفي في السيارة كالعادة عندما دخل العميل برودر مدهوشاً وأعطاها هاتفه.

"اتصال عاجل لك، سيّدتي".

سألته: "ممّن؟".

"طلب إخبارك أنّ لديه معلومات هامّة عن بيرترّاند زوبريست".

أخذت سينسكي الهاتف. "معك د. إليزابيث سينسكي".

"د. سينسكي، لم يسبق لنا أن التقينا، لكنّ منظّمتي مسؤولة عن إخفاء بيرترّاند زوبريست عنك طوال العام الفائت".

استقامت سينسكي فجأة. "كائناً من تكن، لقد كنت تخفي مجرماً!".

"لم نرتكب عملاً غير قانوني، لكنّ هذا ليس –".

"حقًّا! ألم تفعل؟!".

أخذ الرجل نفساً عميقاً، ثمّ تحدّث بنبرة خافتة: "سيكون لدينا أنا وأنت متّسع من الوقت لمناقشة أخلاقيات أفعالي. أعلم أنك لا تعرفينني، لكنّني أعرف الكثير عنك. كان زوبريست يدفع لي مبالغ طائلة لأخفيه عنك وعن الآخرين طوال العام الفائت. وها أنا الآن أخرق بروتوكول منظّمتي وأتّصل بك لأنّني أعتقد أنّ الخيار الوحيد أمامنا هو التعاون. أخشى أن يكون بيرترّاند زوبريست قد ارتكب أمراً فظيعاً".

لم تستطع سينسكي أن تتخيّل من يكون هذا الرجل. "ألم تدرك ذلك سوى الآن؟".

أجابها بجدّية: "أجل، هذا صحيح. الآن فقط أدركت ذلك".

حاولت سينسكي أن تهزّ خيوط العنكبوت. "من تكون؟".

"أنا شخص يريد تقديم المساعدة قبل فوات الأوان. لديّ رسالة فيديو صوّرها بيرتراند زوبريست، وطلب منّي أن أنشرها... غداً. وأعتقد أنّ عليك رؤيتها حالاً".

"ماذا تقول الرسالة؟".

"ليس عبر الهاتف، علينا أن نلتقي".

"كيف أثق بك؟".

"سأخبرك عن مكان روبرت لانغدون... ولماذا يتصرّف على هذا النحو الغريب".

أجفلت سينسكي عند سماعها اسم لانغدون، وأصغت بذهول إلى شرحه الغريب للأحداث. يبدو أنّ هذا الرجل كان متواطئاً مع عدوّها خلال العام الماضي، لكنها عندما استمعت إلى التفاصيل، شعرت أنّ عليها الوثوق به.

ليس لديّ خيار آخر.

تعاونهما أدّى إلى استخدام طائرة نت جيتس "الخالية". وهكذا، كانت سينسكي والجنود يسرعون باتجاه البندقية. فعلى حدّ قول ذاك الرجل، كان لانغدون ورفيقاه متّجهين إلى هناك الآن؛ على متن القطار. وقد تأخّر الوقت لاستدعاء السلطات المحلية، لكنّ هذا الرجل يدّعي أنّه يعرف إلى أين يتوجّه لانغدون.

ساحة سان مارك؟! شعرت سينسكي بالقشعريرة وهي تتخيّل حشود الناس في أكثر الأماكن اكتظاظاً في البندقية. "كيف عرفت ذلك؟".

أجابها الرجل: "لا أستطيع أن أخبرك عبر الهاتف، لكن عليك أن تعرفي أيضاً أنّ لانغدون يتنقّل عن غير قصد مع شخص خطير جدًّا".

سألته سينسكي: "من يكون؟".

أجاب الرجل متنهّداً: "إنّه أحد أقرب المقرّبين من زوبريست. إنّه شخص وثقت به عن تهوّر، لكنّه يشكّل الآن خطراً كبيراً".

في أثناء توجّه الطائرة إلى مطار ماركو بولو في البندقية، حاملة على متنها سينسكي والجنود الستّة، أخذت سينسكي تفكّر بروبرت لانغدون. *فقد ذاكرته! لم يعد يذكر شيئاً!!* مع أنّ هذا الخبر يفسّر العديد من الأشياء، إلاّ أنّه سبّب لسينسكي عذاباً أكبر بسبب توريط ذلك الأكاديمي الكبير في هذه الأزمة.

لم أترك له الخيار.

عندما قامت سينسكي بتجنيد لانغدون قبل يومين تقريباً، لم تسمح له حتّى بالعودة إلى البيت ليجلب جواز سفره. وعوضاً عن ذلك، قامت بالترتيبات اللازمة لمروره بشكل هادئ عبر مطار فلورنسا، باعتباره أحد معارف منظّمة الصحّة العالمية.

في أثناء تلك الرحلة، ومع ارتفاع طائرة C-130 في الجوّ، متّجهة شرقاً عبر المحيط الأطلسي، نظرت سينسكي إلى لانغدون الجالس بجانبها ولاحظت أنّه لا يبدو بخير. كان يحدّق إلى جدار الطائرة الخالي من النوافذ.

"بروفيسور، أنت تدرك أنّ هذه الطائرة من دون نوافذ؟ كانت تُستعمل حتّى وقت قريب كوسيلة نقل عسكرية".

التفت إليها لانغدون بوجه شاحب. "أجل، لاحظت ذلك منذ دخولي إليها. أنا لا أرتاح في الأماكن المغلقة".

"أنت تتظاهر إذاً بالنظر من نافذة وهمية؟".

ابتسم بخجل وأجاب: "شيء من هذا القبيل، أجل".

"حسناً، انظر إلى هذه الصورة عوضاً عن ذلك". وأخرجت صورة لعدوّها الطويل أخضر العينين ووضعتها أمامه. "هذا هو بيرتراند زوبريست".

سبق لسينسكي أن أخبرت لانغدون عن مواجهتها مع زوبريست في مجلس العلاقات الخارجية، وعن شغف الرجل بمعادلة الانهيار السكّاني، وتعليقاته المنتشرة على نطاق واسع حول الفوائد العالمية للطاعون، والأهمّ من ذلك؛ عن اختفائه تماماً خلال العام الماضي.

سألها لانغدون: "كيف يمكن لشخص معروف مثله البقاء مختفياً طوال هذه المدة؟".

"لقد تلقّى قدراً كبيراً من المساعدة المهنية؛ ربّما حتّى من حكومة أجنبية".

"أيّ حكومة هي هذه التي تتغاضى عن صنع وباء؟".

"إنّها الحكومات نفسها التي تحاول شراء رؤوس حربية نووية من السوق السوداء. لا تنسَ أنّ الوباء الفعّال هو السلاح البيوكيميائي الأمثل، ويستحقّ ثروة. من الممكن أن يكون زوبريست قد كذب على شركائه وأكّد لهم أنّ وباءه يمتاز بنطاق محدود. قد يكون هو الشخص الوحيد الذي يعرف ماهية اختراعه".

سكت لانغدون.

تابعت سينسكي: "على كلّ حال، إن لم يكن السبب هو السلطة أو المال، فقد يكون ثمّة من ساعد زوبريست لأنّه يعتقد *بأيديولوجيته*. فهو لم يكن يفتقر إلى الأتباع المستعدين لفعل أيّ شيء من أجله. لقد كان واسع الشهرة، وألقى محاضرة في جامعتكم منذ مدّة قصيرة".

"في هارفرد؟".

تناولت سينسكي قلماً، وكتبت على طرف صورة زوبريست التي التقطتها له الحرف *H* مع علامة زائد. وسألته: "أنت بارع في تحليل الرموز. هل تعرف هذا الرمز؟".

H+

همس لانغدون: "بالتأكيد. فقبل بضع سنوات، كان منتشراً في كلّ أرجاء الجامعة، واعتقدت أنّها محاضرة كيميائية".

ضحكت سينسكي. "كلاّ، هذا رمز للقمّة التي عُقدت عام 2010 تحت عنوان Humanity-plus، وهو أكبر تجمّع للحركة ما وراء الإنسانية".

شرد لانغدون وكأنّه يحاول فهم العبارة.

قالت سينسكي: "إنّها حركة فكرية، فلسفة من نوع ما، وهي تترسّخ بسرعة في المجتمع العلمي. تنصّ أساساً على أنّه ينبغي للإنسان استعمال التكنولوجيا لتجاوز نقاط الضعف الكامنة في أجسامنا البشرية. بعبارة أخرى، تتمثّل الخطوة التالية في التطوّر البشري في إقدامنا على هندسة *أنفسنا* بيولوجياً".

قال لانغدون: "هذا لا يبشّر بالخير".

"على غرار كلّ التغييرات، هذه مسألة درجات. عملياً، نحن نهندس أنفسنا منذ سنوات بفضل اللقاحات التي نطوّرها، والتي تجعل الأطفال أكثر مناعة تجاه أمراض معيّنة... كشلل الأطفال، والجدري، والتيفوئيد. لكن الفرق هو أنّ اكتشافات زوبريست في مجال هندسة السلالات الجرثومية ستجعل هذه المناعة موروثة، وذلك لأنّها ستؤثّر على المتلقّي على مستوى السلالة الجرثومية، وستزوّد كلّ الأجيال اللاحقة بمناعة ضدّ المرض".

فوجئ لانغدون. "إذاً، إنّ الجنس البشري سيتطوّر حيث يكتسب مناعة ضدّ التيفوئيد مثلاً!".

صحّحت له سينسكي قائلة: "إنّه أقرب إلى تطوّر مراقب. عادة تستغرق هذه العمليّة آلاف السنوات لتحدث. لكن الآن، يمكننا إحداث تغييرات جينية جذرية خلال جيل واحد. يعتقد أنصار هذه التكنولوجيا أنّها التعبير الأمثل عن النظرية الداروينية *بقاء الأقوى*، إذ يصبح البشر جنساً يتعلّم تحسين عمليّة تطوّره".

أجاب لانغدون: "يبدو لي الأمر على قدر كبير من الأهمية".

قالت سينسكي: "أوافقك تماماً. غير أنّ زوبريست – شأنه شأن العديد من أعضاء الحركة العابرة للإنسانية – يعتقد أنّه من واجب البشر استخدام كلّ الوسائل المتاحة؛ كالتعديل الجيني للسلالات الجرثومية مثلاً، لكي يتحسّنوا. لكنّ المشكلة هي أنّ تكويننا الجيني مترابط، حيث إن إزالة سمة بشرية واحدة قد تؤدّي إلى تغيّر في مئات السمات الأخرى؛ محدثة نتائج كارثية ربّما".

وافقها لانغدون قائلاً: "لهذا السبب، إنّ التطوّر عملية بطيئة".

شعرت سينسكي أنّ إعجابها بالبروفيسور يزداد مع كلّ لحظة تمرّ. "بالضبط! نحن أمام عمليّة استغرقت دهراً لتتكوّن. هذه أوقات خطيرة. فنحن نستطيع الآن فعليًّا تنشيط بعض المتواليات الجينية التي تمنح سلالتنا القوّة، والقدرة على التحمّل، وذكاء أكبر؛ أي عرقاً خارقاً. وهؤلاء الأشخاص المحسَّنون هم من يطلق عليهم اسم ما بعد البشر، وهو مستقبلنا نحن البشر كما يعتقد البعض".

أجاب لانغدون: "يبدو الأمر شبيهاً بعلم تحسين النسل".

تلك الملاحظة أجفلت سينسكي.

في أربعينيات القرن الماضي، عكف العلماء النازيون على دراسة تكنولوجيا أطلقوا عليها اسم علم تحسين النسل، وحاولوا من خلالها استخدام الهندسة الوراثية البدائية لزيادة معدّل ولادات الأشخاص الذين يملكون "صفات وراثية مرغوباً فيها"، وخفض معدّل المواليد ذوي الصفات "غير المرغوبة".

تطهير على المستوى الجيني.

أقرّت سينسكي: "ثمّة أوجه شبه. ومع أنّه من الصعب أن نتخيل كيف يمكن للمرء أن يهندس عرقاً بشرياً جديداً، إلاّ أن الكثير من الأشخاص الأذكياء يعتقدون أنّه من الضروري لبقائنا أن نبدأ بهذه العمليّة. فأحد المساهمين في مجلّة الحركة ما بعد الإنسانية وصف الهندسة الجينية للسلالة الجرثومية بأنّها الخطوة التالية الواضحة، كما ادّعى أنّها تجسّد الإمكانات الحقيقية لجنسنا". سكتت سينسكي ثمّ أضافت: "مع ذلك، تنشر المجلّة نفسها مقالة تحت عنوان: أخطر فكرة في العالم".

قال لانغدون: "أعتقد أنّني أوافقهم، على الأقلّ من وجهة نظر اجتماعية ثقافية".

"ماذا تقصد؟".

"أفترض أن تلك التعديلات الجينية - شأنها شأن الجراحة التجميلية - ستكون مكلفة".

"بالطبع، لن يكون بمقدور جميع الناس تحسين أنفسهم أو أطفالهم".

"هذا يعني أن التعديلات الجينية التي سيتم تشريعها ستوجد فوراً عالماً من الأشخاص الذين يملكون المقدرة وآخرين لا يملكونها. نحن نعاني أساساً من شرخ متعاظم بين الأغنياء والفقراء، وستأتي الهندسة الجينية لتوجد عرقاً من البشر الخارقين و... عرقاً دونياً بنظرهم. تخيلي فقط أنّ نسبة الواحد بالمائة تلك هي فعلياً جنس متفوّق؛ من حيث الذكاء، والقوة، والصحة أيضاً. سيكون ذاك الوضع وضعاً مثالياً للعبودية والتطهير العرقي".

ابتسمت سينسكي للأكاديمي الوسيم الجالس قربها. "بروفيسور، لقد فهمت فوراً حقيقة ما أعتقد أنّه أخطر أوجه الهندسة الجينية".

"ربّما فهمت ذلك، لكن زوبريست ما زال يحيرني. فالفكر الذي يعتقد به يبدو أنّه يسعى إلى تحسين البشرية، وجعلنا أكثر صحة، وعلاج الأمراض القاتلة، وزيادة العمر. إلاّ أن آراء زوبريست حيال الزيادة السكانية تؤيد قتل الناس كما يبدو. ألا تبدو لك أفكاره حيال ما بعد الإنسانية والزيادة السكانية متعارضة؟".

تنهّدت سينسكي. كان السؤال وجيهاً، ومع الأسف، جوابه واضح ومزعج. "اقتنع زوبريست من أعماق قلبه بالحركة ما وراء الإنسانية؛ أي تحسين الأنواع بواسطة التكنولوجيا. لكنّه اقتنع أيضاً أنّ جنسنا البشري سينقرض قبل أن تتاح له الفرصة لتحقيق ذلك. في الواقع، إن لم يتحرّك

أحد منّا، فإنّ أعدادنا الزائدة ستقضي علينا قبل أن تتاح لنا الفرصة لإدراك فوائد الهندسة الجينية".

فوجئ لانغدون وسألها: "إذاً، أراد زوبريست خفض أعداد البشر... لشراء المزيد من الوقت؟".

هزّت سينسكي رأسها موافقة. "شبّه نفسه مرّة بالمحتجز على سفينة يتضاعف عدد ركّابها كلّ ساعة، في حين أنّه يحاول يائساً صنع قارب نجاة قبل أن تغرق السفينة بفعل وزنها". صمتت هنيهة ثمّ أضافت: "فاقترح إلقاء نصف الركّاب في البحر".

قال لانغدون: "يا لها من فكرة مخيفة!".

"لكنّ زوبريست يعتقد أنّ التدبير الجذري المتمثّل في خفض عدد السكّان سيتذكّره الناس يوماً ما على أنّه عمل بطولي... على أنّه اللحظة التي اختار فيها الجنس البشري البقاء".

"كما قلت، إنّها مخيفة".

"لا سيّما وأنّ زوبريست لم يكن بمفرده. فعندما مات، أصبح بطلاً بالنسبة إلى الكثير من الناس. لا أدري من سنواجه عندما نصل إلى فلورنسا، لكن علينا توخّي الحذر. لن نكون الوحيدين الذين يبحثون عن هذا الوباء. لذا، حفاظاً على سلامتك، لا يجب أن يعرف أحد أنّك ذاهب إلى إيطاليا بحثاً عنه".

عندها، أخبرها لانغدون عن صديقه إغناتسيو بوزوني المتخصّص في دانتي والذي يظنّ أنّه سيساعده على دخول قصر فيكيو بعد ساعات العمل لتأمّل اللوحة التي تحتوي على عبارة *cerca trova*، الموجودة في الصور التي عرضها مسلاط زوبريست الصغير. وقد يساعده بوزوني أيضاً على فهم العبارة الغريبة المتعلّقة *بعيون الموت*.

أبعدت سينسكي شعرها الفضّي الطويل إلى الخلف ونظرت إلى لانغدون قائلة: "من يبحث يجد، بروفيسور. الوقت ينفد".

توجّهت سينسكي نحو مخزن في الطائرة، وأحضرت الأنبوب الأكثر أماناً في منظّمة الصحّة العالمية، المخصّص للمواد الخطرة، وكان مزوّداً بقفل بيومتري.

وضعت العبوة أمام لانغدون وقالت: "أعطني إبهامك".

أطاعها لانغدون لكنّه استغرب.

برمجت سينسكي الأنبوب لكي لا يتمكّن أيّ شخص آخر غير لانغدون من فتحه، ثمّ وضعت المسلاط الصغير فيه.

قالت مبتسمة: "اعتبره خزنة محمولة".

بدا على لانغدون الانزعاج. "مع رمز للخطر البيولوجي!؟".

"هذا هو الموجود. كما أنّ أحداً لن يجرؤ على العبث به".

استأذنها لانغدون ليتمشّى قليلاً ويستخدم الحمّام. عندما ذهب، حاولت سينسكي وضع الأنبوب في جيب سترته، إلاّ أنّه لم يتّسع له.

لا يمكن أن يحمل هذا المسلاط على مرأى من الناس. فكّرت للحظة، ثمّ عادت إلى المخزن وأحضرت مشرطاً وعدّة تقطيب، وقامت بدقّة ومهارة بصنع شقّ في بطانة سترة لانغدون وخاطت فيها جيباً سرّياً بحجم الأنبوب.

عندما عاد لانغدون، كانت تغرز القطب الأخيرة.

توقّف وحدّق إليها كما لو أنّها شوّهت *الموناليزا*. "هل قصصتِ بطانة سترة هاريس تويد؟".

قالت: "استرخِ بروفيسور. أنا جرّاحة مدرّبة. قمت بخياطة القطب بطريقة مهنية جدًّا".

الفصل 68

محطّة قطارات سانتا لوتشيا في البندقية عبارة عن بناء أنيق ومنخفض مكوّن من الحجارة الرمادية والإسمنت، تمّ تصميمه وفق نمط حديث وبسيط، مع واجهة خالية من أيّ لافتات؛ باستثناء رمز واحد هو عبارة عن الحرفين المجنّحين FS اللذين يمثّلان رمز نظام سكك الحديد في الدولة؛ Ferrovie dello Stato.

بما أنّ المحطّة تقع في الطرف الغربي لغران كانال، فإنّ الركّاب الذين يصلون إلى البندقية لا يمشون سوى خطوة واحدة خارج المحطّة، ويجدون أنفسهم وسط مناظر البندقية، وروائحها، وأصواتها المميّزة.

بالنسبة إلى لانغدون، كان الهواء دائماً أوّل ما يلفت انتباهه؛ ذلك النسيم العذب المنكّه برائحة البيتزا التي يعدّها باعة الشارع خارج المحطّة. اليوم، هبّ الهواء من الشرق، وحمل معه رائحة وقود الديزل المنبعثة من صفّ طويل من زوارق التاكسي المتوقّفة في الجوار في مياه غران كانال. راح عشرات البحّارة يلوّحون بأيديهم ويدعون السيّاح على أمل إغرائهم برحلة على متن مراكب التاكسي، أو الغوندول، أو الزوارق البخارية، أو المراكب السريعة الخاصّة.

فكّر لانغدون وهو يرمق الازدحام المائي: *فوضى في الماء*. بطريقة ما، بدا الازدحام الذي يثير الجنون في بوسطن جميلاً هنا في البندقية.

على مرمى حجر في القناة، ترتفع قبّة سان سيميوني بيكّولو في السماء بلونها الصدئ. كانت الكنيسة واحدة من أكثر الكنائس انتقائية على الصعيد المعماري في أنحاء أوروبا كافة. فقبّتها شديدة الانحدار على نحو غير اعتيادي وحرمها المستدير هما من النمط البيزنطي، في حين أنّ أعمدتها الرخامية بنيت على طراز المدخل الإغريقي الكلاسيكي للبانثيون الروماني. ويعلو المدخل الرئيس مثلث رائع من الرخام المزخرف الذي يضمّ مجموعة من التماثيل.

البندقية متحف في الهواء الطلق. هذا ما فكّر فيه لانغدون وهو ينظر إلى قناة الماء التي تمرّ قرب أدراج الكنيسة. *إنّها متحف يغرق ببطء*. مع ذلك، بدا احتمال الغرق غير هامّ مقارنة بالخطر الذي يتربّص الآن بالمدينة.

ولا أحد يعرف بذلك...

عاد إليه نصّ القصيدة المكتوبة على باطن قناع دانتي، وتساءل عن المكان الذي ستقودهم إليه تلك الأبيات. كان قد احتفظ بالنصّ المكتوب في جيبه، لكنّه لفّ القناع بالجرائد، بناءً على اقتراح سيينّا، ووضعه في خزانة شخصية في محطّة القطار. ورغم أنّ هذا المخبأ غير

مناسب إطلاقاً لتلك التحفة الثمينة، إلاّ أنّه أكثر أمناً من حمل ذلك القناع الثمين والتجوّل به في مدينة مليئة بالماء.

كانت سيينّا قد سبقته مع فيريس، وأخذت تشير إلى قارب التاكسي. نادته قائلة: "روبرت، ليس لدينا وقت طويل".

أسرع لانغدون باتجاههما، مع أنّه بصفته محبًّا للهندسة المعمارية وجد صعوبة في الإسراع عبر غران كانال؛ فتجارب البندقية التي تعدّ أكثر إمتاعاً من الصعود على متن الزورق البخاري رقم 1 قليلة؛ وهو وسيلة النقل المائي الرئيسة في المدينة، ويستحسن أن يكون ذلك ليلاً، وأن يجلس المرء في الهواء الطلق لتأمّل الكاتدرائيات والقصور المضاءة وهو يمرّ من أمامها.

فكّر لانغدون: *لن نركب الفابوريتّو اليوم*. فالزوارق البخارية معروفة ببطئها، والتاكسي المائي سيكون أسرع. مع الأسف، بدا صفّ مراكب التاكسي خارج محطّة القطار طويلاً جدًّا في تلك اللحظة.

لم يكن فيريس بمزاج يسمح له بالانتظار، فأخذ الأمور على عاتقه. لذا، دفع مبلغاً سخياً، وطلب ليموزين مائية، وهي عبارة عن زورق مصقول مصنوع من خشب ماهوغاني جنوب أفريقي. ومع أنّ ذلك الزورق مفرط الأناقة، إلاّ أنّ الرحلة ستكون خاصّة وسريعة، ولن تستغرق أكثر من ربع ساعة للوصول إلى ساحة سان مارك عبر غران كانال.

كان السائق رجلاً وسيماً للغاية، يرتدي بذلة أرماني متقنة الصنع. بدا أقرب إلى نجم سينمائي منه إلى سائق، لكن في النهاية هذه هي البندقية، أرض الأناقة الإيطالية.

قال الرجل وهو يرحّب بهم ويغمز سيينّا: "ماوريتسيو بيمبوني. ماذا تشربون؟".

شكرته سيينّا، وطلبت منه بإيطالية سريعة إيصالهم إلى ساحة سان مارك بأسرع ما يمكن.

غمزها ماوريتسيو مجدّداً وقال: "*ما تشيرتو!* زورقي هو الأسرع في البندقية...".

جلس لانغدون ورفيقاه على المقاعد الفخمة في الهواء الطلق، في حين شغّل ماوريتسيو المحرّك وتراجع عن الضفّة ببراعة. أدار بعد ذلك المقود إلى اليمين وتقدّم إلى الأمام ليمرّ بزورقه الكبير بين حشد من الغوندولات؛ مخلّفاً وراءه مجموعة غاضبة من أصحاب الغوندولات المبتلّين الذين راحوا يلوّحون بقبضاتهم في الهواء، في حين راحت مراكبهم السوداء الرشيقة تعلو وتهبط بفعل الاضطراب الذي سبّبه خلفه في الماء.

صاح ماوريتسيو معتذراً: "*سكوزاتي!* معي شخصيات هامة!".

خلال ثوانٍ، انطلق بهم ماوريتسيو بعيداً عن محطّة سانتا لوتشيا، وتوجّه شرقاً عبر غران كانال. عندما مرّوا من تحت جسر بونتي ديلي سكالزي، شمّ لانغدون الرائحة المميّزة للطبق المحلي *سيبيي ألنيرو* - وهو حبّار معد بحبره - التي تصاعدت من المطاعم الموزّعة على الضفّة المجاورة. وعندما استداروا عند أحد منعطفات القناة، برزت أمامهم كنيسة سان جيريميا الضخمة بقبّتها الجميلة.

همس لانغدون وهو يقرأ اسم القدّيسة على النقش بجانب الكنيسة: "القدّيسة لوتشيا، عظام العمياء".

نظرت إليه سيينّا: "عفواً؟". أملت أن يكون قد عرف شيئاً عن القصيدة الغامضة.

قال لانغدون: "لا شيء. خطرت لي فكرة غريبة، لكنّها قد لا تكون هامة". ثمّ أشار إلى الكنيسة وقال: "هل ترين النقش؟ القدّيسة لوتشيا مدفونة هناك. أحياناً ألقي محاضرات عن الفنّ الذي يصوّر القديسين المسيحيين، وتذكّرت أنّ القدّيسة لوتشيا هي قدّيسة العميان".

تدخّل ماوريتسيو قائلاً: "أجل، القدّيسة لوتشيا هي قدّيسة العميان! ألا تعرفون القصّة؟". نظر إليهم السائق وصاح ليعلو صوته على صوت المحرّك. "كانت لوتشيا جميلة جدًّا ويرغب فيها كلّ الرجال. لذلك، ومن فرط حبّها لله، وحفاظاً على عذريتها، قامت باقتلاع عينيها".

صدر عن سيينّا أنين وعلّقت قائلة: "هذا هو الالتزام".

أضاف ماوريتسيو: "مكافأة لها على تضحيتها، أعطاها الله عينين أكثر جمالاً!".

نظرت سيينّا إلى لانغدون. "هو يدرك أنّ كلامه بلا معنى، أليس كذلك؟".

أجابها لانغدون: "حكمة الله غامضة أحياناً". وراح يتخيّل أكثر من عشرين لوحة تصوّر القدّيسة لوتشيا حاملة عينيها على طبق.

على الرغم من وجود روايات عديدة لقصّة القدّيسة لوتشيا، إلاّ أنّها تتحدّث كلّها عن لوتشيا التي اقتلعت عينيها رائعتي الجمال، ووضعتهما على طبق، وقدّمتهما بتحدٍّ إلى الرجل الذي طلب يدها قائلة له: *إنهما أكثر ما رغبتَ فيه... والآن، أنا أتوسّل إليك أن تتركني بسلام!*". والغريب أنّ لوتشيا استلهمت هذا العمل من الكتاب المقدّس كما يقال.

لاحظ لانغدون أنّ هذه الكلمة نفسها هي المستخدمة في القصيدة. *ابحث عن دوج البندقية الخائن الذي... اقتلع عظام العمياء.*

حيّرته هذه المصادفة، وتساءل عمّا إذا كانت تلك إشارة مشفّرة إلى أنّ القدّيسة لوتشيا هي العمياء المذكورة في القصيدة.

هتف لانغدون، مشيراً إلى كنيسة سان جيريميا: "ماوريتسيو، هل رفات القدّيسة لوتشيا موجودة في تلك الكنيسة؟".

أجاب ماوريتسيو وهو يقود بمهارة بإحدى يديه وينظر إلى الخلف للتحدّث مع ركّاب زورقه، متجاهلاً الازدحام أمامه: "بعضها، أجل. لكنّ معظمها ليست هنا. فقد كانت القدّيسة لوتشيا محبوبة إلى حدّ أنّ رفاتها توزّعت على كنائس في مختلف أنحاء العالم. لكنّ أهل البندقية هم أكثر من يحبّ القدّيسة لوتشيا بالطبع، ولذلك نحتفل –".

صاح فيريس: "ماوريتسيو! القدّيسة لوتشيا هي العمياء، وليس أنت. انظر أمامك!".

ضحك ماوريتسيو والتفت إلى الأمام في الوقت المناسب ليتفادى بمهارة الاصطدام مع زورق آتٍ بالاتجاه المعاكس.

نظرت سيينّا إلى لانغدون: "إلام ترمي؟ الدوج الخائن الذي اقتلع عظام العمياء؟".

لوى لانغدون شفتيه. "لست واثقاً".

ثمّ روى لسيينّا وفيريس باختصار حكاية رفات القدّيسة لوتشيا، أي عظامها، التي كانت الأكثر غرابة من بين قصص القدّيسين. إذ يُزعم أنّه عندما رفضت لوتشيا الجميلة عرض رجل واسع النفوذ للزواج، أبلغ عنها، وتمّ حرقها، لكنّ جسدها لم يحترق - بحسب الأسطورة - لأنّ جلدها كان مقاوماً للنار. واعتُقد أنّ رفاتها تمتاز بقوى خاصّة، وأنّ من يملكها يعيش حياةً طويلة على نحو غير مألوف.

قالت سيينّا: "عظام سحرية!".

"صدّقي أو لا تصدّقي. أجل، لهذا السبب انتشرت رفاتها في مختلف أنحاء العالم. وحاول زعماء أقوياء لألفيتين من الزمن محاربة التقدّم في السنّ والموت بامتلاك عظام القدّيسة لوتشيا. فسُرقت جثّتها عدّة مرّات، وقُسّمت أكثر من أيّ قدّيس في التاريخ. ويُعتقد أنّ عظامها مرّت بين أيدي عشرة أشخاص نافذين في التاريخ على الأقل".

سألته سيينّا: "بمن في ذلك دوج خائن؟".

ابحث عن دوج البندقية الخائن الذي قطع رؤوس الخيل... واقتلع عظام العمياء.

قال لانغدون: "هذا ممكن". ثمّ أدرك أنّ دانتي ذكر القدّيسة لوتشيا بوضوح في قصيدة الجحيم، وكانت واحدة من النساء الثلاث المباركات، *لي تري دونّي بينيديتّي*، اللواتي ساعدن على استدعاء فيرجيل لمساعدة دانتي على الخروج من العالم السفلي. وبذلك يكون دانتي قد وضع القدّيسة لوتشيا بمنزلة امرأتين تمتازان بمكانة عالية جدًّا.

قالت سيينّا بحماسة: "إن كنت محقًّا في ذلك، فإنّ الدوج الخائن نفسه الذي قطع رؤوس الخيل...".

أكمل لانغدون: "... قد سرق أيضاً عظام القدّيسة لوتشيا".

هزّت سيينّا رأسها موافقة. "وهذا ما يضيّق لائحة البحث بشكل كبير". نظرت إلى فيريس مضيفة: "هل أنت واثق أنّ هاتفك لا يعمل؟ ربّما استطعنا إجراء بحث على الإنترنت من أجل -".

قاطعها فيريس قائلاً: "لقد توقّف عن العمل تماماً، تحقّقت منه للتوّ. أنا آسف".

قال لانغدون: "سنصل قريباً، وأعتقد أنّنا سنجد بعض الأجوبة في بازيليك سان مارك".

كانت بازيليك سان مارك قطعة الأحجية الوحيدة التي بدت مؤكّدة بالنسبة إلى لانغدون. *موزيون الحكمة المقدّسة*. كان لانغدون يعتمد على البازيليك لاكتشاف هوية الدوج الغامض... ومن هناك، مع شيء من الحظّ، سيكتشف أيضاً القصر الذي اختاره زوبريست لنشر الوباء منه. *فهناك، في الظلام، ينتظر الوحش القابع في العالم السفلي.*

حاول لانغدون أن يطرد من ذهنه صور الطاعون، لكن عبثاً. غالباً ما تساءل: كيف كانت هذه المدينة الرائعة في ذروتها... قبل أن يوهنها الطاعون بما فيه الكفاية ليستولي عليها العثمانيون، ومن بعدهم نابوليون؟ كيف كانت البندقية في زمن شكّلت فيه المركز التجاري

لأوروبا بأسرها؟ من دون أدنى شكّ، لم تكن في العالم أي مدينة تضاهيها جمالاً ولا شعب يضاهي شعبها ثروة وثقافة.

من المفارقات، أنّ حبّ السكّان للكماليات الأجنبية هو الذي جلب لهم الدمار؛ وذلك لأنّ الطاعون القاتل انتقل من الصين إلى البندقية بسبب جرذان اختبأت على متن السفن التجارية. وهكذا، انتقل الطاعون نفسه الذي قضى على ثلثي سكّان الصين إلى أوروبا، وسرعان ما أودى بحياة ثلث السكان، ولم يفرّق بين العجزة والشباب، أو بين الفقراء والأغنياء.

كان لانغدون قد قرأ وصفاً لحياة الناس في البندقية خلال تفشّي الطاعون. فمع انعدام الأراضي الجافّة لدفن الموتى، أو قلّتها، عامت الجثث المنتفخة في الأقنية، واكتظّت بعض الأماكن بالجثث إلى حدّ أنّ العمّال اضطرّوا إلى جرّها مثل جذوع الأشجار لإيصالها إلى البحر. بدا للناس أنّ الصلاة لم تعد تجدي لإطفاء غضب الطاعون. وعندما أدرك مسؤولو المدينة أنّ الجرذان هي التي تسبّبت بالوباء، كان الأوان قد فات. مع ذلك، طبّقت البندقية مرسوماً يقضي بأن ترسو كلّ السفن الوافدة بعيداً عن الشاطئ لمدّة أربعين يوماً قبل أن يُسمح لها بإفراغ حمولتها. وحتّى هذا اليوم، ما زال العدد أربعون، أي *كارانتا* بالإيطالية، يُستخدم للتذكير بأصول كلمة *كارانتينا*.

مع تقدّم الزورق بسرعة أكبر عند أحد منعطفات القناة، ظهرت مظلّة حمراء زاهية ترفرف في الهواء، وجذبت انتباه لانغدون بعيداً عن أفكار الموت السوداء باتّجاه بناء أنيق من ثلاثة طوابق يقع إلى اليسار.

كازينو البندقية: إحساس بلا حدود.

مع أنّ لانغدون لم يفهم مطلقاً معنى الكلمات المكتوبة على لافتة الكازينو، إلاّ أنّ ذلك القصر الجميل المبنيّ في عصر النهضة شكّل جزءاً من مشهد البندقية منذ القرن السادس عشر. كان في ما مضى قصراً خاصًّا؛ قبل أن يصبح كازينو، وشهد عام 1883، على وفاة الموسيقار ريتشارد فاغنر الذي سقط ميتاً إثر إصابته بذبحة قلبية بعد وقت قصير من تأليف أوبرا *بارسيفال*، وذلك في إحدى قاعات القصر.

بعد الكازينو، إلى اليمين، ظهرت واجهة على نمط الباروكي تحمل لافتة أكبر حجماً تعلن بخطّ أزرق اللون، *كابيسارو: المعرض الدولي للفنّ الحديث*. قبل سنوات، دخل لانغدون المتحف، ورأى تحفة غوستاف كليمت - *القبلة* - عندما كانت معروضة على سبيل الإعارة من فيينا. أبهره ذلك العمل الرائع، وولّد لديه شغفاً بأعمال الفنّان. وحتّى هذا اليوم، ما زال يعترف بفضل متحف كابيسارو في إثارة اهتمامه بالفنّ الحديث مدى الحياة.

قاد ماوريتسيو الليموزين بسرعة أكبر في القناة العريضة.

أمامهم، ارتفع جسر ريالتو الشهير الذي يقع في منتصف الطريق إلى ساحة سان مارك. عندما اقتربوا منه وأوشكوا على المرور من تحته، نظر لانغدون إلى الأعلى، ورأى شخصاً وحيداً يقف بلا حراك وراء الدرابزين، ويحدّق إليهم بوجه متجهّم.

كان الوجه مألوفاً... ومخيفاً.

تراجع لانغدون تلقائياً إلى الوراء.

كان الوجه طويلاً، ورمادي البشرة، ويمتاز بعينين باردتين وأنف طويل معقوف.

مرّ القارب من تحت الجسر، وأدرك لانغدون أنّه لم يكن سوى سائح يضع واحداً من مئات أقنعة الطاعون التي تباع كلّ يوم في سوق ريالتو المجاورة.

لكن اليوم، لم يبدُ ذلك القناع ساحراً على الإطلاق.

الفصل 69

تقع ساحة سان مارك في أقصى الطرف الجنوبي لغران كانال، حيث يصبّ الممرّ المائي في البحر. تشرف على هذا التقاطع الخطير قلعة مثلّثة الشكل تحمل اسم دوغانا دامار، وتضمّ مكتب الجمارك البحرية، وقد استُخدم برج المراقبة فيها لحراسة البندقية من الغزو الخارجي في ما مضى. اليوم، استُبدل برج المراقبة بكرة ذهبية ضخمة ودوّارة لتحديد اتّجاه الرياح؛ تذكّر البحّارة المتّجهين إلى المحيط بتقلّب الأقدار.

بينما كان ماوريتسيو يوجّه القارب الأنيق نحو آخر القناة، بدا لهم البحر بأمواجه المتلاطمة. كان لانغدون قد مرّ بهذه الطريق مرّات عديدة من قبل، لكن على متن زورق بخاري أكبر بكثير. ولذلك شعر بشيء من عدم الارتياح مع تمايل قاربهم فوق الأمواج العالية.

للوصول إلى أحواض ساحة سان مارك، يجب أن يعبر قاربهم بحيرة مفتوحة تزدحم بمئات القوارب من الأنواع كافة؛ يخوت فاخرة، وناقلات نفط، ومراكب شراعية خاصّة، وسفن سياحية ضخمة. شعر لانغدون وكأنّهم يخرجون من طريق ريفي إلى الطريق السريع.

بدا القلق أيضاً على سيينّا التي رمقت بخوف السفينة السياحية المؤلّفة من عشرة طوابق، والتي مرّت من أمامهم في تلك اللحظة على بعد لا يتجاوز ثلاثمائة ياردة. كان سطح السفينة يزدحم بالركّاب الواقفين قرب الدرابزين ليلتقطوا صوراً لساحة سان مارك من المياه. خلف تلك السفينة، كان ثمّة ثلاثة مراكب أخرى تتحيّن الفرصة للمرور من أمام أشهر المعالم السياحية في البندقية. كان لانغدون قد سمع أنّه في السنوات الأخيرة، تضاعف عدد السفن بسرعة؛ حيث إنّ أعداداً لا تحصى منها تعبر القناة ليل نهار.

تأمّل ماوريتسيو من خلف المقود السفن القادمة، ثمّ نظر إلى اليسار ليحدّد موقع الحوض القريب. "هل تريدون النزول عند مطعم هاري؟". وأشار إلى المطعم الشهير باختراع البيلّيني. "إنه لا يبعد عن سان مارك سوى مسافة قصيرة سيراً على الأقدام".

قال فيريس؛ مشيراً إلى أحواض ساحة سان مارك. "كلاّ، أوصلنا إلى هناك".

هزّ ماوريتسيو كتفيه قائلاً: "خيار جيّد. انتظروا قليلاً!".

علا صوت المحرّكات، وبدأت الليموزين تمرّ بين المراكب الأخرى إلى أن وصلت إلى الحوض المقصود. بدت السفن التي مرّوا قربها أشبه بمبانٍ سكنية عائمة تقذف الزوارق الصغيرة خلفها كما لو أنها قطع فلّين.

فوجئ لانغدون عندما رأى عشرات الغوندولات الأخرى تعبر الطريق نفسه. بدت المراكب التي يبلغ طول الواحد منها نحو أربعين قدماً تقريباً ووزنه حوالى ألف وأربعمائة باوند، ثابتة في وجه الأمواج على نحو لافت. كان يقود كلاً منها غناديلي ثابت القدمين، يقف على منصّة على الجانب الأيسر من مؤخّر السفينة، ويرتدي القميص التقليدي المخطّط بالأبيض والأسود، ويجذّف بمجذاف واحد معلّق على الحافة اليمنى للمركب. حتّى في المياه الهائجة، كان واضحاً أنّ كلّ غوندول ينحرف إلى اليسار. وقد علم لانغدون أنّ السبب يعود إلى بناء القارب غير المتناظر. فجسم الغوندول ينحرف إلى اليمين، بعيداً على الغناديلي، وذلك لمقاومة ميل القارب نحو اليسار بفعل التجذيف من الجانب الأيمن.

أشار ماوريتسيو بفخر إلى أحد مراكب الغوندول وهم يمرّون قربها. "هل ترون الإشارة المعدنية في المقدّمة؟". وأشار إلى الزخرفة الأنيقة البارزة على مقدّمة المركب. "إنّها الشيء المعدنيّ الوحيد في الغوندول، ويدعى *فيرّو دي برو*ا، أي حديد مقدّمة السفينة. إنّها صورة للبندقية!".

شرح لهم ماوريتسيو أنّ الزخرفة الشبيهة بالمنجل التي تزيّن مقدّمة الغوندول في البندقية لها معنى رمزي. فالحديد المقوّس يمثّل غران كانال، وأسنانه السّتّ تشير إلى مقاطعات البندقية الست، والنصل المستطيل يشير إلى خوذة دوج البندقية.

عادت أفكار لانغدون إلى المهمّة التي تنتظرهم. *الدوج. ابحث عن دوج البندقية الخائن الذي قطع رؤوس الخيل... واقتلع عظام العمياء.*

نظر لانغدون إلى الشاطئ مترامي الأطراف أمامه، الذي تلتقي عنده حديقة صغيرة مشجّرة بأطراف الحوض. فوق الأشجار، ارتفع برج جرس سان مارك المستدق بأحجاره الحمراء تحت السماء الصافية، وبدا على سطحه تمثال ذهبي يحدّق إلى الأسفل من على ارتفاع ثلاثمائة قدم.

في مدينة تخلو من المباني الشاهقة بسبب ميل تلك المباني إلى الغرق، يؤدّي برج جرس سان مارك دور منارة ملاحية لكلّ من يغامر في متاهة قنوات البندقية وممرّاتها. إذ تكفي نظرة إلى السماء لكي يرى المسافر التائه طريق العودة إلى ساحة سان مارك. ما زال لانغدون لا يصدّق أنّ هذا البرج الشاهق انهار عام 1902 مخلّفاً كومة هائلة من الركام في ساحة سان مارك. ولم تسفر الكارثة سوى عن ضحية واحدة، ألا وهي قطّة.

يستطيع زوّار البندقية الإحساس بأجواء المدينة الفريدة من نوعها في أيّ عدد من الأماكن الرائعة، لكنّ المكان المفضل لدى لانغدون كان دائماً ريفا ديلي سكيافوني. كان المنتزه الحجري الواسع الواقع على ضفة المياه قد بُني في القرن التاسع عشر من الطمي، ويمتدّ من الأرسنال القديم وصولاً إلى ساحة سان مارك.

تحيط المقاهي الجميلة، والفنادق الفخمة، وحتّى كنيسة أنطونيو فيفالدي بالمنتزه الذي يبدأ عند الأرسنال؛ وهي الساحة القديمة في البندقية المخصّصة لبناء السفن. هناك، كانت رائحة الصنوبر المتصاعدة من نسغ الأشجار المغلي الذي يستخدمه بنّاؤو السفن لسدّ الثغرات في

مراكبهم تملأ الهواء. ويزعم أنّ زيارة ذلك المكان بالذات هي التي ألهمت دانتي أليغييري باستخدام أنهار الزفت المغلي كوسيلة للتعذيب في جحيمه.

انتقل نظر لانغدون إلى اليمين، على طول ضفة الريفا، واستقرّ عند نهاية المنتزه. هناك، عند أقصى الطرف الجنوبي لساحة سان مارك يلتقي الرصيف بالبحر المفتوح. في عهد البندقية الذهبي، كان هذا الجُرف يسمّى بكلّ فخر "نهاية الحضارة".

اليوم، اصطفّ ما لا يقلّ عن مائة غوندول أسود أمام الضفة التي تلتقي فيها ساحة سان مارك بالبحر، والتي تمتدّ على طول 300 ياردة. كانت الأمواج تؤرجح المراكب التي راحت تعلو وتهبط أمام أبنية البياتزا الرخامية.

ما زال لانغدون يستغرب كيف أنّ هذه المدينة الصغيرة التي لا تزيد مساحتها عن ضعف مساحة سانترال بارك في نيويورك، قد خرجت من البحر، لتصبح أكبر وأغنى إمبراطورية في الغرب.

مع اقتراب ماوريتسيو من وجهتهم، رأى لانغدون الساحة الأساسيّة مزدحمة بالناس. كان نابوليون قد وصف ساحة سان مارك بأنّها "قاعة استقبال أوروبا". وكما يبدو، تضمّ هذه "القاعة" عدداً كبيراً جدًّا من الضيوف. بدت البياتزا وكأنّها ستغرق تحت ثقل معجبيها.

همست سيينّا وهي تحدّق إلى حشود الناس: "يا إلهي!".

لم يعرف لانغدون ما إذا كان خوفها ناتجاً عن اختيار زوبريست موقعاً يمتاز بهذه الكثافة السكّانية لإطلاق وبائه... أم لأنّها شعرت أنّ زوبريست كان محقًّا في التحذير من مخاطر الزيادة السكّانية.

تستقبل البندقية عدداً هائلاً من السياح كلّ عام؛ يقدّر بنحو ثلث واحد بالمائة من سكان العالم، وقد بلغ هذا العدد حوالى عشرين مليون زائر في العام 2000. ومع مليار النسمة الذين أضيفوا إلى سكان الأرض منذ ذلك العام، فإنّ المدينة تئنّ الآن تحت ثقل ثلاثة ملايين زائر إضافي كلّ عام. والبندقية – شأنها شأن هذا الكوكب – ذات مساحة محدودة. ويوماً ما، لن تعود قادرة على استيراد ما فيه الكفاية من الطعام، وعلى التخلّص من نفاياتها، وتأمين عدد كافٍ من الأسرّة لجميع الناس الذين يرغبون في زيارتها.

وقف فيريس بجوارهما، لكنّه لم ينظر إلى البرّ، بل إلى البحر؛ مراقباً السفن القادمة.

سألته سيينّا بفضول: "هل أنت بخير؟".

"أجل، بخير... كنت أفكّر وحسب". ثمّ استدار ونادى ماوريتسيو قائلاً: "ارسُ بالليموزين أقرب ما يكون إلى سان مارك".

قال السائق: "لا مشكلة في ذلك! أعطني دقيقتين!".

أصبحت الليموزين الآن أمام ساحة سان مارك، وارتفع قصر الدوج إلى يمينهم بشكل مهيب، حيث هيمن على الشاطئ.

يشكّل القصر نموذجاً ممتازاً عن الهندسة القوطية في البندقية، ومثالاً للأناقة والرقيّ المعماري. لا يمكن تشبيه أبراجه بأبراج قصور فرنسا أو إنكلترا. فقد بُني القصر بشكل

مستطيل، حيث يؤمّن أكبر مساحة ممكنة في الداخل لاحتواء أفراد حكومة الدوج الكبيرة ومساعديه.

من المحيط، كانت واجهة القصر البيضاء الضخمة المبنية من الحجر الجيري ستبدو جافّة لولا أنّه تمّ تخفيف هذا التأثير عبر إضافة أروقة، وأعمدة، ولوجيا، وثقوب رباعية. تمتدّ النماذج الهندسية المصنوعة من الجير الوردي على الجهة الخارجية للقصر بأكمله لتذكّر لانغدون بقصر الحمراء في إسبانيا.

عندما اقتربوا من المرسى أكثر، لاحظ فيريس مجموعة من الناس أمام القصر. كان المحتشدون متجمّعين على جسر، وهم جميعاً يشيرون إلى قناة ضيّقة في الأسفل تمرّ بين جزأين من قصر الدوج.

سأل فيريس بعصبية: "إلام ينظرون؟".

أجابت سيينّا: "إنّه بونتي داي سوسبيري؛ جسر مشهور في البندقية".

نظر لانغدون إلى الجسر المكتظّ، ورأى النفق الجميل الذي يمتدّ بين مبنيين. جسر *التنهّدات*، تذكّر لانغدون أحد أفلامه المفضلة في شبابه، *ليتل رومانس*، المستند إلى أسطورة تزعم أنّه إن قبّل العاشقان بعضهما تحت هذا الجسر عند مغيب الشمس، في الوقت الذي تُقرع فيه أجراس سان مارك، فسيحبّان بعضهما إلى الأبد. علقت هذه الفكرة الرومانسية العميقة في ذهن لانغدون طوال حياته. بالطبع، لم يكن أمراً سيئاً أنّ بطلة الفيلم كانت ممثّلة جديدة في الرابعة عشرة من عمرها تدعى ديان لاين، وقد افتُتن بها لانغدون على الفور... ويقرّ أنّه لم يتخلّص تماماً من هذا الافتتان حتّى اليوم.

لاحقاً، ذُعر لانغدون لدى معرفته أنّ جسر التنهّدات لا يستمدّ اسمه من تنهّدات العاشقين... بل من تنهّدات البؤس. إذ تبيّن أنّه يربط بين قصر الدوج وسجنه الذي كان السجناء يموتون فيه، وتتردّد أصداء أنينهم ومعاناتهم من النوافذ على طول القناة الضيّقة.

كان لانغدون قد زار السجن مرّة، وفوجئ لدى معرفته أنّ الزنازين الأكثر فظاعة لم تكن تلك الموجودة على مستوى الماء، والتي غالباً ما كانت تُغمر بالمياه، بل تلك المجاورة لها، التي تقع في الطابق الأعلى من القصر، والتي تسمّى *بيومبي* بسبب سطحها المغطّى بالرصاص، والذي يجعلها حارقة في الصيف وقارسة البرد في الشتاء. وقد سُجن في إحداها العاشق الشهير كازانوفا بتهمة الخيانة والتجسّس، وعاش فيها خمسة عشر شهراً ليتمكّن من الهرب لاحقاً بعد أن خدع سجّانه.

صاح ماوريتسيو لقائد أحد الغوندولات لينتبه فيما كان يدخل الليموزين الحوض الذي غادره الغوندول للتوّ. كان قد وجد بقعة خالية أمام فندق دانييلي، على بعد مائة ياردة فقط من ساحة سان مارك وقصر الدوج.

ألقى ماوريتسيو حبلاً حول دعامة، ثمّ قفز إلى الشاطئ. وعندما ثبّت الليموزين، عاد ومدّ يده إلى القارب لمساعدة الركّاب على النزول.

شكر لانغدون الإيطالي وهو يسحبه إلى الضفة بعضلاته المفتولة.

تبعه فيريس الذي بدا مشتّتاً، ونظر مجدّداً إلى البحر.

كانت سيينّا هي الأخيرة. ساعدها البحّار الوسيم، وحدّق إليها مطوّلاً وكأنّه يعني ضمناً أنّها ستمضي وقتاً أجمل بكثير إن تخلّت عن رفيقيها وبقيت معه على المركب. لكن بدا أنّ سيينّا لم تلاحظ نظراته.

قالت وهي تنظر إلى قصر الدوج: "*غراتسيي*، ماوريتسيو".

ومن دون إضاعة الوقت، قادت لانغدون وفيريس بين الحشود.

الفصل 70

يقع مطار ماركو بولو الدولي، الذي يحمل اسم الرحّالة الشهير، على بعد أربعة أميال شمال ساحة سان مارك، على ضفة لاغونا فينيتا.

بفضل مزايا السفر الخاصّ جوًّا، وصلت إليزابيث سينسكي قبل عشر دقائق من الوقت المحدّد، وهي الآن تعبر البحيرة على متن مركب أسود من نوع دوبوا SR52 بلاكبيرد، أرسله الغريب الذي اتصل بها.

العميد.

شعرت سينسكي، بعد جلوسها الطويل على المقعد الخلفي لسيارة الفان طوال اليوم، بالنشاط في الهواء الطلق المشبع برائحة البحر. التفتت نحو الهواء المالح، وتركته يداعب شعرها الفضّي. مرّت ساعتان تقريباً منذ آخر حقنة تلقّتها، وللمرّة الأولى منذ الليلة الماضية شعرت أنّها عادت إلى طبيعتها.

جلس العميل برودر إلى جانبها مع فريقه. لم يتكلّم أيّ منهما. إن كانت لديهما أيّ مخاوف حيال هذا اللقاء غير الاعتيادي، فقد أدركا أنّ أفكارهما ليست مهمّة، إذ لم يكن القرار بأيديهما.

مع تقدّم القارب، لاحت في الأفق جزيرة كبيرة إلى اليمين، انتشرت على سواحلها مباني الطوب ومداخن المصانع. *مورانو*، الشهيرة بمصانع نفخ الزجاج اللامع.

فكرت في سرّها: *لا أصدّق أنّني عدت*، وشعرت بغصّة كبيرة. *دورة كاملة.*

منذ سنوات، عندما كانت في كلّية الطبّ، أتت إلى البندقية مع خطيبها، وقاما بزيارة متحف الزجاج في مورانو. هناك، رأى خطيبها زينة جميلة لغرف الأطفال من الزجاج، فعلّق ببراءة أنّه يرغب في تعليق واحدة مثلها يوماً ما في غرفة طفلهما. عندئذ، شعرت بالذنب لأنّها خبّأت عنه سرًّا مؤلماً لفترة طويلة، فأخبرته أخيراً بإصابتها بالربو في طفولتها والعلاجات المرتكزة على الغلوكوكورتيكوييد التي وُصفت لها ودمّرت جهازها التناسلي.

لم تعرف إليزابيث ما إذا كان عدم صدقها أو عقمها ما حوّل قلب ذلك الشابّ إلى حجر. لكن بعد أسبوع واحد، غادرت البندقية من دون خاتم الخطوبة.

ذكراها الوحيدة من تلك الرحلة هي التميمة التي تعلّقها حول عنقها، كان صولجان أسكليبيوس رمزاً للطبّ، الطبّ الفاشل في حالتها، لكنّها تضعها منذ ذلك الحين.

تميمتي الغالية، هدية الوداع من رجل أراد أن أنجب أطفاله.

اليوم، لم تجد جزر البندقية رومانسية، ولم تولّد قراها المعزولة فيها أحاسيس الحبّ، بل ذكّرتها بمستعمرات الكارانتينا التي أقيمت فيها في الماضي في محاولة للتصدّي للموت الأسود.

مع مرور البلاكبيرد من أمام جزيرة سان بييترو، لاحظت إليزابيث أنّهم يتوجّهون نحو سفينة رمادية ضخمة، بدت راسية في قناة عميقة بانتظار وصولهم.

بدت السفينة الرمادية المعدنية وكأنّها تنتمي إلى برنامج عسكري سرّي أميركي. أمّا الاسم الذي يظهر على السفينة فلم يكن يعطي أيّ إشارة إلى نوع السفينة.

المينداسيوم؟

اقتربوا من السفينة تدريجيًا، ورأت سينسكي على متنها رجلاً قصير القامة، أسمر البشرة، يراقبهم عبر المنظار. عندما وصل القارب إلى المنصّة الخلفية *للميندا*سيوم، نزل الرجل السلّم لاستقبالهم.

صافحها الرجل بتهذيب، ولاحظت أنّ يديه ناعمتان ولا تناسبان يدي بحّار. "د. سينسكي، أهلاً بك. أشكرك لمجيئك. اتبعيني من فضلك".

صعدت المجموعة عدّة طوابق، ولمحت سينسكي في طريقها عدة حجرات يعمل فيها أشخاص. كانت هذه السفينة الغريبة مليئة بالناس، وكلّهم يعملون.

على ماذا؟

تابعوا صعودهم، وسمعت سينسكي في أثناء ذلك محرّكات السفينة وهي تدور، ثمّ ظهر أثر عميق في الماء عندما بدأ اليخت يتحرّك مجدّداً.

تساءلت بقلق: *إلى أين نذهب؟*

قال الرجل للجنود: "أودّ التحدّث مع د. سينسكي على انفراد". ثمّ نظر إليها مضيفاً: "إن كان هذا يناسبك".

هزّت إليزابيث رأسها موافقة.

قال برودر: "سيّدي، أتمنّى أن يقوم طبيب السفينة بفحص د. سينسكي، فهي تعاني من –".

قاطعته سينسكي قائلة: "أنا بخير، حقًّا. شكراً لك".

رمق العميد برودر مطوّلاً، ثمّ أشار إلى طاولةِ طعام وشراب تحضّر على سطح المركب. "استرح قليلاً، فأنت بحاجة إلى ذلك. ستعود إلى اليابسة قريباً".

ومن دون قول المزيد، استدار العميد وقاد سينسكي إلى مكتب أنيق، ثمّ أغلق الباب خلفهما.

"هل ترغبين في بعض الشراب؟".

رفضت بإيماءة من رأسها وهي لا تزال تحاول استيعاب محيطها الغريب. *من يكون هذا الرجل؟ ماذا يفعل هنا؟*

قال وهو يتأمّلها: "هل تعرفين أنّ عميلي بيرتراند زوبريست كان يسمّيك الشيطانة ذات الشعر الفضّي؟".

"لديّ أنا أيضاً أسماء مختارة له".

ذهب الرجل إلى مكتبه وتناول كتاباً ضخماً. "أودّ أن تلقي نظرة على هذا".

اقتربت منه سينسكي ونظرت إلى المجلّد. جحيم *دانتي*؟ تذكّرت صور الموت المرعبة التي عرضها عليها زوبريست في لقائهما الأخير في مجلس العلاقات الخارجية.

"أعطاني إيّاه زوبريست قبل أسبوعين. وثمّة إهداء عليه".

تأمّلت سينسكي النص المكتوب بخطّ اليد على صفحة العنوان. كان موقّعاً باسم زوبريست.

صديقي العزيز، شكراً لك لمساعدتي على إيجاد الطريق.
العالم يشكرك أيضاً.

شعرت سينسكي بقشعريرة. "ما هو الطريق الذي ساعدته على إيجاده؟".

"لا أدري، أو بالأحرى لم أكن أدري".

"والآن؟".

"الآن، خرقت البروتوكول الخاصّ بي... واتّصلت بك".

لم تكن سينسكي في مزاج ملائم للتلميحات. "سيّدي، أنا لا أعرفك ولا أعرف ما تفعله على هذه السفينة، لكنّك تدين لي بتفسير. أخبرني لماذا أخفيت رجلاً ملاحقاً من قبل منظّمة الصحّة العالمية".

على الرغم من نبرة سينسكي الحادّة، أجابها الرجل هامساً: "أدرك أنّنا كنّا نعمل أنا وأنت لأهداف متعارضة، لكنّني أقترح أن ننسى الماضي. برأيي، المستقبل هو ما يحتاج إلى اهتمامنا الفوري".

عندئذ، تناول الرجل شريحة ذاكرة حمراء صغيرة وأدخلها في جهاز الكمبيوتر، ثمّ أشار لها لتجلس قائلاً: "لقد أعدّ بيرتراند زوبريست هذا الفيلم على أمل أن أنشره له غداً".

وقبل أن تتمكّن سينسكي من الإجابة، أظلمت شاشة الكمبيوتر، وسُمع خرير مياه. خرج من الظلام مشهد وبدأ يتّضح تدريجيًّا... قلب كهف مغمور بالماء... وكأنّه بركة تحت الأرض. والغريب أنّ الماء بدا وكأنّه مضاء من الأسفل... إذ كان يتوهّج بلون قرمزي غريب.

تواصل الفيلم، ومالت الكاميرا إلى الأسفل، ثمّ غاصت في الماء، وركّزت الصورة على أرض الكهف المغطّاة بالطمي. هناك في القعر، ظهرت لوحة مستطيلة لامعة تحمل نقشاً لتاريخ واسم.

في هذا المكان، وفي هذا التاريخ،
تغيّر العالم إلى الأبد.

كان التاريخ هو تاريخ الغد، والاسم هو اسم بيرتراند زوبريست.

شعرت سينسكي برعشة وسألته: "ما هذا المكان؟! *وأين* يقع؟!".

تنهّد العميد وبدا عليه القلق والخيبة. "د. سينسكي، كنت آمل أن أجد عندك جواباً عن هذا السؤال".

على بعد ميل واحد، من على ممشى ريفا ديلي سكيافوني المقابل للبحر، تغيّر مشهد البحر قليلاً. فمن يمعن النظر، يرَ يختاً رمادياً ضخماً يقترب من البرّ من ناحية الشرق. كان متّجهاً الآن إلى ساحة سان مارك.

إنّه المينداسيوم، سرت رعشة خوف في جسد FS-2080 عند إدراكه ذلك.

لا يمكن لأحد أن يخطئه.

العميد قادم... والوقت ينفد.

الفصل 71

مرّ لانغدون وسيينّا وفيريس بين حشود الناس على ريفا ديلي سكيافوني، على ضفة المياه، وشقّوا طريقهم في ساحة سان مارك، إلى أن وصلوا إلى أقصى الطرف الجنوبي الذي تلتقي فيه البياتزا بالبحر.

هناك، كانت حشود السياح كثيفة جدًّا حيث يتعذّر اختراقها، فشعر لانغدون بالاختناق بين الناس الذين يقتربون لتصوير العمودين الضخمين القائمَين عند حدود الساحة.

المدخل الرسمي للمدينة. هذا ما فكّر فيه لانغدون ساخراً، لعلمه أنّ هذا المكان قد استُخدم أيضاً لتنفيذ أحكام الإعدام العلنية حتّى أواخر القرن الثامن عشر.

فوق أحد العمودين، رأى تمثالاً غريباً للقدّيس ثيودور؛ إذ يقف بفخر مع التنّين المذبوح بحسب الأسطورة الشهيرة، الذي بدا دائماً بالنسبة إلى لانغدون أقرب إلى تمساح.

فوق العمود الثاني، كان ثمّة رمز معروف للبندقية، الأسد المجنّح. يمكن رؤية الأسد المجنّح في مختلف أنحاء المدينة وهو يضع إحدى قوائمه بفخر على كتاب مفتوح نُقِشَت عليه باللاتينية عبارة *Pax tibi Marce, evangelista meus*. بحسب الأسطورة، قال هذه الكلمات ملاك عند وصول سان مارك إلى البندقية، وأخبره أنّ جثّته ستدفن هنا يوماً ما. وقد استخدمت هذه الأسطورة الملفّقة لاحقاً من قبل أهالي البندقية لتبرير سرقة رفات سان مارك من الإسكندرية، وإعادة دفنه في بازيليك سان مارك. ظلّ الأسد المجنّح حتّى هذا اليوم رمز المدينة، ويمكن رؤيته في كلّ مكان.

أشار لانغدون إلى اليمين عبر ساحة سان مارك وقال: "ما رأيكما أن نفترق هنا ونلتقي عند مدخل البازيليك؟".

وافق الاثنان الآخران، وأخذوا جميعاً يمشون عند أطراف الحشد متّبعين الجدار الغربي لقصر الدوج في الساحة. بدت حمائم البندقية الشهيرة في أفضل حال، على الرغم من القوانين التي تمنع إطعامها. كان بعضها ينقر الأرض قرب أقدام السياح، في حين انقضّت حمائم أخرى على المقاهي المفتوحة للاستيلاء على الخبز الموضوع في سلال وإزعاج النُدُل. خلافاً لمعظم ساحات أوروبا، لم تكن هذه الساحة مربّعة، بل على شكل *L*. كانت الجهة الأكثر قصراً المعروفة باسم *بياتزيتّا* تربط البحر ببازيليك سان مارك. بعد ذلك، تنعطف الساحة بزاوية تسعين درجة وتمتدّ من البازيليك إلى متحف كورير. لكن، عوضاً عن الامتداد بشكل مستقيم، تتخذ الساحة شكل مربع شبه منحرف وغير منتظم، يضيق إلى حدّ كبير عند أحد أطرافه. وهذا الشكل

جعل البياتزا تبدو أطول ممّا هي عليه في الواقع، بسبب شبكة البلاط التي تمتدّ على حدود الأكشاك الأصلية لتجّار الشارع في القرن الخامس عشر.

بينما تابع لانغدون طريقه نحو الزاوية التي تنعطف الساحة عندها، رأى أمامه مباشرة الزجاج الأزرق لبرج ساعة سان مارك؛ وهو البرج الشاهق نفسه الذي رمى جايمس بوند من فوقه أحد الأشرار في فيلم *مونراكر*.

في اللحظة التي دخل فيها لانغدون الساحة المحمية، استطاع أن يقدّر أهمّ مزايا تلك المدينة وأكثرها فرادة.

الصوت.

ففي ظلّ غياب السيّارات والعربات ذات المحركات بأنواعها كافّة، كانت البندقية تمتاز بانعدام ازدحام حركة المرور المعتادة، وغياب قطارات الأنفاق، وأبواق السيّارات؛ الأمر الذي يترك مساحة سمعية للمزيج غير الآلي من الأصوات البشرية، وهديل الحمام، وعزف الكمنجة في المقاهي المفتوحة. بدت البندقية مختلفة عن أيّ مركز حضري في العالم.

مع تسلّل أشعة شمس ما بعد الظهيرة إلى ساحة سان مارك من الغرب، ملقية ظلالاً طويلة عبر الساحة المرصوفة، نظر لانغدون إلى برج الأجراس الشاهق الذي هيمن على الساحة وعلى أفق البندقية القديمة. كان الطابق العلوي من البرج مكتظًّا بمئات الأشخاص. مجرّد فكرة تواجده هناك سبّبت له الارتعاش، فأخفض رأسه وتابع سيره وسط البحر البشري.

تمكّنت سيينّا بسهولة من اللحاق بلانغدون، لكنّ فيريس كان متأخّراً عنهما، فقرّرت أن تقسم فرق المسافة بالنصف. غير أنّ المسافة بينهم أصبحت أكبر، فنظرت إلى الخلف بنفاد صبر. أشار فيريس إلى صدره، وطلب منها متابعة التقدّم.

أطاعته سيينّا وحثّت خطاها خلف لانغدون إلى أن غاب فيريس عن نظرها. لكن، راودتها شكوك غريبة في أنّ فيريس كان يتأخّر عمداً...

تعلّمت سيينّا منذ زمن طويل أن تثق بحدسها. ولهذا، اختبأت جانباً، واسترقت النظر من بين الحشود خلفها بحثاً عن فيريس.

أين ذهب؟!

شعرت وكأنّه لم يعد يحاول حتّى اللحاق بهما. تأمّلت الوجوه، وأخيراً رأته. فوجئت حين رأته متوقّفاً، وقد انحنى وراح يضغط على أزرار هاتفه.

الهاتف نفسه الذي قال إنّ بطّاريته قد فرغت.

تملّكها خوف عميق، وأدركت مجدّداً أنّ عليها أن تثق بإحساسها.

لقد كذب عليّ في القطار.

تساءلت عمّا يفعله. هل يبعث برسالة سرّية إلى أحد ما؟ أم يجري بحثاً من وراء ظهرها؟ هل يحاول حلّ لغز قصيدة زوبريست قبل لانغدون وسيينّا؟

أيًّا يكن ما يجول في ذهنه، فقد كذب عليها بكلّ تأكيد.

لا يمكنني الوثوق به.

تساءلت سيينّا عمّا إذا كان يجدر بها مواجهته، لكنّها قرّرت متابعة طريقها قبل أن يراها. فتوجّهت مجدّداً نحو البازيليك بحثاً عن لانغدون. *عليّ تحذيره من كشف أيّ شيء آخر لفيريس.*

كانت على بعد خمسين ياردة من البازيليك عندما شعرت بيد قوية تشدّ سترتها من الخلف.

استدارت لتجد نفسها وجهاً لوجه مع فيريس.

كان الرجل المصاب بالطفح الجلدي يلهث بقوّة، ومن الواضح أنّه ركض للحاق بها. رأت في عينيه نظرة خوف لم تعهدها من قبل.

قال لها وهو يتنفّس بصعوبة: "آسف، لقد ضعت في الزحام".

في اللحظة التي نظرت فيها سيينّا إلى عينيه، عرفت أنّه يخفي شيئاً.

عندما وصل لانغدون إلى بازيليك سان مارك، استغرب عدم وجود مرافقيه خلفه. فوجئ أيضاً بسبب غياب صفّ السياح الذين ينتظرون عادةً لدخول الكنيسة. غير أنّه أدرك أنّ معظم السيّاح يشعرون بالخمول في هذا الوقت من العصر بعد وجبات الباستا الثقيلة، ويقرّرون التنزّه في الساحات، أو شرب القهوة عوضاً عن محاولة استكشاف المزيد من المعالم التاريخية.

افترض لانغدون أنّ سيينّا وفيريس سيصلان في أيّ لحظة، فحوّل نظره إلى مدخل البازيليك أمامه. يُتّهم البناء أحياناً بأنّه يمتاز بمداخله المفرِطة في الإرباك، وذلك لأنّ واجهته تحتلّها بأكملها تقريباً مجموعة من خمسة مداخل مجوّفة، ومزوّدة بأعمدة مزخرفة وقناطر مقبّبة وأبواب برونزية مفتوحة تجعل البناء يبدو مضيافاً على نحو لا جدال فيه.

تُعتبر بازيليك سان مارك من أجمل نماذج العمارة البيزنطية في أوروبا، إذ تمتاز بشكلها الناعم والغريب. خلافاً لأبراج نوتردام أو شارتر، بدت البازيليك مهيبة، ولكنّها أكثر تواضعاً. كان عرضها يزيد عن طولها، وتعلوها خمس قبب بيضاء تضفي عليها جمالاً مميّزاً يجعلها أشبه بقالب حلوى الميرينغ؛ كما تذكر بعض الكتيّبات السياحية.

على سطح الكنيسة ارتفع تمثال لسان مارك يطلّ على الساحة التي تحمل اسمه، ويضع قدميه على قنطرة مطلية بالأزرق الداكن ومزيّنة بنجوم ذهبية. أمام هذه الخلفية، يظهر الأسد المجنّح الذهبي الذي يُعتبر جالب حظّ للمدينة.

لكن، تحت الأسد الذهبي، تعرض سان مارك أشهر كنوزها؛ وهو عبارة عن أربعة أحصنة نحاسية كانت في تلك اللحظة تلمع تحت الشمس.

خيول سان مارك.

كان تلك الخيول التي تبدو وكأنّها تستعدّ للقفز في أيّ لحظة في الساحة قد نُهبت – شأنها شأن الكثير من الكنوز الموجودة في البندقية – من القسطنطينية في أثناء الحملات الصليبية. وثمة تحفة أخرى تمت سرقتها من القسطنطينية معروضة تحت الأحصنة في الزاوية الجنوبية الغربية للكنيسة، وهي عبارة عن تمثال منحوت من الحجر السمّاقي. كان التمثال يفتقد إلى قدم كُسرت أثناء نهبه من القسطنطينية في القرن الثالث عشر. وفي ستينيات القرن العشرين، تمّ العثور بأعجوبة على القدم في إسطنبول، فطالبت البندقية بالجزء المفقود من التمثال، لكنّ السلطات التركية أجابت برسالة بسيطة: *أنتم سرقتم التمثال، ونحن سنحتفظ بقدمنا.*

لفت نظره صوت امرأة تقول: "سيّدي، هل تشتري؟".

نظر لانغدون إلى مصدر الصوت فرأى غجرية تحمل عموداً طويلاً عُلّقت عليه مجموعة من أقنعة البندقية. كان معظمها من أقنعة *فولتو إنتيرو* البيضاء الكاملة التي تضعها النساء في الكارنفال. ورأى بينها أيضاً مجموعة من الأقنعة النصفية والمثلّثة وقناع موريتّا. على الرغم من مجموعتها النابضة بالألوان، إلاّ أنّ ما استحوذ على انتباه لانغدون قناعٌ واحد أسود اللون مائل إلى الرمادي، معلّق على أعلى العمود. شعر لانغدون أنّ العينين الميتتين تحدّقان إليه مباشرة من فوق الأنف الطويل المعقوف.

طبيب الطاعون. أشاح لانغدون بنظره عنه، وذلك لأنّه لم يكن بحاجة إلى من يذكّره بسبب وجوده في البندقية.

كرّرت الغجرية: "هل تشتري؟".

ابتسم وهزّ رأسه قائلاً بالإيطالية: "إنّها جميلة جدًّا، لكن كلاّ، شكراً".

رحلت المرأة، وتبعت عينا لانغدون قناع الطاعون وهو يهتزّ عالياً فوق رؤوس المحتشدين. تنهّد، ونظر مجدّداً إلى الأحصنة النحاسية الأربعة في الطابق الثاني للبازيليك.

فجأة، اتّضح له الأمر.

شعر لانغدون أنّ الصور تتزاحم فجأة في عقله؛ أحصنة سان مارك، أقنعة البندقية، والكنوز المنهوبة من القسطنطينية.

همس: "يا إلهي، هذه هي!".

الفصل 72

تسمّر لانغدون في مكانه من هول المفاجأة.

خيول سان مارك!

ذكّرته هذه الأحصنة الأربعة الرائعة، بأعناقها الجميلة وأطواقها الرائعة، بأمر مفاجئ وغير متوقّع يفسّر عنصراً حيوياً في القصيدة الغامضة الموجودة على قناع دانتي.

كان لانغدون قد حضر مرّة حفل زفاف في مزرعة رونيميد التاريخية في نيوهامشاير. تضمّن الاحتفال عرضاً مذهلاً لفرقة الخيل المسرحية يحمل اسم "خلف القناع". كان عرضاً جميلاً قام خلاله الخيّالون بأداء رائع مرتدين الزيّ البندقي، وأخفوا وجوههم خلف أقنعة *فولتو إنتيرو*. استخدمت الفرقة خيولاً فريزيانية جميلة، لم يسبق للانغدون أن رأى خيولاً بحجمها. راحت تلك الخيول الضخمة تعدو في الحقل بعضلاتها القوية، وحوافرها المكسوّة بالوبر، وأعرافها الطويلة تتطاير خلف أعناقها الطويلة الجميلة.

لشدّة جمال تلك الخيول، أجرى بحثاً عنها على الإنترنت بعد عودته، واكتشف أنّها كانت مفضّلة لدى ملوك القرون الوسطى في الحروب، وكانت على وشك الانقراض في السنوات الأخيرة. كان اسمها الأصلي *إيكوس روبوستوس*، وهي تسمّى اليوم خيولاً فريزيانية؛ نسبة إلى موطنها الأصلي، فريزلاند، وهي مقاطعة ألمانية تُعتبر مسقط رأس الفنّان اللامع س. م. إيشير.

يبدو أنّ قوّة أجساد الخيول الفريزيانية الأولى، شكّلت مصدر إلهام لخيول سان مارك في البندقية. واستناداً إلى الموقع، كانت خيول سان مارك جميلة جدًّا إلى حدّ أنّها أصبحت "أكثر التحف الفنّية تعرّضاً للسرقة عبر التاريخ".

لطالما اعتقد لانغدون أنّ هذا الشرف المشكوك فيه ينتمي إلى *مذبح غينت*، فقام بزيارة سريعة لموقع ARCA للتأكّد من هذه النظرية. لم تؤكّد جمعية البحوث في الجرائم ضدّ الفنّ شيئاً بهذا الخصوص، لكنّها أوردت سرداً موجزاً عن تاريخ تلك المنحوتات التي كانت هدفاً للنهب والسرقة.

تمّت صناعة الخيول النحاسية الأربعة في القرن الرابع على يد نحّات يوناني مجهول الهوية على جزيرة كيوس، وبقيت هناك إلى أن نقلها ثيودوسيوس الثاني إلى القسطنطينية لعرضها في الهيبودروم. وفي الحملة الصليبية الرابعة، عندما نهب جنود البندقية القسطنطينية، طلب الدوج الحاكم نقل التماثيل الثمينة بحراً إلى البندقية، وشكّل ذلك إنجازاً مستحيلاً نظراً لوزنها وحجمها. وصلت الخيول إلى البندقية عام 1254، ونُصبت أمام واجهة كاتدرائية سان مارك.

بعد نصف ألفية، في عام 1797، استولى نابليون على البندقية وأخذ الأحصنة لنفسه. فنُقلت إلى باريس، وعُرضت فوق قوس النصر. أخيراً، عام 1815، وبعد هزيمة نابليون في واترلو والحكم عليه بالنفي، تمّ إنزال الأحصنة عن قوس النصر ونقلها بحراً إلى البندقية، ليعاد نصبها على الشرفة الأمامية لبازيليك سان مارك.

ومع أنّ لانغدون كان مطّلعاً على تاريخ الأحصنة، إلاّ أنّ ما اطّلع عليه على الموقع الإلكتروني تضمّن مقطعاً فاجأه.

أضيفت الأطواق التزيينية إلى أعناق الأحصنة عام 1204 من قبل أبناء البندقية لإخفاء المكان الذي قُطعت فيه رؤوسها لتسهيل نقلها عبر السفينة من القسطنطينية إلى البندقية.

أمر الدوج بقطع رؤوس أحصنة سان مارك! بدا هذا مستحيلاً.

سمع صوت سيينّا تناديه: "روبرت؟!".

خرج لانغدون من لجّة أفكاره، والتفت ليرى سيينّا تشقّ طريقها بين الناس وفيريس إلى جانبها.

صاح لانغدون بحماسة: "عرفت ما هي الخيول التي ورد ذكرها في القصيدة".

بدا الارتباك على سيينّا التي سألته: "ماذا؟".

"نحن نبحث عن دوج خائن قطع رؤوس الخيل، أليس كذلك؟".

"نعم؟".

"القصيدة لا تشير إلى خيول حيّة". أشار لانغدون إلى واجهة سان مارك حيث أضاءت أشعّة الشمس أربعة تماثيل نحاسية. "بل تشير إلى هذه الخيول!".

الفصل 73

على متن *الميندا سيوم*، جلست د. سينسكي مرتعشة بعدما شاهدت الفيديو في مكتب العميد. ومع أنّها رأت أموراً مخيفة في حياتها، إلاّ أنّ هذا الفيلم الغامض الذي أعدّه بيرتراند زوبريست قبل انتحاره جعل أطرافها باردة كالثلج.

على الشاشة، أخذ الظلّ ذو الأنف المعقوف يتمايل فوق جدار رطب في كهف تحت الأرض. استمرّ بالتحدّث بفخر عن تحفته التي أسماها *الجحيم*، والتي ستنقذ العالم عبر خفض عدد سكانه.

ليحمنا الله. قالت بصوت مرتجف: "علينا... علينا إيجاد ذلك المكان قبل فوات الأوان".

قال العميد: "تابعي، الفيلم يزداد غرابة".

فجأة، أصبح الظل أكبر على الجدار الرطب إلى أن اقترب الشخص، ووقف أمام الكاميرا. *تبًا*.

كانت سينسكي تحدّق إلى طبيب طاعون بزيّه الكامل؛ مع العباءة السوداء والقناع المخيف. اقترب الرجل من الكاميرا، وملأ الشاشة على نحو مخيف.

همس قائلاً: "أحلك الأماكن في الجحيم هي لأولئك الذين يحافظون على حيادهم في الأزمات الأخلاقية".

كانت تلك هي الجملة التي تركها لها في المطار عندما هربت منه في نيويورك منذ عام خلا.

تابع طبيب الطاعون: "أعرف أنّ هناك من يعتبرونني وحشاً". صمت، وشعرت سينسكي أنّ هذا الكلام موجّه إليها. "أعرف أنّ ثمّة من يراني مجرماً من دون قلب يختبئ خلف قناع". صمت مجدّداً، ثمّ اقترب أكثر من الكاميرا. "لكنّني لست بلا وجه، أو من دون قلب".

عندئذٍ، نزع زوبريست القناع والقبعة وكشف عن وجهه. تصلبت إليزابيث لدى رؤيتها العينين الخضراوين المألوفتين اللتين رأتهما آخر مرّة في ظلام مجلس العلاقات الخارجية. كانتا تمتازان بالشغف نفسه، لكنّهما تومضان الآن بشيء آخر؛ حماسة جنون.

قال وهو يحدق إلى الكاميرا: "اسمي بيرتراند زوبريست، وهذا وجهي الذي أعرّيه ليراه العالم. أما بالنسبة إلى روحي... لو كان بإمكاني أن أحمل قلبي الملتهب عالياً، كما فعل دانتي لمحبوبته بياتريتشي، لعرفتم أنّني أفيض حبًّا؛ أعمق أشكال الحب، لكم جميعاً، ولشخص معيّن من بينكم".

اقترب زوبريست أكثر، وحدّق إلى الكاميرا بنظرة عميقة، ثمّ تحدّث بصوت منخفض، وكأنّه يتحدث مع عشيقته.

همس: "يا حبّي، يا حبّي الغالي، أنت سعادتي، أنت خلاصي. أنت من ساعدني على الخروج من الهاوية وأمدّني بالقوة لفعل ما فعلته".

أصغت سينسكي باشمئزاز.

تابع زوبريست كلامه، وتردّد صدى همسه في الكهف الذي يتحدّث فيه: "أنت ملهمي ودليلي، فيرجيل وبياتريتشي على السواء، وهذه التحفة لك بقدر ما هي لي. إن لم نجتمع مجدداً أنا وأنت، فسأجد السلام في معرفة أنّني تركت المستقبل بين يديك الحنونين. لقد انتهى عملي هنا وحانت الساعة لأصعد إلى الأعلى... وأعانق النجوم".

توقّف زوبريست عن الكلام، وتردّد صدى كلمة *النجوم* للحظة في الكهف، ثمّ انتهى الفيلم.

أظلمت الشاشة.

أطفأ العميد الجهاز، وسألها عمّا إذا كانت تعرف هذا المكان، فهزّت رأسها نافية.

قال العميد: "أظنّ أنّني أعرف الشخص الذي كان زوبريست يعشقه، كان يحبّ شخصاً يحمل الاسم الشيفري FS-2080".

حدّقت سينسكي إلى العميد مصدومة. *"FS-2080؟!"*.

فوجئ هو أيضاً. "هل يعني لك شيئاً؟".

هزّت رأسها مجيبة: "بكلّ تأكيد".

أخذ قلب سينسكي ينبض بعنف. فرغم أنّها لا تعرف هوية الشخص، إلاّ أنّها عرفت إلام يشير الرمز. فقد كانت المنظّمة تراقب أسماء مشابهة منذ سنوات.

قالت: "الحركة ما وراء الإنسانية، هل تعرفها؟".

هز رأسه نافياً.

شرحت له قائلة: "ببساطة، هذه الحركة تمثّل فلسفة ترى أنّه يجب على البشر استخدام كلّ أشكال التكنولوجيا المتاحة لهندسة جنسنا وجعله أقوى؛ أي البقاء للأقوى".

لم يبد على العميد أيّ انفعال.

تابعت: "عموماً، تتألّف الحركة من أشخاص مسؤولين، وعلماء، وأصحاب رؤى يتحمّلون المسؤولية الأخلاقية. لكن، كما يحصل في كلّ حركة، هناك مجموعة تعتقد أنّ الحركة لا تتقدّم بالسرعة الكافية. إنّهم مفكّرون يعتقدون أنّ نهاية العالم أصبحت وشيكة، وأنّ على أحدهم اتخاذ إجراء جذري لإنقاذ مستقبل الحياة على وجه الأرض".

"وهل بيرتراند أحدهم؟".

"بالضبط. إنّه قائد الحركة. فبالإضافة إلى ذكائه الحادّ، كان جذّاباً للغاية، وكتب مقالات عديدة جمعت حوله عدداً كبيراً من المؤيّدين. اليوم، يستخدم الكثير من أتباعه المتعصّبين أسماء

شيفرية مؤلفة جميعها من حرفين وأربعة أرقام. مثل DG-2064، BA-2105، أو الاسم الذي ذكرته للتوّ".

"FS-2080".

هزّت رأسها. "قد يكون هذا اسماً شيفرياً لأحد أعضاء الحركة".

"وهل للأرقام والأحرف أيّ معنى؟".

أشارت سينسكي إلى الكمبيوتر قائلة: "افتح محرّك البحث وسأريك".

نفّذ العميد طلبها بتردّد.

قالت سينسكي وهي تقف خلفه: "ابحث عن FM-2030".

طبع العميد الرمز، وظهرت آلاف النتائج.

قالت سينسكي: "انقر على أيّ منها".

نقر العميد على أوّل صفحة في القائمة، وتبيّن أنّها صفحة ويكيبيديا تعرض صورة لرجل إيراني وسيم يدعى *فيريدون م. إسفانديار*ي، وتصفه بأنّه كاتب وفيلسوف، وهو مؤسّس الحركة ما وراء الإنسانية. ولد عام 1930، ويرجع إليه الفضل في نشر الفلسفة ما وراء الإنسانية، فضلاً عن توقّعه بالتوصّل إلى أطفال الأنابيب، والهندسة الجينية، والعولمة.

يذكر الموقع أنّ أكثر مزاعم إسفانديار جرأة، هو أنّ التكنولوجيات الجديدة ستتيح له البقاء على قيد الحياة لمدّة مائة عام، وهو أمر نادر بين أبناء جيله. وللتعبير عن ثقته في التكنولوجيا المستقبلية، قام بتغيير اسمه إلى FM-2030، وهو رمز مكوّن من الحرفين الأوّلين من اسمه واسمه الأوسط، والرقم هو العام الذي سيبلغ فيه عامه المائة. للأسف، توفي إسفانديار بسرطان البنكرياس في سنّ السبعين، ولم يحقّق هدفه قطّ. لكن تكريماً لذكراه، ظلّ أتباع الحركة ما وراء الإنسانية يستخدمون هذه الطريقة في تسمية أنفسهم.

عندما أنهى العميد القراءة، وقف وتوجّه نحو النافذة، وحدّق بشرود إلى البحر مطوّلاً.

همس أخيراً؛ وكأنّه يفكّر بصوت عال: "إذاً، حبّ زوبريست من أتباع الحركة... *ما وراء الإنسانية*".

"من دون شك. لا أعرف مع الأسف مَن يكون بالضبط، لكن –".

قاطعها العميد وهو يحدّق إلى البحر: "هذه هي الفكرة. أنا أعرف، أعرف بالضبط من يكون".

الفصل 74

يبدو وكأنّ الهواء نفسه مصنوع من الذهب.

سبق للانغدون أن زار العديد من الكاتدرائيات الرائعة في حياته، لكنّه اعتبر دائماً أجواء كييزا دورو في سان مارك فريدة من نوعها. وبحسب المزاعم التي سادت لقرون، إنّ مجرد استنشاق هواء سان مارك يجعل منك شخصاً أكثر ثراء. ليس مجازياً فحسب، بل فعلياً أيضاً.

فالمكان في الداخل مكسوّ بطبقة سميكة من بلاط الذهب القديم، ويقال إنّ الكثير من ذرّات الغبار التي تحوم في الهواء في الواقع غبار ذهب فعلي. هذا الغبار الذهبي وضوء الشمس الساطع المتسلّل من النافذة الغربية الكبيرة يولّدان جوًّا نابضاً بالحياة يساعد المصلّين على بلوغ الغنى الروحي. وفي حال استنشقوا الهواء بعمق، فسيكتسبون غنىً دنيوياً يتمثّل في تذهيب رئاتهم.

في هذه الساعة من النهار، تسلّلت أشعة الشمس المنخفضة عبر النافذة الغربية، وانتشرت فوق رأس لانغدون مثل الحرير المشعّ. شهق لانغدون رغماً عنه بسبب شدة إعجابه بالمكان، وشعر أنّ ردّ فعل سيينّا وفيريس كان مشابهاً.

همست سيينا بجانبه: "من أيّ طريق؟".

أشار لانغدون إلى درج يقود إلى الأعلى. كان متحف الكنيسة في الطابق العلوي، ويحتوي على معروضات عديدة تتعلق بخيول سان مارك. اعتقد لانغدون أنّ هذه الخيول ستكشف لهم قريباً هوية الدوج الغامض الذي قطع رؤوس الخيل.

أثناء صعودهم الدّرج، لاحظ أنّ فيريس ما زال يكافح ليتنفّس، والتقى نظره نظر سيينا التي كانت تحاول جذب انتباهه منذ بضع دقائق. بدا تعبيرها حذراً وهي تومئ برأسها باتّجاه فيريس وتحرّك فمها بكلام غير مفهوم. وقبل أن يستوضح منها، نظر إليهما فيريس، فالتفتت سيينّا إليه مباشرة.

سألته ببراءة: "هل أنت بخير دكتور؟".

هزّ فيريس رأسه، وراح يصعد بسرعة أكبر.

فكّر لانغدون: *يا لها من ممثّلة موهوبة. لكن، ماذا تحاول أن تقول لي؟*

عندما وصلوا إلى الطابق الثاني، امتدّت تحتهم البازيليك بأكملها. كان المبنى قد شيّد على شكل صليب يوناني، وكان شكله مربّعاً أكثر من سان بيتر أو نوتردام. فبوجود المسافة القصيرة التي تفصل بين صحن الكنيسة والمذبح، بدت كنيسة سان مارك أكثر قوّة ومتانة، كما امتازت برحابة أكبر.

لكن، لكي لا تبدو الكنيسة مضيافة على نحو مبالغ فيه، وضع المذبح خلف حاجز معمّد. وهو يُعتبر من أكبر المذابح قيمة في العالم، ويسمّى *بالا دورو*. يحمي المذبح غطاء أنيق يعرض إحدى أثمن القطع في العالم؛ ألا وهي النسيج الذهبي الشهير، أو بالا دورو. إنّه عبارة عن غطاء فضّي مذهّب لا يعتبر نسيجاً إلاّ من حيث كونه مزيجاً من أعمال سابقة – هو في الأساس ميناء بيزنطي – منسوجة كلّها في إطار قوطي واحد. ونظراً إلى ما يحتويه النسيج الذهبي من ألف وثلاثمائة لؤلؤة، وأربعمائة حجر من العقيق، وثلاثمائة حجر ياقوت، فضلاً عن الزمرّد، والجمشت، والياقوت، فإنّه يُعتبر – بالإضافة إلى خيول سان مارك – من أروع كنوز البندقية.

من الناحية المعمارية، تشير كلمة بازيليك إلى أيّ كنيسة شرقية مبنية على النمط البيزنطي في أوروبا أو الغرب. تشكّل بازيليك سان مارك نسخة طبق الأصل عن بازيليك الرسل لجوستينيان في القسطنطينية، وهي تُعتبر شرقية النمط كثيراً، إلى درجة أنّ الكتيّبات السياحية غالباً ما تقترحها كبديل عن زيارة المساجد التركية، وذلك لأن الكثير من تلك المساجد كان كاتدرائيات بيزنطية تمّ تحويلها إلى دور عبادة للمسلمين.

ومع أنّ لانغدون لا يعتقد أبداً أنّ زيارة كنيسة سان مارك يمكن أن تشكّل بديلاً عن زيارة المساجد التركية الرائعة، إلاّ أنّ عليه أن يقرّ أنّ شغف المرء بالفنّ البيزنطي يمكن أن ترضيه زيارة الغرف السرّية في الجناح الأيمن لهذه الكنيسة؛ الذي خُبّئ فيه كنز سان مارك، وهو عبارة عن مجموعة من 283 أيقونة ثمينة، وحجر كريم، وكؤوس تمّ الاستيلاء عليها في أثناء نهب القسطنطينية.

سُرّ لانغدون لأنّ البازيليك اليوم كانت هادئة نسبياً. فهي ما زالت تحتوي على حشود من الناس، لكنّهم وجدوا متّسعاً للتحرّك على الأقلّ. قاد لانغدون كلاًّ من فيريس وسيينا إلى النافذة الغربية التي يمكن للزوار أن يخرجوا منها ويروا الأحصنة على الشرفة. على الرغم من ثقة لانغدون بقدرتهم على إيجاد الدوج المعنيّ، إلاّ أنّه ما زال يشعر بالقلق إزاء الخطوة التالية، أي تحديد مكان الدوج. *قبره؟ تمثاله؟* قد يحتاج ذلك إلى بعض المساعدة، نظراً إلى وجود مئات التماثيل في الكنيسة والقبو، وكذلك القبور التي تمتد على طول الجهة الشمالية للكنيسة.

رأى موظفة شابة تقود عدداً من الزوار في جولة، فسألها قائلاً: "المعذرة، هل إتّوري فيو موجود هنا اليوم؟".

نظرت المرأة إلى لانغدون وأجابت بالإيطالية: "إتّوري فيو؟ بالطبع. لكن، ألست روبرت لانغدون؟".

ابتسم لانغدون. "أجل، هذا أنا. هل يمكنني التحدّث مع إتّوري؟".

"أجل، أجل". طلبت من مجموعتها الانتظار قليلاً، ثمّ ابتعدت مسرعة.

كان لانغدون قد ظهر مع القيّم على المتحف، إتّوري فيو، في فيلم وثائقي عن البازيليك، وبقيا على تواصل منذ ذلك الحين. شرح لسيينّا قائلاً: "ألّف إتّوري كتاباً عن هذه البازيليك، لا بل عدّة كتب في الواقع".

كانت سيينّا لا تزال تبدو متوتّرة إزاء فيريس الذي بقي على مقربة منهما، في حين قاد لانغدون مرافقَيه نحو النافذة الغربية التي يمكن مشاهدة الخيول عبرها. عندما وصلوا، كانت عضلات الحيوانات قد أصبحت مرئية تحت أشعة شمس العصر. على الشرفة، استمتع السياح بقربهم من الأحصنة وبالمشهد الرائع لساحة سان مارك.

هتفت سيينّا مشيرة إلى الأحصنة التي بدت من النافذة: "ها هي!".

أجابها لانغدون: "ليس بالضبط. هذه ليست سوى نسخة عن تلك الأصلية الموجودة في الداخل حفاظاً عليها".

ثمّ قادهما عبر ممرّ إلى حجرة ساطعة الإضاءة تحتوي على مجموعة مشابهة من أربعة أحصنة بدت وكأنّها تقفز باتجاههم أمام خلفية من القناطر.

أشار لانغدون إلى التماثيل بإعجاب: "هذه هي الأصلية".

كلّ مرّة يرى فيها لانغدون هذه الخيول عن كثب، يُعجب كثيراً بمدى إتقان صنعها ودقّة تفاصيلها. ضاعف من قوّة هذا المظهر المؤثّر الصدأ الأخضر الذهبي الذي غطّى سطحها تماماً. بالنسبة إلى لانغدون، ذكّرته رؤيته هذه الخيول الأربعة محفوظة تماماً على الرغم من ماضيها الصاخب بأهمّية الحفاظ على الفنّ العظيم.

قالت سيينّا مشيرة إلى الأطواق المحيطة بأعناق الخيول: "قلت إنّ هذه الأطواق قد أضيفت إليها لتغطية المكان حيث قطعت الرؤوس، أليس كذلك؟".

كان لانغدون قد أخبر سيينّا وفيريس بهذه المعلومة التي قرأها على موقع ARCA.

قال لانغدون مشيراً إلى لوحة تفسيرية معلّقة في الجوار: "هذا ما يبدو".

هتف صوت ودود خلفهم: "روبرتو! هذه إهانة!".

التفت لانغدون ليرى إتّوري فيو، ذاك الرجل الأشيب بملامحه الشابّة. كان يرتدي قميصاً أزرق، فيما تتدلى نظارة من سلسلة يضعها حول رقبته، ويشقّ طريقه بين الناس باتجاههم. "تأتي إلى البندقية من دون الاتصال بي!".

ابتسم لانغدون وصافح الرجل. "أحب أن أفاجئك إتّوري. تبدو بأحسن حال. هذان صديقاي؛ د. بروكس ود. فيريس".

حيّاهما إتّوري ثمّ تراجع إلى الخلف متأمّلاً لانغدون. "أتسافر مع طبيبين؟ هل أنت مريض؟ وماذا عن ملابسك؟ هل تحوّلت إلى إيطالي؟".

قال لانغدون وهو يضحك: "لا هذا ولا ذاك. قصدتك طلباً لمعلومات عن الخيول".

بدا الاستغراب على إتّوري. "هل ثمّة شيء لا يعرفه البروفيسور الشهير؟".

ضحك لانغدون. "أريد أن أعرف هويّة من قطع رؤوس الخيل لنقلها أثناء الحملات الصليبية".

ذُعر إتّوري فيو كما لو أنّ لانغدون قد سأل عن بواسير الملكة. "ربّاه، روبرت، نحن لا نتحدث عن ذلك. إن أردت رؤية رؤوس مقطوعة، فبإمكاني أن أريك *كارمانيولا* أو -".

"إتّوري، أريد أن أعرف من هو الدوج الذي قطع رؤوس هذه الخيول".

قال إتّوري مدافعاً: "لم يحدث ذلك قطّ. سمعت هذه الإشاعات بالطبع، لكنْ تاريخياً لا توجد أدلّة قاطعة تشير إلى أنّ دوجاً معيناً –".

قال لانغدون: "إتّوري، أرجوك، أخبرني. استناداً إلى الإشاعة، من هو الدوج الذي فعل ذلك؟".

وضع إتّوري نظّارته وتأمّل لانغدون. "حسناً، بحسب *الإشاعة*، تمّ نقل خيولنا الحبيبة بأمر من الدوج الأكثر ذكاء وخداعاً في البندقية".

"خداعاً؟".

"أجل، الدوج الذي خدع الجميع في الحملات الصليبية". نظر إلى لانغدون متابعاً: "الدوج الذي أخذ أموال الدولة للإبحار إلى مصر... لكنّه توجه عوضاً عن ذلك إلى القسطنطينية ونهبها".

فكّر لانغدون: *هذه تبدو خيانة*. "وما كان اسمه؟".

عبس إتّوري قائلاً: "روبرت، ظننت أنّك خبير في تاريخ العالم".

"أجل، لكنّ العالم كبير، والتاريخ طويل. يمكنني الاستعانة بصديق".

"حسناً إذاً، سأعطيك إشارة أخيرة".

أراد لانغدون أن يعترض، لكنّه شعر أنّ اعتراضه سيكون مضيعة للوقت.

"عاش هذا الدوج لقرن من الزمن تقريباً، وكان ذلك أمراً عجيباً في زمانه. وقيل إنّ سبب طول عمره هو العمل الشجاع الذي قام به عندما استرجع عظام القدّيسة لوتشيا من القسطنطينية وأعادها إلى البندقية. كانت القدّيسة لوتشيا قد خسرت عينيها –".

قالت سيينا وهي تنظر إلى لانغدون الذي تبادرت إلى ذهنه الفكرة نفسها: "اقتلع عظام العمياء!".

نظر إتّوري إلى سيينّا باستغراب: "إلى حدّ ما، أجل".

بدا الضعف فجأة على فيريس، كما لو أنّه ما زال متعباً من المسافة التي قطعها عبر البياتزا والدّرج.

قال إتّوري: "وأودّ أن أضيف أنّ الدوج أحب القدّيسة لوتشيا كثيراً لأنه كان أعمى هو أيضاً. في سن التسعين، وقف في هذه الساحة، أعمى البصر، ودعا إلى الانضمام إلى الحملات الصليبية".

قال لانغدون: "عرفت من يكون".

أجاب إتّوري مبتسماً: "ممتاز!".

بما أنّ ذاكرة لانغدون التخيلية كانت أكثر اعتياداً على الصور، تذكّر فوراً تحفة فنية، هي عبارة عن لوحة لغوستاف دوري، تصوّر دوجاً أعمى وعجوزاً، يرفع ذراعيه إلى الأعلى وهو يحثّ حشداً من الناس على الانضمام إلى الحملة الصليبية. كان عنوان لوحة دوري واضحاً في ذهنه: داندولو يدعو إلى الحملة الصليبية.

أعلن لانغدون: "إنّه إنريكو داندولو، الدوج الذي عاش طويلاً".

قال إتّوري: "أخيراً. خفت أن يكون عقلك قد شاخ يا صديقي".

"شأنه شأن بقيّة جسدي. هل هو مدفون هنا؟".

هزّ إتّوري رأسه. "داندولو؟ كلاّ ليس هنا".

سألته سييناّ: "أين دُفن إذاً؟ هل دُفن في قصر الدوج؟".

خلع إتّوري نظّارته، وفكّر للحظة. "دعيني أتذكّر، ثمّة عدد كبير من الدوجات –".

وقبل أن ينهي إتّوري حديثه، اقتربت منه موظفة يبدو عليها الخوف واقتادته جانباً، ثمّ همست شيئاً في أذنه. تفاجأ، واندفع فوراً إلى الدرابزين لينظر إلى الأسفل. بعد قليل، التفت نحو لانغدون.

صاح إتّوري: "سأعود بعد قليل". وأسرع مبتعداً.

استغرب لانغدون تصرّفه، وأسرع ليطلّ من الشرفة. *ماذا يجري هناك؟*

للوهلة الأولى لم ير شيئاً، بل مجرّد سياح يتجولون. ثمّ أدرك أنّ عدداً كبيراً من الزوار يحدّقون بالاتجاه نفسه، إلى المدخل الرئيس الذي دخلت منه مجموعة من الجنود الذين يرتدون ملابس سوداء، والذين توزّعوا في صحن الكنيسة مغلقين كلّ المخارج.

جنود يرتدون ملابس سوداء. شعر لانغدون بيديه تتصلّبان على الدرابزين.

نادته سييناّ: "روبرت!".

ظلّ نظر لانغدون مركّزاً على الجنود. *كيف وجدونا؟!*

نادته سيينا بإلحاح أكبر: "روبرت، ثمّة خطب ما! ساعدني!".

التفت مستغرباً طلب المساعدة.

أين هي؟

وسرعان ما وقعت عيناه على سييناّ وفيريس. كانت سييناّ منحنية على الأرض أمام خيول سان مارك فوق د. فيريس... الذي كان منهاراً ويعاني من تشنجات في صدره.

الفصل 75

صاحت سيينّا: "أعتقد أنّه يعاني من نوبة قلبية!".

أسرع لانغدون إلى حيث كان د. فيريس ممدّداً على الأرض.

كان الرجل يشهق: عاجزاً عن التنفّس.

ماذا جرى له؟! بالنسبة إلى لانغدون، حدث كلّ شيء في لحظة واحدة. فمع وصول الجنود وسقوط فيريس على الأرض شعر لانغدون للحظة أنّه مشلول وغير واثق لمن يجب أن يعطي انتباهه.

انحنت سيينّا فوق فيريس وحلّت ربطة عنقه، ثمّ فتحت عدداً من أزرار قميصه لمساعدته على التنفّس. لكن، عندما أبعدت القميص عن صدره، أطلقت صيحة خوف، ووضعت يدها على فمها وهي تتراجع إلى الخلف، وتحدّق إلى صدره العاري.

رأى لانغدون أيضاً ما رأته.

كانت هناك دائرة سوداء مزرقّة بحجم برتقالة كبيرة على صدر فيريس. بدا وكأنّ صدره قد أصيب بطلقة مدفع.

قالت سيينّا وهي تنظر إلى لانغدون مصدومة: "إنّه مصاب بنزيف داخلي، لهذا السبب كان يعاني من مشاكل في التنفّس طوال النهار".

أخذ فيريس يهزّ رأسه محاولاً الكلام، لكن لم يصدر عنه سوى أزيز خافت. بدأ السياح يتجمعون حولهم، وشعر لانغدون أنّ الوضع على وشك أن يخرج عن السيطرة.

قال لانغدون لسيينّا: "الجنود في الأسفل، لا أعرف كيف وجدونا".

سرعان ما تحوّلت نظرة التفاجؤ والخوف على وجه سيينّا إلى غضب، فحدّقت إلى فيريس وقالت: "كنت تكذب علينا، أليس كذلك؟".

حاول فيريس أن يتكلّم لكنّه لم يستطع. فبحثت سيينّا في جيوبه وأخرجت هاتفه ومحفظته اللذين دسّتهما في جيبها، ونظرت إليه نظرة اتّهامية.

في تلك اللحظة، اندفعت امرأة إيطالية عجوز بين الحشد، وصاحت بغضب قائلة لسيينّا: *"لاي كولبيتو أل بيتّو!"*. وحرّكت قبضتها بقوّة على صدرها.

لكنّ سيينّا قالت: "كلاّ! التنفّس الاصطناعي سيقتله! انظري إلى صدره!". ثمّ التفتت إلى لانغدون وقالت: "روبرت، علينا الخروج من هنا حالاً".

نظر لانغدون إلى فيريس الذي كان ينظر إليه بيأس وتوسّل، وكأنّه يرغب في قول شيء له.

قال لانغدون: "لا يمكننا تركه هكذا!".

قالت سيينّا: "إنّه ليس مصاباً بنوبة قلبية، ثق بي. سنرحل حالاً".

مع ازدياد الحشد كثافة، بدأ السياح يصيحون طلباً للمساعدة. فأمسكت سيينّا بذراع لانغدون بقوّة مفاجئة وشدّته بعيداً عن تلك الفوضى، ثمّ أخرجته إلى الشرفة.

للحظة، لم ير لانغدون شيئاً. فقد كانت الشمس أمام عينيه مباشرة، تغيب خلف الطرف الغربي لساحة سان مارك، حيث غمرت الشرفة بأكملها بضوء ذهبي. قادت سيينّا لانغدون إلى اليسار، على طول شرفة الطابق الثاني، وتسلّلا من بين السياح الذين خرجوا لتأمّل البياتزا والنسخة المزيّفة من خيول سان مارك.

عندما خرجا أمام البازيليك، كانت البحيرة أمامهما مباشرة. لكن في المياه، رأى لانغدون يختاً حديثاً جدًّا، أشبه بسفينة حربية مستقبلية.

انعطفا بعد ذلك إلى اليسار على طول الشرفة، متجهين نحو الزاوية الجنوبية الغربية للبازيليك، باتجاه المبنى الملحق الذي يربط البازيليك بقصر الدوج، والمسمّى "باب الورق" لأنّ الدوجات كانوا يعلّقون المراسيم هناك ليقرأها الشعب.

ليس مصاباً بنوبة قلبية! كانت صورة صدر فيريس الأسود والأزرق قد طُبعت في ذهن لانغدون، وشعر فجأة بالخوف من إمكانية سماعه تشخيص سيينّا لمرض الرجل الفعلي. بالإضافة إلى ذلك، شعر أنّ أمراً ما تغيّر، وأنّ سيينّا لم تعد تثق بفيريس. *ألهذا السبب كانت تحاول لفت نظري منذ قليل؟*

فجأة، توقفت سيينّا وانحنت فوق الدرابزين الأنيق لتطلّ على زاوية منعزلة في ساحة سان مارك في الأسفل.

قالت: "تبًّا، إنّها أعلى ممّا توقعت".

حدّق إليها لانغدون. *هل كنت تفكرين في القفز؟*

قالت له سيينّا: "لا يمكن أن نسمح لهم بإيجادنا روبرت".

التفت روبرت نحو البازيليك، ورمق الباب الحديدي الثقيل المصنوع من الحديد المطاوع والزجاج خلفهما مباشرة. كان السياح يدخلون ويخرجون، وبحسب تقدير لانغدون، إنّ عبور ذلك الباب سيعيدهما إلى داخل المتحف على مقربة من الجزء الخلفي للكنيسة.

قالت سيينّا: "سيغلقون المخارج كافة".

فكّر لانغدون في خيارات الفرار، ولم يتوصّل سوى لفكرة واحدة. "أظنّ أنّني رأيت شيئاً في الداخل قد يحلّ هذه المشكلة".

لم تستطع سيينّا أن تتخيّل ما الذي يفكّر فيه لانغدون عندما أعادها إلى داخل البازيليك. عبرا المتحف محاولَين الابتعاد عن الحشود، وكان الكثيرون منهم ينظرون إلى وسط المتحف؛ باتجاه الجلبة التي تدور حول فيريس. استرق لانغدون النظر إلى المرأة الإيطالية المسنّة

الغاضبة التي كانت تقود جنديَين يرتديان ملابس سوداء إلى الشرفة، وترشدهما على الطريق التي حاول لانغدون وسيينّا الهرب عبرها.

فكّر لانغدون: *علينا أن نسرع.* وتأمّل الجدران إلى أن وجد أخيراً ما كان يبحث عنه بالقرب من جدار عُرض عليه عدد كبير من السجّادات.

كان الجهاز المثبّت على الجدار ذا لون أصفر زاهٍ مع ملصق أحمر اللون كُتب عليه: ALLARME ANTINCENDIO.

قالت سيينّا: "إنذار الحريق، أهذه هي خطّتك؟".

"يمكننا التسلّل مع الحشود". مدّ لانغدون يده وجذب مقبض الجهاز، غير أنّ شيئاً لم يحدث. قبل أن يعيد التفكير في الأمر، شدّه إلى الأسفل بقوّة حيث تحطّم زجاج الأسطوانة الصغيرة في الداخل.

صفّارات الإنذار والضوضاء التي كان يتوقّعها لم تنطلق مطلقاً.

شدّ مجدّداً، لكن من دون جدوى.

حدّقت إليه سيينّا كما لو أنّه مجنون. "روبرت، نحن في كاتدرائية قديمة مليئة بالسياح! هل تظنّ أنّ أجهزة الحريق العامة هذه تعمل عندما يرغب أيّ مجنون بتشغيلها؟".

"بالطبع! فقوانين الحريق في الولايات المتّحدة -".

"أنت في أوروبا، ولدينا هنا عدد أقلّ من المحامين". ثمّ أشارت خلف لانغدون مضيفة: "كما أنّنا لم نعد نملك الوقت".

التفت لانغدون إلى الباب الزجاجي الذي دخلا منه ورأى الجنديين عائدين من الشرفة. عرف لانغدون الجندي الذي أطلق النار عليهما عندما هربا من شقة سيينّا.

تمكّن لانغدون وسيينّا من الابتعاد عن أنظارهما، ووصلا إلى درج حلزوني ينزل إلى الطابق السفلي. عندما وصلا إلى منبسط الدّرج، وقفا في الظلّ. رأيا من هناك عدداً من الجنود الذين يحرسون المداخل، ويمسحون بأنظارهم القاعة بأكملها.

قال لانغدون: "إن ابتعدنا عن هذا الدّرج فسيروننا".

همست سيينّا مشيرة إلى لافتة كُتبت عليها عبارة *الدخول ممنوع*: "الدّرج يتّجه إلى الأسفل". كان الدّرج يهبط في دوّامة تزداد ضيقاً إلى حيث يسود الظلام الدامس.

فكّر لانغدون: *هذه فكرة سيّئة. سرداب تحت الأرض من دون مخرج.*

كانت سيينّا قد بدأت تهبط في النفق الحلزوني، واختفت في الظلام.

همست من الأسفل: "إنّه مفتوح".

فوجئ لانغدون. فقد كان قبو سان مارك مختلفاً عن الكثير من الأماكن الأخرى المشابهة لأنّه يشكّل أيضاً كنيسة ناشطة تقام فيها قداديس منتظمة أمام رفات سان مارك.

همست سيينّا: "أظنّ أنّني أرى ضوءاً طبيعياً!".

أهذا ممكن؟! حاول لانغدون أن يتذكّر زياراته السابقة إلى هذا المكان، وفكّر أنّ سيينّا ترى على الأرجح *لوكس إتيرنا*، وهو ضوء كهربائي يبقى مضاءً عند قبر سان مارك في وسط القبو. لكن، مع اقتراب الخطوات، لم يعد لديه الوقت للتفكير. فتجاوز اللافتة أيضاً، ثمّ وضع راحة يده على الجدار الخشن متلمّساً طريقه نحو الأسفل.

كانت سيينّا بانتظاره عند أسفل الدّرج. خلفها، كان الظلام يغمر المكان. كان السرداب عبارة عن حجرة تحت الأرض ذات سقف حجري منخفض جدًّا مدعّم بأعمدة قديمة وقناطر الطوب المقبّبة. فكّر لانغدون: *إنّ وزن البازيليك بأكملها يرتكز على هذه الأعمدة*. أشعرته تلك الفكرة بالاختناق.

أشارت سيينّا إلى نوافذ علوية صغيرة في الجدار وهمست: "كنتُ محقّة".

كان لانغدون قد نسي أمر وجود مناور في القبو. كانت المناور مصمّمة للسماح بدخول الضوء والهواء النقي إلى هذا القبو، وذلك عبر فتحات عميقة تمتدّ لتصل إلى ساحة سان مارك في الأعلى. كان زجاج النوافذ مدعّماً بالحديد في خمس عشرة دائرة متشابكة. ومع أنّ لانغدون شكّ في أن يكون فتحها ممكناً من الداخل، إلاّ أنّها كانت بارتفاع الكتف ويمكن عبورها بصعوبة. حتّى لو تمكّنا بطريقة ما من عبور النافذة إلى المنور، فسيكون الخروج منها أمراً مستحيلاً؛ لأنّها على عمق عشر أقدام ومقفلة بإحكام بغطاء آمن من الأعلى.

في الضوء الخافت المتسلّل من تلك النوافذ، بدا قبو الكنيسة أشبه بغابة مضاءة بنور القمر؛ بسبب الأعمدة الشبيهة بجذوع الأشجار، والتي تلقي ظلالاً على الأرض. نظر لانغدون إلى وسط القبو، ورأى شمعة واحدة تضيء قبر سان مارك. كان من تحمل الكنيسة اسمه ممدّداً في تابوت حجري وراء المذبح، وكانت أمامه صفوف من المقاعد تجلس عليها عادة القلّة المحظوظة التي تتمّ دعوتها إلى الصلاة هنا في قلب عالم البندقية المسيحي.

فجأة، رأى لانغدون ضوءاً خافتاً قربه. التفت ووجد سيينّا تحمل هاتف فيريس وقد أضيئت شاشته.

استغرب ذلك. "فهمت من فيريس أنّ البطارية قد فرغت".

قالت سيينّا وهي تضغط على الأزرار: "كان يكذب حيال أمور كثيرة". عبست وهزّت رأسها قائلة: "لا توجد إشارة. ظننت أنّنا نستطيع ربّما إيجاد موقع قبر *إنريكو داندولو*". توجّهت إلى إحدى النوافذ وحملت الهاتف عالياً قرب الزجاج للحصول على إشارة.

فكّر لانغدون، *إنريكو داندولو*. لم يجد الفرصة للتفكير بالدوج بسبب هربهما المفاجئ. لكن، على الرغم من هذا المأزق، فإنّ زيارتهم إلى كنيسة سان مارك أدّت غرضها، وكشفت عن هوية الدوج الخائن الذي قطع رؤوس الخيل... واقتلع عظام العمياء.

مع الأسف، لم يكن لانغدون يملك فكرة عن موقع القبر، وإتّوري فيو لم يكن يعرف أيضاً. *إنّه يعرف هذه البازيليك مثل راحة يده... وعلى الأرجح قصر الدوج أيضاً*. لكن، بما أنّه لم يذكر فوراً مكان القبر للانغدون فهذا يدلّ على أنّه غير موجود على مقربة من سان مارك أو قصر الدوج.

أين هو إذاً؟

نظر لانغدون إلى سيينّا، فوجدها واقفة على مقعد نقلته ووضعته تحت إحدى النوافذ. كانت قد فتحت النافذة وحملت هاتف فيريس عالياً في الهواء الطلق.

تسرّبت أصوات ساحة سان مارك من الأعلى، فتساءل لانغدون فجأة عمّا إذا كان ثمّة طريق إلى الخارج. رأى صفًّا من الكراسي القابلة للطيّ خلف المقاعد، وفكّر في ما إذا كان من الممكن رفعها ووضعها تحت أحد المناور. *ربّما كانت الأغطية العلوية تُفتح من الداخل أيضاً؟*

أسرع نحو سيينّا، لكن ما إن سار بضع خطوات حتّى فوجئ بضربة قوية على جبينه دفعته إلى الخلف. ركع على ركبتيه معتقداً أنّه تعرّض لهجوم، ثمّ أدرك أنّ طوله يزيد عن ارتفاع القناطر التي بُنيت بحسب الطول العادي قبل أكثر من ألف عام.

أثناء ركوعه، وجد نفسه يحدق إلى نقش على الأرض.

سانكتوس ماركوس.

حدّق إلى النقش مطوّلاً. لم يكن اسم مارك هو الذي فاجأه، بل اللغة التي كُتب بها، أي اللاتينية.

بعد هذا اليوم الطويل الذي انغمس فيه في إيطاليا المعاصرة، شعر بالارتباك لدى رؤيته اسم سان مارك مكتوباً باللاتينية. لقد ذكّره ذلك أنّ اللغة المستعملة في زمن وفاة سان مارك كانت لغة الإمبراطورية الرومانية.

ثمّ خطرت فكرة ثانية للانغدون.

ففي أوائل القرن الثالث عشر، أي في زمن إنريكو داندولو والحملة الصليبية الرابعة، كانت لغة السلطة هي اللاتينية. بالتالي، لا يمكن أن يكون الدوج الذي حقّق مجداً كبيراً للإمبراطورية الرومانية بإعادة الاستيلاء على القسطنطينية قد دفن باسم إنريكو داندولو... بل باسمه اللاتيني.

هنريكوس داندولو.

في تلك اللحظة، خطرت في بال لانغدون صورة قديمة منسية. ومع أنّ ذلك الإلهام أتاه وهو راكع في كنيسة، إلاّ أنّه عرف أنّ السبب على الأرجح ذكرى عادت إليه فجأة. كانت الصورة التي خطرت في بال لانغدون هي لاسم داندولو اللاتيني المنقوش على لوح رخامي قديم مدمج في أرضية مزخرفة.

هنريكوس داندولو.

ذُهل لانغدون وهو يتذكّر شاهدة قبر الدوج البسيطة. *لقد كنت هناك*. كما ذكرت القصيدة، كان إنريكو داندولو مدفوناً بالفعل في متحف ذهبي، موزيون الحكمة المقدّسة، لكنّه ليس بازيليك سان مارك.

عندئذ بدأ لانغدون ينهض ببطء.

قالت سيينّا وهي تنزل عن المقعد وتقترب منه: "لم أستطع إيجاد إشارة".

قال لها: "لست بحاجة إليها. فالموزيون الذهبي للحكمة المقدّسة..." وأخذ نفساً عميقاً. "لقد... ارتكبتُ خطأً".

شحب وجه سيينّا: "لا تقل لي إنّنا في المتحف الخاطئ".

همس لانغدون: "سيينّا، إنّنا في البلد الخاطئ".

الفصل 76

في ساحة سان مارك، وقفت الغجرية بائعة الأقنعة للحصول على استراحة، واتّكأت على الجدار الخارجي للبازيليك. كالعادة، احتلّت مكانها المفضل الذي كان عبارة عن فسحة صغيرة بين غطاءين معدنيين في الرصيف، وهي بقعة مثالية لوضع البضاعة جانباً ومشاهدة مغيب الشمس.

رأت الكثير من الأمور الغريبة في ساحة سان مارك على مرّ السنوات، لكن ما يحدث الآن أمام عينيها لم يكن يجري في الساحة... بل تحتها. لفت انتباهها صوت عالٍ عند قدميها، فحدّقت عبر فتحة في أحد الغطاءين الحديديين إلى منور ضيّق، ربّما يبلغ عمقه عشر أقدام تقريباً. فُتحت النافذة في أسفل المنور ورُفع منها كرسي قابل للطي، راح يحتكّ بالرصيف.

تبعت الكرسي امرأة جميلة ذات شعر أشقر مسرّح على شكل ذيل حصان، بدت وكأنّها تُدفع من الأسفل لتتسلّق الفتحة الضيّقة.

وقفت الشقراء على قدميها ونظرت إلى الأعلى مباشرة، لتفاجأ بالغجرية التي راحت تحدّق إليها عبر فتحة الغطاء المعدني. وضعت المرأة الشقراء إصبعها على فمها وابتسمت بتوتّر، ثمّ فتحت الكرسي وصعدت عليه، ومدّت يديها إلى الغطاء.

قالت الغجرية في سرّها: *أنت قصيرة جدًّا، ماذا تفعلين بالضبط؟*

نزلت الشقراء عن الكرسي وتحدّثت مع شخص داخل المبنى. ومع أنّ المكان كان بالكاد يتّسع لها للوقوف بجانب الكرسي، إلاّ أنّها ابتعدت جانباً، وظهر رجل طويل أسود الشعر يرتدي بذلة أنيقة من قبو البازيليك.

نظر هو أيضاً إلى الأعلى، ورأى الغجرية عبر فتحة الغطاء الحديدي. بعد ذلك، تبادل موقعه بصعوبة مع المرأة الشقراء وتسلّق الكرسي المتزعزع. كان أطول قامة منها، وعندما مدّ يديه إلى الأعلى، تمكّن من نزع الترباس الموجود تحت الغطاء. وقف على رؤوس أصابعه، ووضع يديه على الغطاء، ورفعه إلى الأعلى. ارتفع الغطاء إنشاً تقريباً قبل أن يهبط مجدّداً.

سألت المرأةُ الشقراء الغجريةَ بالإيطالية: "هل يمكنك المساعدة؟".

تردّدت الغجرية، وذلك لأنّها لم تكن تنوي التورّط بشيء مريب. *ماذا تفعلان؟*

أخرجت الشقراء مائة يورو من محفظة رجل ولوّحت بها. كان هذا المبلغ يفوق ما تكسبه البائعة من بيع الأقنعة في ثلاثة أيّام. كانت بارعة في المساومة، فهزّت رأسها ورفعت إصبعين. عندئذ أخرجت الشقراء ورقة نقدية ثانية.

لم تصدّق المرأة الحظّ الذي هبط عليها فجأة، فوافقت على مساعدتهما، وحاولت أن تبدو غير آبهة وهي تنحني وتمسك بقضبان الغطاء، وتنظر إلى عيني الرجل لكي يتعاونا معاً.

عندما بدأ الرجل برفع الغطاء مجدّداً، سحبت الغجرية الغطاء إلى الأعلى بذراعيها القويتين بفعل سنوات من حمل بضاعتها، إلى أن ارتفع... نصف المسافة. وعندما اعتقدت أنّهما نجحا، سمعت صوت تحطّم تحتها، واختفى الرجل، ليغرق مجدّداً في المنور مع انهيار الكرسي تحته.

ازداد ثقل الغطاء بين يديها على الفور، وظنّت أنّها ستسقطه، لكنّ الوعد بالحصول على مائتي يورو منحها القوّة، فنجحت في رفعه ليسقط على الأرض محدثاً صوتاً عالياً.

نظرت الغجرية إلى الأسفل وهي تلهث، ورأت فوضى وأجزاء الكرسي المحطّم. نهض الرجل مجدّداً، ونفض ملابسه، في حين مدّت يدها إلى المنور مطالبة بمالها.

هزّت المرأة الشقراء رأسها بسرور، ورفعت ورقتين نقديتين فوق رأسها. حاولت الغجرية التقاطهما، لكنّها كانت بعيدة جدًّا.

أعطي الرجل المال.

فجأة، سُمعت ضوضاء، وتعالت أصوات غاضبة من داخل البازيليك. أصيب الرجل والمرأة بالذعر، وابتعدا عن النافذة.

وما هي إلاّ لحظات حتى عمّت الفوضى.

تولّى الرجل ذو الشعر الداكن الأمور، فقرفص وأمر المرأة بحزم بوضع قدمها على يديه ليرفعها نحو الأعلى. نفّذت طلبه، فرفعها نحو فتحة المنور. وضعت الأوراق النقدية في فمها لتحرّر يديها في محاولة للوصول إلى طرف الفتحة. رفعها الرجل أكثر فأكثر... إلى أن وصلت يداها إلى الحافة.

بمجهود كبير، خرجت إلى الساحة كما لو كانت تصعد من حوض سباحة. أعطت الغجرية المال، ثمّ استدارت على الفور لمساعدة الرجل.

كان الأوان قد فات.

فقد امتدّت ذراعان قويتان مكسوّتان بكمين أسودين وأمسكتا بقدميه، ثمّ سحبتاه إلى الأسفل.

صاح الرجل وهو يكافح: "اهربي سييَنّا، اهربي فوراً!".

سُحب بقوّة إلى داخل البازيليك.

أمّا المرأة الشقراء فحدّقت إلى الأسفل مصدومة، وفاضت عيناها بالدموع. همست: "أنا آسفة، روبرت". ثمّ أضافت: "آسفة على كلّ شيء".

بعد قليل، راحت المرأة تركض مسرعة بين الناس، وشعرها الأشقر يتأرجح خلف ظهرها. اجتازت زقاق ميرتشيريا ديل أورولودجو... واختفت في قلب البندقية.

الفصل 77

أعاد صوت خرير المياه روبرت لانغدون إلى وعيه. شمّ رائحة مواد التعقيم الممزوجة بهواء البحر المالح وشعر بالعالم يتمايل تحته.

أين أنا؟

قبل دقائق، اشتبك مع ذراعين قويتين حاولتا إخراجه من المنور وإعادته إلى القبو. والآن، لم يعد يشعر بأرض سان مارك الباردة تحته... بل بفراش وثير.

فتح عينيه، وتأمّل محيطه، فرأى غرفة صغيرة طبّية المظهر، ذات نافذة واحدة. ظلّ يشعر أنّه يتمايل.

هل أنا على متن قارب؟

كان آخر ما يذكره لانغدون هو أنّه مسمّر على أرض القبو من قبل جنود يرتدون الملابس السوداء ويقولون له بغضب: "توقّف عن محاولة الهرب!".

صاح لانغدون عندئذ طالباً المساعدة، في حين حاول الجنود كتم صوته.

قال أحدهم لزميله: "علينا إخراجه من هنا".

فهزّ شريكه رأسه على مضض. "قم بذلك".

عندها شعر لانغدون بأصابع قوية تضغط بخبرة واضحة على شرايين عنقه. وبعدما عثرت على بقعة محدّدة، ضغطت الأصابع بقوّة. وفي غضون ثوانٍ، زاغ نظر لانغدون، وفقد وعيه.

فكّر: *إنّهم يقتلونني، هنا بالقرب من قبر سان مارك.*

غير أنّ إغماءه لم يكن تامًّا... بل أحسّ أنّ عالمه أصبح رمادياً، وأنّ الأشكال والأصوات لم تعد واضحة.

لم يعرف لانغدون كم مضى من الوقت منذ ذلك الحين، لكنّ العالم عاد يتّضح أمام عينيه. كلّ ما يستطيع قوله إنّه في غرفة رعاية طبّية على متن سفينة ما. شعر من محيطه المعقّم ورائحة الكحول أنّه عاش هذه الحالة مسبقاً، وكأنّه دار دورة كاملة واستيقظ كما حدث في الليلة الماضية على سرير مستشفى غريب، مع ذكريات مشوّشة.

فكّر بسيينّا، وتذكّر عينيها البنّيتين اللطيفتين اللتين راحتا تنظران إليه والندم والخوف يملآنهما. تمنّى أن تكون قد هربت وتمكّنت من الخروج من البندقية بأمان.

كان لانغدون قد أخبرها أنّهما في البلد الخاطئ بعدما أدرك مكان قبر إنريكو داندولو. فالموزيون الغامض المذكور في القصيدة لم يكن في البندقية... بل على مسافة بعيدة جدًّا. تماماً كما حذّر نصّ دانتي، كان المعنى الفعلي مخبّأً "تحت حجاب أبيات غامضة جدًّا".

كان لانغدون ينوي شرح كلّ شيء لسيينّا بعد هربهما من القبو، لكن لم تتسنَّ له الفرصة.

هربت قبل أن تعرف أنّني فشلت.

شعر بتشنّج في معدته.

الطاعون ما زال موجوداً... على مسافة بعيدة.

شعر خارج الغرفة بوقع خطى عالية، فالتفت ليجد رجلاً يرتدي ملابس سوداء يدخل الغرفة. كان الجندي نفسه مفتول العضلات الذي سمّره على أرض القبو. وجد عينيه باردتين كالجليد، فتراجع إلى الوراء عند اقترابه، لكن لم يكن يستطيع الفرار إلى أيّ مكان. *بإمكان هؤلاء الناس فعل ما يشاءون بي.*

سأله لانغدون بتحدٍّ واضح: "أين أنا؟".

"على متن يخت راسٍ على شاطئ البندقية".

رمق لانغدون الميدالية المعلّقة على زيّ الرجل، والتي كانت تظهر عليها كرة أرضية محاطة بالأحرف *ECDC*. لم يسبق للانغدون أن رأى هذا الاختصار.

قال الجندي: "نريد منك معلومات، وليس لدينا وقت كافٍ".

"ولماذا تعتقدون أنني سأخبركم بأيّ شيء؟ لقد أوشكتم على قتلي".

"كلاّ، لقد استخدمنا تقنية تثبيت من الجودو تدعى *شيم وازا*، ولم نقصد إيذاءك".

"لقد أطلقتم النار عليّ هذا الصباح!". كان يذكر بوضوح صوت الرصاصة التي أصابت درّاجة سيينّا. "أوشكت الرصاصة أن تستقرّ في عمودي الفقري!".

ضاقت عينا الرجل: "لو أردت أن أصيب عمودك الفقري لفعلت. لقد أطلقت رصاصة واحدة في محاولة لإصابة إطار الدراجة الخلفي؛ لأتمكّن من إيقافك. فقد تلقّيت أوامر للاتصال بك ومعرفة سبب سلوكك الغريب".

وقبل أن يتمكّن لانغدون من استيعاب كلامه، دخل جنديان آخران واقتربا من سريره.

كانت تسير بينهما امرأة.

شعر وكأنّه يرى شبحاً أتى من عالم آخر.

عرفها لانغدون فوراً. إنّها المرأة التي كان يراها وهو يهذي. كانت جميلة، ذات شعر فضّي طويل وتضع حول عنقها سلسلة تتدلى منها تميمة زرقاء من اللازورد. لقد سبق له أن رآها أمام بحر من الجثث، لذلك استغرق بعض الوقت ليصدّق أنّها تقف أمامه بلحمها ودمها.

ابتسمت المرأة عندما وصلت إليه، وقالت: "بروفيسور لانغدون، الحمد لله أنّك بخير". جلست وفحصت نبضه. "عرفت أنّك مصاب بفقدان ذاكرة، هل تذكرني؟".

تأمّل لانغدون المرأة لبعض الوقت. "راودتني... أحلام عنك، مع أنّني لا أذكر أنّنا التقينا".

مالت المرأة نحوه، وبدا على وجهها التعاطف. "اسمي هو إليزابيث سينسكي. أنا مديرة منظّمة الصحّة العالمية، وقد جنّدتك لمساعدتي على العثور على –".

قال لانغدون: "وباء، صنعه بيرتراند زوبريست".

هزّت سينسكي رأسها، وبدا عليها الارتياح. "هل تذكّرت؟".

"كلاّ، بل استيقظت في أحد المستشفيات مع مسلاط صغير غريب، ورؤى كنتِ فيها تقولين لي: من يبحث يجد. وهذا ما كنت أحاول فعله عندما حاول هؤلاء الرجال قتلي". وأشار لانغدون إلى الجنود.

حاول الرجل ذو العضلات المفتولة أن يردّ عليه، لكنّ إليزابيث سينسكي أسكتته بحركة من يدها.

قالت بلطف: "بروفيسور، لا شكّ لديّ أنّك مرتبك جدًّا. وبصفتي الشخص الذي ورّطك في كلّ ذلك، فإنّني أشعر بالأسف الشديد بسبب كلّ ما جرى، وأحمد الله على سلامتك".

أجاب لانغدون: "سلامتي! أنا أسير على متن هذه السفينة!". *وأنت كذلك!*

هزّت المرأة رأسها بتفهّم. "أخشى أنّه بسبب فقدانك ذاكرتك، فإنّ الكثير ممّا سأشرحه لك سيسبّب لك الاستغراب. غير أنّ الوقت قصير، والكثير من الناس يحتاجون إلى مساعدتك".

تردّدت سينسكي، غير واثقة ممّا إذا كان يتحتّم عليها أن تتابع. بدأت قائلة: "أوّلاً، عليك أن تفهم أنّ العميل برودر وفريقه لم يحاولوا إيذاءك إطلاقاً، بل كانوا قد تلقّوا أوامر مباشرة بإعادة الاتصال بك بأيّ طريقة ممكنة".

"إعادة الاتصال؟! لا أفهم –".

"بروفيسور، أصغِ إليّ رجاء. أعدك بإيضاح كلّ شيء".

استرخى لانغدون على سريره، ودخلت أفكاره دوّامة، في حين واصلت سينسكي حديثها.

"ينتمي العميل برودر ورجاله إلى شعبة المراقبة والدعم، التابعة للمركز الأوروبي للوقاية من الأمراض ومكافحتها".

نظر لانغدون إلى الميداليات المعلّقة على بذلاتهم. *الوقاية من الأمراض ومكافحتها؟!*

تابعت: "مجموعتهم متخصّصة في كشف خطر الأمراض المعدية واحتوائها. إنّهم أساساً فريق الأسلحة والتكتيكات الخاص لتخفيف المخاطر الصحية الحادّة وواسعة النطاق. وكنت أملي الوحيد في تحديد المرض الذي اخترعه زوبريست، لذلك عندما اختفيت، كلّفت فريق المراقبة والدعم بإيجادك... لقد استدعيتهم إلى فلورنسا لتقديم المساعدة لي".

دُهش لانغدون. "أتقولين إنّ هؤلاء الجنود يعملون لحسابك؟".

أومأت برأسها. "بإعارة من المركز الأوروبي. في الليلة الفائتة، عندما اختفيت وتوقّفتَ عن الاتصال، ظننا أنّ مكروهاً قد أصابك. لكن، هذا الصباح، اكتشف فريقنا التقني أنّك دخلت حساب بريدك الإلكتروني في جامعة هارفرد، فعرفنا أنّك على قيد الحياة. وحتّى تلك اللحظة، كان تفسيرنا الوحيد لسلوكك الغريب هو أنّك أصبحت تعمل لحسابهم... وأنّه ربّما عُرض عليك مبلغ كبير من المال لكي تجد الوباء من أجل شخص آخر".

هزّ لانغدون رأسه قائلاً: "هذا غير معقول!".

"صحيح. هذا سيناريو غير محتمل، لكنّه كان التفسير المنطقي الوحيد. ونظراً إلى خطورة الوضع، لم نشأ المخاطرة. بالطبع، لم نتخيّل قطّ أنّك تعاني من فقدان الذاكرة. لذلك، عندما عرف الفريق التقني أنّك دخلت بريدك الإلكتروني، تعقّبنا عنوان بروتوكول الإنترنت، وعثرنا على الشقّة في فلورنسا وتوجّهنا إليها. لكنّك هربت على متن درّاجة مع تلك المرأة، ممّا ضاعف من شكوكنا بأنّك تعمل لحساب جهة أخرى".

فوجئ لانغدون. "لكنّنا مررنا بجانبكم! رأيتك جالسة على المقعد الخلفي لسيارة فان سوداء، ومحاطة بالجنود. اعتقدت أنك أسيرة لديهم. بدا عليك أنّك تهذين، وكأنّك مخدّرة".

فوجئت د. سينسكي. "رأيتنا؟! أنت محقّ... كانوا يعطونني دواءً". صمتت ثمّ أضافت: "لكن، لأنّني أمرتهم بذلك".

عندئذ، شعر لانغدون بارتباك تامّ. *هي طلبت منهم تخديرها؟!*

قالت سينسكي: "ربّما كنت لا تتذكر ذلك، لكن عندما حطّت طائرة C-130 في فلورنسا، عانيت من نوبة تُعرف باسم دوار الوضعة الانتيابي، وهي حالة تصيب الأذن الوسطى، وقد عانيت منها في الماضي. إنها مؤقّتة وليست خطيرة، لكنّها تسبّب للمريض الدوار والغثيان، حيث يعجز عن النهوض من السرير. عادة، ألازم الفراش وأعاني من الغثيان الحادّ، لكنّنا حاليًّا نواجه مشكلة بسبب زوبريست، لذلك وصفت لنفسي حقناً من الميتوكلوبراميد تعطى كلّ ساعة لمنع التقيّؤ. للدواء أثر جانبي قويّ يتمثّل في الشعور بالنعاس الشديد، غير أنه ساعدني على إدارة العمليّات عبر الهاتف من المقعد الخلفي لسيارة الفان. أراد فريق الدعم والمساعدة اصطحابي إلى مستشفى، لكنّني منعتهم من ذلك إلى أن تتمّ مهمّة استرجاعك. لحسن الحظّ، زال الدوار أخيراً في أثناء الرحلة إلى البندقية".

تمدّد لانغدون على سريره بعصبية. *كنت أهرب طوال اليوم من منظّمة الصحّة العالمية، أي الأشخاص أنفسهم الذين جنّدوني في الأساس.*

أعلنت سينسكي بإلحاح: "علينا التركيز الآن، بروفيسور. هل لديك أيّ فكرة عن مكان وباء زوبريست؟". حدّقت إليه بترقّب كبير. "الوقت ضيّق جدًّا".

أراد لانغدون أن يقول لها إنّه بعيد جدًّا، لكنّ شيئاً ما استوقفه. نظر إلى برودر؛ الرجل الذي أطلق عليه النار هذا الصباح وأوشك أن يخنقه بعد ساعات. بالنسبة إلى لانغدون، كانت الحقائق تتبدّل على نحو سريع جدًّا، حيث إنّه لم يعد يعرف من عليه أن يصدّق.

مالت سينسكي نحوه، ونظرت إليه بحدّة أكبر. "لدينا انطباع بأنّ المرض هنا في البندقية، أليس كذلك؟ أخبرنا عن مكانه لكي أرسل فريقاً إلى اليابسة".

تردّد لانغدون.

قال برودر بنفاد صبر: "سيّدي! من الواضح أنّك تعرف *شيئاً*... أخبرنا أين هو! فأنت لا تفهم ما الذي سيحدث".

التفتت سينسكي إلى الرجل غاضبة. "عميل برودر، هذا يكفي". ثمّ التفتت مجدّداً إلى لانغدون وتحدّثت معه بلطف. "نظراً إلى ما مررت به، أنا أتفهّم تماماً الارتباك الذي تشعر به، وتردّدك في الوثوق بنا". صمتت قليلاً وحدّقت إلى عينيه. "لكنّ وقتنا ضيّق، وأنا أطلب منك أن تثق بي".

سأل صوت جديد: "هل يستطيع لانغدون الوقوف؟".

وقف عند الباب رجل قصير القامة، وأنيق المظهر، ذو بشرة سمراء داكنة. تأمّل لانغدون بهدوء، لكنّ هذا الأخير رأى الخطر في نظراته.

أومأت سينسكي للانغدون لكي يقف. "بروفيسور، هذا رجل أفضّل ألاّ أتعاون معه، لكنّ الوضع خطير على نحو لم يترك لي أي خيار آخر".

نهض لانغدون متردّداً، ثمّ وقف واستغرق بعض الوقت ليستعيد توازنه.

قال الرجل وهو يتّجه نحو الباب: "اتبعني، ثمّة ما أريد أن أريك إيّاه".

وقف لانغدون في مكانه وسأله: "من أنت؟".

توقّف الرجل، وانقبضت أصابعه. "الأسماء ليست مهمّة. يمكنك مناداتي العميد. أنا أدير منظّمة... ويؤسفني القول إنّها أخطأت في مساعدة بيرتراند زوبريست على تحقيق أهدافه. أنا أحاول الآن تصحيح ذلك الخطأ قبل فوات الأوان".

سأله لانغدون: "ماذا ستريني؟".

رمق الرجل لانغدون بنظرة حادّة. "سأريك شيئاً لن يترك لديك أدنى شكّ في أنّنا جميعاً في الخندق نفسه".

الفصل 78

تبع لانغدون الرجل في متاهة من الأروقة الضيّقة تحت سقف اليخت، مع د. سينسكي والجنود الذين مشوا خلفه في صفّ واحد. عندما اقتربت المجموعة من أحد السلالم، تمنّى لانغدون أن يصعدوا إلى ضوء النهار، إلاّ أنّهم نزلوا إلى مستوى أعمق في السفينة.

عندما أصبحوا في أحشاء اليخت، قادهم العميد عبر مجموعة من الحجرات الزجاجية، بعضها ذو زجاج شفّاف، والبعض الآخر محجوب. وكان في كلّ حجرة عدد من الموظفين الذين يعملون بجدّيّة على الحواسب الإلكترونية أو يتحدّثون عبر الهواتف من دون أن تسمع أصواتهم بفضل عازل للصوت. من لاحظ منهم مرور المجموعة، بدا عليهم القلق لرؤية غرباء في هذا الجزء من السفينة. غير أنّ الرجل الأسمر أومأ لهم مطمئناً وتابع طريقه.

تساءل لانغدون عن ماهية المكان وهم يعبرون سلسلة أخرى من الحجرات.

أخيراً، وصل مضيفهم إلى قاعة اجتماعات كبيرة ودخلوا جميعاً. ضغط الرجل على زرّ وحُجب الزجاج فجأة. فوجئ لانغدون الذي لم يسبق له أن رأى شيئاً كهذا.

أخيراً، سأل لانغدون: "أين نحن؟".

"هذه سفينتي، *المينداسيوم*".

"*مينداسيوم؟!* أهي المرادف اللاتيني لكلمة بسودولوغوس، أي إله الخداع؟".

فوجئ الرجل. "قليلون هم من يعرفون ذلك".

فكّر لانغدون: *لا يمكن اعتبارها تسمية نبيلة*. فالمينداسيوم هو الإله الذي يسود كلّ *البسودولوغوي*؛ أي الشياطين المتخصّصة في التزوير، والكذب، والافتراء.

أخرج الرجل شريحة ذاكرة حمراء صغيرة ووضعها في كمبيوتر موصول بشاشة إل سي دي كبيرة مسطّحة. أضاءت الشاشة في حين خفتت إضاءة المصابيح فوق رؤوسهم.

في ذلك الصمت، سمع لانغدون خرير مياه. ظنّ في البداية أنّه آتٍ من خارج السفينة، ثمّ أدرك أنّ الصوت يتناهى إليه من مكبّرات الصوت الموصولة بالشاشة. ظهرت ببطء صورة جدار كهف رطب، ينيره ضوء متموّج مائل إلى الاحمرار.

قال مضيفهم: "هذا الفيلم من إعداد بيرتراند زوبريست الذي طلب منّي نشره غداً".

شاهد لانغدون الفيلم الغريب وهو عاجز عن التصديق... كهف يحتوي على بحيرة... غاصت فيها الكاميرا... ووصلت إلى القعر المكسوّ بالطمي، إلى أن ظهرت لوحة كُتب عليها: في هذا المكان، وفي هذا التاريخ، تغيّر العالم إلى الأبد.

كانت اللوحة موقّعة باسم بيرتراند زوبريست.

وكان التاريخ هو يوم غد.

يا إلهي! التفت لانغدون إلى سينسكي في ظلام الغرفة، لكنّها كانت تحدّق إلى الأرض بشرود، ويبدو أنّه سبق لها أن شاهدت الفيلم ولم تعد قادرة على مشاهدته مجدّداً.

مالت الكاميرا الآن إلى اليسار، وذُهل لانغدون عندما رأى تحت سطح الماء فقاعة، هي عبارة عن كيس شفّاف من النايلون يحتوي على سائل جيلاتيني بنّي مائل إلى الاصفرار يتمايل في القعر. بدا الكيس الرقيق مثبّتاً بالأرض لكي لا يرتفع إلى السطح.

تأمّل لانغدون الكيس وهو يتساءل عن ماهيّته. رأى محتوياته تتموّج ببطء...

فجأة، حبس أنفاسه. *وباء زوبريست.*

قالت سينسكي: "أوقف الفيلم".

تجمّدت الصورة، وبدا الكيس أشبه بغيمة من السائل معلّقة تحت الماء.

تابعت قائلة: "أعتقد أنّك تعرف ما هذا. لكنّ السؤال إلى متى سيصمد ذلك الكيس". أشارت إلى علامة صغيرة على الكيس الشفّاف وقالت: "مع الأسف، تخبرنا هذه العلامة عن المادة التي صنع منها الكيس. هل تستطيع قراءتها؟".

حدّق لانغدون جيّداً إلى الكلمة التي بدت أنّها تشير إلى العلامة التجارية: سوليوبلون.

قالت سينسكي: "إنّه أكبر مصنّع للأكياس القابلة للذوبان في الماء".

شعر لانغدون بتشنّج في معدته: "هل تعنين أنّ هذا الكيس... *يذوب*؟!".

هزّت سينسكي رأسها بكآبة: "لقد اتصلنا بالمُصنّع وعلمنا منه مع الأسف أنّهم يصنّعون عشرات الدرجات المختلفة من هذه الأكياس التي يستغرق ذوبانها بين عشر دقائق إلى عشرة أسابيع؛ اعتماداً على الدرجة. وتعتمد وتيرة الذوبان أيضاً على نوع المياه وحرارتها، لكن لا شكّ لدينا في أنّ زوبريست أخذ هذه العوامل في الحسبان". صمتت ثمّ أضافت: "ونحن نظنّ أنّ هذا الكيس سيذوب بحلول –".

قاطعها العميد: "يوم غد. غداً هو التاريخ الذي حدّده زوبريست على روزنامتي، وهو أيضاً التاريخ المذكور على اللوحة".

جلس لانغدون عاجزاً عن الكلام

قالت سينسكي: "دعه يشاهد الباقي".

عادت الصورة إلى الحياة، وأظهرت الكاميرا المياه المتوهّجة وظلام الكهف. لم يكن لدى لانغدون أدنى شكّ في أنّ هذا هو المكان المذكور في القصيدة. *البحيرة التي لا تعكس النجوم.*

كان المشهد يذكّر بصور من جحيم دانتي... كنهر كوسيتوس الذي يتدفّق عبر كهوف العالم السفلي.

أيًّا يكن المكان الذي تقع فيه هذه البحيرة، فإنّ مياهها موجودة داخل جدران شديدة الانحدار، ومكسوّة بالطحالب؛ ممّا دفع لانغدون إلى الاعتقاد أنّها من صنع الإنسان. شعر أيضاً أنّ الكاميرا لم

تظهر سوى زاوية صغيرة من ذلك المكان الواسع، وهي فكرة دعمها وجود ظلال عمودية باهتة جدًا على الجدار. كانت الظلال شبيهة بالأعمدة التي تفصل بينها مسافات متساوية.

إنّ سقف هذا الكهف مدعّم بالأعمدة.

هذه البحيرة ليست في كهف، بل في قاعة ضخمة.

اهبط إلى أعماق القصر الغارق...

قبل أن يتمكّن من قول أيّ كلمة، تحوّل انتباهه إلى ظلّ جديد ظهر علىٰ الجدار... إلى شكل بشري ذي أنف طويل معقوف.

آه، يا إلهي...

بدأ الظلّ يتحدّث، بكلمات مموّهة، ويهمس بإيقاع شعري مخيف.

"أنا خلاصكم. أنا الظلّ".

خلال الدقائق التالية، شاهد لانغدون أفظع فيلم رآه في حياته. من الواضح أنّه هذيان عبقري مجنون، ومناجاة من بيرتراند زوبريست الذي يظهر في مظهر طبيب طاعون. كان مليئاً بإشارات إلى جحيم دانتي، ويحمل رسالة واضحة جدًّا: إنّ النموّ السكّاني يخرج عن السيطرة ويهدّد بقاء الجنس البشري وتوازنه.

على الشاشة، أعلن الصوت قائلاً:

"إن جلسنا مكتوفي الأيدي فإنّنا نرحّب بجحيم دانتي... منكمشين، ومتضوّرين جوعاً، ومتخبّطين في الخطيئة. لذلك، تحرّكت بجرأة. سينتفض البعض مذعوراً، لكنّ الخلاص لا يأتي من دون ثمن. يوماً ما، سيفهم العالم قيمة تضحيتي".

أجفل لانغدون عندما ظهر زوبريست نفسه متنكّراً بزيّ طبيب طاعون، ثمّ خلع قناعه. حدّق لانغدون إلى الوجه الكئيب والعينين الخضراوين، وأدرك أنّه يرى أخيراً وجه الرجل الذي سبّب هذه الأزمة. في تلك اللحظة، بدأ زوبريست يعبّر عن حبّه لشخص أسماه مصدر إلهامه.

"إنّني تركت المستقبل بين يديك الحنونين. لقد انتهى عملي هنا وحانت الساعة لأصعد إلى الأعلى... وأعانق النجوم".

مع انتهاء الشريط، عرف لانغدون أنّ كلمات زوبريست الأخيرة تشبه كثيراً الأبيات الأخيرة من *إنفيرنو* دانتي.

في ظلام قاعة الاجتماعات، أدرك أنّ كلّ لحظات الخوف التي عاناها اليوم تجسّدت في حقيقة مخيفة واحدة.

لقد أصبح لبيرتراند زوبريست وجه... وصوت.

أضيئت الغرفة مجدّداً، ورأى لانغدون كلّ الأعين مركّزة عليه بترقّب.

كانت تعابير وجه إليزابيث سينسكي جامدة وهي تقف وتداعب تميمتها بتوتّر. "بروفيسور، من الواضح أنّ وقتنا ضيّق جدًّا. النبأ السعيد الوحيد هو أنّه لم يتمّ حتّى الآن اكتشاف أيّ حالات مرضية، لذلك نحن نفترض أنّ الكيس ما زال سليماً. غير أنّنا لا ندري أين يجب أن نبحث عنه. علينا إبطال هذا الخطر باحتواء الكيس قبل ذوبانه. لذلك، لا بدّ من أن نعرف مكانه فوراً".

وقف العميل برودر وحدّق إلى لانغدون بتركيز. "نحن نفترض أنّك أتيت إلى البندقية لأنّك عرفت أنّ زوبريست قد خبّأ وباءه هنا".

حدّق لانغدون إلى الوجوه المحيطة به التي سيطر عليها الخوف. كان الجميع ينتظرون أعجوبة؛ حيث تمنّى لو أنّ لديه أخباراً أفضل ليقدّمها إليهم.

أعلن قائلاً: "نحن في البلد الخاطئ. ما تبحثون عنه موجود على بعد ألف ميل تقريباً من هنا".

ارتجّت أحشاء لانغدون مع محرّكات *الميداسيوم* التي راحت تعمل بأقصى سرعتها معيدة إيّاهم إلى مطار البندقية. على متنها، دارت حركة محمومة. اندفع العميد وهو يصيح بالأوامر لطاقمه، فيما تناولت سينسكي هاتفها واتصلت بطاقم طائرة C-130 التابعة لمنظّمة الصحّة العالمية، وطلبت منهم الاستعداد للإقلاع من مطار البندقية بأسرع وقت ممكن. أمّا العميل برودر فجلس أمام الحواسب المحمولة محاولاً التنسيق مع فريق دولي في المدينة التي يقصدونها.

إنّنا بعيدون جدًّا.

عندما عاد العميد إلى قاعة الاجتماعات، سأل برودر: "هل من معلومات من سلطات البندقية؟".

هزّ برودر رأسه نافياً. "لا أثر لها. إنّهم يبحثون عنها، لكنّ سيينّا بروكس قد اختفت".

فوجئ لانغدون. *هل يبحثون عن سيينّا؟*

أنهت سينسكي مكالمتها الهاتفية وانضمّت إلى الحديث. "ألم يتمّ العثور عليها؟".

أجابها العميد بالنفي. "إن وافقتم، أعتقد أنّ منظّمة الصحّة العالمية ستسمح باستخدام القوّة عند الضرورة لإحضارها".

قفز لانغدون واقفاً. "لماذا؟! لا علاقة لسيينّا بروكس بأيّ من ذلك!".

نظر العميد إلى لانغدون وقال: "بروفيسور، ثمّة أمور لا تعرفها عن الآنسة بروكس".

الفصل 79

راحت سيينّا تمشي مسرعة بين السيّاح على جسر ريالتو، ثمّ أخذت تركض متّجهة إلى الغرب على طول ممشى فوندامنتا فين كاستيلّو المواجه للقناة.

لقد أمسكوا بروبرت.

ما زالت ترى عينيه اليائستين وهما تحدّقان إليها بينما كان الجنود يسحبونه عبر المنور إلى القبو. لم يكن لديها أدنى شكّ في أنّ الذين أمسكو به سرعان ما سيقنعونه، بطريقة أو بأخرى، بكشف كلّ ما عرفه.

إنّنا في البلد الخاطئ.

لكنّ ما أزعجها أكثر هو أنّهم لن يتردّدوا في كشف حقيقة الوضع للانغدون.

أنا آسفة روبرت.

آسفة على كلّ شيء.

كن واثقاً أنّه لم يكن لديّ خيار آخر.

الغريب أنّ سيينّا اشتاقت إليه منذ الآن. هنا، وسط حشود البندقية، شعرت بوحدة مألوفة.

لقد رافقها إحساس الوحدة منذ الطفولة.

كانت سيينّا تتميّز بذكاء استثنائي، لذلك أمضت شبابها وهي تشعر أنّها غريبة في أرض غريبة... وكأنّها كائن فضائي مسجون في عالم غير عالمه. حاولت أن تكوّن صداقات، لكنّ أبناء جيلها كانوا منغمسين في تفاهات لا تثير اهتمامها. حاولت أن تحترم من هم أكبر سنًّا منها، لكنّ معظم الراشدين بدوا بالنسبة إليها أطفالاً كباراً يفتقرون إلى أبسط المبادئ لفهم العالم من حولهم، ولا يملكون أيّ فضول أو اهتمام به.

لم أشعر يوماً أنّني جزء من شيء ما.

وهكذا، تعلّمت سيينّا بروكس كيف تصبح شبحاً. تعلّمت كيف تكون حرباء، وممثّلة، ووجهاً عادياً بين الوجوه. ولا شكّ لديها في أنّ شغفها القديم بالتمثيل على المسرح نشأ من حلمها في أن تصبح شخصاً آخر؛ شخصاً طبيعيًّا.

ساعدها دورها في مسرحية شيكسبير، *حلم ليلة صيف*، على الإحساس بأنّها جزء من شيء ما. كما أنّ الممثلين الأكبر سنًّا دعموها بتواضع. غير أنّ فرحتها كانت قصيرة، وتبخّرت في اللحظة التي غادرت فيها المسرح في ليلة الافتتاح وواجهت الحشود الإعلامية المدهوشة، في حين تسلّل زملاؤها بهدوء من الباب الخلفي.

أصبحوا يكرهونني هم أيضاً.

في سنّ السابعة، قرأت سيينّا ما فيه الكفاية لتعرف أنّها مصابة باكتئاب عميق. وعندما أخبرت والديها، بدا عليهما الذهول كعادتهما إزاء غرابة ابنتهما. ومع ذلك، قاما بإرسالها إلى طبيب نفسي، فطرح عليها الكثير من الأسئلة التي سبق لها أن طرحتها على نفسها، ثمّ وصف لها مزيجاً من الأميتريبتيلين والكلورديازيبوكسيد.

شعرت سيينّا بالغضب، فقفزت قائلة: "أميتريبتيلين؟! أريد أن أكون أكثر سعادة وليس جثّة حية!".

ظلّ الطبيب النفسي هادئاً أمام نوبة غضبها، وعرض عليها اقتراحاً آخر. "سيينّا، إن كنت تفضّلين عدم استخدام الأدوية، يمكننا أن نجرّب مقاربة مختلفة. يبدو أنّك عالقة في حلقة مفرغة من التفكير بنفسك وبعدم انتمائك إلى العالم".

أجابت سيينّا: "هذا صحيح. أحاول أن أتوقّف عن ذلك، لكنّني لا أستطيع!".

ابتسم بهدوء. "هذا طبيعي. فمن المستحيل جسدياً على العقل البشري عدم التفكير بشيء. وذلك لأنّ الأرواح تتوق إلى العاطفة، وتستمرّ بالبحث عمّا يغذّي تلك العاطفة، سواء أكان جيّداً أم سيّئاً. ومشكلتك أنّك تعطين عقلك الغذاء الخاطئ".

لم يسبق لسيينّا أن سمعت أحداً يتكلم عن العقل بهذه العبارات الميكانيكية، الأمر الذي أثار اهتمامها على الفور. "وكيف أعطيه غذاءً مختلفاً؟".

قال: "عليك تحويل تركيزك الفكري. أنت حاليًا تفكّرين بنفسك، وتتساءلين عن سبب عدم انسجامك مع العالم من حولك... وهذا ليس مناسباً *لك*".

أجابته مجدّداً: "هذا صحيح، لكنّني أحاول حلّ المشكلة. أحاول الانسجام، ولا يمكنني أن أحلّ هذه المشكلة إن لم أفكر بها".

ضحك مجيباً: "أعتقد أنّ التفكير بالمشكلة... هو مشكلتك". واقترح عليها الطبيب أن تحاول تحويل تركيزها عن نفسها ومشاكلها الخاصّة... والاهتمام بالعالم من حولها... وبمشاكله.

عندئذ تغيّر كلّ شيء.

حوّلت طاقتها من الشعور بالأسف على نفسها إلى الشعور بالأسف على الآخرين. فأصبحت تقوم بأعمال خيرية، وتساعد المحتاجين والمشرّدين، وتقرأ الكتب للعميان. وما فاجأها أنّ الناس لم يلاحظوا اختلافها، بل فرحوا باهتمامها بهم.

عملت سيينّا بجهد أكبر كلّ أسبوع، ولم تتمكن من النوم بسهولة لأنّها أدركت أنّ الكثير من الناس يحتاجون إلى مساعدتها.

كان زملاؤها يقولون لها: "سيينّا، تمهّلي! لا يمكنك إنقاذ العالم!".

يا له من كلام فظيع!

خلال عملها في الخدمة العامة، تعرّفت على أعضاء في مجموعة خيرية محلّية، دعوها للانضمام إليهم في رحلة لمدّة شهر إلى الفيليبين، فاستغلّت الفرصة على الفور.

تخيلت أنّهم سيقومون بإطعام صيادين أو مزارعين فقراء في الأرياف التي قرأت أنّها تمتاز بجمال جيولوجي فريد؛ ببحارها وسهولها الخلابة. لذلك، عندما استقرت المجموعة بين حشود الناس في مدينة مانيلاً ذات الكثافة السكانية الأعلى في العالم، صُعقت سيينّا. لم يسبق لها أن رأت هذه الدرجة من الفقر.

كيف يمكن لشخص واحد أن يحدث فرقاً؟

مقابل كلّ شخص تطعمه سيينّا، كان ثمّة مئات الأشخاص الآخرين الذين يحدّقون إليها بأعين يائسة. كانت مانيلاً تعاني من ازدحام سير يمتدّ ستّ ساعات، ومن نسبة خانقة من التلوّث، كما تمارس فيها تجارة الجنس على نحو فظيع، ومعظم العاملين فيها هم أساساً من الأطفال، والكثيرون منهم باعهم أهلهم على أمل أن يجدوا على الأقلّ من يطعمهم.

وسط هذه الفوضى المتمثّلة في دعارة الأطفال، والمتسوّلين، والنشّالين وجدت سيينّا نفسها مشلولة فجأة. لم ترَ حولها سوى بشرٍ تسيّرهم نزعة البقاء البدائية. *فعندما تواجه الكائنات البشرية اليأس... تتحوّل إلى حيوانات.*

عندئذ، عاد إليها كلّ إحباطها، وفهمت أنّ الجنس البشري يترنّح على شفير الهاوية.

قالت لنفسها: *لقد كنت مخطئة. لا يمكنني إنقاذ العالم.*

شعرت بتوتّر كبير، وراحت تركض في شوارع المدينة بين الناس، وتدفعهم من طريقها بحثاً عن هواء نظيف.

شعرتُ أنّ الأجساد البشرية تخنقني!

بينما كانت تركض، أحسّت أنّ الأعين تتركّز عليها مجدّداً. لم أعد أنسجم مع الناس. كانت طويلة القامة، وفاتحة البشرة، ذات شعر أشقر مسرّح على شكل ذيل حصان يتأرجح خلفها. فحدّق إليها الرجال وكأنّها عارية.

عندما تعبت أخيراً، لم تعرف كم ركضت أو إلى أين وصلت. مسحت الدموع عن عينيها، ووجدت نفسها في حي فقير جدًّا، منازله مصنوعة من الصفائح المعدنية وورق الكرتون المكوّم فوق بعضه بعضاً. خيّم على المكان صراخ الأطفال والروائح الكريهة.

لقد دخلت أبواب الجحيم.

قال صوت خلفها: *"توريستا، ماغكانو؟"*. كم؟

استدارت فرأت ثلاثة رجال يقتربون منها ولعابهم يسيل كالذئاب. عرفت فوراً أنّها في خطر، وحاولت التراجع، لكنّهم أحاطوا بها مثل حيوانات مفترسة.

صاحت طالبة النجدة، لكنّ أحداً لم يكترث. رأت على بعد مسافة قصيرة امرأة عجوزاً جالسة على إطار سيّارة وهي تقشّر بصلة متعفّنة بسكّين صدئة. غير أنّ المرأة لم يرفّ لها جفن عندما بدأت سيينّا تصرخ.

حين أمسك بها الرجال وجرّوها إلى داخل كوخ صغير، عرفت تماماً ما الذي سيجري، لذلك استبدّ بها خوف رهيب. قاومت بكلّ ما أوتيت من قوّة، لكنّهم كانوا أقوى منها، فثبّتوها على فراش قديم متّسخ.

مزّقوا ثيابها، وعندما صرخت، وضعوا في فمها قميصها الممزّق، حيث أوشكت على الاختناق. بعد ذلك، مدّدوها على بطنها والتصق وجهها في السرير المتعفّن.

على الرغم من كلّ شكوكها ومعتقداتها السابقة، وجدت نفسها تدعو... تدعو من قلبها.

أرجوك يا إلهي، أنقذني.

سمعت وهي تدعو الرجال يضحكون وهم يجرّدونها من ملابسها. ثمّ اقترب منها أحدهم، وراح العرق يقطر على ظهرها.

فكّرت: *أنا عذراء، أهذا ما سيحدث لي؟*

أخيراً، وبعدما اعتقدت أنّ أمرها قد انتهى، ابتعد عنها الرجل وتحوّل الضحك إلى صراخ غضب وخوف. فجأة، شعرت أنّ العرق الذي كان يقطر على ظهرها أصبح يتدفّق... ويلوّث الفراش ببقع حمراء.

عندما استدارت سيينّا لترى ما يجري، رأت المرأة العجوز تحمل بيدها البصلة والسكّين الصدئة، وتقف قرب مهاجمها الذي ينزف بشدّة من ظهره.

رمقت المرأة الرجلين الآخرين بنظرة غضب، ولوّحت بسكّينها الدامية في الهواء؛ إلى أن هرب الرجال الثلاثة.

من دون التفوّه بأيّ كلمة، ساعدت المرأة العجوز سيينّا على جمع ملابسها وارتدائها.

همست سيينّا وهي تبكي: "*سلامات*. شكراً لك".

فأشارت المرأة إلى أذنها، بقصد القول إنّها صمّاء.

فجمعت سيينّا كفّيها معاً وأغمضت عينيها، ثمّ أحنت رأسها في حركة احترام. وعندما فتحت عينيها، كانت المرأة قد اختفت.

هكذا، غادرت سيينّا الفيليبين على الفور، من دون أن تودّع بقيّة أعضاء المجموعة. لم تخبر أحداً بما جرى معها. أملت أن يساعدها تجاهل الحادثة على نسيانها، لكنّ الوضع ازداد سوءاً. أمضت أشهراً وهي تعاني من الكوابيس، ولم تعد تشعر بالأمان في أيّ مكان. تدرّبت على الفنون الحربية، ومع أنّها أتقنت بسرعة مبادئ *ديم ماك*، إلاّ أنّها ظلّت تشعر أنّها في خطر.

عاد إليها اكتئابها مضاعفاً، وتوقّفت عن النوم تماماً. كلّما سرّحت شعرها، لاحظت أنّ خصلاً كبيرة منه تتساقط يوماً بعد يوم. وبعد أسابيع، أصبحت شبه صلعاء. شخّصت حالتها بنفسها، وعرفت أنّها مصابة بتساقط الشعر الناتج عن التوتّر، والذي لا علاج له سوى بعلاج التوتّر. كلّما نظرت إلى نفسها على صفحة المرآة، رأت رأسها الأصلع، وشعرت بنبضها يتسارع.

أبدو مثل امرأة عجوز!

أخيراً، لم يعد أمامها خيار سوى حلاقة شعرها. على الأقلّ، لن تبدو عجوزاً، بل ستبدو مريضة بكلّ بساطة. تجنّباً لذلك، قامت بشراء شعر مستعار على شكل ذيل حصان، وهكذا أحسّت أنّها عادت تشبه نفسها مجدّداً.

لكنّ سيينّا بروكس تغيّرت في داخلها.

أصبحتْ بضاعة متضرّرة.

وفي محاولة يائسة لتخطّي تلك التجربة، سافرت إلى أميركا، ودرست الطبّ. لطالما كان لديها ميل إلى الطبّ، وأملت أن يساعدها ذلك على الإحساس بأنّها ذات فائدة... أنّها تقوم بشيء على الأقلّ لتخفيف المعاناة في هذا العالم.

على الرغم من ساعات الدراسة الطويلة، كانت الدراسة سهلة بالنسبة إليها. وبينما كان أصدقاؤها يدرسون، كانت تقوم بالتمثيل بدوام جزئي لكسب بعض المال. لم تمثّل في مسرحيات شيكسبير بالطبع، لكنّ مواهبها اللغوية وقدرتها على الحفظ جعلت التمثيل بالنسبة إليها ملجأً تنسى فيه من تكون... وتصبح *شخصاً آخر*.

أيّ شخص.

حاولت سيينّا الهرب من نفسها منذ أن أصبحت قادرة على الكلام. في طفولتها، تخلّت عن اسمها الأساسي، فيليسيتي، واعتمدت اسمها الثاني، سيينّا. فاسم فيليسيتي يعني "محظوظة"، وكانت تعرف أنّها ليست كذلك.

ذكّرت نفسها: *لا تركّزي على مشاكلك الخاصّة، بل على مشاكل العالم.*

نوبة الذعر التي أصابتها في شوارع مانيلاّ المكتظة جعلتها تهتم بالزيادة السكانية في العالم. وهكذا، تعرّفت على كتابات بيرتراند زوبريست، وهو مهندس جيني قدّم نظريات تقدّمية جدًّا بشأن سكان العالم.

أدركت أنّه عبقري وقرأت عنه الكثير. لم يسبق لسيينّا أن شعرت بذلك حيال أيّ شخص آخر، وكلّما قرأت عن زوبريست، أحسّت أنّها تتعرّف على توأم روحها. ذكّرتها مقالته "لا يمكنك إنقاذ العالم" بما كان يقوله لها الناس عندما كانت طفلة... غير أنّ زوبريست كان يعتقد العكس تماماً.

كتب زوبريست: *يمكنك إنقاذ العالم. إن لم يكن أنت من ينقذه فمن سيفعل؟ وإن لم يكن الآن فمتى؟*

درست سيينّا معادلات زوبريست الرياضية بعناية، واطّلعت على توقّعاته التي تنذر بكارثة عظمى وبانهيار وشيك للأجناس. كانت تحبّ التوقّعات على مستوىً عالٍ، لكنّها شعرت بتوتّر متعاظم وهي ترى المستقبل بأكمله أمامها..كما تتوقّعه الرياضيات... على نحو بديهي... وحتمي.

لماذا لا يرى أحد ذلك؟

ومع أنّ هذه الفكرة أخافتها، إلاّ أنّها أصبحت مهووسة بزوبريست، تشاهد أفلامه ومحاضراته، وتقرأ كلّ ما يكتبه. وعندما سمعت أنّه سيلقي محاضرة في الولايات المتّحدة، عرفت أنّ عليها الذهاب لرؤيته. وفي تلك الليلة، تغيّر عالمها بكامله.

أضاءت وجهها ابتسامة وهي تستعيد مجدّداً تلك الأمسية الساحرة التي تذكّرتها جيّداً قبل ساعات وهي جالسة في القطار مع لانغدون وفيريس.

شيكاغو. العاصفة الثلجية.

يناير، قبل ست سنوات... لكن، يبدو الأمر كما لو أنّ اللقاء كان بالأمس. كنت أمشي بين الثلوج في شارع ماغنيفيسانت مايل الذي تعصف فيه رياح عاتية. على الرغم من البرد، قلت في سرّي إنّ شيئاً لن يثنيني عن هدفي. هذه الليلة هي فرصتي لسماع بيرتراند زوبريست يتحدّث... شخصياً.

كنت قد قرأت كلّ ما كتبه الرجل، وشعرت بالسعادة لأنني أملك إحدى البطاقات الخمسمائة التي طبعت لهذه المناسبة. عندما وصلت، شعرت بالذعر لدى رؤيتي القاعة شبه خالية. هل ألغي الخطاب بسبب سوء الأحوال الجوية؟

أخيراً وصل.

دخل بقامته الفارعة ووقف على المسرح. نظر إلى القاعة الخالية التي لم يكن فيها سوى عشرة تقريباً من معجبيه؛ الأمر الذي أشعرني بالخجل.

هذا هو بيرتراند زوبريست!

مرت لحظة صمت طويلة وهو يحدق إلينا بجدية.

فجأة، ومن دون سابق إنذار، انفجر ضاحكاً ولمعت عيناه الخضراوان وقال: "فلتذهب هذه القاعة الخالية إلى الجحيم. فندقي قريب، لنذهب إلى هناك!".

ضحك الموجودون وتوجهنا إلى الفندق المجاور. اجتمعنا هناك وطلب الشراب. أتحفنا زوبريست بقصص عن أبحاثه، وصعود نجمه، وأفكاره حول مستقبل الهندسة الجينية. ثمّ انتقل إلى الحديث عن موضوع شغفه مؤخراً، ألا وهو الفلسفة ما وراء الإنسانية.

قال زوبريست: "أعتقد أنّ الفلسفة ما وراء الإنسانية هي أملنا الوحيد للبقاء طويل الأمد". ثمّ شدّ ياقة قميصه ليُظهر للجميع وشماً على كتفه "H+". "كما ترون، أنا ملتزم بها تماماً".

لم أتخيل أن يكون "عبقري علم الوراثة" شخصاً كاريزماتياً وجذاباً إلى هذا الحدّ. كلّما نظرت إليه، أشعلت فيّ عيناه الخضراوان إحساساً غير متوقّع... جاذبية عميقة.

مع انقضاء الليل، تفرّقت المجموعة، واستأذن الحاضرون للعودة إلى الواقع. وبحلول منتصف الليل، أصبحنا بمفردنا أنا وبيرتراند زوبريست.

قلت له وقد أثّر الشراب في تركيزي: "شكراً لك على هذه الليلة. أنت أستاذ رائع".

ابتسم ومال نحوي فتلامست ساقانا: "هذا الغزل قد يقودك إلى أيّ مكان".

من الواضح أن الغزل لم يكن ملائماً. لكن، كانت ليلة جليدية في فندق خالٍ، وبدا وكأن العالم بأسره قد توقف.

قال زوبريست: "ما رأيك؟ هل نتناول كأساً في غرفتي؟".

تسمّرت من المفاجأة، وعرفت أنّني أبدو كغزال فاجأته أضواء سيارة.

شعرت باحمرار وجهي، وكافحت لأخفي انفعالاتي التي تراوحت بين الإحراج، والإثارة، والخوف. قلت: "في الواقع، بصراحة، لم يسبق لي أن كنت مع أيّ رجل".

ابتسم زوبريست واقترب أكثر: "لا أعرف ما الذي كان يؤخّرك، لكن أودّ أن أكون الأوّل".

في تلك اللحظة، تلاشت كلّ مخاوف الطفولة المكبوتة... تبخرت في ثلوج الليل.

ثمّ أصبحت بين ذراعيه.

همس قائلاً: "استرخي سيِنًا". وتعرفت معه على أحاسيس لم أتخيّل وجودها.

شعرت معه أنّ كلّ شيء في هذا العالم صحيح، وعرفت أنّ حياتي أصبح لها هدف.

لقد وجدت الحبّ.

وسأتبعه إلى أيّ مكان.

الفصل 80

على متن *الميناسيوم*، تمسّك لانغدون بالدرابزين الخشبي المصقول، وحاول تثبيت قدميه المرتجفتين والتقاط أنفاسه. كان الهواء قد أصبح أكثر برودة، وعرف من هدير الطائرات التجارية المنخفضة أنّهم اقتربوا من مطار البندقية.

عليّ إخبارك ببعض الأمور عن الآنسة بروكس.

وقف العميد ود. سينسكي بجانبه بصمت، وأعطياه بعض الوقت لاستجماع أفكاره. ما عرفه لانغدون في الأسفل أربكه وأزعجه إلى حدّ أنّ سينسكي أخرجته إلى السطح لاستنشاق الهواء العليل.

على الرغم من هواء البحر، لم يشعر لانغدون بالصفاء الذهني. اكتفى بالتحديق إلى الأثر الذي يتركه اليخت في الماء، محاولاً فهم ما سمعه للتوّ.

بحسب العميد، كانت سيينّا بروكس وبيرتراند زوبريست عشيقين منذ مدّة طويلة، وقد عملا معاً في حركة سرّية تدعى الحركة ما وراء الإنسانية. كان اسمها فيليستي سيينّا بروكس، وتحمل أيضاً الاسم الشيفري FS-2080... المكوّن من الأحرف الأولى من اسمها والعام الذي ستبلغ فيه عامها المائة.

كلّ هذا غير منطقي!

قال العميد: "عرفتُ سيينّا بروكس من مصدر آخر، ووثقت بها. لذلك عندما أتت إليّ في العام الماضي وطلبت منّي التعرّف على زبون ثري وافقتُ. تبيّن لي أنّ ذلك الزبون هو بيرتراند زوبريست الذي أراد أن أوفّر له مكاناً آمناً يعمل فيه على *تحفته*. افترضتُ أنّه يطوّر تكنولوجيا جديدة، ولا يرغب في أن يتعرّض للقرصنة... أو يجري بحثاً جينياً متطوّراً يتعارض مع الأنظمة الأخلاقية لمنظّمة الصحّة العالمية... لم أطرح عليه أيّ أسئلة، لكن صدّقني، لم يخطر لي يوماً أنّه يخترع... وباءً".

اكتفى لانغدون بهزّ رأسه بشرود... وحيرة.

تابع العميد: "كان زوبريست من هواة دانتي، لذلك اختار فلورنسا للاختباء فيها. أمّنت له منظّمتي كلّ ما يحتاج إليه؛ من مختبر سرّي، ومسكن، وقنوات اتّصال آمنة، كما أمّنت له شخصاً يحضر له الطعام وكلّ احتياجاته؛ بدءاً من الأمن ووصولاً إلى شراء الطعام والمعدّات. لم يستخدم زوبريست بطاقاته الائتمانية مطلقاً، ولم يظهر علناً على الإطلاق، لذلك كان من المستحيل تعقّبه. حتّى إنّنا زوّدناه بطرق للتخفّي، وبأسماء مزيّفة، ووثائق مزوّرة للسفر من دون أن يتعرف عليه أحد. وهذا ما فعله على ما يبدو عندما خبّأ الكيس القابل للذوبان".

تنهّدت سينسكي ولم تخفِ انزعاجها: "كانت منظّمة الصحّة العالمية تحاول إيجاده طوال العام الفائت، لكنه بدا كما لو أنّه قد اختفى عن وجه الأرض".

قال العميد: "حتى إنّه اختفى وابتعد عن سيينّا".

نظر إليه لانغدون، وقال بصعوبة: "عفواً! ظننت أنك قلت إنّهما حبيبان".

"كانا كذلك، لكنّه قطع علاقته بها فجأة عندما اختبأ. ومع أنّ سيينّا هي التي أرسلته إلينا، إلاّ أن اتفاقي كان مع زوبريست نفسه، وتضمّن الاختفاء عن العالم بأسره، بمن في ذلك سيينّا. ويبدو أنّه أرسل لها رسالة وداع كشف فيها أنّه يعاني من مرض عضال وسيموت خلال عام تقريباً، ولا يريدها أن تراه فيما صحّته تتدهور".

زوبريست تخلّى عن سيينّا؟

قال العميد: "حاولت سيينّا الاتصال بي للحصول عن معلومات عنه، لكنّني رفضت الردّ عليها. فأنا مضطرّ لاحترام رغبات الزبون".

تابعت سينسكي: "منذ أسبوعين، دخل زوبريست أحد مصارف فلورنسا واستأجر خزنة من دون أن يكشف عن اسمه. بعد خروجه، عرف فريق المراقبة لدينا أنّ برنامج التعرّف على الوجوه التابع للمصرف قد تعرّف على بيرتراند زوبريست الذي كان متنكّراً حينها. طار فريقي إلى فلورنسا، واستغرق أسبوعاً لإيجاد الخزنة التي كانت فارغة، لكنّنا وجدنا فيها دليلاً على أنّه اخترع وباءً شديد العدوى، وخبّأه في مكان آخر".

سكتت سينسكي، ثمّ أضافت: "كنّا يائسين للعثور عليه. في الصباح التالي، وقبل شروق الشمس، وجدناه يمشي على ضفّة نهر آرنو، فطاردناه على الفور. عندها هرب إلى برج باديا، ورمى نفسه من فوقه".

أضاف العميد: "ربّما كان قد خطّط للقيام بذلك على كلّ حال، فقد كان مقتنعاً أنّه لن يعيش طويلاً".

قالت سينسكي: "كما تبيّن لنا، كانت سيينّا تبحث عنه أيضاً. اكتشفت بطريقة ما أنّنا في فلورنسا، فتتبّعت تحرّكاتنا ظنًّا منها أنّنا عثرنا عليه. لكن مع الأسف، كانت موجودة عندما قفز زوبريست من البرج، وأظنّ أنّ رؤيتها حبيبها وأستاذها ينتحر سبّبت لها صدمة شديدة".

عجز لانغدون عن استيعاب كلّ ذلك. فالشخص الوحيد الذي وثق به في هذه القضية كان سيينّا، وها هما يخبرانه أنّها ليست الشخص الذي تدّعيه. لم يستطع تصديق أنّ سيينّا أيّدت زوبريست في سعيه إلى اختراع الوباء.

أم أنّها فعلت؟

كانت قد سألته: *هل تقدم على قتل نصف سكان العالم اليوم لإنقاذ جنسنا من الانقراض؟*

أحسّ لانغدون بقشعريرة.

قالت سينسكي: "عندما مات زوبريست، استخدمت نفوذي لفتح الخزنة، فوجدت فيها رسالة موجّهة إليّ... بالإضافة إلى ذلك الجهاز الصغير الغريب".

قال لانغدون: "المسلاط".

"بالضبط. وقال في رسالته إنّه يريد أن أكون أوّل من يذهب إلى نقطة الانطلاق التي لن يجدها أحد من دون أن يتبع خارطة الجحيم التي وضعها بنفسه".

تذكّر لانغدون لوحة بوتيتشيلّي المعدّلة التي عرضها المسلاط الصغير.

قال العميد: "كان زوبريست قد طلب مني تسليم د. سينسكي محتويات الخزنة، لكن ليس قبل صباح غد. لذلك، عندما استلمت المحتويات قبل الأوان، أخذنا نلاحقها لاستعادتها وتنفيذ مشيئة زبوننا".

قالت سينسكي: "رأيت أنّني لن أتمكّن من فهم الخارطة في الوقت المناسب، لذلك طلبت مساعدتك. هل تذكر الآن شيئاً من ذلك؟".

هزّ لانغدون رأسه نافياً.

"سافرنا إلى فلورنسا سرًّا، وهناك أخذتَ موعداً من شخص يمكنه تقديم المساعدة".

إغناتسيو بوزوني.

"التقيته في الليلة الماضية ثمّ اختفيتما، فاعتقدنا أنّ شيئاً ما قد حدث".

قال العميد: "في الواقع، حدث شيء ما بالفعل. ففي محاولة منّا لاستعادة المسلاط، أرسلت خلفكما عميلة تدعى فايينثا، تعقّبتك من المطار ثمّ فقدت أثرك في بياتزا ديلا سينيوريا". عبس مضيفاً: "فقدانها أثرك كان خطأً فادحاً، وقد تجرّأت فايينثا على إلقاء اللوم على طائر".

"المعذرة؟".

"هديل حمامة. على حدّ قولها، كانت في موقع ممتاز، تراقبك من كوّة مظلمة عندما مرّت مجموعة من السيّاح. قالت إنّ هديل حمامة سمع فجأة من نافذة فوق رأسها، الأمر الذي دفع السياح إلى التوقّف وحجبك عن نظرها. وعندما تمكّنت من التسلل إلى الزقاق مجدداً، كنت قد اختفيت". هزّ رأسه باشمئزاز. "على كلّ حال، فقدت أثرك لعدة ساعات. أخيراً، عثرَت عليك مجدّداً، وكنت حينها برفقة رجل آخر".

فكر لانغدون: *إغناتسيو. لا بدّ أننا كنا نغادر القصر حاملين القناع.*

تبعتكما إلى بياتزا ديلا سينيوريا، لكنّكما رأيتماها على ما يبدو، وقرّرتما الهرب منها باتجاهين مختلفين".

وجد لانغدون ذلك منطقياً. *لهذا السبب هرب إغناتسيو وخبّأ القناع في المعمودية قبل أن تباغته نوبة قلبية.*

قال العميد: "ثمّ ارتكبت فايينثا خطأً رهيباً".

"هل أطلقت النار عليّ؟".

"كلا، بل كشفت عن نفسها قبل الأوان. استجوبتك قبل أن تعرف شيئاً. أردنا أن نعرف إن كنت قد فككت شيفرة الخارطة أو أخبرت د. سينسكي بما تريد معرفته. لكنك رفضت قول أي شيء. قلت إنك تفضّل الموت على ذلك".

كنت أبحث عن طاعون فتّاك! لا بد أنني ظننتكم مرتزقة تسعون إلى الحصول على سلاح بيولوجي!

فجأة، أبطأ اليخت من سرعته مع اقترابه من رصيف التحميل التابع للمطار. على مسافة منهم، رأى لانغدون طائرة النقل C-130 وهي تتزود بالوقود. كان هيكل الطائرة يحمل اسم منظمة الصحة العالمية.

في تلك اللحظة وصل العميل برودر، وبدا متجهّماً. "عرفت للتوّ أنّ فريق الدعم المؤهّل الوحيد المتوفّر خلال الساعات الخمس القادمة هو فريقنا، ما يعني أنّنا سنكون بمفردنا".

قالت سينسكي: "ألم تتمكن من التنسيق مع السلطات المحلية؟".

أجاب برودر بتعب واضح: "ليس بعد. بما أنّنا لا نملك موقعاً محدّداً حتى الآن، لا يمكنهم فعل شيء. بالإضافة إلى أنّ عملية الاحتواء تتجاوز خبرتهم، وقد يتسببون بضرر أكبر".

همست سينسكي وهي تهزّ رأسها بعبارة أساسية تشكل أحد مبادئ الأخلاقيات الطبية: "أولاً، لا تتسبَّب بالأذى".

قال برودر: "ولم نعرف شيئاً بعد عن سييّنا بروكس". نظر إلى العميد وسأله: "هل تعلم إن كان لديها معارف في البندقية يمكنهم مساعدتها؟".

أجاب: "لا يفاجئني ذلك. فزوبريست لديه أتباع في كلّ مكان، وبحسب معرفتي بها، ستستخدم كلّ الموارد المتاحة لتنفيذ الأوامر التي تلقتها".

قالت سينسكي: "لا يمكن السماح لها بالخروج من البندقية، لأنّ وضع الكيس القابل للذوبان غير معروف. فمن شأنه أن ينفجر عند أيّ لمسة ويفرغ محتوياته في الماء".

ساد الصمت مع اتّضاح خطورة الوضع.

قال لانغدون: "أخشى أنّ سييّنا تعرف المكان الذي نتوجّه إليه، إنّها تعرف أين يقع الموزيون الذهبي للحكمة المقدّسة".

سألته سينسكي بقلق: "ماذا؟! فهمت أنّك لم تجد الفرصة لإخبارها! قلتَ إنّ كلّ ما أخبرتها به هو أنّكما في البلد الخاطئ!".

قال لانغدون: "هذا صحيح، لكنها تعرف أنّنا نبحث عن قبر إنريكو داندولو، ولن يلزمها سوى إجراء بحث بسيط على الإنترنت. وعندما تجد القبر... لن يكون الكيس بعيداً عن متناولها. فالقصيدة توصي باتباع خرير المياه إلى القصر الغارق".

قال برودر: "تباً!". وخرج مسرعاً.

قال العميد: "لن تهزمنا أبداً، سنسبقها".

أجابته سينسكي: "لست واثقة من ذلك، فوسيلة النقل التي نستخدمها بطيئة، ويبدو أنّ سييّنا لا تفتقر إلى الموارد".

ما إن رسا المينداسيوم، حتى وجد لانغدون نفسه يحدّق إلى الطائرة التي تنتظرهم. بالكاد بدت قادرة على الطيران، كما أنّها من دون نوافذ. *أيعقل أن أكون قد سافرت على متن هذا الشيء من قبل؟!* لم يتذكّر شيئاً على الإطلاق.

فجأة، شعر لانغدون بالغثيان، ولم يعرف ما إذا كان السبب هو تمايل اليخت أو فكرة السفر على متن الطائرة المغلقة. فقال لسينسكي: "لست واثقاً من أنّني أستطيع السفر".

قالت له: "أنت بخير. لكنّ نهارك كان صعباً، وبالطبع، دخلت السموم جسدك".

"السموم؟! عمّ تتحدّثين؟".

أشاحت سينسكي بنظرها. من الواضح أنّها باحت بأكثر ممّا كانت تريد البوح به.

"بروفيسور، لقد عرفت أنّ وضعك الصحّي أكثر تعقيداً بقليل من مجرّد إصابة في الرأس".

شعر لانغدون بموجة من الخوف تجتاحه وهو يتخيّل صدر فيريس الأسود عندما انهار على أرض البازيليك.

"ما مشكلتي؟".

ترددت سينسكي. "فلنصعد الطائرة أوّلاً".

الفصل 81

شرق كنيسة فْراري الجميلة، يقع مشغل بييترو لونغي الذي يعتبر أفضل من يصنع الأزياء التاريخية، والشعر المستعار، والأكسسوارات في البندقية. دخلت امرأة جميلة ذات شعر أشقر مسرّح على شكل ذيل حصان وهي تلهث وكأنها ركضت أميالاً. توجّهت نحو عامل الاستقبال، ونظرت إليه بعينيها البنيتين اليائستين.

قالت: "أودّ التحدّث مع جورجيو فينشي".

قال العامل في سرّه: *كلّنا نودّ ذلك، لكن لا يستطيع أحد رؤية الساحر.*

كان جورجيو فينشي يعمل من خلف الكواليس، ولا يتحدث مع الزبائن إلاّ نادراً، وبموعد مسبق. فنظراً إلى ثروته الفاحشة ونفوذه الواسع، كان يسمح لنفسه ببعض النزوات الغريبة، مثل شغفه بالوحدة. ولهذا، كان يتناول الطعام بمفرده، ويسافر بمفرده، ويتذمّر دائماً من ارتفاع أعداد السياح في البندقية. لم يكن من الناس الذين يحبّون الرفقة.

أجابها الحارس مبتسماً: "أنا آسف، لكنّ السينيور فينشي ليس موجوداً. هل يمكنني مساعدتك؟".

"جورجيو هنا. إنّه موجود في الطابق الأعلى، لقد رأيت مصباحه مضاءً. أنا صديقته، ولديّ حالة طارئة".

بدا على المرأة إلحاح واضح. *إنّها تدّعي أنّها صديقته!* "هلاّ أعطيتني اسمك".

تناولت المرأة ورقة وقلماً عن الطاولة وكتبت سلسلة من الأحرف والأرقام.

قالت: "أعطِه هذه، بسرعة أرجوك. ليس لديّ متّسع من الوقت".

أخذ الموظّف الورقة إلى الأعلى ووضعها أمام جورجيو الذي كان منحنياً فوق آلة الخياطة.

همس: "سينيوري، ثمّة من ترغب في رؤيتك. تقول إنّها حالة طارئة".

مدّ الرجل يده وتناول الورقة من دون أن يتوقف عن العمل، ثمّ قرأها.

فجأة، توقفت الآلة.

أمره قائلاً: "أرسلها فوراً". ثمّ مزّق الورقة إلى قطع صغيرة.

الفصل 82

واصلت طائرة C-130 الضخمة صعودها متجهة إلى الجنوب الشرقي، فوق البحر الأدرياتيكي. وعلى متنها، شعر روبرت لانغدون بالارتباك والحيرة، وخنقه غياب النوافذ.

قالت له سينسكي قبل قليل: *وضعك الصحّي أكثر تعقيداً بقليل من مجرّد إصابة في الرأس.*

تسارع نبضه وهو يفكّر في ما يمكن أن تخبره به، إلاّ أنّها كانت مشغولة بمناقشة استراتيجيات الاحتواء مع فريق المراقبة والدعم، فيما كان برودر يتحدّث عبر الهاتف مع وكالات حكومية عن سيينّا بروكس محاولاً إيجادها.

سيينّا...

ما زال لانغدون يحاول أن يصدق أنّها متورطة في كلّ هذا. مع ارتفاع الطائرة في الجو، أتى الرجل الذي يسمي نفسه العميد وجلس أمام لانغدون. "طلبت منّي د. سينسكي أن... أوضح لك حالتك".

فوجئ لانغدون، وشعر بالخوف ممّا يمكن أن يقوله له هذا الرجل.

قال العميد: "كما سبق وقلت، بدأ كلّ شيء عندما كشفت فايينثا نفسها لك قبل الأوان. لم نكن نعرف كم أحرزتَ من تقدّم لصالح د. سينسكي، أو مقدار المعلومات التي أخبرتها إياها. خفنا أن تعرف سينسكي بمكان ذلك الشيء قبل الوقت المحدد، وأن تصادره أو تدمره. لذلك، أردنا أن تعمل لصالحنا... لكن مع الأسف، كشفنا أوراقنا قبل الأوان... وفقدت ثقتك بنا".

قال لانغدون غاضباً: "فأطلقتم النار عليّ!".

"بل وضعنا خطة لجعلك *تثق* بنا".

شعر لانغدون بالضياع. "كيف تجعلون شخصاً ما يثق بكم... بعد خطفه واستجوابه؟".

بدا على الرجل عدم الارتياح. "بروفيسور، هل سمعت بمجموعة جديدة من الأدوية تعرف باسم بينزوديازيبين؟".

هز رأسه نافياً.

"إنّها سلالة من الأدوية التي تستعمل لأغراض متعددة، منها علاج التوتر بعد الصدمات. كما تعرف، عندما يعاني شخص ما من صدمة عنيفة، كحادث سيارة أو اعتداء جنسي، من شأن الذكريات طويلة الأمد أن تسبب له أذى كبيراً. باستخدام هذه العقاقير، أصبح بإمكان علماء الأعصاب علاج التوتر الناجم عن الصدمات قبل حدوثه".

أصغى إليه لانغدون صامتاً، من دون أن يفهم إلى أين سيؤدي هذا الحديث.

تابع العميد: "عندما تتكون ذكريات جديدة، تخزّن تلك الأحداث في الذاكرة قصيرة الأمد لمدة ثمانٍ وأربعين ساعة، قبل أن تنتقل إلى الذاكرة بعيدة الأمد. وباستخدام خلطات جديدة من البينزوديازيبين، يستطيع المرء بسهولة *إنعاش* الذاكرة قصيرة الأمد... وإلغاء محتوياتها قبل أن تتحوّل تلك الذكريات الجديدة إلى ذكريات طويلة الأمد".

حدّق لانغدون إلى الرجل قصير القامة بعدم تصديق."هل جعلتني أفقد ذاكرتي؟".

تنهّد العميد محرجاً. "أخشى ذلك... بالوسائل الكيميائية. إنّها آمنة جداً، لكنها تمسح محتويات الذاكرة قصيرة الأمد". صمت مضيفاً: "عندما غبت عن الوعي، تمتمت بشيء عن الطاعون، وافترضنا أن ذلك ناتج عن رؤيتك صور المسلاط. لم نتخيل مطلقاً أن يكون زوبريست قد اخترع وباءً حقيقياً. كما أنك كنت تردّد جملة فهمناها على أنّها اعتذار: آسف جداً. آسف جداً".

فاساري. لا بدّ أنّ ذلك كان كلّ ما عرفه عن المسلاط حتى ذلك الوقت. *تشيركا تروفا*.

"لكن... ظننت أنّني فقدت ذاكرتي نتيجة الإصابة في رأسي. شخص ما أطلق النار عليّ".

هزّ العميد رأسه نافياً. "لم يطلق عليك أحد النار، بروفيسور. لم تتعرّض لإصابة في رأسك".

"ماذا؟!". وامتدّت يد لانغدون تلقائياً إلى الجرح المتورّم في رأسه. "ما هذا إذاً؟". أبعد شعره لكي يُظهِر المنطقة الحليقة من رأسه.

"إنّها جزء من الوهم. صنعنا شقاً صغيراً في فروة رأسك ثمّ أغلقناه بالقطب. كان يجب أن تصدّق أنّك تعرّضت للاعتداء".

هذا الجرح ليس بسبب رصاصة؟!

قال العميد: "عندما استيقظت، أردنا أن تعتقد أنّ هناك من يريد قتلك... وأنك في خطر".

صاح لانغدون: "ثمّة من يريد قتلي!". التفت إليه كلّ من كان على متن الطائرة. "لقد رأيت الطبيب في المستشفى – د. ماركوني – يقتل أمامي بدم بارد!".

قال العميد: "هذا ما رأيته، لكن هذا ليس ما جرى. فايينثا تعمل لحسابي. وهي موهوبة في هذا النوع من العمل".

سأله لانغدون: "أتعني القتل؟".

أجاب بهدوء: "كلا، بل *ادّعاء* القتل".

حدّق لانغدون إلى الرجل مطوّلاً، وتذكّر الطبيب الذي انهار على الأرض، وسال الدم من صدره بلحيته البيضاء وحاجبيه الكثّين.

"كان مسدس فايينثا محشواً بالمفرقعات التي تفجّر عند إطلاقها سائلاً بلون الدم على صدر د. ماركوني. إنّه بخير بالمناسبة".

أغمض لانغدون عينيه مصعوقاً. "وماذا عن... غرفة المستشفى؟".

أجابه: "كانت عبارة عن مسرح مرتجل. بروفيسور، أعرف أنّه من الصعب عليك استيعاب كلّ ذلك. كنّا نعمل بسرعة، ولم تكن بكامل وعيك، لذلك لم نكن مضطرّين إلى إتقان كلّ شيء. عندما استيقظت، رأيت ما أردنا أن تراه؛ مستشفى، وبضعة ممثّلين، ومشهد هجوم فاشلاً".

كان لانغدون على وشك الانهيار.

قال العميد: "هذا ما تفعله شركتي. نحن ماهرون في صناعة الأوهام".

سأله لانغدون وهو يفرك عينيه: "وماذا عن سيينّا؟".

"لقد اخترتُ العمل معها. فالأولوية كانت حماية مشروع الزبون من د. سينسكي، وكنّا أنا وسيينّا نتشارك تلك الرغبة. لكي تكسب سيينّا ثقتك، أنقذتك من القاتل، وساعدتك على الهرب إلى زقاق خلفي. كان التاكسي المنتظر في الأسفل تابعاً لنا، ومزوّداً هو أيضاً بمفرقعة يمكن التحكّم بها عن بعد على الزجاج الخلفي لتوليد التأثير النهائي وأنتما تهربان. اصطحبك التاكسي إلى شقة جهّزناها على عجل".

شقة سيينّا البسيطة. فهم لانغدون الآن لماذا بدت الشقة وكأنّها أُثّثت بمفروشات مستعملة. كما فهم كيف صدف أنّ "جار" سيينّا يملك ملابس تناسبه تماماً.

كان كلّ شيء مدبّراً.

حتّى الاتصال اليائس من صديقة سيينّا في المستشفى كان مزيّفاً. *سيينّا، أنا دانيكوفا!*

قال العميد: "عندما اتصلتَ بالقنصلية، استخدمت رقماً أعطتك إياه سيينّا. وقد أوصلك *بالميندا سيوم*".

"ألم أتصل بالقنصلية؟!".

"كلاّ، لم تفعل".

قال له موظف القنصلية المزيّف: *ابقَ مكانك، سأرسل إليك شخصاً ما على الفور*. وعندما ظهرت فايينثا، رأتها سيينّا في الشارع وقامت بربط الأمور ببعضها. *روبرت، حكومتك تحاول قتلك! لا يمكنك الاتصال بالسلطات! أملك الوحيد معرفة الرسالة التي يحملها المسلاط.*

لقد نجح العميد ومنظمته الغامضة، أيًّا تكن ماهيتها، بجعل لانغدون يتوقف عن العمل لحساب سينسكي ويعمل لحسابهم. كانت المسرحية متقنة.

لقد تلاعبت بي سيينّا تماماً. أحزنته هذه الفكرة أكثر ممّا أغضبته، فقد صار مولعاً بها بعد ذلك الوقت القصير الذي أمضياه معاً. لكنّ السؤال الذي أزعجه هو كيف يمكن لروح ذكية ودافئة مثل سيينّا أن تقتنع إلى هذا الحدّ بحلّ زوبريست الجنوني للكثافة السكانية.

كانت سيينّا قد قالت له: *يمكنني التأكيد من دون أدنى شكّ أنّه بغياب تغيير جذري، فإنّ نهاية جنسنا قادمة... فالرياضيات غير قابلة للجدل.*

سأل لانغدون وهو يتذكر إعلانات شيكسبير وقصاصات الجرائد التي تتحدّث عن ذكائها الخارق: "وماذا عن المقالات عن سيينّا؟".

أجاب العميد: "حقيقية. فأفضل الأكاذيب تشتمل على أكبر قدر ممكن من الواقع. لم يكن لدينا الوقت الكافي لترتيب كلّ شيء، لذلك كان كمبيوتر سييِنّا وأوراقها الشخصية الحقيقية هي كلّ ما نملك. لم يكن يجدر بك رؤيتها إلاّ إن شككت بهوية سييِنّا".

قال لانغدون: "ولا استخدام الكومبيوتر الخاصّ بها".

"أجل، تلك هي اللحظة التي فقدنا فيها زمام الأمور. لم تتوقّع سييِنّا قطّ أن يعثر فريق سينسكي على شقتها. لذلك عندما وصل الجنود، ذُعرت واضطرت إلى الارتجال. هربت معك على الدرّاجة النارية، وحاولت مواصلة الكذبة. وعندما فشلت المهمّة بأكملها، لم يعد لديّ خيار سوى التنصّل من فايينثا. إلاّ أنّ هذه الأخيرة خالفت البروتوكول واستمرّت بملاحقتك.

قال لانغدون:" لقد أوشكت على قتلي". وروى للعميد ما جرى في قصر فيكيو، عندما شهرت فايينثا مسدّسها ووجّهته إلى صدر لانغدون. *هذا لن يؤلم سوى للحظة واحدة... لكنّه خياري الوحيد*. بعد ذلك ظهرت سييِنّا ودفعتها من على الدرابزين، فسقطت فايينثا ميتة.

تنهّد العميد بصوت مسموع، وفكّر في ما قاله لانغدون للتوّ. "أشكّ في أنّ فايينثا كانت تكن تنوي قتلك... فمسدسها لم يكن يحتوي سوى على مفرقعات. كان أملها الوحيد لاستعادة وظيفتها هو استعادة السيطرة عليك. ربّما اعتقدت أنّها إن أطلقت عليك المفرقعات، فستجعلك تفهم أنّها ليست قاتلة وأنّك ضحية كذبة".

صمت العميد مفكّراً، ثمّ تابع يقول: "لا أعرف ما إذا كانت سييِنّا قد أرادت قتلها فعلاً أم حاولت منعها من إطلاق النار. فقد بدأت أدرك أنّني لا أعرف سييِنّا بروكس".

وافقه لانغدون قائلاً في سرّه: *ولا أنا*. مع أنّه عندما يتذكر نظرة الصدمة والندم على وجه المرأة الشابّة، يشعر أنّ ما فعلته بالعميلة كان غلطة.

شعر لانغدون بوحدة رهيبة، فالتفت إلى النافذة، وتاق إلى النظر إلى العالم في الأسفل، لكنّه لم يرَ سوى جدار الطائرة.

عليّ الخروج من هنا.

سأله العميد بقلق: "هل أنت بخير؟".

"كلاّ، على الإطلاق".

قال العميد في سرّه: *سيعيش. فهو يحاول استيعاب واقعه الجديد*.

بدا البروفيسور الأميركي كمن انتزع عن الأرض بفعل إعصار، ثمّ دار في الهواء، وألقي على أرض غريبة.

نادراً ما يكتشف ضحايا الكونسورتيوم حقيقة الأحداث المدبّرة التي شهدوها، وعندما يفعلون، لا يكون العميد حاضراً لرؤية نتائج الصدمة. واليوم، بالإضافة إلى إحساسه بالذنب تجاه لانغدون، يشعر الرجل بمسؤوليته عن الأزمة الحالية.

لقد قبلت الزبون الخاطئ، بيرتراند زوبريست.

ووثقت بالشخص الخاطئ، سيينّا بروكس.

الآن يطير العميد إلى عين العاصفة، إلى مركز ما قد يكون طاعوناً قاتلاً قد يهز العالم بأكمله. وإن خرج حياً من كلّ ذلك، فلن يحتمل الكونسورتيوم النتائج، بل سيواجه اتّهامات وتحقيقات لا نهاية لها.

أهذه هي نهايتي؟

الفصل 83

احتاج لانغدون إلى تنشق الهواء، وشعر أن الطائرة تطبق على أنفاسه.

راح رأسه يعصف بأسئلة لا أجوبة لها... ومعظمها عن سيينّا.

الغريب أنّه افتقد إليها.

كانت تمثّل عليّ وتستغلني.

ترك العميدَ من دون قول شيء، وتوجّه إلى مقدمة الطائرة. كان باب قمرة القيادة مفتوحاً، فأنعشه الضوء الطبيعي. وقف عند الباب، من دون أن يراه الطيّارون، وترك نور الشمس يغمر وجهه بالدفء. شعر أنّ الفضاء المفتوح أمامه نعمة من السماء، فقد بدت السماء الزرقاء الصافية مسالمة ودائمة...

لا شيء يدوم. ذكّر نفسه بذلك وهو ما زال يكافح لتقبّل احتمال وقوع الكارثة الوشيكة.

فاجأه صوت مألوف خلفه. "بروفيسور؟".

استدار لانغدون، وأجفل. رأى أمامه د. فيريس. آخر مرّة رأى فيها الرجل كان ممدّداً على الأرض في بازيليك سان مارك، غير قادر على التنفّس. وها هو الآن يقف في الطائرة متّكئاً على الجدار. كان يضع على رأسه قبّعة بايسبول وقد دهن وجهه بمرطّب وردي اللون. رأى صدره مضمّداً، وكان تنفّسه سطحياً. إن كان فيريس مصاباً بالطاعون، فلا يبدو أنّ أحداً يهتمّ بالتقاط العدوى منه.

قال لانغدون وهو يحدّق إليه: "أنت على قيد الحياة!".

هزّ فيريس رأسه متعباً. "تقريباً".

شعر لانغدون أنّ سلوك الرجل قد تغيّر تماماً، إذ يبدو أكثر استرخاءً.

قال لانغدون: "لكن ظننت... في الواقع... لم أعد أعرف بماذا أفكّر".

ابتسم فيريس بتعاطف. "لقد سمعتَ الكثير من الأكاذيب اليوم، لذلك جئت أعتذر. كما أصبحت تعرف، أنا لا أعمل لصالح منظّمة الصحة العالمية، ولم أحضرك من كامبريدج".

هزّ لانغدون رأسه، ولم يعد يفاجئه أيّ شيء. "أنت تعمل لصالح العميد".

"صحيح. أرسلني لتقديم المساعدة الميدانية العاجلة لك ولسيينّا... للفرار من فريق المراقبة والدعم".

قال لانغدون وهو يتذكر كيف ظهر فيريس في المعمودية، وأقنع لانغدون أنّه موظّف في منظّمة الصحّة العالمية، كما سهّل لهما الانتقال من فلورنسا والفرار من فريق سينسكي: "إذاً أعتقد أنّك قمت بعملك على أكمل وجه. من الواضح أنّك لست طبيباً".

هزّ الرجل رأسه نافياً. "كلا، لكنني أديت هذا الدور اليوم. كانت مهمّتي تتمثّل في حماية سيينّا والاستمرار بالكذبة إلى أن تكتشف إلى أين يشير المسلاط. فقد كان العميد ينوي إيجاد تحفة زوبريست وحمايتها من سينسكي".

قال لانغدون الذي ما زال يشعر بالفضول حيال الطفح الجلدي الذي يعاني منه فيريس ونزيفه الداخلي: "ألم تكن تعرف أنّه وباء؟".

"بالطبع لا! عندما ذكرتَ الوباء، اعتقدت أن الأمر مجرّد كذبة أخبرتك إيّاها سيينّا، فجاريتكما. اصطحبتكما إلى القطار المتوجّه إلى البندقية... ثمّ تغير كلّ شيء فجأة".

"وكيف ذلك؟".

"شاهد العميد فيلم زوبريست الغريب".

هذا كافٍ لقلب الموازين. "فأدرك أنّ زوبريست مجنون".

"بالضبط. فهم العميد فجأة ما تورّط به الكونسورتيوم، وشعر بالرعب. فطلب التحدّث فوراً مع أكثر من يعرف زوبريست، أي FS-2080، ليرى ما إذا كانت تعرف ما فعله زوبريست".

"FS-2080؟".

"آسف، أقصد سيينّا بروكس. هذا هو الاسم الشيفري الذي اختارته لهذه العمليّة. يبدو أنّها تقنية تستخدمها الحركة ما وراء الإنسانية. ولم يكن العميد قادراً على الوصول إلى سيينّا سوى من خلالي".

قال لانغدون: "تلك هي المكالمة الهاتفية التي تلقّيتها في القطار، حين ادّعيت أنّ أمك مريضة".

"بالطبع. لم أكن أستطيع التحدّث مع العميد أمامكما. أخبرني عن الفيلم، فشعرت بالذعر. كان يأمل أن تكون سيينّا قد تعرّضت للخداع هي أيضاً، لكن عندما أخبرته أنّكما تتحدّثان عن الأوبئة طوال الوقت، ولا تنويان التخلّي عن المهمّة، عرف أنّ سيينّا وزوبريست متواطئان. عندئذ، أصبحت عدوّتنا. طلب منّي إخباره عن مكاننا في البندقية... وقال إنّه سيرسل فريقاً لاعتقالها. أوشك العميل برودر على القبض عليها في بازيليك سان مارك... لكنّها تمكّنت من الفرار".

حدّق لانغدون إلى الأرض بشرود. ما زال يرى عيني سيينّا الجميلتين وهما تحدّقان إليه قبل فرارها.

أنا آسفة روبرت، آسفة على كلّ شيء.

قال الرجل: "إنّها قوية. لم ترها على الأرجح وهي تهاجمني في البازيليك".

"تهاجمك!".

"لم أعرف ما الذي أصابني. أظنّ أنّها حركة من الفنون القتالية. وبما أنّني كنت أساساً مصاباً في تلك المنطقة، شعرت بألم مبرح. استغرقت خمس دقائق لاستعادة أنفاسي. في ذلك الوقت، كانت سيينّا قد اصطحبتك إلى الشرفة قبل أن يكشف أيّ من الشهود ما حدث".

تذكر لانغدون المرأة الإيطالية العجوز التي صاحت في وجه سيينّا، "لاي كولبيتو آل بيتّو!" وقامت بحركة عنيفة على صدرها.

في ذلك الوقت أجابتها سيينّا: *لا يمكنني! فالتنفّس الاصطناعي سيقتله! انظري إلى صدره!*

استرجع لانغدون المشهد في ذهنه، وأدرك كيف تصرّفت سيينّا بروكس بسرعة. لقد قامت بذكاء بترجمة كلام المرأة الإيطالية على نحو خاطئ. فالمرأة لم تكن تقترح الضغط على صدره... بل كانت تقول لها: *لقد لكمته على صدره!*

في غمرة الفوضى، لم يلاحظ لانغدون ذلك.

ابتسم فيريس قائلاً: "ربّما سمعتَ أنّ سيينّا بروكس ذكية جدًّا".

هزّ لانغدون رأسه موافقاً. *لقد سمعت.*

"أحضرني رجال سينسكي إلى *المينداسيوم* وقاموا بمعالجتي. طلب منّي العميد تقديم الدعم لأنّني الشخص الوحيد الذي أمضى اليوم وقتاً مع سيينّا غيرك".

هزّ لانغدون رأسه وقد عاد انتباهه إلى الطفح الجلدي، وسأله: "هذا يعني أنّ الطفح الجلدي، وإصابة صدرك ليسا نتيجة...".

"الطاعون؟". ضحك فيريس وهزّ رأسه نافياً. "لا أعرف ما إذا كانوا قد أخبروك بعد، لكنّني أدّيت اليوم دور طبيبين".

"المعذرة؟".

"عندما ظهرت في المعمودية، قلت لي إنّني أبدو مألوفاً لك".

"بالفعل، ربّما عيناك. وقلت لي إنّ سبب هذا يرجع إلى أنك من أحضرني من كامبريدج... وأصبحت أعرف أنّ هذا ليس صحيحاً...".

"بدوت لك مألوفاً لأنّنا التقينا، لكن ليس في كامبريدج". تأمّل الرجل لانغدون. "في الواقع، كنت أوّل رجل رأيته عندما استيقظت في المستشفى هذا الصباح".

تخيّل لانغدون غرفة المستشفى الصغيرة المعتمة. كان يشعر حينها بالدوار ولا يرى بوضوح، وكان واثقاً أنّ أوّل رجل رآه عندما استيقظ طبيب أكبر سنًّا ذو وجه شاحب، وحاجبين كثّين، ولحية رمادية، ولا يتحدّث سوى الإيطالية.

قال لانغدون: "كلاّ. د. ماركوني كان أوّل شخص رأيته عندما -".

قاطعه الرجل قائلاً بإيطالية ممتازة: "*سكوزي بروفيسوري*، ألا تتذكّرني؟". أحنى ظهره مثل رجل عجوز، ومرّر أصابعه على حاجبين خياليين ولحية رمادية غير موجودة. "*سونو إيل دوتّور ماركوني*".

ذُهل لانغدون. "د. ماركوني كان... *أنت!؟*".

"لهذا السبب بدت عيناي مألوفتين. لم يسبق لي أن وضعت لحية مزيفة وحاجبين مزيفين، ولم أكن أعرف أنّني أعاني من التحسّس تجاه المادة اللاصقة. أنا واثق أنّكما ذُعرتما عندما رأيتماني... لا سيّما وأنّكما كنتما متخوّفَين من احتمال وجود وباء".

قال الرجل مشيراً إلى الضمادات المحيطة بصدره: "وما زاد الأمور سوءاً أنّ المفرقعة التي أطلقتها عليّ فايينثا أصابتني من زاوية خاطئة؛ الأمر الذي سبّب لي كسراً في أحد أضلاعي. لهذا السبب كنت أعاني من صعوبة في التنفّس طوال النهار".

وأنا الذي ظننت أنّك مصاب بالطاعون.

تنهّد الرجل. "في الواقع، أظنّ أنّ الوقت قد حان لكي أجلس". ثمّ أضاف وهو ينصرف: "يبدو أنّني لن أتركك بمفردك على أيّ حال".

التفت لانغدون فرأى د. سينسكي متّجهة نحوه، وشعرها الفضّي الطويل يتدلّى خلف ظهرها. "بروفيسور، كنت أبحث عنك".

كانت مديرة منظّمة الصحّة العالمية منهكة، لكنّ لانغدون لمح وميض أمل في عينيها. *يبدو أنّها وجدت شيئاً.*

قالت سينسكي عندما وصلت إليه: "أنا آسفة لأنّني تركتك. كنّا ننسّق ونقوم ببعض الأبحاث". أشارت إلى باب القمرة المفتوح. "أرى أنّك حصلت على بعض نور الشمس".

هزّ لانغدون كتفيه. "طائرتك بحاجة إلى نوافذ".

ابتسمت له بتعاطف. "بالحديث عن الضوء، أتمنّى أن يكون العميد قد ألقى بعضاً منه على الأحداث الأخيرة".

"أجل، مع أنّ التفاصيل لا تدعو إلى السرور".

"أنت محقّ". ثمّ نظرت حولها للتأكد من أنّهما بمفردهما، قبل أن تضيف هامسة: "ثق بي، ستكون نتائج ذلك خطيرة عليه وعلى منظمته. سوف أحرص على ذلك. لكن في هذه اللحظة، علينا التركيز على تحديد مكان ذلك الكيس قبل ذوبانه وانتشار الوباء".

أو قبل وصول سيينّا ومساعدته على الذوبان.

"أريد التحدّث معك عن المبنى الذي يحتوي على قبر داندولو".

كان لانغدون يتخيّل البناء المهيب منذ أن اكتشف أمره. موزيون الحكمة المقدّسة.

قالت سينسكي: "عرفت للتوّ أمراً مثيراً للاهتمام. فقد اتصلنا بمؤرخ محلي. لم يعرف سبب سؤالنا عن قبر داندولو بالطبع، لكنني سألته عمّا إذا كان يعرف ما يوجد تحت القبر، واحزر ما قاله". ابتسمت مضيفة: "مياه".

فوجئ لانغدون: "حقاً؟".

"أجل. يبدو أنّ الطوابق السفلية من المبنى مغمورة بالمياه. فعلى مرّ القرون، ارتفع مستوى الماء تحت المبنى، وغمر على الأقلّ الطابقين السفليين. قال إن هناك العديد من الجيوب الهوائية والأماكن نصف المغمورة بالمياه هناك".

يا إلهي. تذكّر لانغدون فيلم زوبريست والكهف المضاء الذي رأى على جدرانه المكسوّة بالطحالب ظلال أعمدة. "إنّها قاعة غارقة".

"بالضبط".

"لكن... كيف وصل زوبريست إلى هناك؟".

"هذا هو الجزء المذهل. لن تصدّق ما الذي عرفناه".

في تلك اللحظة، على بعد أقل من ميل من ساحل البندقية، وعلى جزيرة ليدو، انطلقت طائرة سيسنا سيتايشن موستانغ من مدرج مطار نيتشيلّي وارتفعت في سماء الليل.

لم يكن صاحبها، مصمم الأزياء المعروف جورجيو فينشي على متنها، لكنّه أعطى طيّاره أوامر باصطحاب المسافرة الجميلة إلى حيث ترغب.

الفصل 84

خيّم الليل على العاصمة البيزنطية القديمة.

على شاطئ بحر مرمرة، أضاءت أنوار المساجد والمنارات السماء. حان وقت العِشاء، وكانت مكبّرات الصوت في المدينة تصدح بالأذان.

لا إله إلاّ الله.

وفي حين حثّ المؤمنون خطاهم متّجهين إلى المساجد، تابع الآخرون في المدينة حياتهم. جلس طلاّب الجامعات يحتسون الشراب، وعقد رجال الأعمال الصفقات، في حين نادى الباعة على توابلهم وسجّاداتهم، وراقب السياح كلّ ذلك بإعجاب.

كان ذلك العالَم عالَماً مقسوماً؛ مدينة تتنازعها قوى متعارضة؛ دينية وعلمانية، قديمة وحديثة، شرقية وغربية. كانت هذه هي المدينة التي تشكّل ملتقى أوروبا وآسيا فعليًّا، وجسراً بين العالم القديم والعالم الأقدم.

إسطنبول.

لم تعد تلك المدينة عاصمة تركيا، غير أنّها كانت عبر العصور مركز ثلاث إمبراطوريات مختلفة: البيزنطية، والرومانية، والعثمانية. لهذا السبب، تُعتبر من الأماكن الأكثر تنوّعاً على وجه الأرض. فمن قصر توبكابي، إلى المسجد الأزرق، إلى قصر الأبراج السبعة، تزخر هذه المدينة بالحكايات الفلكلورية عن المعارك والأمجاد والهزائم.

الليلة، عالياً في السماء فوق الناس المحتشدين في المدينة، كانت طائرة C-130 تحلّق متّجهة إلى مطار أتاتورك. على متنها، جلس لانغدون على مقعد خلف الطيّارين، وراح يحدّق عبر النافذة باسترخاء.

كان يشعر بشيء من الارتياح بعدما تناول الطعام ونام لمدّة ساعة كان بأمسّ الحاجة إليها.

الآن، رأى إلى يمينه أضواء إسطنبول التي بدت من الأعلى شبه جزيرة متلألئة في ظلام بحر مرمرة. كان هذا هو الجزء الأوروبي الذي يفصله عن الجزء الآسيوي شريط متعرّج ومظلم.

مضيق البوسفور.

للوهلة الأولى، يبدو مضيق البوسفور وكأنّه جرح عميق يقسم إسطنبول إلى نصفين. لكن في الواقع، يعرف لانغدون أنّ ذلك المضيق يشكّل شريان حياة التجارة في إسطنبول. فبالإضافة إلى منحه المدينة شاطئين عوضاً عن شاطئ واحد، يتيح البوسفور مرور السفن من البحر الأبيض المتوسّط إلى البحر الأسود، ويجعل المدينة محطّة بين عالمَين.

مع هبوط الطائرة عبر طبقة من الضباب، أخذ لانغدون يبحث بعينيه عن المبنى الذي أتوا من أجله.

موقع قبر إنريكو داندولو.

كما تبيّن، لم يُدفن إنريكو داندولو - دوج البندقية الخائن - في البندقية، بل في قلب المدينة التي فتحها عام 1202... أي المدينة الممتدّة تحتهم. لقد دُفنت رفات داندولو في أجمل بناء في المدينة، بناء بقي حتّى هذا اليوم جوهرة تاج المنطقة.

آيا صوفيا.

بنيت آيا صوفيا في الأساس عام 360 م، وظلّت كاتدرائية أرثوذكسية شرقية حتّى عام 1204، عندما قام إنريكو داندولو خلال الحملة الصليبية الرابعة بالاستيلاء على المدينة وتحويلها إلى كنيسة كاثوليكية. لاحقاً، في القرن الخامس عشر، وبعد فتح القسطنطينية على يد السلطان محمّد الفاتح تحوّلت إلى مسجد، وبقيت دار عبادة إسلامية حتّى عام 1935؛ عندما تمّت علمنة المبنى وتحوّل إلى متحف.

فكّر لانغدون: *الموزيون الذهبي للحكمة المقدّسة*.

لم تكن آيا صوفيا مزخرفة ببلاط ذهبي أكثر من سان مارك فحسب، بل يعني اسمها حرفياً "الحكمة المقدّسة".

تخيّل لانغدون المبنى المهيب، وفكّر أنّه في مكان ما تحته، في بحيرة مظلمة يوجد كيس يتموّج تحت الماء، ويذوب ببطء، استعداداً لتحرير محتوياته.

تمنّى لانغدون ألاّ يكون الأوان قد فات.

كانت سينسكي قد أخبرته في وقت سابق، وهي تشير إليه ليتبعها إلى مكان عملها: "إنّ الطوابق السفلية من المبنى مغمورة بالماء. ولن تصدّق ما اكتشفناه للتوّ. هل سبق لك أن سمعت عن فيلم وثائقي لمخرج يدعى غوكسيل غولينسوي؟".

هزّ لانغدون رأسه نافياً.

"اكتشفت هذا الفيلم في أثناء البحث عن آيا صوفيا. لقد أعدّه غولينسوي عن المبنى قبل بضع سنوات".

"ثمّة عشرات الأفلام عن آيا صوفيا".

أجابت عندما وصلا إلى مكان العمل: "أجل، لكنّها ليست كهذا". أدارت الكمبيوتر المحمول نحوه مضيفة: "اقرأ".

جلس لانغدون أمام الشاشة، وقرأ المقالة التي كانت تضمّ مصادر عدّة، وتناقش أحدث أفلام غولينسوي: *في أعماق آيا صوفيا*.

عندما بدأ لانغدون يقرأ، أدرك فوراً سبب حماسة سينسكي. فالكلمتان الأوليان شكّلتا مفاجأة بالنسبة إليه. *الغوص*؟

قالت سينسكي: "أعلم. اقرأ وحسب".

راح لانغدون يقرأ المقالة.

الغوص تحت آيا صوفيا: عثر المخرج غوكسيل غولينسوي وفريق الغوص الاستكشافي على أحواض بعيدة مغمورة بالماء على عمق مئات الأقدام تحت هذا المبنى التاريخي السياحي.

واكتشفوا أثناء ذلك الكثير من العجائب المعمارية، بما فيها قبور لأطفال ترجع إلى 800 عام، فضلاً عن أنفاق مغمورة بالماء تربط بين آيا صوفيا، وقصر توبكابي، وقصر تكفور، والملحقات تحت الأرضية لسجون أنيماس.

يشرح غولينسوي: "أعتقد أنّ ما يوجد تحت آيا صوفيا أكثر إثارة بكثير ممّا هو فوق السطح". ووصف كيف استلهم فكرة الفيلم بعدما رأى صورة قديمة لباحثين يفحصون أساسات آيا صوفيا على متن زورق، ويجذّفون بالقرب من جدار كبير مغمور بالماء جزئيًّا.

قالت سينسكي: "من الواضح أنّك عثرت على المبنى الصحيح! ويبدو أنّ المكان يحتوي على جيوب هوائية ضخمة يمكن الوصول إلى الكثير منها من دون غطس... الأمر الذي يفسّر ما رأيناه في فيلم زوبريست".

وقف العميل برودر خلفهما يتأمل الشاشة. "يبدو أنّ الممرّات المائية تحت المبنى تمتد إلى مناطق مختلفة، ما يعني أنّه من المستحيل منع محتويات الكيس من الانتشار في حال تسرّبها".

قال لانغدون: "المحتويات... هل لديك فكرة عن ماهيتها؟ أعني *بالضبط*. أعلم أنّنا نتعامل مع مرض، لكن –".

قال برودر: "يشير تحليلنا للفيلم إلى أنّ المحتويات بيولوجية أكثر من كونها كيميائية، أي إنّها كائن حي. بسبب حجم الكيس الصغير، نفترض أنّ المادة معدية جدًّا ولديها القدرة على التكاثر عند تحريرها؛ سواء أتمّ ذلك عبر الماء أو الهواء. لسنا واثقين بعد، لكنّ الاحتمالين واردان".

قالت سينسكي: "نحن الآن نجمع معلومات عن حرارة طبقة المياه في المنطقة، ونحاول تقييم أنواع المواد المعدية التي يمكن أن تعيش في تلك الأماكن تحت الأرض. غير أنّ زوبريست كان يتمتّع بموهبة استثنائية، ومن المحتمل أن يكون قد أعدّ مرضاً ذا مزايا فريدة. وأعتقد أنّه اختار هذا الموقع لسبب ما".

هزّ برودر رأسه مستسلماً وأعطى بسرعة تقييمه لآلية نشر المرض، أي الكيس القابل للذوبان، والتي بدأوا يفهمون مدى الذكاء الذي تنطوي عليه تدريجياً. فبتعليق الكيس تحت الأرض وتحت الماء، أوجد زوبريست بيئة حضانة ثابتة على نحو استثنائي، تمتاز بحرارة مياه

مستقرة، وغياب أشعة الشمس، هذا فضلاً عن العازل الحركي والخصوصية التامة. وباختيار الكيس المناسب، ترك زوبريست الوباء لينضج لمدة معينة قبل أن يتحرر في الوقت المحدد.

حتى لو لم يعد زوبريست إلى الموقع مطلقاً.

هبوط الطائرة أعاد لانغدون إلى الواقع. خفّف الطيارون من سرعة الطائرة بسرعة، ثمّ قادوها إلى حظيرة طائرات بعيدة، وأوقفوها هناك.

توقّع لانغدون رؤية جيش من موظفي منظّمة الصحّة العالمية بالملابس الواقية من المواد الخطرة. إلاّ أنّه لم يكن بانتظارهم سوى سائق فان أبيض كبير يحمل إشارة صليب أحمر.

الصليب الأحمر هنا؟ نظر لانغدون مجدّداً، ثمّ أدرك أنّ ثمّة كياناً آخر يستخدم إشارة الصليب الأحمر، وهو *السفارة السويسرية.*

فكّ حزامه واقترب من سينسكي في الوقت الذي كان الجميع يستعدّون فيه للترجّل من الطائرة. سألها لانغدون: "أين الجميع؟ أين فريق منظّمة الصحّة العالمية؟ والسلطات التركية؟ هل سبقونا إلى آيا صوفيا؟".

نظرت إليه سينسكي بارتباك. "في الواقع، قررنا عدم إبلاغ السلطات المحلية تجنّباً لانتشار الذعر بين الناس، لا سيّما وأنّ أفضل أعضاء فريق الدعم والمراقبة موجودون معنا".

بالفعل، رأى لانغدون برودر وفريقه في الجوار يجهّزون حقائب سوداء تحتوي على المعدّات اللازمة كافة؛ من الملابس البيولوجية، إلى أجهزة التنفس، ومعدات الكشف الإلكترونية.

رفع برودر حقيبته على كتفه واقترب منهما قائلاً: "سننطلق. سندخل المبنى، ونبحث عن قبر داندولو حتى نجده، ثمّ ستصغي إلى خرير المياه كما تشير القصيدة، وعندئذ سنقيّم الوضع أنا وفريقي ونقرر ما إذا كان يجدر بنا الاتصال بالسلطات للحصول على الدعم".

رأى لانغدون منذ الآن مشاكل في الخطّة. "تغلق آيا صوفيا أبوابها عند مغيب الشمس، وبالتالي لا يمكننا الدخول من دون إذن السلطات المحلّية".

قالت سينسكي: "لقد تدبّرنا هذا الأمر. فمعارفي في السفارة السويسرية قاموا بالاتصال بالقيّم على متحف آيا صوفيا وطلبوا منه السماح لنا بالقيام بزيارة خاصّة عند وصولنا، فوافق على ذلك".

كاد لانغدون أن ينفجر ضاحكاً. "زيارة خاصّة لمديرة منظّمة الصحّة العالمية وجيش من الجنود الذين يرتدون الملابس الواقية؟! ألا تعتقدين أنّ هذا الأمر سيثير الاستغراب؟".

قالت سينسكي: "سيبقى فريق المراقبة والدعم في السيّارة، في حين سندخل أنا وأنت وبرودر لتقييم الوضع. ولمعلوماتك، الزيارة الخاصّة ليست لي بل لك *أنت*".

"أستميحك عذراً؟!".

"أخبرتُ القيّم على المتحف أنّ أستاذاً أميركياً شهيراً أتى مع فريق أبحاث لكتابة مقالة عن رموز آيا صوفيا، لكنّ الطائرة تأخّرت خمس ساعات. وبما أنّه سيغادر مع فريقه غداً، فإنّنا نأمل -".

قال لانغدون: "حسناً، فهمت".

"سيرسل المتحف موظّفاً لاستقبالنا شخصياً. وتبيّن أنّه يهوى مؤلّفاتك عن الفنّ الإسلامي".

ابتسمت سينسكي متعبة، وحاولت أن تبدو متفائلة. "أكّدوا لنا أنك تستطيع الوصول إلى أيّ مكان في المبنى".

قال برودر: "والأهمّ أنّنا سنكون بمفردنا".

الفصل 85

حدق لانغدون بشرود من نافذة الفان أثناء مروره على الطريق البحري السريع الذي يربط مطار أتاتورك بوسط إسطنبول. كان الموظفون السويسريون قد سهّلوا مرورهم عبر الجمارك، وهكذا انطلقت المجموعة من المطار خلال دقائق.

طلبت سينسكي من العميد وفيريس البقاء على متن طائرة C-130 مع عدد من موظفي منظّمة الصحّة العالمية ومواصلة البحث عن سيينّا بروكس.

ومع أنّ أحداً لم يصدق فعلاً أنّ سيينّا ستتمكّن من الوصول إلى إسطنبول في الوقت المناسب، إلاّ أنّهم تخوّفوا من احتمال قيامها بالاتصال بأحد أتباع زوبريست في تركيا وطلب مساعدته لتنفيذ خطة زوبريست قبل تدخّل فريق سينسكي.

هل يمكن حقًّا أن ترتكب سيينّا جريمة قتل جماعي؟ ما زال لانغدون يرفض تقبّل كلّ ما حدث. كان هذا يؤلمه، لكنّه مجبر على قبول الحقيقة. *أنت لم تعرفها، يا روبرت. لقد تلاعبت بك.*

بدأ مطر خفيف بالانهمار على المدينة، وشعر لانغدون فجأة بالتعب وهو يصغي إلى صوت المسّاحات. إلى يمينه، في بحر مرمرة، رأى أضواء يخوت فخمة وسفن كبيرة تدخل ميناء المدينة وتخرج منه. على طول الواجهة البحرية، ارتفعت المنارات المضاءة أمام المساجد المقبّبة التي تذكّر أنّ الدين مترسّخ في إسطنبول؛ حتى لو كانت مدينة حديثة وعلمانيّة.

لطالما اعتقد لانغدون أنّ هذه الرحلة على الطريق السريع الممتدّ مسافة عشرة أميال واحدة من أجمل الرحلات في أوروبا. إذ يشكّل هذا الطريق مثالاً رائعاً على اجتماع القديم والحديث في إسطنبول؛ فهو يمرّ على طول جزء من جدار القسطنطينية الذي بُني قبل ستّة عشر قرناً من ولادة الرجل الذي تحمل هذه الجادة اسمه، جون ف. كينيدي. كان ذلك الرئيس الأميركي من أكبر المعجبين برؤية كمال أتاتورك لجمهورية تركية تنبعث من رماد إمبراطورية منهارة.

تطلّ جادة كينيدي على مشاهد رائعة للبحر، وتمرّ بين بساتين جميلة وحدائق تاريخية، لتعبر ميناء ينيكابي، وتشقّ طريقها بين حدود المدينة ومضيق البوسفور، ثمّ تتجه شمالاً حول القرن الذهبي. هناك، عالياً فوق المدينة، يقبع قصر توبكابي؛ معقل العثمانيين. بتلك الإطلالة الاستراتيجية على مضيق البوسفور، يعتبر القصر مفضّلاً لدى السياح الذين يزورونه لتأمل المناظر الطبيعية ومجموعة الكنوز العثمانية الهائلة التي تتضمّن عباءة وسيفاً يقال إنّهما يخصّان النبيّ محمّد (ص) نفسه.

عرف لانغدون أنّهم لن يصلوا إلى ذلك المكان وهو يتخيّل مقصدهم؛ أي آيا صوفيا التي تقع خارج وسط المدينة على مسافة غير بعيدة.

عندما تركوا جادة كينيدي ودخلوا شوارع المدينة المكتظّة، حدق لانغدون إلى حشود الناس على الطرقات والأرصفة، وشعر أنّ أحاديث ذلك اليوم تلاحقه.

الانفجار السكاني.

الطاعون.

طموحات زوبريست الملتوية.

ومع أنّه فهم تماماً إلى أين تتوجّه بعثة المراقبة والدعم، إلاّ أنّه لم يستوعب الأمر سوى الآن. *نحن ذاهبون إلى نقطة الانطلاق.* تخيّل الكيس الذي يذوب ببطء، والذي يحتوي على السائل البنّي المصفرّ، وتساءل عن كيفيّة تورّطه بكل هذا.

كانت القصيدة الغريبة التي اكتشفها هو وسيينّا على باطن قناع دانتي هي التي قادته إلى هنا، إلى إسطنبول. أرسل لانغدون فريق الدعم والمراقبة إلى آيا صوفيا، وعرف أنّ مهمّة كبيرة تنتظرهم.

اركع في الموزيون الذهبي للحكمة المقدّسة،
وضَعْ أذناً صاغية على الأرض،
لتسمع خرير المياه.
اهبط إلى أعماق القصر الغارق...
فهناك، في الظلام، ينتظر الوحش القابع في العالم السفلي،
مغموراً بمياه حمراء كالدم...
مياه البحيرة التي لا تعكس النجوم.

شعر لانغدون مجدّداً بالانزعاج عندما أدرك أنّ الأنشودة الأخيرة من إنفيرنو دانتي تنتهي بمشهد مشابه تقريباً. فبعد هبوط طويل عبر العالم السفلي، يصل دانتي وفيرجيل إلى قاع الجحيم. هناك لا يجدان مخرجاً، لكنّهما يسمعان خرير المياه تحتهما، فيتبعان الجدول الذي يجري بين الشقوق... ليصلا أخيراً إلى برّ الأمان.

من الواضح أنّ هذا المشهد هو الذي ألهم زوبريست لتأليف قصيدته، مع أنّه يبدو في هذه الحالة أنّ زوبريست قلَب كلّ شيء رأساً على عقب. سيتبع لانغدون والآخرون صوت خرير المياه، لكن خلافاً لدانتي، لن يخرجوا من الجحيم... بل سيدخلونه.

مع مرور الفان في شوارع إسطنبول الضيقة وأحيائها المكتظة، بدأ لانغدون يفهم المنطق العجيب الذي دفع زوبريست إلى اختيار إسطنبول كمركز لوبائه.

هنا يلتقي الشرق بالغرب.

إنّها تقاطع طرق العالم.

عانت إسطنبول من الأوبئة مرّات عديدة في تاريخها، وخسرت أعداداً هائلة من سكّانها. في الواقع، خلال المرحلة الأخيرة من الموت الأسود، سمّيت هذه المدينة معقل الطاعون في الإمبراطورية، وقيل إنّ المرض كان يقتل أكثر من عشرة آلاف شخص كلّ يوم. وتصوّر عدّة لوحات عثمانية شهيرة سكان المدينة وهم يحفرون الأرض لدفن أكوام من الجثث في الحقول المجاورة لتقسيم.

تمنّى لانغدون أن يكون كارل ماكس قد أخطأ حين قال: "التاريخ يعيد نفسه".

في الشوارع الممطرة، مرّ أشخاص منشغلون بأعمالهم المسائية. رأى امرأة تركية جميلة تنادي أطفالها لتناول العشاء، ورجلين عجوزَين يحتسيان القهوة في أحد مقاهي الرصيف، وزوجين أنيقين يمشيان يداً بيد تحت مظلّة، ورجلاً يترجّل من الحافلة ويركض حاملاً صندوق الكمنجة تحت سترته وقد تأخر عن إحدى الحفلات كما يبدو.

وجد لانغدون نفسه يتأمل وجوه الناس ويحاول أن يتخيل تفاصيل حياة كلّ منهم.

الجماهير مؤلّفة من أفراد.

أغمض عينيه، وأبعد وجهه عن النافذة، وطرد الأفكار السوداوية من رأسه. لكنّ الضرر كان قد وقع بالفعل؛ ففي ظلام عقله، تراءت له صورة غير مرغوب فيها، مشهد من انتصار الموت لبروغل، وهو عبارة عن منظر شنيع للطاعون، والبؤس، والعذاب في مدينة ساحلية.

انعطف الفان إلى اليمين، إلى جادة تورون، وللحظة اعتقد لانغدون أنّهم وصلوا إلى مقصدهم. ظهر إلى يساره في الضباب مسجد عظيم.

لكنّه لم يكن آيا صوفيا.

سرعان ما أدرك أنّه *المسجد الأزرق* عندما رأى البناء المؤلّف من ستّة طوابق، ومآذنه المبنية على شكل أقلام رصاص، بشرفاتها العديدة. كان لانغدون قد قرأ مرّة أنّ الجمال الخرافي لمآذن المسجد الأزرق كان مصدر إلهام قصر سندريلا في عالم ديزني. يستمدّ المسجد الأزرق اسمه من بحر البلاط الأزرق الذي يزيّن جدرانه الداخلية.

عرف لانغدون أنّهم اقتربوا مع تقدّم الفان الذي انعطف إلى جادة كاباساكال، وعبَر الساحة الواسعة في حديقة السلطان أحمد التي تقع بين المسجد الأزرق وآيا صوفيا وتشتهر بإطلالتها على المعلمين.

حدق لانغدون عبر الزجاج الأمامي المبلّل بماء المطر وهو يبحث في الأفق عن آيا صوفيا، لكنّ المطر وأضواء السيّارات جعلت الرؤية صعبة. والأسوأ من ذلك أنّ حركة السير في الجادة بدا أنّها توقفت.

لم ير لانغدون أمامهم سوى صفّ من أضواء السيّارات المتوقفة.

أعلن السائق: "ثمّة حدث ما، حفلة موسيقية حسبما أعتقد. ربّما كانت متابعة الطريق سيراً على الأقدام أسرع".

سألته سينسكي: "كم نبعد؟".

"ما عليكم سوى عبور الحديقة، يتطلّب اجتيازها ثلاث دقائق".

أومأت سينسكي لبرودر، ثمّ التفتت إلى فريق المراقبة والدعم. "ابقوا في الفان، واقتربوا من المبنى قدر الإمكان. سيتصل بكم العميل برودر قريباً".

وهكذا، ترجّل كلّ من برودر ولانغدون وسينسكي من الفان، وتابعوا طريقهم سيراً على الأقدام في الحديقة.

وفّرت أشجار حديقة السلطان أحمد بأغصانها الوارفة مظلّة من الأمطار المتزايدة مع تقدّم المجموعة عبرها. كانت الطرقات مليئة باللافتات التي توجّه السياح إلى مختلف معالم الحديقة، كالمسلّة المصرية من الأقصر، وعمود الثعبان من معبد أبولو في ديلفي، وعمود مليون الذي كان يشكّل في الماضي "نقطة الصفر" التي تقاس منها كلّ المسافات في الإمبراطورية البيزنطية.

أخيراً، خرجوا من بين الأشجار ووصلوا إلى حوض دائري يقع في وسط الحديقة. وقف لانغدون ونظر شرقاً.

آيا صوفيا.

بدت أقرب إلى جبل منها... إلى مبنى.

كان البناء الضخم يلمع بفعل المطر، وبدا مدينة بحدّ ذاته. ارتفعت قبّته المركزية التي كانت عريضة ومطعّمة باللون الفضّي فوق مجموعة من القبب الأخرى. حدّدت زواياه الأربع أربع منارات، تحتوي كلّ منها على شرفة واحدة ومستدقّة فضّية، وارتفعت فوق زوايا المبنى، بعيداً عن القبّة المركزية؛ حيث بدت وكأنّها لا تنتمي إلى بناء واحد.

توقف سينسكي وبرودر مندهشين وارتفعت أنظارهما إلى الأعلى... في حين حاولا استيعاب ضخامة المبنى.

قال برودر غير مصدّق: "يا إلهي، هل سنفتّش... *هذا*؟".

الفصل 86

شعر العميد أنّه أسير وهو يذرع أرض الطائرة المتوقّفة على أرض المدرج. لقد وافق على المجيء إلى إسطنبول لمساعدة سينسكي على إيجاد حلّ للأزمة قبل خروجها عن السيطرة تماماً.

لم يغب عن بال العميد أنّ التعاون مع سينسكي قد يخفّف من انعكاسات تورطه في هذه الأزمة. *لكنّ سينسكي تحتجزني الآن.*

ما إن هبطت الطائرة في مطار أتاتورك، حتّى غادرتها سينسكي مع فريقها وأمرت العميد والعدد القليل من موظفيه بالبقاء على متنها.

حاول العميد الخروج لتنشّق الهواء، لكنّ الطيارين منعوه وذكّروه أنّ د. سينسكي طلبت بقاء الجميع في الطائرة.

لم يستسغ العميد ذلك، فجلس يفكر في مستقبله الغامض.

كان معتاداً منذ مدّة طويلة على أن يكون هو السيّد، والسلطة العليا، لكنّه وجد نفسه فجأة مجرّداً من كلّ نفوذه.

زوبريست، سيينّا، سينسكي.

كلّهم تحدّوه... وتلاعبوا به.

وها هو الآن محتجز على متن طائرة نقل من دون نوافذ، حيث بدأ يتساءل عمّا إذا كان قد خسر حسن حظّه... وعمّا إذا كانت هذه الحالة التي وصل إليها نتيجة حياة عاشها في الخداع.

أنا أكسب رزقي بالكذب.

وأزوّد الناس بالمعلومات الخاطئة.

لم يكن العميد الشخص الوحيد في العالم الذي يبيع الأكاذيب، إلاّ أنّه جعل نفسه السمكة الكبرى في الحوض. كانت الأسماك الأخرى بالنسبة إليه من فصيلة أخرى في الأساس، ويكره التشبّه بها.

تتوفر على شبكة الإنترنت شركات وشبكات وهمية صنعت ثروات في مختلف أنحاء العالم من خلال توفيرها طريقة للزوجات لخيانة أزواجهنّ من دون أن يُكشف أمرهنّ. كانت تلك المنظمات – البارعة في صناعة الأكاذيب – تعد بإيقاف الزمن لمدّة وجيزة لكي يتمكن زبائنها من الفرار من الأزواج أو الزوجات أو الأطفال، كما تزيّف عقود أعمال، ومواعيد أطبّاء، وحتّى

حفلات زفاف، وكلّها تتضمّن دعوات هاتفية، ومنشورات، وتذاكر سفر، ونماذج حجز في الفنادق، وحتّى أرقام هواتف خاصّة ترنّ في الشركة الوهمية، ويردّ عليها أشخاص يدّعي كلّ منهم أنّه عامل الاستعلامات أو الشخص المقصود.

غير أنّ العميد لم يضع وقته قطّ في مثل تلك التفاهات، ولم يستلم سوى عمليات خداع على نطاق واسع، وقدّم خدماته لمن يستطيع دفع ملايين الدولارات من أجل الحصول على أفضل النتائج؛ من حكومات، ومؤسسات كبرى، وأشخاص مهمين فاحشي الثراء.

لكي يحقّق أولئك الزبائن أهدافهم، كانوا يجدون في متناولهم أصول الكونسورتيوم كافة، وموظفيه، وخبرته، وإبداعه. لكن الأهمّ من كلّ ذلك أنّهم كانوا يحصلون على الإنكار، أي التأكيد على أنّه أيًّا تكن الكذبة التي لُفّقت لدعم عمليّة الخداع، فلن يُذكر اسمهم.

سواء أكان الهدف دعم سوق بورصة، أو تبرير حرب، أو الفوز في انتخابات، أو استدراج إرهابي للخروج من مخبئه، فإنّ سماسرة السلطة في العالم يعتمدون على معلومات مضلّلة هائلة للمساعدة على خداع الرأي العام.

لطالما جرت الأمور كذلك.

في ستينيات القرن الماضي، أسس الروس شبكة تجسس وهمية كاملة. أعطت معلومات استخبارية مزيّفة اعترضها البريطانيون لسنوات. وفي عام 1947، قامت القوات الجوية الأميركية بتصنيع خدعة متقنة لتحويل الانتباه عن تحطّم طائرة سرّية في روسويل، في نيو ميكسيكو. ومؤخراً، تمّ دفع العالم إلى الاعتقاد أنّ العراق يملك أسلحة للدمار الشامل.

لمدّة ثلاثة عقود تقريباً، ساعد العميد أشخاصاً نافذين على حماية سلطتهم والحفاظ عليها ومضاعفتها. ومع أنّه حرص على اختيار الأعمال التي تُعرض عليه، إلاّ أنّه خشي دائماً من أن يخطئ يوماً في اختيار الزبون.

وها قد أتى ذاك اليوم.

فبنظر العميد، كل انهيار يرجع إلى لحظة واحدة؛ لقاء صدفة، أو قرار خاطئ، أو نظرة في غير محلّها.

في حالته، ترجع تلك اللحظة إلى عشرة أعوام مضت تقريباً؛ عندما وافق على توظيف طالبة طبّ تبحث عن عمل يوفّر لها المال. كانت تلك الطالبة هي سيينّا بروكس، وسرعان ما تحوّلت بفضل مواهبها الفذّة إلى عميل أساسي في الكونسورتيوم.

فهمت سيينّا فوراً طريقة عمل المنظّمة، وشعر العميد أنّها معتادة هي نفسها على حفظ الأسرار.

عملت لديه مدّة عامين تقريباً، وكسبت مبلغاً كبيراً من المال ساعدها على دفع أقساط الجامعة. فجأة، أعلنت أنّها ترغب في التوقّف. وقالت إنّها تريد أن تنقذ العالم، ولا يمكنها فعل ذلك هنا.

لكنّها عادت بعد عشر سنوات تقريباً، وأحضرت زبوناً فاحش الثراء.

بيرتراند زوبريست.

ارتجف العميد عند تذكر ذلك.

ذلك هو خطأ سيينّا.

لقد شاركت في مخطّطات زوبريست منذ البداية.

في الجوار، أصبح النقاش حامياً بين المجتمعين إلى طاولة الاجتماعات على متن الطائرة، حيث كان موظفو منظّمة الصحّة العالمية يتحدّثون ويتجادلون عبر الهاتف.

صاح أحدهم: "سيينّا بروكس؟! هل أنت واثق؟". ثم أضاف بعدما أصغى قليلاً: "حسناً، أعطني التفاصيل. سأنتظر".

غطّى السمّاعة وقال لزملائه: "يبدو أنّ سيينّا بروكس قد غادرت إيطاليا بعدنا بوقت قصير".

توتّر كلّ الحاضرين.

قالت إحدى الموظفات: "لقد راقبنا المطار، والجسور، ومحطة القطار...".

أجابها: "مطار نيتشيلّي، في الليدو".

هزّت المرأة رأسها. "هذا مستحيل. إن مطار نيتشيلّي صغير جدًّا، ولا تنطلق منه أيّ رحلات، ولا يستقبل سوى جولات محلية بالطائرات المروحية -".

"يبدو أنّ سيينّا بروكس قد تمكّنت من الوصول إلى طائرة خاصّة متوقفة في نيتشيلّي. ما زالوا يبحثون في الأمر". أعاد السماعة إلى أذنه مجدّداً. "أجل، أنا معك. ماذا لديك؟". وفيما كان يصغي إلى المعلومات، راحت كتفاه تنخفضان تدريجيًّا إلى أن جلس على أحد المقاعد. "فهمت، شكراً". وأنهى المكالمة.

حدق إليه زملاؤه بترقّب.

قال وهو يفرك عينيه: "توجهت طائرة سيينّا إلى تركيا".

قال أحدهم: "إذاً اتصل بمركز قيادة النقل الجوي الأوروبي، واطلب منهم تحويل مسار الطائرة".

"هذا غير ممكن. لقد هبطت الطائرة قبل اثنتي عشرة دقيقة في مطار هيزارفن الخاصّ، على بعد خمسة عشر ميلاً من هنا. وقد غادرتها سيينّا بروكس".

الفصل 87

كان المطر يتساقط الآن على القبّة القديمة لآيا صوفيا.

ظلّت لألف عام تقريباً أكبر كنيسة في العالم. وحتّى هذا اليوم، من الصعب تخيّل بناء أكبر منها. عندما رآها لانغدون مجدداً، تذكّر أنّه عند انتهاء بناء آيا صوفيا، تراجع الإمبراطور جوستينيان وأعلن بفخر: "لقد تفوّقتُ عليك يا سليمان!".

تقدّمت سينسكي وبرودر نحو المبنى الضخم الذي بدا كما لو كان يزداد حجماً كلما اقتربوا منه.

اصطفّت في الأروقة طلقات المدافع التي استخدمتها قوات محمد الفاتح؛ للتذكير أنّ تاريخ هذا المبنى كان مليئاً بالعنف لأنه تم الاستيلاء عليه مرات عديدة، وتغيير أغراضه خدمة للاحتياجات الروحية للقوى المنتصرة.

لدى اقترابهم من الواجهة الجنوبية، نظر لانغدون إلى اليمين، إلى القبب الثلاث البارزة من المبنى، والتي تبدو كما لو أنها زوائد. كانت تلك هي أضرحة السلاطين، وأحدهم هو مراد الثالث الذي قيل إنّه أنجب أكثر من مائة طفل.

رنّ الهاتف المحمول، فردّ عليه برودر باقتضاب: "هل من أخبار؟".

أصغى إلى التقرير، ثمّ هز رأسه من دون تصديق: "كيف حصل ذلك!؟". تنهد مضيفاً: "حسناً، أبقني على اطّلاع. نحن على وشك الدخول". ثمّ أنهى الاتصال.

سألته سينسكي: "ما الأمر؟".

قال وهو ينظر حوله: "انتبها، يبدو أنّ سيينّا بروكس أصبحت في إسطنبول".

فوجئ لانغدون لأنّ سيينّا تمكّنت من الوصول إلى تركيا والفرار من البندقية، وهي الآن تخاطر بحياتها من أجل إنجاح خطّة بيرتراند زوبريست.

بدا القلق على سينسكي أيضاً التي أخذت نفساً عميقاً وكأنها تستعدّ لطرح المزيد من الأسئلة على برودر، بيد أنّها صمتت والتفتت إلى لانغدون. "أيّ طريق نسلك؟".

أشار لانغدون إلى اليسار، حول الزاوية الجنوبية الغربية للمبنى. "نافورة الوضوء تقع هناك".

كانت نقطة اللقاء مع القيم على المتحف عند نافورة جميلة استخدمت في الماضي للوضوء قبل أداء الصلاة.

هتف شخص وهو يقترب منهم: "بروفيسور لانغدون!".

اقترب رجل تركي مبتسم من تحت قبة مثمّنة الأضلاع تغطّي النافورة. كان يلوّح بذراعيه بحماسة قائلاً: "بروفيسور، أنا هنا!".

أسرع لانغدون والآخرون نحوه.

قال بلكنة ثقيلة: "مرحباً، اسمي ميرسات". كان صوته يفيض حماسة. كان رجلاً نحيلاً وخفيف الشعر، يضع نظارة ويرتدي بذلة رمادية. "هذا شرف كبير لي".

صافحه لانغدون قائلاً: "الشرف لي. شكراً لك على استقبالنا بهذا الشكل العاجل".

"أهلاً بكم!".

صافحته إليزابيث قائلة: "أنا إليزابيث سينسكي". ثمّ أشارت إلى برودر: "وهذا كريستوف برودر. نحن هنا لمساعدة البروفيسور لانغدون. أنا آسفة على تأخر الطائرة ونشكرك على استقبالك لنا".

"لا شكر على واجب. أنا جاهز لاصطحاب البروفيسور لانغدون في زيارة خاصة في أيّ وقت. فكتابه الذي يحمل عنوان *الرموز المسيحية في العالم الإسلامي* من بين الكتب المفضلة لديّ في مكتبة المتحف".

تساءل لانغدون: *حقاً؟ عرفت الآن المكان الوحيد في العالم الذي يحتفظ بهذا الكتاب.*

"هلاّ تفضّلتم". وأشار لهم ميرسات ليتبعوه.

أسرعت المجموعة عبر الباحة، وعبرت مدخل السياح المعتاد، ثمّ تابعت طريقها إلى ما كان في الأساس المدخل الرئيس للمبنى، والذي يمتاز بثلاث قناطر متراجعة ذات أبواب برونزية ضخمة.

كان باستقبالهم حارسان مسلّحان. لدى رؤيتهما ميرسات، قام الحارسان بفتح الباب.

شكرهما ميرسات بإحدى عبارات الشكر التركية العديدة التي كان لانغدون يعرفها.

دخلت المجموعة، وأقفل الحارسان الباب خلفهم، فتردد صوت إغلاق الباب داخل المبنى.

كان لانغدون والباقون يقفون الآن في صحن آيا صوفيا، وهو عبارة عن قاعة انتظار شائعة في الكنائس المسيحية.

توجهوا نحو باب آخر فتحه ميرسات. رأى لانغدون خلفه صحناً آخر؛ أكبر من الأول بقليل. فتذكر أنّ آيا صوفيا تضم مستويين من الحماية من العالم الخارجي.

كان هذا الصحن يمتاز بقدر أكبر من الزخرفة، وكأنه يُعِدّ الزائر لما ينتظره. كانت جدرانه مصنوعة من الحجر المصقول الذي توهج تحت ضوء الثريات الأنيقة. من الجهة الأخرى، رأى لانغدون أربعة أبواب، تعلوها فسيفساء رائعة أثارت إعجابه.

اقترب ميرسات من أكبر الأبواب الذي كان عبارة عن باب ضخم مكسوّ بالبرونز، وهمس بحماسة: "هذا باب الإمبراطور. ففي العهد البيزنطي، كان هذا الباب مخصصاً للإمبراطور وحده. وعادة، لا يدخل منه السياح، لكنّ هذه الليلة خاصة".

عندما وصل ميرسات إلى الباب، توقّف وهمس: "قبل أن ندخل، أودّ أن أعرف إن كان ثمّة مكان معين ترغبون في رؤيته".

نظر الثلاثة إلى بعضهم بعضاً.

قال لانغدون: "بالطبع، ثمّة الكثير لنراه. لكنْ إن أمكن، نرغب بداية في رؤية قبر إنريكو داندولو".

فوجئ ميرسات وظنّ أنّه أخطأ في الفهم: "المعذرة؟! أتريدون زيارة... قبر داندولو؟".

"أجل".

بدت عليه الخيبة. "لكن، سيدي... القبر عادي جدًّا ولا يحتوي على أيّ رموز. لدينا ما هو أجمل بكثير".

قال لانغدون بتهذيب: "أدرك ذلك، لكنّنا سنكون ممتنّين لك إن أخذتنا إلى هناك".

تأمل ميرسات لانغدون مطوّلاً، ثمّ نظر إلى الأعلى، إلى الفسيفساء الموجودة فوق الباب مباشرة والتي كان لانغدون يتأمّلها بإعجاب. كانت عبارة عن صورة للمسيح ترجع إلى القرن التاسع عشر، وهي صورة أيقونية يحمل فيها المسيح العهد الجديد بيده اليسرى ويبارك بيده اليمنى.

ابتسم ميرسات، كما لو أنّ فكرة ما خطرت فجأة في باله، وبدأ يهزّ إصبعه قائلاً: "أنتَ رجل ذكي! ذكي جدًّا!".

قال لانغدون: "المعذرة؟".

همس ميرسات بنبرة تواطؤ: "لا تقلق بروفيسور، لن أخبر أحداً عن السبب *الحقيقي* لوجودك هنا".

نظرت سينسكي وبرودر إلى لانغدون باستغراب، فهزّ كتفيه من دون أن يفهم شيئاً، في حين فتح ميرسات باباً وأدخلهم منه.

الفصل 88

وصف البعض المكان بأنّه ثامن العجائب في العالم، وشعر لانغدون وهو واقف هناك أنّه يوافقهم تماماً.

مع دخول المجموعة القاعة المهيبة، تذكر أنّ زوار آيا صوفيا سرعان ما يقعون تحت تأثير عظمتها وضخامة مقاييسها.

كانت القاعة ضخمة جدًّا؛ إلى درجة أنّها تنافس أعظم الكاتدرائيات في أوروبا. وكان لانغدون يعرف أنّ ضخامتها ترجع جزئياً إلى الوهم؛ وهو تأثير جانبي ناتج عن مخطط الأرض البيزنطي، مع ناووس مركزي يجعل داخل القاعة يتركز في غرفة مربعة واحدة عوضاً عن امتداده على أربع أذرع متصالبة، مثل النمط المعتمد في الكاتدرائيات اللاحقة.

هذا البناء أقدم من نوتردام بسبعمائة عام.

بعد ذلك، نظر لانغدون إلى السقف؛ إلى القبّة الذهبية التي تتوّج القاعة على ارتفاع يتجاوز مائة وخمسين قدماً. من مركز القبّة، يمتد أربعون ضلعاً إلى الخارج مثل أشعة الشمس، وذلك في عقد دائري من أربعين نافذة مقنطرة. في ساعات النهار، ينعكس الضوء الذي يتسلّل من هذه النوافذ عدة مرات على شظايا زجاجية مضمّنة في البلاط الذهبي، مولّداً "ضوءاً باطنياً" اشتُهرت به آيا صوفيا.

كان لانغدون قد رأى هذا الجو الذهبي مصوراً بدقة في عمل فني واحد على يد جون سينجر سارجنت. ولا عجب أنّ الألوان التي استخدمها الفنان الأميركي في لوحته الشهيرة قد اقتصرت على ظلال لون واحد.

الذهب.

غالباً ما كانت القبّة الذهبية اللامعة تسمّى "قبّة السماء نفسها"، وكانت مدعمة بأربع قناطر كبيرة، ترتكز بدورها على سلسلة من أنصاف القبب والأجزاء الغائرة، وتستند هذه الدعائم على طبقة تنازلية أخرى من أنصاف القبب الأصغر حجماً؛ الأمر الذي يولّد تأثير سلسلة من الأشكال المعمارية التي تشق طريقها من السماء إلى الأرض.

امتدت كذلك من السماء إلى الأرض – وإن بطريقة مباشرة أكثر – أسلاك طويلة؛ امتدّت من القبّة مشكّلة ركيزة لبحر من الثريات اللامعة التي بدت معلقة على علو منخفض فوق الأرض، حيث يوشك الزوار ذوو القامات الطويلة على الارتطام بها. لكن هذا الوهم ناتج أيضاً عن ضخامة المكان، وذلك لأنّ الأضواء ترتفع أكثر من اثني عشر قدماً عن الأرض.

كما هو حال جميع دور العبادة العظيمة، كان حجم آيا صوفيا الهائل ذا مغزيين. الأوّل أنّه دليل على ما يستطيع الإنسان فعله تمجيداً للخالق. والثاني أنّه يشكل نوعاً من العلاج بالصدمة للمؤمنين؛ فالبناء المهيب يقزّم الداخل إليه ويمحو غروره، فيشعر بتقلّص أهميته وتضاؤل كينونته الجسدية أمام بقعة واحدة في هذا الكون... ليست سوى ذرة بين يدي الخالق.

نظر لانغدون إلى برودر وسينسكي اللذين كانا يحدقان إلى الأعلى، قبل أن يخفضا أنظارهما إلى الأرض.

قال برودر: "يا يسوع!".

فقال ميرسات بحماسة: "أجل، والله و"محمّد" أيضاً!".

ضحك لانغدون، في حين أشار لهم الرجل إلى المذبح الأساسي الذي تعلوه فسيفساء كبيرة للمسيح، ويحيط بها قرصان كبيران يحملان كلمتي الله ومحمد بالخط العربي.

شرح ميرسات: "لتذكير الزوار بمختلف استعمالات هذا المبنى، يعرض المتحف صوراً أيقونية مسيحية ترجع إلى العهد الذي كانت فيه آيا صوفيا بازيليك، فضلاً عن تحف إسلامية من الزمن الذي كانت فيه مسجداً". ابتسم بفخر مضيفاً: "على الرغم من الاحتكاكات بين الديانتين في عالم الواقع، إلاّ أنّ رموزهما تنسجم تماماً. أعلم أنّك توافقني الرأي بروفيسور".

وافقه لانغدون بإيماءة من رأسه، وتذكر أنّ كلّ الصور الأيقونية المسيحية طليت باللون الأبيض عندما أصبح البناء مسجداً. واسترجاع الرموز المسيحية إلى جانب الرموز الإسلامية شكّل تأثيراً فاتناً، لا سيما وأنّ أساليب كلّ من فنّاني الديانتين متناقضة تماماً.

ففي حين تفضّل التقاليد المسيحية رسم صور حرفية لرموزها الدينية، كان الإسلام يركّز على علم الخطّ والأشكال الهندسية لتمثيل جمال الكون. فبحسب التقليد الإسلامي، وحده الله هو القادر على خلق الحياة، ولا يجوز للإنسان رسم صور للحياة، سواء أكانت لله، أو الأشخاص أو حتى الحيوانات.

تذكر لانغدون كيف حاول شرح ذلك لطلاّبه: "لو كان مايكل أنجلو مسلماً، لما أقدم مطلقاً على رسم الله على سقف الكنيسة السيستانية، بل لكتب اسمه وحسب. فتصوير الله يعتبر تجديفاً".

وراح يشرح لهم سبب ذلك.

"كلّ من الديانتين الإسلامية والمسيحية تركّز على الرموز، أي على الكلمة. في المسيحية، أصبحت الكلمة جسداً. لهذا، كان تصوير الكلمة في شكل بشري أمراً مقبولاً. أمّا في الإسلام، فلم تصبح الكلمة جسداً، لذلك يجب أن تبقى كلمة... فتم تصوير الرموز الدينية في كتابات".

يومذاك، أوجز أحد طلابه ذلك التاريخ المعقّد بملاحظة هامشية دقيقة ومرحة: "المسيحيون يحبون الوجوه، أمّا المسلمون فيحبّون الكلمات".

تابع ميرسات مشيراً إلى أنحاء القاعة الرائعة: "هنا أمامنا، نرى مزيجاً فريداً للمسيحيّة والإسلام".

وأشار بسرعة إلى الانصهار بين الرموز في المحراب الضخم. في الجوار، ارتفع منبر الإمام الذي يشبه ذاك الذي تلقى من عليه العظات المسيحية. كذلك، كان البناء المجاور الذي

يشبه المنصّة – على غرار منصة الجوقة المسيحية – هو في الواقع المكان الذي يقف عليه المؤذن ليدعو إلى الصلاة.

قال ميرسات: "المساجد والكاتدرائيات متشابهة جداً. فعادات الشرق والغرب ليست متعارضة بقدر ما قد يظن البعض!".

قال برودر بنفاد صبر: "ميرسات؟ نودّ حقاً رؤية قبر داندولو إن أمكن".

بدا على ميرسات شيء من الانزعاج، كما لو أنّ برودر يظهر عدم احترام للمبنى.

قال لانغدون: "أجل، أنا آسف، لكن وقتنا ضيّق جداً".

قال ميرسات: "حسناً، لنصعد إلى الأعلى ولنزرَ القبر". وأشار إلى شرفة عالية إلى اليمين.

قال لانغدون: "إلى الأعلى؟ أليس داندولو مدفوناً في القبو؟". كان لانغدون يذكر القبر، لكنّه لا يذكر موقعه بالضبط. فتخيّل مكاناً مظلماً تحت الأرض.

استغرب ميرسات السؤال: "كلاّ بروفيسور. قبر إنريكو داندولو في الطابق العلوي بكل تأكيد".

تساءل ميرسات: *ما الذي يجري هنا بالضبط؟!*

عندما طلب لانغدون رؤية قبر داندولو، اعتقد أنّه يفعل ذلك للتمويه. *لا أحد يرغب في رؤية قبر داندولو*. فافترض أنّ لانغدون يودّ رؤية الكنز الغامض الذي يقع مباشرة بجانب قبر داندولو، وهو عبارة عن لوحة فسيفساء تُعتبر الأكثر غموضاً في المبنى؛ *فسيفساء ديسيس*.

ظنّ أنّه يكتب شيئاً سرّياً عنها. ولا شكّ أنّه يعرف أنّها تقع في الطابق الثاني، فلماذا فوجئ؟

إلاّ إن كان يرغب بالفعل في رؤية قبر داندولو؟

قادهم ميرسات حائراً نحو الدّرج، ومرّ من أمام إحدى أشهر جرّتين في آيا صوفيا؛ جرة ضخمة سعة 330 غالوناً، منحوتة من قطعة رخام واحدة وترجع إلى الحقبة الهلنستية.

أثناء صعودهم الدّرج، شعر ميرسات بشيء من الانزعاج لأنّ مرافقَي لانغدون لم يبدُوَا أكاديميّين على الإطلاق. بل كان أحدهما أقرب إلى جندي، بجسده العضلي، وملابسه السوداء. أما المرأة ذات الشعر الفضّي، فشعر ميرسات أنّ ملامحها مألوفة. ربّما رآها على شاشة التلفاز.

تساءل عن سبب وجود هذه المجموعة هنا.

قال بمرح عندما صعدوا إلى الطابق الأوّل: "طابق واحد بعد وسنصل إلى قبر إنريكو داندولو، وبالطبع–" صمت ورمق لانغدون مضيفاً: *إلى فسيفساء ديسيس* الشهيرة".

لكنّه لم يجد أيّ بادرة اهتمام.

من الواضح أنّ لانغدون غير مهتمّ إطلاقاً بالفسيفساء. يبدو أنّ كلّ تركيزه ومرافقيه منصبّ على قبر داندولو.

الفصل 89

تقدّم ميرسات المجموعة على الدّرج، ولاحظ لانغدون أنّ برودر وسينسكي كانا قلقين. بالطبع، لا يبدو الصعود إلى الطابق الثاني منطقياً. ظل لانغدون يتخيل فيلم زوبريست المصوّر تحت الأرض... والفيلم الوثائقي عن المناطق المغمورة بالمياه تحت آيا صوفيا.

علينا النزول إلى الأسفل.

لكن، إن كان قبر داندولو هناك، فما عليهم سوى اتباع تعليمات زوبريست. *اركع في الموزيون الذهبي للحكمة المقدّسة، وضَعْ أذناً صاغية على الأرض، لتسمع خرير المياه.*

عندما وصلوا أخيراً إلى الطابق الثاني، قادهم ميرسات إلى اليمين على طول الشرفة التي تطل على مناظر خلابة للحرم في الأسفل. مشى لانغدون في المقدمة، وحاول حصر تركيزه.

عاد ميرسات يتحدّث عن الفسيفساء، لكنّ لانغدون كان يفكّر في أمر مختلف تماماً.

أخيراً، رأى هدفه.

قبر داندولو.

بدا القبر تماماً كما تذكّره؛ قطعة مستطيلة من الرخام الأبيض، مدمجة في الأرضية الحجرية، ومحاطة بالدعائم والسلاسل.

اندفع وتفحّص النقش.

هنريكوس داندولو

لحق الثلاثة الآخرون بلانغدون الذي تجاوز الحاجز، ووقف أمام القبر تماماً.

اعترض ميرسات بصوت عالٍ، لكنّ لانغدون لم يأبه، بل ركع وكأنه يستعد للصلاة عند قبر الدوج الخائن.

وفي خطوة روّعت ميرسات، وضع لانغدون يديه على القبر وأخفض رأسه، وعندئذ لاحظ أنّه بدا وكأنه يسجُد. هذه الحركة أذهلت ميرسات الذي صمت تماماً، وخيّم الهدوء على المبنى بأكمله.

أخذ لانغدون نفساً عميقاً، ثمّ أدار رأسه إلى اليمين، ووضع أذنه اليسرى فوق القبر. شعر ببرودة الحجر تحت بشرته.

كان الصوت الذي سمعه يتردّد عبر الأرض واضحاً وضوح الشمس.

يا إلهي.

شعر كما لو أنّ خاتمة جحيم دانتي تتردّد من الأسفل.

أدار لانغدون رأسه ببطء، ونظر إلى سينسكي وبرودر.

همس: "إنّني أسمع صوت خرير المياه".

تخطّى برودر السلاسل، وركع بالقرب من لانغدون ليصغي بدوره. بعد قليل، راح يهز رأسه هو أيضاً.

الآن، بعدما سمعا خرير المياه، بقي سؤال واحد: *إلى أين يتجه الماء؟*

فجأة، تزاحمت في ذهن لانغدون صور لكهف شبه مغمور بالمياه، يسوده ضوء أحمر مخيف... يقع في مكان ما تحتهم.

اهبط إلى أعماق القصر الغارق...
فهناك، في الظلام، ينتظر الوحش القابع في العالم السفلي،
مغموراً بمياه حمراء كالدم...
مياه البحيرة التي لا تعكس النجوم.

عندما نهض لانغدون وعاد من فوق السلاسل، كان ميرسات يحدق إليه باستغراب واضح.

قال لانغدون: "ميرسات، أنا آسف. كما ترى، هذا وضع غير اعتيادي. لا وقت للشرح، لكنّ لديّ سؤالاً هامًّا جداً عن هذا المبنى".

هزّ ميرسات رأسه. "تفضّل".

"يمكننا أن نسمع هنا، عند قبر داندولو، خرير جدول مياه يتدفق تحت الأرض. نريد أن نعرف *أين* يجري هذا الماء".

استغرب ميرسات. "لا أفهم. يمكن سماع جريان الماء في كلّ مكان في آيا صوفيا".

فوجئ الجميع.

قال ميرسات: "أجل، لا سيّما عندما تمطر. فمساحة أسطح آيا صوفيا تبلغ حوالى مائة ألف قدم مربعة، وهذه الأسطح يجب أن تصرّف مياه المطر، وهو أمر غالباً ما يستغرق أياماً. عادة، يتساقط المطر مجدداً قبل أن ينتهي التصريف. لذلك، إنّ صوت خرير المياه شائع هنا. ربّما كنت تعرف أنّ آيا صوفيا ترتكز على كهوف تحتوي على الماء. حتى إنّه ثمّة وثائقي –".

قال لانغدون: "أجل، أجل، لكن هل يذهب هذا الماء إلى مكان محدّد؟".

أجاب ميرسات: "بالطبع، يصبّ في المكان نفسه الذي تصبّ فيه كلّ المياه التي تهطل على آيا صوفيا؛ في خزّان المدينة".

قال برودر وهو يعود من فوق السلاسل: "كلاّ. نحن لا نبحث عن خزّان، بل عن قاعة كبيرة تحت الأرض فيها أعمدة".

أجاب ميرسات: "هذا هو بالضبط شكل خزّان المدينة؛ إنّه قاعة كبيرة تحت الأرض فيها أعمدة. إنّها مثيرة للإعجاب في الواقع. بنيت في القرن السادس لتخزين المياه العذبة، لكنّها لا تحتوي الآن سوى على أربع أقدام تقريباً من المياه، لكن -".

قاطعه برودر بصوته الذي تردد في القاعة الخالية: "وأين هو؟".

سأله ميرسات بنبرة مشوبة بالخوف: "الخزّان؟ على مسافة قريبة من هنا، شرق هذا المبنى، يسمّى يريباتان ساراي".

تساءل لانغدون، *ساراي؟ مثل توبكابي ساراي؟* كانت اللافتات التي تشير إلى قصر توبكابي منتشرة في كلّ مكان في طريقهم إلى هنا. "لكن... ألا تعني كلمة ساراي قصر؟".

قال ميرسات: "بلى، اسم الخزّان القديم يريباتان ساراي، ومعناه *القصر الغارق*".

الفصل 90

كان المطر ينهمر بغزارة عندما خرجت المجموعة من آيا صوفيا مع دليلها المربَك.

فكرت سينسكي: *اهبط إلى أعماق القصر الغارق.*

يبدو أنّ خزان المدينة، يريباتان ساراي، يقع على مقربة من المسجد الأزرق، نحو الشمال.

قاد ميرسات الزوار الثلاثة.

لم يكن أمام سينسكي أيّ خيار سوى إخباره بهويّاتهم، وأنهم أتوا لتطويق أزمة صحية محتملة داخل القصر الغارق.

قادهم ميرسات عبر الحديقة المظلمة قائلاً: "من هنا!". أصبحت آيا صوفيا خلفهم الآن، ومآذن المسجد الأزرق تلمع أمامهم.

أسرع العميل برودر إلى جانب سينسكي، وراح يتحدث عبر الهاتف مع رجاله، ويأمرهم بملاقاته عند مدخل الخزان. قال وهو يلهث: "يبدو أنّ زوبريست استهدف خزان المدينة. سأحتاج إلى مخطط لجميع الأقنية الداخلة والخارجة من الخزان. سنطبق بروتوكولات العزل والاحتواء كاملة، وسنحتاج إلى حواجز فيزيائية ومادية، مع –".

قاطعه ميرسات: "مهلاً، لقد أسأت فهمي. لم يعد الخزان يحتوي على مخزون مياه المدينة!".

أخفض برودر الهاتف وحدق إلى الدليل: "ماذا؟".

شرح ميرسات: "قديماً، كان الخزان يحتوي على الماء، لكننا نستخدم الآن الوسائل الحديثة".

توقّف برودر تحت إحدى الأشجار، وحذا الجميع حذوه.

قالت سينسكي: "ميرسات، هل أنت واثق أنّ أحداً لم يعد يشرب من ماء الخزان؟".

قال ميرسات: "بالطبع! الماء يتجمع هناك وحسب، ثمّ يتسرب لاحقاً إلى داخل الأرض".

تبادل الثلاثة نظرات قلق. لم تعرف سينسكي ما إذا كان يجدر بها أن تشعر بالارتياح أم القلق. *إن لم يكن الناس يشربون هذه المياه بانتظام، فلماذا اختار زوبريست تلويثها؟*

قال ميرسات: "عندما حدّثنا وسائل تخزين المياه منذ عقود، لم يعد الخزان مستخدماً، بل أصبح عبارة عن بركة كبيرة تحت الأرض، ولم يعد اليوم سوى معلم سياحي".

التفتت سينسكي إلى ميرسات. *معلم سياحي!* "مهلاً... هل ينزل الناس إلى الخزان؟".

"بالطبع، عدّة آلاف يزورونه يوميًا، فالمكان رائع. ثمّة مماشٍ خشبية فوق الماء... ومقهى صغير. التهوئة محدودة، لذلك يكون الهواء رطباً وخانقاً، لكنه رغم ذلك مكان شعبي".

نظرت سينسكي إلى برودر، وعرفت أنّ العميل الخبير يفكر في الشيء نفسه؛ إنّ كهفاً رطباً ومظلماً ومليئاً بالمياه الراكدة هو أفضل حاضنة للأمراض. ويكتمل الكابوس بوجود مماشٍ عريضة يسير عليها السياح طوال النهار، فوق سطح الماء تماماً.

أعلن برودر قائلاً: "لقد صنع وباء ينتقل عبر الهواء".

هزت سينسكي رأسها باستسلام.

صمت لانغدون، ولاحظت سينسكي أنّه يحاول استيعاب حجم الأزمة.

كان الوباء الذي ينتقل عبر الهواء من بين السيناريوهات التي فكرت فيها سينسكي لبعض الوقت، لكن عندما علمت أنّ الخزان يحتوي على مياه المدينة العذبة، أملت أن يكون زوبريست قد صنع وباء ينتقل عبر المياه. فالبكتيريا التي تعيش في الماء قوية ومقاومة لعوامل الطقس، لكنها بطيئة الانتشار.

أمّا الأوبئة التي تنتقل عبر الهواء، فتنتشر بسرعة.

بسرعة كبيرة.

قال برودر: "بما أنّه ينتقل عبر الهواء، فهذا يعني أنّه فيروس على الأرجح".

وافقته سينسكي الرأي؛ *إنّه فيروس. هذا هو الوباء الأسرع انتشاراً الذي يمكن أن يختاره زوبريست.*

كان نشر الوباء تحت المياه أمراً غير معتاد، لكن ثمّة الكثير من أشكال الحياة التي تمضي فترة حضانتها في السائل، ثمّ تنتقل إلى الهواء؛ كالبعوض، وجراثيم العفن، والبكتيريا التي تسبب مرض المحاربين، والسموم الفطرية، وحتّى البشر. تخيّلت سينسكي الفيروس وهو ينتشر في مياه الخزان... ثمّ يتصاعد بخار المياه في الهواء الرطب.

كان ميرسات يحدق عبر الشارع المزدحم بقلق. تبعت سينسكي اتّجاه نظراته فرأت مبنى باللونين الأحمر والأبيض، بابه الوحيد مفتوح، وقد بدا منه درج. رأت عدداً من الناس الذين يرتدون ملابس أنيقة ينتظرون في الخارج حاملين المظلات، في حين قام حارس بمراقبة مرور الزوار الذين يهبطون الدّرج.

هل يوجد نادي رقص في الأسفل؟!

رأت سينسكي الأحرف الذهبية على المبنى، وشعرت بضيق مفاجئ في صدرها. إن كان هذا النادي يدعى الخزان، وبني في العام 523م، فهذا يفسر القلق الذي بدا على وجه ميرسات.

قال: "يبدو أنّ القصر الغارق... يستقبل حفلة موسيقية الليلة".

ذهلت سينسكي. "حفلة موسيقية في خزان!!".

أجابها: "المكان في الداخل كبير، وغالباً ما يستعمل كمركز ثقافي".

كان برودر قد سمع ما فيه الكفاية، فانطلق باتجاه المبنى، وهو يشقّ طريقه بين السيّارات التي تزدحم بها جادة أليمدار. تبعه الباقون، وأخذوا يركضون في أعقابه.

عندما وصلوا إلى باب الخزان، لم يتمكنوا من الدخول بسبب وجود مجموعة من الزوار الذين ينتظرون أن يسمح لهم بالدخول لحضور الحفلة الموسيقية. ثلاث نساء يرتدين العباءات، وسائحان يمسكان بيدي بعضهما، ورجل يرتدي بذلة رسمية. كانوا متجمعين عند المدخل، وهم يحاولون اتّقاء المطر.

سمعت سينسكي نغمات موسيقى كلاسيكية للموسيقار بيرليوتز تتصاعد من الأسفل. لكنّها أحسّت أنّها لا تنسجم إطلاقاً مع شوارع إسطنبول.

لدى اقترابهم من المدخل، أحسّت بهواء دافئ يخرج من المكان؛ يهبّ من أعماق الأرض إلى خارج الكهف المغلق. لم يجلب الهواء معه إلى السطح صوت الكمنجات فحسب، بل روائح الرطوبة وجموع الناس.

جلب الهواء معه لسينسكي إحساساً عميقاً بالخوف.

خرجت مجموعة من السياح الذين كانوا يثرثرون بفرح، فسمح الحارس للمجموعة التالية بالنزول. اقترب برودر فوراً، لكنّ الحارس منعه قائلاً: "لحظة واحدة سيّدي. الخزان ممتلئ. انتظر قليلاً إلى أن يخرج زائر آخر، شكراً لك".

بدا برودر جاهزاً للدخول عنوة، لكنّ سينسكي وضعت يدها على كتفه وأبعدته جانباً.

قالت: "انتظر، الفريق آتٍ، ولا يمكنك تفتيش هذا المكان بمفردك". وأشارت إلى اللافتة المعلقة على الجدار بجانب الباب، مضيفة: "فالخزان ضخم جدًّا".

كانت اللافتة تصف قاعة تحت الأرض بحجم كاتدرائية، يعادل طولها طول ملعبَي كرة قدم تقريباً، ويتجاوز ارتفاع سقفها مائة ألف قدم مربّعة، تدعمه غابة من 336 عموداً رخامياً.

قال لانغدون وهو يقف على بعد عدّة ياردات: "انظرا، لن تصدّقا ذلك".

التفتت سينسكي إلى حيث أشار لانغدون إلى ملصق حفلة موسيقية معلّق على الجدار.

آه، يا إلهي.

كانت مديرة منظّمة الصحّة العالمية محقّة عندما قدّرت أنّ الموسيقى من النوع الرومنسي، لكنّ المعزوفة لم تكن من تأليف بيرليوتز، بل كانت لمؤلّف رومنسي آخر هو فرانز ليزت.

الليلة، وعميقاً تحت الأرض، كانت أوركسترا إسطنبول تعزف أشهر سيمفونية للموسيقار؛ سيمفونية دانتي التي استوحاها من نزول دانتي إلى الجحيم وعودته منه.

قال لانغدون وهو يقرأ الملصق: "إنّها تُعزف هنا منذ أسبوع، وهذا حفل مجّاني قدّمه واهب مجهول".

أدركت سينسكي هوية ذلك الواهب. لقد استخدم زوبريست خطة عمليّة وحشية. فهذا الأسبوع من الحفلات الموسيقية المجانية سيغري آلاف السيّاح الإضافيين بالنزول إلى هذا الخزان... لتنشّق الهواء الموبوء، ومن ثمّ العودة إلى منازلهم في بلدان أخرى.

قال الحارس لبرودر: "سيّدي، لدينا مكان لشخصين".

التفت برودر إلى سينسكي. "اتصلي بالسلطات المحلية. فنحن سنحتاج إلى دعمهم أيًا يكن ما سنجده. عند وصول أعضاء الفريق، اطلبي منهم الاتصال بي لإعطائهم آخر المعلومات. سأنزل لأحاول العثور على ذلك الشيء".

سألته سينسكي: "هل ستنزل من دون جهاز تنفّس؟! ماذا لو كانت المادة قد تسرّبت؟".

عبس برودر، ورفع يده أمام الهواء الساخن الذي يهبّ من الداخل. "أكره قول ذلك، لكن في هذه الحالة، أعتقد أنّ كلّ من في هذه المدينة قد التقط العدوى مسبقاً".

كانت سينسكي تفكر في الأمر نفسه، لكنّها لم تجرؤ على قول ذلك أمام لانغدون وميرسات.

أضاف برودر: "بالإضافة إلى ذلك، أعرف ما الذي سيحصل للنّاس عندما يدخل فريقي بالملابس الواقية. سننشر الذعر بينهم".

وافقت سينسكي برودر الرأي، فهو في النهاية متخصّص، وسبق له أن تواجد في ظروف مماثلة.

قال برودر: "خيارنا المنطقي الوحيد هو الافتراض أنّ الخزان ما زال آمناً، والقيام بدورنا لاحتواء الأزمة".

قالت سينسكي: "حسناً، قم بما عليك فعله".

قال لانغدون: "ثمّة مشكلة أخرى. ماذا عن سيينّا؟".

سأله برودر: "ماذا عنها؟".

"أيًّا تكن نواياها، فهي بارعة في اللغات، وربّما كانت تتكلم التركية".

"إذاً؟".

قال لانغدون: "سيينّا على علم بالمعاني الرمزية في القصيدة التي تشير إلى قصر غارق. وباللغة التركية، القصر الغارق يشير حرفياً إلى..." وأشار إلى لافتة يريباتان ساراي مضيفاً: "... هنا".

وافقته سينسكي. "هذا صحيح. ربّما عرفت ذلك ولم تذهب أساساً إلى آيا صوفيا".

نظر برودر إلى الباب وهو يشتم في سرّه. "حسناً، إن كانت في الأسفل وتخطط لشقّ الكيس قبل احتوائه، فهي ربّما لم تصل إليه بعد. فالمكان كبير جدًّا، وهي على الأرجح لا تعرف أين تبحث. ومع كلّ هذا الازدحام، ربّما لم تتمكن بعد من الغوص من دون أن يلاحظها أحد".

نادى الحارس برودر مجدّداً. "سيّدي، هل ترغب في الدخول الآن؟".

رأى برودر مجموعة أخرى من الزوار المقتربين، فأومأ للحارس أنّه آتٍ.

قال لانغدون: "أنا آتٍ معك".

التفت إليه برودر. "هذا مستحيل".

كانت نبرة لانغدون حازمة. "أيها العميل برودر، من أسباب وجودنا في هذا الوضع أنّ سيينّا بروكس كانت تتلاعب بي طوال اليوم. وكما سبق وقلت، ربّما التقطنا العدوى أساساً. سأساعدك سواء أوافقت أم لا".

حدق إليه برودر، ثمّ استسلم.

ما إن دخل لانغدون وبدأ ينزل الدّرج خلف برودر حتّى شعر بالهواء الرطب يندفع نحوهما من أحشاء الخزان. حمل النسيم المشبع بالرطوبة معه نغمات سيمفونية دانتي ورائحة مألوفة ومنفرة... ناتجة عن تجمّع حشود الناس في مكان ضيق.

شعر لانغدون فجأة كما لو أنّ هناك غطاء يلفه، وأصابع يد غير مرئية تمتد من الأرض وتطبق على أنفاسه.

الموسيقى.

كان كورس الأوركسترا ينشد الآن مقطعاً معروفاً من قصيدة دانتي، مشدّداً على كلّ حرف فيه.

"Lasciate ogne speranza, voi ch'entrate".

تصاعدت تلك الكلمات الست، الأشهر في إنفيرنو دانتي من أسفل الدّرج، مثل رائحة الموت.

كرر الكورس التحذير مجدّداً، ترافقه الأبواق والآلات.

"Lasciate ogne speranza, voi ch'entrate!".

تخلَّ عن كلّ الآمال، أنت يا من تدخل إلى هنا!

الفصل 91

كـان المكـان مغمـوراً بالضـوء الأحمـر، ويضـج بالموسـيقى المسـتوحاة مـن الجحـيم - عويل، وأنغام قويـة، وأصـوات عميقـة متصـاعدة مـن الآلات الموسـيقية - والتـي هزت الخزان كالزلزال.

امتدت أرض الخزّان على مدّ النظر وكأنها رقعة زجاج داكنة، وساكنة، وملساء؛ مثل جليد أسود في بركة قطبية.

البحيرة التي لا تعكس النجوم.

ارتفعت من الماء، في صفوف مرتّبة، المئات والمئات من الأعمدة الدورية الضخمة التي تعلو ثلاثين قدماً لدعم السقف المقبّب. كانت الأعمدة مضاءة من الأسفل بسلسلة من المصابيح الحمراء التي جعلتها تشبه جذوع الأشجار المضاءة في الظلام.

توقف لانغدون وبرودر عند أسفل الدّرج، وراحا يتأملان الفراغ المظلم أمامهما. بدا المكان وكأنّه يتوهج بضوء أحمر. وبينما كان لانغدون يتأمّله، شعر أنّ تنفسه أصبح سطحياً.

كان الهواء هنا أثقل ممّا تخيل.

رأى لانغدون حشوداً بعيدة إلى اليسار. كان الحفل الموسيقي يجري عميقاً في مكان تحت الأرض، وكان الحاضرون جالسين على منصات واسعة. جلس عدّة مئات من المشاهدين في حلقات أحادية المركز تمّ ترتيبها حول الأوركسترا، في حين وقف مائة آخرون في محيطها. واتخذ المزيد من المشاهدين مواقع لهم على المماشي القريبة، متّكئين على الدرابزين المتين، وهم يحدقون إلى المياه ويصغون إلى الموسيقى.

وجد لانغدون نفسه يتفحص الوجوه بحثاً عن سيينّا. لم يجد لها أثراً، بل رأى أشخاصاً يرتدون البذلات الرسمية والأثواب والعباءات، كما رأى سياحاً يرتدون السراويل القصيرة والقمصان القطنية. لقد تجمع عددٌ كبير من البشر في هذا المكان تحت الضوء القرمزي، وبدوا بالنسبة إلى لانغدون وكأنّهم في احتفال جماعي غامض.

أدرك بينه وبين نفسه *أنّ سيينّا إن كانت هنا، فمن المستحيل تقريباً العثور عليها.*

في تلك اللحظة، مرّ بهما رجل ضخم الجثة، وصعد الدّرج وهو يقحّ. التفت برودر نحوه وراقبه بعناية، فأحسّ لانغدون بدغدغة خفيفة في حلقه، لكنّه كان واثقاً أنّه يتخيل.

خطا برودر على الممشى بحذر، وهو يفكر في الخيارات المتاحة أمامهما. بدا الطريق الممتد أمامه أشبه بمدخل متاهة ضخمة؛ إذ تفرّع الممشى في ثلاثة اتجاهات، وتفرّع كلّ من

تلك الممرّات بدوره إلى عدّة فروع؛ مشكّلاً متاهة عائمة فوق الماء، تتخلّلها الأعمدة الممتدّة إلى أعماق المبنى المظلم.

تذكّر لانغدون النشيد الأوّل من تحفة دانتي: *وجدتُ نفسي في غابة مظلمة، وذلك لأنّني أضعت الطريق المستقيم.*

حدق لانغدون إلى الماء من فوق الدرابزين. كانت بعمق أربع أقدام تقريباً، وصافية على نحو لافت. حتّى إنّ بلاط القاع كان مرئياً، وتغطيه طبقة رقيقة من الطمي.

نظر برودر إلى الأسفل بسرعة، ثمّ جال بنظره في أرجاء المكان. "هل ترى شيئاً يشبه المكان الذي ظهر في فيلم زوبريست؟".

كلّ شيء. هذا ما فكّر فيه لانغدون وهو يتأمّل الجدران الرطبة المحيطة بهما. أشار إلى أبعد زاوية في الخزان، إلى أقصى اليمين، بعيداً عن منصة الأوركسترا. "أظنّ أنّه في مكان ما هناك".

هزّ برودر رأسه موافقاً. "هذا ما ظننته أنا أيضاً".

أسرع الرجلان على الممشى الواسع، وسلكا الاتجاه الأيمن الذي قادهما بعيداً عن الحشد نحو أبعد مكان في القصر الغارق.

أثناء سيرهما، أدرك لانغدون أنّه من السهل بالنسبة لأيّ كان أن يختبئ ليلاً من دون أن يراه أحد؛ وهذا ما فعله زوبريست على الأرجح لتصوير فيلمه. وبالطبع، إن كان قد قدّم مجّاناً هذا الأسبوع من الحفلات الموسيقية، فبإمكانه ببساطة أن يطلب تمضية بعض الوقت بمفرده في الخزان.

لم تعد لذلك أيّ أهمّية.

راح برودر يمشي بخطىً أسرع، وكأنّه يجاري السيمفونية التي أخذ إيقاعها يتخذ سلسلة من الأنغام منخفضة الإيقاع شيئاً فشيئاً.

نزول دانتي وفيرجيل إلى الجحيم.

تأمل لانغدون الجدران الشاهقة المكسوة بالطحالب إلى يمينهما، محاولاً مقارنتها بما رأوه في فيلم زوبريست. عند كلّ فرع من الممشى، كانا يتجهان نحو اليمين، مبتعدَين عن الحشد إلى أبعد زاوية في الكهف. نظر لانغدون إلى الخلف، وذُهل حين أدرك المسافة التي قطعاها.

تقدما وهما يهرولان، وتجاوزا حفنة من الزوار الذين كانوا يتجولون في المكان. لكن، عندما وصلا إلى أعماق الكهف، أصبح المكان خالياً.

أصبح برودر ولانغدون بمفردهما.

قال برودر يائساً: "المكان كله متشابه. من أين نبدأ؟".

شعر لانغدون بالإحباط نفسه. كان يذكر الفيلم جيّداً، لكنّه لا يرى هنا شيئاً مميّزاً رآه في الفيلم.

تأمل لانغدون اللافتات المضاءة الموزّعة على الممشى أمامهما. كانت إحداها تشير إلى سعة الخزان التي تبلغ واحداً وعشرين مليون غالون، في حين أشارت أخرى إلى عمود غير

مشابه لبقية الأعمدة أُخذ من مبنى مجاور أثناء عملية البناء. وعرضت لافتة أخرى مخطّطاً لنقش قديم لم يعد موجوداً؛ عين الطائر الباكية التي تبكي على كلّ العبيد الذين لقوا حتفهم أثناء بناء الخزان.

غير أنّ لافتة كُتبت عليها كلمة واحدة استوقفت لانغدون.

سأله برودر: "ما الأمر؟".

أشار لانغدون إلى اللافتة التي تحمل إشارة سهم واسم وحش أنثى مريع.

الميدوزا <==

قرأ برودر الكلمة وهزّ كتفيه قائلاً: "إذاً، ماذا تعني؟".

أخذ قلب لانغدون ينبض بعنف. فقد كانت الميدوزا إحدى الأرواح المخيفة على شكل أفعى، والتي تحوّل من ينظر إليها إلى حجر، إلاّ أنّها كانت أيضاً عضواً بارزاً بين أرواح البانثيون اليوناني التي تعيش تحت الأرض... وهي فئة خاصّة معروفة بوحوش العالم السفلي.

اهبط إلى أعماق القصر الغارق...
فهناك، في الظلام، ينتظر الوحش القابع في العالم السفلي...

أدرك لانغدون أنّ تلك اللافتة تشير إلى الطريق، فراح يركض على الممشى الخشبي. بالكاد استطاع برودر مجاراته وهو يسلك الممشى المتعرّج في الظلام، متّبعاً الإشارات التي تقود إلى الميدوزا. أخيراً، وصل إلى طريق مسدود عند منصّة مشاهدة بالقرب من قاعدة الجدار الأيمن للخزان.

هناك رأى أمامه مشهداً لا يصدّق.

ارتفعت من الماء منحوتة ضخمة من الرخام تمثّل رأس الميدوزا، بشعرها المكوّن من الأفاعي. وما جعل وجودها هناك أكثر غرابة هو أنّ رأسها كان موضوعاً على عنقها رأساً على عقب.

أدرك لانغدون أنّ الرأس مقلوب بوضعية الملعونين، وتذكّر خارطة الجحيم لبوتيتشيلّي، والخاطئين الذين كان مصيرهم الماليبولغي.

وصل برودر لاهثاً، ووقف إلى جانب لانغدون عند الدرابزين محدّقاً إلى الميدوزا المقلوبة بذهول.

اشتبه لانغدون في أنّ هذا الرأس المنحوت - الذي يؤدي الآن دور قاعدة تدعم أحد الأعمدة - قد نُهب من مكان آخر واستُخدم هنا. ولا شكّ في أنّ سبب قلْب رأس الميدوزا هو

الاعتقاد بأنّ ذلك يجرّدها من قواها الشرّيرة. لكنّ لانغدون لم يستطع أن يبعد الأفكار المروعة التي كانت تلاحقه.

إنفيرنو دانتي، الخاتمة، مركز الأرض حيث تنقلب الجاذبية ويصبح ما هو في الأعلى في الأسفل.

داهمه حدس مخيف. نظر إلى الضباب الأحمر المحيط بالمنحوتة. كان شعر الميدوزا المكوّن من الأفاعي مغموراً بالمياه بمعظمه، لكنّ عينيها كانتا فوق السطح، تنظران إلى اليسار، عبر البحيرة.

انحنى لانغدون فوق الدرابزين بخوف، وترك نظره يتبع الاتجاه الذي ينظر إليه التمثال؛ إلى الزاوية الخالية من القصر الغارق.

فجأة، أدرك أنّ هذا هو الموقع.

إنّه نقطة الانطلاق التي حدّدها زوبريست.

الفصل 92

نزل العميل برودر في المياه العميقة بحذر. شعر بالماء البارد يتخلّل ملابسه، فتقلصت عضلاته. كانت أرض الخزان زلقة تحت حذائه، لكنّها ثابتة. وقف للحظة مراقباً الدوائر التي أحدثها نزول جسده وسط المياه.

للحظة لم يتنفس. ذكّر نفسه أنّ عليه أن يتحرك ببطء من دون أن يتسبّب باضطراب في المياه.

وقف لانغدون قرب الدرابزين وقال له: "كلّ شيء جاهز، لم يرك أحد".

التفت برودر مواجهاً رأس الميدوزا المقلوب الذي شعّ بالضوء الأحمر. بدا الوحش المقلوب أكبر حجماً عندما أصبح برودر بمستواه.

همس لانغدون: "اتبع الاتجاه الذي ينظر إليه الميدوزا. كان زوبريست مولعاً بالرمزية والعناصر المسرحية... ولن أفاجأ إن وضع تحفته مباشرة في خطّ البصر القاتل للميدوزا".

العقول العظيمة تتشابه. شعر برودر بالارتياح لأنّ لانغدون أصرّ على مرافقته. فلولاه، ما كان ليصل بهذه السرعة إلى هذا المكان البعيد.

مع تردد أنغام سيمفونية دانتي بعيداً، أخرج برودر مصباحه المقاوم للماء وأنزله تحت السطح، ثمّ أضاءه. سطع شعاع تحت الماء، وأضاء أرض الخزان أمامه.

ذكّر نفسه مجدّداً: *تمهّل، ولا تسبّب أيّ اضطراب*.

هكذا بدأ رحلته الحذرة في البحيرة بصمت. كان يتقدّم في المياه ببطء شديد، ويحرّك مصباحه إلى الأمام والخلف كما لو كان كاسح ألغام مائياً.

وقف لانغدون قرب الدرابزين وهو يشعر بضيق في حلقه. كان هواء الخزان الرطب يفوح برائحة العفن ويشعره بالاختناق. مع تقدّم برودر في البحيرة، أخذ البروفيسور يطمئن نفسه بأنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام.

لقد وصلنا في الوقت المناسب.

ما زال كلّ شيء على حاله.

بإمكان فريق برودر احتواء الأزمة.

مع ذلك، شعر لانغدون أنّه على وشك فقدان أعصابه. فبسبب خوفه من الأماكن المغلقة، عرف أنّه سيشعر بالتوتّر هنا مهما تكن الظروف. *أنا تحت سقف يزن آلاف الأطنان من التراب... لا تدعمه سوى أعمدة متداعية.*

أبعد الفكرة عن ذهنه، ونظر خلفه ليتأكد من أنّهما لم يلفتا نظر أحد.

لا أحد.

كان الأشخاص الوحيدون في الجوار يقفون على مماشٍ أخرى وينظرون بالاتجاه المعاكس؛ إلى الأوركسترا. ولم يبدُ أنّ أحداً منهم لاحظ برودر وهو يمشي في المياه في هذه البقعة البعيدة.

نظر لانغدون مجدّداً إلى برودر الذي كان مصباحه يتحرك أمامه مضيئاً الطريق.

في أثناء ذلك، لاحظ لانغدون فجأة حركة إلى يساره؛ شكلاً أسود اللون خرج من الماء أمام برودر. استدار لانغدون وحدق إلى الظلام، وكأنّه يتوقع رؤية وحش أسطوري يخرج من تحت الماء.

وقف برودر في مكانه بعد أن رآه هو أيضاً كما يبدو.

في الزاوية البعيدة، بدا شكل أسود متموّج على ارتفاع ثلاثين قدماً على الجدار. بدا الشكل مشابهاً لطبيب الطاعون الذي ظهر في فيلم زوبريست.

أخيراً، تنهّد لانغدون بعدما أدرك أنّه *ظلّ* برودر وحسب.

كان الظلّ قد ظهر لدى مرور برودر من أمام مصباح مغمور في البحيرة؛ تماماً مثلما ظهر ظلّ زوبريست في الفيلم.

قال لانغدون لبرودر: "هذه هي البقعة، لقد اقتربت".

هزّ برودر رأسه وواصل التقدم. مشى لانغدون على طول الدرابزين بموازاته. مع ابتعاد العميل، استرق لانغدون نظرة أخرى إلى الأوركسترا ليتأكد من أنّ أحداً لم ير برودر، فلم يلاحظ شيئاً.

التفت لانغدون إلى المياه مجدّداً، لكنّ بريقاً خفيفاً لفت نظره على الممشى عند قدميه.

نظر إلى الأسفل، فرأى بركة صغيرة من السائل الأحمر.

دماء!

كان لانغدون يقف فوقها.

هل أنا أنزف؟!

لم يشعر لانغدون بأيّ ألم، إلاّ أنّه بدأ يبحث عن إصابة أو ردّ فعل ناتج عن سموم غير مرئية منتشرة في الهواء. تحقّق من أنفه، وأظفاره، وأذنيه.

استغرب وجود الدماء، وراح يبحث حوله ليتأكد أنّه بمفرده على الممشى الخالي.

نظر مجدّداً إلى البقعة، ولاحظ وجود جدول صغير يتجمع عند قدميه. يبدو أنّ السائل الأحمر يأتي من مكان ما أمامه ويسيل على الممشى المائل.

فكر لانغدون: *ثمّة جريح هناك*. نظر إلى برودر بسرعة، ورآه يقترب من وسط البحيرة.

مشى لانغدون على الممشى بسرعة؛ متبعاً الجدول. ومع اقترابه من نهاية الممشى، أصبح خط السائل أعرض. *ما الذي يجري؟* في هذه اللحظة، أدرك أنّ الجدول يتحول إلى تيار صغير. راح يهرول إلى أن وصل إلى نهاية الممشى.

طريق مسدود.

في الظلام، وجد بركة كبيرة تلمع باللون الأحمر، وكأنّ شخصاً ما قد ذُبح هنا.

في تلك اللحظة، رأى لانغدون السائل الأحمر يسيل عن الممشى ويقطر في البحيرة، فأدرك أنّه أخطأ في تقديره.

ليست دماء.

لقد اجتمعت المصابيح الحمراء، والضباب الأحمر على المماشي، وصبغت هذا السائل بلون أحمر.

إنّه مجرّد ماء.

عوضاً عن الشعور بالارتياح، بعث هذا الاكتشاف في نفسه خوفاً كبيراً. حدق إلى بركة الماء، وبدأ يرى آثار أقدام حوله.

ثمّة من خرج من الماء هنا.

استدار لانغدون لمناداة برودر، لكنّه كان بعيداً، وكان صوت الموسيقى يصمّ الآذان. فجأة، شعر لانغدون بوجود شخص ما قربه.

لست هنا بمفردي.

ببطء، استدار لانغدون نحو الجدار الذي ينتهي عنده الممشى. على بعد عشر أقدام، رأى شكلاً ملفوفاً بالسواد، يقطر منه الماء. وقف الشكل بلا حراك.

ثمّ تحرك فجأة.

خرج من مخبئه، وارتفع رأسه الغامض إلى الأعلى بعد أن كان منخفضاً.

إنّه شخص يرتدي عباءة سوداء.

كان لباس امرأة إسلامي تقليدي يغطي الجسد بأكمله. لكن، مع التفات الرأس نحو لانغدون، رأى عينين داكنتين تحدقان إليه.

عرفها فوراً.

فجأة، خرجت سيينّا بروكس من مخبئها، وراحت تركض. دفعت لانغدون على الأرض، وفرّت على الممشى الخشبي.

الفصل 93

في البحيرة، وقف برودر فجأة، إذ سقط ضوء المصباح على لوحة معدنية أمامه في قعر الخزان.

اقترب برودر منها بحذر بعد أن حبس أنفاسه، وحرص على عدم إحداث أيّ اضطراب في الماء. عبر السطح، رأى مستطيلاً أملس من التيتانيوم مثبّتاً في الأرض.

لوحة زوبريست.

كانت المياه صافية إلى حدّ أنّه استطاع رؤية تاريخ الغد:

في هذا المكان، وفي هذا التاريخ،
تغيّر العالم إلى الأبد.

اطمأنّ برودر إلى أنّه لا تزال لديه بضع ساعات.

تذكّر فيلم زوبريست، ووجّه الضوء إلى يسار اللوحة بحثاً عن الكيس. عندما أضاء المصباح قعر الماء المظلم، حدّق برودر إلى هناك بارتباك.

لا يوجد أيّ كيس.

حوّل الضوء إلى اليسار، إلى البقعة التي ظهر فيها الكيس في فيلم الفيديو؛ لكنّه لم يجد شيئاً.

لكنّه... كان هنا!

تشنج فكّ برودر وهو يواصل بحثه، ويمرّر ضوء المصباح فوق المنطقة بأكملها.

لم يجد الكيس، بل اللوحة وحسب.

للحظة، تساءل برودر عمّا إذا كان هذا التهديد - شأنه شأن كثير من الأمور التي حدثت اليوم - مجرّد وهم.

هل كانت خدعة؟!

هل أراد زوبريست أن يخيفنا وحسب؟!

أخيراً رآه.

إلى يسار اللوحة، وقع نظره على خيط مرتخٍ في الماء، بالكاد كان مرئياً في قعر البحيرة. بدا الخيط أشبه بدودة ميتة. كان طرفه معلّقاً بقطعة صغيرة من الكيس القابل للذوبان.

حدّق برودر إلى الكيس الشفّاف. كان الجزء المعلّق بالخيط مثل عقدة بالون منفجر.

اتضحت له الحقيقة ببطء.

لقد فات الأوان.

تخيل الكيس المغمور وهو يذوب ويتمزق... ثمّ تنتشر محتوياته القاتلة في الماء... قبل أن تتصاعد إلى سطح البحيرة.

أطفأ مصباحه بإصبعه المرتجفة ووقف في الظلام، محاولاً استجماع أفكاره.

سرعان ما تحولت تلك الأفكار إلى دعاء.

كان الله في عوننا جميعاً.

في الخارج، راحت سينسكي تصيح عبر جهاز اللاسلكي وقد أصبحت في منتصف الدّرج المؤدي إلى الخزان: "أيّها العميل برودر، كرّر، لم أفهم!".

داهمها الهواء الدافئ الذي تصاعد باتجاه الباب المفتوح. في الخارج، وصل فريق الدعم والمراقبة، وكان أعضاؤه يستعدون خلف المبنى في محاولة لإبقاء معدّاتهم بعيدة عن الأنظار بانتظار أوامر برودر.

"... الكيس تمزق... وأُفرغت... محتوياته".

ماذا؟! تمنّت سينسكي أن تكون قد أخطأت في الفهم وهي تندفع على الدّرج نحو الأسفل. أمرته قائلة عندما اقتربت من الأسفل: "أعِد ما قلته!". كان صوت الموسيقى قد أصبح أعلى.

تناهى إليها صوت برودر بوضوح أكبر هذه المرّة. "... وأكرّر... لقد انتشرت المادة المعدية!".

اندفعت سينسكي إلى الأمام، وأوشكت على السقوط عند أسفل الدّرج. *كيف يعقل هذا؟!*

قال برودر: "لقد ذاب الكيس، وأصبحت المحتويات في الماء!".

شعرت د. سينسكي بالعرق البارد يتصبّب منها وهي تنظر إلى محيطها وتحاول تقييم الوضع. عبر الضباب الأحمر، رأت الماء الذي تصاعدت منه مئات الأعمدة. والأهمّ من ذلك أنّها رأت الناس.

مئات الناس.

حدقت سينسكي إلى الحشد غير المدرك لما يجري، والمحتجز في فخّ زوبريست تحت الأرض. أتى ردّ فعلها عفوياً. "أيها العميل برودر، اصعد فوراً، سنخلي المكان حالاً".

أتى ردّ برودر فورياً: "حتماً لا! أغلقوا الباب! لا تسمحوا لأحد بالخروج من هنا!".

كانت إليزابيث سينسكي معتادة على أن تُنفَّذ أوامرها من دون مساءلة بصفتها مديرة منظّمة الصحّة العالمية. للحظة، ظنّت أنّها أساءت فهم العميل برودر. *أغلقوا الباب؟!*

صاح برودر بصوت أعلى: "د. سينسكي! هل تسمعينني؟! أغلقوا الباب اللعين!".

كرّر برودر تعليماته، لكنّ ذلك لم يكن ضرورياً. إذ عرفت سينسكي أنّه محقّ. ففي وجه وباء محتمل، الاحتواء هو الحلّ الأفضل.

مدت سينسكي يدها تلقائياً وأمسكت بتميمتها اللازوردية. *التضحية بالقليل لإنقاذ الكثير.* بتصميم كبير، رفعت اللاسلكي إلى شفتيها. "حسناً، سأعطي الأمر بإغلاق الباب".

عندما كانت سينسكي على وشك الالتفات لإعطاء الأمر بإغلاق المكان، شعرت فجأة بجلبة بين الناس.

على مسافة غير بعيدة، رأت امرأة ترتدي عباءة سوداء تركض مسرعة باتّجاهها، وباتجاه الباب، وهي تدفع الناس الذين يعترضون طريقها.

أدركت سينسكي أنّها ملاحقة، ورأت رجلاً خلفها.

فوجئت عندما عرفت أنّه لانغدون.

عادت أنظار سينسكي إلى المرأة التي كانت تقترب بسرعة وهي تصيح للناس بشيء ما بالتركية. لم تكن سينسكي تفهم اللغة التركية، لكن نظراً إلى حالة الذعر التي كانت تنشرها بين الناس، بدت كمن يصيح "حريق!" في مسرح مكتظّ.

وهكذا، عمّ الذعر بين الحشود، ولم تعد المرأة ولانغدون وحدهما من يركض باتّجاه الدّرج، بل الجميع.

التفتت سينسكي إلى موجة البشر، وبدأت تصيح لفريقها في الأعلى.

"أغلقوا الباب! أغلقوا باب الخزان حالاً!".

عندما وصل لانغدون إلى زاوية الدّرج، رأى سينسكي في الوسط وهي تصعد إلى الأعلى وتصيح طالبة إغلاق الباب. اندفعت سيينّا في أعقابها، تشق طريقها بعباءتها الثقيلة المبتلّة.

ركض خلفهما، وشعر بالحشد المذعور خلفه.

صاحت سينسكي مجدّداً: "أغلقوا المخرج!".

راح لانغدون يصعد الدّرج كلّ ثلاث درجات معاً ليلحق بسيينّا. رأى فوقه باب الخزان الثقيل المزدوج يُغلق *ببطء شديد.*

أمسكت سيينّا بسينسكي، وتمسّكت بها لتجاوزها وللوصول إلى الباب، فتعثّرت سينسكي وسقطت على ركبتيها، وارتطمت تميمتها بالدرجات الإسمنتية وانكسرت إلى نصفين.

قاوم لانغدون رغبته في التوقف لمساعدة المرأة، واندفع خلف سيينّا.

كانت سيينّا على بعد عدّة أقدام منه وحسب، لكنّها سبقته إلى الباب الذي لم يكن ينغلق بسرعة كافية. وهكذا، تمكّنت سيينّا من الانزلاق بجسدها النحيل عبر الفتحة الضيقة.

غير أنّ عباءتها علقت بين مصراعي الباب، واستوقفتها على بعد لحظات من الحرية. حاول لانغدون الإمساك بها، فشدّ العباءة إلى الخلف لإيقافها، لكنّها كافحت بجنون، ووجد نفسه فجأة يمسك بين يديه كومة قماش مبتلة.

أغلق الباب على القماش، وبالكاد أنقذ لانغدون يديه. غير أنّ العباءة العالقة بين مصراعي الباب أعاقت إغلاقهما تماماً.

رأى لانغدون عبر الشقّ الصغير سيينّا بروكس وهي تسرع في الشارع، ورأسها الأصلع يلمع تحت المصابيح.

كانت ترتدي سروال الجينز والقميص نفسيهما اللذين كانت ترتديهما طوال النهار. فجأة، شعر لانغدون بإحساس عارم بالخيانة.

لم يدم ذلك الشعور طويلاً. ففجأةً، أحسّ لانغدون أنّه يسحق على الباب.

كانت موجة البشر قد صدمته.

تعالت صيحات الرعب على الدّرج، وتحول صوت الموسيقى إلى جلبة من الأصوات المتنافرة. شعر لانغدون بضغط متزايد على ظهره، وبألم في قفصه الصدري المضغوط على الباب.

فجأة، فُتح مصراعا الباب عنوة، واندفع لانغدون في الليل كما تطير الفلّينة التي تسدّ زجاجة الشراب. تعثّر على الرصيف، وأوشك أن يسقط. خلفه، تدفق بحر الناس من داخل الأرض مثل النمل الهارب من وكر مسموم.

سمع أعضاء الفريق أصوات الفوضى، وخرجوا من خلف المبنى. إلاّ أنّ ظهورهم بالبذلات الواقية ومعدات التنفس ضاعف فوراً ذعر الناس.

التفت لانغدون وحدق إلى الشارع بحثاً عن سيينّا، غير أنّه لم ير سوى السيّارات والأضواء.

أخيراً، لمح رأساً أصلع يلمع في الظلام ويختفي عند زاوية أحد المباني.

نظر خلفه بحثاً عن أحد أعضاء الفريق أو الشرطة، لكنّه لم يجد أيًّا منهم.

عرف لانغدون أنّه بمفرده.

ومن دون تردد، انطلق خلف سيينّا.

في الأسفل، في أعماق الخزان، وقف العميل برودر بمفرده في الماء الذي غمره حتّى وسطه. كانت أصوات الفوضى تتردد في الظلام في حين شقّ السياح والموسيقيون طريقهم نحو الأعلى واختفوا على الدّرج.

أدرك مرعوباً أنّ الباب لم يُغلق. *لقد فشلت تدابير الاحتواء.*

الفصل 94

لم يكن لانغدون عدّاءً، لكن سنوات من السباحة منحت ساقيه القوة. وصل إلى ناصية الشارع خلال ثوانٍ واستدار، فوجد نفسه في جادة أكبر. فتش الأرصفة بنظرة سريعة.

يجب أن تكون هنا!

كان المطر قد توقّف، ومن الزاوية التي يقف فيها استطاع أن يرى الشارع بإضاءته الساطعة. ما من مكان للاختباء.

مع ذلك يبدو أنّ سيينّا قد اختفت.

توقّف لانغدون، ووضع يديه على وسطه، وراح يتأمل الشارع وهو يلهث. كانت الحركة الوحيدة التي لفتت انتباهه ناجمة عن إحدى حافلات اسطنبول الحديثة على بعد خمسين ياردة أمامه.

هل استقلّت سيينّا إحدى الحافلات العامة؟

بدا الأمر خطراً جداً. هل يُعقل أن تحتجز نفسها في حافلة وهي تعرف أنّ الجميع يبحثون عنها؟ لكن، إن كانت تعتقد أنّ أحداً لم يرها، ومرّت الحافلة أمامها صدفة، فمن الممكن أن تغتنم تلك الفرصة...

ربما.

كانت الحافلة تحمل لافتة تشير إلى مقصدها: غالاتا.

اندفع لانغدون نحو رجل عجوز يقف خارج أحد المطاعم تحت خيمة.

وقف أمامه وسأله: "المعذرة، هل تتحدث الإنكليزية؟".

قال الرجل: "بالطبع"، وبدا عليه الاستغراب بسبب لهفة لانغدون.

"هل غالاتا مكان؟".

"غالاتا! أتقصد جسر غالاتا؟ أم برج غالاتا؟ مرفأ غالاتا؟".

أشار لانغدون إلى الحافلة. "غالاتا! إلى أين تتجه الحافلة؟"

التفت الرجل إلى الحافلة وسكت للحظة، ثمّ أجاب: "إنّها تتّجه نحو جسر غالاتا. تغادر المدينة القديمة، وتعبر الممر المائي".

صدر أنين عن لانغدون، وحاول مجدداً البحث عن سيينّا، لكنه لم يجد لها أثراً. وبدلاً من ذلك، سمع عويل سيارات الشرطة مع اندفاعها من أمامه باتجاه الخزان.

سأله الرجل بنبرة قلق: "ماذا يجري؟ هل كلّ شيء على ما يرام؟".

نظر لانغدون مجدداً إلى الحافلة وعرف أنّه سيغامر؛ لكن لا خيار آخر لديه.

أجاب: "كلا سيدي، ثمّة حالة طارئة وأحتاج إلى مساعدتك". ثم أشار إلى الرصيف الذي أوقف حارسٌ عنده سيارةَ بينتلي فضية. "أهذه سيارتك؟".

"أجل، لكن-"

قال لانغدون: "أحتاج إلى أن تقلّني. أعرف أنّنا لم نلتق قطّ، لكنّ كارثة حدثت، وهذه مسألة حياة أو موت".

حدّق الرجل إلى لانغدون مطوّلاً، كما لو كان يبحث عن روحه. أخيراً، هزّ رأسه وقال: "من الأفضل أن تصعد".

مع انطلاق السيارة، وجد لانغدون نفسه يتمسك بالمقعد. من الواضح أنّ الرجل خبير في القيادة، ويبدو أنّه يستمتع بالتسلل من بين السيارات، للحاق بالحافلة.

اجتاز عدداً من المباني قبل أن يصبح خلف الحافلة مباشرة. انحنى لانغدون إلى الأمام، وحدّق من النافذة الأمامية. كانت الأضواء خافتة في الداخل، ولم ير سوى أشكال باهتة.

قال: "ابقَ خلف الحافلة رجاءً. هل لديك هاتف؟".

أخرج الرجل هاتفاً خلوياً من جيبه، وأعطاه إيّاه، قبل أن يدرك لانغدون أنّه لا يعرف بمن يتّصل. لم يكن يملك أرقام سينسكي أو برودر، والاتّصال بمكاتب منظّمة الصحة العالمية في سويسرا سيستغرق وقتاً طويلاً.

سأله لانغدون: "كيف يمكنني الاتصال بالشرطة".

أجاب الرجل: "155، من أيّ مكان في إسطنبول".

اتصل لانغدون بالرقم، وانتظر. رنّ الهاتف مطوّلاً. وأخيراً، أجابه صوت مسجّل بالتركية والإنكليزية ورجاه أن ينتظر؛ نظراً إلى ضغط المكالمات. تساءل لانغدون عمّا إذا كان سبب الضغط هو الأزمة في الخزان.

كان القصر الغارق الآن في حالة فوضى عارمة. تخيل برودر وهو يقف في الماء، متسائلاً عمّا اكتشفه هناك. شعر أنّه يعرف ما جرى.

لقد سبقته سيينّا إلى الماء.

أمامهما، توقفت الحافلة عند إحدى المحطات، فتوقّف سائق البنتلي خلفها، على بعد حوالى خمسين قدماً؛ الأمر الذي منح لانغدون إمكانية رؤية الركاب وهم يصعدون وينزلون. ترجّل من الحافلة ثلاثة أشخاص فقط - كلّهم رجال - فتأمّلهم لانغدون بعناية، لا سيّما وأنّه يعرف مهارة سيينّا في التنكر.

نظر إلى النافذة الخلفية التي كانت داكنة اللون، لكن بما أنّ المصابيح الداخلية كانت مضاءة بالكامل، تمكّن لانغدون من رؤية الركّاب بوضوح أكبر. انحنى إلى الأمام، وقرّب وجهه من زجاج السيارة الأمامي بحثاً عن سيينّا.

أرجو ألاّ أكون قد أخطأت في التقدير!

فجأة رآها.

في الجزء الخلفي من الحافلة، رأى كتفين نحيلتين يعلوهما رأس حليق.

هذه سيينّا من دون شكّ.

مع انطلاق الحافلة مجدّداً، انطفأت الأضواء الداخلية. في ثانية خاطفة، رأى الرأس الأصلع يلتفت إلى الخلف قبل أن يختفي في الظلام، وينظر عبر نافذة الحافلة الخلفية.

انخفض لانغدون على مقعده. *هل رأتني؟* كان سائق البنتلي قد انطلق خلف الحافلة مرّة أخرى.

انخفض الطريق الآن نزولاً باتجاه المياه، ورأى لانغدون أمامه أضواء جسر منخفض يمتد فوق الماء. بدا الجسر مزدحماً بالسيارات تماماً. في الواقع، كانت المنطقة المحاذية له مكتظة بأكملها.

قال الرجل: "هذا بازار التوابل. إنّه منطقة شعبية جدّاً في الليالي الممطرة".

أشار الرجل إلى الشاطئ. هنا، ارتفع مبنى عالٍ جدّاً في ظلّ أحد أجمل مساجد إسطنبول؛ المسجد الجديد - إن لم يكن لانغدون مخطئاً - نظراً إلى مئذنتيه الشهيرتين. بدا بازار التوابل أكبر من معظم المراكز التجارية الأميركية، ورأى لانغدون الناس يدخلون ويخرجون من بابه الضخم الذي تعلوه قنطرة قديمة.

أعلن صوت خافت من مكان ما في السيّارة: *ألو؟! أجيل دوروم! ألو؟!*".

نظر لانغدون إلى الهاتف في يده. *الشرطة.*

رفع السماعة إلى أذنه. "نعم، ألو! اسمي روبرت لانغدون. أنا أعمل مع منظّمة الصحّة العالمية. لديكم أزمة في خزان المدينة، وأنا أتعقب الشخص المسؤول. إنّها في حافلة بالقرب من بازار التوابل، والحافلة متجهة إلى-"

قال عامل الهاتف: "لحظة واحدة سيّدي، سأصلك بالموظّف المسؤول".

"كلاّ، انتظر!". لكنّ لانغدون سمع نغمة الانتظار مجدّداً.

التفت إليه سائق البنتلي بخوف. "هل قلت أزمة في الخزان؟!".

كان لانغدون على وشك أن يشرح للسائق عندما لاحظ أنّ وجهه احمرّ فجأة؛ كالشيطان.

مصابيح المكابح!

التفت السائق، وتوقفت البنتلي فجأة خلف الحافلة مباشرة. أضيئت المصابيح الداخلية، ورأى لانغدون سيينّا بوضوح تامّ. كانت واقفة عند الباب الخلفي وهي تشدّ حبل التوقّف الطارئ تكراراً، طالبة الترجّل من الحافلة.

أدرك لانغدون أنّها رأته. لا شكّ في أنّ سيينّا رأت أيضاً الازدحام على جسر غالاتا وخشيت أن يلحق بها.

فتح بابه بسرعة، لكنّ سيينّا كانت قد نزلت من الحافلة، وأخذت تسرع هاربة في ظلمة الليل.

فأعاد الهاتف إلى صاحبه قائلاً: "أخبر الشرطة بما جرى، واطلب منهم تطويق هذه المنطقة!"

هزّ الرجل رأسه بقلق واضح.

صاح لانغدون: "وشكراً لك! *تشكُرلير!*".

ثمّ اندفع خلف سيينّا التي كانت تتّجه مباشرة إلى بازار التوابل المكتظّ.

الفصل 95

يرجع تاريخ إنشاء بازار التوابل في إسطنبول إلى ثلاثمائة عام مضت، وهو واحد من أكبر الأسواق المغلقة في العالم. بني على شكل L، ويتألف المجمّع الكبير من ثمانٍ وثمانين حجرة مقنطرة مقسّمة إلى مئات الأكشاك، يبيع فيها التجار المحلّيون مجموعة مذهلة من الأطايب من مختلف أنحاء العالم؛ من توابل، وفاكهة، وأعشاب، والحلوى التركية التي تشتهر بها إسطنبول.

باب البازار عبارة عن قنطرة قوطية ضخمة، ويقع عند تقاطع بازار تشيتشيك وشارع تاهميس، ويقال إنّه يشهد مرور أكثر من ثلاثمائة ألف زائر يومياً.

الليلة، مع اقتراب لانغدون من المدخل، شعر أنّ ثلاثمائة ألف شخص موجودون هناك بالفعل في تلك اللحظة. كان لا يزال يركض، وعيناه لا تفارقان سيينّا التي كانت على بعد عشرين ياردة منه؛ مندفعة مباشرة إلى مدخل البازار من دون توقف.

وصلت سيينّا إلى الباب، واختلطت بالحشد. تسلّلت بين الناس، وشقّت طريقها إلى الداخل. في اللحظة التي عبرت فيها المدخل، التفتت إلى الخلف، فرأى لانغدون في عينيها نظرة فتاة صغيرة مذعورة... ويائسة.

صاح: "سيينّا!".

لكن، سرعان ما اختفت وسط بحر من الناس.

لحق بها لانغدون بصعوبة، إلى أن رآها إلى يسار الزقاق الغربي للبازار.

رأى إلى جانبه سلالاً مليئة بالتوابل: الكاري الهندي، والزعفران الإيراني، والشاي الصيني؛ التي شكّلت بألوانها نفقاً من الأصفر، والبنّي، والذهبي. مع كلّ خطوة، شمّ لانغدون رائحة جديدة؛ رائحة الفطر، والجذور المرّة، والزيوت المسكية؛ كلّها تفوح في الهواء مع كورس من الأصوات يصمّ الآذان من مختلف لغات العالم. كانت النتيجة موجة عارمة من المحفّزات الحسية... إزاء نهر من البشر.

آلاف الناس.

فجأة شعر لانغدون بالاختناق، وأوشك على فقدان وعيه، قبل أن يسيطر على نفسه، ويشقّ طريقه إلى أعماق البازار. رأى سيينّا أمامه تُبعد الناس من طريقها بقوّة. من الواضح أنّها مصمّمة على الوصول إلى النهاية... مهما كلّفها ذلك.

للحظة، تساءل لانغدون عن سبب ملاحقته إيّاها.

هل يفعل ذلك لتحقيق العدالة؟ فنظراً إلى ما فعلته سيينّا، لا يعرف لانغدون العقاب الذي ينتظرها إن قُبض عليها.

أم أنه يفعل ذلك لمنع انتشار الوباء؟ إنّ ما حدث قد حدث.

أدرك لانغدون فجأة سبب رغبته في إيقاف سيينّا.

أريد أجوبة.

على بعد عشر ياردات، كانت سيينّا متوجّهة إلى المخرج الغربي للبازار. نظرت خلفها مرّة أخرى، وبدا عليها الخوف لدى رؤيتها لانغدون قريباً منها بهذا الشكل. وعندما التفتت مجدّداً إلى الأمام، تعثّرت وسقطت.

ارتطمت سيينّا بكتف شخص ما أمامها. وعندما سقطت، مدّت يدها بحثاً عن شيء ما تتمسّك به. لكنّها لم تجد سوى صندوق من الكستناء المجفّفة، فتمسّكت به يائسة، حيث سقط فوقها وتناثرت محتوياته على الأرض.

احتاج لانغدون إلى ثلاث خطوات ليصل إلى المكان الذي سقطت فيه. لكنّه لم يجد على الأرض سوى الصندوق المقلوب والكستناء. أمّا سيينّا، فلم يكن لها أيّ أثر.

راح صاحب المتجر يصيح بغضب.

أين ذهبت؟!

أخذ لانغدون يدور في مكانه، لكنّها اختفت. وعندما وقع نظره على المخرج الغربي على بعد خمس عشرة ياردة أمامه،عرف أنّ سقوطها لم يكن حادثاً عرضيًّا على الإطلاق.

راح يركض باتّجاه المخرج، ووجد نفسه عند ساحة ضخمة مزدحمة بالناس أيضاً. حدق إلى الساحة باحثاً عنها من دون جدوى.

أمامه مباشرة، عند الطرف الأقصى لطريق سريع متعدّد المسارات، امتدّ جسر غلاتا فوق مياه القرن الذهبي. ارتفع إلى يمينه المسجد الجديد بمئذنتيه الجميلتين. وإلى يساره، كانت الساحة... مكتظّة بالناس.

سمع أصوات أبواق سيّارات أمامه؛ باتّجاه الطريق الذي يفصل بين الساحة والبحر. رأى سيينّا على بعد مائة ياردة تركض بين السيّارات المسرعة، وتفلت بصعوبة من بين شاحنتين. كانت متّجهة نحو البحر.

إلى يسار لانغدون، على شاطئ القرن الذهبي، كانت حركة السير ناشطة جدّاً؛ حافلات، سيّارات أجرة، مراكب.

انطلق لانغدون بسرعة عبر الساحة باتجاه الطريق السريع. وعندما وصل، قفز نحو الطريق السريع فيما كانت أضواء السيّارات المقتربة لا تزال بعيدة عنه بعض الشيء، وتمكّن من عبور الطريق الأوّل من بين عدة طرقات سريعة متعدّدة الاتّجاهات بأمان. خلال الثواني الخمس عشرة التالية، تمكّن من الانتقال من جهة إلى أخرى بين السيّارات المسرعة والأبواق الغاضبة، وهو يتقدم تارة، ويتوقّف تارة أخرى؛ إلى أن وصل أخيراً إلى شاطئ البحر المكسوّ بالأعشاب.

مع أنّه كان لا يزال يراها، إلاّ أنّها أصبحت بعيدة عنه كثيراً. رآها تعبر موقف سيّارات الأجرة والحافلات وتتوجّه إلى حوض السفن مباشرة. هناك، رأى عدداً كبيراً من المراكب التي

تدخل وتخرج؛ بدءاً من السفن السياحية، ووصولاً إلى مراكب الأجرة، وزوارق الصيد الخاصّة، والمراكب السريعة. على صفحة المياه، انعكست أضواء المدينة المشعّة في الشاطئ الغربي للقرن الذهبي. عرف أنّه في حال وصلت سيينّا إلى هناك، فعلى الأرجح لن يتمكن أبداً من إيجادها.

عندما وصل لانغدون أخيراً إلى الواجهة البحرية، التفت إلى اليسار، واندفع على طول الممشى الخشبي، على نحو فاجأ السياح الذين اصطفّوا بانتظار أدوارهم لتناول العشاء على متن أسطول من المراكب الجميلة المزينة التي تلمع بفعل الأضواء والزخرفات الذهبية.

فكّر لانغدون وهو يركض! *لاس فيغاس في البوسفور.*

رأى سيينّا أمامه. لم تعد تركض، بل توقفت أمام أحد المراكب الخاصة، وراحت تتكلم مع صاحبه.

لا تسمح لها بالصعود!

عندما اقترب، لاحظ أنّ سيينّا تمارس قدرتها على الإقناع على شابّ وقف على متن مركبه مستعدًّا للانطلاق. كان الشاب يبتسم بتهذيب وهو يهزّ رأسه رافضاً، فيما واصلت سيينّا كلامها. لكنّ صاحب المركب رفض بحزم، واستدار مستعداً للرحيل.

مع اقتراب لانغدون أكثر، نظرت إليه سيينّا، واليأس بادٍ على وجهها. تحتها، دارت محرّكات المركب، الذي أخذ يبتعد عن الرصيف شيئاً فشيئاً.

فجأة، طارت سيينّا بعد أن قفزت فوق المياه، وحطّت على سطح المركب. شعر البحّار بسقوطها، فالتفت غير مصدّق. أطفأ محرّك المركب الذي أصبح على بعد عشرين ياردة من الرصيف، وراح يصيح غاضباً، ويقترب من الراكبة غير المرغوب فيها.

مع اقتراب الشاب، ابتعدت سيينّا جانباً، ثمّ أمسكت بمعصمه، واستغلت اندفاعه لإلقائه في البحر. بعد لحظات، عام الرجل على سطح الماء، وهو يمطرها بسيل من الشتائم التركية.

لم يبدُ أيّ اهتمام على سيينّا التي شغّلت محرّك المركب، وتقدّمت به إلى الأمام.

وقف لانغدون على الرصيف محاولاً التقاط أنفاسه وهو يشاهد المركب المبتعد والمتحوّل إلى ظلّ في الليل. نظر إلى الأفق، وعرف أنّ سيينّا أصبحت قادرة على الوصول إلى الشواطئ البعيدة، ليس هذا فحسب، بل أيضاً إلى شبكة لا حدود لها من الممرّات المائية التي تمتدّ من البحر الأسود إلى البحر الأبيض المتوسّط.

لقد رحلت.

بجواره، خرج صاحب المركب من الماء، ثمّ انطلق مسرعاً للاتصال بالشرطة.

شعر لانغدون بوحدة غريبة وهو يشاهد مصابيح المركب المسروق تختفي عن ناظريه شيئاً فشيئاً. كذلك، كان صوت المحرّك يبتعد أيضاً.

فجأة، اختفى الصوت تماماً.

تساءل لانغدون عمّا إذا كانت قد أطفأت المحرّك.

لاحظ أنّ مصابيح المركب لم تعد تبتعد، بل صارت تتأرجح بخفّة في مكانها بفعل الأمواج. لسبب ما، توقّفت سيينّا.

هل نفد منها الوقود؟

أصغى جيّداً، وتمكّن من سماع هدير المحرّك الخفيف.

إن كان الوقود قد نفد، فما الذي تفعله إذاً؟

انتظر لانغدون.

مرّت عشر ثوانٍ، خمس عشرة ثانية، ثلاثون ثانية.

فجأة، عاد المحرّك للعمل بشيء من التردّد في البداية، ومن ثمّ بحزم أكبر. ذُهل لانغدون وهو يرى المركب يستدير متجهاً نحوه مجدّداً.

إنّها عائدة.

مع اقتراب المركب، رأى لانغدون سيينّا تقف أمام الدفّة، محدّقة إلى الأمام بشرود. على بعد ثلاثين ياردة، خفّفت السرعة، وأعادت المركب بأمان إلى الرصيف الذي غادرته للتوّ. بعد ذلك أطفأت المحرّك.

خيّم الصمت.

وقف لانغدون أمامها غير مصدّق.

لم تنظر إليه، بل دفنت وجهها بين يديها وراحت ترتجف وتبكي. أخيراً، نظرت إلى لانغدون بعينين مغرورقتين بالدموع.

"روبرت، لم أعد أستطيع الهرب. لم يعد لديّ مكان أذهب إليه".

الفصل 96

لقد تسرّب.

وقفت سينسكي عند أسفل الدرج المؤدّي إلى الخزّان، وحدّقت إلى الكهف الخالي. شعرت بضيق في صدرها بسبب جهاز التنفس الذي كانت تضعه. مع أنّها تعرّضت للفيروس على الأرجح، إلاّ أنّها شعرت بالارتياح في البذلة الواقية وهي تدخل مع الفريق إلى ذلك المكان الكئيب. كانوا يرتدون بذلات بيضاء ويضعون خوذاً عازلة، حيث بدوا أشبه بفريق من روّاد الفضاء في سفينة فضائية غريبة.

عرفت سينسكي أنّ مئات الناس في الأعلى يشعرون بالذعر، وأن الكثيرين منهم خضعوا للعلاج بسبب الإصابات التي نتجت عن تزاحمهم. حتى إنّ بعضهم غادروا المنطقة بأكملها. فشعرت أنّها محظوظة لأنّها خرجت من هذه الحادثة برضّة في ساقها وتميمة مكسورة.

ثمّة عدوى واحدة تنتشر أسرع من الفيروس، ألا وهي الخوف.

كان الباب في الأعلى قد أوصد تماماً، وأصبح تحت حراسة السلطات المحلّية. توقّعت سينسكي حدوث نزاع حول السلطة مع وصول الشرطة المحلية، لكنّ هذا الاحتمال زال تماماً عندما رأى عناصر الشرطة فريق المراقبة والدعم مزوّدين بمعدّات الوقاية، وسمعوا تحذيرات سينسكي من احتمال وجود وباء.

حدّقت مديرة منظّمة الصحّة العالمية إلى غابة الأعمدة وفكّرت: إنّنا بمفردنا، لا أحد يرغب في النزول إلى هنا.

خلفها، رأت عميلين يفرشان رقعة بوليبوريثان ضخمة على أسفل الدرج ويثبّتانها على الجدار بواسطة الحرارة، في حين وجد آخران مساحة مفتوحة على أحد المماشي الخشبية، وبدآ بتثبيت مجموعة من المعدّات الإلكترونية، وكأنّهما يستعدّان لتحليل مسرح جريمة.

فكّرت سينسكي: هذا بالضبط ما هو عليه هذا المكان؛ إنه مسرح جريمة.

تذكّرت المرأة ذات العباءة السوداء التي فرّت من الخزان. لا شكّ في أنّها سيينّا بروكس التي خاطرت بحياتها من أجل إحباط جهودهم لاحتواء الوباء. أتت إلى هنا وشقّت الكيس...

لحق لانغدون بسيينّا في ليل المدينة، ولم تعرف سينسكي بعد ما حلّ بهما.

أتمنّى أن يكون بروفيسور لانغدون بخير.

وقف العميل برودر على الممشى الخشبي، محدّقاً بشرود إلى رأس الميدوزا المقلوب، ومتسائلاً عن الخطوة التالية.

بصفته عميلاً في فريق المراقبة والدعم، كان مدرّباً على التفكير على المستوى الكوني الشامل، ووضع الهموم الأخلاقية أو الشخصية المباشرة جانباً؛ للتركيز على إنقاذ أكبر عدد ممكن من الأرواح على المدى البعيد. لذلك، لم يفكّر بالخطر الذي يهدّد حياته حتّى هذه اللحظة. وبّخ نفسه على تورّطه بهذه المخاطرة، لكنّه عرف أنّه لم يكن يملك الخيار. *كان علينا إجراء تقييم فوري.*

أجبر نفسه على التفكير في مهمّته الحالية؛ أي تنفيذ الخطّة ب. لسوء الحظّ، في ظلّ أزمة الاحتواء، كانت الخطّة ب هي نفسها دائماً: توسيع الشعاع. فمكافحة الأمراض المعدية غالباً ما تشبه عمليّة إطفاء حريق في غابة: في بعض الأحيان عليك أن تتراجع وتخسر المعركة، على أمل الانتصار في الحرب.

في تلك المرحلة، لم يكن برودر قد يئس بعد من إمكانية الاحتواء الكامل. فعلى الأرجح، مزّقت سيينّا الكيس قبل لحظات قليلة من هستيريا الهرب الجماعي. في تلك الحالة، حتّى لو غادر مئات الأشخاص مسرح الكارثة، إلاّ أنّهم كانوا على مسافة بعيدة من المصدر، حيث إنهم لم يلتقطوا العدوى بعد.

وحدهما سيينّا ولانغدون كانا موجودَين في نقطة الانطلاق، وهما الآن في مكان ما في المدينة.

كان برودر يفكّر في أمر آخر شكّل ثغرة في تسلسل الأحداث؛ فهو لم يجد أثراً للكيس في الماء. لكن، إن كانت سيينّا قد شقّته بركله أو تمزيقه، فلا بدّ أن يجد بقاياه في المكان.

غير أنّه لم يجد شيئاً، كلّ آثاره اختفت. ومن غير المحتمل أن تكون سيينّا قد حملته معها؛ لأنّه أصبح الآن هشّاً جدّاً.

أين اختفى إذاً؟

شعر أنّ ثمّة حلقة مفقودة، لكنّه ركّز على استراتيجية احتواء جديدة تستلزم الإجابة عن سؤال حيوي.

ما هو مدى انتشار الوباء حاليّاً؟

هذا ما ستجيب عنه أجهزة كشف الفيروس المحمولة التي وزّعها أعضاء فريقه على المماشي على مسافات متباعدة من البحيرة. تَستخدِم هذه الأجهزة المعروفة بوحدات PCR ما يسمّى تفاعل البوليميراز المتسلسل، لكشف وجود أيّ عدوى فيروسية.

تحلّى العميل بالأمل. فمع غياب أيّ حركة في المياه، ونظراً إلى مرور وقت وجيز وحسب، كان واثقاً أنّ الأجهزة ستكشف عن منطقة عدوى ضيّقة نسبيّاً، وسيقومون باحتوائها بالمواد الكيميائية المناسبة وبتقنية الامتصاص.

نادى أحدُ التقنيين بواسطة مكبّر للصوت: "هل أنتم جاهزون؟".

أشار العملاء الموزّعون في أنحاء الخزان بالإيجاب.

أمرهم التقني: "ابدأوا بتحليل العيّنات".

انحنى المحلّلون وبدأوا بتشغيل أجهزتهم الفردية. أخذ كلّ جهاز يحلّل عيّنة من نقطة مختلفة على مسافات متباعدة من لوحة زويريست المغمورة.

خيّم الصمت على الخزان، وراح الجميعِ يتضرّعون إلى الله لكي لا تومض سوى الأضواء الخضراء.

ثمّ بدأت النتائج تظهر.

بدأت الآلة الأكثر قرباً من برودر تومض بضوء أحمر، فتوتّرت عضلاته، ونظر إلى الآلة التالية.

هي الأخرى كانت تومض بالأحمر.

كلاّ.

تردّدت الهمسات في أرجاء الكهف. رأى برودر مرعوباً كيف راحت الأجهزة تومض باللون الأحمر الواحد تلو الآخر.

يا إلهي... كان بحر الأضواء الحمراء يرسم صورة واضحة.

كان شعاع العدوى كبيراً.

الفيروس منتشر في الخزان بأكمله.

الفصل 97

حدّق لانغدون إلى سيينّا بروكس التي كانت تبكي أمام دفّة المركب، وحاول أن يفهم ما جرى للتوّ.

نظرت إليه بعينين دامعتين وهي تقول: "أنا واثقة أنّك تكرهني".

"أكرهك؟! أنا لا أعرف شيئاً عنك! فكلّ ما فعلته هو الكذب عليّ!".

قالت بصوت خافت: "أعرف، أنا آسفة. كنت أحاول فعل الصواب".

"بنشر الوباء؟!".

"كلا روبرت، أنت لا تفهم".

أجابها: "بل أفهم. أفهم أنّك خضت في المياه لشقّ الكيس القابل للذوبان! أردت تحرير فيروس زوبريست قبل احتوائه!".

بدا الارتباك في عيني سيينّا. "الكيس القابل للذوبان! لا أعرف عمّا تتحدّث. روبرت، لقد ذهبت إلى هناك للحؤول دون انتشار فيروس بيرتراند... لسرقته وإخفائه إلى الأبد... لكي لا يتمكن أحد من تحليله، حتّى سينسكي والمنظّمة".

"سرِقته! لماذا تريدين إخفاءه عن منظمة الصحة؟".

أخذت سيينّا نفساً طويلاً ثم قالت: "ثمّة أمور كثيرة لا تعرفها، لكن الأوان فات الآن. لقد تأخرنا كثيراً يا روبرت. لم نحصل على أيّ فرصة".

"بلى، حصلنا فرصة! لم يكن الفيروس سيتحرّر قبل يوم غد! هذا هو التاريخ الذي اختاره زوبريست، ولو لم تنزلي إلى الماء–"

صاحت سيينّا: "روبرت، أنا لم أحرّر الوباء! عندما نزلت إلى الماء كنت أحاول إيجاده، لكن الأوان فات. لم يعد يوجد شيء هناك".

قال لانغدون: "لا أصدّقك".

"أعرف، ولا ألومك". ومدّت يدها إلى جيبها وأخرجت منشوراً رطباً، وقدّمته للانغدون مضيفة: "لكنّ هذا قد يساعد، وجدته قبل أن أنزل إلى البحيرة".

تناول الورقة وفتحها. كانت تتضمن برنامج الحفلة الممتدّ على سبعة أيام.

قالت: "انظر إلى التواريخ".

قرأ لانغدون التواريخ تكراراً. لسبب ما، اعتقد أنّ هذه الليلة كانت ليلة الافتتاح، وأوّل حفلة من الحفلات السبع التي تهدف إلى إغراء الناس بدخول الخزان الموبوء. لكنّ هذا المنشور يروي قصة مختلفة.

سألها لانغدون: "الليلة هي ليلة الختام! الأوركسترا تعرف منذ أسبوع!؟".

هزت سيينّا رأسها: "فوجئت مثلك. لقد انتشر الوباء يا روبرت. مضى أسبوع على ذلك".

قال: "هذا غير ممكن. غداً هو التاريخ. صنع زوبريست لوحة نقش عليها تاريخ الغد".

"أجل، رأيتها في الماء".

"إذاً أنت تعرفين أنّه حدّد تاريخ *الغد*".

تنهّدت سيينّا قائلة: "روبرت، أنا أعرف بيرتراند جيداً؛ أكثر ممّا اعترفت لك به. لقد كان عالِماً. أصبحت الآن أعرف أنّ التاريخ المدوّن على اللوحة ليس تاريخ إطلاق الوباء، بل تاريخ شيء آخر؛ شيء أكثر أهمية بالنسبة إلى تحقيقه هدفه".

"وما هو؟".

"إنّه تاريخ الإشباع العالمي، أي تاريخ انتشار الفيروس في أنحاء العالم كافة... وانتقال العدوى إلى جميع الناس".

شعر لانغدون بالذعر بسبب تلك الفكرة، لكنه مع ذلك اشتبه في أنّها تكذب. إذ كانت قصتها تحتوي على ثغرة كبيرة، وقد أثبتت سيينّا براعتها في الكذب.

حدّق إليها وقال: "ثمّة مشكلة واحدة سيينّا. إن كان الوباء قد سبق له أن انتشر في جميع أنحاء العالم، فلماذا لم يمرض أحد حتّى الآن؟".

نظرت بعيداً، غير قادرة على احتمال نظراته.

"إن كان هذا الوباء قد تسرّب منذ أسبوع، فلماذا لم يمت أحد؟".

التفتت إليه مجدداً ببطء. "لأنّ..." توقفت الكلمات في حلقها. "بيرتراند لم يصنع وباء". وامتلأت عيناها بالدموع مجدّداً: "بل شيئاً أكثر خطورة بكثير".

الفصل 98

على الرغم من الأوكسيجين الذي عبر في جهاز التنفّس، شعرت إليزابيث سينسكي بالدوار. مرّت خمس دقائق منذ أن كشفت الأجهزة النقاب عن الحقيقة المرعبة.

لقد اختفت فرصة الاحتواء منذ مدة طويلة.

من الواضح أنّ الكيس ذاب في الأسبوع الماضي، على الأرجح في ليلة الافتتاح التي علمت سينسكي أنّها كانت منذ سبعة أيام. ولم تختفِ البقايا القليلة من الكيس لأنها غلّفت بمادة لاصقة لتثبيت الكيس بالخيط.

لقد تسرّبت العدوى منذ أسبوع.

الآن، وبغياب أيّ إمكانية لعزل الفيروس، انكبّ العملاء على تحليل العيّنات في المختبر المؤقت الذي أقيم في الخزان. حتّى تلك اللحظة، لم تتوصّل الأجهزة سوى إلى حقيقة مؤكّدة واحدة لم تفاجئ أحداً.

أصبح الفيروس الآن منتشراً في الهواء.

يبدو أنّ محتويات الكيس قد عامت على السطح، وانتقلت ذرّات الفيروس إلى الهواء. عرفت سينسكي أنّه لن يستغرق وقتاً طويلاً لينتشر؛ لا سيّما في مكان مغلق.

خلافاً للبكتيريا أو العدوى الكيميائية، ينتشر الفيروس بين الناس بسرعة مذهلة. فالفيروسات طفيليات بسلوكها، تدخل جسد الكائن الحيّ وتعلق على الخلية المضيفة في عملية تسمى الامتزاز أو الامتصاص الكيميائي. بعد ذلك، تقوم بحقن الحمض النووي أو الحمض الريبي النووي الخاص بها في تلك الخلية، وتجنّد الخلية التي اجتاحتها، ثمّ تجبرها على استنساخ الفيروس عدّة مرّات. وعندما يصبح عدد النسخ كافياً، تقوم جزيئات الفيروس الجديدة بقتل الخلية واختراق جدارها، ثمّ تسرع للعثور على خلايا جديدة مضيفة تهاجمها، وهكذا تتكرر العمليّة.

بعد ذلك، يزفر المصاب بالعدوى أو يعطس، مرسلاً رذاذاً تنفسياً من جسده، فتبقى هذه الذرّات معلقة في الهواء إلى أن يتنشقها مضيفون آخرون للفيروس، وهكذا تبدأ العمليّة مجدّداً.

فكّرت سينسكي وهي تتذكّر الرسوم البيانية التي عرضها عليها زوبريست، والتي توضح الانفجار السكاني: *هذا هو النمو الأسّي. يستخدم زوبريست النمو المتسارع للفيروسات لمكافحة النمو المتسارع للسكان.*

غير أنّ السؤال الملحّ الآن هو ما سيكون عليه سلوك الفيروس.

بعبارة أخرى: *كيف سيهاجم ضحيته؟*

يعمل فيروس إيبولا على إضعاف قدرة الدم على التخثّر، ممّا يؤدي إلى نزيف متواصل. ويتسبّب فيروس هانتا بفشل رئوي، في حين تؤدّي مجموعة كاملة من الفيروسات المعروفة باسم الفيروسات الورمية إلى الإصابة بمرض السرطان. أمّا فيروس نقص المناعة البشرية فيهاجم الجهاز المناعي، مسبّباً مرض الأيدز. ولا يخفى على أحد في المجتمع الطبي أنّه لو كان فيروس نقص المناعة البشرية ينتقل في الهواء، لأدّى ذلك إلى انقراض الجنس البشري بكامله.

إذاً، ما الذي يسببه فيروس زوبريست؟

أيّاً تكن أعراضه، من الواضح أنّها تستغرق وقتاً للظهور... فالمستشفيات المجاورة لم تبلغ حتّى الآن عن مرضى يعانون من أعراض غير عادية.

ذهبت سينسكي إلى المختبر طلباً لإجابات عن تساؤلاتها. رأت برودر واقفاً قرب الدرج، بعد أن وجد إشارة هاتفية ضعيفة. كان يتحدّث مع شخص ما بصوت منخفض.

أسرعت إليه، ووصلت في الوقت الذي كان ينهي فيه مكالمته.

تراوحت ملامح برودر بين عدم التصديق والرعب وهو يقول: "حسناً، فهمت. مجدّداً، أشدّد على سرّية هذه المعلومات. لا أريد أن يراها أحد غيرك في هذه المرحلة. اتصل بي عندما تعرف المزيد، شكراً". ثمّ أنهى الاتصال.

سألته سينسكي: "ماذا يجري؟".

أخذ برودر نفساً بطيئاً. "تحدّثت للتوّ مع صديق لي، إنّه عالم فيروسات في مركز مكافحة الأمراض في أتلانتا".

قالت سينسكي: "هل أبلغتَ المركز من دون إذني؟".

أجابها: "اضطررت إلى ذلك. الشخص الذي اتصلت به سيتكتّم على الموضوع، فنحن بحاجة إلى معلومات أفضل من تلك التي سيوفرها لنا هذا المختبر".

نظرت سينسكي إلى العملاء الذين يأخذون عيّنات من الماء ويحلّلونها بواسطة الأجهزة الإلكترونية المحمولة. *إنّه محقّ.*

تابع برودر: "ذلك العالِم موجود في مختبر للأحياء المجهرية مجهّز بالكامل، وقد أكّد لي وجود فيروس معدٍ للغاية، ولم يسبق له أن رآه".

قاطعته سينسكي: "مهلاً، كيف أرسلت له عيّنة بهذه السرعة!؟".

أجابها برودر بتوتّر: "لم أفعل. لقد أجرى تحليلاً لدمه".

استغرقت سينسكي لحظة واحدة لاستيعاب معنى هذا الكلام.

الفيروس منتشر في مختلف أنحاء العالم.

الفصل 99

مشى لانغدون ببطء، كما لو كان في كابوس حيّ. *ما هو الشيء الأخطر من الوباء؟*

لم تقل سيينّا شيئاً منذ أن غادرت المركب وأشارت إلى لانغدون ليتبعها بعيداً عن حوض السفن، على طريق هادئ مرصوف بالحصى؛ بعيداً عن المياه وأعين الناس.

كانت سيينّا قد توقفت عن البكاء، لكنّ لانغدون شعر بانفعالات عديدة تعصف داخلها. سمع صفّارات الإنذار تنطلق بعيداً، لكنْ لا يبدو أنّ سيينّا قد لاحظتها. كانت تحدّق إلى الأرض بشرود، وهي تسمع وقع خطواتهما المنتظمة على الحصى.

دخلا حديقة صغيرة، وقادته سيينّا نحو مجموعة كثيفة من الأشجار عزَلتهما عن العالم. جلسا على مقعد يطلّ على الماء. على الشاطئ المقابل، تلألأ برج غالاتا فوق المباني السكنية الهادئة المنتشرة على سفح التلّ. بدا العالم مسالماً جدّاً من هنا، ومختلفاً جدّاً عمّا يجري في الخزان. توقع لانغدون أن تكون سينسكي وأعضاء فريقها قد أدركوا أنّهم وصلوا لإيقاف الوباء متأخّرين.

بجانبه، حدّقت سيينّا إلى البحر. قالت: "ليس لديّ وقت كافٍ روبرت. قريباً ستجدني السلطات. لكن، عليّ أوّلاً أن أخبرك بالحقيقة... كاملةً".

هزّ لانغدون رأسه بصمت.

مسحت سيينّا دموعها، والتفتت نحوه. قالت: "كان بيرتراند زوبريست... حبّي الأوّل، ثمّ أصبح أستاذي".

قال لانغدون: "سبق لي أن عرفت ذلك سيينّا".

فوجئت، لكنّها تابعت حديثها، وكأنّها تخشى أن تفقد شجاعتها. "كنت في سنّ يافعة، فسحرتني أفكاره. كان بيرتراند مثلي، يعتقد أنّ الجنس البشري على شفير الانهيار... وأنّ نهاية مرعبة ووشيكة جدّاً تنتظرنا، لكنّ أحداً لا يجرؤ على تقبّل ذلك".

لم يتفوّه لانغدون بكلمة.

"قضيتُ طفولتي بأكملها وأنا أرغب في إنقاذ العالم. لكنّني لم أكن أسمع سوى عبارة واحدة: لا يمكنك إنقاذ العالم، لذلك لا تضحّي بسعادتك وأنت تحاولين القيام بذلك". سكتت، وقاومت دموعها قبل أن تتابع: "ثمّ التقيت بيرتراند الذي كان رجلاً وسيماً ولامعاً، لا يعتقد أنّ إنقاذ العالم أمر ممكن فحسب... بل يعتبر ذلك واجباً أخلاقياً. عرّفني على دائرة كاملة من الأشخاص الذين يفكّرون بالطريقة نفسها، ويتمتعون بالذكاء وبقدرات ذهنية هائلة... إنهم أشخاص *قادرون* فعلاً على تغيير المستقبل. للمرّة الأولى في حياتي، لم أعد حينها أشعر أنّني وحيدة روبرت".

ابتسم لانغدون بلطف، وشعر بالألم الذي يشوب صوتها.

تابعت سيينّا بصوت يزداد انفعالاً: "لقد عانيت من أمور فظيعة في حياتي؛ أمور كان من الصعب عليّ تجاوزها..." أشاحت بنظرها ومرّرت يدها المرتجفة على رأسها، قبل أن تسيطر على نفسها وتلتفت إليه مجدّداً. "ربّما لهذا السبب، إنّ الشيء الوحيد الذي ساعدني على الاستمرار هو اعتقادي أنّنا قادرون على أن نكون أفضل... على اتّخاذ إجراء لتجنّب مستقبل كارثي".

سألها لانغدون: "وهل هذا ما يعتقده بيرتراند أيضاً؟".

"بالتأكيد. كان لدى بيرتراند أمل لا حدود له في الجنس البشري. كان يعتقد أنّنا نعيش على شفير عصر متألق لما بعد البشرية، وهي حقبة تحوّل حقيقي. كان لديه عقل مستقبلي، وعينان تريان على مدى بعيد؛ على نحو يعجز عنه كثيرون. لقد فهم القوى الهائلة للتكنولوجيا، واعتقد أنّه بعد بضعة أجيال، سيصبح جنسنا مخلوقاً مختلفاً تماماً؛ محسّناً جينياً ليكون أكثر صحّة وذكاء وقوّة وتعاطفاً. لكنّ المشكلة الوحيدة هي أنّنا لن نعيش بما فيه الكفاية لتحقيق ذلك".

قال لانغدون: "بسبب الانفجار السكّاني...".

هزّت رأسها موافقة. "كارثة مالتوس. كان بيرتراند يقول لي إنّه يشعر وكأنّه سان جورج الذي يحاول ذبح وحش من العالم السفلي".

لم يفهم لانغدون. "هل يقصد الميدوزا؟".

"مجازياً، أجل. الميدوزا وفئة كاملة من كائنات العالم السفلي التي تعيش تحت الأرض لأنّها على صلة مباشرة بأمّنا الأرض. على الصعيد الرمزي، غالباً ما ترمز وحوش العالم السفلي إلى–"

"الخصوبة"، وفوجئ لانغدون لأنّ هذا الأمر لم يخطر له مسبقاً. *الخصوبة. السكان.*

قالت سيينّا: "أجل، الخصوبة. استخدم بيرتراند عبارة *وحش العالم السفلي* للإشارة إلى التهديد الذي يتربّص بخصوبتنا. وصف تكاثرنا بأنّه وحش يلوح في الأفق... وحش علينا احتواؤه على الفور، قبل أن يقضي علينا كلّنا".

أدرك لانغدون؛ *رجولتنا تهدّدنا. إنّها الوحش الذي يتربّص بنا*. "وكيف حارب بيرتراند هذا الوحش؟".

قالت بنبرة دفاعية: "افهم أرجوك، هذه المشاكل لا يسهل حلّها. فالانتقاء يكون دائماً عمليّة فوضوية. الرجل الذي يقطع ساق طفل في الثالثة من عمره مجرم رهيب... لكن، إن كان ذلك الرجل طبيباً يحاول إنقاذ حياة الطفل المصاب بالغرغرينا... فعندها يختلف الأمر. في بعض الأحيان، يكون الخيار هو أحلى المرّين. وأعتقد أنّ بيرتراند كان لديه هدف نبيل... لكنّ وسائله..." ونظرت بعيداً، وهي على وشك الانهيار.

همس لانغدون بلطف: "سيينّا، أريد أن أفهم كلّ هذا. أريد أن تشرحي لي ما فعله بيرتراند. ما الذي نشره في العالم؟".

نظرت إليه سيينّا، وبدا في عينيها البنّيتين خوف واضح. همست: "لقد أطلق فيروساً؛ نوعاً محدّداً جدّاً من الفيروسات في الواقع".

حبس لانغدون أنفاسه. "أخبريني عنه".

"ابتكر بيرتراند شيئاً يُعرف باسم ناقل فيروسي. إنّه فيروس مصمّم لإدخال معلومات جينية إلى الخلية التي يهاجمها". سكتت لتسمح له باستيعاب الفكرة. "عوضاً عن *قتل* الخلية المضيفة... يقوم الفيروس الناقل... بإدخال حمض نووي محدّد مسبقاً إلى تلك الخلية، حيث *يعدّل* جينوم الخلية".

كافح لانغدون ليفهم معنى كلامها. *هذا الفيروس يعدّل حمضنا النووي؟*

تابعت سيينّا: "تتمثّل طبيعة هذا الفيروس الغادر في أنّ أحداً منّا لن يعرف أنّه مصاب به. وذلك لأنّه لا يسبب المرض ولا يولّد أعراضاً واضحة تشير إلى تغيّر سماتنا الوراثية".

شعر لانغدون بالدم يتدفّق في عروقه. "وما *التغيير* الذي يحدثه؟".

أغمضت سيينّا عينيها للحظة، ثمّ همست: "روبرت، عندما تسرّب هذا الفيروس إلى مياه الخزان بدأت سلسلة من التفاعلات. كلّ من نزل إلى هناك وتنشّق الهواء أصيب بالفيروس. أصبح مضيفاً له... وتواطأ من دون أن يعرف لنقل الفيروس إلى الآخرين؛ مسبّباً انتشاراً متسارعاً للمرض الذي امتدّ ليصل إلى جميع أنحاء الكرة الأرضية الآن، وانتشر كالنار في الهشيم. الآن، أصبح جميع سكّان الكرة الأرضية حاملين للفيروس، أنت، أنا... *الجميع*".

نهض لانغدون عن مقعده، وبدأ يمشي أمامها بعصبية. كرّر سؤاله: "وما الذي يفعله بنا؟".

صمتت سيينّا لمدّة طويلة. "الفيروس يجعل الجسد البشري... عقيماً. لقد ابتكر بيرتراند وباء عقم".

صُعق لانغدون. *فيروس يسبّب لنا العقم*! عرف أنّه ثمّة فيروسات يمكن أن تسبّب العقم، لكنّه لم يتخيّل وجود فيروس ينتقل عبر الهواء ويستطيع فعل ذلك من خلال التعديل *وراثياً*... بدت له هذه الفكرة وكأنّها تنتمي إلى عالم آخر؛ مستقبل غريب ومرير.

قالت سيينّا: "غالباً ما حلم بيرتراند بوجود فيروس كهذا، لكنّني لم أتخيل أن يحاول اختراعه... أو أن ينجح في ذلك. عندما وصلتني رسالته وعلمت بما قام به، صُدمت. حاولت يائسة ثنيه عن فعل ذلك، والتوسّل إليه لتدمير اختراعه، لكنّني وصلت متأخّرة".

قال لانغدون بعد أن تمكّن من الكلام أخيراً: "مهلاً، إن كان الفيروس يسبّب العقم لجميع الناس فلن تكون هناك أجيال جديدة، وسيبدأ الجنس البشري بالانقراض... على الفور".

أجابته: "هذا صحيح. لكنّ الانقراض ليس هدف بيرتراند، بل العكس تماماً. لذلك ابتكر فيروساً يعمل بشكل *عشوائي*. فعلى الرغم من توطّن فيروس إنفيرنو في الحمض النووي لدى جميع البشر، وانتقاله من جيل إلى جيل، إلاّ أنّه لن يكون ناشطاً سوى لدى نسبة من السكّان. بكلمات أخرى، كلّ من على هذه الأرض يحملون الفيروس الآن، لكنّه لن يسبّب العقم سوى *لجزء* تمّ اختياره عشوائياً".

سألها لانغدون وهو لا يصدق: "أيّ... جزء؟".

"كما تعلم، كان بيرتراند يركّز كثيراً على الموت الأسود؛ الطاعون الذي قتل من دون تمييز ثلث سكان أوروبا. برأيه، الطبيعة تعرف كيف تطهّر نفسها. عندما أجرى بيرتراند حساباته على

العقم، دُهش عندما اكتشف أن معدّل وفيات الطاعون - أي *واحد من ثلاثة* - هو النسبة المطلوبة تماماً لبدء غربلة السكّان بمعدل يمكن التحكّم به".

فكّر لانغدون في سرّه: *هذا وحشي*.

"خفض الموت الأسود عدد السكّان، ومهّد الطريق أمام عصر النهضة. وبيرتراند ابتكر فيروس إنفيرنو كحافز معاصر للتجدّد العالمي؛ إنّه موت أسود ما وراء إنساني، والفرق هو أنّ المصابين بالمرض لن يموتوا، بل سيصبحون عُقماء بكلّ بساطة. إن انتشر فيروس بيرتراند كما يتوقع له أن يفعل، فيصاب ثلث سكان العالم بالعقم... وسيظلّون عُقماء طوال حياتهم. وهكذا، سيكون الأثر مماثلاً للجينة المنحسرة... التي تنتقل إلى الأبناء لكنّها لا تمارس تأثيرها سوى على نسبة صغيرة منهم".

ارتجفت يدا سيينّا وهي تتابع: "في رسالة بيرتراند لي، بدا فخوراً بنفسه وهو يقول إنّه يعتبر إنفيرنو حلاً أنيقاً وإنسانياً جدّاً للمشكلة". دمعت عيناها مجدّداً، فمسحتهما وتابعت: "مقارنة بأعراض الموت الأسود، أقرّ أنّ هذه المقاربة تتّسم بشيء من التعاطف. فالمستشفيات لن تكتظّ بالمرضى والمحتضرين، ولن تتعفّن الجثث في الشوارع، ولن يحزن الأحياء على فراق أحبّائهم. كلّ ما سيحدث هو أنّ الناس سيتوقّفون عن إنجاب الكثير من الأطفال. سيشهد كوكبنا انخفاضاً مطّرداً في نسبة الولادات؛ إلى أن تبدأ أعدادنا بالانخفاض". صمتت ثمّ أضافت: "سيكون الأثر أكبر من أثر الطاعون الذي اقتصر على خفض أعدادنا لمدّة وجيزة؛ مؤدّياً إلى انخفاض مؤقّت في مخطّط الزيادة السكانية. مع إنفيرنو، ابتكر بيرتراند حلاً طويل الأمد؛ حلاً دائماً... حلاً *ما وراء إنساني*. كان مهندساً جينياً للسلالة الجرثومية. لقد حلّ المشكلة من جذورها".

همس لانغدون: "هذا إرهاب جيني... إنّه يغيّر ما نحن عليه وما كنّا عليه من الجذور".

"لم ير بيرتراند الأمور على هذا النحو. فقد حلم بإصلاح العيب القاتل في التطوّر البشري... ألا وهو كون جنسنا كثير التوالد ببساطة. نحن كائنات - على الرغم من ذكائها - لا تعرف كيف تسيطر على أعدادها. فعلى الرغم من موانع الحمل المجّانية، والتعليم، والبرامج الحكومية، ما زلنا ننجب الأطفال... سواء أشئنا أم أبينا. هل تعرف أنّ مركز مكافحة الأمراض أعلن للتوّ أنّ نصف حالات الحمل في الولايات المتّحدة غير مخطّط لها؟ وفي الدول التي ما زالت في طور النموّ، يتجاوز هذا الرقم 70 بالمائة!".

سبق للانغدون أن رأى هذه الإحصائيات، لكنّه لم يبدأ بفهم مضامينها سوى الآن. إذ يبدو البشر مثل أرانب أدخلت إلى إحدى جزر المحيط الهادئ، وسُمح لها بالتكاثر من دون حسيب ولا رقيب إلى أن استنفدت نظامها البيئي وانقرضت.

لقد أعاد زوبريست تصميم جنسنا... حاول إنقاذنا عبر تحويلنا إلى بشر أقلّ خصوبة.

أخذ لانغدون نفساً عميقاً وحدّق إلى البوسفور. شعر أنّه يتأرجح مثل الزوارق التي تبحر بعيداً. كانت صفّارات الإنذار تقترب؛ آتية باتّجاه الرصيف، فأحسّ أنّ الوقت ينفد.

قالت سيينّا: "أفظع ما في الأمر *ليس* العقم الذي يسببه إنفيرنو بل *قدرته* على فعل ذلك. فالناقل الفيروسي الذي ينتقل عبر الهواء يشكّل قفزة نوعية عبر الزمن. لقد نقلَنا زوبريست فجأة من عصور الظلام في مجال الهندسة الجينية، وأطلقَنا في المستقبل مباشرة. فقد *فتح* عمليّة التطوّر، ومنح الجنس البشري القدرة على إعادة تعريف نوعنا. لقد خرج الجنيّ من القمقم، ومن المستحيل إعادته. صنع بيرتراند مفاتيح تعديل العرق البشري... وإن وقعت هذه المفاتيح في الأيادي الخاطئة، كان الله في عوننا. لم يكن ينبغي ابتكار هذه التكنولوجيا من الأساس. لذلك، عندما قرأت رسالة بيرتراند التي شرح لي فيها كيف حقّق أهدافه، قمت بإحراقها، ثمّ قررت العثور على الفيروس وتدمير كلّ أثر له".

قال لانغدون بصوت مشوب بالغضب: "لا أفهم، إن كنت تريدين تدمير الفيروس، فلماذا لم تتعاوني مع د. سينسكي ومنظّمة الصحّة العالمية؟! كان عليك الاتصال بمركز مكافحة الأمراض أو بخبير ما".

"هل أنت جادّ؟! الوكالات الحكومية هي آخر الكيانات التي يجب أن تضع يدها على هذه التكنولوجيا! فكّر في الأمر، روبرت. في التاريخ البشري، كلّ تكنولوجيا متطورة اكتشفها العلم تحولت إلى سلاح؛ بدءاً من النار، ووصولاً إلى القوة النووية، وكانت دائماً بين أيادي الحكومات. ما مصدر أسلحتنا البيولوجية برأيك؟ لقد نتجت عن أبحاث أجريت في منظمات مثل منظّمة الصحّة العالمية ومركز مكافحة الأمراض. وتكنولوجيا بيرتراند – أي الفيروس الوبائي المستخدم كناقل جيني – أقوى سلاح ابتُكر على وجه الأرض. فهو يمهّد الطريق لفظائع لا يمكن تخيلها، بما في ذلك الأسلحة البيولوجية المستهدفة. تخيّل وباء يهاجم فقط الأشخاص الذين يحتوي رمزهم الجيني على علامات عرقية معينة. إنّه يتيح إمكانية التطهير العرقي على المستوى الجيني!".

"أنا أتفهّم مخاوفك سيينّا. لكن، ألا يمكن استخدام هذه التكنولوجيا لأهداف خيّرة أيضاً؟ أليس هذا الاكتشاف عظيماً بالنسبة إلى الطبّ الجيني؟ ألا يشكل طريقة جديدة لإعطاء تلقيحات عالمية مثلاً؟".

"ربّما، لكن مع الأسف، تعلّمت أن أتوقّع الأسوأ ممّن يملكون السلطة".

من بعيد، سمع لانغدون صوت طائرة مروحية تحلّق في الهواء. نظر عبر الأشجار إلى الخلف، باتجاه بازار التوابل، ورأى مصابيح طائرة تحوم فوق التلّ متوجّهة نحو حوض السفن. بدا التوتّر على سيينّا التي قالت وهي تقف وتنظر نحو الغرب باتجاه جسر أتاتورك: "عليّ الذهاب. أعتقد أنّني أستطيع عبور الجسر سيراً على الأقدام، ومن هناك، سأذهب إلى–"

قال بحزم: "لن أسمح لك بالرحيل سيينّا".

"روبرت، عدت لأنّني شعرت أنّني أدين لك بتفسير. وها قد حصلتَ عليه".

"كلاّ، بل عدتِ لأنّك كنت تهربين طوال حياتك، وأدركت أخيراً أنّ الهرب لم يعد يفيد".

بدت سيينّا وكأنّها تتقلّص أمامه. سألته وهي تشاهد الطائرة المروحية تمرّ فوق الماء: "وهل لديّ خيار آخر؟ سيزجّون بي في السجن إن عثروا عليّ".

"أنتِ لم تفعلي شيئاً خاطئاً سيينّا. لست أنت من صنع هذا الفيروس... ولستِ من أطلقه".

"صحيح. لكنّني بذلت ما في وسعي لمنع منظّمة الصحّة العالمية من إيجاده. إن لم ينتهِ بي الأمر في سجن تركي، فسأواجه محكمة دولية بتهمة الإرهاب البيولوجي".

مع اقتراب هدير الطائرة، نظر لانغدون إلى الرصيف. كانت الطائرة تحوم هناك، مسلّطة أضواء مصابيحها على الزوارق.

شعر أنّ سيينّا جاهزة للانطلاق في أيّ لحظة.

قال لانغدون بنبرة لطيفة: "أصغي إليّ رجاء، أنا أعرف أنّك عانيت الكثير، وأنّك خائفة، لكن فكّري بالصورة الكبيرة. بيرتراند هو من صنع هذا الوباء، وأنت حاولت إيقافه".

"لكنّني فشلت".

"صحيح، والآن انتشر الفيروس. سيحتاج المجتمعان العلمي والطبّي إلى فهم كلّ شيء عنه، وأنت الشخص *الوحيد* المؤهّل لفعل ذلك. ربّما كانت ثمّة طريقة لإبطاله... أو للاستعداد لمواجهته". وجّه إليها لانغدون نظرات حادّة مضيفاً: "سيينّا، العالم *يحتاج* إلى معرفة ما تعرفينه، ولا يمكنك الاختفاء ببساطة".

كان جسد سيينّا النحيل يرتعش، كما لو أنّ الحزن وعدم اليقين يهدّدان بالانفجار بداخلها. "روبرت، أنا... لا أعرف ماذا يجب أن أفعل. حتّى إنّني لم أعد أعرف من أكون. انظر إليّ". ووضعت يدها على رأسها الأصلع. "لقد تحوّلت إلى وحش. كيف يمكنني أن أواجه–"

تقدّم منها روبرت وأحاطها بذراعيه. شعر بجسدها يرتجف، كما شعر بضعفها. همس بصوت منخفض: "سيينّا، لن أسمح لك بالهرب. عليك أن تبدئي عاجلاً أم آجلاً بالوثوق *بشخص ما*".

أخذت تنتحب قائلة: "لا أستطيع... لم أعد أعرف كيف أفعل ذلك".

احتضنها بقوّة أكبر. "ابدئي بخطوات صغيرة. ثقي بي".

الفصل 100

أجفل العميد عندما سمع قعقعة معدنية قوية خارج طائرة C-130. في الخارج، كان أحدهم يطرق بمسدس على باب الطائرة طالباً الدخول.

أمرهم الطيار وهو يتّجه نحو الباب: "ابقيا جالسين على مقاعديكما، إنّهم رجال الشرطة التركية. لقد توقفوا للتوّ خارج الطائرة".

تبادل العميد وفيريس نظرة سريعة.

شعر العميد من سيل الاتّصالات المذعورة بين موظّفي منظّمة الصحّة العالمية على الطائرة أنّ مهمّة الاحتواء قد فشلت. *لقد نفّذ زوبريست خطّته، وشركتي هي التي سمحت له بذلك.*

في الخارج، صاح صوت آمِر باللغة التركية.

وقف العميد وأمر الطيّار قائلاً: "لا تفتح الباب!".

وقف الطيّار وحدّق إلى العميد. "لكن، لماذا؟".

أجاب: "منظّمة الصحّة العالمية منظّمة إغاثة دولية، وهذه الطائرة تعتبر بمثابة أرض ذات سيادة!"

هزّ الطيّار رأسه نافياً. "سيّدي، هذه الطائرة متوقّفة في مطار تركي، وإلى أن تغادر الأجواء التركية ينبغي لها أن تخضع لقوانين هذا البلد". بعد ذلك، توجّه الطيّار إلى باب الطائرة وفتحه.

ظهر رجلان يرتديان الزيّ الرسمي وحدّقا إلى الداخل. لم يظهر في نظراتهما الجادّة أيّ أثر للتهاون. سأل أحدهما بلكنة ثقيلة: "من هو قبطان هذه الطائرة؟".

أجاب الطيّار: "أنا".

أعطى الضابط الطيار ورقتين. "هاتان مذكّرتا اعتقال. يجب أن يأتي هذان المسافران معنا".

نظر الطيّار إلى الورقتين، ثمّ التفت إلى العميد وفيريس.

قال العميد للطيّار: "اتّصل بدكتور سينسكي، نحن في مهمّة دولية عاجلة".

نظر أحد الضابطين إلى العميد وقال ساخراً: "د. *إليزابيث سينسكي*؟! مديرة منظّمة الصحّة العالمية؟ هي التي أمرت باعتقالكما".

أجاب العميد: "هذا مستحيل. لقد أتينا أنا والسيّد فيريس إلى تركيا لمساعدة د. سينسكي".

قال الضابط الثاني: "إذاً، لقد أحسنتما فعلاً. اتّصلت بنا د. سينسكي، وأبلغتنا أنّكما متواطئان في مؤامرة إرهابية بيولوجية على الأراضي التركية". ثمّ أخرج الأصفاد مضيفاً: "ستأتيان معنا إلى مركز الشرطة للاستجواب".

صاح العميد: "أريد محامياً!".

بعد ثلاثين ثانية، وجد نفسه هو وفيريس مكبّلَين بالأصفاد، وقد تمّ اقتيادهما إلى خارج الطائرة، ودفعهما للجلوس على المقعد الخلفي لسيارة سيدان سوداء. انطلقت السيّارة على المدرج مبتعدة، ومتجهة نحو زاوية بعيدة من المطار. وهناك توقفت عند سياج سبق لها أن اخترقته عندما دخلت أرض المطار. ما إن عبرت السيّارة من فتحة في السياج، حتّى انطلقت عبر مساحة مخصّصة لآليات المطار المخزّنة وتوقفت قرب مبنى قديم للخدمة.

ترجّل الضابطان من السيّارة وراقبا المنطقة. وعندما اطمأنّا إلى أنّ أحداً لا يتبعهم، خلعا زيّ الشرطة ورميا الثياب جانباً، ثمّ ساعدا فيريس والعميد على الترجّل من السيّارة، ونزعا الأصفاد من أيديهما.

أخذ العميد يفرك معصميه، وأدرك أنّ السجن لا يناسبه.

قال أحد العميلين مشيراً إلى فان أبيض مركون في الجوار: "مفاتيح السيّارة موجودة تحت الدوّاسة. ثمّة حقيبة على المقعد الخلفي تحتوي على كلّ ما طلبته؛ فيها وثائق سفر، ومبالغ نقدية، وهواتف مسبقة الدفع، وملابس، فضلاً عن بعض الأغراض الأخرى التي رأينا أنّكما قد تحتاجان إليها".

قال العميد: "شكراً لكما، أنتما ممتازان".

"إنّنا مدرّبان جيّداً وحسب سيّدي".

بعد ذلك، ركب الرجلان التركيان في سيّارة سيدان السوداء ورحلا.

ما كانت سينسكي لتسمح لي بالذهاب مطلقاً. هذا ما فكّر فيه العميد واستعدّ له في أثناء رحلته إلى إسطنبول. لذا، أرسال رسالة إلكترونية إلى الفرع المحلّي للكونسورتيوم، وأشار إلى أنّه قد يحتاج هو وفيريس إلى المساعدة على الفرار.

سأله فيريس: "هل تظنّ أنّها ستلحق بنا؟".

هزّ العميد رأسه قائلاً: "سينسكي؟ بالتأكيد. مع أنّني أظنّ أنّها منشغلة بأمور أخرى في هذه اللحظة".

صعد الرجلان إلى الفان الأبيض، وبحث العميد بين محتويات الحقيبة للاطمئنان إلى وجود الوثائق المطلوبة. أخرج قبّعة بايسبول ووضعها على رأسه، ثمّ وجد زجاجة شراب صغيرة.

هذان الشابّان رائعان فعلاً.

رمق العميد زجاجة الشراب، وفكّر في الانتظار حتّى الغد. لكنّه تذكّر كيس زوبريست، وتساءل عمّا سيكون عليه الغد.

لقد خرقتُ قاعدتي الأساسيّة، ووشيتُ بعميلي.

شعر العميد بالضياع وهو يفكر في أنّ الأيّام القادمة ستطغى عليها أخبار كارثة أدّى فيها دوراً هاماً جدّاً. *ما كان لهذا الأمر أن يحدث لولاي*.

للمرّة الأولى في حياته، لم يعد يجد أنّ الجهل مبدأ أساسي. فتح غطاء الزجاجة وهو يفكّر:

استمتِع، فأيّامك معدودة على أيّ حال.

أخذ العميد جرعة كبيرة من الشراب.

فجأة، أضاءت الظلام مصابيح زرقاء، وأحاطت بهما سيّارات الشرطة من كلّ حدب وصوب.

نظر العميد حوله مذعوراً... ثمّ جلس كالتمثال.

لا مفرّ منهم.

مع اقتراب ضبّاط الشرطة التركية من الفان شاهرين أسلحتهم، أخذ العميد جرعة أخيرة من شرابه، ثمّ رفع يديه فوق رأسه.

هذه المرّة، عرف تماماً أنّ ضبّاط الشرطة ليسوا من رجاله.

الفصل 101

يقع مقرّ السفارة السويسرية في وان ليفينت بلازا، في ناطحة سحاب عصرية للغاية. ويشكّل المبنى المقعّر بواجهته الزجاجية الزرقاء بناء مستقبلي الطراز في أفق المدينة القديمة.

مرّت ساعة تقريباً على مغادرة سينسكي للخزان لتتّخذ من مكاتب السفارة السويسرية مقرًّا مؤقّتاً لها. انتشرت في الصحف المحلّية تقارير عن موجة الذعر التي عمّت الخزان في ليلة الختام لسيمفونية دانتي. لم تُذكر أيّ تفاصيل بعد، لكنّ وجود فريق طبّي دولي يرتدي البذلات الواقية أدّى إلى الكثير من التكهنات كثيرة.

حدّقت سينسكي من النافذة إلى أضواء المدينة، وشعرت بوحدة بالغة. مدّت يدها تلقائياً إلى عنقها باحثة عن تميمتها، لكنّها لم تجدها. كانت الآن موضوعة على مكتبها وقد انقسمت إلى نصفين.

أنهت مديرة منظّمة الصحّة العالمية للتوّ تنسيق سلسلة من الاجتماعات الطارئة التي ستعقد في جنيف في الساعات المقبلة. كان عدد من الوكالات في طريقه إلى هناك الآن، وخطّطت سينسكي للسفر إلى هناك خلال وقت قصير من أجل إطلاعهم بنفسها على تفاصيل ما جرى. لحسن الحظ، قام أحد الموظفين الليليين بإحضار كوب كبير من القهوة التركية لها، وسرعان ما أتت عليه.

أطلّ شابّ من باب مكتبها المفتوح. "سيّدتي، لقد أتى روبرت لانغدون لرؤيتك".

"شكراً، أدخله من فضلك".

كان لانغدون قد اتّصل بها قبل عشرين دقيقة، وأخبرها أنّ سيينا قد هربت منه على متن قارب في البحر. هذا ما قالته أيضاً السلطات التي ما زالت تلاحقها حتّى الآن، لكنّ من دون جدوى.

دخل لانغدون، لكنّها بالكاد عرفته. كانت ملابسه متّسخة، وشعره مشعّثاً، وعيناه متعبتين وغائرتين.

وقفت سينسكي وسألته: "بروفيسور، هل أنت بخير؟".

ابتسم لانغدون مجيباً: "عشت ليالي أفضل".

أشارت إلى أحد المقاعد قائلة: "اجلس من فضلك".

جلس وقال من دون مقدّمات: "تسرّب وباء زوبريست منذ أسبوع حسبما أعتقد".

هزّت رأسها. "أجل، توصّلنا إلى هذا الاستنتاج. لم تسجّل أعراض حتى الآن، لكنّنا أخذنا عيّنات وبدأنا بإجراء فحوصات مكثّفة عليها. مع الأسف، سنحتاج إلى أيّام أو أسابيع لنفهم ماهيّة هذا الفيروس... وما قد يسبّبه للبشر".

قال لانغدون: "إنّه فيروس ناقل".

فوجئت سينسكي، إذ لم تتوقّع أن يعرف هذه العبارة أساساً. "المعذرة؟".

"ابتكر زوبريست فيروساً ينتقل عبر الهواء، إنّه فيروس قادر على تعديل الحمض النووي البشري".

وقفت فجأة، وسقط كرسيّها في أثناء ذلك. "*مستحيل!* ما الذي يدفعك إلى هذا الاعتقاد؟".

أجابها بهدوء: "سيينّا هي التي أخبرتني بذلك، منذ نصف ساعة".

استندت سينسكي بيديها على المكتب، وحدّقت إلى لانغدون بضياع. "ألم تهرب؟".

"بالطبع فعلت. كانت حرّة على متن مركب في البحر، وكان من السهل بالنسبة إليها أن تختفي إلى الأبد. لكنّها فكّرت، وعادت بملء إرادتها. سيينّا تريد المساعدة لحلّ هذه المشكلة".

ضحكت سينسكي قائلة: "اعذرني، لكنّني لا أميل إلى الوثوق بالآنسة بروكس، لا سيّما عندما تدّعي أمراً كهذا".

قال لانغدون بحزم: "أنا أصدّقها. وإن كانت تدّعي أنّ هذا فيروس ناقل، فمن الأفضل أخذ كلامها على محمل الجدّ".

شعرت سينسكي بالإنهاك فجأة، وكافحت لتحليل كلام لانغدون. ذهبت نحو النافذة، وحدّقت إلى المدينة. *فيروس ناقل يعدّل الحمض النووي؟* على الرغم من استحالة الفكرة وفظاعتها، إلاّ أنّها أقرّت أنّها تنطوي على شيء من المنطق. ففي النهاية، كان زوبريست مهندساً جينياً، ويعرف تماماً أنّ أقلّ تعديل في جينة واحدة سيترك آثاراً كارثية على الجسم؛ كالإصابة بالسرطان، أو فشل عضوي، أو اضطرابات في الدم. حتّى إنّ مرض التكيّس الليفي البغيض، الذي يغرق ضحيته بالسائل المخاطي، ناجم عن تعديل ضئيل جدّاً في جينة منظِّمة على الكروموزوم السابع.

بدأ المتخصّصون الآن بعلاج هذه الأمراض الوراثية بفيروسات ناقلة بدائية يتمّ حقنها في جسم المريض مباشرة. وتتمّ برمجة هذه الفيروسات غير المعدية للانتقال في جسم المريض وإدخال حمض نووي بديل يعدّل الأجزاء المتضررة. غير أنّ هذا العلم الجديد – على غرار كلّ العلوم – يشتمل على جانب مظلم. فمن شأن نتائج الفيروس الناقل أن تكون إيجابية أو مدمّرة... بحسب نوايا المهندس. إن تمّت برمجة أحد الفيروسات على نحو خبيث لإدخال حمض نووي متضرّر إلى الخلايا السليمة، فستكون النتائج مدمّرة. علاوة على ذلك، إن صُمّم ذلك الفيروس ليكون معدياً ولينتقل عبر الهواء...

ارتعشت سينسكي عندما خطرت لها هذه الفكرة. *أيّ فظاعة حلم بها زوبريست؟ كيف خطّط لخفض أعداد البشر؟*

عرفت أنّ التوصّل إلى إجابة سيستغرق أسابيع. فالشيفرة البشرية الوراثية عبارة عن متاهة لا حدود لها من التعديلات الكيميائية، وتفتيشها بأكملها للعثور على تعديل معيّن قام به زوبريست سيكون كالبحث عن إبرة في كومة قشّ... حتّى من دون أن نعرف في أيّ مكان على هذا الكوكب تقع تلك الكومة.

قال لانغدون بصوته العميق: "إليزابيث؟".
التفتت سينسكي ونظرت إليه.
سألها بهدوء: "هل سمعتني؟ أرادت سيينّا تدمير هذا الفيروس؛ مثلك تماماً".
"أنا حقّاً أشكّ في ذلك".
تنهّد لانغدون ووقف قائلاً: "أظنّ أنّه يتوجّب عليك أن تصغي إليّ. قبل موت زوبريست بوقت قصير، كتب رسالة لسيينا، وشرح لها فيها ما فعله. أخبرها بما سيسببه هذا الفيروس... وكيف سيهاجمنا... وكيف سيحقّق غاياته".
جمدت سينسكي. *ثمّة رسالة؟!*
"عندما قرأت سيينّا وصف زوبريست لما فعله، شعرت بالرعب. أرادت إيقافه، واعتبرت أنّ هذا الفيروس خطير، ولا يجب أن يصل إليه أحد، بما في ذلك منظّمة الصحّة العالمية. ألا تفهمين؟ كانت سيينّا تحاول تدمير الفيروس... وليس إطلاقه".
سألته سينسكي: "هل قلت إنّه ثمّة رسالة؟ مع *تفاصيل*؟".
"هذا ما قالته سيينّا، أجل".
"نحتاج إلى تلك الرسالة! فالتفاصيل ستوفّر علينا أشهراً من البحث لفهم هذا الشيء وكيفيّة التعامل معه".
هزّ لانغدون رأسه. "أنت لم تفهمي. عندما قرأت سيينّا رسالة زوبريست، ذعرت وأحرقتها فوراً. أرادت أن تضمن عدم–"
ضربت سينسكي بيدها على المكتب، وصاحت غاضبة: "دمّرت الشيء الوحيد الذي يمكن أن يساعدنا على مواجهة هذه الأزمة! وتطلب منّي الوثوق بها!"
"أنا أفهم أنّني أطلب الكثير نظراً إلى أفعالها. لكن، عوضاً عن إبعادها قد يكون من الأفضل أن نتذكّر أنّ سيينا تتمتع بقدرات عقلية خارقة؛ بما في ذلك قدرتها على الحفظ. ماذا لو كانت تستطيع إعادة كتابة رسالة زوبريست من أجل مساعدتك؟"
هزت سينسكي رأسها قائلة: "حسناً بروفيسور. في هذه الحالة، ماذا تقترح؟".
أشار إلى فنجان قهوتها الفارغ. "أقترح أن تطلبي لي فنجاناً من القهوة... وتصغي إلى شرط سيينّا الوحيد".
تسارع نبض سينسكي، ونظرت إلى الهاتف. "هل تعرف كيفيّة الاتصال بها؟".
"أجل".
"أخبرني، ماذا تطلب؟".
أخبرها لانغدون، فصمتت وفكّرت في العرض.
قال لانغدون: "أظنّ أنّ هذا هو الشيء المناسب وفي النهاية، ما الذي ستخسرينه؟".
أعطته سينسكي الهاتف. "إن كان ما تقوله صحيحاً، فأنا أعطيك وعداً بذلك. اتّصل بها رجاء".

فوجئت سينسكي عندما تجاهل لانغدون الهاتف. وعوضاً عن الاتصال، نهض وخرج من المكتب قائلاً إنّه سيعود للتوّ. لحقت به سينسكي باستغراب، ورأته وهو يتوجه إلى قاعة الانتظار، ويفتح باباً زجاجياً، ثمّ يتوجّه نحو المصعد. للحظة ظنّت أنّه راحل، لكنّه عوضاً عن طلب المصعد، ذهب إلى حمّام السيّدات.

بعد بضع لحظات، عاد مع امرأة بدت في أوائل عقدها الثالث. احتاجت سينسكي إلى لحظات طويلة لتقبّل أنّ المرأة هذه هي فعلاً سيينّا بروكس. فالمرأة الجميلة ذات الشعر الأشقر التي رأتها خلال النهار تبدّلت تماماً. إذ أصبحت صلعاء.

عندما دخلا مكتبها، جلسا أمامها بصمت.

قالت سيينّا بسرعة: "سامحيني، أعرف أنّ لدينا الكثير لنتناقش حوله، لكنّني أرجو أن تسمحي لي أوّلاً بقول شيء هامّ".

لاحظت سينسكي الحزن في صوتها. "بالطبع".

تابعت بصوت ضعيف: "سيّدتي، أنت مديرة منظّمة الصحّة العالمية، وتعرفين أكثر من أيّ شخص آخر أنّنا جنس على شفير الانهيار... وذلك لأنّ نموّنا خرج عن السيطرة. حاول زوبريست لسنوات عديدة مناقشة هذا الواقع مع أشخاص نافذين بمن فيهم حضرتك. قام بزيارة منظّمات عديدة اعتقد أنّها قادرة على إحداث تغيير، مثل معهد ورلدواتش، ونادي روما، ومجلس العلاقات الخارجية... لكنّه لم يجد قطّ شخصاً تجرّأ على مناقشة حلّ *فعلي*. جميعكم رددتم بخطط لتثقيف الناس عن وسائل منع الحمل، والحوافز الضريبية للأسر الأصغر حجماً، وحتّى بالحديث عن استعمار القمر! لذلك لا عجب أن يفقد بيرتراند صوابه".

حدّقت إليها سينسكي من دون أن يبدو عليها أيّ رد فعل.

أخذت سيينا نفساً عميقاً: "د. سينسكي، لقد أتى بيرتراند إليك شخصياً، وتوسّل إليك للإقرار أنّنا أمام أزمة داهمة... ورجاك للتحاور معه. لكنك عوضاً عن الإصغاء إلى أفكاره، اعتبرته مجنوناً، وأدرجت اسمه على لائحة المراقبة، ونفيته تحت الأرض". سيطر الانفعال على صوت سيينّا. "مات بيرتراند وحيداً، لأنّ أشخاصاً مثلك رفضوا فتح أذهانهم بما فيه الكفاية للإقرار أنّ الظروف الكارثية التي نعيشها تستلزم في الواقع حلاً غير مريح. كلّ ما فعله زوبريست هو قول الحقيقة... لذلك أصبح منبوذاً". مسحت سيينّا دموعها، ونظرت إلى سينسكي. "صدّقيني، أنا أعرف معنى الوحدة... فأسوأ أشكال الوحدة هو العزلة التي تنجم عن سوء الفهم. بإمكان هذا الشعور أن يجعل الناس يفقدون إحساسهم بالواقع".

خيّم الصمت.

همست: "هذا كلّ ما أردت قوله".

تأملتها سينسكي مطوّلاً، ثمّ جلست وقالت بهدوء: "آنسة بروكس، أنت محقّة. ربما لم أصغِ من قبل..." ووضعت ذراعيها على المكتب ونظرت مباشرة إلى سيينّا. "لكنني سأصغي إليك الآن".

الفصل 102

دقّت الساعة الواحدة صباحاً في بهو القنصلية السويسرية منذ مدّة طويلة.

امتلأ دفتر الملاحظات الصغير على مكتب سينسكي بالنصوص، والأسئلة، والرسوم البيانية المكتوبة بخطّ اليد. لم تصدر عن مديرة منظّمة الصحة العالمية أيّ كلمة أو حركة لأكثر من خمس دقائق، بل وقفت أمام النافذة وحدقت إلى سماء الليل.

خلفها، جلس لانغدون وسيينا ينتظران وهما يرتشفان قهوتهما التركية التي ملأت رائحتها الغرفة.

كان الصوت الوحيد المسموع صادراً عن أزيز المصابيح في السقف.

شعرت سيينّا بقلبها ينبض وهي تتساءل عمّا تفكر فيه سينسكي بعدما سمعت الحقيقة الفجّة كاملة. *فيروس بيرتراند هو وباء عقم. سيصاب ثلث سكان العالم بالعقم.*

خلال الحديث، راقبت سيينّا انفعالات سينسكي المتتالية التي كانت ملموسة على الرغم من تحفّظها. بدت عليها أوّلاً الصدمة عندما تقبّلت أنّ زوبريست قد صنع بالفعل فيروساً ناقلاً ينتقل عبر الهواء. ثمّ ظهر أمل عابر عندما أخبرتها أنّه لا يهدف إلى قتل الناس. بعد ذلك... خيّم الرعب ببطء على ملامحها عندما اتّضحت لها الحقيقة، وأدركت أنّ أعداداً هائلة من سكان الأرض سيصابون بالعقم. من الواضح أنّ ما كشفته لها عن الفيروس الذي يهاجم خصوبة البشر أثّر فيها على صعيد شخصي.

بالنسبة إلى سيينّا، شعرت بالارتياح بعد أن باحت بكل شيء عن رسالة بيرتراند. *لم يعد لديّ أسرار.*

قال لانغدون: "إليزابيث؟".

خرجت سينسكي من أفكارها ببطء. التفتت إليهما قائلةً: "سيينّا، ستساعدنا معلوماتك على وضع خطّة للتعامل مع هذه الأزمة. أنا أقدّر صراحتك. فكما تعلمين، تمّت مناقشة الفيروسات الوبائية الناقلة على صعيد نظري؛ كطريقة لتلقيح شرائح كبيرة من السكان، لكن الجميع يعتقدون أنّ هذه التكنولوجيا تحتاج إلى سنوات عديدة لتتطوّر".

عادت سينسكي إلى مكتبها وجلست.

هزّت رأسها وتابعت: "اعذريني، لكن كلّ هذا يبدو لي حالياً وكأنّه خيال علمي".

فكّرت سيينّا: *هذا غير مستغرب. فكلّ قفزة نوعية في الطبّ بدت على هذا النحو؛ البينيسيلين، والتخدير، والأشعّة السينية، والمرّة الأولى التي نظر فيها البشر عبر المجهر ورأوا خلية تنقسم.*

حدّقت سينسكي إلى ملاحظاتها، ثمّ أضافت: "عندما أصل إلى جنيف بعد ساعات، سأواجه عاصفة من الأسئلة. وسيكون السؤال الأوّل من دون شكّ هو ما إذا كانت ثمّة طريقة لإبطال الفيروس".

وجدت سيينّا أنّها محقة.

تابعت سينسكي: "أعتقد أن الحلّ الأوّل يتمثّل في تحليل الفيروس وفهمه جيداً، ومن ثمّ محاولة هندسة سلالة أخرى منه؛ سلالة نعيد برمجتها لإعادة حمضنا النووي إلى ما كان عليه سابقاً". لم يبد على سينسكي التفاؤل وهي تنظر إلى سيينّا. "لا أعرف بعد ما إذا كان من الممكن صنع فيروس مضادّ. لكن، من الناحية النظرية، أحبّ أن أعرف رأيك في ذلك".

رأيي؟ نظرت سيينّا إلى لانغدون تلقائياً، فهزّ البروفيسور رأسه باعثاً إليها برسالة واضحة جدّاً: *بما أنّك وصلت إلى هذه النقطة، عبّري عن رأيك، وقولي الحقيقة كما ترينها.*

التفتت سيينّا إلى سينسكي وتحدثت بصوت واضح وقوي. "سيّدتي، لقد عشت في عالم الهندسة الجينية مع بيرتراند لسنوات عديدة. كما تعلمين، الجينوم البشري بنية حسّاسة للغاية... مثل بيت من بطاقات الورق. كلّما أدخلنا عليه تعديلات تضاعفت احتمالات تعديل البطاقة الخاطئة والتسبّب بانهيار البنية بأكملها. باعتقادي، إنّ محاولة إبطال ما فعله زوبريست تنطوي على خطر كبير. لقد كان برتراند يتمتّع بموهبة ورؤية استثنائية، كما كان متقدّماً على زملائه بسنوات. وحالياً، لست واثقة أنّه ثمّة من يمكن أن نثق به إلى حدّ تركه يعبث بالجينوم البشري على أمل إصلاحه. وحتّى لو صنعتم شيئاً وظننتم أنّه قد ينجح، فإنّ تجربته تشتمل على خطر نقل عدوى جديدة إلى السكان".

فوجئت سينسكي إلى حدّ ما بما سمعته، وقالت: "هذا صحيح تماماً، لكن ثمّة مسألة أهمّ. ربما كنّا لا نرغب في إبطاله".

كلامها صدم سيينّا. "المعذرة!؟".

"آنسة بروكس، ربّما كنت أختلف مع بيرتراند في وسائله، لكنّ تقييمه للحالة التي وصل إليها العالم دقيق، فكوكبنا يواجه أزمة سكانية خطيرة. وإبطال ما فعله يعيدنا إلى نقطة البداية من دون خطّة بديلة...".

لا بدّ أنّ صدمة سيينّا كانت واضحة، لأنّ سينسكي ضحكت بتعب وأضافت: "هذا ليس ما توقّعت سماعه منّي، أليس كذلك؟".

هزّت سيينّا رأسها نافية. "أظنّ أنّني لم أعد واثقة ممّا يجب عليّ أن أتوقّعه".

"إذاً، ربّما سأفاجئك مجدّداً. فكما سبق وذكرت، سيجتمع قادة الوكالات الصحية من مختلف أنحاء العالم في جنيف خلال ساعات لمناقشة هذه الأزمة، وإعداد خطّة عمل. لم يسبق أن نظّم اجتماع بهذه الأهمّية خلال سنوات عملي في المنظّمة". ونظرت إلى الطبيبة الشابّة مضيفة: "سيينّا، أودّ أن تكوني حاضرة في ذلك الاجتماع".

فوجئت سيينّا: "ماذا؟ أنا لست مهندسة جينية، وسبق لي أن أخبرتك بكلّ ما أعرفه". وأشارت إلى دفتر ملاحظاتها. "كلّ ما لديّ موجود هنا في ملاحظاتك".

تدخّل لانغدون قائلاً: "هذا غير صحيح. سيينّا، أيّ جدال مجدٍ حول هذا الفيروس يحتاج إلى سياق. يجب على د. سينسكي وفريقها وضع إطار أخلاقي لتقييم تدابيرهم تجاه هذه الأزمة. ومن الواضح أنّها تعتقد أنّ لديك موقفاً فريداً تضيفينه إلى ذلك الحوار".

"لا أظنّ أنّ الإطار الأخلاقي الذي سأقدّمه سيعجب منظّمة الصحّة العالمية".

أجابها: "كلاّ على الأرجح، وهذا سبب إضافي لذهابك. أنت واحدة من مجموعة جديدة من المفكّرين، ولديك رأي مخالف. لذلك يمكنك مساعدتهم على فهم عقلية أشخاص من أمثال بيرتراند، عقلية علماء لامعين لديهم قناعات قوية، ويقومون بالمبادرة بأنفسهم".

"لم يكن بيرتراند الأوّل".

قالت سينسكي: "كلاّ، ولن يكون الأخير. كلّ شهر، تكشف منظّمة الصحّة العالمية النقاب عن مختبرات يعمل فيها العلماء في مناطق رمادية من العلم؛ بدءاً من التلاعب بالخلايا الجذعية البشرية، إلى إنتاج مخلوقات وهمية... أجناس هجينة غير موجودة في الطبيعة. هذه الأمور مخيفة، فالعلم يتقدم بسرعة متجاوزاً كلّ الخطوط الحمراء".

وافقتها سيينّا. فمؤخراً، قام عالمان فيروسيان محترمان هما فوشيه وكواوكا، باختراع فيروس H5N1 متحوّل. على الرغم من أنّ نية الباحثَين كانت أكاديمية بحتة، إلاّ أنّ اختراعهما الجديد يمتاز بقدرات أثارت قلق أخصّائيي الأمن البيولوجي، وولّدت جدالاً حامياً على الإنترنت.

قالت سينسكي: "أخشى أن يزداد الوضع سوءاً مع مرور الزمن، فنحن نبتكر تكنولوجيات جديدة لا يمكن تخيّلها".

أضافت سيينّا: "وفلسفات جديدة أيضاً. فالحركة ما وراء الإنسانية على وشك الخروج من الظلّ إلى العلن. ومن مبادئها الأساسيّة أنّ البشر لديهم واجب أخلاقي يفرض عليهم المشاركة في العمليّة التطوّرية... واستخدام التكنولوجيات الجديدة من أجل تقدّم الجنس البشري، وولادة كائنات بشرية أفضل وأكثر صحّة وقوة وذكاء. قريباً، سيصبح كلّ شيء ممكناً".

"ألا تظنّين أنّ هذه المعتقدات تتعارض مع عمليّة التطور".

أجابتها سيينّا من دون تردد: "كلاّ. لقد تطوّر البشر تدريجياً خلال العصور، واكتشفوا تكنولوجيات جديدة، فبدأوا بحفّ أعواد الخشب على بعضها لإشعال النار، ثمّ طوروا الزراعة لتأمين الغذاء، واخترعوا لقاحات لمكافحة الأمراض، وها هم الآن يصنعون أدوات جينية للمساعدة على هندسة أجسادنا، لكي نتمكّن من البقاء في عالم متغيّر. أعتقد أنّ الهندسة الجينية ليست سوى خطوة أخرى في طريق التطوّر البشري الطويل".

صمتت سينسكي وهي تفكّر في كلامها. "إذاً برأيك، علينا استقبال هذه الأدوات بأذرع مفتوحة؟".

"إن لم نفعل، فإنّنا لا نستحق الحياة؛ تماماً مثل إنسان الكهف الذي يتجمد من البرد خوفاً من إشعال النار".

تردّد صدى هذه العبارة في الغرفة لمدّة طويلة قبل أن يتمكّن أحد من الكلام.

كان لانغدون هو من كسر جدار الصمت. "لا أقصد أن أبدو قديم الطراز، لكنّني نشأت على نظريات داروين، ولا يمكنني سوى أن أتساءل عن الحكمة في محاولة تسريع عمليّة التطوّر الطبيعية".

قالت سيينّا: "روبرت، الهندسة الجينية ليست تسريعاً للعملية التطوّرية، بل إنّها تشكّل المسار الطبيعي للأحداث! ما تنساه هو أنّ التطوّر هو الذي صنع بيرتراند زوبريست. فتفوّقه الفكري ليس سوى نتاج العمليّة التي وصفها داروين... التطوّر عبر الزمن. واكتشافات بيرتراند النادرة في مجال علم الوراثة لم تهبط عليه فجأة... بل نتجت عن سنوات من التقدّم الفكري البشري".

غرق لانغدون في الصمت، وهو يفكّر على ما يبدو.

تابعت: "بصفتك مطّلعاً على نظرية داروين، أنت تعرف أنّ الطبيعة وجدت دوماً طريقة لخفض أعداد سكان العالم؛ كالأوبئة والمجاعات والفيضانات. لكن، دعني أطرح عليك هذا السؤال: أليس من الممكن أن تكون الطبيعة قد وجدت أسلوباً مختلفاً هذه المرّة؟ فعوضاً عن إرسال كوارث فظيعة وأشكال مختلفة من البؤس... ربّما صنعت الطبيعة - من خلال عمليّة التطوّر - عالِماً اخترع طريقة مختلفة لخفض أعدادنا مع مرور الوقت؛ من دون أوبئة، ومن دون موت، بل مجرّد جنس بشري أكثر تناغماً مع بيئته-".

قاطعتها سينسكي: "سيينّا، لقد تأخّرنا. علينا الذهاب. لكن، أولاً أريد منك إيضاح أمر أخير. قلت عدّة مرات هذه الليلة إنّ زوبريست لم يكن شرّيراً... وإنّه يحبّ الجنس البشري، وكلّ ما في الأمر أنّه يتوق إلى إنقاذنا من الهلاك، إلى حدّ أنّه أباح لنفسه اتّخاذ مثل هذه التدابير الجذرية".

هزّت سيينّا رأسها، وردّدت جملة المنظّر السياسي الفلورنسي الشهير ماكيافيلّي: "الغاية تبرّر الوسيلة".

"أخبريني إذاً، هل تعتقدين حقّاً أنّ الغاية تبرّر الوسيلة؟ هل تظنّين أنّ هدف بيرتراند كان سامياً ويبرّر إطلاقه هذا الفيروس؟".

خيّم صمت متوتّر على الغرفة.

انحنت سيينّا على المكتب، وأجابت بنبرة جادة: "د. سينسكي، كما سبق وقلت لك، أعتقد أنّ أفعال بيرتراند كانت متهوّرة وخطرة للغاية. ولو تمكّنت، لأوقفته على الفور. يجب أن تصدّقيني".

مدّت سينسكي يديها، وأمسكت بيدي سيينّا بلطف. "أنا أصدّقك سيينّا. أنا أصدّق كلّ كلمة قلتها".

الفصل 103

في مطار أتاتورك، كان الهواء قارساً قبيل الفجر. خيّم ضباب خفيف فوق المكان، ولفّ المدرج حول المهبط الخاصّ.

وصل كلّ من لانغدون وسيينّا وسينسكي بالسيارة، واستقبلهم في الخارج فريق من منظّمة الصحّة العالمية.

قال الرجل الذي استقبل الثلاثة في مبنى متواضع: "نحن جاهزون عندما تأمرين سيدتي".

سألته سينسكي: "وماذا عن الترتيبات الخاصّة بالسيّد لانغدون؟"

"طائرة خاصّة إلى فلورنسا، ووثائق السفر المؤقّتة الخاصّة به أصبحت على متن الطائرة".

هزّت سينسكي رأسها باستحسان. "وماذا عن المسألة الأخرى التي ناقشناها؟".

"إنّها قيد التنفيذ. سيتمّ شحن الطرد بأسرع وقت ممكن".

شكرت سينسكي الرجل الذي خرج وتوجّه عبر المدرج إلى الطائرة، ثمّ التفتت إلى لانغدون قائلة: "هل أنت واثق أنّك لا ترغب في الانضمام إلينا؟". ابتسمت بتعب وأرجعت شعرها الفضّي الطويل إلى الخلف.

أجابها مازحاً: "نظراً إلى الوضع، لست واثقاً ممّا يمكن أن يقدّمه أستاذ في الفنون".

قالت سينسكي: "لقد قدّمت الكثير، أكثر ممّا تظنّ. ليس أقلّه..." وأشارت إلى سيينّا، لكنّ الشابّة لم تعد معهما، بل كانت تقف على بعد عشرين ياردة أمام نافذة كبيرة، وتحدّق إلى طائرة C-130 المنتظرة في الخارج، وقد غرقت في أفكارها.

قال لانغدون بصوت خافت: "أشكرك على الوثوق بها. فأنا أشعر أنّها افتقدت إلى ذلك في حياتها".

"أعتقد أنّنا سنتعلّم أنا وسيينّا بروكس الكثير من بعضنا". ثمّ مدّت يدها مودّعة: "بالتوفيق، بروفيسور".

صافحها لانغدون. "شكراً، أتمنّى لكما حظّاً موفّقاً في جنيف".

"سنحتاج إلى ذلك"، ثمّ أشارت إلى سيينّا: "سأعطيكما بضع دقائق بمفردكما. أرسلها عندما تصبح جاهزاً".

فيما كانت سينسكي متجهة إلى المدرج، مدّت يدها بشرود إلى جيبها وأخرجت نصفي التميمة المكسورة، ثمّ ضغطت عليهما.

ناداها لانغدون من خلفها: "لا تتخلّي عن صولجان أسكليبيوس ذاك، يمكن إصلاحه".

أجابته ملوّحة بيدها: "شكراً، آمل أن يكون إصلاح كلّ شيء ممكناً".

وقفت سيينا بمفردها أمام النافذة، محدقة إلى أضواء المدرج الذي بدا معتماً في الضباب تحت السحب المتراكمة. فوق برج مراقبة بعيد، رفرف العلم التركي بفخر، بلونه الأحمر الذي يحمل رمزي الهلال والنجمة. أثران من آثار الإمبراطورية العثمانية ما زالا موجودين بفخر في العالم المعاصر.

قال صوت عميق من خلفها: "أعطي ليرة تركية لمعرفة أفكارك".

لم تلتفت سيينّا. "ثمّة عاصفة قادمة".

أجابها لانغدون بصوت خافت: "أعرف".

بعد لحظات، التفتت سيينّا نحوه. "كما أنّني أتمنّى لو ترافقنا إلى جنيف".

أجابها: "هذا لطف منك، لكنّك ستكونين مشغولة بالحديث عن المستقبل، وآخر ما تحتاجين إليه هو أستاذ جامعة قديم الطراز".

نظرت إليه باستغراب. "أنت تعتقد أنّك كبير في السنّ بالنسبة إليّ، أليس كذلك؟"

انفجر ضاحكاً. "سيينّا، أنا حتماً كبير بالنسبة إليك!".

شعرت بالإحراج وهي تقف أمامه. "حسناً، على الأقلّ أنت تعرف أين تجدني". رفعت كتفيها مضيفة: "أعني... إن رغبت في رؤيتي مجدّداً".

ابتسم قائلاً: "سيسرّني ذلك".

أحسّت أنّ معنوياتها قد ارتفعت بعض الشيء، لكنّ الصّمت خيّم عليهما مطوّلاً، ولم يعرف أيّ منهما كيف يودّع الآخر.

فجأة، شعرت سيينّا وهي تحدّق إلى البروفيسور الأميركي بعاطفة قويّة ومفاجئة. فوقفت على رؤوس أصابعها، وعانقته. وعندما ابتعدت، كانت عيناها مبلّلتين بالدموع. همست: "سأفتقدك إليك".

ابتسم لانغدون وأحاطها بذراعيه: "وأنا أيضاً".

بقيا على هذه الحال للحظات لم يرغبا في أن تنتهي. أخيراً، قال لانغدون: "ثمّة مثل قديم... غالباً ما ينسب إلى دانتي نفسه..." وصمت هنيهة ثمّ قال: "تذكّر الليلة... لأنّها بداية الخلود".

قالت وقد بدأت دموعها تسيل على وجهها: "شكراً لك روبرت. أخيراً، أصبحت أشعر أنّ لديّ هدفاً".

ضمّها لانغدون إليه بقوّة أكبر. "قلت دائماً إنك ترغبين في إنقاذ العالم سيينّا. قد تكون هذه فرصتك".

ابتسمت واستدارت مبتعدة. مشت بمفردها نحو الطائرة، وفكّرت في كلّ ما جرى... وفي كلّ ما قد يجري في المستقبل.

كرّرت بينها وبين نفسها: *تذكّري الليلة... لأنّها بداية الخلود.*

صعدت سيينّا إلى الطائرة، وتمنّت أن يكون دانتي محقّاً.

الفصل 104

انخفضت شمس بعد الظهيرة فوق بياتزا ديل دوومو، وأضاءت برج دجوتّو الأبيض، ملقية ظلالاً طويلة على كاتدرائية سانتا ماريا ديل فيوري الرائعة في فلورنسا.

كانت جنازة إغناتسيو بوزوني قد بدأت للتوّ عندما دخل لانغدون الكاتدرائية وجلس على أحد المقاعد. شعر بالسرور لأنّ جنازة بوزوني تقام في هذا المكان الذي يتجاوز الزمن، والذي اهتمّ به إغناتسيو لسنوات عديدة.

على الرغم من واجهة الكاتدرائية التي تنبض بالحياة، كان داخلها صارماً وخالياً وكئيباً. مع ذلك، بدت الكاتدرائية اليوم كما لو كانت في احتفال. من جميع أنحاء إيطاليا، توافد المسؤولون الحكوميون، والأصدقاء، والزملاء من عالم الفنّ إلى الكاتدرائية لتذكّر ذلك الرجل المرح الذي أطلقوا عليه بحبّ لقب *إيل دوومينو*.

أفادت وسائل الإعلام أنّ بوزوني قد توفّي وهو يقوم بأكثر شيء، يحبّ القيام به؛ أي التنزّه ليلاً حول الدوومو.

كانت أجواء الجنازة استثنائية، إذ تخلّلتها تعليقات مرحة من الأصدقاء وأفراد الأسرة. فأشار أحد الزملاء إلى أنّ حبّ بوزوني لفنّ عصر النهضة لا يجاريه – باعترافه الخاصّ – سوى حبّه للسباغيتي بولونييزي *وبودينو* الكاراميل.

بعد انتهاء المراسم، اختلط المعزّون وراحوا يروون أحداثاً من حياة إغناتسيو، في حين تجوّل لانغدون داخل الدوومو، وهو يتأمّل التحف الفنية التي أحبّها إغناتسيو كثيراً... لوحة فاساري الممتدّة تحت القبّة، ونوافذ دوناتيلّو وغيبيرتي الملوّنة، وساعة أوتشيلّو، والفسيفساء التي تزيّن الأرض والتي غالباً ما يغفلها الزائرون.

بعد قليل، وجد نفسه أمام وجه مألوف، وجه دانتي أليغييري. ظهر الشاعر العظيم في الجدارية الأسطورية لميكيلينو، واقفاً أمام جبل المطهر، حاملاً بين يديه تحفته *الكوميديا الإلهية*.

تساءل لانغدون رغماً عنه عمّا كان من الممكن أن يفكّر فيه دانتي لو علم بتأثير قصيدته الملحمية في العالم بعد قرون من الزمن، في مستقبل ما كان الشاعر الفلورنسي نفسه من الممكن أن يتخيّله.

تذكّر آراء الفلاسفة الإغريق الأوائل في الشهرة. *لقد وجد الحياة الدائمة. فما دام اسمك يُذكر، فلن تموت أبداً.*

عاد في بداية المساء إلى فندق برونيلّيسكي الفخم عبر ساحة سانت إليزابيتّا. وعندما وصل إلى غرفته، سُرّ لوصول الطرد الكبير الذي كان بانتظاره.

وصل الطرد الذي طلبته من سينسكي.

أسرع لانغدون يقصّ الشريط اللاصق ويخرج محتويات الصندوق الثمينة التي اطمأنّ لدى رؤيته إيّاها مغلّفة بعناية وبطريقة آمنة.

غير أنّ لانغدون فوجئ باحتواء الصندوق على أشياء إضافية. إذ يبدو أنّ إليزابيث سينسكي قد استخدمت نفوذها لاستعادة عدد أكبر من الأغراض التي طلبها. كان الصندوق يحتوي على ملابسه الخاصّة؛ أي قميصه، والسروال الكاكي، وسترة هاريس تويد، كلّها نظيفة ومكوية بعناية. حتّى إنّ حذاءه كان هناك، نظيفاً وملمّعاً. وجد أيضاً محفظته في الصندوق.

غير أنّ غرضاً أخيراً فاجأ لانغدون ودفعه إلى الضحك. كان ردّ فعله ناتجاً عن الراحة التي غمرته لاستعادته... لا سيّما وأنّه يعني له الكثير.

ساعة ميكي ماوس.

وضع لانغدون الساعة على معصمه فوراً. إحساسه بالحزام الجلدي البالي على بشرته أشعره بالأمان على نحو غريب. وبعد أن ارتدى ملابسه، وانتعل حذاءه شعر أنّه استعاد مظهره الحقيقي.

خرج لانغدون من الفندق، وحمل الرزمة الحسّاسة في كيس من أكياس الفندق، بعدما اقترضه من عامل الاستقبال. كان المساء دافئاً على نحو غير اعتيادي، حيث ضاعف من الطابع الخيالي لنزهته في شارع فيا داي كالتسايولي، نحو برج قصر فيكيو الوحيد.

عندما وصل، تحقّق لدى مكتب الأمن من ورود اسمه على لائحة الأشخاص الذين يفترض بهم مقابلة مارتا ألفاريز. توجّه إلى قاعة الخمسمائة التي كانت لا تزال تعجّ بالسياح. وصل في الوقت المحدّد، وتوقّع رؤية مارتا عند المدخل، لكنّها لم تكن هناك.

سأل أحد الموظفين بالإيطالية.

"المعذرة، أين أجد مارتا ألفاريز؟".

ابتسم الموظف ابتسامة عريضة. "*سينيورا ألفاريز؟!* ليست هنا! أنجبت طفلة! كاتالينا! إنها جميلة جدّاً!".

فرح لانغدون بالخبر السعيد. "آه... كم هذا جميل! *ستوبيندو!*".

ابتعد الموظف، فتساءل لانغدون عمّا يفترض به فعله بما يحمله.

سرعان ما اتّخذ قراره، فاجتاز القاعة المزدحمة، ومرّ تحت جدارية فاساري متّجهاً إلى متحف القصر، ومحاولاً البقاء بعيداً عن أعين الحراس.

أخيراً، وصل إلى خارج حجرة *أنديتو* الضيقة. كان الممرّ مظلماً ومغلقاً بحاجز، مع لافتة كتب عليها: *كيوزو/مغلق.*

نظر لانغدون حوله بعناية، ثمّ تسلّل عبر الحاجز إلى المكان المظلم. مدّ يده داخل الكيس، وأخرج الرزمة، ثمّ نزع عنها الغلاف الواقي. كان القناع الجصّي لا يزال في الكيس

الأصلي الذي أُخذ فيه، بعدما تمّت استعادته - بطلب من لانغدون - من خزائن محطّة القطار في البندقية. بدا القناع بحالة ممتازة، باستثناء شيء واحد؛ قصيدة أضيفت إلى باطنه بشكل لولبي أنيق.

نظر لانغدون إلى خزانة العرض القديمة. *بما أنّ واجهة قناع دانتي هي المعروضة... فإنّ أحداً لن يلاحظ الفرق.*

أخرج القناع من الكيس، ثمّ علّقه على الوتد المخصّص له بحذر شديد. سقط القناع في مكانه، في إطاره المخملي الأحمر المألوف.

أغلق لانغدون الخزانة، ووقف للحظة متأمّلاً وجه دانتي الشاحب الذي بدا أقرب إلى شبح في الغرفة المظلمة. *ها قد عدتَ أخيراً.*

وقبل أن يغادر الغرفة، نزع لانغدون الحاجز واللافتة عن الباب. عندما وصل إلى القاعة، توقّف للتحدّث مع موظّفة شابّة.

قال لها: "*سينيورينا*، عليكم إضاءة المصابيح فوق قناع دانتي، فمن الصعب جدّاً رؤيته في الظلام".

قالت الشابّة: "آسفة، لكنّ الغرفة مقفلة. فقناع دانتي لم يعد هناك".

تظاهر لانغدون بالدهشة. "هذا غريب! كنت أتأمّله للتو".

بدا الارتباك على وجه الموظّفة التي اندفعت إلى الأعلى، في حين تسلّل لانغدون من المتحف بهدوء.

خاتمة

على ارتفاع أربعة وثلاثين ألف قدم فوق خليج بيسكاي المظلم، انطلقت طائرة أليتاليا المتجهة إلى بوسطن غرباً تحت ضوء القمر.

على متنها، جلس روبرت لانغدون حاملاً بين يديه نسخة ورقية عن *الكوميديا الإلهية*. كان إيقاع القصيدة المقترن بهدير محرّكات الطائرة قد أدخله في حالة أشبه بالتنويم المغناطيسي. شعر أنّ كلمات دانتي تتدفّق من الصفحة، وتتردّد في قلبه كما لو أنّها قد كتبت له خصّيصاً في هذه اللحظة.

تذكّر أنّ قصيدة دانتي ليست عن بؤس الجحيم، بل عن قوّة الروح البشرية وقدرتها على مواجهة التحديات، مهما بلغت صعوبتها.

في الخارج، ارتفع البدر ساطعاً في السماء، ومنافساً بجماله كلّ الأجسام السماوية الأخرى. حدّق لانغدون إلى الفضاء، تائهاً في أفكاره حول كلّ ما جرى في الأيّام القليلة الماضية.

أحلك الأماكن في الجحيم هي لأولئك الذين يحافظون على حيادهم في الأزمات الأخلاقية. لم يتّضح له معنى هذه الجملة إلى هذا الحدّ قبل الآن: *عند الشدائد، التراخي هو الخطيئة الكبرى.*

عرف لانغدون أنّه ارتكب هذه الخطيئة هو نفسه؛ شأنه شأن ملايين الناس. فحين يتعلّق الأمر بظروف هذا العالم، أصبح الإنكار وباء مستفحلاً. وقد تعهّد لانغدون لنفسه بعدم نسيان ذلك أبداً.

مع تقدّم الطائرة غرباً، فكّر لانغدون في المرأتين الشجاعتين الموجودتين الآن في جنيف، لتواجها المستقبل ببسالة، وتعالجا تعقيدات هذا العالم المتغيّر.

خارج النافذة، ظهرت السحب في الأفق، متقدّمة ببطء في السماء، إلى أن مرّت أمام القمر وحجبت ضوءه الجميل.

استرخى لانغدون على مقعده، وشعر أنّ الوقت قد حان للنوم.

أطفأ المصباح فوق رأسه، ونظر إلى الفضاء للمرة الأخيرة. في الخارج، أسدل ليل جديد ستاره على عالم مختلف، وأصبحت السماء بساطاً مزداناً بالنجوم.

عن الكاتب

دان براون هو مؤلّف *شيفرة دافينشي*؛ إحدى الروايات الأكثر انتشاراً في العالم، فضلاً عن الكتب الأكثر مبيعاً؛ *الرمز المفقود، ملائكة وشياطين، حقيقة الخديعة، الحصن الرقمي*. يعيش في نيو إنغلند مع زوجته.

بعد رواية **شيفرة دافينشي**، أصبح **دان براون** مؤلّفاً عالمياً للروايات الأكثر مبيعاً. فهو يدمج بشكل رائع الشيفرات، والرموز، والفنّ، والتاريخ في روايات مثيرة تأسر مئات ملايين الأشخاص حول العالم. في هذه الرواية الجديدة، **الجحيم**، يصطحب دان براون قرّاءه إلى قلب إيطاليا... ويقودهم عبر مشاهد مستوحاة من ملحمة دانتي، أو الكوميديا الإلهية، وهي واحدة من أهم الأعمال الأدبية الكلاسيكية وأكثرها ترويعاً في التاريخ.

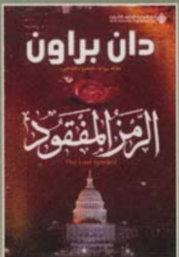
يفتح روبرت لانغدون، بروفيسور علم الرموز في جامعة هارفرد، عينيه في منتصف الليل متألماً من جرح في الرأس، ليكتشف أنه راقد في المستشفى لا يستطيع أن يتذكّر ما حدث معه خلال الساعات الست والثلاثين الأخيرة أو مصدر ذلك الشيء الرهيب الذي اكتشفه الأطباء بين أمتعته.

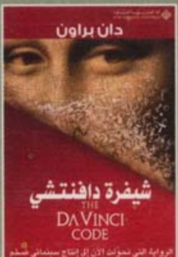
إثر هذا تدبّ الفوضى في عالم لانغدون ويضطر للهروب في مدينة فلورنسا برفقة شابة لطيفة تدعى سيينّا بروكس، التي تمكنت من إنقاذ حياته بفعل تصرفاتها الذكية، ليتبيّن له أن بحوزته مجموعة من الرموز الخطرة التي ابتدعها عالم فذّ.

تتسارع الأحداث عبر مواقع أثرية شهيرة، مثل قصر فيكيو، ويكتشف لانغدون وبروكس شبكة من السراديب القديمة، فضلاً عن نموذج علمي جديد ومخيف، من شأنه أن يُستخدم إمّا لتحسين نوعية الحياة على الأرض... أو تدميرها.

على هذه الخلفية، يصارع لانغدون خصماً رهيباً بينما يتشبث بلغز يأخذه إلى عالم الفنون الكلاسيكية والممرات السرية والعلوم المستقبلية، محاولاً اكتشاف الأجوبة ومعرفة مَن هو الجدير بثقته... قبل الانهيار الكبير.

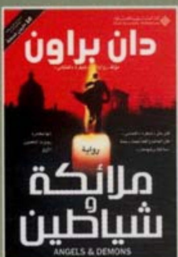
صدر للمؤلف أيضاً:











الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

نيل وفرات.كوم
جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com

ISBN 978-614-01-0899-8
9 786140 108998

تصميم الغلاف: سامح خلف